



كتاب وقائع

المؤتمر العلمي الدولي الافتراضي الأول

القضايا التربوية والإنسانية بين متغيرات الواقع وآفاق المستقبل

8-9 إبريل 2021م

برعاية

مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضرية والاستراتيجية - فرنسا

وبالتعاون مع

كلية التربية الأساسية - جامعة واسط - العراق



مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضرية والاستراتيجية

محور قضايا لغوية وأدبية
محور قضايا تاريخية
وجغرافية

الجزء الثالث

كتاب وقائع

المؤتمر العلمي الدولي الافتراضي الأول

القضايا التربوية والإنسانية بين متغيرات الواقع وآفاق
المستقبل

8-9-04-2021

برعايته

مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية والاستراتيجية- فرنسا

وللمعاون مع

كلية التربية الأساسية – جامعة واسط – العراق

الكتاب العلمي المحكم

القضايا التربوية والإنسانية بين متغيرات الواقع وآفاق المستقبل

978-2-9575217-0-8ISBN

الناشر:

Centre Al-isbaah
pour l'éducation et les études civilisationnelles et stratégiques
RÉS HAUTS DE L'HIPPODROME
RUE DES TREYTINS
33320 EYSINES
FRANCE
al-isbaahcenter@gmail.com
<https://www.al-isbaahcenter.com/>
fixe: 0951700220
Télé: 0033-611094381

الوكيل في مصر

دار الفجر للنشر والتوزيع
4 شارع هاشم الأشقر - النزهة الجديدة - القاهرة
تلفون: 26246252 فاكس: 26246265
www.daralfajar.com info@daralfajar.com

رئاسة المؤتمر

أ.د علي عز الدين الخطيب
عميد كلية التربية الأساسية - جامعة واسط رئيس مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية
والإستراتيجية
العراق
د. جمال محمد الهاشمي
فرنسا

المدير التنفيذي

د. عمر زهير
مدير اللجنة العلمية وإدارة التحكيم
أ.م.د نبيلة خورشيد المعاضيدي
مدير وقائع المؤتمر وإدارة التسيير
د. الحسن بنيعيش
إدارة العلاقات العامة والتنسيق وتنظيم وقائع المؤتمر
أ. سامية الأغبري
أ. يوسف قيبارو
إدارة القناة والتقنيات الفنية والتصميم
أ. يوسف قيبارو
أ. سامية الأغبري
أ. رغد المدلل
أ. منذر أحمد عبد الله عمر

التصحيحات والمراجعة اللغوية

- د. الحسن بنيعيش
د. سيدي الحسن ازروال
د. مليكة ناعيم
د. حمادي الموقت
د. جمال محمد الهاشمي
د. بوجمعة وعلي
د. عبد الرحمن الفقيه
أ. نور الرماحي

اللجنة التحضيرية

أ.د الحسن بنيعيش: مقرا	د. إياد عبد علي الشمري: مقرا
أ.د أحمد العمراني: عضوا	د. حزام جليل عباس: عضوا
أ.د أسعد شريف الأمانة: عضوا	د. حيدر فرحان عبد عضوا
أ.د سعاد الطائي: عضوا	د. رياض سحيب روضان: عضوا
أ.د محمد رفيع: عضوا	د. زينة محمد حمد: عضوا
أ.د مراد عبد الرحمن: عضوا	د. مالك مريم حسون: عضوا
أ.د نسيم بلهول: عضوا	د. سائلة صالح العمامي: عضوا
أ.د. سعاد كلوب: عضوا	د. سهام علي طه: عضوا
أ.د. عبد المنعم بني خالد: عضوا	د. نهلة الشلبي: عضوا

اللجنة العلمية

أ.د.م نبيلة المعاضدية مديرة اللجنة العلمية

أ.د أسعد شريف الأمانة	د. إياد كريم الصلاحي
أ.د أمينة الطيبي	أ.د حبيب راضي طلفاح
أ.د عبد الله أبو الغيث	أ.د سهيلة محسن كاظم
أ.د عدنان الخفاجي	أ.د صلاح عبد الهادي حليحل
أ.د قاسم الحبشي	د. ستار جبار الدراجي
د. عادل عبده علي محمد	د. فالح عبد الله شلاهي
د. مليكة ناعيم	د. ماجد مطر الخطيب
	د. مشتاق طالب منعم

تحرير وإخراج وتنسيق

د. سيدي حسن ازروال

مراجعة وتصحيح

د. محمد الطحناوي

مقدمة التحرير

د. جمال الهاشمي

رئيس مركز الإصباح للتعليم

بقدر ما يشهد العالم تطوراً في مناهجه العلمية التي تتكيف مع خصوصياته وإمكانياته وقيمه وبيئته، نجد العالم العربي على العكس من ذلك تماماً، فما تزال أغلب بحوثه قائمة متأصلة على جمع البيانات والنقولات والتوليفات فيما لم ترتق أغلبها إلى مستوى المعرفة التي من خلالها يمكن تحويلها إلى قيمة عملية.

وعلى الرغم من هذا البون الشاسع بين بلدان تظهر تخلفاً في أدواتها البحثية وتخلفاً تبعياً في قيمها التنموية والحضارية والأخلاقية، فإنه كان من الضروريات الحتمية على مركز الإصباح وغيره من الجامعات التي ترغب في إحداث تغييرات جذرية في أصول ابتناءات المعرفة الحضارية، لا سيما وأن أن الجماعات ومنذ تأسيسها تشهد تراجعاً وانحداراً في سياساتها التعليمية والتنموية، وهو ما وسع الفجوة بين النظم السياسية ومؤسسات التعليم وانهدمت جسور الثقة بسبب الأطروحات الأكاديمية المتغيرة وإخفاقاتها المتواصلة في تأسيس قاعدة التعليم النهضوي.

ومع هذا فإن قيمة البحوث العلمية لا تكون صفرية خصوصاً التي أجيّزت للنشر لأن البيانات الرقمية مقدمة أساسية للحصول على المعرفة، وتتنوع البيانات المستقراة عنها إلى بيانات طردية للمعرفة وأخرى انعكاسية. أما على مستوى قيمة البحث انطلاقاً من المدركات البحثية فنجدها متواضعة قياساً بمدركات مراكز وجماعات العوالم المتقدمة، إذ إن بحوث العالم الإسلامي والعربية مرتبطة بمتطلباتها الوظيفية والمادية أكثر من ارتباطها بالمعرفة العملية وعمليات المعرفة إلا في القليل النادر منها.

ولا شك أن هذا الإخفاق ليس له أية ارتباطات بالعقلية البيولوجية لأن العقول تنمو بالبيئة والمعرفة والخيوط وأصوليات التعليم ولا تولد ممتلئة، وبالنظر إلى البناء فإن العلمية النقدية تتوجه نحو البنيات المؤسسية من الأسرة فالجتمتع والدولة، وتتحمل الدولة ونظمها السياسية والمؤسسية ثم الجتمتع والمؤسسات المجتمعية مسؤولية الانحطاط والانحدار قيم البحث العلمي وقيمه الأخلاقية والتنموية على جميع الأصعدة. وتتحمل المؤسسات التعليمية بصفة خاصة مسؤولية هذه الإخفاقات نظراً لسياساتها العشوائية المنجردة عن مسؤوليتها الحضارية وارتباطاتها بمظاهر الحضارات التقدمية وليس بأصولياتها المنهجية.

إن العقول العربية في مجالات البحث تجاهد من أجل المعرفة وتسعى لتحقيق ذلك لولا المعوقات المؤسسية التي حولت التعليم من قيمة تنموية إلى وظيفة سياسية أو مهن آلية، ومن قيم

حضارية إلى تقاليد حديثة. وإن من أهم متطلبات بناء الحضارة التغيير في سياسات التعليم وربطه بالمجتمع ربطاً تنموياً من خلال البرامج والاستراتيجيات العلمية التي ينبغي أن تكون محل تنافس معرفي في هذه البنية الحضارية وفقاً للمعايير النظرية والمقاييس المادية. ولا شك أن البحوث التي في هذا السفر العلمي المحكم فيه قيمة معلوماتية تعكس طبيعة الظاهرة التعليمية بين الأخذ والرد، والموافقة والمخالفة، والتقليد والمحاولة.

كل هذه المفاهيم تستدعي منا جميعاً الوقوف على هذا الثغر بتواضع وعلم ومعرفة والانتقال من مسؤولية العمل الفردي إلى مسؤولية العمل الجماعي، والإخلاص لقيمنا ومجتمعاتنا ونظمنا التي تقدم الدعم المادي سعياً منها لسد هذه الفجوات المتهالكة، ويهيئ المركز بالمؤسسات التعليمية القدرة على خوض نقد الذات كفضيلة تصحيحية، أن تبدأ بمنهجية النقد الذاتي وإظهار معالم الخلل ومكامن الخطر، إذ إن أول ثمار العلم التواضع والأمانة والمسؤولية، فإن افتقدها الأستاذ والباحث والمسؤول افتقد القدرة على التغيير والتطوير والتجديد، وافتقد القدرة على السكون وحفظ الوضع السائد، مما يعرض ليس المؤسسة للاختيار فحسب بل والمجتمعات والدولة.

ونظراً لذلك فقد تحولت ظواهر إشكاليات التعليم إلى أزمات معقدة محور مشكلتها قائمة على تقليد الوافد في مظاهره، والتشويش وادعاء امتلاك الصواب والحقائق المطلقة. إذ إن التعليم ينحدر وينهار باستبدادية القائمين عليه، ليس لأن الاستبداد رذيلة، بل لأنه الأداة الماحقة التي ينهار بها كل شيء، فأحادية الرأي أزمة نفسية وإشكالية مجتمعية، وكارثة مؤسسية.



كلمة رئيس المؤتمر
أ.د علي عز الدين الخطيب
عميد كلية التربية الأساسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله وصحبه
الأخيار المنتجبين:

إنه من دواعي السرور والبهجة أن يقام هذا الكرنفال العلمي الأكاديمي والتربوي بين كليتنا
التربية الأساسية في جامعة واسط العراقية وبين مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية
والاستراتيجية/ فرنسا المتضمن إقامة المؤتمر الدولي الافتراضي الأول تحت عنوان (القضايا التربوية
والإنسانية بين متغيرات الواقع وآفاق المستقبل) الذي استمر ليومين متتاليين، فقد جاء انعقاده في
ظل تحدي الإنسانية الأكبر للوباء الذي فتك بالإنسان في مختلف أرجاء المعمورة، فكان تحديا كبيرا
نجح في لم شمل الباحثين وطلاب العلم في عالم افتراضي بهي قدمت من خلاله العديد من المشاريع
البحثية التي حاولت إيجاد الحلول والمخارج من هذه الأزمة التي ضربت بمفاصل الحياة وهو هدف
نبيل وسعي جليل تبنته هذه الثقة الخيرة من الذين انبروا لإقامة هذا المؤتمر الذي حاول أن ينطق ولو
بكلمة من شأنها أن تحقق ضوءا بسيطا ينير درب البشرية في ظل هذه الظروف.

لقد شاركت في المؤتمر العديد من البحوث من مختلف البلدان العربية والغربية كانت بعضها في
مستوى المسؤولية الملقاة على عاتق الباحثين وقد انصبت كلها في مصلحة المؤتمر وقيمتها الأكاديمية
البحثية. وقد حقق المؤتمر نجاحا كبيرا، إدارة وأبحاثا وأهدافا علمية وتربوية جاءت انعكاسا للنوايا
الطيبة التي تملك القائلين عليه ولهذا سيكون بذرة طيبة ستجني ثمارها في المستقبل إن شاء الله.
شكرا لجميع الإخوة الذين قاموا بهذه المهمة النبيلة وشكرا للإخوة الباحثين المشاركين في المؤتمر
سائلين الله العلي القدير التوفيق للجميع في مقبل الأيام.

والله ولي التوفيق



كلمة رئيس المؤتمر

د. جمال محمد الهاشمي

رئيس مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية والإستراتيجية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيد الأولين والآخرين وأنبياء الله أجمعين. ثم أما بعد: يسعدني أن أكون معكم في افتتاح المؤتمر العلمي الافتراضي الأول الذي يقيمه مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية والاستراتيجية بالتعاون مع جامعة واسط في دولة العراق الشقيق، دولة الحضارة والرشد والمدارس العلمية والأصالة والتاريخ.

وأقدم بالشكر الجزيل لسعادة الأستاذ الدكتور علي عز الدين الخطيب على مشاركته في رعاية المؤتمر والتفضل بافتتاحه. والشكر للمدير التنفيذي وأعضاء اللجان العلمية والتحضيرية والتنسيقية والإدارية والتقنية. وشكري واعتزازي بهذه النخب العلمية الأكاديمية المشاركة والسادة الكرام مسيري الجلسات. فأول مسارات التصحيح في مجتمعاتنا ودولنا وأفكارنا لا تتأتى إلا بإصلاح منظومة التعليم والتربية والأخلاق لتهديب الأنفس المفارقة ولتفعيل ما لدينا من قيم ومبادئ في ألفاظنا وعلاقاتنا ومسؤولياتنا، إذ بها وعليها تُقام مفاهيم المودة والعدل والتنمية والحضارة.

إنني على ثقة بقدراتكم وقدرات الذين تخلفوا أن يشاركونا في هذا المؤتمر من المتقدمين والبالغ عددهم مني مشارك، وما هذا التنافس الكبير بين الباحثين، إلا دليلاً على رقي هذه المجتمعات ووعيتها في أن تكون حضارة بين الحضارات وأمة بين الأمم، بما تمتلكه من ضوابط إنسانية وأخلاقية وعلمية.

ولا نشك بأن دور الرجل إلى جانب المرأة وعكسه من أهم مقومات بناء الحضارات الإنسانية، وأن محور المرأة سيكون من أهم محاور المؤتمر القادم، الذي يجدد في المرأة قيمها في أهم منظومتين قامت بهما وعليهما كل الحضارات العالمية:

- منظومة التربية بعلمي النفس والمجتمع.
- منظومة الأخلاق بعلمي الذات والآخر.

ولكل منهما قيم وإدارة وعقل وقانون.

أيها السادة الكرام إن العلم وسيلة يحمل غاية، فإن كان مطلوبه لتضخيم الذات والاستظهار بها وتركبتها، اختلفنا في أن نجتمع على الهمة الحضارية، وتعوقنا في صراعات نفسية ومجتمعية ودموية،

وعقننا أصولنا وقيمنا وحضارتنا التي كانت نسبا من أنساب التقدم والنهوض والمعرف، وأعقنا أجيالنا القادمة بإدخالهم في متاهات الحيرة والتهيه والتخلف والفوضوية. أما إن كان مطلوباً لغاية عظمت به النفوس وارتقت به الغايات ونيلت به المطالب. فإنه لا تقدم في علوم الحياة من صناعة وزراعة وفضاء وتقنية وطب وهندسة ما لم ننتظم بثلاث بنيات رئيسية:

- فوقية تسير مدركات العقول وتربطها بواقعها.
 - تحتية تؤسس لقيمة العقل وإبداعاته ومنجزاته.
 - نفسية تهبي البيئة المناسبة للعقل الفاعل وتشغيل العقول الخاملة.
- ولا تقدم أبداً إلا بإصلاح منظومتين:
- منظومات التربية والأخلاق والقوانين والإدارة
 - منظومة الذات الفاعلة.

ولكل معايير ومقاييس وموازين، وقواعد وسياسات وأنظمة، فهي لا تنشأ ذاتياً، وإنما تُنشأ، ولا تتأسس وإنما تُؤسس، وما العلم إلا دستور مُمهَج للحياة ومنتج لها، وثمره من ثمارها، وما النظام إلا عدل بنظم مشاركتها، ولا قيام لأحدهما إلا بقربه ولا بقاء لأحدهما إلا بالآخر.

أيها السادة الحضور: إن هذا اللقاء على موائد العلم، يعمق فينا قيم الأخوة والتراحم والتعلم من بعضنا وتكميل بعضنا والتواضع الذي يساعدنا في التعلم، وبدوره يعمق قيم الصدق مع الذات، ومجتمعاتنا ومع الآخر. إذ إن الصدق مع الذات بنقدها، ومع المجتمع بترقيته، ومع الآخر بالتواصل الإنساني وقيم الفضيلة والأخلاق والعدل والإنصاف.

ولعل هذه التظاهرات العلمية محل أنظار مجتمعاتكم ودولكم، وقد ساهم هذا الفضاء الذي نستعمله وما صنعناه، ونستهلكه وما أنتجناه، في إضفاء الصفة العالمية لمؤتمراتكم، وهو كفيل بإظهار محاسنكم أو بكشف عوراتكم، وما ستقدمونه من أطروحات هو ضميركم مع أمتكم.

أيها الإخوة الكرام:

إن الذاتية والموضوعية صنوان لا ينفصلان عن فضائل الصدق والعدل والأمانة والمصلحة، وهن الأركان الرباعية التي تقوم عليها البحوث العلمية، فإن كن من شروط البحث العلمي فهن أجدر بأن يكن صفة للباحث العلمي، القدوة بما يعمل.

هذا أملنا بكم وبغيركم وفي كل لسان فيه شرف إنسانيته وقطرته وكرامته.

كما أفيدكم علماً أن هذه المؤتمر العلمي يغلب عليه النفحة الجزائرية، فهم سواد الباحثين فيه، وما تزال أرضهم منبتاً للبحث منجابهة، ونفوسهم للعلم والخير ولادة، وقولنا عن بعض مغربنا هو قولنا فيه كله، والمشرق والمغرب صنوان لا تشرق شمسهم إلا وتتجدد في مغربه.

ولا يسعني في الختام إلا أن أكرر شكري لمن سبق شكره وأشكر السادة الحضور جميعا لما يقدمونه من اهتمام ومشاركة، وأتقدم بكل صدق وإخلاص بجزيل الشكر للمؤسسات التعليمية التي ساهمت معنا بمسؤولية في إعداد المؤتمر القادم المعنون ب (أزمة المعرفة الحضارية بين إشكالات التعليم والمنهج وتحولات التنمية). والذي أجدد به دعوتي إليكم ومن خاللكم إلى غيركم إيماننا منا بالعمل الجماعي فمسؤوليتنا واحدة، وأخلاقنا وقيمنا وحضارتنا واحدة.

وتقبلوا مني خالص دعواتي كما هي أمنياتي للجميع بالتوفيق والسداد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة مدير فعاليات المؤتمر

د. الحسن بنيعيش

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.
يأتي هذا التصدير على خلفية إقامة مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية والإستراتيجية بفرنسا بتعاون مع كلية التربية الأساسية بجامعة واسط وبرئاسة كل من السيدين: د. جمال الهاشمي رئيس مركز الإصباح و د. علي عز الدين الخطيب عميد كلية التربية الأساسية في جامعة واسطالمؤتمر العلمي الدولي الافتراضي الأول تحت عنوان: "القضايا التربوية والإنسانية بين متغيرات الواقع وآفاق المستقبل"، خلال يومي: الخميس 08 أبريل والجمعة 09 أبريل 2021م.

لقد تضمنت أعمال المؤتمر الجلسة الافتتاحية والجلسة الختامية وجلسات علمية تجاوزت العشرين جلسة علمية افتراضية وبعدد اثنين وثمانين بحثاً علمياً من ضمن أربعين ومائة بحث، وبحضور الدارسين والمهتمين بالعمليات التعليمية والمؤسسية ومشاركة عدد من صنّاع السياسات التعليمية وعمداء الجامعات ورؤساء الأقسام والأساتذة والباحثين والطلاب من مختلف البلدان العربية والإسلامية.

ركّزت المحاور العلمية للمؤتمر على مدخلين أساسين تمّ اقتراحهما من قبل اللجنة التحضيرية:
أ. المدخل التربوي: شملت الأوراق البحثية فيه مداخلات في وحدات علوم التربية، وعلم النفس، وطرائق التدريس، والمناهج التربوية...

ب. المدخل الإنساني: عاجلت الأوراق البحثية فيه قضايا تهم وحدة اللغة العربية، والشريعة الإسلامية، وعلم التاريخ، والجغرافيا، والحضارة..

والمدخلان التربوي والإنساني متكاملان يعصّد أحدهما الآخر، لاشتراكهما في الجوانب العلمية والمعرفية والمنهجية، واعتمادهما مقاربات لدراسة العضلات والمشكلات وطرح القضايا التربوية والإنسانية في تخصصات مختلفة ومتعددة، بهدف تأسيس الصرح المعرفي والعلمي وتوحيد الرؤى في معالجة القضايا الإنسانية والاجتماعية بما يُحقّق التنمية البشرية واطراد الرقي والازدهار للأمم والشعوب التّوّاقة إلى غد أفضل.

إنّ الأوراق البحثية للمؤتمر - وهي تعالج قضايا المدخلين التربوي والإنساني من جميع زوايا التخصصات العلمية والتدريسية - خلصت إلى توصيات جزئية ختم بها كلّ باحث ورقة مشاركته، وتوصيات عامة عرضت في اختتام فعاليات المؤتمر على أنظار المؤتمرين والخاصين والمُتنبّعين.

ويمكن إجمال جميع هذه التوصيات في ضرورة تجاوز سلبية وعقبات منظومة التربية والتكوين في الوطن العربي وتقديم منظور شامل ودقيق لإصلاح التعليم في المدارس والجامعات، وإصلاح الإدارة قصد اتخاذ القرارات الرشيدة والسديدة، في أفق الدعوة إلى توسيع دائرة الآفاق العلمية والثقافية وتطوير التعليم وربطه بقضايا التنمية والأمن والنهوض الحضاري، من منطلق تشخيص الأزمات والإشكاليات، وطرح حلول ومعالجات واقعية جريئة وطموحة في ضوء رؤية حضارية إسلامية تدرك أهمية القيم الذاتية، و تنفتح في الوقت ذاته على التجارب الناجحة قطرياً وجهويماً وعالمياً.

وإذ يقوم مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية والإستراتيجية بطباعة بحوث هذا المؤتمر في هذا الكتاب الجماعي وفقاً للشروط العلمية والمنهجية المعتمدة، فهو يؤمن تمام الإيمان بضرورة بناء قاعدة حضارية أساسها التعليم الناجح والارتقاء بالبحث العلمي على المستوى المعرفي والمنهجي والأخلاقي والقيمي، والنهوض بقضايا التعليم عامة وتصحيح ما اختل في منظومة التربية والتكوين والإدارة، وتطوير البرامج والمناهج التعليمية، وتمتين أواصر القرابة ووشائج الصلة مع الجامعات ومراكز البحوث سعياً نحو ترسيخ القيم الحضارية والإنسانية والتنمية..؛ آملاً أن يتخذ الكتاب إطاراً مرجعياً لكل باحث أو مهتم بقضايا التربية والتعليم في الوطن العربي أو خارجه أفراداً ومؤسسات.

والله الهادي لأقوم سبيل.

الفهرست

07	مقدمة التحرير: د محمد الهاشمي	
09	كلمة رئيس المؤتمر: أ.د علي عزالدين الخطيب / عميد كلية التربية الأساسية	
10	كلمة رئيس المؤتمر: د. جمال محمد الهاشمي / رئيس مركز الإصباح للتعليم والدراسات الحضارية والإستراتيجية	
13	كلمة مدير فعاليات المؤتمر: د. الحسن بنيعيش	
محور: قضايا لغوية وأدبية		
20	د. الحسن بنيعيش أستاذ باحث . المملكة المغربية Dr.Beniaich Al Hassan	اللغة العربية في عصور الدولة الأموية The universality of the Arabic language During the ages of the Umayyad State.
42	د. حمّادي موكيت Dr. EL MOUKET Hammadi	الدرس اللغوي العربي الحديث تأثر أم تبعية؟ الدرس الصوتي نموذجاً Modern Arabic language lessonPhonetic lesson as a model
57	د. محمد نجيب مغني صنديد Mohamednajibmarnisandid	القراءات اللسانية في كتابات المستشرقين في لغة النص القرآني - إطلالة في تصوّر كلود جيليو (رينولدز، القرآن، 143-172)- Linguistic readings in the writings of the orientalist in the language of the Koranic text - a vision on the imagination of Claude Gillio-

72	د. صافية كساس Dr. Kessas Safia	النحو العربي في كتابات المستشرقين بين الأصالة والنقل والاستغراب Arabic grammar in the writings of the orientalists between originality, transfer and surprise
96	د. ناصر زارع د. رسول بلاوي فاطمه محمدي Naser Zare Rasoul Balavi Fatemeh Mohammadi	التوظيف الدلالي لمفردة "النار" ومرادفاتهما في شعر عبد الرحيم محمود The semantic development of the word "fire" in the poetry of 'Abd-al Raḥīm Maḥmūd
109	د. عبد الله بوقصة د. نسيبة مساعدي Abdellah Bouguessa Nsiba Messadia	التخييل السير ذاتي النسوي في الرواية الجزائرية زهور ونيسي أنموذجا Feminist autofiction in the Algerian novel Zhour Ouanissi as a model
120	نادية سلطان Soltane Nadia	النسق الاستعاري؛ آليات الاشتغال وجماليات الحضور في رواية (الأسود يليق بك) لأحلام مستغانمي. The metaphor Format ; The Working Mechanisms And The Aesthetic Of Being Present In The « Black suits you » Of Ahlam mosteghanemi.
131	د. ضياء غني العبودي Dr.Dhyaa.Ghani AL-Uboody	العنونة في الرواية العراقية نماذج مختارة Subtitling in the Iraqi novel selected models.
159	أ.د. حسن منديل حسن العكيلي Prof. Hassan Mendeel Hassan	اللغة العربية والسيادة الوطنية العراق أنموذجا

		Arabic language and national sovereignty Iraq is a model.
محور: قضايا تاريخية وجغرافية		
185	سعاد عمر انوير القجدار P. Suaad Omer Anwer Algajdar	المنهج التاريخي وتطوره Historical method and its development
205	نمير حسين بن احمد عيسى جمال Nemir Hocine Benahmed aissa djamel	العلوم المساعدة في تطور منهج البحث التاريخي Science Assisting the Evolution of the Historical Research Curriculum
226	د. هيفاء سليمان الإمام Dr. Haifa Suleiman Al- Imam	تطور الفكر التربوي في الحضارة العربية الإسلامية The development of educational thought in the Arab Islamic civilization
252	د. لطفي بقال بريكسي د. لطفي بقال بريكسي	المؤسسات التعليمية في العصر العباسي The educational institutions in the Abbasid era.
277	سنوسي بدر Senouci Badra	"المدرسة في المغرب الأدنى ودورها العلمي خلال العصر الوسيط" "The School in the Maghreb and its scientific role during the medieval era"
292	د. محمود رياض الأسطل Mahmoud Reyad Alastal	المظاهر الحضارية في القدس في العصر الأموي (41-105هـ/ 661-724م) Manifestations of Arab and Islamic civilization in Jerusalem in the Umayyad era
320	نسرين ضامن	الحوار الحضاري في ظل العولمة والخصوصية الثقافية

	Damene Nesrine	Cultural dialogue under globalization and cultural privacy
340	د.إكرام البشير الجمل Ekram Albasher Aljamal	مسكوكات المغرب الإسلامي (من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة العبيدية 22-363هـ / 643-974م)
361	د.ط. عيسى عبد الرسول Abudurusuli Aisa	دور الأمير محمد أمين بُغْرا في تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية The role of Prince Muhammad Amin Bughra in the establishment of the Islamic Republic of East Turkestan
396	أ.م.د حسين قاسم محمد الياسري Dr. Hussein Qassem Mohammed Al - Yasiri	الأبعاد الجغرافية لتنمية الساحل البحري وظهره الصحراوي في محافظة البصرة Geographical dimensions of the development of the marine coast and its desert backyard for Basra Governorate
425	عبد الله يحيى عبد الله عمران وفاء العدلوني هند بديه Amran Abdullah Pr. wafaa el adlouni Pr. hind baddih	أثر البيئة الخارجية على أداء المؤسسات العامة في اليمن دراسة حالة (مؤسسة مصنع إسمنت عمران) The impact of the external environment on the performance of public institutions in Yemen Case Study (Amran Cement Factory Corporation)

444	د. بن زايد ريم د. قليل هجيرة Dr. BENZAID Rim Dr . Hadjira Guellil	دور التوقعات الديموغرافية في صياغة سياسات التنمية المستدامة " دراسة حالة الجزائر " من خلال تحليل إسقاطات التغيرات في الهيكل العمري للسكان ومسألة التنمية المستدامة في الجزائر أفاق 2045 باستخدام برنامج demproj The role of demographic projections in the formulation of sustainable development policies "Studying the State of Algeria" by analysing projections of changes in the age structure of the population and the issue of sustainable development in Algeria woke up 2045 using demproj program"
464	م.د. أحمد كاظم عباس د. وفاء مازن عبد الله Dr. Ahmed Kazim Abaas Dr.Wafaa Mazen Abdallh	تدهور التربة حسب نموذج (RUSLE) في حوض وادي كلاني Estimating soil degradation of RUSLEmodel in Kelani Basin

عالمية اللغة العربية في عصور الدولة الأموية

The universality of the Arabic language During the ages of the Umayyad State.

د. الحسن بنيعيش

أستاذ باحث . المملكة المغربية

Dr.Beniaich Al Hassan

lamrani.boudnib@gmail.com

الملخص:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن كيفية وأسباب تحول اللغة العربية خلال عصور الدولة الأموية إلى لغة عالمية يهتدي بها أهل الأرض قاطبة، معتمدة على المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التاريخي.. وتأتي أهمية الدراسة انطلاقاً من بيان قيمة اللغة لدى بني أمية في بناء صروح الحضارة. وأفترض أن ما ساعد على انتشار اللغة العربية انتشارا واسعا هو عامل الفتوحات الإسلامية، وحبّ الأمويين للغتهم وتمكّنهم منها واعتزازهم بها، معتبرين إياها ترجمان حضارتهم وعنوان فكرهم، لأنهم معدن البلاغة والبيان وأصولهم من أفصح القبائل العربية! وتطرح قضية العربية ومسألة التعريب أكثر من إشكال في عديد من الدراسات في هذا الباب حيث اختلط فيها الموضوعي بالسياسي والأيدولوجي.. الشيء الذي يفجر إشكالية العوامل التي أسهمت في التعريب وانتشار اللغة العربية على أوسع نطاق في عهد خلافة بني أمية؟

الكلمات المفتاحية: العالمية . اللغة العربية . عصور الدولة الأموية . الفتوحات الإسلامية . التوسع والانتشار...

Abstract:

This study attempts to reveal how and the reasons for the transformation of the Arabic language during the eras of the Umayyad dynasty into a global language that guides the people of the whole earth, relying on the descriptive, analytical and historical method.

The importance of the study stems from the statement of the value of language among the Umayyads in building the edifices of civilization. I suppose that what helped spread the Arabic language widely is the factor of the Islamic conquests, the love of the Umayyads and their mastery of it and their pride in it, considering it the interpreter of their civilization and the title of their thought, because they are the source of eloquence and eloquence and their origins are among the most eloquent Arab tribes!

The issue of Arabic and the issue of Arabization poses more than one problem in many studies in this section, where the objective was mixed with

the political and the ideological.. the thing that explodes the problem of the factors that contributed to the Arabization and the spread of the Arabic language on the widest scale during the era of the Umayyad caliphate?

KeyWords: universality -Arabic language –Eras- Umayyad state–Islamic expansions - Expansion and Spread...

المقدمة:

يتصل بنو أمية بقريش اتصالاً وثيقاً، فهم إحدى فروع القبيلة ومن أهم الأفخاذ ذات السيادة والنفوذ في مكة المكرمة، وهم أول أسرة مسلمة حاكمة في تاريخ الإسلام، اتخذوا دمشق عاصمة لهم بالشرق، وقرطبة ببلاد الأندلس وكان أمر بني أمية نافذاً في كلِّ العرب بعصبية عبد مناف.

ومعلوم أنَّ لغة قريش أفصح لغات العرب، اللغة التي انتشر صيتها في كلِّ الأرجاء بفعل عوامل دينية واقتصادية واجتماعية وأدبية... فقد كان وفود العرب يأتون مكة حجيجاً، وهي منطلق القوافل في رحلتي الصيف والشتاء، وكان ساداتها يُحكّمون في الدماء، لما لهم من مكانة خاصة بين القبائل، أما أمر سوق عكاظ، فغني عن البيان بوصفه مركزاً تجارياً وأديباً يأتيه الخطباء المفهون والشعراء المصاقع كلِّ عام متنافسين، فما قبلته قريش كان مقبولاً وما ردّته كان مردوداً.. وذاك دليل مركزية لغتهم منذ أن كان الناس في الجاهلية.

وظل ارتباط بني أمية باللغة العربية قوياً بعد مجيء الإسلام، فواصلوا بناء الدولة الإسلامية التي أخذت تتوسّع بالفتوحات المجيدة منذ عصر الخلفاء الراشدين، حاملة للبشرية ديناً قوياً ولغة بديعة تستهوي الأنفس وتعلق بشغاف القلوب.

والإشكالية الكبرى التي تطرح نفسها في مثل هذه الدراسة هي: هل يمكن أن ينتشر الإسلام على عهد بني أمية ويعمّ مشارق الأرض ومغاربها، دون أن يصحب هذا الانتشار الواسع سريان اللغة العربية لغة هذا الدين والركيزة الأساسية لفهم تعاليمه وقيمه الحضارية والإنسانية؟!، الشيء الذي سمح بطرح الفرضيات والتساؤلات الآتية: كيف أسهمت الفتوحات في انتشار اللغة العربية في رحاب الدنيا من أديانها إلى أقصاها؟ وكيف مكّن الأمويون للغة العربية وأسهموا في تطوير حضارة أصيلة وفكر راقٍ من خلالها؟ وما تأثير العربية على الأمم والشعوب الأخرى التي ظلّت تحكي عبقريتها عبر الأزمنة والقرون الخوالي؟

أولاً: الفتوحات الإسلامية ودورها في انتشار اللغة العربية

تعدّ الفتوحات الإسلامية الخطوة المؤسسة للتعريب بكلِّ جدارة ويقين، فقد خلق الانتشار الواسع للإسلام في البلاد المفتوحة بزوغ ظاهرة حضارية تفشت بموجبها لغة الدين الجديد معلنة نفسها لغة عالمية يتحدث بها معظم سكان الأرض حينئذ، فقد عمل قادة الفتح الولاة على جعل دعاة ومرشدين في كلِّ الأرجاء

والأمصار التي وطقتها أقدامهم . يُعلّمون الناس أمور دينهم ويوضحون تعاليم الإسلام وقيمه الحضارية السامقة، وينشرون اللغة العربية بين أبناء القبائل الأعجمية.

ومنذ تأسيس القيروان في الشمال الإفريقي، صار لدمج أبناء القبائل الأمازيغية في جيش الفتح الإسلامي في ربوع المغرب الكبير فضل واضح في انفتاح العربية على أقوام مختلفين يشاركون في نيل جزاء الجهاد في سبيل الله مع إخوانهم العرب، ويأخذون عنهم مشعل مواصلة رحلة النصر وهداية البشرية ودعوتهم إلى اعتناق دين المحبة والسلام. وكان يهدف هذا الدمج أيضاً إلى "تعميق معرفتهم بالقيم الإسلامية واللغة العربية، نظرياً وعملياً، ليتحولوا إلى معلمين ومرشدين ودعاة عند رجوعهم إلى قبائلهم. وهذه المشاركة الفعالة في الفتوحات منذ بدايتها جعلت المغاربة يدركون أنه لا بد من تعلّم اللغة العربية من أجل فهم الإسلام فهماً صحيحاً وتفسيره وتطبيقه على واقعهم الخاص، ومن ثم الفعل الإيجابي في العملية الإسلامية الصاعدة". (مجلة البيان، 2015).

وسرعان ما صارت اللغة العربية لساناً موحداً لجميع المسلمين يؤدّون بها شعائر دينهم، وينجزون بها آثارهم الأدبية والعلمية والفنية والتاريخية والفقهية واللغوية.. فقد "انتقل العرب إلى المغرب ونقلوا معهم حضارتهم ولغتهم كما نقلوا تقاليدهم الحياتية والأدبية[...]"، وفُتحت المساجد أبوابها للعلم والتعليم، وراح أولو الأمر يعطفون على العلماء والأدباء ويشجّعون العلم والأدب وراح الناس شيئاً فشيئاً يتذوقون التراث العربي، إلى أن تمّ التمازج وكان الوعي، وإذا البلادُ عربيّةٌ، وإذا هنالك أدب عربيّ ينشأ ويتطوّر على سنّة الحياة، شعر ونثر كأروع الشعر وأبلغ النثر" (حنّا الفاخوري، تاريخ الأدب في المغرب العربي، 1996، ص42). وهكذا بلغت العربية ما لم تبلغه لغة أخرى من الانتشار والتوسّع.

والخير للدهشة حقّاً، أنّ الناس في البلاد المفتوحة لم يُكوهوا على تعلّم اللغة العربية، بقدر ما انشغلوا إليها شتلاً لما لمسوا فيها من سلاسة وعدوبة وما لها من حلاوة وعليها من طلاوة، فضلاً عن رقّة الفاتحين ودماثة أخلاقهم، حيث تمثّلوا ما يدعوه دينهم إليه من قيم إنسانية عالية كالسماحة والأمن وإشاعة السلام، والإعلاء من شأن الحرية والكرامة والطوعية في اعتناق الملة إذ لا إكراه في الدين. يقول الدكتور عادل زيتون: "... فإنّ نشر الإسلام كان هو الهدف الرئيس للعرب المسلمين، خلفاء وأمرأ وقادة وجنداً، في تلك المرحلة المهمّة من التاريخ العربيّ الإسلاميّ، فالهم الأول والشغل الشاغل للعرب المسلمين، آنذاك، كان الجهاد في سبيل الله، ونشر مبادئ الدين الجديد القائم على الوحدة والمساواة والعدالة والشورى والحرية ...، وإقامة نظام حضاري، وفقاً لقيم الإسلام ومثله، يعطي للحياة الإنسانية معناها وقيمتها" (مجلة العربي، نونبر 2001، ص 85).

ويشير العلامة يوسف القرضاوي إلى بواغث وأسباب قدرة الإسلام الهائلة على الانتشار السلمي في كل أرجاء المعمور، حيث "سجل التاريخ لدينا قدرته على الانتشار السريع، ودخول الأمم فيه أفواجا، بأدنى دعوة إليه، وإن لم يقم بهذه الدعوة أناس محترفون متخصصون في التبشير به، متفرغون له. وسر ذلك: أن هذا الدين . بعقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته . تتوافر فيه: موافقة الفطرة، وملاءمة العقل، وتركيب النفس، وسمو الروح، وصحة الجسم، وتماسك الأسرة، وترابط المجتمع، وتحقيق العدل، وجلب المصالح، ودرء المفسدات، وإشاعة الخيرات، ومكافحة الشرور بقدر الإمكان" (القرضاوي، تاريخنا المفترى عليه، 2013، ص 197).

فالدخول في الإسلام بكل عفوية وأريحية باعتباره دين الفطرة والقيم الإنسانية النبيلة - يجعل صاحبه يتعلم بالضرورة اللغة العربية التي هي مفتاح فهم تعاليمه السمحة الكريمة، كذلك ارتضى ساكنة البلاد لثقلها لغة ولساناً لمّا اقتنعوا بالإسلام ديناً فاعتنقوه طواعية دون مقاومة، وافتتنوا بلغته المتعالية عن الأبعالقبلية والعرقية والعصبية الضيقة، لغة اختارها الله تعالى رسالة خاتمة إلى كل العالمين.

وإزاء المبادئ المثلى للإسلام الداعية إلى حقوق الإنسان واحترامها خاصة مبدأ الحرية والعدل والمساواة وغيره، وجد المستضعفون والمقهورون من أبناء الأمم والشعوب الأخرى مسلوكاً مسيحياً وباباً مفتوحاً على مصراعيه، فأسلموا واندمجوا داخل المجتمع الإسلامي الكبير، وتقلدوا فيه مناصب ووظائف بحسب الأهلية والكفاءة والاستحقاق. وكيف لا يُسلموا وقد "نظروا فيما تخلف بأيديهم من عادات الوثنية، وبقايا الديانات الأخرى الموحدة. فلم يجدوا في ذلك شفاء غلتهم ونقع أوامهم؛ فأخذوا يتناولون بأعناقهم إلى الدين الجديد الذي جاء به الفاتحون الأقوياء ورأوه موفياً بأغراض الحياة وآرامها، ضامناً لمصالح البشر في المعاش والمعاد. فكان منه إليه خير داعية ومرشد، أثار أمامهم السبل، وأبان لهم معالم الرشد. وسرعان ما استمالهم إلى جانبه، وأدخلهم في حظيرته"؟! (عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، 1960، ص 40).

وحق الذين لم يسلموا وبقوا على دينهم . وهم قلة على كل حال . استعربوا لساناً وثقافة، حيث العربية هي اللغة السائدة والعملية الرائجة فضلاً عن ذلك، "فاللغة العربية مقوم أساس من مقومات الثقافة العربية الإسلامية، ذلك أن العربية ليست لغة أداة فحسب، ولكنها لغة فكر أساساً. وحتى الشعوب التي انضوت تحت لواء الإسلام، وإن كانت احتفظت بلغاتها الوطنية، فإنها اتخذت من اللغة العربية وسيلة للارتقاء الثقافي والفكري، وأدخلت الحروف العربية إلى لغاتها فصارت تكتب بها" (التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى، 1998، ص 11).

لم يكن حكام بني أمية منشغلين بأمر الأمة والرعية فحسب؛ فقد نظروا في شتى العلوم وأقبلوا بنهم على كلّ المطانّ الصادرة عن شرف الفُهوم ونير العقول، فاهتموا بأهل الفكر والعلم الشيء الذي تحققت معه نخضة فكرية وثقافية شاملة كوّنت نبعاً حضارياً فياضاً غرفت منه الحضارات اللاحقة بلا هوادة.

وكانت بلاد الأندلس على عهدهم مركز تفاعل حضاريّ ربط شرق الأرض بغربها، وكان الرجل يطلب السفارة لدولته الأعجمية لدى بني أمية أو بني العباس رغبة في الرفعة والمجد وابتغاء أعلى درجات الجاه والسؤدد، وهو مطلب عسير عصبه إتقان اللغة العربية - اللغة العالمية آنئذ - مع حسن تدبير وسياسة، وتلطّف وكياسة.

لقد كانت اللغة العربية الوعاء الممتدّ الذي لم يضق رهاً بالمادّة العلمية والفكرية الضخمة التي تنوعت مشاربها لتغطي مجالات شتى منها الديني والأسطوريّ والبطوليّ والتاريخي والاجتماعي ولمّا انصهرت في الحضارة العربية الحضارات الإنسانية السابقة عليها بعد أن دخلت شعوبها في دين الله أفواجا، فإنّ اللغة العربية مثلت لذلك تراثاً غنيّاً يشعّ ببعديه التاريخي والحضاريّ. ولا غرو أن إسهام العربية في بناء صرح الحضارة الإنسانية كان وازناً، وسيظلّ لو تتحرّرت العقول والذهنيات من عقدة الأجنبي، ومن جحيم موجة الانفصال عن الماضي وتبخيس الذات.

ولا غرابة أن تتلقّى بعض الأجناس الأدبية مثل الخطابة والشعر وكتابة الرسائل مكانة مرموقة في العصر الأموي، نظراً لكثرة الفرق السياسية والدينية، وانتشار القلاقل والاضطرابات، فضلاً عن توسّع الفتوحات الإسلامية، فكان كلّ خطيب أو شاعر يدعو إلى حربه ويتعصّب له، وظهر فنّ النقائض وشاع شعر الغزل بنوعيه الإباحي والعفيف، وتطور غرض المديح بسبب تشجيع خلفاء بني أمية وأمرائهم وبذلهم للأعطيات والجوائز، وازدهر فنّ كتابة الرسائل بداعي حاجة الحكّام إلى مكاتبة القادة والولاة ورؤساء الجند..

كلّ هذه الأجناس الأدبية التي ذكرت وغيرها تتطلّب الكتابة بلغة عربية فصيحة تروم تجويد الألفاظ وتفخيم العبارة وتأنيقها وتجنب المعازلة والتعقيد.. ممّا جعل بعض الخطب والأشعار والرسائل لا تزال محفوظة في الأذهان تعبها القلوب يروّدها كلّ مهتمّ بلغة وأدب العصور الزاهية للعرب.

وكانت اللغة العربية لغة الآداب والعلوم من طبّ وصيدلة وكيمياء وبصريات وغيرها، فمن رغب في الإبداع، لزمه إتقان لسان العرب، وشحذ آلة الكتابة، وآية ذلك نبوغ كثير من الأعاجم في عهد بني أمية وبني العباس في غير قليل من العلوم والآداب والفنون. ثمّ إنّ عمق القيم الحضارية لبني أمية هو ما مكّنهم من تعريب آثار حضارات عظيمة كان لها شأن وأيّ شأن!

والحاصل أنّ الإسلام أسهم بشكل مباشر في انتشار اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فاندمج العرب بغيرهم، فلم يعد من فارق بين الفاتحين والسكان الأصليين طالما الدّين يوحّدهم، فزال كل التمايزات، فلا يفضلُ مسلّم مسلماً إلا بالتقوى كما هو معلوم من منطوق النصوص الشرعية.

ولعلّ لعامل المصاهرة دوراً كبيراً في الانتشار السريع الذي عرفته اللغة العربية في مشارق الأرض ومغاربها، حيث استقرّ معظم الفاتحين بالديار المفتوحة. وإذا علمنا أنّ أصول الكثير منهم من صميم العروبة وبجربتها، بل من أعرق القبائل العربية كأهل الحجاز . والحجازيّ لقبُ عائلات شتى بالغرب الإسلامي . وهم من هم لغة وديناً؛ تيسر علينا فهم الحضور القويّ للغة العربية في شتى الأمصار.

هكذا يمكن القول إنّ اللغة العربية انتقلت من كونها ذات أصول بدوية إلى لغة أممية تحدّثها العرب وغير العرب من مسلمين وأهل ملل ونحل أخرى في معاملاتهم اليومية، وكذا في كتاباتهم وإبداعاتهم. فلما ازدهرت العلوم وتطورت وبلغت شأواً عظيماً صارت الأندلس قبلة العلماء ومهوى الباحثين والدارسين الذين تحفّظ عليهم إتقان العربية ومعرفة أصولها لكي يدرسوا مختلف العلوم والمعارف والمصطلحات العلمية والفنية والعمرانية وغيرها لم تكن ساعتها إلا باللغة العربية، ولم يكن من وسيلة للاندماج في المجتمع الإسلامي الكبير الذي بدأ يتشكّل رويداً رويداً سوى تعلّم اللغة العالمية التي بها حياة الأمم وبناء مجد الحضارات.

ولمّا أحس العربُ بذبيب اللحن يسري في دماء لغتهم الزكية، وهم جدّ حراس على لغتهم، لم يرضهم هذا الخلط الذي أصابها، فنشأ في عهد الأمويين مبدأ (تنقية اللغة العربية) "عن طريق التربية والتعليم، وكان في هذا ما أوجد الدافع في نهاية القرن الأول إلى دراسة اللغة العربية، ضمناً لسلامتها من هذا الخلط الذي كان يهددها في أصولها وحركاتها وأصواتها" (يوهان فك Fuck، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، 2014، ص 9).

هذه التنقية اللغوية التي تنم عن حبّ القوم للغتهم والذود عن حياضها والخوف عليها من أن تكترها الشوائب، ومن أن يَعرّك صفوها قذى الأعجمية ولوثة الإفرنج ورطانات الموالي..!

ثانياً: دور بني أمية في التمكن للغة العربية وانتشارها

كان بنو أمية أصحاب جاه وسلطان في الجاهلية كما في الإسلام. قال الكاتب أبو حفص بن برد الأكبر عن سليمان المستعين إلى جماعة العبيد: "... إنّ الله تعالى قسم لأهل بيتنا بني أمية من السلطان الموصول

لهم بخلافة النبوة ما حاز لهم دون سائر قريش، وسراة رجالها وافرة، وبيوت شرفها عامرة، فكان أول من أجمع عليه خيار الصحابة بالشورى والاختيار عثمان بن عفان أمير المؤمنين ذو النورين، وصهره عليه السلام مرتين، فلم ينكر فضله هاشمي، ولا دافع إمامته قرشي، ولا نازعه الخلافة عربي ولا عجمي". (ابن بسام الأندلسي، الذخيرة في محاسن الجزيرة، 2000م، ص 95).

دامت خلافة بني أمية أمداً طويلاً من السنة الحادية والأربعين للهجرة مع معاوية بن أبي سفيان إلى سنة اثنين وثلاثين ومائة على عهد مروان بن محمد الذي توقفت معه مقاليد الحكم، فوضع حدّ لخلافة بني أمية في موقعة الزاب الشهيرة، لتصل خلافتهم بالمشرق إلى مائة عام إلا تسعاً أخذ بزمام الحكم خلالها أربع عشرة خليفة، فبلغت الفتوحات الإسلامية الذروة في عهد الخليفة الأموي العاشر هشام بن عبد الملك، من الصين شرقاً إلى فرنسا غرباً لتشمل ثلاث قارات في آن. ونجح بنو أمية في جعل قرطبة دمشق الأندلس تهي إليها أفئدة الشيوخ والعلماء، فاتخذوها قبلة للعلم ومنارة شامخة للبحث والمعرفة.

وكتب للخلافة عمر آخر، فزادت في بلاد الأندلس مع نفس السلالة قرابة ثلاثة قرون لتنتهي مع الخليفة هشام المعتد بالله عام 422، ثم تشعبت بها ملوك الطوائف شعاباً وعاثت فيها خراباً... عجل برحيلها، "فلقد كانت الأمة المسلمة قادرة بما فيها من عناصر القوة الكامنة على الاستجابة للتحديات الخارجية، كأروع ما تكون الاستجابة للتحديات، ولو لم ترهق هذه الأمة. في أغلب مراحل تاريخها. بحكام يشلّون حركتها، ويخنعون أمام أعدائها، ويبدّون من طاقتها حفاظاً على أنفسهم.. لو لم تكن هذه الظاهرة مستشرية على هذا النحو، ولو أنّ هذه الأمة تركت لفطرتها وتراثها وقيمها وحضارتها التي غرسها ورعاها الإسلام.. لو تمّ هذا لكان في الإمكان أن تحدث منعطفات كثيرة في تاريخ هذه الأمة.. هي لصالحها.. ولحساب رقيها وازدهارها" (عويس، أوراق ذابلة من حضارتنا، 2010، ص 10).

وغني عن البيان أنّ بني أمية عملوا على أن تكون حكومتهم عربية خالصة من الخلفاء في أعلى الهرم إلى الأمراء والقادة وصغار الجند... وكذا في تقاليدهم وعاداتهم، متعصّين للعرب دون غيرهم من الفرس والروم وسائر الأقوام، وفخروا بالعروبة بما فخر، فأحسّ الآخرون بالصغار وقلّة الشأن، بل وبكونهم أقلّ شجاعة وبأساً وأدباً ودماءً ونسباً ولغة. كل ذلك حزّ في نفوس الموالي، وملاً قلوبهم التي كانت تغلي كالمراجل حقداً على العرب والعروبة، فشعروا بالخيبة والمهانة والخسوف، وكأنهم كانوا يتحسّون الفرصة للانتقام من حكام بني أمية ويتوثّبون، وهو ما جرى بالضبط لما أعلى بنو العباس من شأن الموالي من بني فارس والأتراك وغيرهم، فصاروا أعلى مكانة وأقوى نفوذاً وأشدّ بأساً جزءاً لما أبلوه في سحق خصومهم؛ فأظهروا

غضبهم وغلّهم، وأعلنوا شعوبيتهم ونقموا من العرب، وجأهروا بالعداء عندما تمكّنوا وأمسكوا بزمام الحكم عبر التاريخ، لأنّهم كانوا قبل الإسلام من أعظم القوى في العالم.

إنّ من دواعي توطيد أركان اللغة العربية في أرجاء العالم في صدر الإسلام وخلال فترة حكم الدولة الأموية العامل الديني والسياسي والحضاري والأدبي والفني والاقتصادي... فقد حمل المسلمون . في ذلك الوقت . إلى كلّ البلاد المفتوحة دينهم الذي أظهره الله نقيّاً لا تشوبه شائبة قوامه العدل والإخاء والمساواة وغير ذلك بلسان عربيّ مبين.

ومما سهّل التواصل أن كان على تخوم فارس والعراق قبائل عربية مسيحية أقامت هناك منذ أمد بعيد، فكانت صلة وصل بين المقيمين والوافدين. أمّا في بلاد العجم، فقد رحّب الناس بالإسلام لما رأوا أن الإخاء والعدل مغزاه، فهلّلوا بقدوم العرب الفاتحين وأخذوا أنفسهم بتعلّم دينهم ولغتهم، فانقلبوا بنعمة الإسلام إخواناً وأمة واحدة تخضع لإمام واحد، يُجبر عليهم أدناهم، وهم يدّ على من سواهم. تجمعهم لغة مشتركة بما يوحدون، وعبر تضاريسها وتشكّلاتها يشعرون ويعبّون.. وإن كان من فضل لبني أمية على العروبة والإسلام، فهو يتجلى في خوض معركة الفتح على أربع جبهات متفرقة من المعمور في آن واحد: في بلاد الصين وبلاد الهند وسمرقند وبلاد الأندلس، حتى عمّ نور الإسلام وفيض العربية العالم شرقاً وغرباً. إنّ "الدولة الأموية هي التي نشرت الإسلام في آفاق الأرض، وانتشرت فيها حلقات العلم في كلّ مكان، كما ابتدأ فيها تدوين العلوم الدينية واللغوية وغيرها. بل بدأت الترجمة من اللغات الأخرى في عهدها، قام بذلك أحد الأمراء، وهو خالد بن يزيد. وهي التي فتحت الفتوح شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وكان لها جيوشها في البرّ، وأساطيلها في البحر، وهي التي أكملت ما بدأ في عهد أبي بكر وعمر، والسنوات الأولى في عهد عثمان من الفتوح" (القرضاوي، تاريخنا المفترى عليه، 2013، ص 81).

ومما مكّن للعربية في كلّ الأرجاء من الصين شرقاً إلى بلاد المغرب والأندلس غرباً تسامح أهلها واعتزازهم بلغتهم العربية وحرصهم عليها اعتباراً منهم أنّها لسان أعظم نبي وأقوم دين وأكملهم، ثمّ هم إلى جانب ذلك رضعوها ونهلوا رواءها في مدارج الصبا وعهود الفتوة وغنّوا عذوبتها وشهد حلاوتها.

وليس لأحد أن ينكر ما أسداه العجم . الذين عرّهم الإسلام . للعربية خدمةً لدين الله وإعلاء لكرامته، فبرعوا في اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف من تفسير وفقه وأصول وفرائض وعلم رجال وغير ذلك، فوقفوا عند الضوابط والقواعد التي على مُعرب القرآن أن يعتني بها ويلتزم بأصولها وأركانها، لأنّ كلام الله وجب أن يُحمّل على أحسن إعراب وأحسن تركيب.

ومن الناحية السياسية، فقد أحدث معاوية بن أبي سفيان دولة صلبة الدعائم بفضل تراكم تجاربه على ولاية الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده. يقول ابن خلدون: "وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدولة الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحة.." (تاريخ ابن خلدون، 2000، ج 2، ص 650).

أقام معاوية بن أبي سفيان دواوين مركزية مثل ديوان الجند وديوان الرسائل وديوان البريد وديوان الخاتم وديوان الخراج وديوان القضاء وغيرها من الدواوين التي عمل على إنشائها أو تعريبها، وقيّم ز رحمه الله بحسن اختياره للرجال والأعوان والمستشارين، وطوّر جيشاً منظماً وهو من شكّل أول أسطول بحريّ في تاريخ الإسلام وسنّ نظام الصوافي والشوافي. وبفضل حنكته ودهائه، عمل على استقلال القضاء، وجعل النظام المالي يتّسم بغنى المصادر من زكاة وخراج وجزية وغنائم.. "لقد كانت الفتوحات الكبرى في عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموساً على حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب" (علي الصلاحي، الدولة الأموية، 2008، ص 12).

هكذا كانت اللغة العربية حاضرة في كل مناحي الحياة في اللّوائل والمواثيق والعهود والوصايا والقرارات وأرشيف الدولة، إلى درجة عرّبت حتى الدواوين بمصر وغيرها والتي كانت مكتوبة بالفارسية أو الرومية في زمن الخليفة الخامس والمؤسس الثاني لدولة بني أمية عبد الملك بن مروان بن الحكم.

لقد كانت اللغة العربية لساناً للحركة الأدبية والعلمية في أهم المراكز التي كانت تحت نفوذ خلفاء بني أمية، ولنا أن نستشهد بمجالس الخلفاء والأمراء والصالونات الأدبية التي كانت تعجّ بعشرات الشعراء والأدباء كما هو معروف مع سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة؛ فلقد "تعلّدت مجالس الأدب والشعر في هذا العصر وكثرت حلقاتهما، وقد كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة واهتمام عظيم بالأدب واللغة والشعر. فلقد كان خلفاء بني أمية عرباً أقحاحاً يطربهم المعنى الرائق واللفظ الفائق ويعجبهم الأسلوب النّاضج والتّعبير البديع والتّصوير الجميل لما فطروا عليه من ذوق حسّاس وسليقة مرهفة وبصيرة نافذة وذكاء متوقّد وعلم غزير ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها وبمفاخرها ومثالبها.

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكلّ شيء يُعلي من شأن الأدب ويرفع من قيمة الشعر، وأن تعظم رغبتهم في تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبي على نحو ما سجّلته كتب الأدب ووعته صحائف التاريخ ونقله الرواة" (الخفاجي، 1973 الحياة الأدبية في عصر بني أمية، ص 54).

حافظ أمراء وخطباء وشعراء بني أمية على التراث الأدبي واللغوي الجاهلي غصاً طرياً إلى درجة قيل في حق الشاعر الأيوبي أبي فراس همّام بن غالب بن صعصعة (ت 114هـ): "لولا الفرزدق لضاع ثلث العربية" انتصاراً لحفظ اللغة العربية، وهو الشاعر الفحل الذي نظم في كلّ أغراض الشعر العربي بلغة جزلة وألفاظ فخمة استقاها من عمق البادية كما خرجت من أفواه بعض الأجلاف والبهمة الأفيحاح الذين تمّغوا في صلب العروبة ودرجوا في صميم وبؤرة دواليها. يقول الدكتور محمد المختار ولد أبه: "وهكذا بقي الشعر حاضراً في المجتمع العربي، قوي التأثير، متمسكاً بدوره في كافة مجالات الحياة الاجتماعية. كما ظلّ امتداداً لأغلب ميزاته في العصر الجاهلي. مع أنّه لم يزل حظوة وتشجيعاً في العهد الراشدي لما كنّا نراه في العصر الأموي وقد انطلقت شياطينه من قيودها: فبرّح الغزليون وتبارى أصحاب النقائض.." (المختار ولد أبه، رحلة مع الشعر العربي، 2009، ص 122).

هكذا كان الشعر يُسهم - إلى جانب وظائفه الأدبية والإعلامية والسياسية والفنية وغيرها - في حفظ اللغة العربية وحماتها.

وجدير بالذكر أنّ الذي هيّأ لاتساع دولة الأمويين الحزم والحنكة وحسن السياسة والتدبير، والانخراط في بناء مشروع حضاري. قال أحمد أمين رحمه الله: "ومع هذا الخلاف الشديد بين المسلمين فقد استطاع معاوية وأهل بيته من الأمويين أن يقضوا على هذه الخلافات بشقّ الوسائل ويؤسسوا إمبراطورية من أوسع الإمبراطوريات تعلو فيها مآذن المساجد في الهواء... وعاصمة هذه المملكة دمشق. كما استطاعوا أن يغيروا أكبر مظهرين من مظاهر المملكة وهما: تحويل الدواوين إلى عربية وتخلّصهم من الدخلاء الذين كانوا يضطرون إليهم في تدوين الدواوين. والثاني صكّ النقود. وقد ظلوا طوال هذه العهود يتعاملون بالنقود الرومانية والفارسية، فلمّا اطمأنوا واتسع ملكهم بدءوا يصكّون نقودهم بأنفسهم وبذلك أصبحت هذه المملكة الواسعة مملكة بمعنى الكلمة، وقد بلغت هذه المملكة أقصى سعتها في هذا العصر الأموي ثم أخذت تنشق قليلاً في العصر العباسي وفيما بعد ذلك من عصور" (أحمد أمين، يوم الإسلام، د.ت، ص 66).

إنّ تركيز الحديث على معاوية بن أبي سفيان مردّه إلى أهمية الكشف عن سيرة المؤسس الذي وطّد دعائم الدولة الأموية وأقام أركانها، فسار على الدرب خلفه، سوى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي عُرِف بالفسق والمجون حتى انتهى الأمر بقتله كما تروي كتب التاريخ.

ولا بأس أن أقف عند ثلاث شخصيات أساسية كان لها أبرز الأثر في الاحتفاء باللغة العربية وتبزيها والتمكين لها في العصر الأموي، أوردتها على سبيل المثال لا الحصر:

***زياد بن أبيه ت 53 هـ):**

ليَ بلاد فارس وكرمان على عهد الخليفة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ، والبصرة وخراسان وسجستان على عهد معاوية بن أبي سفيان، وقام بتثبيت دعائم ملكه، عمل كاتباً لأبي موسى الأشعريّ كان زيادٌ خطيباً مقيماً، صاحب الخطبة البتراء المشهورة، أول من فرض حظر التجول في الإسلام، وهو من القادة الفاتحين فارس مغوار وكاتب لامع... و"كانفن نبلاء الرجال، رأياً، وعقلاً، وحزماً، ودهاء وفطنة، وكان يضرب به المثل في النبل والسؤدد. وكان كاتباً بليغاً كتب أيضاً للمغيرة، ولابن عباس، وناب عنه بالبصرة" (الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1982، ج3، ص 495). وقال عنه الشّعبي "ما رأيت أحداً أخطب من زياد" (الذهبي، 1982، ص 496) إنه واحد من دهاة العرب وساساتها وقادتها وفرسانها وخطبائها، نشأ غلاماً فصيحاً وفقى بأسلاً شجاعاً، أخرج ثائرة الثوار والمتمردين، لمّ شعث الأئمة، كما قوم بسيفه ولسانه كل معجج، خطبته في منتهى البلاغة، ولغته عصارة الفصاحة، تنبى عن نفسه الجيئة التي استنكرت بشلة كل ما أحدث في الإسلام، حيث يؤمن تمام الإيمان أن حال هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها.

رسم زياد خطأ متفرداً لفن الخطابة، متأثراً بالطبع بأدب الخطابة في الجاهلية وصدر الإسلام، مؤثراً في كل من أتى بعده لغة عربية فصيحة غاية الفصاحة وأسلوباً بليغاً يأسر القلوب ويخلب الألباب.

كان زياد ابن أبيه خطيباً مصقلاً قادراً على مواجهة جمهوره، عارفاً بنفسية مخاطبيه، ملماً بمواضيع خطبه، أهله لكل ذلك تمكنه من اللغة العربية وتصرفه البديع في أساليبها، يصرفها أنى شاء بكل اقتدار فني وموهبة ساطعة. يقنع بأسلوبه البليغ وحججه الدامغة وخياله الجامح وتصويره البياني الرهيب.

إن المقامات التي شغلها زياد على المستوى الاجتماعي والبيئي والديني والسياسي.. جعلت منه الفارس المقدام والخطيب الموهو الذّحرير.

***عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ):**

الخليفة الأموي الخامس، والمؤسس الثاني للدولة الأموية التي عرفت خلال فترة حكمه أزهى الفترات علماً، واقتصاداً، ورخاء.. نشر الإسلام إلى أبعد مدى ممكن، بنى الجوامع وقبة الصخرة، عني بالمصحف

الشريف، ففي عهده عُمِّل على تنقيط وتشكيل حروف القرآن الكريم، أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن، عيّب الدواوين والخراج كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المَقْلَمَة. قال عنه ابن خلدون: "أعظم الناس عدالةً، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز" (ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 263) ويقول عنه ابن الأثير: "كان عاقلاً حازماً أديباً لبيباً عالماً" (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4، ص 520).

اهتمَّ عبد الملك بن مروان بالعلماء والشعراء والمفكرين اهتماماً واسعاً وأولاهم عناية خاصة. قال عنه الشعبي: "ما جالسْتُ أحداً إلا وجدتُ لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه" (الذهبي، 1982، ج4، ص 248).

كلَّ هذه الصنائع والمناقب التي ذكر المؤرخون والفقهاء تدلُّ على اهتمام الرجل بالعربية قرآناً وشعراً ولغة.. روي عنه أنه قبل خلافته نشأ في المدينة المنورة حافظاً لكتاب الله، يلزم المسجد النبوي حتى اعتبر حمامة المسجد، يصدق بتجويد القرآن الكريم وتلاوته تلاوة تقشعر منها الأبدان.

كذلك تهيَّأت كلَّ الأجواء ليتنفس الناس ملوكاً ورعايا أريج اللغة العربية، في الصحة مثلما في المرض، في السلم كما في الحرب، في الظعن كما في الإقامة..

ومقام الزعامة والسيادة، جعل عبد الملك بن مروان وكلَّ من حذا حذوه قوي البيان، بليغ الأسلوب، فصيح اللغة، خطيباً مؤهلاً قادراً على الإقناع والفصل في النزاعات وفض الخلافات، علاوة على المشاركة في المنافرات والمفاخرات، وإسماع الكلمة في الوفادات والمفاوضات والمجالس والاجتماعات... وبصفته أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين، فهو مدعو لتجويد خطابه في مناسبات عديدة في كلَّ الجُمُع والأعياد الدينية، ينتصب واعظاً مرشداً وموجِّهاً إلى شتى الفضائل والقيم الأخلاقية في ضوء العقيدة والشريعة الإسلامية الغراء. ومن الناحية السياسية، يوجِّه إلى المصلحة العامة والعليا للبلاد، ويستنفر الناس للحرب أو الجهاد ومحاربة الأعداء والمنائين..

*الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95 هـ):

هو عامل عبد الملك بن مروان على العراق وخرسان، وبعده الوليد الذي أبقاه على ما بيده. نشأ في ثقيف القبيلة الكبيرة والمشهورة بالطائف قرب مكة المكرمة، حفظ القرآن، وحفظ مع أبيه الصبية بالطائف، خطيب مفوَّه وأحد بلغاء العصر الأموي الذين بلغت الخطابة على أيديهم درجة عالية من الروعة والكمال والذروة الفنية والإيجاز والتأثير القوي.. وكان على مقدرة وافرة على قول الشعر وحفظه وروايته،

يحبّ البيان وتستهو به الفصاحة. ومن عشقه للعربية وبيائها، وللقول البديع وفصيحته، يروي ابن خلكان (ت 681هـ) قال أبو الحسن المدائني: لما ظفر الحجاج بأصحاب ابن الأشعث، جلس لضرب أعناقهم عامّة النهار، فأتى آخرهم برجل من بني تميم، قل له: لئن كذا قد أسأنا في الذنب لما أحسنت في العقوبة، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف أما فيها رجلٌ يحسن مثل هذا؟ وعفا عنه" (ابن خلكان، الوفيات، 1977، ج 2، ص 39)

ومثل هذه المواقف والحادثات كثيرة عنه. يروي صاحب مجاني الأدب ممّا يعرفه عامّة الناس وخاصتهم قصة الفتية الثلاثة الذين أمسك بهم صاحب الحرس عند حظر التجول الليلي، ورفع أمرهم إلى الأمير، فلما كشف عن حالهم، وجد الأول ابن حجاج والثاني ابن قوال والثالث ابن حائك. فتوجّه إلى جلسائه قائلاً: "علّموا أولادكم الأدب، فوالله لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم" (انظر لويس شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب، 1884، ج 3، ص 152).

كأنّ لسان حاله يقول:

كُنْ ابْنٌ مِنْ شَمْتٍ وَاكْتَسَبَ أَدَباً يَغْنِيكَ مُحَمَّدٌ عَنْ الذِّسْبِ

إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: هَا أَنَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

كان الحجاج جديراً ألا يقتل صاحب فصاحة أو مروءة، فكثيراً ما كان يسألُ القراءَ، حتى إذا همّ بقطع الرؤوس، عفا وأصفح إذا أقنعه البيان وأسكت غضبه جلالُ الموقف ونبلُ الشّهامة وقوةُ البرهان.. قال عنه الحافظ شمس الدين الذهبي (ت 748 هـ) وقد أعلن كرهه له، وأنّ له حسناتٍ مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله "... وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن" (الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1985، ج 4، ص 343).

صال الحجاج بن يوسف الثقفي وجمال في طول البلاد وعرضها، في حواضرها وباديها متأبطاً سيفه، متسلّحاً ببيان لسانه وعبقريّة لغته، فيقطع بأحدهما أو بهما معاً، أو يصفح ويعفو، وقد عفا عن كثير.

وهل كان هذا التفوق اللغوي العريض والنبوغ في العربية الفريد لدى هؤلاء الحكّام والولاة والقادة من بني أمية إلا من أصولهم وأنسابهم التي ترجع إلى أفصح الألسن العربية ببلاد الحجاز وشبه الجزيرة العربية عامة، ثم لانغماسهم ونشأتهم في بيئة لغوية باذخة، فضلاً عن حفظهم للقرآن الكريم وتحفيظه والعناية بالقراء والحفظة، ورواية الأشعار والأمثال والتّمسّس بالخطابة والتّرسّل لزمن ليس باليسير.

وهذا الجاحظ أمير البيان العربي، لمّا يحكي عن هطل العرب وتميّزهم بالفصاحة والخطابة، يجعل في سلك الخطباء المفوهين الحجاج بن يوسف وزيداً بن أبيه .. وكيف كانت الخطباء من العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وهل كانت المنابر في أمة قطّ غير أمتنا [...] الدليل على أنّ العرب أنطق، وأنّ لغتها أوسع، وأنّ لفظها أدلّ، وأنّ أقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي ضُربت فيها أجود وأسير. والدليل على أنّ البديهة مقصّور عليها، وأنّ الارتجال والاقتضاب خاصّ فيها [...] وسنذكر أيضاً بقية أسماء الخطباء والنسك وأسماء الظرفاء والملحاء، إن شاء الله. وسنذكر من كلام الحجاج وغيره.. (الجاحظ، البيان والتبيين، 1948، ج1، ص. ص. 384. 385).

وبعد أن أورد أبو عثمان عمرو بن بحر نتفاً وقطعاً من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، كتب يقول: "وقال عمرو بن عبيد رحمه الله: كتب عبد الملك بن مروان وصيةً زياد بيده وأمر الناس بحفظها وتدبّر معيها، وهي: إنّ الله عزّ وجلّ جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه، ومسيء بخذلان الله إياه. والله النعمة على المحسن، والحجّة على المسيء. فما أولى من تمّت عليه النعمة في نفسه، ورأى العبرة في غيره، بلّ يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيه عطي ما عليه منه، ولا يتكذّر مما ليس له فيها؛ فإنّ الدنيا دار فناء، ولا سبيل إلى بقائها، ولا بد من لقاء الله عزّ وجلّ. فأحذركم الله الذي حذركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما آخوته العجّة، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها، فلا تقدروا فيها على توبة، وليست لكم منها أوبة. وأنا أستخلف الله عليكم، وأستخلفه منكم". يقول الجاحظ: وقد روي هذا الكلام عن الحجاج، وزيداً أحقّ به منه" (الجاحظ، البيان والتبيين، 1948، ص. ص. 387. 388).

يُستخلص من هذا الشاهد وسابقه جملة أشياء من بينها:

- زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي من الخطباء العرب المفوهين البارزين في تاريخ الأدب العربي
- تقارب مستوى الرجلين في الأسلوب الخطابي الذي يعكس الشخصية والمزاج والبيئة، وقوّ التأثير في المستمعين سواء في الوعظ أو في التهديد أو في غيرها من المقامات والسياقات.
- زياداً والحجاج وطّدا دعائم الحكم الأموي بالسيف والقلم، ولهما حظوة مكيّة في نفس معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان بن الحكم.

كانت العرب تكتب بماء الذهب وتحفظ وتدبّر كل شيء ذي بال عندها سواء كان شعراً مثل المعلقات، أو نثراً من خطب و أمثال وحكم ومواعظ..

- جلال اللغة العربية واضح في مثل هذه الخطب التي تعدُّ تعبيراً جميلاً وقوياً عن العواطف والأفكار بأسلوب مؤثّر جذاب ينم عن تفكير منظم ومنطقي مُحكم... يدلّ على تطور فن الكتابة وانتشارها في عهد وخلافة بني أمية.

ولأمر ما أسهب الناس في الحديث عن دهاة العرب الأربعة - وجميعهم كانوا تحت ظلال بني أمية أو من بطونها خالوا : معاوية بن أبي سفيان في الحِلْم والأناة، فغاياته في الصبر على الأذى والمكروه لا تُدرك، وعمرو بن العاص في العضلات والخروج من الأزمات، والمغيرة بن شعبة في سرعة البديهة وقوة العارضة، وزيد بن أبيه يصلح لكلّ كبيرة وصغيرة، كما بيّنت في بعض سيرته. وكانوا جميعاً على حِطّ وافر ونصيب أوفى من الفصاحة والبيان وحيث تقدير مكيّن للغة العرب.

وإذا كان أوج الحضارة والعصر الذهبي للعلوم مع بني العباس، فإنّ الذي وضع أسس هذه النهضة هم الأمويون على نحو ما عرفت حركة التعريب كما أشرت سابقاً في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي اتخذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة تستخدم في كلّ مشارق الأرض ومغاربها، فمكّن لها، فصارت بفضلها وبفضل كل من كانت له حمية وغيرة ذات صبغة عالمية، يتحلّثها الصغار والكبار على السواء، سيما إذا علمنا أنّ معظم الحكّام تفنّونوا في فن العمارة وإنشاء المساجد والكتاتيب لتحفيظ الناشئة القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ دينهم الإسلامي الخفيف وثقفاً من علوم دنياهم.

ومع سعي خلفاء بني أمية إلى تدوين العلوم وتعريبها، تيسّر للعلماء المسلمين الاطلاع عليها وتطويرها، مرهومة انتشارها في كلّ الأرجاء، حيث اقتبس منها الأعاجم ما وسعهم ولم يذخروا جهداً.

يتّضح إذاً أنّ الدولة الأموية هي دولة الفتوحات الكبرى والتأسيس الحضاريّ اعتماداً على المؤهلات الذاتية وعلى رأسها اللغة القومية، في إطار حركة التدوين التي انطلقت بقوة ونشاط مع انتعاشة حقيقية للترجمة من وإلى اللغة العربية.

وقد أورد صاحب (زهر الآداب وثمر الألباب) بعضاً ممّا يؤكد الحنكة السديدة والسياسة الرشيدة لزعماء بني أمية. فقد "وفد أهل العراق على معاوية رحمه الله، ومعهم زياد، وفيهم الأحنف فقال زياد: يا أمير المؤمنين؛ أشخّص إليك أقواماً الرغبة، وأقعد عنك آخرين العُذْر، فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يُجبر به المتخلّف، ويكافأ به الشاخص. فقال معاوية: مرحباً بكم يا معشر العرب، أما والله لئن فرقت بينكم الدعوة، لقد جمعتكم للحم؛ إنّ الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم، ثم حفظ عليكم نسبكم... ولا تدنسوا أنسابكم وأعراضكم، فإنّ الحَسَن منكم أحسن لقربكم منه، والقبيح منكم أقبح

بعدكم عنه. فقال الأحنف: والله يا أمير المؤمنين، ما نعدم منكم قائلاً جزيلاً ورأياً أصيلاً، ووعداً جميلاً؛ وإن أخاك زياداً لم يتبع آثارك فينا، فنستمع الله بالأمير والمأمور" (الحصري القيرواني، زهر الآداب، 1999، ص. ص. 88. 89).

ثالثاً: تأثير اللغة العربية على الأمم والشعوب منذ الخلافة الأموية

قد يكون من المهم طرح سؤال جوهري: كيف تعربت الكثير من الأمم والشعوب زمن الفتوحات الكبرى؟ وما العوامل المساعدة على عملية التعريب على عهد بني أمية؟

لا شك أن العرب لم يمتزجوا بالأمم الأجنبية كانوا في موقع قوة وغلبة، وكان بنو أمية لا يختارون ولا تهم إلا من العرب الخالص من طينة الحجاج بن يوسف الثقفي وعمرو بن العاص السهمي القرشي الكناي وزباد بن أبيه ومن على شاكلتهم.. الشيء الذي سمح للغة العربية أن تضرب بجراحها في كل الأنحاء. فلقد "اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة في أقطار الأرض، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب، وعبروا رقعة الماء الضيقة في جبل طارق، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها في الهند. وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه في العراق والشام، فساعد ذلك على تعرب هذين القطرين سريعاً، وأخذت تتعرب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل. ومن حينئذ لم يعد اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحلهم، فقد أخذ يشيع في شعوب قريبة وبعيدة، وسرعان ما تعربت، وكان ممّا هيّا لتعربها نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحهم الواسعة، فقد أدخلوا رقيق الحروب في ولايتهم، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كي يدخلوا في هذا الولاء ويتنسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية" (شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي "العصر الإسلامي"، 1963، ص 169).

ولا يخفى على أحد تمكّن القوم الذين أخذوا بنظام الولاء من ناصية العربية، وأنهم كانوا أبصر باللغة وأقدر على تصنيفها وأعلم بحكمة الوضع فيها، ومذهبهم فيها لا يدفع ويقوم ولا ينقص. وكانت أسباب اللغة - على حدّ تعبير الراجعي في الأقدمين - "ميسرة لهم ينشأ الناس منهم على حفظ رواية ويتلقى عن أشياخ ثقة قد أخلصوا نيتهم للعلم وناصحوا عن أنفسهم فيه وجمعوا واستوعبوا وكأما عَصرت أرواحهم من الفنون عصراً وكأنّ في الواحد منهم روح مكتبة كبرى" (تحت راية القرآن، 1996، ص 11).

وتأثير العربية في سائر اللغات التي احتك أهلها بالعرب والمسلمين لا يُحصى خصوصاً في الديار الأوروبية، وذلك أنّ الباحث في أصول الكلمات والألفاظ والمصطلحات في اللغات الأجنبية، في الإسبانية والفرنسية

والإيطالية مثلاً، يكتشف بيسر حجم المادة اللغوية الضخمة التي تسربت من لغة الضاد، فُحِفت قليلاً، فتم تداولها؛ ولا يتسع المقام لجردها، فهي تحتاج أطاريح ورسائل خاصة.

وتذهب بعض الدراسات إلى كون ربع مفردات اللغة الإسبانية من أصول عربية من قبيل: **Alcaide** /القائد . **Alcalde** /القاضي . **Alferez** /الفارس . **Alamin** /الأمين . **Alarife** /العريف.. في معجم الحُكم والسلطة؛ وفي معجم الطبيعة والأزهار، نذكر: **Jazmines** /الياسمين . **Arrayan** /الريحان. **Azahar** /الزهر . **Azucenas** /السوسن... وهلم جرا.

كان التأثير في البداية على اللغة البرتغالية والقشتالية (الإسبانية القديمة) وجميع اللغات التي كانت على خطّ التماس مع العرب الفاتحين من بني أمية، وهو تأثيرٌ فرضته أنظمة الحكم وسياسة التعريب التي أقوها الخلفاء والولاة ببلاد الأندلس عامة، وعبرها إلى الربوع الفرنسية وغيرها.

ولا نستغرب ذلك الأمر والعرب المسلمون أقاموا بالديار الإيبيرية زهاء ثمانية قرون شادوا خلالها علوماً وآداباً بديعة، وحكماً فريداً، وخلّفوا طبيعة خلافة غناء، وعمارة لم يشهد التاريخ مثالا لها. وطوّروا حضارة زاهية تجلّت عندها عبقرية بني أمية ودهاء حكامها. يقول الدكتور جودت الركابي " إنّ نجاح صقر قريش في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس يعدّ حادثاً هاماً في تاريخ العرب، وإذا كانت الدولة الأموية قد وطّدت دعائمها في هذا العهد عهد إمارة قرطبة المستقلّة، فإنّها بلغت أوجها من الرقي والحضارة في عهد عبد الرحمن الثالث. فبملكه تبدأ الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٣٠٠ للهجرة، هذه الخلافة التي ازدهر فيها الأدب والفنّ سنرى مداه ونشعر بأصالته وغازاته" (جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، د.ت، ص.ص. 17. 18).

وليس بمُستغرب أن يؤثر احتكاك العرب المسلمين بغيرهم على مستوى اللغة والثقافة وطبائع الحياة، أو حتى أن يستعربوا على الجملة كما هو الحال بالنسبة إلى المغاربة غداة الفتح الإسلاميّ. يقول العلامة عبد الله كنون: "نتيجةٌ طبيعيةٌ أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم، ويتعلّموا لغة التنزيل الذي هو دستور الإسلام وأفقُهُ، والمصدر الأول لجميع أحكامه وتعاليمه. فإنّما بالعربية تُفهم أصوله وفروعه، وتقرّر شرائعه وأحكامه. على أنّه إذا كان الإسلام، دينَ الفطرة والخلق القويم، مستعدّاً بذاته للانتشار؛ فكذلك هذه الفصحى، لغة البيان والشعر، تمتلك برقيتها القلوب، وتستلب العقول. وأحرّ بالشعب الذي دخله معاً، فرجّب بهما وأحسن اقتبالهما، أن يشهد التطور العتيد، والفتح الجديد في مزاجه وعقليته وحياته العامّة"

(النبوغ المغربي، 1960، ص. ص. 41. 42)

إنّ ذكر الأندلس - ذلك الفردوس المفقود - يكون كافياً لاستحضار وبحسرات عميقة وروح مُمَرِّضة ملحمة النصر واستذكار رسائل إنسانية محمّلة بعبق القيم العربية الإسلامية كثوابت حضارية! ألم تكن اللغة العربية آثارا فنية متفردة في الصوامع والمحاريب والأقواس والأبواب والجدران وغيرها، تشي بعبقرية الفن والمعمار العربيّ الإسلاميّ؟!

هذا الخط العربيّ ينم عن فنّ أصيل اختصّ به المسلمون، فانتشر معهم حيثما حلّوا وارتحلوا، وهو تجسيد لقيم فنية وجمالية وأحد المقومات الثقافية والحضارية لأمة الإسلام، لقي استحساناً لدى الأتراك والهنود والفرس والأفارقة وجميع الأقوام منذ العصور الأولى لإقامة المسلمين بينهم.

وفي سياق التأثير الحضاري للعربي على الثقافات الأوروبية، فقد خلق المٌستعرب الإسباني المعاصر "إميليو غونزاليث فيرين" إخراجاً شديداً للدوائر والأوساط الثقافية الأوروبية عامّة والإسبانية خاصّة، عندما رافع من خلال كتابه (عندما لمكّد رباً) عن أطروحة "الاعتراف الإسباني خاصّة والأوروبي عامّة بالماضي العربي الأندلسي باعتباره حلقة مركزية في تقّلم الغرب المسيحي، وأنّ الثقافة العربية الإسلامية شكّلت حجر الزاوية في النهضة الأوروبية" (مجلة الدوحة، 2019، ص 64)، لأنّ اللغة العربية كانت آنذاك لغة الثقافة والمعارف والعلوم، وهي اللغة التي بها أنتج ابن رشد وابن طفيل ومن كان قبلهما وبعدهما. فبدون هؤلاء ما كان للتنوير الغربي أن يشقّ طريقه بثبات.

ولمّا أحاطت بالأمة الإسلامية الوهن من كلّ جانب، تفرّجت (نسبة إلى الإفرنج) علّوها وكلّ مظاهر حياتها، ودلّت لغتها، ودكّت أركانها، ولم يعد لها من لسان تدافع به عن أقدس مقدّساتها وأشرف قضاياها إلا بلغة الأجنبي، حتى لو كان الأمر بين أطراف متنازعة كلّها عربية، لا لشيء سوى أنّها تحت مظلة أُمّية.

الخاتمة:

إجمالاً، إنّ دخول اللغة العربية إلى جميع الأقطار والبلاد في سائر الأرض شرقاً وغرباً ومنذ القرن الأول للهجرة كان عبر الفتوحات الإسلامية، وبعد تمكّن الإسلام من الحكم صارت اللغة العربية بالضرورة لغة الدولة ولغة الكتابة والقراءة والتجارة والحوار والتواصل وعقد العهود وإبرام المصالحات، ولغة كتابة التاريخ وتدوين التشريع والقوانين والأحكام... وصار لدولة العلم والأدب سوقاً رائجة تحمل في ثناياها ذخائر ثقافة عربية وحضارة إسلامية عزّ نظيرها، تركت آثاراً حميدة في الأصقاع المفتوحة، "هكذا جعل الإسلام من العربية الفصحى نموذجاً مفروضاً ومثلاً أعلى يقتفيه كلّ كاتب عربي... وتكلّفت القواعد التي وضعها

النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل بعرضها وتصويرها في جميع مظاهرها في صورة مقننة شاملة" (يوهان فك، 2014، ص 9).

تقدّم الفاتحون العرب في أرجاء الأرض يبلّغون رسالة الإسلام، فاختار بعضهم البلاد الجديدة فقاماً وسكناً برداً وسلاماً، فهذه قبائل عربية استوطنت بالغرب الإسلامي مثل بني هلال وبني سليم وغيرها تجذّرت بإقامتها الهوية واللسان العربي القويم. وإن كان من الدارسين من يرى دخول الكثير من القبائل العربية إلى ديار المغرب الكبير غزواً جامعاً تحركه نزعات سياسية، لا فتحاً إسلامياً مبيناً!

إنّ من بين ما مكنّ للغة العربية وصيّرها علمية في عصور الدولة الأموية، كون هذه السلالة الحاكمة عربية من أصول بدوية تمتلك ناصية اللغة العربية وتعزّز بها وتفخر، فكان ذوو السلطان يبعثون بفلذات أكبادهم إلى البادية ليرضعوا العربية صافية نقية من دنس ولوثة الأعاجم، وكان الحديث باللسان العربي المبين دليل رقي ومكانة اجتماعية، عكس ما يحدث في زماننا هذا، فكلّ من تشلّق بلغة الإفرنج، صار له مقام لا يضاهي، ومنزلة يُحسد عليها.

ولا ريب أنّ اللغة لا تسمو إلا بأصحابها، ولا تعتلي الذروة إلا عن طريقهم، فلما كانت الغلبة للعرب أيام الأمويين، كان للغتهم السيادة والريادة في علوم الدنيا والدين وفي أبسط أمور الحياة وتفصيلاتها وهوها.

وبرأي المتواضع، فإنّ أسباب التراجع والفشل الذي قوّض الدعائم وهدم الأركان، وقلّص من حجم الهيمنة والظهور القوي للغة العربية، العصبية والنزاعات الداخلية وإبعاد الأولياء وتقريب الأعداء والوقوع في براثن الخذلان، وإفساح المجال لغير العرب لتسيير دواليب الحكم، فانقادوا إلى نزعاتهم الشعبية الرخيصة وأهوائهم العدائية للعرب ولغتهم الشيء الذي غيّر الأوضاع، وأدى إلى انحسار الشأو العربي والمجد الإسلامي المبرّز. يقول الشاعر محمود غنيم:

ويح العروبة كان الكون مسرحها فأصبحت تتوارى في زواياه

وقال الشيخ إبراهيم اليازجي:

ألستُم من سَطوا في الأرض واقتَحوا شرقاً وغرباً وعزُّوا أينما ذهبوا

فما لكم ويحكمُ أصبحتم هملاً وجهُ عزِّكم بالهون منتقبُ

إنّ فشل اللغة من فشل أهلها والقائمين عليها، فلما احتفى العربي بلغته واعتزّ بها وأنشأ بها منتوجه الفكري والعلمي في الطبّ والفلسفة والفلك والطبيعة والأدب وغيرها، خاصة في عهد بني أمية الذين

دافعوا عن حماها وذاذوا عن حوزة الدين وحماية الثغور، مكّنوا للعربية وجعلوها في أقاصي الأرض مُعَوَّلًا جديرًا ومرجعًا قويًا.

التوصيات:

1. ضرورة الحذر ممّا يبيّنه بعضُ المستشرقين وأذناهم الذين عملوا على تشويه تاريخ الإسلام وطمس حقائقه الناصعة خاصة في فترة صدر الإسلام وخلال الحكم الأموي.

2. الانتباه إلى كون تاريخ الدولة الأموية تعّرض لهجمة شرسة من قبل خصومه وأعدائه الذين حاولوا طمس ما لديهم من فضائل ومناقب وإيجابيات، وتوسعوا في ذكر السلبيات وتفننوا في نشر الأكاذيب والأراجيف فكثيرٌ من التّهم التي لُفّقت لهم لا تصمد عند التمحيص والتدقيق العقلي والمنطقي لأنّ كلَّ الحقائق التاريخية تثبت تمجيد بني أمية للغة العربية وتمكينهم لها في كلِّ المحافل والمجالس والمنتديات...

3. الاحتياط ممّا أورده الإخباريون خاصة الذين استعملوا مرايا محدّبة لتضخيم هنات بعض حكام بني أمية، وسلّطوا الضوء على مواقع الفتنة، ونسوا أو تناسوا فضلهم في الانتصار للدين الإسلاميّ عبر الفتوحات التي بلغت في عصورهم أقصى مدى، من ثمة أسهموا في الانتشار الواسع للغة العربية.

4. ضرورة الاجتهاد في بعث اللغة العربية وتطويرها ووضع برامج وأنظمة معلوماتية تساعد على تحديد كثير من قضاياها معجماً وصرفاً وتركيباً... لتتخذ لها موقعاً يناسب عبقريتها ويجعلها في ريادة العالم كما كانت في الماضي الزاهر للمسلمين، وخاصة في عهد بني أمية، الذين قيل عن دولتهم أنها كانت عربية أعرابية تتعصّب للجنس العربي.

5. على الدول والمؤسسات والأفراد أن تشكلّ ذلك الامتداد في القيام بالأدوار الناجعة بالنهوض الحضاري، وأول مدخله المدخل اللغوي، لأنّ لغتنا حضارتنا. كما صنع بنو أمية بفعل امتلاكهم لقيم حضارية استطاعوا من خلالها العناية الفائقة باللغة العربية التي شملت كلَّ العلوم، ونصّعت ناصية كلَّ الآداب والفنون في فترة حكمهم.

6. لا بد من إعادة هيبة اللغة العربية في نفوس الناشئين والباحثين على السواء بعيداً عن طلّانات الشطحات اللغوية والأصوات التي تلّعي ضعف العربية وعدم قدرتها على مسايرة مستجدات التقدم العلمي. إنّ التاريخ خير شاهد على حمل اللغة العربية لكل العلوم الطبيعية منها والاجتماعية وغيرها، التي

أخرجت بفضل ترجمتها أوروبا من ظلمات العصور الوسطى الحالكة؛ فاللغة العربية ليست قاصرة، بل تحتاج فقط إلى جهود أبنائها البررة، على غرار ما سجّلته صفحات التاريخ في عصور الدولة الأموية.

المصادر والمراجع:

- (1) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني الجَزَري، (1981)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر.
- (2) ابن خلدون، عبد الرحمن، (2000)، تاريخ ابن خلدون، ضبط متنه ووضع حواشيه وفهارسه الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، بيروت، دار الفكر.
- (3) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (1977)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عَـسَّاس، بيروت، دار صادر.
- (4) أمين، أحمد، (1952)، يوم الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي.
- (5) الأندلسي، ابن بَسَّام، (2000)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عَـسَّاس، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- (6) التويجري، عبد العزيز بن عثمان، (1998)، الثقافة العربية والثقافات الأخرى، الرباط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو.
- (7) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، (1948)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر.
- (8) الخفاجي، عبد المنعم، (1973)، الحياة الأدبية في عصر بني أمية، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
- (9) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (1985)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- (10) الرافعي، مصطفى صادق، (1996)، تحت راية القرآن، ضبط وتحقيق عبد الله المنشاوي، المنصورة، دار الإيمان.
- (11) الركابي، جودت، (1970)، في الأدب الأندلسي، القاهرة، دار المعارف.
- (12) شيخو، لويس، (1884)، مجاني الأدب في حقائق العرب، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين.
- (13) الصلابي، محمد علي، (2008)، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، بيروت، دار المعرفة.

- (14) ضيف، شوقي، (1963)، تاريخ الأدب العربي . العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف.
- (15) عويس، عبد الحليم، (2010)، أوراق ذابلة من حضارتنا . دراسة سقوط 30 دولة إسلامية، القاهرة، مؤسسة اقرأ.
- (16) الفاخوري، حنا، (1996)، تاريخ الأدب في المغرب العربي، بيروت، دار الجيل.
- (17) فك، يوهان، (2014)، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب . ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية . إدارة الشؤون الفنية .
- (18) القرضاوي، يوسف، (2013)، تاريخنا المفتري عليه، القاهرة، دار الشروق.
- (19) القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، (1999)، زهر الآداب وثمر الألباب . شرح الدكتور زكي مبارك . ط 5، بيروت، دار الجيل.
- (20) كنون، عبد الله، (1960)، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الثقافة.
- (21) ولد آبله ، المختار، (2009)، رحلة مع الشعر العربي، القاهرة، دار نجيبويه.

المجلات:

- (1) كتاب الدوحة عدد 137 . مارس 2019.
- (2) مجلة البيان، عدد 334، مقال للدكتور أحمد العثماني تحت عنوان: قصة تعريب بلاد المغرب، جمادى الآخرة 1436هـ / مارس . أبريل 2015م.
- (3) مجلة العربي، عدد 516، مقال للدكتور عادل زيتون تحت عنوان: الفتوحات العربية الإسلامية: قراءة تحليلية، نونبر 2001.

الدرس اللغوي العربي الحديث تأثر أم تبعية؟

الدرس الصوتي نموذجاً

Modern Arabic language lessonPhonetic lesson as a model

د. حمّادي الموقّت

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين - جهة بني ملال خنيفرة

Dr. EL MOUKET Hammadi

Abourayhana1@gmail.com

الملخص:

لأننا وصلنا في دراستنا اللسانية الموسومة ب(العربية)، ونظرياتها اللسانية على وجه التحديد، حدّ "التُّخمة"، ولأن الباحث في الصوتية العربية لم يعد يستطيع تمثّل تخصصه، ولأن مراجعة التراكم البحثي اللساني الصوتي وتدقيق نظرياته إن كان يتوفر بالفعل على مرجعية نظرية يستحق أن تُنسب إليه، فقد أضحي الأمر ضرورة ملحة، دفعنا إلى طرح هذا الإشكال أرضية للنقاش مع المتخصصين وتعميق البحث في تساؤل موضوعي مؤيّن يقول: هل نحن فعلاً لدينا لسانيات عربية، وبالتالي صواتة عربية؟ من هذا التساؤل البحثي، جاءت فكرة قراءة الدرس الصوتي العربي الحديث وقياس مخرجاته المنهجية، والتنظيرية، اعتباراً لما تبناه من نماذج غربية يرتقي في أحضانها دون أن يمنح لنفسه فرصة تطوير نموذج التراتبي حتى يكون له منطلقاً سليماً وموضوعياً دون فكر إقصائي يقلل من شأنه، وذلك منذ الخليل، وسيبويه، وابن جني....

- فلماذا لم تستطع اجتهاداتنا الصوتية العربية إنتاج توجه صوتي عربي حقيقي بمبادئه ومنهجه؟
 - ولماذا الإصرار على هذا الانجرار نحو الغرب في إنجازاته البحثية الصوتية التي توجهت في أساسها للغة الإنجليزية؟
- الكلمات المفتاحية:** اللسانيات، الصوتية، المصطلحات، التبعية اللسانية، النظريات، المناهج، الصوتية الخطية، الصوتية المستقلة المقطع...

Abstract:

Because we have reached in our linguistic studies tagged with (Arabic), and its theories of Phonology specifically, the limit of "fullness", and because the researcher in the Arabic Phonology can no longer represent his specialty, and because the review of the accumulation of research Phonologic and the scrutiny of his theories if he already has a theoretical reference deserves to be attributed to him, it has become an urgent necessity, prompted us to raise this problem as a ground for discussion with specialists and deepen the research in the question of the founder says Do we really have Arabic linguistics, and therefore an Arabic Phonology?

From this research question, the idea of reading the modern Arabic Phonology study and measuring its methodological and theoretical outputs, in view of the western models that he adopted, is to be thrown into its arms without giving himself the opportunity to develop his heritage model so that he can have a sound and objective starting point without a exclusionary thought that diminishes him, since Xalil, Sibawaih, and Ibn Jini.

- Why couldn't our Arab Phonology -overs produce a true Arab Phonology orientation with its principles and approaches?

- Why insist on this drift towards the West in its Phonology research achievements, which were mainly directed at the English language?

Keywords: Linguistics, Phonology, terminology, linguistic dependency, theories, approaches, linear Phonology...

المقدمة:

إننا إذا تمعنا قليلا في الاجتهادات الصوتية الحديثة التي تُطَبَّق على النسق الصوتي العربي الآن، على غرار الصوتية التقليدية لسوسير وترويسكوي، والصوتية المعيار لتشومسكي، والصوتية المستقلة القطع مع كولدميث، والصوتية العروضية مع ليرمان، وغيرها... لألفيناها بالإجمال القطعي غريبة خالصة تمت استعارتها، لتملأ الفراغ النظري الذي تُعانيه الساحة اللسانية العربية اليوم، وكأن الفكر العربي الصوتي الحديث، منذ رحيل الرعيل الأول الذي وضع الأسس الأولى للدرس الصوتي العربي بقيادة الخليل بن أحمد، أبدى عجزه في استحداث نموذج صوتي عربي خالص، يستفيد من التراث أو من اجتهاداته البحثية وتكون له الكفاءة العلمية على مقارنة ظواهره الخاصة، وتمثيلها.

ولقد نتج عن هذا الواقع؛ غياب الفهم والتمثل الجيد للمعرفة الصوتية العربية، سواء لدالباحثين المتمرسين بهروهم وانجراهم وراء النظريات الغربية، أم لدى الباحثين المبتدئين الذين تحيروا في الاختيار بين هذه النظرية وتلك، أو بين تقدير التراث العربي دون عُلّة علمية ومنهجية لازمة لمواجهته.

ومرد هذا التردد والتحير يعود - في نظري - إلى سلطة التبعية الصوتية للغرب، التي وقع فيها البحث الصوتي العربي الحديث، وأوقع معه طلاب الصوتية فيها، على اعتبار أن الغرب يشكل - بالنسبة إلينا، شئنا هذا أم أبنائه - مصدر المعرفة الصوتية، واللسانية بشكل عام؛ ليتم بناء على هذا استيراد مختلف النظريات الصوتية الغربية الحديثة في قالب جاهز منهجا وتنظيرا، مفاهيم وتصورات...؛ ليكتفي الباحث اللساني العربي بتطبيقها على ظواهر اللغة العربية، مع الاضطرار في كثير من الأحيان إلى ليّ عنق هذه الظاهرة أو تلك، لتنسجم قسرا مع تلك المعرفة التي تطورت بالتدقيق والمراجعة عن أصولها الغربية منذ فرانس بوب سنة 1816م، إلى سوسير من خلال محاضراته عام 1916م، وصولا إلى ترويسكوي سنة 1936، وانتهاء بشومسكي عام 1956م بنياته التركيبية.

والحال أن إرهابات الدراسة اللغوية والعلمية للغات البشرية في حقيقتها ليس لها تحديد زمني إلا من باب تكريس منطق الحداثة، ومحاولة الانعتاق والانسلاخ مما تركه أجداد اللسانيات الذين أسسوا لمبادئها الأولى سواء

في الغرب مع اليونانيين، والهنود، أو في البيئة العربية مع الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وابن جني، ومن جاء بعدهم.

بيد أن التراكم البحثي في اللغة وظواهرها، وتقدمه جيلا بعد جيل هو ما أثمر اللسانيات التي نعلمها اليوم حديثة ومتطورة ببعدها العلمي، والحقيقة إن البحث اللساني بدأ "علميا" قبل هذا؛ مع شعوب وحضارات قديمة اهتمت بأنظمتها الصوتية اهتماما على قدر الأدوات البحثية المتوفرة لديها في وقتها، وأخص بالذكر الهنود واليونان ثم العرب...

ومع تقدم البحث اللساني وتطوره؛ تطورت معه نظريات صوتية كثيرة، اختلفت في زوايا النظر، وفي آليات تمثيل الظواهر الصوتية لهذه اللغة أو تلك، وفق منطق "الكليّة **Universalité**" الذي تبناه تشومسكي، بما فيها اللغة العربية طبعاً.

وفي تراكم النظريات الصوتية، التي لم يُشارك في التنظير لها الباحثون العرب، اكتفوا باستعارتها ومحاولة تطبيقها على النسق الصوتي العربي سواء أكان لهم فهم عميق ودقيق لقواعدها، أم لا. ومهما يكن فإن المعرفة التي تُفرض دون اجتهاد في إنتاجها من مستهلكها؛ لاشك أنها ستكون معرفة ناقصة من جهة، ولا تشكل مصدر قوة لِمُتَعَمِّدِ الموضوع من جهة ثانية، لاسيما إن كانت هذه النظريات مستحدثة في الأصل للغة بشرية غير العربية، حتى لو كان الأمر يتوافق مع مبدأ "الكليّة"، لأن هذه "الكليّة" لاتصح؛ ولا يقوى مسوغها إلا مع دراسة الخاص أولاً.

ومسألة الكليّة والتخصيص هنا؛ مسألة تحتاج إلى بعض الضبط، فلو افترضنا جدلاً أن اللغات البشرية - لغة واحدة تفرعت إلى ألسن، ففترعها معناه الانتقال مما هو كلي إلى ما هو خاص. وفي سياق مهمة دراسة الألسن، فإن القصد هو تتبع أوجه الاتفاق، وأوجه الاختلاف بينها، وبالتالي سنتحدث عن الخاص في اتجاه الكلي؛ لكن أن نسعى في استحداث نظام كلي يستجيب لمجمل قواعد اللغة الواحدة وقوانينها، دون معرفة خواص الألسن وضبطه؛ فهذا يبدو منطقاً وواقعاً - أمراً غير مقبول وغير معقول، لاسيما ونحن تجاوزنا نصف قرن من زمن الدعوى إلى الكليّة، وفي كل مرة ترى تطوراً لنظرية ما، على حساب سابقتها دون أن تتجلى أمامنا نظرية كلية واضحة المعالم والنظام.

أولاً: بين الصوتية العامة والصوتية العربية

إن السعي في التأصيل لميلاد "اللسانيات العربية" بصيغتها الحديثة، أمر يمكن نعتة بـ "حالة علمية" طارئة على البحث اللغوي العربي القديم وليست تطوراً عنه، والحال أنه ينبغي أن تكون كذلك، بيد أنه - وللأسف - تمّ استيرادها في قالب غربي جاهزٍ منهجاً، ونظريةً، ومبادئ، ومصطلحات، ليكتفي الباحث اللساني العربي بتطبيقها على ظواهر اللغة العربية، اقتناعاً بما تارة، وتعصباً لما تارة أخرى، وهو الذي رسم حدود القطيعة -

بشكل سافر - بينه وبين تراثه القديم، إلا فيما نذر من الأبحاث الحديثة الجادة التي لم تجد العناية اللازمة، يُقدّم عليه البحث اللساني الغربي الذي تطور بالتدقيق والمراجعة عن أصوله التراثية، كما سبق وأن أشرنا. ومن بين أهم الإشكالات التي تفرق النقد اللساني العربي اليوم، طبيعة ما يُنتج من اجتهادات أو كتابات لسانية، حيث يتساءل عما إذا كانت حول اللسانيات أم في اللسانيات، وقياساً على هذا الحكم، فإنه يتساءل ضمناً عما إذا كانت البحوث الصوتية العربية في صَوَاتِ العربية أم حول صَوَاتِ العربية؟

لقد حاول مصطفى غلفان - في هذا السياق - التمييز بشكل عام؛ بين اللسانيات العربية، ولسانيات العربية بقوله إن: "اللسانيات العربية هي كل ما يُكتب في اللسانيات باللغة العربية؛ سواء تعلق الأمر باللسانيات العامة أو لسانیات العربية أو لسانیات أية لغة من اللغات الطبيعية" (غلفان، 1998، ص 33)، وعطفاً على هذا التحديد؛ يحق لنا القول: إن الصوتية العربية هي كذلك كل ما يُكتب في الصوتية باللغة العربية، سواء أُنشئ الأمر بالصوتية العامة (الكلية)، أم بصوتية العربية، أم بصوتية أية لغة من اللغات الطبيعية. والنتيجة أننا نعيش في ظل لسانیات تعاني التردد والعبث النظري اللذين خلّفاً وضعية التذمر واليأس من لسانیات كان يُعول عليها كثيراً لتثبيت أقدام الحداثة (...)، وأننا في لسانیات لا تراوح مكانها، لسانیات فقدت بريقها ولمعناها اللذين دوخا المثقفين والباحثين العرب إلى عهد قريب، (...)، [والأهم] أننا لا نتوفر على درس لساني عربي قائم الذات واضح المعالم والحدود، له خاصيته النظرية والمنهجية، وبرامجه العلمية الراهنة والمستقبلية، فاعلٍ في المحيط ويواكب التطور محلياً وعالمياً (غلفان، 2006، ص 5).

ومن جهته سلك مازن الوعر (غلفان، 1998، ص 34) المسلك نفسه، وفهم الفهم ذاته عندما ميّز بين "التفكير العربي اللساني" و"التفكير اللساني العربي"، داعياً إلى التفكير العربي اللساني، وليس إلى التفكير اللساني العربي، لأنه ينبغي - والكلام للوعر - أن نُكوّن ونشكل فكراً عربياً في اللسانيات، وليس فكراً لسانياً نفرضه على اللغة العربية؛ ومن المفيد أن الكتابة اللسانية واللسانيات العربية تتميز منهجياً عما نُسّميه لسانیات العربية، أي اللسانیات التي تشغل باللغة العربية موضوعاً لها، وأقصد - هنا - اللغة كبنيات أو مستويات صوتية وصرفية وتركيبية إلخ... إذ كان الهاجس الحقيقي وراء استعمال هذه التسميات هو الهاجس النظري والمنهجي وليس شيئاً آخر.

وعليه؛ فعبارة "اللسانيات العربية" توحى بنوع من اللسانیات التي صيغت وُكُتبت باللغة العربية سواء من العرب أم غيرهم، وقد تشمل مجالات كثيرة كالازدواجية اللغوية، والاكتساب اللغوي، والتداخل اللساني وغيرها، في حين أن لسانیات اللغة العربية أخص؛ إذ تقتصر على اللغة العربية وحدها، بما يشمل الأصوات والصرف والتركيب والمعجم والدلالة وما شابهها.. وبالتالي؛ فإن خلق لسانیات العربية، ومنها صَوَاتِ العربية أمر مرتبط نظرياً ومنهجياً بمدى قدرة الأبحاث اللسانية (الصوتية) العربية على اكتشاف الواقع العربي ورصده بوصفه معطى قابلاً للتحليل والبحث من خلال نموذج لساني (صوتي) عام يمكن من إبراز خصائص وسمات هذا الواقع (غلفان، 1998، ص 34).

وبالنظر في حقيقة هذا الواقع؛ نلفيه واقعا صوتيا غريبا خالصا، باجتهادات نظرية غريبة فرضت قواعدها ومنهجياتها، ومفاهيمها عليه، حتى إن قيل: الفونيم قلنا الفونيم، وإن قيل الصوت قلنا الصوت، وإن قيل المورفيم قلنا المورفيم، وإن قيل المحيط الإجباري قلنا المحيط الإجباري، وإن قيل الحدود قلنا الحدود، وإن قيل السمات الساخنة قلنا السمات الساخنة، وإن قيل الصوتية الخطية قلنا الصوتية الخطية، وإن قيل الصوتية المعيار قلنا الصوتية المعيار... وهلم جرا. لكن عندما نقول الصوتية الخليلية مثلا، وندعو إلى تثبيتها في البرامج الجامعية كوحدة من الوحدات، لا شك أنه سيتبرم عن قولها المتبرمون، وينفر من تبنيتها التبعيون...

والحال أننا -بهذا الواقع- أصبحنا في الساحة الصوتية العربية اليوم، لانتداس، ولا ندس سوى صواتات غريبة مستعارة ألقت بظلالها على النسق الصوتي العربي؛ واحدة بنوية، وثانية توليدية، وثالثة صوتية خطية في مقابل اللاخطية، ورابعة صوتية عروضية، وخامسة صوتية قطعية، وسادسة صوتية تطريزية، وسابعة صوتية مستقلة القطع... والقائمة طويلة، وبينها لا تجد مسمى لصوتية عربية أو نموذج لصوتية عربية، أو حتى لاجتهاد صوتي عربي نَقْدَرُه ونُمنحه فرصة التطور ليُصبح نظرية قائمة بذاتها، كنظرية الخليل مثلا التي اعترف بها الغربيون وقدروها على رأسهم الفرنسيين جورج بوهاس، وبرونو باولي... وكل ما نقوم به أننا نجعل هذا النموذج العربي أو ذلك مقدمة نُمهد بها للتطور الصوتي الذي قاده البحث الغربي على لغتنا وباقي اللغات البشرية.

وعلى هذا؛ تدفعنا بعض توصيات هذه الورقة إلى التشديد على استحداث صوتية عربية خاصة، وبالتالي تفكير عربي صوتي منبثق من صميم اللغة العربية وَهَجَّها نُحوها، منها وإليها... دون أن نتأمل فكرا خارجيا يفرض قوانينه، ونظرياته، وتصوراتها على لغة لها من الكفاءة النسبية ما يؤهلها لأن تكون في مصاف اللغات البشرية المنتجة للمعرفة.

إن الانجرار -أخيرا- وراء الغرب في نظرياته واجتهاداته عساه سببا كافيا لإخراج العرب من تاريخهم، وهم الذين صنعوا التاريخ بمؤلفاتهم التي تجل على الحصر، فقضية السيطرة على المعلومة، تأتي من بوابة اللغة، والسيطرة على اللغة وتحجيم دورها هو سيطرة على الاقتصاد، ولعل من شأن عدم السيطرة على اللسان أن تمنح الآخر فرصة لأن يتداول معلوماتك ومعارفك وجهودك بلسانه من خلال البحث فيه... ولهذا عرف أحد الباحثين ويدعى صالح بلعيد اللغة بقوله: إن "اللغة ممارسة"، والممارسة إبداع، فإذا مارسنا العربية في العلوم فسوف تدخل غماره وتعب عن دقائقه، وإن لم نمارسها ستبقى بعيدة كل البعد عن العلمية." (مصطفى، 2019، ص 52).

ثانيا: في كفاءة النظريات الصوتية العربية

في مستهل هذا المحور نتساءل: هل سبق أن وقفنا عند دراسة لسانية أجنبية للغة غير العربية بمقتراح لساني صوتي عربي خالص؟ الجواب طبعا: لا؛ ليس القصد من السؤال هو الانتصار لآتجاه صوتي على حساب آخر؛ ولا لتبخيس أي مجهود صوتي مهما كان، عربيا أم غربيا، لكننا نسعى من وراء هذا؛ البحث عن فُرص التجدد والبعث الذي يعاينه الفكر العربي اللساني، على غرار ما يعرفه الدرس الصوتي الغربي، على الرغم من

أنه ليس في إمكان أحد أن يدعي الحقيقة لنفسه، أو لمنهجه، أو لنظريته كما يقول الدكتور مصطفى غلفان (غلفان، 1998، ص 33)، ذلك لأننا؛ إذا اقتنعنا بأن لكل لسان نسقه الصوتي الخاص؛ فهذا يعني أن "أهله أدرى بشعابه"، وهم المؤهلون معرفيا لتطويره، ولو في سياق المقارنة مع أنساق صوتية أخرى، إذ بضدها تتميز الأشياء كما يُقال.

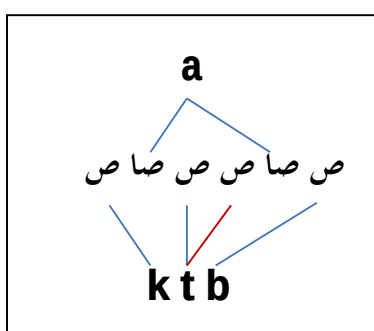
لكن؛ لا نعطي الفرصة للآخر حتى يُعرِّفنا هو بلساننا، ويُلِّس ظواهره، ونكتفي نحن بمباركة اجتهاداته، وفي أحسن الأحوال نتبنى نظرياته بقواعدها ومنهجها ثم نطبقها على ظواهرنا الصوتية سواء توافقت معها أم لا، حينها نبحت عن نظرية ثانية تُنقِّدنا مما لم تستطع النظرية الأولى تمثيله، وبالتنا اكتفينا بذلك، بل في كثير من الأحيان نتعصب لبعضها، ونُقدمها على كل مقترح عربي تحديدي.

فالمد، والتضعيف، والإدغام، والتقاء الساكنين، والقلب، والإعلال، والنبر، والتنغيم، وغيرها... من الظواهر الصوتية العربية التي لاقت عناية خاصة لدى المستشرقين... حيث درسوها وفقها نظام اشتغالها وفق نظريات تفسيرية نتج عنها استحداث قواعد صوتية تنظم عملية اشتقاقها بين المكونين الصوتي (العميق)، والصوتي (السطحي)، منذ اجتهادات الصوتية الخطية المعيار مع تشومسكي، التي أثبتت قصورها في التمثيل لأنغام الألسن، كون الأنغام خارجية (أي فوق قطعية)، إذ عند انتقال القطعة الصوتية تبقى النغمة مكانها، فلسان "الباكويري Bakwiri" المتداول بالكامرون مثلاً؛ تظهر فيه بعض القضايا الصوتية التي لا يستطيع التمثيل الخطي استيعابها، فهو لسان يوجد فيه ما يسمى بالغوص أو لعبة قلب الحروف كما في العربية، ومرد هذه الظاهرة أنه يمكن تحويل المقاطع من أماكنها، دون النغمة التي تبقى محتفظة بمكانها، أي أن الصائت ينزاح عن مكانه لكن النغمة لا تفعل، كما في لفظ: $ké\ li \rightarrow k\acute{i}\ l\grave{e}$. الأمر الذي استغله كولدميت ليقتراح تصورا يعمل على تجاوز هذا الضعف من خلال ما سماه بالصوتية التنضيدية، عبر صوتة ثنائية الخطوط: خط خاص بالنغم (´) وخط خاص بالهيكل... ليأتي بعده مككاري مقترحا التمثيل الطبقي عبر نظرية تتعدد فيها الخطوط والطبقات، وهكذا... إلى اجتهادات الصوتية الأدنوية المحوسبة، واستدراكات لوفينشتام وكاي، ويب وغيرهم.

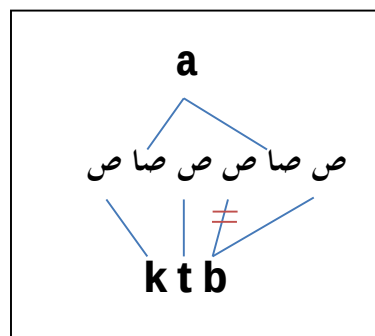
وفي سياق طرح قضية النغم، فالمعلوم أن العربية لغة غير نغمية، ومع ذلك عكف اللسانيون العرب على تفعيل مقترحات الصوتية التنضيدية التي سطر خطوطها Goldsmith (1973, 1974, 1976) على اللغات النغمية (Goldsmith. John, 1976) إذ لاحظ أن التمثيل الصوتي الخطي للقطع لا يستوعب النغم، ليقتراح إدراج مستوى تمثيلي نغمي فوق مستوى تمثيل الأصوات. مع العمل على ربطه بمستوى الأصوات من خلال ما سماه بخطوط الربط Conventions d'association، مع الإشارة إلى أن التمثيل الصوتي متعدد الخطوط في هذه المرحلة اقتصر على خطين بارزين كما قلنا هما: خط القطع (الطبقة القطعية)، و خط النغم (الطبقة النغمية) (موريس هالي، جان فيرنيو، 2015، ص 36)، ثم عد كل خط مستقل عن الآخر، مع إمكانية إلحاق قواعد خاصة بالخطين، لتتطور النظرية فيما بعد باسم "صوتة القطع المستقلة" مع فيرنيو

وهالي. ولعل أمر عدم نجاعة صواتة كولدميث على الألسن غير النغمية، هو ما تنبه إليه مككارتني (McCarthy, 1979) وحاول تداركه مستفيدا مما قدمه كولدميث نفسه، وويليامز من مبادئ لتطبيقها على الألسن غير النغمية.

لكن؛ لكي تكون لدراسته جدة؛ ارتأى مككارتني صياغها في قالب نظري سماه ب: الصرافة غير السلسلية **Theory Morphology non concatenative** (McCarthy, 1981)، أو النظرية المقطعية **segmentale**، والملاحظ هنا - وكما في أي مرة تتطور معها النظريات الصوتية - أن النظرية الصوتية المعيار عندما وقفت عاجزة عن تمثل ظاهرة النغم في العربية، انبرى لمواجهة مككارتني، وهو لساني غربي، والحال نفسه مع ظاهرة التضعيف الداخلي في النظرية المقطعية، فعندما عجزت عن تمثيلها مقطعية، وجد اللسانيون أنفسهم أمام مقترح لسانية غربية تدعى **مورا ييب MoraYip** التي اقترحت مبدأ الربط من الهوامش حتى نبقي ملتزمين بشرط "سلامة التكوين"، معنى ذلك؛ أن مككارتني ألغى عقده القائل بوجود الربط من اليسار إلى اليمين، فقام بفك الربط لصيغة **[kattab]** المحققة في العربية على سبيل المثال، أي بفك الانتشار والتوسع عن عنصرها الأخير **\b** ومنحه لصوت **\t** لننتقل من الشكل رقم (1) إلى الشكل رقم (2):



[katbab]* (2)



[kattab] (1)

ومن العجيب في هذا الموضوع؛ أن التمثيل للظواهر الصوتية وتغليب مبدأ الكلية يتأتى في كثير من الأحيان بلغات ولهجات مندثرة أو تكاد، كلغة الماراكوندا، ولغة تشيريميس الشرقية، ولغة الهاوسا، واللغة الجرمانية البدائية، واللغة الإيسلندية، ولغة البانتو، ولغة الإيكبو، واللغة الهنغارية.... وغيرها كثير لا نجده إلا عند الأقليات في العمق الإفريقي، أو الآسيوي، بغية استيقاء أمثلة منها لتبرير نظرية صوتية معينة أكثر مما تعني الدارسين المحدثين لغات طبيعية هي أكثر انتشارا وتداولاً في العالم كالإنجليزية والعربية والفرنسية...

ثالثاً: في الرد على منتقدي الدرس اللغوي القديم

أما الذي يدّعي بأن اللسانيات والأبحاث اللسانية لم يعرفها العرب من قبل، وأنّ كلَّ ما كان يعرفه العرب هو النحو والدراسات النحوية التي تخدم القرآن والنصوص المقدسة بالدرجة الأولى لدراء اللحن عنها، فإننا نقول: إن هذا الادعاء مردود، وتنقيص من جهود العرب في دراساتهم اللغوية التي لو منحناها من الاهتمام ما تستحق

لكانت تشكل مرجعا أساسا من مراجع الدراسات الغربية قبل العربية. إذ كيف نقول إن اللسانيات تدرس اللغة لذاتها وفي ذاتها، دون أن نعي أن قراءة القرآن قراءةً حسنةً هو عناية بوسيلة القراءة، صوتا وصرفا وتركيبا...

أما قولهم بأن الدراسات اللغوية التراثية كانت معيارية وتحتم بالمكتوب دون المنطوق، فنقول إن العرب عندما اعتنوا بالأصوات وترتيبها وتنظيمها ومخارجها، وصفاتها، وبظواهر صوتية كالإدغام، والقلب، والإعلال... إنما كانوا يمزجون بين المكتوب والمنطوق... تقديرا لهما معا، متتبعين آليات اشتغال اللغة في الذهن من خلال بناها العميقة، قبل تمثيلها صوتيا من خلال بناها السطحية، وإلا لما أفردوا مباحث وازنة لعلم الصرف والتصريف والإعلال وأوجهه تشكله كالعلة وعلة العلة، والفرع والأصل، والصيغ والموازن...

في الوقت الذي نستطيع أن نرد فيه على من قال: إن الدرس اللغوي القديم يهتم بدراسة لسانه الخاص، بقولنا: إن هذا ليس عيبا منهجيا ولا معرفيا، إذ العيب هو دراسة لسان جماعة أخرى على حساب اللسان الأم، أو تقديم نظريات أجنبية لدراسة اللسان الأم دون أن تكون لنا الجرأة المعرفية على دراسة لساننا مستغنيين عما سواه؛ وإن كان لابد؛ فيكفيها التذكير بالاحتكاك والتواصل اللغويين، اللذين كانا بين العربية والفارسية والهندية أيام الخليل بن أحمد الفراهيدي، حيث تقول بعض المظان (بكار، 2009) أنه نهل منهما ما ساعده على تبين نظامه العروضي، وإيقاعاته الموسيقية...

وأما الذي يدعي أن علماء العربية القدامى لم يهتموا باللهجات، فنقول لهم إن اللهجات القديمة كانت تصدر من مشكاة واحدة هي العربية الفصحى نفسها، ومع ذلك فإن الاختلاف بينها انبرى له العلماء في سياق اختلاف المباحث اللغوية الصرفية والصوتية والبلاغية والقراءات القرآنية...

والحال أن هناك علاقة بنائية متجذرة بين الأنحاء التقليدية العربية واللسانيات، ذلك أن الثانية تغدت من الأولى وقامت عليها، فلا نستطيع؛ ولا يحق لنا القول بأن بينهما انفصالا أو حتى اتصالا، بل بنيت الدراسات اللسانية على ما استطاع الفكر العربي اللغوي التوصل إليه، والحقيقة أن ما توصل إليه الفكر العربي جدير بالاهتمام، وحرى بالتقدير، بدءا مما أسس له الخليل بن أحمد في الدرس الصوتي، مستعينا بعلم الموسيقى والرياضيات والنحو... مرورا بتلميذه سيويو في باب الإدغام، وابن جني في سر صناعة الإعراب، وابن سينا في رسالة أسباب حدوث الحروف... والقائمة طويلة...

فمصطلح النحو التقليدي مصطلح مصنوع للتحديد الزمني فقط، في مقابل الحديث ولا يتجاوز ذلك... أي لا يمكن أن يكون تحديدا معرفيا ومنهجيا... لأن النحوي عندما كان يبحث في الأسباب والعلل التي أفرزتها الظواهر اللغوية كالإدغام، والإعلال، والنبر، والإيقاع، والمد، واللين، والتنوين، والزوائد، والصيغ... لم يكن يبحث فقط عن الأوجه المعيارية للاستعمال اللغوي فحسب، وإنما كان يبحث أيضا في محاولة إيجاد تفسيرات للظواهر الصوتية أو الصرفية أو التركيبية التي تقصدها اللسانيات الحديثة بالبحث والمدارسة الآن، ولعل هذا؛ وما شاكله هو ما يكون قد دفع اللسانيات الحديثة إلى الظهور والتشكل كعلم يدرس النسق اللساني الطبيعي

بشكل موسع وأكثر دقة، وهو نفسه ما رамته الدراسات اللغوية القديمة، ولا يوجد الاختلاف بينهما إلا في التسمية حيث اللغويات نسبة إلى اللغة، واللسانيات نسبة إلى اللسان. وسواء كان المصطلح المنسوب إليه لغة أم لساناً؛ فالعرب لم يفتها ذلك.

وإن افترضنا جدلاً بوجود انفصال واضح بين الأنحاء التقليدية والدرس الصوتي، وعلى الأقل، على مستوى الموضوع فهل يقتضي هذا؛ القول بأن الفكر النحوي القديم كان يدور في فلك المعيارية فقط؟ وإن كان الجواب بالإثبات؟ فهل يعني هذا أن النحاة العرب كانوا يجتزون ما وضعه الخليل وسيبويه وابن جني والفراء والمبرد والجرجاني وأن لا عمل لهم غير التععيد للعربية؟

طبعاً الجواب: لا، وإلا فالخليل بن أحمد لم يكن نحويًا فحسب بل كان موسيقياً وصوتياً ورياضياً أيضاً، أراه قد أسس للنظرية الصوتية المقطعية قبل مككاري من خلال نظامه العروضي ... وهذا الأمر ليس له علاقة مباشرة بالنحو، لكنه كان يُقيم أركان نظرية صوتية تدرس بعض الظواهر الصوتية في اللسان العربي.

رابعا: تدقيق مصطلحي صوتي

إن التوقف مع بعض المفاهيم والمصطلحات الصوتية العامة، من باب أنها المفتاح الوحيد لأي دراسة صوتية جادة ومنتجة، يدفعني لأقول: إنه إذا كنا نتحدث عن لغة فإننا نتحدث -كما يقول إجماع اللسانيين- عن ملكة إنسانية (تشومسكي، 2017، ص 26) بيولوجية، وظاهرة اجتماعية وتواصلية، يشتركها الإنسان على اختلاف ألوانه وأجناسه، من منطلق أنها ماهية مجردة وفطرية (تشومسكي، 2017، ص 75) غير قابلة للتععيد والمعيارية (غلغان، 2010، ص 217) وهي بخلاف اللسان الذي يُعتبر نسقا من القواعد المجردة والمشاركة بين متكلمي الجماعة الواحدة.

بمعنى آخر؛ أن اللسان نتاج جماعي للغة، ومجموعة من الاصطلاحات التي تسمح للأفراد بممارسة ملكتهم اللغوية. لهذا سيكون اللسان بهذا المعنى موضوعا للسانيات، تبحث في طبيعته، وتحلل مستوياته، وتحدد مفاهيمه. بينما اللغة، ستكون هي موضوع علم اللغويات، وليست مرادفاً له، كما لن تكون اللسانيات مرادفة للغويات. وبناءً على هذا؛ فلكل لسان خصائص يتفرد بها عن غيره، صوتيةً كانت أو تركيبية أو صرفية أو معجمية أو دلالية...

وإذا كان اللسان موضوع اللسانيات عند سوسير، فإن موضوعها بالنسبة لشومسكي هو القدرة اللسانية للمتكلم السامع، بينما الكلام عندهما نتاج ونشاط لغوي فردي يتعلق بتنفيذ قواعد نظام لسان معين؛ وهو لا يؤدي بالطريقة نفسها التي يؤديه بها فرد آخر فهو متعلق بذكاء الفرد وإرادته ومقاماته (غلغان، 2010، ص 219). وعلى هذا فلا يتحقق الكلام إلا بأصوات اعتمد منها سوسير مفهوم الفونيم **Phonème** كموضوع لدراسته الصوتية، في مقابل مفهوم القطعة **Syllabe** عند التوليديين، إذ أن كل قطعة صوتية لديهم هي عبارة عن حزمة من السمات **Traits** تمثلت على شكل مصفوفة **Matrice** استناداً إلى ما اقترحه

رومان جاكبسون، في الوقت الذي كان موضوع الدرس الصوتي عند العرب هو "الصوت" التي يستحيل "حرفا" في صورته السطحية، وقد أبان الرعيل الأول حوله، عن علو كعبهم، في تعريفه، وترتيبه، وبيان مخارجه، وصفاته، ووظائفه... فليس الأمر عند هؤلاء بشاذ على ما توصل إليه التوليديون من أمر البنية العميقة (المكون الصوتي=الصوت)، والبنية السطحية (المكون الصوتي=الحرف).

وبناء على هذا نقول؛ إن "اللسانيات (علم اللسان **Science de la langue**) هي الدراسة العلمية للسان لا اللغة" في مقابل أن اللغويات (علم اللغة **Science de la language**) هي الدراسة العلمية للغة لا اللسان"، لتكون "الكلاميات (علم الكلام **Science de la parole**) هي الدراسة العلمية للكلام" دون اللسان ودون اللغة (**Saussure, F, 1959 P.36**)

والأمر ينسحب بلا شك على مستويات اللسانيات وفروعها، من مثل الصوتيات (علم الصوت **Science de la Phonologie**) مع الصوت، والصرفيات (علم الصرف **Science de la morphologie**) مع الصرف، والمعجميات (علم المعجم **Science de la lexicologie**) مع المعجم، والدلالات (علم الدلالة **Science de la sémantique**) مع الدلالة، والتداوليات (علم التداول **Science de la pragmatique**) مع التداول وهلم جرا...

وعلى هذا؛ فإن عقدة المصطلح الصوتي، التي تتكون من خلال تراكم المصطلحات وتنوعها وتداخلها يجعل أمر تمثيل النظرية الصوتية غير تام، لاسيما مع تقاطعها بين نظريات صوتية عديدة. وما أدرجناه للتو مثال واضح على ذلك، إذ اختلف أمر موضوع الدراسة الصوتية بين مفاهيم عديدة، الأمر الذي من شأنه أن يضع الباحث المبتدئ في دوامة هو بمنأى عنها، وهكذا يجد نفسه أمام قائمة مصطلحية تدور في نفس الوظيفة تقريبا هي: الصوت، والحرف، والفونيم، والصوتية، والصويت، والصامت، والقطعة، والمقطع.... والأمر ذاته بين: المخرج، والموضع، والحيز، والمكان، والموقع....، وبين: الصفات، والسمات، والملاحم....، وبين: المائعة، والمتوسطة، والرخوة....

وإذا كان دور المجامع العربية والمؤسسات المتخصصة في الصناعة المعجمية؛ هو السعي في توحيد مثل هذه المصطلحات المتخصصة وغيرها، بغية تجاوز التضخم والفوضوية التي تعرفه؛ فإن تحكم الخلفية الإيديولوجية في وضعها إما ترجمة أو تعريفا أو اقتراضا تكون دائما حجرة عثرة أمام تطور البحث الصوتي العربي، ومن شأن هذا؛ أن ينتج عنه فهم خاطئ أو ملتبس للمعرفة الصوتية. وهذا -طبعاً- راجع لعدم وجود أسس سياسية موحدة وقوية، وتصور منهجي عربي واضح للخصوصية اللغوية العربية، مما ينتج عنه فهم مضطرب وضعيف، يفتح الباب أمام الباحث الصوتي العربي إلى اجتزار الخطاب الصوتي الغربي والتعصب لنظرياته.

وعلى هذا يحز في نفسي أن أقول: إن لسانني الغرب يعلموننا لغتنا، ويفسرون ظواهرها وقضاياها بدلا منا، بما استحدثوه واقترحوه من نظريات ونماذج لسانية، ولم يجد العرب أنفسهم إلا وقد سايروهم في نظرياتهم وتبنوها ودافعوا عنها بكل ما أوتوا من فهم، لدرجة التعصب، ضارين عرض الحائط أو يكادون كل ما يمت للتراث

العربي بصلة، مقللين من شأنه، غير مقدرين للاجتهادات والنظريات التي أسست لأهم القضايا والظواهر اللسانية والصوتية على وجه التحديد، تلك التي تنبه إليها الغرب أنفسهم، وتركونا نحن في جدال عقيم في تبني مصطلحات من قبيل: الفونولوجيا أو الصوتية، الفونيم أو الصوت، التناوب أو الأبوفونيا، البديل الصوتي أو الألفون.... والحال أن من شأن اعتماد مثل هذه المصطلحات أن يسهم في تغريب وتهجين المعجم العربي من جهة، ويقلص بوعي أو بدونه من غناه اللفظي لفسح المجال أمام سيطرة الألفاظ الأجنبية؛ وبالتالي تراجع واضمحلال اللسان العربي....

خامسا: تلقي النظريات الصوتية

إن النظريات التي تُدرّس للطلاب العربي الآن، هي نفسها التي تلقاها أساتذتهم من أصحابها أو بالواسطة، لتتولى نحن في المستقبل استهلاكها واجترارها وتقديمها لطلاب الألفية القادمة، "في الوقت الذي يتقدم فيه العلم في اللسانيات العصبية ويسير هذا العلم وعلوم أخرى منها اللسانيات التطبيقية والمعرفية والحاسوبية والذكاء الاصطناعي آفاق الدماغ، وسبل تحسين تعليم اللغات وتعلمها، وفي ظل كل هذا؛ ما زال بعض الأساتذة والمتخصصين يتعصبون لنظريات تقادمت وأثبت العلم أنها صارت متجاوزة، والمؤسف أن هؤلاء يقحمون طلابهم في نظرياتهم... الموغلة في التجريد بلا فائدة.. فيقترحون عليهم موضوعات للبحث في الماستر والدكتوراه، إن لم نقل، يفرضونها عليهم فرضا، فيجد الباحث نفسه يدور في حلقة مفرغة، ويتعد عن تطور العلوم وما تحقق فيها من نتائج...إننا -بهذا- ننشد التغيير والتطور العلمي المتسارع لإيجاد حلول لقضايا كثيرة لا يمكن لفرضيات يقال عنها إنها عقلية أو ذهنية والعقل والذهن منها براء.. وبعض هؤلاء - مع الأسف الشديد - يلتفون على أنفسهم وعلى الناس، فيقولون نحن نعيد قراءة تراثنا العربي وفق هذه النظريات اللسانية الحديثة لأنها تغنيه، وتوصلنا إلى ما لم يصل إليه الأوائل، وهم أبعد ما يكونون عن التراث وعن اللسانيات بفروعها وتطوراتها.. فيعيدون إنتاج أبحاث متهاكة أسلوبا ومنهجها ونتائج عن التراث.. وعلمائنا الأوائل رحمهم الله قد أجادوا وأفادوا منهجا ولغة ونتائج..."(علوي، 2021).

وبناء على هذا؛ فالطالب العربي وهو يبدأ مشواره البحثي اللساني الأكاديمي، والصوتي على وجه التحديد، لا يكون على وعي بما سيعترضه من دوامات نظرية صوتية، كل واحدة منها تُقدم عُمّة مفاهيمية، وقيود، ومناهج تعزز كفاءتها في التمثيل للظواهر الصوتية، وما إن يبدأ في استيعاب واحدة، حتى تعترضه الثانية، والثالثة، والرابعة... فلا يكاد يُدرك منها شيئا عن منظريها، وبعض قواعد التمثيلية...حتى يكون قد بدأ في تكوين ثقافة حول الصوتية، لا في الصوتية، من شأنها تأهيله لأن يكون متخصصا في المجال وعالما بخباياه.

والطالب الباحث الذي ينجح في استيعاب مجمل قواعد التمثيلية؛ فإنما تمّ له ذلك بالتوارث والحفظ، دون أن تكون له القدرة على التجديد فيها أو تطويرها، إذ -ببساطة- ليست من صنيعه. فهو مسخر فقط لاستهلاكها، لا للاستدراك عليها. ومن النادر أن تجد صواتيا عربيا قلبا وقالبا، منهجا وتصورا، تنظيرا ومعرفة،

موضوعاً ووسيلة. وهكذا؛ لا تجد الدرس الصوتي في الجامعة العربية يخرج عن نظريات أوغلت في القدم، بدءاً بالنظرية الصوتية الخطية (الكلاسيكية) لسوسير وتروبسكوي التي وضعت أسسها بين سنتي (1916) و(1939)، والنظرية الصوتية المعيار لتشومسكي وهالي التي خُطت في كتاب: النسق الصوتي للغة الإنجليزية عام (1968)، والتي تفرعت (سميث، و درهالست، (1992)، ص 8) بعدها في سياق التجديد والتطور إلى: نظريات لخطية عديدة منها: الصوتية المستقلة القطع أو (التنضيدية) مع ويليامز وكولدسميث (1976/1974)، والصوتية العروضية مع ليرمان وبرنيس (1977)، ونظرية التشجير المقطعي مع كان (1975)، ونظرية الصرافة السلسلية مع مكارتي (1979/1976)، والصوتية المقطعية مع فيرنو وهالي (1979)، ونظرية الصوتية المعجمية مع كيرسكي (1985)، ونظرية المد التعويضي مع كاي ولوفنشتام (1986)، ونظرية العامل والتغليب مع كاي ولوفنشتام وفيرنيو... وغيرها كثير دون أن نجد ضمنها نظرية صوتية عربية حديثة أو حتى تراثية واحدة تزيل الغربة الصوتية عن البحث الصوتي العربي أو تدعمه...

إن التبعية اللسانية للغرب في عمومها، لم تكن يوماً عملاً "بريئاً" أو فعلاً "مشروعاً" ينبذ الجهل المعرفي باللسانيات العربية، أو يشجع -في المقابل- على التفكير العربي اللساني، ولكن القصد -على الأقل في نظري- يكرس الضعف النفسي، والعجز المعرفي، الذي يشعر به الباحث الصوتي العربي من قلة الاهتمام بالمجال البحثي في دولته، والبحث الموجه للسان العربي بشكل خاص، ولربما السبب يعود إلى آثار المستعمر وسعيه في تثبيت لغته وثقافته وتفوقه على حساب العربية، وهذا موضوع غير خاف على الباحث المبتدئ قبل المتمرس فيه.

وهكذا يوجد العلم في مقابل الجهل، وبينهما حدود يتموقع فيه معظم طلاب اللسانيات، ولا أستثني منهم نفسي طبعاً.

- فلماذا لا نرفع من قيمة الدرس الصوتي العربي؟ ولماذا لا نتوقف في الدرس الصوتي الجامعي توقفاً يستحق لمدارسة نظرية الخليل بن أحمد الصوتية على سبيل المثال؟ أو على الأقل، لماذا لا نثمن المبادرات والاجتهادات الصوتية التي عمل عليها بعض الصوتيين المحدثين العرب أمثال: محمد الأنطاكي، وتام حسان، وإبراهيم أنيس، وكمال بشر... وغيرهم؟

سادساً: حول نظرية الخليل الصوتية

بمناسبة الحديث عن النظريات الغربية؛ في مقابل غياب أو شح النظريات الصوتية العربية؛ أجدي مجراً للتذكير بنظرية عربية صوتية خالصة قلباً وقالبا، بل وتحترم مجمل خصائص ومميزات النظرية العلمية من الدقة والوضوح، والاقتصاد والبساطة، والشمولية والإجرائية، والإنتاجية والقابلية للتطبيق، هي نظرية الخليل الإيقاعية التي بناها على أسس مقطعية حسابية دقيقة وهو يُقنن موازين الشعر العربي القديم وأبعاده الصوتية، والحال أن الخليل بن أحمد -رائد علم الأصوات العربي بامتياز- لم يكن حينها يبحث في الأصوات منعزلة عن سياقها كما فعل في

معجم العين، وإنما كان يدرسها -وهو يُقنن موازين الشعر العربي- وفق قواعد معينة ومضبوطة يتدخل فيها التجاور، والتماثل، ومواقع الأصوات من حيث الحذف، والتنوين، والإدغام، والمد.... وهذا لاشك يدخل ضمن صميم البحث الصوتي.

لقد تناول النظام العروضي، وأنساقه الإيقاعية قضايا صوتية وصواتية عديدة حين كان يؤسس صاحبه لموازين الشعر العربي على غرار: الحذف، والزيادة، والوقف، والتكرار، والمماثلة، والمجاورة، والمد، والتنوين، والمقطع... باعتبارها ظواهر تطريزية صوتية حقيقية صبغت البنية الصوتية للسان العربي عبر بوابة الشعر. وما اهتمام المستشرقين بالنظرية الصوتية الخليلية لدليل قوي على قوتها ومكانتها العلمية كما فعل معها اللغوي الفرنسي جورج بوهاس الذي تتبع النظرية بتفصيلات علمية رزنية نتجت عنها نظرية الوند كعنصر مميز للنظام العروضي منعزلا عن المتغيرات المقطعية الأخرى وهو ما شرحه بتفصيل كبير في كتابه الموسوم بـ"الملاحم الصورية للشعر العربي" **Aspects formels de la poésie arabe (1997)**.

ثم إن ورود مفهوم الإدغام عند الخليل في مقدمة كتابه "العين" يدحض الادعاء القائل بأنه بدأ مع ابن جني أولا، ولو لم يُفرد له بابا مستقلا، وهذا دليل على وعيه به وحضوره في فكره، فقد قال عنه: "اعلم أن الرأى في اقشعر واسبكرهما راءان أدغمت واحدة في الأخرى، والتشديد علامة الإدغام" (الفراهيدي، العين، ص 49). بل وحين حديثه عن تصوير الثنائي من كلام العرب اسماك: قد، ولو، و هل، ... فإنه يكون كذلك بالإدغام والتشديد بزيادة دال على دال، أو واو على واو، أو لام على لام... إلى جانب قضية إثبات التنوين من حذفه في الاسم الثنائي ك: فم(فَوْهٌ)، ويد(يَلَي)، ودم(هَي) (الفراهيدي، العين، ص 50).

وبالإضافة إلى مفهوم الإدغام، والقضايا الصوتية الأخرى، يحسن بنا التذكير بأن المقطع الصوتي واحد من أهم الظواهر اللسانية العربية التي تأثرت باختلاف النظريات الصوتية، فقد اختلف بدءا فيما سمي بالدراسات اللسانية العربية: في التحديد، ومعاييره، والهئية، والعدد... إذ تكاد اللسانيات الحديثة -نقلا عن الأبحاث الصوتية الغربية- تنفي وجود مفهوم المقطع في الدرس اللساني التراثي، في الوقت الذي سبق أن أثبتنا فيه (الموقت، 2018، ص 173) أن المقطع كان من أساسيات النظرية الإيقاعية عند الخليل بن أحمد في علاقته بالسواكن، ولو بتسميات مختلفة بحسب عدد الحركات المكونة له بين أسباب وأوتاد وفواصل، أو تفاعيل وقوافي... فالعبرة بالمعنى لا بالمبنى.

الخاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية، لا يسعنا إلا التذكير بأهم الخلاصات والتوصيات التي وردت فيها، لنقول إن: - أقصى ما قدمه البحث اللساني الغربي للعربية أن صَوْن (من الصورة) وجَد القواعد الصوتية بشكل يسهل الانخراط في منطق الكلية...

- من شأن الدفاع عن النظريات الغربية، واعتمادها مرجعيات نظرية لمقاربة القضايا اللغوية العربية يقوض البحث العربي التراثي والحديث معا، ويكرس التبعية اللسانية من جهة، والعجز الفكري لدى العرب من جهة ثانية، بل يضعف وجوده بالساحة البحثية اللسانية والصوتية على وجه التحديد، الأمر الذي ينتج عنه إقصاء كل المحاولات التنظيرية العربية الخالصة منهجا ومبنية مفاهيمية وقواعد، تحت مسمى اللسانيات العربية؛
- البنيتين العميقة والسطحية التوليديتين لهما تأصيل في البحث الصوتي الخليلي عندما كان يقعد الخليل بن أحمد لنظامه العروضي، ولوحداته الصوتية الإيقاعية ممزا بين ما ينطق وما لا ينطق من جهة، وبين البيت الشعري في تمثيله الصوتي، ووزنه من خلال ضبط إيقاعاته الصوتية العميقة؛
- معالجة النحاة العرب للقضايا الصوتية من إدغام، وإبدال، وقلب، وحذف... بوعي منهجي وتقعيدي في إطار التصريف اللفظي يشفع لهم تغافلهم عن تخصيص باب مستقل تحت مسمى الصوتية العربية، ولعله المنهج نفسه الذي ارتآه الخليل في مسألة المقطع وحضوره في الدرس الصوتي العربي التراثي من عدمه؛ فالعبرة بالمعنى لا باللفظ، وبالتوظيف لا بالمسمى؛
- الاحتفاء بالأسماء العربية التراثية التي وضعت بصمتها العلمية والمنهجية في الدرس الصوتي والصراحي العربي أمثال: الخليل بن أحمد، وسيبويه، وابن جني، وابن يعيش، وابن الحاجب، والأسترباذي، والقزويني، والجرجاني، وابن الأثير، وابن سنان الخفاجي، وابن دريد... وغيرهم كثير، هو اعتراف واعٍ بأولوية العرب وأسبقيتهم في التأسيس للدرس الصوتي العربي، منهجا ومفهوما وتقعيدا...، وبالتالي للصوتية العربية التراثية، في مقابل الصوتية العربية الحديثة التي لم تستطع لحد الساعة أن تثبت حضورها التنظيري؛
- اهتمام اللغويين الأجانب باللغة العربية، وتهافتهم على دراسة قضاياها (جورج بوهاس نموذجاً)، حافز قوي للعرب من أجل العودة إلى لغتهم، والعمل على استيعاب قضاياها اللغوية المختلفة بـ غية بلورة نظرية صوتية خاصة بهم، لاسيما في ظل اعترافات بعضهم وفي مقدمتهم مككارثي، وبراي، وبوهاس، وكولدسميت... بكون اللغة العربية وظواهرها ونسقها متوافق أكثر مع التحليل الطبقي للصرفيات، (الوادي، 2020، ص. 7.
- 9) وإلا فإن العرب سيقفون تحت السلطة المعرفية للغرب بمبرر أنهم أعلم وأكثر دراية وفهما للعربية وظواهرها من العرب أنفسهم، وهذا مُحال.

المصادر والمراجع:

- 1) Goldsmith. John, (1976) Auto segmental phonology, Swarthmore college.
- 2) McCarthy, John, (1979). Formal Problems in Semitic Phonology and Morphology ,
- 3) McCarthy, John, (1981). A Prosodic Theory of Nonconcatenative Morphology, Source: Linguistic Inquiry, Vol. 12, No. 3, The MIT Press.
- 4) Saussure, F. (1959) Cours de linguistique générale.

1) بكار، يوسف، (2009)، عروض الخليل بن أحمد - مقاربات جديدة، دار ورد الأردنية.

- (2) تشومسكي، نعيم (2017)، بنيان اللغة. ترجمة إبراهيم الكلثم. (ط1). لبنان: مؤسسة جداول.
- (3) غلفان، مصطفى (1998)، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية. (ط1). الدار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، سلسلة رسائل وأطروحات.
- (4) غلفان، مصطفى (2006)، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين. (ط1). الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس.
- (5) غلفان، مصطفى (2010)، في اللسانيات العامة. (ط1). لبنان: دار الكتاب الجديد.
- (6) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (د ت)، مقدمة العين، ج1، تحقيق إبراهيم السمرائي، ومهدي المخزومي.
- (7) مصطفىاوي، عيسى (2019)، أهمية اللغة العربية من خلال كتاب "اللغة الجامعة" لصالح بلعيد، بحث لنيل شهادة الإجازة، كلية الآداب واللغات، البويرة، الجزائر.
- (8) موريس هالي، جان فيرنو (2015)، الصوتيات ذات الأبعاد الثلاثة، ترجمة: مبارك حنون، وأحمد العلوي، بني ملال، ع2، مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب.
- (9) الموقت، حمادي (2018)، مقارنة صوتية حاسوبية للعروض العربي: المقاطع والإيقاع والتطويز، (ط1)، شمس برانت. الرباط.
- (10) الموقت، حمادي (2020)، المقطع الصوتي في فكر الخليل بن أحمد: دراسة صوتية، بحث معد للنشر.
- (11) نورفال سميث، وهاري درهالست (1992)، الفونولوجيا التوليدية الحديثة (ط1). ترجمة مبارك حنون، وأحمد العلوي، منشورات دراسات سال، مطبعة النجاح الجديدة.
- (12) الوادي، محمد (2020)، أبحاث صوتية وصرفية في اللغة العربية، دار كنوز، الأردن.

القراءات اللسانية في كتابات المستشرقين في لغة النص القرآني

- إطلالة في تصور كلود جيليو (رينولدز، القرآن، 143-172) -

Linguistic readings in the writings of the orientalist in the language of the Koranic text

- a vision on the imagination of Claude Gillio -

د. محمد نجيب مغني صنديد

أستاذ محاضر - أ - جامعة عين تموشنت - الجزائر

Mohamednajibmarnisandid

marni.sandid79@gmail.com

الملخص:

يواجه القارئ في كتابات المستشرقين وترجماتهم للقرآن - كتاب المسلمين المقلّس - الفرضية القائلة بكون تأليفه نتيجة لعمل جماعي، في مجمله أو في بعض جزئياته؛ وذلك بحسب درجة هذا الاعتقاد الفكري، عند كل مهتم هذا المجال الأنثولوجي التاريخي. وعلى هذا تبين عدم الوضوح، في خلفيات الباحثين الغربيين، في موضوع تأليف القرآن، ومما يعد اضطراباً في آراء هؤلاء، بين الجزئية والكلية في مصادر تعليم محمد نبي المسلمين لما هم بتأليف قرآنه؛ بدءاً ببطرس المبتلى (تعليق) في ترجمته لمعاني القرآن المؤلف سنة 1143م، إذ أقحم مساجلاته الفكرية في عمله هذا، وقد اتسم باستخلاص المعنى من أجزاء السورة الواحدة، ثم رتبته ترتيباً على غير ما في المصدر الأصل، ودون مراعاة لنظام الجملة العربية وخصائص الدرس النحوي العربي.

الكلمات المفتاحية: القرآن؛ محمد؛ تأليف جماعي؛ المستشرقون؛ الترجمة.

Abstract:

In the Orientalist writings and their translations of the Koran-Muslim Scripture, the reader is confronted with the hypothesis that its author is the result of a collective work, in its entirety or in some of its parts, according to the degree of this intellectual conviction, when the latter is interested in this historical anthropological field.

Thus, in the context of Western scholars, about the Quran and what disrupts their views, between the partial and the total, in the sources of the Prophet Muhammad's education, what they are the author of Koran; Intellectual, in this work, beginning with Peter the Venerable, in his translation of the meanings of the Koran, written in 1143, he insulted his intellectual debates. In this book, he has characterized by extracting the meaning of the parts of

the same soura, and then arranging it, in a manner other than the original source and without regard to the Arabic sentence system, and the characteristics of the Arabic grammar lesson.

Keywords: Koran; Mohammed collective author; orientalist; translation.

مقدمة:

تنبلج في هاته الورقة البحثية إشكاليتان رأسيّتان، قد تكتنفان الموضوع من كل جوانبه وتختصران أبعاده، ممّا يستوجب محاولة الإجابة الحضارية العاجلة، بما تقتضيه الأطر العلمية الدقيقة والمنهجية الأكاديمية؛ وذلك

فيما يلي:

إشكالية الدراسة:

1- كيف تناول المستشرقون - ومنهم كلود جيليو - مسألة تأليف النبي محمد للقرآن كتاب المسلمين المقلّس؟.

2- أهمّ الثغرات العلمية في المصنّفات العربية الإسلامية الكلاسيكية، التي منحت الضوء الأخضر لبعض المستشرقين، للتّجني على المقلّسات الإسلامية - وأهمّها القرآن - وكذا الخوض في بعض المسائل الدّينية العقديّة المحظورة، والمباحث الحضاريّة الشّائكة، بتناول فيه من الهدم أكثر ممّا فيه للبناء؟. وينضاف إلى هذا من جانب تصوّر المعالجة العلمية الأكاديمية، التي قد تشخّص داء المسألة، وذلك بنقد موضوعي لظروف تأليف علوم القرآن، وما رافقه من علوم دينيّة موازيّة، بما يتطلبه المنهج العلمي الصّارم...

أهداف الدراسة:

تحاول هذه الورقة البحثية الوقوف على أهمّ الثغرات البحثية في المصنّفات التّراثية، التي دوّنت في علوم القرآن، والتي بُنيت عليها أحكامٌ قد أعطيت صفة المسلّمات العلمية، والقداسة الدّينية المفرطة لتكون بعضها كلاسيكية تتجاوزها الزمن العلمي، في حين يحتمّ الأمر على الباحث النّظر في بعضها، لما لها من المباحث التي تظلّ نسبيّة... كل ذلك يكون من مقارعة آراء المستشرقين في هذا الباب، الذين دلّوا على ههناات البحثية؛ كلٌ بحسب مشاريعه وإيديولوجيته، التي يستقي منها فكره في هذا الميدان العلمي الشريف...

منهج الدراسة:

منهج الدّراسقفي استقصائي، يتتبع ثنايا الجدلية البحثية، ليتخلّله التحليل بين الحين والآخر، وينأى عن فرط المعيارية والأحكام المسبقة، والدّاتية المتشاكلة في الإيديولوجية الدّينية.

آفاق الدراسة:

قد يستفز هذا البحث المفكر المسلم في إعادة النظر في بعض المسائل البحثية الكلاسيكية، التي وصفت بـ"التورتورية المفرطة"، وأحيطت بوهج من القداسة الدينية، ليعاملها معاملة إجرائية أكاديمية دقيقة صارمة، وليسقط عنها الثوب اللاهوتي المقدس، حين الاحتكام إلى المنهج العلمي القويم.

يستمر الأمر في الترجمات التالية لهذه، بقول أصحابها ببشرية القرآن ونفي الربانية عنه، وإقام دعوى مصادر تأليفه من التوراة والإنجيل. ولعل من أهم الأعمال ترجمة جورج سيل الصادرة في سنة 1734م؛ إذ قال بالمرجعية اليهودية للقرآن، وقد بلغ الأمر في دعواه، حد الجزئيات من السور والآي (Sale's Comprehensive p.p. 5.8.16.17) بدأ عن الموضوعية العلمية معترفاً بدافعه الذاتي في عمله

هذا، بتسليح البروتستانت، في حركتهم التنصيرية على المسلمين (نفسه، ص. ص. 7. 8). ولقد لقي هذا قبولاً واسعاً عند المنضوين في هذا التيار؛ ومنهم صمويل زويمر (تعليق)، الذي قال بأهمية هذا العمل، في عالم الاستشراق، ومونتغمري وات (تعليق)، الذي يرى الموضوعية في وصف سيل وتصوره للإسلام. ويبدو أن تكرار القصص القرآني، قد فسر من قبل بعض المترجمين المستشرقين، على أنه حجة في بشرية تأليف القرآن، على غرار قول ريتشارد بل: "محمد قد ألف القرآن من عنده... واعتمد في معلوماته على القصص التاريخية؛ مثل: عاد وثمود" (ريتشارد، الإسلام، ص. ص. 98. 99). وعلى هذا تبين رؤية بعضهم، انطلاقاً من بعض التشابه في القرآن بعلمه النص المصدر للترجمة، والتوراة والإنجيل بعلمها كتابين سماويين سبقا الأول بزمن بعيد، فيكون القصص القرآني من قبيل التواصل الديني، بين الأنبياء والحضاري بين الأمم ليس إلا؛ وهو المصوح به علناً في القرآن: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْإِسْلَامُ ۖ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغَيْبٍ مِنْهُمْ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران، 19) وأما البناء على أفكار جورج ل. سموات سليم لها مطلقاً، ومعاملتها معاملة المقدس، فبعيد عن الموضوعية العلمية التي لا تقبل بال رأي إلا مناقشته.

ويواصل مونتغمري وات القول بأمور عن شخص محمد، في كتابه "محمد في مكة" لم ترد من قبل في أي مؤلف -حسب علمي- يحطها الاضطراب، والبعد عن السلامة العلمية؛ فمن جهة يسلم بأفكار سيل التي ترى التناص في القرآن، والمرجعية اليهودية والمسيحية، في كتاب المسلمين، ومن جهة أخرى يقول باختلاف عقيدة محمد عن الكتابيين، وغموضها في بدايات الديانة عنده، واختلاط الأمر لديه بعدم الفصل بين التوحيد الخالص، وبين الإحساس بوجود الكائنات، التي تطيعها الصفة الإلهية؛ فاللات والعزى ومناة بعلمها موجودات أو ربك، عند المعتقدين بها، وإن كانت مقلعة، فهي في نظر محمد، أقل شأنًا وأهمية من ذات الله (تعليق). ويسير إلى جانب هذا الخط الباحث في الشققات الألمانية كارل بروكلمان

(1886-1956م) في مؤلفه: "تاريخ الشعوب الإسلامية"؛ ومن جملة ما ذكر أن أركان الإسلام الخمس مستمدة من التوراة والإنجيل، وفكرة الحساب والعقاب، ويمثلهما اليوم الآخر عند المسلمين مقتبسة من اليهودية، كل هذا ينطلق من مسار التوحيد؛ إلا أن المضطرب في رأي كارل بروكلمان، بعد المسار الذي رسمه محمد، من المرجعية الدينية اليهودية والمسيحية السابقة، ونسجه للأوهام والأكاذيب، في هذه المرجعيات التوحيدية ومزجها بالطقوس المجوسية الفارسية كالصلاة والوثنية العربية كتقبيل الحجر الأسود (السوقي، الفكر، ص 19).

1. فرضية العمل الجماعي في تأليف القرآن:

يعرض بعض الباحثين الغربيين في كتاباتهم التاريخية للقرآن، العمل المشترك للمرجعيات الدينية، في تأليف كتاب المسلمين الذي أتى به محمد، ويظل الافتراض لديهم القائل باحتمال أن يكون كتابه ثمرة لعمل جماعي، استمد فيها محمد أفكاره من الديانات السماوية السابقة؛ إلا أن هذه الفرضية لم يعبر عنها بالوضوح العلمي الصريح، من حيث كلفة الاقتباس القرآني، من اليهودية والمسيحية وجزئته في الأخذ منهما، من حيث اضطراب هؤلاء، في السير في منحى واحد يتوافقون فيه على أمر يجمعهم. وقد ظهر هذا الاضطراب الفكري على مر الزمن؛ من ذاك ما جاء به ألويس سبرنجر (تعليق)، وجون وانسبروغ وبارثيشيا كرون (تعليق) وميشال كوك (تعليق)؛ مما دعا كلود جيليو، إلى إعادة النظر في هذه الفرضية وإدراجها في نظرية أو رأي، يحاول فيهما إعادة بناء النص القرآني، صاعداً إلى الدروة، من منطلق قراءة نقدية للمصادر الإسلامية، من بداياتها إلى العصر الأموي (رينولدز، القرآن، ص. ص. 143...172) صاحب هذه النظرية العجائبية والمخيل العربي في الدراسات الإسلامية لتاريخية

القرآن، ويستشهد بقول أندرو روبن، باندعاش طلبة الدراسات العليا، في تاريخية الإسلام بخلفية الدراسات التي تناولت التوراة والمسيحية المبكرة، إلا أنهم بحقيقة انعدام الفكر النقدي للكتب المدونة باكراً عن الإسلام

(Luxenberg, Die syro-Aramäische Lesart des Koran, p. 311) ويصح جيليو باحتمال الفرضية القائلة بالعمل الجماعي للتأليف (77-98)

نقد الاطلاع على المصادر العربية الإسلامية من منطلق الفترة الزمنية، التي أعلن فيها عن المصحف الجامع للقرآن، بعد جمع آيه وتعديلها ليصبح مصدر التلاوة والتعبّد. لقد انطلق جيليو في إعادة نظريته للمصادر الإسلامية في تاريخية القرآن، من أفكار كريستوفر لويسنبرغ (تعليق) في مؤلفه: "The Syro-Aramaic Reading of the Koran" قراءة آرامية سريانية للقرآن (الحاشية 7).

وقد جمع صاحب هذه النظرية تفاصيل عن التأليف الجماعي للقرآن، من التراث الإسلامي ومن القرآن نفسه؛ ليدلّل على المرجعية المسيحية بالسريانية للقرآن.

2 إعادة بناء القرآن صعوداً:

أعلن جيليو فيما سبق (الحاشية 9) عن ضرورة الميز بين إعادة بناء القرآن، صعوداً إلى الذروة وبين إعادة بناء القرآن، منحدره من الذروة؛ وتعني الأولى عنده جمع القرآن وبنائه من جديد، كما جُمع ورتّب في القرآن الإسلامي، أو ما يسمّى بالقرآن العثماني. وقد جمعه ورتّبه كلٌّ من: غوثيلف برجتسراشر وأوتو برينزل وآثور جيفري. و يرى جيليو أنّ إعادة البناء هذه تتضمّن بعض الإشارات، من المصادر الإسلامية الكثيرة إلى تاريخ آخر للقرآن-السور حسب النزول يختلف عن اللاهوتية التي وضعها المسلمون للقرآن العثماني، والقداسة لهذا القرآن الرسمي في أصله وتطوّره.

3. رَوَاة مُحَمَّد:

يعترض جيليو سؤال، وهو ما إن كان محمد قد اعتمد على رَوَاة في تأليفه للقرآن (الحاشية 14). هذا؛ ويرى أنّ خصوم محمد المكيين، قد كان لهم نصيب من معرفة بعض القصص اللبني القديمة، في تفسيره لآية الفرقان (الحاشية 35) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَأَعْمَانَهُ عَلَيْهِمْ قَوْمٌ آخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا 4 وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا 5﴾ (الفرقان، 4. 5) دون أن ينجح إلى المصادر التفسيرية الإسلامية، وأقوال أصحاب محمد في هذا؛ كعلي وابن عباس وتلاميذ الأخير منهما. ثمّ يحاول تفسير آية النحل ﴿لَقَدْ نَزَّلْنَاهُ بِعِلْمٍ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ 103﴾ (النحل، 103) بعد عرض التفسير التراثي العربي، فيشكك في ترجمة الآية الشاهد، ويقترح أخرى يراها صحيحة في لفظ مبين على أنه أمر يجعل الأشياء واضحة (الحاشية 16)؛ وذلك انطلاقاً من رواية مقاتل بن سليمان (150هـ) (مقاتل، التفسير، 2، 487/2002) في مصدر تعليم محمد الأرامي (الومي) (الحاشية 17) من طريق يسار أبي فكيهة، أو جابر في رواية أخرى (الحاشية 19). أو عبد بن الحزرمي دون مسّ له، في رواية مجاهد (104هـ) (بن سلام، 2004، 91/1) وهو من أصول متاخمة لبزنطة، وقد كان صاحب كتاب (مؤلف) ويتكلّم الأرامي (القومية بالوئية العربية للمسيحي). أو عراف قبل الإسلام في رواية الحسن البصري (110هـ) (نفسه). أو أنّ جابراً المذكور سابقاً كان معلماً لخديجة، وهي بدورها كانت تعلم محمداً في نظر خصومه المكيين، فكان هذا سبباً في نزول آية النحل (لثعلبي، الكشف، 2002، 43/6، 44).

ويأتي جيليو بالاتهامات الموجهة لمحمد من قبل النضر بن الحارث (تعليق) أحد خصومه الشرسين، في القول باختلاف القرآن، وإعانة قوم له في تأليفه ومنهم عدّاس مولى حويطب بن عبد العيّ، ويسار غلام عامر بن الحزرمي وجبر مولاة اليهودي، الذي أسلم فيما بعد، وأنّ الأحاديث (القصص) التي يأتي بها محمد إنّما كقصص رستم واستنفد باز (مقاتل، 226/3، 227) كلّ هذه المرويّات، التي استند إليها جيليو قد أوصلته إلى فرضية، أن يكون في طيّات القرآن المكّي عناصر، قد وضعته في إطار جماعي؛ خاصّة وأنّ جماعة طالبي الله، وجماعة المحرومين أو المعدمين، قد امتلكوا القدر الكافي ممّا جاء في الكتاب

المقلّس أو بعض تفاسيره، أو الرسائل الشارحة له؛ ومن هؤلاء الذين يحتمل قد اشتركوا في المشروع العام لتأليف القرآن: ورقة بن نوفل وابنة عمه خديجة، بإرشاد من محمد أو شخص آخر (الحاشية 25).

4. أعوان محمد (الحاشية 26):

بنى جيليو رأيه في هذا العنصر البحثي، على الروايات، في تراجم سيرة محمد الأولى، في بدايات الوحي (الحاشية 27) حيث لقي السند في تثبيت النبوة: أولاً من زوجه خديجة بالدرجة الأولى (الحاشية 28)، التي كانت لها اطلاع بالكتب القديمة، من تاريخ الأنبياء وجبريل الملك الموكل بالوحي، بناءً على رواية أبي علي البلعمي (تعليق)، في تاريخ الطبري المترجم (الحاشية 29). ويستند إلى رواية ابن إسحاق وابن هشام في سيرتهما من رواية عبيد بن عمير الليثي (تعليق)، في استعانة خديجة بورقة ابن نوفل في بداية الوحي (الحاشية 30).

ويرى جيليو في هذا أن ورقة قد تنصّ وقرأ الكتب القديمة، وسمع من أهل الكتاب، فأخبرته خديجة بما رأى محمد، وسمع في الجبل، فقال في روايات مختلفة: "قلّوس قلّوس، والذي نفس ورقة بيده، لكن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الدّاموس الأكبر" (الحاشية 33). وعند الطبري: "جبريل الذي كان يأتي موسى وأنه لنبي هذه الأمة" (الحاشية 34) في أخرى خرافية وقعت بين خديجة وبحيرة الراهب (سرجيوس أو سرجيس) (الحاشية 41) وفي رواية عدّاس (تعليق)، نجد أن خديجة قد أمرت أبا بكر، أن يذهب بمحمد إلى ورقة، فهتف الأخير: "تماماً، سبّوح سبّوح" (الحاشية 43) "هذا؛ ويحتمل جيليو أن لفظ: "قلّوس قلّوس" من بقايا ليتورجيا "liturgie" مسيحية (تعليق) معربة من قبل المسيحيين العرب (الحاشية 44)، وفي سياق دلالي ليتورجي مسيحي المقابل سانكتوس اللاتينية (الحاشية 45)؛ يقابل بما في إشعيا (6-3): "هَذَا نَحْنُ ذَاكَ وَقَالَ: "قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْجُودِ مَجْلُءٌ لِمَنْ كُلِّ الْأَرْضِ".

5. حال محرّ القرآن:

لجلطلق بزيد بن ثابت الأنصاري الذي يحتمل أنه كان مطلعاً على الآرامية أو السريانية أو العبرية، في مقابل العربية وذلك قبل الهجرة في ورود بعض الأخبار، التي تذكر أن زيدا قد تعلّم الخطّ العبري بعد الهجرة (الحاشية 46). ويبنى جيليو على هذا انطلاقاً من المرويات التراتبية؛ ومنها رواية عبد الرحمن بن الزناد (الحاشية 47) سؤاله عما إن كانت السور من القرآن؟ أليس من المنطق أن تكون هذه من كتابات يهودية، أعجبت محمداً وآخرين، فكانت ضمن تأليف القرآن؟. يرى جيليو أن لفظ سورة آرامي أو عبري لأصل (الحاشية 48) وهي من ضمن ما أخذ محمد عن غيره في أحوال عديدة؛ ومنها ما جاء في رواية المسيحي الفلسطيني تميم الناري عن المسيح والوحش (الدجال والجسّاس) إلى جانب الرواية المعكوسة (الحاشية 49).

ثمّ يبنى جيليو افتراضه في شكل سؤال ثان من المرويات الكلاسيكية، مفادها أن محمداً قد أمر زيدا أن يعلّم أو السريانية أو الآرامية فيقتصر نقيض هذا في تردّد زيد على العبرية في يثرب، أو كان سلفاً

عارفاً بها بداعي نعت ابن مسعود له باليهودي: "كان زيد بن ثابت ما يزال يهودياً له خصلتنا شعر" (الحاشية 50) وفي رواية أخرى: "كان ما يزال في المدرسة (الكتّاب) بخصليتي شعره" (الحاشية 51).

ويسلك جيليو في نقده هذا، مسلك أبي القاسم البلخي الكعي (319هـ) في نقده للتقليد والمقلّدين، في تقرير عن مرويت الشّعي (103هـ) معترضاً عليه في كون القرشيين عارفين بالقراءة وبالكتابة، وقد أمرهم محمّد يوم بدر أن يعلّموا عشرة من الأنصار، في من لم يفد نفسه منهم وقد كان زيد من هؤلاء الأنصار؛ واحتلج بلخي بقول المتضلعين في السيرة النبوية، أن زيدا كان عارفاً بالكتابة والقراءة قبل الهجرة، وقد كان من ضمن كتّاب المدينة، الأكثر عدداً من تمكّهم من بين العشرين سلفاً وقد كتب بالعربية والعبرية، وسعد بن عباد (11هـ) والمندر بن عمرو (4هـ) ورافع بن مالك (3هـ) وغيرهم (الحاشية 52). وعلى هذا لا يكون مقبولاً أن تقلب الآية في شخص زيد في حال أنه كان عارفاً بالخطّ العبري أو غيره قبل الهجرة، بعكس ما كان من أمر محمّد له بتعلّم العبرية (الحاشية 53).

هذا؛ وتنبري لجيليو مجموعة من الإشكالات في كتّاب الوحي (الحاشية 54) الأخطاء اللغوية الواردة في القرآن (الحاشية 55)، والغموض الذي يكتنف بعض مفردات الجمع؛ ومنها حفظ وتجميع وتأليف (الحاشية 56). ينضاف إلى الظروف المحيطة بالقرآن العثماني. وهل هو المطابق لما هو في عصرنا؟. والإشكال المتعلّق بالآيات والسور المفقودة (على سبيل الافتراض) والمنسوخة والمبطلّة من قبل الله أو محمّد (الحاشية 57)، كلّها تشكّل بدايات غامضة للقرآن.

6. مشكلة لغة القرآن:

ينطلق جيليو من فكرة الألفاظ الأعجمية الأصل الواردة في القرآن: الآرامية منها وهي حقيقة في الأبحاث الغربية والعربية القديمة (الحاشية 58) بنضاف إلى هذا أسماء الأعلام ليست عربية، وهي من لغات أخرى ومنها العبرية (الحاشية 59). ولا ينتهي الأمر عنده بل يصل إلى حدّ أن لفظ القرآن ذاته مستعار وغير عربيّ (الحاشية 60)، ولفظ مصحف الذي يعني (كودكس: مخطوط أو مخطوطات مجمعة). ويفترض أن سالم بن عبيد مولى أبي حذيفة أنه أول من سمّى القرآن المجمع في كتاب مصحفاً (الحاشية 61)، وهو حبشي المورد (الحاشية 62) ولفظ سورة (الحاشية 63) وآية (الحاشية 64) أعجميان حسب رأيه.

7. اللاهوتية (الحاشية 65) للإسلامية في لغة القرآن:

خلص المفسّسون إلى أن العربية لغة القرآن، مطابقة لما جاء في آية منه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فُضْلُ اللَّهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم، 4). وقد كان استقرارهم على اللغة الحجازية المحكية بالأخصّ القرشية هي الفصحى وهي العربية الكلاسيكية، وبعد مقارنة تفسير هذه الآية بنظيره في لفظ مبین، على أنه الواضح الجلي، في مقابل أعجمي غير واضح، وعجمي: بربري في شاهد النحل (الحاشية 65) من قبيل التضاد (الحاشية 66)؛ وعليه يرى جيليو أن تفسير لفظ مبین مظلّل من منظور علم الصّوف والدلالة وتطوّر الألفاظ، فهو اسم فاعل للفعل أبان

ليجعل الأشياء بيّنةً، وهو فعل سببي متعّد إلى مفعولين، على أنّه يستعمل في الفعل بين السببي المتعلّي إلى مفعولين أيضاً. وعليه يرى أنّ الانتقال الدلالي الذي صنعه المفسّرون اللاهوتيون قد دعم الدلالة المركزية اللغويّة، والمخيال الإسلامي في العصور الوسطى ولا يزال قائماً هذا. وانطلاقاً من هذا نشأت الهوة بين المفسّرين واللغويين في مسألة لغة القرآن؛ وهذا ما جعل هنري كليبركت فليشر (1888م) يفصح عنه صراحةً. وعلى هذا يعترض جيليو سؤال عما هي العربية على وجه العموم؟ في مقابل السؤال عن أصفي وأجمل وأصح العربية. فالذي هو نقطة القوّة عند اللاهوتيين هو نقطة ضعف عند الباحثين النقيدين؛ الفكرة عند المفسّرين مؤسّسة بنص القرآن ومن قناعتهم من أخرى دون أي عمل أكاديمي مؤسّس.

8. فرضية المستشرقين حول لغة القرآن (الحاشية 69):

انحصر المقترح من قبل هؤلاء، في فرضية تين اثنين:

1.8. الفرضية اللغويّة في الجزيرة العربية ومضمونها أنّه كان هناك تعايش بين اللهجات العربية، تولّدت عنه لغة الشعر المصطلح عليها الكونية (تعليقاً شعريّة). وعلى هذا توطّدت الفرضية، على أنّ لغة القرآن هي لغة الشعر الجاهلي، باستثناء بعض الميزات الحجازيّة وتقليه تمّ تحديد الفكرة الكونية الشعريّة والقرآنيّة أساساً العربية الكلاسيكية (الحاشية 70).

وقد وضع نولدكه (1836-1930م) المفردات القرآنيّة، يراها أخطاءً صرفيّةً ونحويّةً شاذّةً عن النّظام اللغوي العامّ للعربية (الحاشية 71) وعلى الرّغم من أسلوب القرآن المتكلف، والباهت والنثري (الحاشية 69) وقناعته أنّ محمداً كان في أفضل أحواله أسلوبياً متوسّط الجودة (الحاشية 73) فقد كتب القرآن بالعربية الكلاسيكية وتبعه في هذا أغلب المستشرقين إلّا بعضهم ومنهم كارل فولليرس (1857-1909م).

2.8. فرضية فولليرس: التي تقول بأنّ القرآن في أوّله صدر عن محمّد بلهجة مكّة وهي اللهجة المحكيّة للعربية، وهو مفتقر إلى بعض الملامح اللغويّة من حركات الإعراب (الحاشية 74)، قبل أن يعاد كتابته بلغة الشعر العامّة (الحاشية 75) والتي تعدّ أسلوبيّة الكلاسيكية، وهي اللهجة العربية الشّرقية وهي مزوّدة بحركات الإعراب. ويسير في هذا المسار بول إريك كاهلي (1875-1964م) (الحاشية 76) مع بعض التعديل (الحاشية 77). ولا يقول بإعادة كتابة القرآن، ويقرّ بأنّ القرآن المخطوط غير المعجم إعجام الحروف، المنسوبة إلى الخليفة عثمان، يمثّل العربية المحكيّة في مكّة (الحاشية 78) ويرى القراءات القرآنيّة لهذا المخطوط تمثّل تأثير لغة الشعر.

في حين يرى جوناثان أونيس، أنّ الإدغام الكبير المرتبط بأبي عمرو بن العلاء (154هـ) لا يعني ضياع لاحقة تصريفية، وإنّما غياب الحركات القصيرة في آخر الكلمة، ويعني أنّه كان هناك شكل قرآني مختلف دون علامات الإعراب؛ ممّا يدعّم فرضية فولليرس في تقليد القراءة القرآنيّة للغة الشعر (الحاشية 79). وبعد تطوّر الدراسات اللغويّة العربية الاجتماعيّة منها والتاريخيّة استنتج الدّعاة القدامى مفهوم اللهجة،

على أنه تصّرفٌ كلاميٌّ للغة واحدة، وقد اندرجت القراءات القرآنية في هذا السياق، فكانت انعكاساً لهذا النوع اللغوي (الحاشية 80).

9. الاتصال المسيحي أو السرياني القديم:

ينطلق جيليو من طبيعة لغة القرآن ليصل إلى فرضية الاتصال السرياني أولاً أو الآرامي، وهي فكرة المستشرقين المحدثين وذلك في حقيقة الألفاظ المستعارة في القرآن؛ وتمثّل له باستنتاج هاوتينغ: "كثير من مفردات الكتاب المقدس التي ترد في القرآن قد ذهبت من خلال قناة آرامية" (الحاشية 81). في حين ذهب ألفونس مينغانا العراقي (تعليق) إلى فكرة تأثير سرياني في أسلوب القرآن (الحاشية 82).

ولم يلق هذا اهتماماً كبيراً من المستشرقين؛ لقلة ما قلّم من أمثلة من جهة ومخالفة لما جاء عند نظرائه من كون القرآن كتب بالعربية الكلاسيكية (الحاشية 83). ويعضد جيليو رأي غونتر لولينغ في مؤلفه "حول القرآن الأصلي" (الحاشية 84) المترجم إلى الإنجليزية (الحاشية 85) دعا فيه إلى إعادة اكتشاف وبناء موثوق، لمجموعة تراويل مسيحية شاملة متخفية في القرآن في أبكر إعادة تفسير إسلامي؛ ولم يكن القرآن المنطلق الوحيد، وإنما توجه الأكاديمي المتشدّد في شكل نقدٍ بنيانيٍّ ضد تشويه المسيحية بهيلنتها، وضد تشويه تاريخ اليهودية (الحاشية 86).

ولعله يمكن تلخيص أفكار لولينغ عن القرآن، فيما يلي: 1- تضمّن القرآن ثلث نصّه طبقة تحتية متخفية ذات أصل مسيحي ما قبل الإسلام. 2- يتضمّن النصّ القرآني المنقول من المسيحية، على أربع طبقات بترتيب زمني الأقدم هو في مجموعة تراويل مسيحية، في مقاطع شعرية ترجع إلى الحقبة الجاهلية. ب/ نصوص التفسير الإسلامي الجديد. ج/ المادّ للإسلامية الأصلية المعزّوة إلى محمّد / نصوص محمّري القرآن بعد محمّد. 3- النصّ القرآني المنقول من المسيحية هو نتيجة تنقيحات تحريرية متتابعة. 4- الطبقات المتتابعة زمنيّاً للقرآن يمكن توكيدها من التراث الإسلامي. وعلى هذا يرى جيليو أنّ هذه الأفكار التي تمّ تجاهلها، تستحقّ الرعاية الجادة (الحاشية 87).

ثمّ ينطلق جيليو من عمل لوكيسنبرغ الذي تبني فكرة مينغانا في التأثير السرياني، وواضع دليل الطالب المنهجي؛ بدءاً بفقرات القرآن الغامضة على تفسير المستشرقين، فيكون المنهج على: أولاً- البحث عن تفسير معقول في التفسير التقليديّة، وخاصةً تفسير الطبري الذي غفل عنه المستشرقون. ثانياً، إن لم يوجد تفسير "معقول" يتمّ البحث في معجم عربي قديم، لعله يقلّم معنى مجهولاً للتفسير. ثالثاً- إن لم يوجد المعنى المعقول يتمّ البحث للتعبير العربي عن جذر نظير سرياني، يحمل معنى مختلفاً، يلائم السياق. وكثيراً ما يجد لوكيسنبرغ أنّ المعنى السرياني مقنّع منطقياً، من معنى المصطلح القرآني. ولكنّ التعامل مع القرآن الخالي من الإعجامين، النقط والإعراب في طبعة كيريني "CAIRENE" يصعب على الطالب، في الخطوات الأولى للليل المنهجي ويزيد لوكيسنبرغ على هذه الخطوات رأياً بتغيير الحركات الصوتية للحروف، ليرى إن كان يتولّد معنى أكثر إقناعاً. ويرى أنّ كثيراً من المفردات الإشكالية يمكن وضعها في قراءة خاطئة لحرف منها

مبدل من آخر. وإن لم يعط هذا كله النتائج المتوخاة، فعلى المحقق أن يغيّر الحروف ذات النقط مع عرضها بجذر سريانيّ، نظير ومجانس ذي معنى مقبول وإن لم يحصل هذا، ينظر إن كان تعبير القرآن مستحدثاً من تعبير سريانيّ؛ يكون من طريقين: صرفي ودلالي، فالأول يحافظ على بنيته الصرفية مع استخدام المورفيمات العريية، والثاني يعطي للفظ معنى مستعاراً لم يحمله من قبل، لكنه مرادف للمصدر" (الحاشية 88).

هذا؛ وقد اعترض نوريت على لوكيسنبرغ في عدم إدراجه للتاريخ وعملية القونة" (الحاشية 89)، وكذلك الأمر عند هوبكينس بقوله: "كتاب لوكيسنبرغ يجري محاولة واحدة، ليضع استنتاجاته في سياق مقبول" (الحاشية 90) على اعتبار أن التاريخ ليس من اهتمامه من هذه الفرضية وهو عامل ضعف. وعلى هذا انطلاق جيليو من الشواهد (75 مفردة) لزومية عرض المستشرقين وباحثين في الساميات؛ بعدما تبين وجود تاريخ آخر لما هو معهود في أيلنا، وهو ما يفسر ارتباك المفسرين في عدم قدرتهم على فهم بعض المفردات، وذلك أنه كان هناك نص قبل القرآن قد وضع محمداً وآخرين في لحظات إلهام.

وقد يظهر هذا الارتباك في تفسير مفردة الكوثر (الحاشية 91) على أنه نُحِر في الجنة أفرده الله لمحمد (ص) (الحاشية 92)، في حين يضع له القرطبي (671هـ) 17 تفسيراً، و26 عند ابن النقيب (698هـ) في مؤلفه "التفسير والتجوير لأقوال علماء التفسير في معاني كلام السميع البصير" (الحاشية، 94) ولكنه بتعريف خاطئ للمؤلف عند هاريس بركيلاند" (الحاشية 95). ثم يرجح جيليو معنى الإيثار كما روى القرطبي" (الحاشية 96) على ابن كيسان الأصم (201هـ) الذي أخذ عنه المفسرون روايات مدونة، حسب ما قال به التعللي" (الحاشية 98). ويمكن أن يكون لفظ الكوثر آتياً من النبوة الأولى، أو الكتب المقدسة الأولى لمعنى الإيثار" (الحاشية 99). ويرجح أبو منصور الماتريدي (333هـ) أن اللفظ قيد يعني علامة تمثل حرفاً أو مفردة، أو جملة مستعارة من الكتب الأولى" (الحاشية 102) كما لا يفارق المفسرين في الارتباك، إلا أنفضى تفسير الأغلبية على أنه نُحِر في الجنة؛ لأنه لا يحسبه تشريفاً لمقام النبوة. وإن هذا الارتباك الحاصل لدى المفسرين، يعزز فرضية لوكيسنبرغ، في كونها صحيفة لنص آرامي" (الحاشية 103) من: 1/ بطرس (9: 8): "أَصْحُوا وَاسْهُوا. لِأَنَّ يَسَ خَصْمَكُمْ كَأَنَّ زَائِرًا، يُجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ. فَاقْوَوْهُ، رَاسِخِينَ فِي الْإِيمَانِ..". وقد تصلح لحل الإشكال عند المفسرين.

10 خلفيّة التّاريخيّة لفرضية لوكيسنبرغ:

ينطلق جان فان ريث، من حقيقة استخدام القرآن للفظ إنجيل بصيغة الأفراد، ليدعم الاتصال السوياني الآرامي" (الحاشية 104) أنه كانت رغبة في المسيحية الباكّة في إعادة تأسيس وحدة رسالة يسوع استجابة لنقد سيلسو بويريري وغيرها. فقد حاول مرقيون (85-160م) وطيطانس (120-173م) أن يوحدوا الإنجيل، ويعيدا تنظيم أحداثه زمنياً" (الحاشية 105). وعلى هذا يمكن الاحتمال أن محمداً أو أحد رواته ومساعديه قد اطلعوا على الإنجيل المجمع" اللياطسرون" بالسويانية" (الحاشية 106) ويظل الإشكال قائماً في تحديد النصوص، التي اطلع عليها محمد، إلا بعض الإشارات النادرة في القرآن؛ منها

آية الفتح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي بِهِ يَنْشَرُ الْحَقُّ وَأَشَدُّهُ عَمَلَى الْكُفَّارِ﴾ بِمَنْطِقِهِمْ رَأَاهُمْ رَجَعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَضَوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ لَأَثَرُ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوَارِثِ وَهُمْ لَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ شَهَادَةٌ أَخْرَافُهُ فَاسْتَعْلَمَ فَاسْتَوَى عَمَلَى سَوْقِهِ يَعْجَبُ الزُّرَّاعُ لَيْسَ يَعْظُمُ بِهِ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح، 29) (الفت التي تضم فقرتين من إنجيل مرقس 26/4-7، ومتى 23/12. وهذا المزج في الليطسرون في نسخته الهولندية في القرن 13 ومفقود في العربية) (الحاشية 107) ويعالج بهذا ريث فقرات قرآنية منها: طفولة السيدة مريم ويوحنا ويسوع، ليبين أنها تراث دياطسروني (الحاشية 108) وكذلك مسألة التشبيه الجسدي (الحاشية 109) في صلب المسيح. وقد كانت نتيجة "ريث" أن إحالة محمد في قرآنه على الليطسرون تأكيد على وحدانية رسالة الإنجيل (الحاشية 110).

إضافة إلى تعميده لتفسير لوكسينبرغ في مسألة حوريت الجنة ولغلمانها (الحاشية 111) في القرآن هي نتاج الأدب السوياني، مع التشويه القرآني لها؛ فمن: "كورا دي إنبن" في رؤيا باروخ السويانية إلى حور العين إليصل الخليفة التاريخية، للقناة الآرامية المقترحة في أصول الكتابة العربية، والعلاقة الوثنية بين الحيرة ومكة (الحاشية 112). ويزاد فقرات من الكتاب المقدس، المترجم إلى العربية، والمستخدمة في أجزاء من الليتورجية المسيحية (الحاشية 113).

11 إعادة بناء نقدية للقرآن :

خلص جيليو إلى هذه الفكرة بعد هذا التطواف العلمي المتعلق رأساً بلغة القرآن، خاصة في بداياته الغامضة؛ وقد صرح بصعوبة اقتفاء رأي نولدكه في بعض النقاط الجذرية، لاسيما عند إعلان أنه: "من المهم أن نلاحظ أن ذوق العرب اللغوي الحسن حفظهم حفظاً يكاد يكون تاماً من تقليد غرائب استثنائية، وضعفات موجودة في لغة القرآن" (الحاشية 114) وعلى الرغم من هذا إلا أنه يرى لغة القرآن العربية الكلاسيكية الفضلى، وقد وافقه على هذا أغلب دارسي القرآن؛ ومنهم روجي بلاشير ودودي باريتفي ترجماتهم إلا عند بعض النقاد.

ويرى جيليو نفسه غير مقتنع برأي نولدكه، في رأي آخر: "ربما كان قد حدث خطأ في النسخ، لكن قرآن عثمان لا يتضمن سوى عناصر أصلية، وإن في ترتيب غريب جداً بعض الأحيان" (الحاشية 115) وأنه يتضمن فقرات أصلية فقط؛ ويبني على فرضيتين هما: 1/ أن هذا القرآن الذي نعهد هو مصحف عثمان، ولكن نولدكه يصح في 1909 بفرضية حدوث إقحامات في القرآن (الحاشية 116) بعد نشرات أوغست فيشر في هذا الموضوع (الحاشية 117).

ويرى جيليو عمل الحجاج في إعجام القرآن الذي يلقي الأهمية عند الدارسين، الفرضية بإجراء التعديلات على القرآن (الحاشية 119) بعيداً عن قناعة بول كازانوف، في كون التنقيح العثماني خرافة، وأنه ذو أصول خالية (الحاشية 118) وإن هذه الفرضية تلزم صاحبها بحاجة إلى بحث دقيق؛ كعمل فرد

ليمهويس (تعليق)، الذي توصل إلى إن القراءة والتفسير لم يكونا منفصلين وأن النصّ الّذي يُسمى للقرآن لم يكن بعد مقبولا عالمياً^(الحاشية 120) كان هذا إلى غاية القرن الثّاني/الثّامن. ويخلص جيليو إلى فهم عمل لولينغ ولوكيسنبرغ، في الاختلافات القائمة في نصّ القرآن؛ وهي: **1**- اختلافات طفيفة متمثلة في قراءات أو تفسيرات، للنصّ الخالي من الإعجامين. **2**- واختلافات هامة وهي متعلّقة بالحروف الخالية منهما أيضاً، ومنها ما هو موجود في المصاحف غير العثمانية والقراءات الشاذة. **3**- والاختلافات الكبيرة وهي كتابة النصّ الآرامي بالخطّ العربي^(الحاشية 121) ما خلفية التّاريخية المفقودة في عمل لوكيسنبرغ، فهي متضمنة جزئياً في الأدب السرياني، وفي علاقة محمّد بورقة بن نوفل وخديجة وآخرين ممّن نادوه بالنبوة وأغنوه بتقارير من الكتاب المقدس، وأدب ما بعد الكتاب المقدس.

وعلى ضوء هذا يرى جيليو ضرورة انسجام محاولتي إعادة بناء القرآن؛ المنحدرة من الذروة ممّا رآه برجستراسر وبريتزل، والأخرى الصاعدة إلى الذروة ممّا دعا إليه لولينغ ولوكيسنبرغ وفان ريث وغيرهم. ويجد في دافعاً لقراءة نقدية للمصادر الإسلامية، الّتي تعكس صورة القرآن المتطوّرة، من بداياتها الأولى إلى العصر الأموي؛ منها: معلمو محمّد وتلقّيه ومعاونيه، والناسخ والمنسوخ، والآيات أو السور المحذوفة أو ضحيّة الحذف، والإقحامات النصّية، والتّصحیح الجزئيّ للحن، والتّعديلات اللّغويّة المتنوعة وغير هذا؛ انطلاقاً من فكرة لا يخلق نبيّ في يوم واحد، ولا كتاب مقدس في أقلّ من ذلك^(الحاشية 122).

النتائج :

ترجمة بطرس المبجل ذات خلفيّة تحريضية، وبعيدة عن الموضوعيّة العلميّة. تنسويغ نظرة ريتشارد بل في مسألة التّشابه، بين القرآن والتّوراة والإنجيل في المواضيع، لاسيما القصص الدّيني تواصل نبوي بين الأنبياء وحضاري بين الأمم. الاضطراب في عقيدة محمّد، في رأي مونتغمري وات وكارل بروكلمان، بين الكتابيّة الموحّدة، والوثنيّة المشتركة، لا تقبلها الموضوعيّة العلميّة.

- خصوم محمّد المكيون أميون لا نصيب لهم من القصص الدّيني، وقد استعانوا بالكتّابيين في سجالهم ضده.

- محمّد أمي بشهادة المكيين والتّوراة (سفر التّثنية 18:18) هل مكّة لم يتكلّموا بالآراميّة، ولا بالعبريّة من أيّ مصدر، خاصّة في غياب التّوراة والإنجيل المترجمين إلى العربيّة في ذلكم الحين.

- اختلاف بيّني مرويّات محمّد الدّينيّة، ومرويّات العرب الأسطوريّة والخزافيّة.

ورقة بن نوفل معلّم محمّد في رأي بعض المستشرقين، مات بـ ٤٠ سنة بعد البعثة بزمن قليل، فكيف لمحمّد بكلّ هذا الكمّ الهائل من الأخبار في قرآنه المؤلّف.

- سند جيليو وغيره من الرويّات في التّفسير وأغلبها غير دقيقة ومغلوطّة.

- رواية خديجة لورقة من خبر محمّد تأكد خبر في الإنجيل، والتّوراة سفر نشيد الإنشاد 5-16.

صعوبة الحفاظ على المضمون، في ترجمة زيد بن ثابت مع البقّة العلميّة من القناة الآرامية العبريّة. يظهر المشجر السامي العربيّ في خطّ شاقوليّ لا أصل لها إلاّ الساميّة القديمة المحتملة. - تذكر كتب الساميّات أنّ المعجم الساميّ موحد، بنسبة 80، ولا أصل لمفردةٍ في لغةٍ ما من أخواتها الأخرى.

لا يفرّق بعض المستشرقين بين عربيّة القرآن الكلاسيكيّ قوين عربيّة العربيّة الموزّعة على القبائل. الألفاظ الواردة في القرآن على أنّها أعجميّة ساميّة مشتركة، من المعجم الساميّ الموحد؛ وقد وردت في سياقات تدلّ على وقوعها في أمكنة نزولها.

عربيّة القرآن العربيّة الموحّدة، الضّامة للقبائل الكبرى في الجزيرة. - يتعلّى الفعل (بَيَنَ) بالهمزة وبالة ضعيف، وبدلالة مركزيّة واحدة؛ فأبان وبين في معنيّ واحد عربيّة-القرآن أصفى من العربيّة المشتتة بين القبائل في كلّ المستويات اللّسانية. الأخطاء الصّوفيّة والنّحويّة وشذوذها في رأي نولدكه، له مسوّغٌ صوتيّ أكثر دقّةً واستساعةً في القرآن ممّا هي عليه في عربيّة العربيّة.

- لغة القرآن قريّة من لغة الشعر الكلاسيكيّ زمنًا، المقام في مكّة ويثرب موطنيّ محمد. - القراءات القرآنيّة تصفّ تكلميّ سمح به محمد لتلهج به العرب في قراءة القرآن، دون الإخلال بالخصائص الصّوتيّة والفونولوجيّة العامّة للنصّ واللّغويّة الخطائيّة.

للقناتان الآرامية والعبريّة من ضمن المعجم الساميّ الموحد. التّجنية التّحتيّة المسيحيّة للقرآن، غير مؤسّسة على معيار علميّ وشواهدا قليلة. عدم اعتماد لوكيسنبرغ المنهج التّاريخي في القرآن قصور علميّ، خاصّة أنّ المفردة القرآنيّة لها خاصيّة السّفر في الزّمن.

- محاولة توحيد الإنجيل بعيدة المرام لاختلاف المرويات عن المسيح بخلاف القرآن الرّسميّ الموحد عن محمد وحده وبصفة مباشرة وعلى عهده.

- خبر الجنّة في الإنجيل والقرآن، من المشترك النّبوي وهو من سراج واحد إعجام نقط القرآن مفسّرة بخلفيّة لغويّة تاريخيّة عربيّة جنوبيّة وساميّة كالعبريّة (النّيكود والدّاغيش) - القراءات الشاذّة هي تفسيرات لأصحابها، وهي مدوّنة في مصاحفهم، ولا علاقة لها بما سمح به محمد من التّصفّ التّكلمي للهج العرب في قراءة القرآن.

- يجب التّفريق بين القرآن الرّسمي المدوّن وبين المصحف. السّور والآي المحذوفة لم يقل بها، إلاّ الذين لهم خلفيّة سياسيّة متشدّدة، وغير مؤسّسة علميّة. - لا يمكن إسقاط ظروف جمع التّوراة والإنجيل، على القرآن المجموع على عهد محمد ذاته، والمصحّح به في القرآن نفسه، لاختلاف البيئات التّاريخيّة الثلاث.

نقد موضوعي لمباحث من علوم القرآن :

إعادة النظر في مروية أمر محمد زيدا بتعلم العربية مدة 19 يوماً، دون أن يكون له سابق عهد بها. ليست عربية القرآن قرشية ولا حجازية .

- يمكن اعتماد دليل الطلب المنهجي للوكيسنبرغ في تفسير القرآن وتأويله اللغويين.
- إعادة النظر في مسألة لفظ الكوثر غير المتوافق والبنية اللسانية للسورة ذاتها.
- إعادة النظر في مسألة صلب المسيح عند المسلمين.
- إعادة النظر في مسألة جمع القرآن على عهد الخلفاء الثلاثة.
- إعادة النظر في مسألة النسخ والمنسوخ اللغوية قبل الفقهية.
- إعادة النظر في بعض المسائل والمباحث في علوم القرآن لاسيما التفسير والقراءات.
- نزع القدسية على الآراء اللاهوتية للمفسرين وعلماء القرآن.
- آراء الدارسين المستشرقين تنويرية، وتفتح باب البحث الجلي والمتجدد.
- قوة الآراء الاستشراقية ثغرات في علوم القرآن، يجب سلبها بالاستقراء البحثي المؤسس.

المصادر والمراجع:

- 1) جبرائيل، سعيد رينولدز (2012م)، "القرآن في محيطه التاريخي" ترجمة، سعد الله السعدي، لبنان، العراق - بيروت، بغداد، ط1.
- 2) الثعلبي، أبو إسحاق أحمد (428هـ) (2002م)، "الكشف والبيان" تحقيق، أبي محمد بن عاشور، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1.
- 3) ريتشارد، بل: "الإسلام المتطوف" مصر - مطبعة المبارك - (د/ط) - 1989م.
- 4) محمد اللسوقي (1995)، "الفكر الاستشراقي - تاريخه وتكوينه"، مصر، المنصورة، دار الوفاء، ط1.
- 5) مقاتل، بن سليمان (2002)، "تفسير مقاتل"، تحقيق، عبد الله محمود شحاتة، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ط2.
- 6) مونتغمري، وات (2002)، "محمد في مكة" تر، عبد الرحمن الشيخ، وحسن عيسى، الهيئة المصرية للكتاب، (د/ط).
- 7) يحيى، بن سلام (200) (2004)، "تفسير يحيى بن سلام" تحقيق، هند شليبي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1.

1) Alphonse Mingana, "Syriac influence on the style of the Koran," Bulletin of the John Rylands Library 11, 1927.

- 2) Christoph Luxenberg, Die Syro-Aramäische Lesart des Koran. Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache Berlin, Das Arabische Buch, 2000.
- 3) Sale's Comprising, with "A Comprehensive Commentary On The Qura": Elwood Morris Wherry (1843/1927) Translation and Preliminary Discourse Additional Notes and Emendations Together with a Complete Index to the Text, Preliminary Discourse, and Notes-LONDON-TRUBNER-vol2-CO-LUDGATE-1896.
- 4) M. R. Zammit: A Comparative Lexical Study of Quranic Arabic. Leiden 2002.

النحو العربي في كتابات المستشرقين بين الأصالة والنقل والاستغراب

**Arabic grammar in the writings of the orientalisists between
originality, transfer and surprise**

د. صافية كساس

المدرسة العليا لتكوين الأساتذة - بوزريعة - الجزائر

Dr. Kessas Safia

kessassafia479@yahoo.fr

الملخص:

لقد حاولت في هذا البحث استقصاء آراء المستشرقين ونظرتهم إلى النحو العربي من حيث أصالته وتأثره بالثقافات الأجنبية: اليونانية والسريانية والهندية.. كما أشرت إلى الباحثين العرب الذين تأثروا بنظرة المستشرقين وحاولوا تقليدهم في آرائهم القائلة بنقل النحاة العرب من الحضارات القديمة أثناء وضعهم للقواعد العربية، وخلصت من خلال تتبع كل هذه الآراء إلى أن النحو العربي أصيل في نشأته، وهذا باعتراف جماعة من المستشرقين الذين أنصفوا التراث العربي من خلال دراساتهم الموضوعية، وإن كان النحو قد تأثر حقا بهذه الثقافات الأجنبية ونحل منها فإن هذا النقل كان عند النحاة المتأخرين بعد أن بني صرح النحو العربي وضعت كل القواعد الأساسية في الكتاب لسيبويه.

الكلمات المفتاحية: النحو العربي، المستشرقون، الأصالة، النقل، الاستغراب.

Abstract :

In this research, I tried to investigate the views of orientalisists and their perception of Arabic grammar in terms of its originality and its influence with foreign cultures: Greek, Syriac and Indian .. I also referred to Arab researchers who were influenced by the orientalisists 'view and tried to imitate them in their views of transferring Arab grammarians from ancient civilizations while they put in place Arab rules. By tracing all these views to the fact that Arabic grammar is original in its inception, and this is recognized by a group of orientalisists who did justice to the Arab heritage through their objective studies, and if the grammar was really influenced by and drew from these foreign cultures, then this transfer was with the late grammar after he built an edifice Arabic grammar and all the basic rules are laid down in the book for Sibawayh.

Keywords: Arabic grammar, orientalisists, originality, transmission, curiosity.

المقدمة:

لقد كان للمستشرقين جهود ضخمة في مجال الدراسات التاريخية واللغوية خاصة، في مختلف فروعها من نحو وصرف وبلاغة وشعر ومعاجم وعلم الأصوات والدلالة وغيرها، تمثل ذلك جليا في مؤلفاتهم الكثيرة والمتعددة في هذه التخصصات، وفي التراث اللغوي العربي بصفة عامة والعربي الإسلامي بصفة خاصة، فأُسست المدرسة الإنجليزية للغات الشرقية بلندن، كما أُسست المدرسة الفرنسية للغات الشرقية في باريس، وغيرها، وقد أخذ النحو العربي نصيبا معتبرا من هذه الكتابات والاهتمام به، فتناوله المستشرقون بالدراسة التاريخية التطورية بعد اطلاعهم الواسع على التراث النحوي، فادّعى معظمهم أنّهم أهل الأمر أصالة، وأنّ العرب قد تطفلوا على تراثهم فنقلوا واجتروا، فجاءت كتابتهم تنكر أن يكون النحاة العرب قد أخرجوا شيئا جديدا، ولم يجدوا بدا من الزعم بأنّ النحو مستمد من الدراسات اليونانية والسريانية أحيانا أو الهندية أحيانا أخرى، مثلما رأوا في تقسيم العرب للكلام تقسيما أرسطو طاليسيا محضا؛ ومنهم من استغرب أن يصل العرب إلى هذا المستوى من الاستقراء والتحليل وتقعيد القواعد في بيئة بدوية تفتقد إلى أدنى شروط الوسائل العلمية؟ وقلة منهم من كان منصفاً - بعد الدراسة التمحيص في قراءة التراث النحوي - توصّلا بتحليلاتهم إلى أنّ النحو العربي أصيل أصالة العرب والقرآن الكريم، وأنّ النحو جاء ليحافظ على لغة القرآن الكريم وآياته من التحريف.

فلم كلّ هذا الاهتمام بالدراسات اللغوية العربية وبالتراث النحوي من الغرب؟ ومن هم أهمّ المستشرقين الذين كتبوا عن النحو العربي؟ وما طبيعة الموقف الاستشراقي من أصالة النحو العربي؟ وما هي النتائج التي توصّلو إليها في دراساتهم؟ وما مدى تأثر الباحثين العرب بكتابات المستشرقين؟

أولا: مفاهيم أولية

1- مفهوم النحو العربي:

النحو لغة هو القصد والميل، وفي الاصطلاح هو: "انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالثنية والجمع، والتحقيق والتكسير، والإضافة والنسب، والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذّ بعضهم عنهاراً إليها" (ابن جني، الخصائص، 1955، ج1، ص 34)؛ فالنحو علم يعرف به أحوال الكلام العربي من حيث الإعراب والبناء، والتعريف والتنكير، والتقديم والحذف، والاتصال والانفصال، وما إلى ذلك مما يدخل في تنظيم الجملة وإصلاح الكلام من خلال تتبع القواعد العربية التي وضعها النحاة انطلاقاً من المدونة اللغوية الفصيحة والقياس واجتهاد المدارس النحوية.

2- مفهوم الأصالة:

أصل الشيء أساسه؛ وقد ورد في معاجم اللغة أن الأصل أسفل كل شيء، (الأزهري، تهذيب اللغة، 2004. والمعجم الوسيط، 1960، مادة أصل)، فأصل كل شيء قاعدته، وأصل كل شيء ما يستند وجود ذلك الشيء إليه، "والأصل ما يبنى عليه غيره، وهو في اللغة: عبارة عما يفتقر إليه ولا يفتقر هو إلى غيره" (المرجاني، التعريفات، 2000، ص 32). أما الأصالة فمن معانيها: الصدق: يقال على وثيقة أو عمل صادر حقا عن صاحبه، ويقابله المنحول. تقول النسخة الأصلية أو الأصيلة: وهي النسخة التي كتبها المؤلف بيده؛ ومن معاني الأصالة: الجدة أو الابتداء، وهو امتياز الشيء أو الشخص على غيره بصفات جديدة صادرة عنه، فالأصالة في الإنسان إبداع، فإذا قلّد الإنسان غيره أو أتى بشيء مبتذل أو سخيّف لم يكن أصيلا؛ جاء في المعجم الوسيط: الأصالة في الرأي جودته، وفي الأسلوب ابتكاره، وفي النسب عراقته (المعجم الوسيط، مادة أصل)، ومن ثم تشير الأصالة إلى القدرة على إنتاج أفكار أصيلة، وكلما قلّت درجة شيوع الفكرة زادت درجة أصالتها. ويطلق اصطلاح نقد الأصالة في علم التاريخ على نظر المؤرخ في الوثائق والروايات هل هي صحيحة أو مدروسة أو مزوّرة، أو منقولة.. وهو ما ينطبق على نظرة المستشرقين إلى النحو العربي في بحثنا هذا.

3- مفهوم النقل:

لمصطلح النقل معانٍ متعدّدة اخترنا منها ما يناسب موضوع البحث، جاء في مختار الصحاح: "نقل الشيء تحويله من موضع إلى موضع. و(النقل) الاسم من (الانتقال) من موضع إلى موضع... ونقله تنقيلا إذا رأى أكثر نقله (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986، مادة نقل). وجاء في جمهرة اللغة: "النقل: مصدر نقلت الشيء أنقله نقلا، إذا حولته من موضع إلى موضع آخر... وتناقل القوم الكلام بينهم إذا تنازعوا، والاسم النقل. والنواقل: واحدتها ناقلة، وهي قبيلة تنتقل من قوم إلى قوم.. (ابن دريد، جمهرة اللغة، 1987، مادة نقل) ومن ثمّ فنقل الكلام: ترجمته وروايته، ونقل الكتاب: نسخه، أي: نقله عن قائله ورواه عنه بالسمع أو الترجمة أو النسخ؛ وكذلك نقل العلوم من لغة إلى أخرى.

4- مفهوم الاستغراب:

نجد الفعل (استغرب) والمصدر (استغراب) يدلان على معانٍ متعدّدة ذوات مستويات لغوية ودلالية مختلفة، فكلمة استغراب (اسم)، مصدر استغرب. نظر إليه باستغراب: باندهاش. واستغرب الشيء: وجده أو علّه غريبا. وأصل الغرب في اللغة البعد، ومنه جاء معنى المبالغة حين يقال أغرب في الضحك أو استغرب ضاحكا أي بالغ فيه (ابن منظور، لسان العرب، مادة غرب) وفي المعجم الوسيط جاء: "غربت الشمس غروبا: اختفت في مغربها.. يقال: أغرب عني وفلان غربا، وغربة: بعد عن وطنه.. والكلام غرابة: غمض وخفي فهو غريب.. استغرب الرجل في الضحك: بالغ فيه.. والشيء وجده أو علّه غريبا. وفي التنزيل العزيز: "ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود" (المعجم الوسيط، مادة

غرب). ويضاف إلى ذلك اشتباك كلمة الاستغراب بكلمات أخرى مشتقة من الجذر نفسه، فهي قد تستخدم بمعنى عكسي تماما، أي بمعنى التَّغريب، وطلب الغرب والقرب منه، وهو ما يفيد أصل الاشتقاق (استفعل) أي طلب الشيء وسعى إليه، كما يمكن أن يختلط المعنى بالتغريب، والمراد به فرض القيم الثقافية والمجتمعية الغربية على الشرق بمعناه الواسع. و"الاستغراب ظاهرة نفسية واجتماعية وثقافية معاصرة... نشأت على إثر الصدمة الحضارية قبيل الاستعمار وخلالها" (عبد الله الشارف، **الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر، 2003، ص 30**)، وهو مصطلح متولد من تفاعل وتطور تاريخي ثقافي وحضاري، يدور معناه حول الدهشة والحيرة من غرابة شيء ما، والتعجب منه، وهو المعنى المراد في هذا البحث.

5- مفهوم الاستشراق:

لغة: يقال شرقت الشمس شرقا وشروقا أي طلعت، والشرق: هو الجهة التي تشرق فيها الشمس، والتشريق الأخذ من ناحية الشرق (ابن منظور، **لسان العرب، 1419هـ، مادة شرق. والفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1426هـ**)؛ هذا عن معنى كلمة (شرق)؛ أما كلمة (استشراق) فيبدو أنها لم ترد في المعاجم اللغوية، فهي حديثة النشأة، إذ ظهرت كلمة مستشرق (orientaliste) في كل من إنجلترا سنة 1779م، وفي فرنسا سنة 1799م، ثم أدرجت كلمة الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1937م (عبد المنعم، **من افتراءات المستشرقين، 1422، ص 15**)؛ فالمستشرق صفة عالم (أجنبي) متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه.

ويذكر المستشرق رودنسون أن كلمة مستشرق ظهرت في اللغة الإنجليزية نحو عام 1779 كما دخلت كلمة الاستشراق معجم الأكاديمية الفرنسية في عام 1838، وفيها تجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق. ومعنى استشراق: أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم (إسماعيلوفيتش، **فلسفة الاستشراق، 1980، ص 202**)، كما أن معنى كلمة (orient) طلب العلم والمعرفة والإرشاد، ومن ثم يكون مفهوم الاستشراق: طلب العلم الشرقي؛ يؤكد هذا بعض المصادر اللغوية الحديثة، فقد جاء في معجم متن اللغة: "استشرق فلان بمعنى طلب علوم الشرق ولغاتهم، وهي كلمة مؤكدة عصرية تقال لمن يُعنى بذلك من الإفرنج" (أحمد رضا، **معجم متن اللغة، 1958، ص 311**). ومن خلال ما سبق - حسب ما أكّدت عليه بعض المصادر اللغوية الحديثة - يتضح أن كلمة استشراق عصرية، غربية غير عربية. ويرى كثير من الباحثين أن جيرا ردي أورلياك الفرنسي هو أول من استشراق.

اصطلاحا: اختلف الباحثون في تعريفاتهم لهذه الكلمة، وتتنوع بين المفاهيم الإسلامية والغربية، فقبل: هو العلم الذي يتناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من علماء الغرب؛ وقيل: هو أسلوب للتفكير يتركز على التمييز المعرفي بين الشرق والغرب؛ وقيل: هو أمر مرتبط بمفهوم الناس الذين يقومون به، يقصد بهم: الكتّاب الغربيون الذين كتبوا عن الفكر والحضارة الإسلامية؛ ومنهم من يصفه بالنمط الإسقاطي الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه؛ حيث يفهم من هذا الأخير أن الاهتمام بأحوال الشرق والكشف

عن عقليات شعوبه، وأسراره، وحضارته، وتلمس موضع الضعف والقوة لهذه الشعوب توطئة لحملات التبشير وموجات الاستعمار (ساسي الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، 2002، ص 20)، وهو نفس المعنى الذي أشار إليه إدوارد سعيد في قوله: "الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقارير حول، بوصفه، وتدرسه، والاستقرار فيه، وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبناؤه، وامتلاك السيادة عليه" (إدوارد سعيد، الاستشراق، 2006م، ص 39)، وهو ما يتوافق مع تعريف عبد المنعم فؤاد في قوله: "الدراسات الأكاديمية التي يقوم بها غير المسلمين من عرب سواء من الشرق أو الغرب للإسلام عقيدة، وشريعة، ولغة، وحضارة، بقصد التشكيك في هذا الدين القويم، وإبعاد الناس عنه" (عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية، 1422، ص 18)؛ وهو -في نفس السياق دائما-: "الدراسات المتعلقة بالشرقين شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلدانهم، وسائر أراضيهم، وما فيها من كنوز وخيرات، وحضارتهم، وكل ما يتعلق بهم" (عبد الرحمن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، 1994، ص 118).

فالتأمل في هذه التعريفات يرى أن المعنى الذي أعطي للاستشراق يحمل نوايا خبيثة ومكائد للمسلمين وبلاد المسلمين خاصة في الشرق الأوسط، "وقد اعتبر في البداية كعلم واحد متكامل، ثم سرعان ما انقسم إلى فروع وتخصصات مستقلة بعضها عن بعض، ومتعلقة بمختلف الحضارات الخاصة بالشرق الإفريقي- الآسيوي. وبهذا شهدنا ظهور الاستشراق الصيني والهندي، والدراسات الإيرانية والتركية، والعالم السامي والإسلاميات، والدراسات المصرية القديمة، ودراسة إفريقيا، وبقية التجمعات المناسبة أو المتعلقة بتقسيمات محددة من النواحي اللغوية، والتاريخية، والعرقية للحضارات. كل هذه التخصصات راحت تحل محل التسمية العامة والمشاركة للاستشراق، وأصبحت هذه التسمية القاسم المشترك بينها أو اللحمة المشتركة لها" (غابرييلي وآخرون، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، 2016، ص.ص. 21. 22) وعلى أية حال فهو في صورته العامة: عبارة عن اتجاه فكري غربي يقوم بدراسة حضارة الأمم من جوانبها الثقافية والفكرية، والدينية، والاقتصادية والسياسية كافة لغرض التأثير فيها؛ وقد ذهب في هذا السياق الباحث محمود حمدي زقزوق على أن "المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه، وتاريخه وعقائده وشريعته وحضارته بوجه عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي عندما يطلق لفظ (استشراق) أو (مستشرق)، وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنيين" (مراد باهي، فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، 2016، ص 14). وقد يعني هذا المفهوم كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين -شرقيين وغربيين- بما يشمل السوفيات والأمريكيين من دراسات أكاديمية جامعية تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في شتى الحقول المعرفية فضلا عما تنشره وسائل الإعلام المتباينة بلغاتها، أو لغة الضاد لمعالجة قضايا العرب والمسلمين؛ كما

يمكننا أن نُلحق بهذا التعريف ما يخطه النصارى العرب ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المخيال الغربي، وكذلك تلامذة المستشرقين من بني جلدتنا الذين تبنا كثيرا من أفكار المستشرقين.

ثانيا: أهداف ودوافع اهتمام المستشرقين بالتراث العربي

لقد مَّت الحركة الاستشراقية - حسب تطوُّر الفكر الغربي - منذ نشأتها بمحطات تاريخية هامة، فكانت البداية الأولى مركزة على حب الاستطلاع وكشف التراث العربي بعد الاطلاع عليه، خاصّة وأنّ الغرب في هذه الفترة الأولى كان يعيش عصر الظلام والركود المعرفي، فانبهر الغربيون بالتراث العربي الضخم الذي وجدوه في البلاد العربية - خاصّة في شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط - فانهالوا عليه بالدراسات فاستفادوا وأفادوا وأضافوا الكثير إلى حضارتهم، لتنبعث الحركة العلمية في الغرب بمختلف المناهج العلمية، وقد رأى يوهان فوك أنّ فتوحات العرب الكبرى، والمواجهة المسلحة بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، وبين الدول الأوروبية الأخرى فيما بعد، وقيام العالم الإسلامي بالمحافظة على تراث القدماء مثل اليونان وغيرهم في المجالات العلمية، كانت الدافع إلى حث الأوروبيين على الترجمة من العربية إلى اللاتينية (يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، 1996م، ص 11)، حيث إن الاهتمام باللغة العربية في أوروبا كان منذ زمنٍ بعيدٍ وكان الاهتمام بذلك يختلف من عصرٍ إلى آخر، وهو ما أفصح عنه غير قليلٍ من المستشرقين (Versteegh, Greek elements in arabic, 2001, P. 335)، ولكن مع مرور الوقت ونضج هذه الدراسات أصبحت للاستشراق أهداف أخرى، ودوافع شتى خاصّة ما تعلق منها بالدراسات الإسلامية، وهنا نشير إلى أنه هناك من المستشرقين من كان دافعه العلمي وراء دراسته للتراث العربي نزوها، وأن الرغبة في خدمة العلم كانت الحافز الأعظم لدراساته الاستشراقية، وهناك من المستشرقين من كان تائها في محيط الدوافع الكثيرة المشبوهة، كما أنّ هناك الكثير منهم من كان قصده واضحا - من خلال دراساته الاستشراقية - في الأهداف المريبة والمقاصد غير النزهاء التي تخدم الغرب بطرائق وأدوات شتى لاستعمار واستغلال الشعوب العربية وتوسيع رقعتها الاستعمارية، ومحاربة الإسلام والمسلمين ومحاولة إنتاج جيل من المثقفين العرب يعملون على تحقيق أهداف استشراقية عجز المستشرق عن تحقيقها بنفسه، يقول الدكتور علي توفيق الحمد على لسان المستشرق الألماني أولريش هارمان (Ulrich Harman): "إنّ مقلّمي الدعم المالي يمارسون ضغوطا على المستشرقين، وهناك أيضا الضغط الملح من قبل الذين يقلّمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم الإسلامي والتشبّث به" (علي توفيق، نحن والمستشرقون، 2001، ص 5)، فكما ورد في هذا الاعتراف نلاحظ كيف يستخدم الغرب الباحثين المستشرقين لخدمة أهدافهم اللعينة، ومصالحهم الخبيثة، ونجد المستشرق يوهان فوك كذلك يعترف بخطط الغرب في التبشير قائلا: "إنّ الاستشراق لم يكن عملا علميا محضا، بل إنّ المراد منه هو الردّ على الإسلام والتبشير بالنصرانية بين المسلمين، وذلك بتراجم عربية للإنجيل" (عبد المتعال الجبري، الاستشراق وجه

للاستعمار الفكري، 1995، ص 16) فهذا التصريح كما هو واضح ينصّ على أهداف تبشيرية محضة بعيدة كل البعد عن الأساليب العلمية المزعومة.

ولكن، بغض النظر عن الأهداف المعلنة أو الخفية للدراسات الاستشراقية، فقد ترك المستشرقون دراسات ضخمة، مختلفة ومتنوعة كتأليف المعاجم التاريخية للغة العربية، ودراسة الفقه واللهجات العربية...، ومنها النحو العربي دراسة تاريخية تطويرية بمناهج غربية مع اختلاف وجهات نظر المستشرقين حول أصالته. فآلفوا في المجال النحوي واللغوي بصفة عامة مؤلفات عديدة، حتى أننا لن نبالغ إذا قلنا: إن ما يكتب عن العربية وعلومها بلغات الغرب حالياً في الكتب والدوريات الغربية على أيدي المستشرقين وتلاميذهم من العرب لكثير إلى الحد الذي يستدعي عند بعضنا الغرابة (جدامي، المستشرقون والتراث النحوي العربي، 2016، ص 9)، وقد أثبت الدكتور عبد الرحمن يوسي في بحثه الموسوم: (هل توجد لسانيات استشراقية؟: (there an orientalist linguistics) is) اهتمام الغرب بالعربية منذ الإسباني ألكالا (1505م)، حتى عصرنا هذا موضحاً اتجاهاتهم البحثية (Youssi, is there an orientalist linguistics? 2004, P. 329) ويتجلى الاهتمام باللغة العربية كذلك من خلال دائرة المعارف الخاصة باللسانيات العربية التي يترأس تحريرها المستشرق الهولندي كيس فرستيج، والتي كتب فيها عدد غير قليل من المستشرقين وغيرهم في الجامعات الغربية، ولعل كتاب الدكتور محمد حسن باكلا (اللسانيات العربية)، و(مقدمة وبيبلوغرافيا اللسانيات، أو البيبلوغرافيا) التي صنعها ديم وأكملها فرستيج للدراسات الاستشراقية للنحو العربي، ونشرت في مجلة (Journal of Arabic Linguistics) التي يرأس تحريرها الألماني فيشر لخير دليل على وجود كم كبير من البحوث المكتوبة بمختلف اللغات الأوروبية عن اللغة العربية، أفاد من هذه الدراسات دارسوها والغرب، كما استفاد منها العرب خاصة في إثارة الفكر والنظر إلى الدراسات العربية بكل موضوعية، وكذا الاستفادة من هذه الدراسات في مجال المناهج العلمية التي لا تزال إلى اليوم تنير طريق الباحث العربي في إنجاز أبحاثه، ودفع عجلة البحث العلمي نحو التطور والازدهار.

ثالثاً: بدايات التأليف في النحو العربي عند المستشرقين وأبرز من كتبوا فيه

حسب المصادر اللغوية فإن بدايات الاهتمام بالنحو العربي من قبل المستشرقين قد بدأت منذ أن كتب ألكالا (Pedro Alcala) في إسبانيا عن النحو العربي عام 1505م، وبعد ذلك أعيد طبع مؤلفه باختصار في باريس عام 1538م على يد وليم بوستل، وفي عام 1610م طبع بيتر كريستين (P. Kristen) ترجمةً باللاتينية لمقدمة ابن داود، وهذه هي الترجمة الأولى لكتاب من كتب النحو العربي؛ وقد طبع ريموند (Jean Baptist Raymand) في روما نص وترجمة كتاب (التصريف) لـ النحوي البغدادي الزنجاني؛ وفي عام 1613م ينشر جابريل سيونيتا (G.Sionita)، وجان هسرونيثا (J.

(Hesronit) في باريس الجزء الأول من كتابهم (نحو اللغة العربية) الذي يقع في 48 صفحة (جدامي، المستشرقون والتراث النحوي، ص 18)، كما كتب المستشرق الهولندي توماس إرنستوس قواعد العربية باللغة اللاتينية، وحسب تعبير يوهان فك فإنه لأول مرة يكتب كتاب عن النحو العربي بيد وتصور أوروبين (يوهان فك، تاريخ حركة الاستشراق، 1996م، ص 69)، وقد نشر هذا الهولندي عام 1617 كتاباً عن الآجرومية النحوية، وكتاب العوامل المثة للجرجاني. وفي عام 1813م يؤلف كلود إتين سفاري (E. Savary) (نحو اللغة العربية العامة والفصحى)؛ وبعدها تأتي المرحلة الجديدة لدراسة النحو العربي مع المستشرق سلفستر دي ساسي الذي كانت دراساته متميزة عن مناهج المستشرقين في بدايات اهتمامهم بالنحو العربي، وقد نشر أكثر من مؤلف عن النحو والأدب العربي، فكان من بين مؤلفاته المشهورة كتاب: (النحو العربي)، وقد لمس هذا المستشرق جوانب من النحو العام (Générale Grammaire) في معالجته للنحو العربي متأثراً في ذلك بمدرسة بور رويال (Port-Royal)، كما كانت دراسته متأثرة بالدراسات النحوية القديمة. وفي هذه المرحلة من هذا القرن توالى الكتابة في النحو العربي، إذ نجد مجموعة من المستشرقين المهتمين بتاريخ النحو والدراسات اللغوية على رأسهم: إفال (Ewald)، ونولدكه، وركندروف، ووليام رايت وغيرهم. أما في القرن العشرين - ولتعدد المناهج - فقد وجدنا زيادة الاهتمام بالنحو والدراسات اللغوية بصفة عامة، حيث نجد أسماء أخرى جديدة في مجال الدراسات اللاشعورية ك: بلاشير، وفيشر، وبرجستراسر وغيرهم؛ ولقد كان المستشرق الألماني فيشر من أكثر المستشرقين عنايةً بتقسيم العربية إلى مراحل زمنية، ومن أهم أبحاثه في هذا المجال: (المراحل الزمنية للعربية الفصحى) الذي نشر في المجلة الثقافية التابعة للجامعة الأردنية عام 1987م بترجمة الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة، وفي مؤلف فيشر: (الأساس في فقه اللغة العربية) مباحث وموضوعات تتعلق بتاريخ اللغة العربية متبعتها خطوطها ومخطوطاتها وتطور لهجاتها (فيشر، الأساس في فقه اللغة العربية، 2002، ص 51) وقد عقد مقارنة بين اللغة التقليدية - كما وصفها هو - واللغة المعاصرة في الأساليب. وفي عام 1929م لقي برجستراسر محاضرات في الجامعة المصرية، جمعها بعد ذلك في مؤلف صدر له بعنوان: (التطور النحوي للغة العربية)، وقد طرح المؤلف في بداية كلامه مع طلابه فذكر قائلاً: "أيها السادة... إن الغرض من محاضراتي التي سألقونها عليكم هو درس اللسان العربي من الوجهة التاريخية، أي من جهة نشأته، وتكوينه، وأصول حروفه، وأبنيته، وأشكال الجملة فيه، والتغيرات التي وقعت فيه مع توالي الأزمان" (المرجع السابق، ص 7. وينظر: حمدان بن عبد الله، موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو، 2019، ص. ص. 187. 188).

رابعاً: وجهة نظر المستشرقين حول النحو العربي

تنقسم وجهة نظر المستشرقين حول أصالة النحو العربي من عدمها إلى آراء مختلفة ومتضاربة، منها:

1- النحو العربي منقول من الثقافات الأجنبية ومتأثر بها:

ويمثّل هذا الاتجاه مجموعة من المستشرقين خاصة في القرن التاسع عشر نذكر منهم: جويدى (I.Guidi): الذي زعم فيه أن أصل النحو العربي مأخوذ من الفكر اليوناني، وذلك في بحثه المنشور عام 1877م باللغة الإيطالية؛ (المهيري، نظرات في التراث اللغوي العربي، 1993، ص 85)؛ وقد تبعه في رأيه هذا مركس (A.Merx)، وذلك في قوله: "عرف النحاة السريان أفكار ثراكس وغيره من النحاة اليونانيين، وقد وصلت أفكار السريان إلى النحاة العرب" (جدامي، المستشرقين والتراث النحوي العربي، ص 27)، حيث أشار هنا إلى أن العرب تأثروا في نحوهم باليونانيين من خلال السريان، وما يؤكد هذا على زعم قوله هو وجود علاقة ما بين المصطلحات والمفاهيم النحوية العربية والفكر اليوناني، فمفهومي الإعراب والصرف يرجعان إلى التراث اليوناني، وكذلك مفهوم الخبر، ومقولة الجنس، وفكرة الظرف أي ظرفا الزمان والمكان، وكذا مقولة الحال، والتمييز بين الأزمنة الثلاثة عند النحاة العرب P (Merx, l'origine de la grammaire arabe, 1891, P.P. 19. 27) كلها مرتبطة بالتراث اليوناني عنده، بل هو يذهب إلى أكثر من ذلك زاعما أن العرب لم يذكروا في كتاباتهم هذا التأثير الأجنبي في النحو العربي لجهلهم العمل الذي وضع النحو مع المنطق، حيث تطلب ذلك منهم زمناً طويلاً لمعرفة ذلك (P Merx, l'origine de la grammaire arabe, 1891, P.16)، أما روندجرين فقد أشار إلى أن المعرفة بالمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية وصلت إلى العرب من خلال الترجمات الفارسية، التي صنعت في أكاديمية جنديشابور؛ وهذه الترجمات الفارسية، وبعض عناصر المنطق اليوناني أصبحت متاحة للعرب من خلال كتاب (المنطق) لابن المقفع (جدامي، المستشرقين والتراث النحوي العربي، ص 27)، ونلاحظ هنا أن روندجرين يقر أن التأثير اليوناني في النحو العربي يرجع إلى مرحلة ما قبل ترجمة العلوم اليونانية للعرب؛ وهذا فيه من الغرابة ما لا يصدق عقل ولا يقره منطق! وقد ذهب مذهبه كذلك المستشرق رايفي تلمون الذي كان بدوره متكلّم بموضوع التأثير اليوناني على النحو العربي، حيث توصل من خلال أبحاثه إلى أن النحاة القدماء كانوا على معرفة ببعض المبادئ الفلسفية، بل ببعض فصول مصنفاته الرئيسة إلا أنهم تغافلوا عنها رغبةً منهم في إنشاء علم إسلامي أصيل (تلمون، التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه، 1984، ص.ص. 37. 53)، كما توصل في بحث له عام 1990م من خلال دراسته لكتاب (معاني القرآن) للفراء إلى تأثر هذا الأخير بالمنطق اليوناني على خلاف سيبويه الذي لم تفلح محاولات الباحثين في ربط فكره النحوي بالتأثير الهيليني (جدامي، المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص 33)، ومن خلال استقراءنا لآراء هذا المستشرق نلاحظ عدم تمكّنه من ربط تفكير سيبويه ودراساته بالفكر اليوناني، وكما نعلم أن سيبويه كان واضع النحو العربي في مؤلفه الكتاب الذي جمع فيه كلَّ أساسيات القواعد العربية، حيث إنَّ النحو العربي -على الأقل- في بداياته الأولى كان نقياً من التفكير اليوناني ومن أي تأثير أجنبي.

أما يوهان فك فلنلاحظ في آرائه أنه أنكر دور أوائل النحاة في وضع النحو وأصالة نشأته، وذلك حين زعم أنه "نشأ في أواخر القرن الأول (السابع الميلادي) مبدأ تنقية اللغة العربية" (يوهان فك، العربية، 2003، ص 36)، إذ يفهم من هذا القول إنكار يوهان فك لدور أبي الأسود الدؤلي الذي كانت وفاته في منتصف القرن الأول (69 هـ)، ولا شك في صحة إعرابه للقرآن الكريم بوضع نقط الإعراب عليه، ومن ثم نقط الإعجام؛ وقد عرف عن هذا المستشرق مدى تشديده على دور الأعاجم في حياة المجتمع العربي حينذاك، وتشكيكه في أصالة نشأة النحو، وهذا ما نلمسه في قوله: "إن هذه الروايات المتفرقة المتضاربة غير تاريخية بالمعنى الصحيح" (يوهان فك، العربية، 1951، ص 11)، كما ذهب إلى أن نظرية العامل كانت غير واضحة عند الخليل؛ لأن هذا الأخير يستخدم مصطلحات الرفع والخفض والنصب مع الأسماء المنونة، فالرفوع هو الاسم المضموم المنون، والمخفوض هو الاسم المجزور المنون، والمنصوب هو الاسم المنصوب المنون؛ كما ذهب إلى أن سيبويه هو الذي توسع في إطلاق الرفع والنصب والجر على أواخر الكلمات غير المنصرفة (يوهان فك، العربية، 1951، ص. ص. 11. 12)؛ ولكن قول يوهان فك أن نظرية العامل كانت غير واضحة عند الخليل، قول مردود، لأن الخليل هو صاحب الفضل في هذه النظرية، تدل على ذلك الآراء الكثيرة التي أوردها له سيبويه، نحو قوله في (باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده): "وزعم الخليل أنها عملت عملين: الرفع والنصب، كما عملت كان الرفع والنصب حين قلت: كان أخاك زيد، إلا أنه ليس لك أن تقول: كأن أخوك عبد الله، تريد: كأن عبد الله أخوك، لأنها لا تصرف تصرف الأفعال، ولا يضم فيها المرفوع كما يضم في كان (سيبويه، الكتاب، ص 131).

وأما قول يوهان فك أن الخليل كان يستخدم مصطلحات الرفع والنصب والجر مع الأسماء المنونة فقط، وأنه كان يسمى الأسماء الخالية من التنوين بأسماء الحركات العامة من ضم وفتح وكسر، فهو قول فيه نظر؛ فسيبويه يقول في باب النداء: "وزعم الخليل رحمه الله أنهم نصبوا المضاف نحو: يا عبد الله ويا أخانا؛ والنكرة حين قالوا: يا رجلاً صالحاً حين طال الكلام، كما نصبوا هو قبلك وهو بعدك، ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد، وموضعهما واحد، وذلك قولك: يا زيد ويا عمرو، وتركوا التنوين في المفرد كما تركوه في قبل. قلت: أريت قولهم يا زيد الطويل، علام نصبوا الطويل؟ قال: نصب لأنه صفة لمنصوب. وقال: وإن شئت كان نصباً على أعني. فقلت: أريت الرفع، على أي شيء هو إذا قال: يا زيد الطويل؟ قال: هو صفة لمرفوع. قلت: ألسنت قد زعمت أن هذا المرفوع في موضع نصب، فلم لا يكون كقوله: لقيته أمس الأحداث؟ قال: من قبل أن كل اسم مفرد في النداء مرفوع أبداً، وليس كل اسم في موضع أمس يكون مجزوراً، فلما اطراد الرفع في كل مفرد في النداء صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل، فجعلوا وصفه إذا كان مفرداً بمنزلة؛" (موسى، طعن المستشرقين في أصالة النحو العربي، 2017، ص. ص. 58. 59) إذن هنالك تباين واضح بين آراء الخليل وادعاءات يوهان فك :

أولاً: إن الخليل أطلق مصطلح نصب على المنادى المضاف، والمنادى النكرة، وأطلق النصب على المنون والخالى من التنوين؛ وهذا يخالف ما ادعاه عليه يوهان فك؛
ثانياً: إنه يسمى البناء على الضم رفعاً، نحو: (قبل) و(بعد) و(يا زيد)، وعنده أن كل اسم في النداء مرفوع أبداً، بمعنى أنه يبنى على كل ما يرفع به. ورفع المنادى المفرد عنده بمنزلة المرفوع بالابتداء أو بالفعل، أي المبتدأ أو الفاعل؛

ثالثاً: في هذا النص بيان واضح على أن الخليل يميز بين رفع المبتدأ أو الفاعل من جهة، وبين رفع المنادى المفرد من جهة أخرى، فالمنادى المفرد في موضع نصب لكنه بني على ما يرفع به، بعكس رفع المبتدأ أو الفاعل، الذي هو رفع إعراب، ولذلك جاز - عنده - رفع صفته مراعاة للحركة، أو النصب مراعاة للموضع، ولا خلاف أن صفة المبتدأ أو الفاعل مرفوعة دائماً، ولذلك يفهم من قوله إن المنادى المفرد مرفوع أبداً؛ لأنه تلزمه حركة الرفع أبداً. فالخليل كان يعرف العوامل والمعمولات بلا شك، ويعرف المبني والمعرّب بلا شك أيضاً، وإن كان يطلق صفة الرفع أحياناً على المبني على ما يرفع به.

وإلى مذهب التشكيك في أصالة النحو العربي وتاريخه ذهب كذلك نظيره المستشرق كارل بروكلمان، الذي رأى أن هناك تشابهاً بين مصطلحات النحو العربي والمنطق اليوناني، كما استدلل على الأثر الفارسي في تكوين علم العربية باستعمال اسم الإشارة في اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) في مكان الضمير، أي (هذا) في معنى (هو)؛ وذكر أن هذا الاستعمال بقي حتى اليوم (بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1961، ص 124). هذا، وقد وصف هذا المستشرق أوائل علم اللغة العربية بأنه محوط بالغموض والظلام، وأن مجهودات أبي الأسود وتلاميذه مجرد أساطير؛ وأن التاريخ الصحيح الموثوق لنشأة النحو العربي يبدأ مع طبقة أساتذة الخليل، أمثال عيسى بن عمر الثقفي؛ وأن الخليل هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو العربي، وأنه هو الذي ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة استناداً إلى نماذج سريانية (بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1961، ص. ص. 128. 132).

وممن أكد على نظرية تأثر النحو العربي بالفكر اليوناني واشتد في النكير على كون العرب قد أسسوا علم النحو من وحي تفكيرهم المستشرق إجناس جولدهر (I. Goldziher)، وهذا ما سنعرضه في نظرة الاستغراب أن يكون النحو عربياً أصيلاً.

2- نظرة الإنكار والاستغراب في أن يكون النحو عربياً أصيلاً:

ويمثل هذا الاتجاه المستشرق المجري إجناس جولدزهر الذي سلك في دراساته طريقة التأثير والتأثر مستعيناً بالمنهج التاريخي الذي يرجع نشأة الظاهرة إلى مصادر خارجية في بيئات ثقافية أخرى، دون وضع أي منطق سابق لمفهوم الأثر والتأثر، وإصدار الحكم دائماً بمجرد وجود اتصال بين بيئتين ثقافيتين، وظهور تشابه بينهما، وذلك مثل "إرجاع الفلسفة الإسلامية والثقافة العربية إلى عوامل خارجية" (هاني بركات، الاستشراق والتربية، ص 154 بتصرف)، فكما أن النهضة الأوروبية قد تأسست على الحضارة

اليونانية، فكَذلك تم تطبيق هذا المنهج عنده على كلِّ معطيات التراث الإسلامي من غير اكتراث بخصوصيات وأصالة التراث العربي الإسلامي (عزوزي، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، 2007، ص 30 بتصرف)، فالحضارة اليونانية عنده هي مصدر كل حضارة جاءت بعدها، والعرب لم يَطَّوروا معظم محتويات النحو من خلال نبوغهم، وإنما كان ذلك من خلال السريان؛ لأنهم عرفوهم؛ كما يذكر بأنه لو كان علم النحو عربياً مميّزاً لوجدت بدايات العلم الأولى في المدينة، كما وجدت فيها مدرسة علم الحدِّ يث، وعلى أَيْثِيء يدل أن هذا العلم تطور على شاطئ الفرات، وعلى أَيْثِيء يدل أن معظم علمائه من جنسيات أجنبية وبخاصة الفرس (Goldziche, on the history of grammar among, 1994, p. 9)، فهو بهذا يخالف نظرة رينان حين أنصف هذا الأخير الجهود العربية وأقر بأصالة النحو العربي؛ والغريب في الأمر أنه (إجناس جولدينهر) قد تبعه جمع كثير من تلامذته ساروا على نهجه دون إعمال فكرهم في دراسة معمقة للتراث العربي، فأطلقوا أحكاماً مسبقة على كل الدراسات العربية ومنها النحو العربي. وقد استنكر هذا المستشرق واستغرب أن يصل علماء العرب بما فيهم نحّاتهم إلى هذا المستوى من التدقيق والتمحيص والاستقراء لنحو العربية في بيئة تفتقد إلى أدنى درجات التحضر وفي الغياب الكلي للوسائل العلمية، وهم شعب بدائي لم تكن لديهم اتصالات بالحضارات اليونانية ولا السريانية ولا غيرها، وذلك حين رأى أن القضية ليست ما إذا كان النظام النحوي اقترض، ولكن المسألة هي كيف وصل العرب إلى المحتويات اللغوية الأساسية في تحليلات أقسام الجمل والكلام، وكذا تقعيد القواعد؛ كل ذلك في غياب أَيْثِيءٍ أجنبي يستنتج من كل ذلك إلى أن العرب لا توجد أصالة في حياتهم ولا في عقليتهم (Goldziche, on the history of grammar among, 1994, p. 5).

والرد على اعتقاده بتأثر العرب في تقسيم الكلام بالفكر اليوناني، أن هذا الفكر أي: اليوناني، عرف ثمانية أقسام من الكلام، أما النحو العربي فيعتمد على ثلاثة أقسام هي: الاسم والفعل والحرف. فهناك اختلاف جوهريّ ونوعيّ بين النحويين العربي واليوناني، كما أن التقسيم الأرسطي جاء على مستوى الجملة، أما التقسيم العربي فقد جاء على مستوى الكلمة مع التنوع في أقسامها عند سيبويه. وهكذا يتضح من خلال آراء هؤلاء المستشرقين ذبوع فرضية تأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية واليونانية منها خاصة، وأثر ذلك على الباحثين العرب ورأيهم اللامعقول في تأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية، وسنعرض لأرائهم في تفاصيل هذا البحث إن شاء الله.

3- آراء متباينة ومتضاربة بين التأثير بالثقافات الأجنبية وأصالة النحو العربي:

ويظهر هذا الاتجاه في ثلة من المستشرقين الذين كانت آراؤهم متضاربة أحياناً ومتدرّجة أحياناً أخرى، أو مطوّرة على حسب اطلاعهم وتوسع ثقافتهم في فترة متلاحقة، فصَحّحوا نظرهم القائلة بتأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية، والتأكيد على أصالته، ومن بين هؤلاء المستشرقين نجد:

أرنست رينان (A.Rénan): في حقيقة الأمر - لما نبحت في مؤلفات هذا المستشرق - نجده لا يستقر له رأي، فهو من جهة يرى بأن التراث العربي مجرد نسخة رديئة ومشوهة من الثقافة اليونانية، ومن جهة أخرى يشيد بدور العلماء العرب وبما وصلوا إليه من علم في عصر كانت فيه أوروبا تعيش عصر الجهل والظلام: إذ أشار في محاضراته أن العرب يفتقرون إلى نمطي التفكير العلمي والفلسفي على غرار ما هو عليه الحال عند اليونان القديمة وأوروبا الحديثة، وتمسكهم بالدين المنزل زادهم بعدا عن العلم والعقل والبحث الحر، "والعرب لم يصنعوا غير انتحال مجموع الموسوعة اليونانية" (رينان، ابن رشد والرشدية، 1957، ص 10)، ويتوقف هنا ليؤكد أن هذا الإنجاز الذي يطلق عليه (العربي) لكونه قد كتب بالعربية ما هو في حقيقته سوى يوناني - ساساني، والأصوب أن يوصف باليوناني؛ لأنه الأصل (محمدي، أرنست رينان، 2000، ص 57)، حيث رأى أن الثقافة العربية هي مجرد نسخة رديئة من الثقافة اليونانية فقط تم تدوينها بلسان عربي، وأن اليونان المصدر الوحيد للمعرفة والتفكير السليم...

ولا نطن عاقلا سيسلم بهذا القول المرسل، وقد يكون مصدر رأيه هذا أنه لم تكن له معرفة كبيرة باللغة العربية، وهذا باعتراف زملائه من المستعربين، وباعترافه نفسه بأنه لم يكن مستعربا بالقدر الجيد، بل كان مستعربا سيئا (Renan, Souvenir d'enfance et de jeunesse, 1993, P. 210)، ويبدو أن رينان حاول أن يتقن العربية ولم يتمكن منها جيدا، حيث ثبت أنه "كان يتابع دروس اللغة العربية في الكوليج دي فرانس، وبالمكتبة الوطنية" (Renan, Lettres intimes, 1896, P. 278)؛ هذا، ومن جهة أخرى - باعتباره أول من مثل الاتجاه النقدي التاريخي بين المستشرقين الفرنسيين - نجده هو نفسه يطعن في اعترافاته السابقة في قوله: "هذه العلوم العظيمة المدعوة بالعربية تمثل مرحلة مهمة من تاريخ تطوّر العقل البشري" (رينان، الإسلام والعلم، 2005) وأن العرب لو اقترضوا شيئا في النحو العربي لظهر في مسميات المصطلحات، فالذي في العلوم الأخرى غير موجود في النحو والبلاغة، فأسماء هذين العلمين، ومصطلحاتهما، وتقسيماتهما، ومحتوياتهما العامة عربية، أما العلوم الأخرى، فقد أخذها العرب عن علوم اليونان القديمة (Renan, histoire générale et système comparé des langues sémitiques, 1863, P. 378) فتقسيم الكلام عند النحاة العرب إلى اسم وفعل وحرف أصيل، وذلك أن تأثرهم باليونانيين تجلّى في العلوم الأخرى كالفلسفة والطب وغيرها، ففي مؤلفه: (تاريخ عام ومنهج مقارن للغات السامية) يتطرق إلى مسألة أصالة النحو العربي متسائلا: هل هناك تأثيرات أجنبية في نشأة النحو العربي، أو هل أخذه المسلمون عن السريان، وهل أبدع النحاة العرب في عملهم اقتداءً بالنحو اليوناني؟ وقد استبعد ذلك معللاً بقوله: "إن الإجابة بالنفي، فلو أن النصراني السريان كانوا المؤسسين للنظام النحوي عند العرب لظل هذا باقياً ومذكوراً في تاريخ العرب... كما أن إبداع النحو العربي كان من خلال كتاب كل المسلمين، وهو القرآن الكريم، فالنحو جاء لحفظ لغة القرآن الموضوع الأساس الذي طرح من خلال النحاة الأوائل" (Renan, histoire générale, 1863,

(P. P. 377. 378). ومن هنا يظهر لنا جليا التناقض الذي وقع فيه رينان، ولكن قد يكون هذا بفعل اطلاعه الضيق والمحدود للتراث العربي، ولمّا توسعت ثقافته عاد ليستدرك ما قاله ويدقق أكثر في آرائه.

المستشرق دي بور: كانت آراؤه متضاربة ومتباينة كذلك، فمن جهة يرى تأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية، ومن جهة أخرى يشيد بعمل النحاة العرب وما وصلوا إليه من دقة الملاحظة: أما رأيه بتأثر النحو بالثقافة الأجنبية فكان حين رأى أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي أفاد من عبد الله بن المقفع في معرفته بأفكار أرسطو، فأرجع تقسيم الكلمة إلى ثلاثة أقسام (اسم وفعل وحرف) إلى تأثر النحاة الأوائل بالبحوث اللغوية الأجنبية، كما تأثروا بالثقافة السريانية حين ترجموا كتاب (العبارة) لأرسطو (دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، 1957م، ص 56)، ولكن القول بأن عبد الله بن المقفع ترجم كتب أرسطو لم يعد محل تسليم، ولم تنبته البحوث والدراسات التي تحدثت في هذا الشأن. وقد ذهب كذلك إلى أنّ العرب الذين بقوا على سليقتهم كانوا يكرهون المنطق؛ لأنه مفسدة للعقول، ولكن البصرة سبقت غيرها في الانتفاع بالمنطق، وإنه كان من بين نحاتها كثير من الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا للمنطق المجال (دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، 1957م، ص 55)، ورأى كذلك أنّ نشأة الدراسات النحوية كانت في البصرة والكوفة، ويصف هذه النشأة بأنها غامضة، وفي نفس الوقت نجده يشيد بـ(الكتاب) ومؤلفه حين أقر بأن هذا الكتاب اتسم بالنضج، وأنّ سيبويه ضمّنه تراث النحاة ممن كانوا قبله (دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، 1957م، ص. ص. 54. 55). ونجده يقرّ من خلال كتاب سيبويه -رغم وجود بعض أوجه الشبه وبعض المؤثرات- بأصالة النحو العربي، وذلك حينما رأى أنّ النحو العربي احتفظ بخصائصه فقال: "وهو على أي حال أثر رائع من آثار العقل العربي، بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق، ويحق للعرب أن يفخروا به" (دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، 1957م، ص 57)، فكتاب سيبويه هو ثمرة لجهود النحاة الذين سبقوه، لم يوجد من فراغ، وإنما سبقت جهود رجلين أو أكثر من النحاة، وكانت هذه الجهود شفهيّة في الغالب، إلا ما نسب إلى عيسى بن عمر، وهذا بحق وصف رائع وصادق ومنصف للعقل العربي الذي أوجد هذا النحو.

ومن هنا نرى تضارب آراء المستشرق دي بور بين تأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية واليونانية منها خاصّة، وبين إقراره بأصالة النحو العربي وإعجابه بعمل النحاة وخاصّة الكتاب لسيبويه، ودقّة الإتيان التي لاحظها في الكتاب وجمع ما تفرّق.

أما المستشرق كيس فرستيج فعلى الرغم من أنّه لا يؤكد -في أبحاثه- على أنّ الفكر اللغوي العربي كان نسخةً من النحو اليوناني، إلّا أنّه لا ينفي تأثر الدراسات النحوية بالفكر اليوناني الذي كان عن طريق المراكز العلمية التي كانت بها الثقافة والتعاليم اليونانية في الحيرة وحرّان، ونصيبين، وغيرها من المراكز التي نشرت الثقافة الهيلينية آنذاك، وهذه الأماكن ليست بعيدةً عن العرب فقد انتشرت فيها الثقافة الهيلينية ليؤكد على وصول الفكر اليوناني إلى النحاة الأوائل، وذلك كالتشابه الذي حصل بين أمثلة تقسيم الكلام

عند سيبويه والتراث الهيليني (Versteegh, 1980, P. P. 336. 339). وقد أكد على هذا التأثير من خلال بحثه: (أصل مصطلح القياس في النحو العربي)، الذي يرى فيه أن عناصر الثقافة الهيلينية أصبحت موجودة في العالم العربي من خلال دراسة الفقه، وأن تعاليم المدرسة الهيلينية كانت عاملاً أساسياً في أصل الثقافة الإسلامية ككل (Versteegh, 1980, P. P. 13. 14). وفي مقارنته المعنونة بـ: (التربية الهيلينية وأصل النحو العربي)، يرى أن النحاة العرب كانوا على الأقل متألفين مع عناصر من الفكر النحوي اليوناني، كما يزعم أن ترجمة كتاب ثراكس (فن النحو) للسريانية أصبحت معروفة، لأن التأثير اليوناني في النحو السرياني واضح، ومنه إلى النحو العربي، فالدرس النحوي اليوناني كان فعلاً النموذج ونقطة الانطلاق للنحو العربي (Versteegh, Greek element in arabic linguistic thinking, 1993, P. 16).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى -وبعد أن تبنى فكرة تأثير اليونان في العرب- نجده يقر أن وجهات نظره تحولت بشكل ملحوظ، وذلك بعد دراسته للتفسيرات القرآنية الأولى والمبكرة التي أقنعت أنه كثير مما اعتقد أنه اقتراض من التراث اليوناني كان في حقيقته تطوراً داخلياً للفكر العربي (Verstreegh, the notion of underlying levels' in the Arabic, PXII) كما ارتأى في بحثه المعنون بـ(النحو العربي وتفسير القرآن في بداية الإسلام) أن مسألة التأثير من خلال المصطلحات مسلم بعدم فاعليتها من خلال المعطيات المأخوذة من كتب المفسرين الأوائل، وذهب هذا المستشرق أيضاً إلى أن الربط بين مصطلحات النهايات الإعرابية، وأقرانها في الدرس اليوناني أصبح إسهاباً، لأن المصطلح العربي حسب نظريته فسّر بسهولة من خلال التطور الدلالي الداخلي في الثقافة العربية، ومن هنا -حسب هذه النظرة- تكون الفرضية اليونانية متخلية عنها كلية، أو قد تكون مساعدة في تفسير بعض الغموض المحيط بأصل النحو العربي (Verstreegh, Arabic grammar and quranic exegesis in early islam 1993, P200) .

ومن هنا نلاحظ أن الكتابات الاستشرقية كانت بأقلام مختلفة ثقافياً، كما نلمح أن هناك تطوراً واضحاً قد حدث لكثير من المستشرقين الذين حولوا نظرتهم إلى إنصاف التراث النحوي العربي بعد أن تناولوه بالدرس والتحصيل والتدقيق.

4- نظرة الإنصاف للجهود العربية والإقرار بأصالة النحو العربي:

لقد كان هناك من المستشرقين من أنصف التاريخ الإسلامي، وخدم الحضارة العربية بلغة، وهو ما نلمحه عند المستشرق غوستان لوبون في مؤلفه: (حضارة العرب)، وتوماس أرنولد في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام)، وكذا المستشرق الفرنسي دينيه هُلف: (أشعة خاصة بنور الإسلام)، والمستشرقة الألمانية سيغريد هونكه صاحبة كتاب: (شمس الله تسطع على الغرب)؛ وفي النصف الثاني من القرن العشرين خصص المستشرق الشهير كارتر بحثاً معمقاً درس من خلاله جذور النحو العربي، حيث رأى هذا المستشرق أن

المرحلة الأولى من تاريخ النحو العربي كانت بدائيةً ، وأن سيبويه في كتابه (الكتاب) لم يعتمد على تعاليم سابقه عليه في دراسة النحو العربي، وأن كتابه هو العمل النحوي الأول من نوعه. (Carter: les origines de la grammaire arabe, 1972, P. 95. وينظر: حمداً بن عبد الله، موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها، 2019م، ص 198). ومن أدلته التي طرحها في عدم تأثر النحو العربي بالفكر اليوناني إقراره بوجود علاقة بين الفقه والنحو، حيث تناول بالدراسة العلاقة بين هذين العلمين في أكثر من بحث، خلص من خلالها إلى أن هناك علاقةً قويةً خاصةً بين النحو العربي والفقه في كل من الهدف والمنهج، فكلٌ منهما وسيلةٌ للتحكم الاجتماعي، كما أن هناك علاقات متبادلة بين الأسس اللغوية للفقه، والطبيعة الفقهية للأفكار النحوية (Carter, writing the history of arabic grammar, 1994, P. 409) إقراره بوجود علاقة بين النحو والفقه —ولا يخفى على كلٍّ مطلع على تاريخ النحو العربي وأصوله هذه العلاقة بين العلمين في المصطلحات وفي التعريفات التي أسقطت مباشرة على النحو، وكذا الأصول النحوية التي أخذت من أصول الفقه - ففي مجال تعريف المصطلحات نجد أن: "أصول النحو هي أدلة النحو التي تفرعت منها فروع وأصوله، كما أن أصول الفقه هي أدلة الفقه التي تفرعت عنها جملته وتفصيله" (أحمد علم الدين الجندي: في الأصول والفروع بين الدراسات الفقهية والنحوية، ص 91)، وفي مجال استعمال نفس المصطلحات بين العلمين نجد كذلك ما استنتجته هذا المستشرق من خلال دراساته، من أن سيبويه قد استعمل مصطلحات أخلاقية في (الكتاب) نحو: حسن وقبيح ومستقيم ومحال، بعد أن منحها المعنى النحوي التقني، وأن مصطلح «جائز» أعطى مظهراً فقهياً في (الكتاب) وعند كل النحاة العرب اللاحقين (Carter, 1972, P. P. 83.) (84) ... كما رأى أن المصطلحات النحوية: بدل وعوض، وشرط ولغو، وخيار وحد، وحجة وأصل، ودليل ونية، ومصطلحات أخرى بدون ريب لا يمكن أن تكون مفهومة إلا في ضوء استعمالها في السياقات الفقهية (Carter, 1972, P. 80)، فقد ألقى مصطلحات أخلاقية وفقهية كثيرة في (الكتاب) لسيبويه، ويعد ذلك دليلاً جلياً على تأثير الفقه في النحو وهو الأجدر بالرجحان عند توافر الأدلة. كما يشير كارتير إلى أنه لا يوجد في كتاب سيبويه مصطلح دالٌّ على مفهوم (نحو) بالمفهوم التقني، غير أن هناك مصطلحات دالة على الطريقة التي يتكلم بها الناس، وهي استخدامات لدى الدارسين للفكر الإسلامي ومنها كلمة (طريقة) التي تدل على الطريقة الصوفية و(سنة)، وهي مصطلح تقني للدلالة على السنة الإسلامية، وكذلك مصطلح (مذهب) الدال على طريقة التفكير، وكذا (وجه) بمعنى الطريقة المميزة، وكذلك (مجرى) ومشتقاتها العديدة، ولكن أكثر المصطلحات استعمالاً في الكتاب - حسب نظرة كارتير - للدلالة على طريقة الكلام هو (نحو)، وأنه حرفياً بمعنى طريقة أو اتجاه أو نمط (جدامي، المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص 41)، وهكذا يتضح لنا أن هذا المستشرق قد اتخذ من تشابه المصطلحات

بين علمي الفقه والنحو العربي عند سيبويه وسابقيه بياناً على فرضيته القائلة بعدم تأثر النحو العربي بالفكر اليوناني في مرحلة البدء.

وممن ذهب إلى إنكار التأثير اليوناني في نشأة النحو العربي وربط النحو بالفقه من المستشرقين نجد لوثر كوف، والمستشرق جيرار تروبو: أما لوثر كوف فيظهر رأيه هذا حينما أشار إلى أن الدين كان عاملاً مهماً في التأثير المباشر وغير المباشر في العرب، فالقرآن الكريم والحديث الشريف في نظره هما مصدرا النحو والمعجم، وأن اللغويين العرب تباهوا بخدمتهم في نشاط العلوم الإسلامية، ومن هنا فالتأثير الديني في الفكر اللغوي كان مؤسساً بعمق في تفكير المسلمين، حيث ذكر عدداً من مواضع التأثير في المنهج والرؤى (جدامي، المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص 37)، وهذه الرؤية تقترب من فهم السياق الثقافي الإسلامي حينذاك.

وأما جيرار تروبو فقد صرح كذلك بأن النحو العربي منذ بدايته كان مرتبطاً بالحديث والفقه، كما نفى وأنكر أن يكون تقسيم الكلام عند النحاة العرب متأثراً بتراث أرسطو، فالعرب عندهم ثلاثة أقسام، أما أرسطو فنجد في كتابه (الشعر) سبعة أقسام (جدامي، المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص 35) وما يؤكد ذلك أنه لا يوجد تأثير "من قبل ترجمة السرياني متى بن يونس لكتب أرسطو في مصطلحات النحاة العرب، فعنده (الفعل) يستخدم له مصطلح (كلمة)، ويستخدم مصطلح (رابطة) مقابل (حرف)، كما أن مفاهيم الفعل في التراث اليوناني غير متكافئة مع مفاهيم النحاة العرب، (تروبو، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، 1978، ص 137).

ومن المستشرقين الذين اعترضوا كذلك على من ادعى التأثير الكلي بالحضارة اليونانية في المجال النحوي خاصة في مرحلة النشأة نجد ليتماثل الذي قال: "ونحن نذهب في هذه المسألة مذهباً وسطاً، وهو أن العرب ابتدعوا علم النحو في الابتداء، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضاً شيئاً من النحو، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة يختلف، قال سيبويه: فالكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا تقسيم أصلي" (أحمد أمين، ضحى الإسلام، 1969، ص 293)؛ وقد فصل في هذه المسألة، أي: أسباب نشأة النحو العربي كثير من علماء العرب في القديم والحديث.

خامساً: العرب الذين ساروا على نهج المستشرقين بتأثر النحو بالعربي بالثقافات الأجنبية

في الوقت الذي نجد فيه عدول بعض المستشرقين عن آرائهم في قضية تأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية اليونانية والسريانية والهندية — كما أشرنا سابقاً — وإقرار الكثير منهم بأصالة النحو العربي وخصوصيته، نجد من العرب الباحثين من تأثر بالمستشرقين القائلين بتأثر النحو بهذه الثقافات فساروا على نهجهم ورأيهم، ومن هؤلاء الباحثين العرب نذكر:

إبراهيم أنيس: وهو من النحاة المتأخرين الذين وقعوا تحت تأثير المنطق الصوري، حيث رأى تأثر الخليل وتلميذه سيبويه والمتأخرين من نحاة العربية باليونان؛ وذلك حين رأى أنهم اتبعوا التقسيم اليوناني لأجزاء الكلم (الاسم والفعل والحرف)، ومن بين الاعتقادات التي ذهب إليها أن النحاة العرب القدماء في تعريفاتهم لهذه الأقسام كانت غير دقيقة، بل هي ناقصة لا تعطي المفهوم حقه؛ فتعريف الاسم أنه: "ما دلّ على معنى وليس الزمن جزء منه"، لا يشمل بعض الأسماء مثل: اليوم والليلة (إبراهيم أنيس من أسرار اللغة، 1978، ص 279) ومن ثمّ فهذا التعريف ناقص وغير دقيق -في نظره لأنه لا ينطبق على كل الأسماء كظروف الزمان التي أشار إليها؛ والردّ عليه: أنه لا شك أن هذه الأسماء وإن دلّ معناها على زمن فهي ليست أفعال؛ لأنها لا تدلّ على الحدث؛ يقول أبو بكر بن السراج (ت 316هـ): "فإن قلت في الأسماء، مثل اليوم والليلة والساعة وهذه أزمنة، فما الفرق بينها وبين الفعل..؟ قلنا: الفرق أن الفعل ليس زماناً فقط، كما أن اليوم زمان فقط.. فإن كانت اللفظة تدل على زمان فقط، فهي اسم، وإن دلت على معنى وزمان محصل، فهي فعل، وأعني بالمحصل الماضي والحاضر والمستقبل (ابن السراج، الأصول في النحو، 1985، ص. ص. 36. 37)، ومن هنا نرى أن اعتقاده هذا غير مقبول ينقصه البيان والدليل.

إبراهيم مذكور: وقد ذهب هذا الباحث -نفس مذهب إبراهيم أنيس- إلى تأثر النحاة بالثقافة اليونانية والأجنبية عامة، ويظهر ذلك حين عقد مقارنة بين تقسيم الكلم عند أرسطو وتقسيمه عند سيبويه، فأرسطو يقسم الكلم إلى اسم وفعل وأداة، وسيبويه يقسم الكلم إلى اسم وفعل وحرف؛ بل يزعم الدكتور مذكور كذلك أن تعريفات سيبويه لأجزاء الكلم تشبه تعريفات أرسطو، ويقول بأن الكوفيين احتفظوا بمصطلح أرسطو للحرف وهو (الأداة) (مذكور، في اللغة والأدب، 1971م، ص 44)، ومن هنا يعتقد الدكتور مذكور أن أقسام الكلام عند سيبويه تشبه تقسيم أرسطو، كما تشبه تعريفات سيبويه لهذه الأقسام تعريفات أرسطو لها؛ هذا، ولم يتوقف الدكتور مذكور عند هذا الحد من المقارنة، بل عقد كذلك مقارنة بين الجملة عند سيبويه ومفهوم الجملة عند أرسطو، فرأى أن أساس تكوين الجملة عند أرسطو هو الإسناد (المحمول والمحمول عليه) يشبه ما فعله سيبويه عندما تحدث عن المسند والمسند إليه، وعندما تحدث أيضاً عن المبتدأ والخبر، ورأى أن عبارة المبتدأ أو "المبنى عليه" تشبه عبارة المحمول والمحمول عليه (مذكور، في اللغة والأدب، 1971م، ص 45)؛ فالمنطق اليوناني أثر في علوم العربية عامة: كمناهج الفقهاء وعلماء الكلام، وفي علم النحو خاصة، على حدّ قوله: "وقد أثر فيه المنطق من جانبين، أحدهما موضوعي والآخر منهجي، فتأثر النحو عن قرب أو بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية...". وقد وصل هذا التأثير اليوناني إلى النحو العربي -على رأي الدكتور إبراهيم مذكور- عبر السريان، وذلك أن النحاة السريان تأثروا بالمنطق اليوناني، ثم كان من بين من اتصلوا بالعرب من السريان نحاة مثل يعقوب الرهاوي الذي يصفه بأنه صاحب شأن في وضع النحو السرياني، وحنين بن إسحق الذي كان معاصراً للخليل بن أحمد وسيبويه، ويذهب إلى أن حيناً كان صليقاً للخليل، وقد قام بترجمة

الآجرومية اليونانية منفرداً، واشترك مع ابنه إسحق في ترجمة كتب أرسطو المنطقية إلى العربية أيضاً (مذكور، في اللغة والأدب، 1971، ص. ص. 45. 46)، ومن ثم فقد أفاد سيبويه من نحو اللغة السريانية الذي نقله المترجمون، كما أفاد من منطق أرسطو؛ وهو يعمد لتأكيد أن هذا التأثير هو الذي أظهر كتاب سيبويه مكتملاً وناضجاً دون أن يسبقه ما يمهد له، وذلك في قوله: "ولعل في هذا ما يفسر تلك المفاجأة التي أحدثها كتاب سيبويه بظهوره في تلك الصورة الجامعة دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له"، (مذكور، في اللغة والأدب، 1971، ص. 46)، ونلاحظ هنا أن الدكتور مذكور قد انتابه شعور الاستنكار والاستغراب في أن يكون الكتاب من صنع سيبويه دون تأثره بالثقافة الخارجية كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين الذين تعجبوا من أن يكون الكتاب من أصل عربي خالص في بيئة بدوية خالصة غير متصلة بالحضارات الأخرى التي كانت في وقتها كاليونانية والسريانية والهندية وغيرها.

أحمد أمين: وإلى نظرة الاستغراب والاستنكار ذهب الأستاذ أحمد أمين كذلك، حيث وصف ظهور كتاب سيبويه كاملاً شاملاً بأنه مفاجأة بالنسبة لما قبله، مستندا في آرائه إلى آراء المستشرقين بابتداع العرب للنحو ابتداءً، حيث نقل عن ليتمان أقوالاً حول اختلاف الأوروبيين حول أصالة النحو العربي؛ كما استنكر أن يكون أبو الأسود الدؤلي صاحب نشأة النحو العربي، فرأى أن الذين نسبوا نشأة النحو لأبي الأسود من القدماء لم يكونوا يفهمون المعنى الدقيق لكلمة "النحو" التي نعرفها اليوم، وأن أبا الأسود وضع الأساس بضبطه المصحف حتى لا تكون ضمة موضع فتحة، ولا فتحة موضع ضمة، ثم جاء من بعدهم من أراد أن يفهم وضع النحو على المعنى فنسب إلى أبي الأسود وضع النحو وتقسيم الكلم، والاسم الظاهر والمضمر، وأبواب التعجب، وإن وغيرها؛ ولكن صحَّ عنده خبر وضع نقط المصحف لإجماع أغلب الروايات عليه، حيث قال: "وواضح أن هذه الخطوة أولية في سبيل النحوي تتماشى مع قانون النشوء، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود، وواضح كذلك أن هذا يلفت النظر إلى النحو، فعمل أبي الأسود يسلم إلى التفكير في الإعراب ووضع القواعد له" (أحمد أمين، ضحى الإسلام، 1961م، ص. ص. 286.

287). فأبو الأسود -في رأيه- لم يفعل أكثر من ضبط المصحف، وإن العلماء من بعده حينما تحدثوا عن الفاعل والمفعول وغيرها، وعن النصب والرفع والجر، نسبوا ذلك إلى أبي الأسود، وإن كان أبو الأسود لا يعرف شيئاً من ذلك. أما حديثه عن سيبويه وصنيعه في الكتاب فقد رأى أحمد أمين أن ترتيباً وتبويب الكتاب تبويب وترتيب منطقي، يبدأ بتقسيم الكلم، ثم يعرف كل قسم ويذكر أحكامه ويأتي بأمثله؛ وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والنحاة من قبله، غير أن العرب لما تعلموا الفلسفة اليونانية من السريان في العراق، تعلموا أيضاً شيئاً من النحو (أحمد أمين، ضحى الإسلام، 1961م، ص. ص. 292. 293)، وأن تأثير اليونان والسريان -على حدِّ قوله- كان ضعيفاً وغير مباشر في العصر العباسي الأول، وبعد نقل الفلسفة تأثر بها النحاة المتأخرون كأبي الحسن الرماني (أحمد أمين، ضحى الإسلام، 1961م، ص. ص. 292. 293) هذا، وقد رأى أن من مظاهر تأثر النحاة العرب بمنطق أرسطو،

تسميتهم للطرف (المفعول فيه)، وذلك أن أرسطو يعتبر أن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء، إذ لا بد لكل مخلوق أن يكون واقعاً في زمان ومكان، فهما كالوعاء له (أحمد أمين، ضحى الإسلام، 1961م، ص. 276. 277) ومن ثمّ وصف نشأة النحو العربي الأولى بالغموض.

أحمد مختار عمز لقد رأى هذا الباحث أنّ النحو العربي متأثر بالثقافة الهندية، وذلك أنّ تقسم العرب للكلم (اسم وفعل وحرف) هو نفسه ما نقلوه عن الهنود، بل إنّ هناك تشابهاً حتى في تعريف المفاهيم والمصطلحات النحوية، كتعريفهم للكلمة على أنّها: "اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، أو أنّها اللفظ المستقل الدال على الوضع" فهذه أوجه شبه (أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود، 1972م، ص. 132. 133)، ومن الأمثلة التي ساقها عن تأثر النحو العربي بالدراسات التي توصل إليها الهنود أنّ هؤلاء اختلفوا حول الحرف -مثلما فعل النحاة العرب- هل لهذه الحروف معانٍ في ذاتها مستقلة عن الأفعال والأسماء أم لا؟ فقال بأنّ علماء الهنود أفردوا نوعاً من الأسماء له خصائص الأفعال باسم خاص هو (اسم الفعل)، وهو عين ما فعله النحاة العرب في نحو: (هيئات، ووي، وأف) (أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود، 1972م، ص. 132. 133).

عبد الرحمن أيوب: وقد قال هذا الباحث كذلك بتأثر النحو العربي بالدراسات النحوية عند الهنود، وكان قد ذكره أحمد مختار عمر في كتابه: (البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب) السابق أثناء حديثه عن احتمالات التأثير والتأثر، إذ تبني الدكتور عبد الرحمن أيوب فكرة هذا التأثير حينما اعتقد أنّ الكتب المتأخرة بعد سيبويه تأثرت بالمنطق اليوناني (أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود، 1972م، ص 138).

جرجي زيدان: ويعتقد هذا الباحث أنّ النحو العربي متأثر بالنحو السرياني بسبب الجوار والمخالطة، وكذا تشابه اللغتين السريانية والعربية، وسبب نشأة النحو في العراق دون غيره من بلاد الإسلام أنّ العرب كانوا قد خالطوا السريان في العراق، وأنّ النحو السرياني قديم في المنطقة، وضعه يعقوب الرهاوي سنة 460م؛ ومن بين الأمور المتشابهة بين النحوين السرياني والعربي أنّ أقسام الكلام في العربية هي نفسها أقسام الكلام في السريانية (جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دون تاريخ، ص 220)؛ وهذا قول غير علمي؛ لأنّ مجرد وقوع الشبه بين اللغتين لا يقضي بالضرورة إلى أن العرب أخذوا هذا التقسيم عن السريان.

كما رأى أنّ نقط الإعراب التي وضعها أبو الأسود الدؤلي لتمييز الاسم من الفعل والحرف هي من وحي النحو السرياني، وقد أشار إلى ذلك في قوله: "والأرجح أنه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه، أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي أم فعل أم حرف.." (جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ص 222) وهذا الادّعاء

كذلك لم تثبته كتب التراجم والمراجع، والمعروف أن أبا الأسود وضع نقاط الإعراب حينما ظهرت الحاجة إليها لفهم قراءة القرآن الكريم، وتجنّب وقوع اللحن فيه.

الخاتمة:

على الرغم من انزياح كثير من الباحثين العرب لآراء وأفكار المستشرقين القائلين بنقل النحو العربي من الثقافات الأجنبية وتأثره بها، إلّا أن الكثير من الدراسات والأبحاث العربية والغربية على حدّ سواء اعترفت بأصالة النحو العربي وبخصوصيته، مشيدة بالعمل العظيم الذي قام به النحاة القدماء، وإن كان فيه شيء من التأثير بهذه الثقافات فإنّه كان بعد أن قام صرح النحو العربي ووضعت كلّ قواعد الأساسية والجوهرية في الكتاب لسيبويه؛ لأنّ الحاجة الملحة لوضع النحو هي التي استلزمت وضعه للحفاظ على القرآن الكريم من اللحن والتّحريف، وليس التأثير بهذه الثقافات الأجنبية التي فرضت وجوده؛ ويبقى عصر من العصور المتأخّرة من وضع النحو لا ننكر فيه اتصال العرب بالثقافات الأجنبية اليونانية والسريانية والهندية... وقد كثر وانتشر هذا التأثير التّأثّر خاصة في فترة ما بعد الفتوحات الإسلامية أين كثر الاختلاط بالعجم وبلدان العجم، وهذا ليس في النحو العربي وحسب، بل في كلّ العلوم الأخرى.

ومما لا ينبغي أن ننظر إليه بوجه الازدراء والاستنكار أنّ الاستشراق مهما كانت أهدافه وتوجهات أصحابه أفاد إلى حدّ كبير الدراسات العربية والإسلامية من الناحية المنهجية وفي التعريف بثقافات الشعوب الشرقية مما يلفت الانتباه إلى أهميّة هذه الثقافة، وإلى أنّها غنية معرفياً وأدبياً وفنياً، كما ساعد الباحثين العرب على اصطناع المسافة الواجبة بين الذات والموضوع واستخدام مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة وتطبيقها على الدراسات اللغوية والتراثية التي كان الباحث الشرقي لا يتعامل معها بوصفها موضوعات للدراسة العلمية بقدر ما كان يُسقط عليها هالات من القداسة والوقار كانت كثيراً ما تقف حائلاً بينه وبين الاستنتاجات العلمية الدقيقة.

المصادر والمراجع:

- (1) إبراهيم، أنيس (1978)، من أسرار اللغة، ط6، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- (2) إبراهيم، مذكور (1971)، في اللغة والأدب، القاهرة: دار المعارف.
- (3) ابن جني، الخصائص، تح، محمد على النجار، بيروت، المكتبة العلمية، 1955، ج1.
- (4) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تح، رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1987.
- (5) ابن منظور، لسان العرب، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1419هـ.

- 6) أبو بكر، بن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م، ج1.
- 7) أحمد، إسماعيلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1980.
- 8) أحمد، أمين (1969)، ضحى الإسلام، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ج3.
- 9) أحمد، أمين (1961)، ضحى الإسلام، ط6، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ج2.
- 10) أحمد، رضا (1958)، معجم متن اللغة، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج3.
- 11) أحمد، علم الدين الجندي، في الأصول والفروع بين الدراسات الفقهية والنحوية في القرآن والعربية: الصراع بين القراء والنحاة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 59.
- 12) أحمد، مختار عمر (1972)، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، بيروت: دار الثقافة.
- 13) إدوارد، سعيد، الاستشراق، تر، محمد عناني، ط1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006م،
- 14) إرنست، رينان، ابن رشد والرشدية، تر، عادل زعيتر، ط1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1957؛
- 15) إرنست رينان وجمال الدين والأفغاني، الإسلام والعلم مناظرة رينان والأفغاني، تر، مجدي عبد الحافظ ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005؛
- 16) أسامة، محمد موسى عبد الرزاق، طعن المستشرقين في أصالة النحو العربي، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، 2017، ع 35؛
- 17) الأزهرى (2004)، تهذيب اللغة، دار الكتب العلمية.
- 18) الجرجاني (2000)، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 19) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986.
- 20) الفيروزآبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، ط8، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1426هـ.
- 21) تربو، جبار (1978)، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد الأول، ع1.
- 22) جرجي، زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال، ج1؛
- 23) حسن، عزوزي (2007)، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، فاس، مطبعة آنفو.
- 24) حمدا، بن عبد الله، موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها، مجلة دراسات استشرافية، 2019، ع 17؛

- (25) دي، يور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ط4، تر، محمد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1957.
- (26) رافي، طلّمون، التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه، دراسة في تاريخ المصطلح النحوي العربي، مجلة الكرمل، 1984، ع 5.
- (27) ساسي، الحاج (2002)، نقد الخطاب الاستشراقي (الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية) ط1، بنغازي، دار المدار الإسلامي، ج1.
- (28) سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ط3، ج2.
- (29) عبد الرحمن، جبنكة (1994)، أجنحة المكر الثلاثة، ط7، دمشق، دار القلم.
- (30) عبد القادر، المهيري (1993)، نظرات في التراث اللغوي العربي، ط1، تونس، دار الغرب الإسلامي.
- (31) عبد الله، الشارف (2003)، الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر، تطوان، منشورات نادي الكتاب لكلية الآداب والعلوم الانسانية.
- (32) عبد المتعال، محمد الجبري (1995)، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة.
- (33) عبد المنعم، السيد أحمد جدامي (2016)، المستشرقون والتراث النحوي العربي، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- (34) عبد المنعم، فؤاد (1422)، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقديّة في الإسلام، ط1، الرياض، مكتبة العبيكان.
- (35) علي، توفيق الحمد، نحن والمستشرقون مع دراسة تحليلية لأثر المستشرق دوزي في المعجمية العربية، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، الأردن، 2001، مجلد 15.
- (36) فرانسيسكو، غابرييلي وآخرون، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، تر، هاشم صالح، ط3، بيروت - لبنان: دار الساقى، 2016م.
- (37) فيشر، فولف ديتريش، الأساس في فقه اللغة العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه، سعيد حسن البحيري، ط1، القاهرة، مؤسسة المختار، 2002.
- (38) كارل، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر، محمد عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، 1961م، ج2.
- (39) مجدي، عبد الحافظ صالح (200)، أرنست رينان، ط1، الدار البيضاء - المغرب، المركز الثقافي للكتاب.
- (40) مجمع اللغة العربية بالقاهرة (1960) المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية.

- 41) مراد، باهي، فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، مذكرة ماجستير، جامعة الجليلي لياس، سيدي بلعباس، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية: 2015 – 2016.
- 42) مصطفى، جمال الدين، البحث النحوي عند الأصوليين، الجمهورية العراقية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام.
- 43) هاني، بركات (1424)، الاستشراق والتربية، ط1، الأردن: دار الفكر.
- 44) يوهان، فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تر، رمضان عبد التواب، ط2، مصر، مكتبة الخانجي، 2003؛
- 45) يوهان، فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تر، عبد الحليم النجار، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1951؛
- 46) يوهان، فك، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، تر، عمر لطفي العلم، دمشق، دار قتيبة، 1996.
- 1) Anne Marie Perrin-Naffakh, L' « aisance distinguée » d'un style : étude d'un page de Renan (Souvenirs d'enfance et de jeunesse), in L'Information grammaticale, 1993.
 - 2) Ernest Renan, Lettres intimes, 1842- 1845, précédées de Ma sœur Henriette, رسائل حميمة متبوعة بأختي هرنيت، 1896.
 - 3) Ernest Renan histoire générale et système comparé des langues sémitiques, 6ème édition, Paris, 1863, première partie.
 - 4) Goldziche, on the history of grammar among the arabs, translated and edited by devenyi, K. et Ivanyi T , Benjamins, Amsterdam, Philadelphia: 1877, 1994/
 - 5) K. Verstregh , Arabic grammar and quranic exegesis in early islam leiden, 1993.
 - 6) K. Versteegh, Greek element in arabic linguistic thinking, leiden, 1993/
 - 7) K. Verstregh: the notion of underlying levels' in the arabic grammatical tradition/
 - 8) Merx A, l'origine de la grammaire arabe, Ble 3(2), 1891/
 - 9) M.G. Carter, les origines de la grammaire arabe, Rei 40, 1972/
 - 10) M.G. Carter: writing the history of arabic grammar, In H.L 21(3), 1994/
 - 11) Youssi, A, is there an orientalist linguistics? In haak, M. et AL (eds): approaches to arabic dialects, Birlil: lindex, boston, 2004.

التوظيف الدلالي لمفردة "النار" ومرادفاتهما في شعر عبد الرحيم محمود
**The semantic development of the word "fire" in the poetry
of 'Abd-al Raḥīm Maḥmūd**

د. ناصر زارع

د. رسول بلاوي

فاطمه محمدي

جامعة خلیج فارس، بوشهر - ایران

Naser Zare

Rasoul Balavi

Fatemeh Mohammadi

nzare@pgu.ac.ir

r.ballawy@pgu.ac.ir

الملخص

علم اللغة يهتم باللغات من حيث التطور الدلالي لألفاظها، ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية وكان الشعراء جزءاً من المجتمع فقد استخدموا الألفاظ على وفق حياتهم المعيشية وظروفهم الراهنة؛ وكان أحد هؤلاء الشعراء الذين استعانوا باللغات ليصوّروا حياتهم الحربية، هو (عبد الرحيم محمود)، فهو شاعر ثوري ومجابه للظلم يرتفع صوته في وجه الغزاة الطغاة ولا يهدأ حتى يكتب عنهم بكل قوة وخشونة، ولذا نرى أشعاره تتميز بالحماسة والثورة من حيث معنى اللغات ولاسيما مفردة "النار" التي استعان الشاعر بقوتها الدلالية لبيان أحاسيسه الجياشة؛ من هنا تطرقنا في هذا البحث إلى التطور الدلالي للفظ "النار" في أشعار عبد الرحيم محمود معتمدين على المنهج الوصفي - التحليلي. وإنّ الهدف من إنجاز هذا البحث هو الكشف عن مدى تأثير حياة الشاعر في التطور الدلالي لكلمة "النار" إلى الحد الذي أصبحت هذه الكلمة من أبرز الكلمات التي لها أثر ريادي في شعر المقاومة وهكذا جعلت نصوص الشاعر أكثر حماساً وقوّي الأداء.

الكلمات المفتاحية: التطور الدلالي، فلسطين، عبد الرحيم محمود، النار.

Abstract:

Semantic development is concerned with languages and their development in society. Although poets are parts of this society, they used words according to their living conditions and current circumstances. One of the

poets who used the languages to represent their military lives is 'Abd-al Raḥīm Maḥmūd, a revolutionary poet who confronting injustice raised his voice against the invaders and the tyrants. He did not stop writing about them with all strength and roughness. His poetry is characterized by enthusiasm and revolution in terms of the meaning of languages, especially the word "fire" which used the poet with its extraordinary power to express his excited sensations. In this research we embarked on Semantic development of the word "fire" in the poems of 'Abd-al Raḥīm Maḥmūd using descriptive-analytical method. The purpose of this research is to reveal the extent to which the life of the poet has influenced the semantic development of the word "fire", so that has become one of the most prominent words which has a leading role in the poetry of resistance and thus made the poems of the poet more enthusiastic and strong in performance.

Keywords: Semantic Development, Palestine, 'Abd-al Raḥīm Maḥmūd, Fire.

المقدمة:

إنّ اللغة مرآة المجتمع ولهذا فهي تعكس كلَّ الحوادث والتطوّرات التي تجري فيه، فكلمة تقلّمت المجتمعات وازداد رقيها وتنبّعت مظاهر الحياة الاجتماعية، تنوّعت المصطلحات الجديدة المعبرة عن مظاهر الحياة الجديدة فيها؛ حتى جاء علم الدلالة وقام بدراسة الكلمات في المجتمعات والتطورات الثقافية والاقتصادية والفكرية التي طرأت عليها لأنّ دلالة الكلمة تتغيّر وتتطوّر؛ وإنّ هذا التطوّر الدلالي يزيح الستائر عن مدى تغيير دلالة الكلمات من القديم حتّى الزمان الراهن. شعراء المقاومة لترسيم أحاسيسهم الثورية والحماسية يستخدمون كلمات مشحونة بالقوّة والحماس وإحدى هذه الكلمات المكرّرة في نتاجاتهم الشعرية هي مفردة "النار" ذلك بأن لها قدرة خارقة في التعبير عن الدلالات الايجابية والسلبية في الشعر. وعلى هذا النمط نرى عبد الرحيم محمود الشاعر الثوري يقوم باستخدام كلمة "النار" ليعبر عن حياته الشخصية والنضالية.

إنّ هذه الدراسة تسعى لتكشف مدى تأثير حياته الخاصة في دلالة "النار" وترسيم ملامح المقاومة. كان الشاعر يبتغي من وراء تلك المبالغة في توظيف كلمة "النار"، التعبير عن الروح الثورية التي تخيم على الشاعر. وكان المنهج الذي اعتمدنا عليه في هذا البحث فهو المنهج الوصفي - الداخلي، وهكذا حاولنا فيتقاطط التطوّر الدلالي لكلمة "النار" في نصوص الشاعر، وذلك باختيار مقاطع شعرية حضرت فيها هذه الكلمة أو إحدى مشتقاتها، فضلاً عن تحليل البنية اللغوية وبعض الظواهر الأسلوبية المستخدمة في هذه المقاطع حتّى نبين الروح النضالية والحماسية التي تكمن وراء لفظ "النار".

ومن البحوث التي كُتبت في تجربة هذا الشاعر هي: كتاب عنوانه «الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود» لجابر قميحة، وهذا الكتاب كُتب حول حياة الشاعر الشخصية وعن المناسبات التي كتب أشعاره

فيها، ورسالة لنيل درجة الماجستير بعنوان «الصيغ الصرفية ودلالاتها في ديوان عبد الرحيم محمود» للكاتبة حنان جميل عابد بجامعة الأزهر - غزة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وكانت هذه الرسالة في الأفعال وصيغها المختلفة، ورسالة أخرى موسومة «اللغة في شعر عبد الرحيم محمود» لجمال عبد الرحيم محمد بجامعة النجاح، وكُتبت حول اللغة التي استخدمها الشاعر في أشعاره. ولكن البحث الذي نحن بصدد إنجازه في شعر عبد الرحيم محمود هو التطور الدلالي للفظ "النار"، وهو موضوع غير مطروق من ذي قبل. والذي دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع هو أن عبد الرحيم شاعر المقاومة ومن هنا كان للألفاظ ولاسيما لفظ "النار" تأثير بارز على شعره في تصوير حياته الشخصية والحربية وترسيم الأحزان فضلاً عن أن لفظ "النار" يعم شعره إلى الحد الذي كانت لها أثر بارز ولافت للانتباه، وهو لم يدرس مسبقاً.

إننا في هذه الدراسة نسعى أن نجيب عن السؤالين التاليين:

- لماذا أُلحَّ عبد الرحيم على استخدام كلمة "النار" في شعره كثيراً؟
- ما الحقول الدلالية الخاصة بالنار التي تمحورت عليها رؤية عبد الرحيم محمود؟

الشاعر وترجمته

الشاعر الذي نحن بصدد ترجمته ودراسة شعره «هو عبد الرحيم محمود بن عبد الحليم بن الشيخ عبدالله، ولد في أحد أيام الربيع من سنة 1913م في قرية عنبتا» (أبو شامة، 2003م، ص 43). عاش طفولته عند والديه. وكان من صغره يحب العلم والدين حيث جعله يقبل على قراءة القرآن الكريم ثم يهتم بحفظه. ولقب بأبي الطيب لأن ابنه الأكبر كان اسمه طيب. و«تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة قرية ثم انتقل إلى طولكرم ودرس بها المرحلة الاستعدادية (الثانوية) المتوسطة في مدرستها لمدة أربع سنوات» (أبو مازن، 1990م، ص 270).

ولما كان الجهاد والمقاومة يظهران بشكل دقيق وحاسم في حياته لذا يمكن أن نقرأ هذه الحياة بعيداً عن جهاده ومقاومته لأن حياته وجهاده هُجراً معاً حيث يصعب علينا أن نفرق بينهما، كما أن آراء الشاعر وأفكاره تتجلى في شعره، وشعره يوحي بأنه شاعر فارساً وعلوياً وعي بالسياسة ومع أنه لبث سنين في العراق لكنه «عاد إلى وطنه سنة 1941م، وقد عاش وهو يحمل روحه على راحته - كما يقول - وإحساس غيبي شفيف عاش يتغزل في الاستشهاد، ويتعاطف مع صوت الموت والفداء» (قميحة، 1986م، ص 70) ثم «في شهر نيسان عام 1948م عُيِّنَ آمراً للانضباط في مدينة طولكرم، وظل يناضل حتى وافاه الأجل المحتوم في معركة الشجرة التي دارت رحاها أمام قرية الشجرة في الثالث عشر من تموز عام 1948م بلّياً نداء وطنه وهو يرد الأبيات الآتية:

احملوني احملوني احذروا أن تتركوني
يا فلسطين وداعاً خالصاً من كل قلبي

(محمود، 1988م، ص 30)

الأنساق الدلالية لدالّ "النار" في شعر عبد الرحيم محمود

إنّ « التطوّر الدلالي فرع من فروع علم الدلالة، يهتم بما يعتور الكلمة من تغير في معناها، مما يساعد الباحث على فهم التطوّر الحاصل في اللغة» (عيسى، 2008م، ص 235). وأحمد محمد قدور يأتي ويبيّن حدود هذا العلم ويقول: «ومجال هذا العلم دراسة المعنى اللغوي على صعيدي المفردات والتراكيب، وإن كان المفهوم السائد هو اقتصار علم الدلالة على دراسة المفردات، وما يتعلّق بها من مسائل» (محمد قدور، 2008، ص 337).

ولمّا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية، فهي عرضة للتطور في مختلف عناصرها: أصواتها، وتراكيبها، ودلالاتها، لأنّ اللغة من منظار أكثر النقاد كائنة حية وتتغيّر مع تغيير المجتمع والحوادث التي تطرأ عليها وهكذا تؤثر في المجتمع، كما قال محمد حسن جبل: «التغيير الدلالي هو التغيير التدريجي الذي يصيب دلالات الألفاظ بمرور الزمن، وتبدّل الحياة الإنسانية، فينقلها من طور إلى طور آخر» (جبل، 1997، ص 33). وإذا نحن قمنا بدراسة اللغات سنرى التغييرات التي طرأت على ألفاظها من القديم حتّى هذا العصر، حتى أصبحت اللغات تختلف مع شكلها الذي كانت في الماضي.

لأسباب المذكورة آنفاً، أدّت إلى تمحور رؤية عبد الرحيم الخاصة بالنار داخل الأقطاب التالية "اليتيم، الحرب، الغربة والحبّ والشوق إلى الوطن، الظلم الناتج عن الاستبداد والاستعمار". وكانت تلك الأقطاب قد منحتة إحساساً خاصاً يشير إلى تجربة الشاعر في صراعه مع اليتيم والحرب والظلم والغربة التي عاناها عبد الرحيم حياته والشوق للرجوع إلى وطنه، وهذه الأمور التي سبّبت له أزمة نفسية حادة، أدّت إلى جملة من تطوّرات دلالية أصابت كلمة "النار" في شعره بعضها إيجابية وأخرى سلبية، فإنّه رأى في النار "الشجاعة والقيّة والحب والحنين إلى الوطن". كما نرى رفض الحرب وويلاتها والحزن الذي أتى إثر حياته النضالية. وهكذا نلاحظ أنّ هذه الرؤية في تداول كلمة "النار" قد شكّلت ثنائيات ضدية وقد حاول عبد الرحيم أن يلمّ بجميع الأبعاد الدلالية التي تنطوي عليها هذه الكلمة في النصّ. يمكن استقرار هذه الدلالات على قسمين: قسم خاصّ بالرؤية الإيجابية وآخر بالرؤية السلبية.

الدلالات الإيجابية

تتمحور رؤية عبد الرحيم الإيجابية الخاصة بالنار داخل الأقطاب الآتية؛ القوّ والشجاعة للوصول إلى الحرّية، والشوق والولع للوطن تحت صواريخ العدو والحبّ من أجل الحياة، وما إلى ذلك حيث رأى في النار علامات إمكان الحياة في المستقبل تتراصف أمام أعينه في حالة خيرّ من اليأس على أفكاره.

القدرة والشجاعة

المطلوب من الشعراء أن يشحنوا روح الحماسة في نفوس الشعب «إنّ الشاعر ثائر وأنّ الشعر ينبغي أن تكون له رسالة تجسّد الدعوة إلى الثورة التي يقودها الشعر الملتزم والكلمة الملتزمة الثائرة» (ضيغمي، آخرون، 2014م، ص 7). ولكن الشاب الفلسطيني دون أي كلمة أضاف أسطراً جديدة من البطولة إلى صفحات البطولات في العالم برّمته، وجعل لغة الأفعال هي التي تتحدّث في زمن لم يجد الكلام شيئاً، وقلما يوجد مكان في العالم المعاصر يتعانق فيه الفعل بالكلمة كما يحدث في فلسطين إذ صنعت أروع الملاحم والبطولات على أيدي الشباب.

وعبد الرحيم شغلر وطني رأى الحرب من قريب الحرب ولهذا يدعو الشعب إلى الاتّكاء على أنفسهم واستخدام الشجاعة والقدرة اللتين تكمنان في نفوسهم كما جاء في الأبيات الآتية:

ما حكّ نلّك مثلُ ظفركِ يا فتى يا حرّاً تَتَصبّبُك الأوهامُ

سهر بنارك غلّ عنقك ينصهر على الجماجم تركّز الأعلامُ

(محمود، 1988، ص 38)

إنّ الشاعر يرى أنّ الطريق الوحيدة للوصول إلى الحرّية هي اتّكاء الشخص على نفسه دون أن يعوّل على غيره، كما استخدم عبد الرحيم هذا المثل في المصراع الأوّل "ما حكّ جلدك مثل ظفرك" لكي يؤيّد كلامه بهذا المثل السائر لدى العامة. إنّ الشاعر في هذين البيتين يريد طرح الأوهام جانباً والإمساك بالقوّ والواقع. ولكن الدلالة الكامنة في لفظة "النار" في هذا السياق هي القوّ والشجاعة اللتان يتوقعهما الشاعر من الشعب. وقد أتى بفعل الأمر في بداية البيت الثاني حتّى يظهر روحه المتحمّسة المندفعة للدفاع عن كرامة الشعب كما قال قميحة: فإنّ عبد الرحيم «أصدق الشعراء فنّاً وحياة لمن تعرفه بديوانه، وتعرفه لديوانه» (قميحة، 1986، ص 77). وهذا السياق من الحياة جعل عبد الرحيم ينظر إلى النار بوصفها

كتلة من القدرة والقوّ في نفوس الشعب الفلسطيني لهذا يريد إطلاق هذه القوّ لدحر الأعداء.

فالشاعر يدعو كل أطراف الوطن ولاسيّما الشباب لسحق الأعداء، لأنّهم حراس البلد كما يقول:

غامر فلبي قد رأيت العـ ز يجرمه هبوبه
 إن الشباب لظي يجر ق دوحه العادي شوبه
 والعاصف السفساع يهدم قبة الباغي هبوبه

(محمود، 1988، ص 64)

في هذه الأبيات استخدم الشاعر عبد الرحيم حشداً من كلمات تتصف بالقوة والقدرة والاستبسال كـ"لظي، يجر، العاصف، السفساع، يهدم" كي يخلق جواً حماسياً مليئاً بالأمل والتفاعل بغية الوصول إلى القرة الحقيقية وهي "النار". والشاعر شبه الشباب بلظي النار في القدرة والشجاعة لكي يحضهم للحضور في ساحات القتال. وإن لم يصح الشاعر بلفظة "النار" بشكل مباشر إلا أنه أشار إليها في أكثر من كلمة.

الحب والشوق إلى الوطن

الإنسان حينما يعشق شيئاً يبذل كل ما لديه حتى يبقى هذا الحب قائماً، ويحاول أن يفعل كل شيء حتى تصبح أحبال هذا الحب أشد فتلاً، وعندما تكون الحبيبة هي الأرض لا يمكن لأي أمر أن يمزق أحبال هذا الحب؛ وإن حب الوطن يعترف به كل شخص ولاسيما الشعراء لأن إحساسهم أكثر غلياناً للإنسان الاعتيادي وهكذا «لا يمكننا بأي من الأحوال أن نفصل مسألة الوطن والوطنية عما تشكّله هذه المسألة من عمق وجداني وشعور عاطفي يّصل بالجوانب المحمية لدى كل إنسان وتتناغم العاطفة مع الفعل لتشكّل حالة سامية من الحب فإن حب الوطن والدفاع عنه والحنين إليه جزء طبيعي من حياة الإنسان» (محمود، 2003م، ص 21). وعلى الخصوص عندما يكون الشاعر في الغربة كما هي حال عبد الرحيم محمود إذ يقول في هذا الصدى:

تلك أوطاني وهذا زئمهـا في سويداء فؤادي تحته فـر
 تراءى لي على بهجة هـا حيثما قلبت في الكون النظر
 في ضياء الشمس في نور القمر في النسيم العذب في ثغر الزهر
 في خربير الجدول الصافي وفي صخب النهر وأمواج البحر
 في هتون الدمع من هول النوى في لهيب الشوق في قلبي استعر

(محمود، 1988، ص 55)

الشاعر لا يرى بلده قطعة من أرض في مكان، بعيد بل يراه قريباً محفوراً ومنقوشاً في أوتار قلبه ويراه في كل مكان وفي كل شيء، في النسيم العذب وضياء الشمس وصوت الماء وأمواج البحر، وأينما ينظر يروى وطنه وهو يشتاق إلى أحضانه، وهذه الأحاسيس انتابته عندما «اضطره تعقب سلطات الانتداب البريطاني للشوار إلى بلاد العراق وبقي هناك ثلاث سنوات» (سعيد، 1965م، ص 3) إن الشاعر يشبهه شوقه وحبّه إلى وطنه كحرارة النار التي لا تنطفئ إلا بالرجوع إلى وطنه.

إن الشاعر في هذه الأبيات يتخذ بؤرة حرف جر «في» لكي يكشف حرقته وحبّه إلى الوطن وإنه يسكب حبّه إلى الوطن في كل التفاصيل المحيطة به، مهما كانت صغيرة، ومن هنا حرف الجر «في» يصبح أداة فاعلة في ضمّ جزئيات المعنى وتوحيدها، فالشعر في حقيقة معناه «هندسة حروف وأصوات وتعمّر بها في نفوس الآخرين عالماً يشبه عالمنا الداخلي، والشعراء مهندسون ولكلّ منهم طريقته في بناء الحروف وتعميرها» (قباي، 1964م، ص 39) وهذا الحرف في النهاية يصل إلى النار ولهبها ويظهر شلّة هذا الحب والشوق الذي يكمن في نفس الشاعر. وفي سياق الحديث عن الحرب طالما نرى لفظ "النار" يوحي بشلّة المحبة وتوهجها.

إنّ عبداً لرحيم لا يستطيع أن يعيش بعيداً عن وطنه فقد ذاق مرارة الغربة واكتوى بنارها، وحنّ إلى وطنه. لقد ظهر شوقه إلى وطنه هكذا:

يا بلادي يا منى قلبي إن	تسلمي لي أنت فالدينا هدر
لا أرى الجنّة إن أدخلتَها	وهي خلو منك إلا كسقر
مني في غربي قبل الردى	أن أملّي من مجاليك النظر
ظمئت نفسي لمغناك فهل	يطفئ الحرقّة بالعود القدر؟

(محمود، 1988، ص 55)

إنّ الشاعر عن طريق الحديث مع وطنه يريد أن يظهر حنينه وشوقه إليه وهو يخاطب بلاده كأنّها شخص واقف أمامه ويستمتع إلى كلامه المبطن بالحزن. فأمله الوحيد أن يرى وطنه مرة أخرى حتى يشبع منه، ويكشف عن نار قلبه ولهفته لشلّة شوقه للمس تراب الوطن. ويرجّح العيش تحت نيران الحرب بدلاً أن يكون في مكان هادئ ولا يرى وطنه، فكل هذا ناتج عن حبه وحنينه لتراب الوطن. والحنين «ظاهرة إنسانية عامة لا ينفرد بها جيل دون جيل، وهي موجودة منذ أن وطئ الإنسان هذه الأرض وبدأ طريق المعاناة» (ابن رمضان، 2005م، ص 110).

يستخدم عبد الرحيم هنا أسلوب الاستفهام الإنكاري لأنّه يعرف ما الذي يطفئ حرقته وهو العودة إلى وطنه فيسأل ويطلب من القدر الرجوع إلى الماضي حتّى يرجع إلى وطنه ويرجع إلى أيام الهناء. و«كان قلبه

يتدفّق بالحنين إلى أرضه الحبيبة فلسطين ليواصل الجهاد المسلّح مرةً أخرى، فصورة وطنه محفورة في سويداء قلبه تتراءى له في كل شيء» (جميل عابد، 2011م، ص 8) إنّ الشاعر استخدم مرادفات لفظ "النار" كالسقر والحرق حتى يظهر شدة شوقه وحنينه وحبّه الذي يصف به هذا الشاعر الثوري.

الدلالات السلبية

قام عبد الرحيم بتوظيف دالّ "النار" توظيفاً رمزياً سلبياً يقابل الوجه الأول؛ إذ تبلّلت قدرة النار إلى قدرة التخريب فهي «تتقبّل كلتا القيمتين المتضادتين: الخير والشر. تتألّق في الفردوس وتستعر في الجحيم. عذوبة وعذبة» (بشار، 1984م، ص 11). وتجد قدرة النار عند عبد الرحيم بمعنى الحرب، والدمار، والحزن، واليأس، وجفاف المحبّة وسلب الحرّيّة، إنّما صور مكبوحه، مقطوعة السبل لا أمل في انتعاشها وهي لم تكن إلّا نتيجة للظروف التي مرّ بها عبد الرحيم محمود، وتشير إلى تجربة الشاعر في صراعه مع تنين الحرب، والمعاناة التي جاءت إزاء القتال والظلم الذي عاناه الشاعر من أعداء الوطن في حياته.

الحرب

إنّ الحرب من الأحداث التي إذا نزلت بشعب هلّمته وسحقته وإنّما كمرض مهلك إذا لم يتعالج بسرعة يقتل الشخص، فالحرب «هي عبارة عن تفاعل بين اثنين أو أكثر من القوى المتعارضة التي لديها صراع في الرغبات حول السيادة والأراضي والمصادر الطبيعية أو الدين أو الأيديولوجيات» (بلاوي وآباد 1435، ص 33). وإنّ الشاعر عبد الرحيم كان رجل الوطن فقد حمل طوال حياته معول الهدم لكي يهّدم صرح الأعداء الغاصبين، ولكن مع هذا كلّّه، كان يكره الحرب ويدعو إلى التمسك بالكلام والتفاوض بدل إراقة الدم فيقول:

فخذوا الكلامَ أيا أحبّة واعذروا لفظَ اللظى من في حشاه ضلّامُ
حفى اللسان وجفّت الأقدامُ والحالُ حالٌ والكلامُ كلامُ

(محمود، 1988، ص 35)

في هذا السياق لا يخفى تبرّم الشاعر من الحرب وما تخلّفه من ويلات، فهنا أخذ يفق بين الكلام والحرب ولهذا قرن كلمة "اللظى" باللفظ كي يصحّ بأنّ الكلام مع الحرب لا جدوى له ولكن الكلام بالرفق والعطوفة يؤدّي إلى السلام. لا يخفى أنّ حياة الشاعر النضالية وويلات الحرب أثّرت فيه ولهذا يدعو إلى الابتعاد من الحرب وعدم الخوض فيها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وقد استخدم لفظه اللظى الدالة على النار للدلالة على الحرب المدمّرة بصورائها ودباباتها ورميها المحرق. يستطرد الشاعر كلامه حول النار وطاقاتها في تحريب البلد كالاتي:

قم بنا من قبل أن يعصف بي خاطراً لا أب لي إما حبا
قم بنا من قبل أن ينتابني هاجسٌ يوغرُ نفسي غضبا
فبلادي في أسى محتدم ليتني أدفعُ عنها الكربا
وبلادي في جحيم مطبق تصطلي النار وتلقى النوبا

(المصدر نفسه، ص 96)

الشاعر هنا يستخدم كلمة "النار" مع حشد من الكلمات كـ "العصف والهاجس والغضب والأسى والكرب والجحيم والصلي" التي تلقي معنى الويل والنكبة؛ فحشد الشاعر لهذه الكلمات مع كلمة النار فوهب لمفردة النار دلالات حربية مدمرة. فنرى هنا تأثير الحرب في كل زاوية من حياة الشاعر لأن الشاعر رأى من قريب «كل» صنوف القهر والعذاب والممارسات الوحشية والإجرامية، وتعرض لانتهاك الحق في الحياة، والقتل المعتمد وقتل الأطفال الأبرياء وطلبة المدارس والجامعات، وحتى الأجنة في بطون أمهاتها لم ترحمها رصاصات الكيان الصهيوني» (محسن، 2005م، 25). فبعد الرحيم يستعين بـ "النار" حتى يظهر بأن الشعب الفلسطيني يستخدم النار للتنوير والاهتداء بدل الحرب والقتل كما يشير في هذا الأبيات:

نحن لم نحمل السيوف لهدر بل لإحقاق ضائع مهذور
نحن لم نحمل المشاعل للحر ق ولكن للهيدي والتنوير
نحن لم نطعن الضمير ولكن بقنانا احتمى طعين الضمير

(محمود، 1988، ص 42)

إن الشاعر يريد بلفظة "النار" أن يظهر براءتهم وعدم ابتغائهم الحرب فالشعب الفلسطيني شعب مسلم ومحايدين ويبحث عن النور للخروج من ظلمات المحتل وكر عبد الرحيم في هذه الأبيات لفظة «نحن» ليرسم للمتلقي نفسيّة الشعب الأبيّة والثوريّة التي لم تخضع لأي ظلم فهي تدلّ على اتحادهم وتكاتفهم الجماعي. وهكذا يريد الشاعر أن يثبت لنا وجوده والتحامه مع الجماعة وشعبه، وهو ما يضمن بقاءه، وهو يريد إبلاغ صوته ونداءه الجارح إلى العالم، فالشعب يريد السلام لا النار والحرب، إن محمود يستعمل لفظ "النار" في معنى الحرب 18 مرة، أكثر من باقي المعاني وهذا يدلّ على الأجواء العسيرة والظروف الصعبة التي عايشها الشاعر في حياته الوطنية والنضالية.

الحزن

إن الحزن يأتي إثر الحوادث والمشاكل المختلفة التي لا يترقبها الإنسان في حياته. للحزن أسباب لا تخفى منها الحزن على فقد الأحبة والحزن على تدهور الوطن واستلابه، وقد يكون الحزن أشدّ مضاضة ووطأة

على نفس المواطن ولاسيّما إذا كان شاعراً مرهف الإحساس، فالشعراء الفلسطينيون عندما رأوا احتلال بلادهم وتشردمها أخذوا بتنديد المحتلّين وسياساتهم الخبيثة عبر شعرهم لذا جاء التعبير عن حزنهم وتبرّهم من الاحتلال والخطّ من شأنه، ف«في الواقع تعدّ محنة فلسطين أول محنة كشفت تأمر الغرب الصليبي مع الصهيونية العالمية لجعل هذا الكيان المصطنع شوكة في قلب الأمة العربية» (الشادي، 2010، ص 11) وهذه القضية المخزيّة تعدّ بحد ذاتها خيبة تركت أثراً حزيناً لدى المواطنين.

فعندما يريد الشعراء أن يعبروا عن خلجات نفوسهم وأحزانهم يستخدمون ألفاظاً تشي بالحزن والأسى وقد استعان عبد الرحيم في هذا الصدد بلفظة النار لكثرة قدرتها وطاقاتها في تجسيد الحزن كما جاء في الأبيات الآتية:

وا حبيب الأمتا قد أصبح العيد شُ من بعلك لي جدّ نكيد
جمد الدمعُ بعيني جزعاً يا لنارِ القلبِ من دمعي الجمود
فأذبت الروحَ أبكيك بها بدلَ الدمعِ فسالت في نشيدي

(محمود، 1988، ص 40)

إنّ الشاعر في هذه الأبيات يريد عن طريق لفظ "النار" أن يبيّن ما يدور في قلبه من الأحزان بسبب الحرب والخناق وإراقة الدم في بلده الأعزل، وقد استمدّ من قدرة النار وطاقاتها الدلالية ليعبر عن حزنه، وقد أضاف النار للقلب ليبدّل على شلّة حزنه واشتعاله. فسياق النص كله يوحي بالحزن والألم والضجر، إذ بدأ هذه الأبيات بالتضجّر والندبة (وا حبيب الأمتا) وأخذ يلجّ على معجم لغوي حزين وعبارات تشي بتراكم الهم والغم ويستطرد عبد الرحيم وصف بلاده وأجواء الحزن الذي يسيطر عليه هكذا:

هناك الدموعُ هناك الأنينُ هناك القنوطُ هناك الكمد...
في العيدِ شيءٌ يسرُّ النفوسَ ويأتي إليها بما قد تودّ؟
وإن كان... ما نعمة لا تعمّ فتوري نار القلا والحسد؟
ما فرحة مثلَ ومضِ البروقِ وليست تدومُ دوامُ الأبد

(نفس المصدر، ص 108)

إنّ الشاعر يستهلّ الأبيات بمجموعة من الألفاظ التي تأتي إثر الحزن مثل "الدموع، والأنين، والقنوط، والكمد" لكي يبيّن شلّة حزنه الذي يسيطر عليه وقد اشتتلت زوبعة هذا الحزن عندما استخدم عبد رحليم لفظ "النار" فعندما تأتي هذه الكلمة تهتم أركان كل شيء ولاسيّما هذا الشاعر الذي عاش تحت نار الصواريخ ولم يغادر بلده، إذ ألحّ الشاعر في البيت الأول على تكرار الظرف المكاني المعادل للوطن

(هناك) بشكل أفقي وفي كل تكرار يجعل هذا الطرف معادلاً موضوعياً للحزن فتارة الدموع، وتارة الأنين، وتارة القنوط وتارة الكمد، وتبقى هذه النبرة الحزينة تتصاعد حتى تصل إلى النار وما تحمله من دلالات حزينة في هذا السياق.

وبما أن هذا البحث لا يسع التطبيق لجميع مصاديق التطور الدلالي للفظ "النار"، والذي قمنا بإحصائه ودراسته كان نماذج قليلة متلّة من الديوان، لذا رأينا أن نلحق جدولاً إحصائياً عن التطور الدلالي الإيجابي والسلبي لكلمة "النار" في ديوان عبد الرحيم لنطلع على مدى استخدام الشاعر واهتمامه لها، ومدى سعتها للنقاش. والجدول الآتي يبين لنا هذا الأمر:

دلالة النار	عدد التواتر	رقم الصفحة	النسبة المئوية
القدرة والشجاعة	6	37-38-64-79-83-167	13%
الحبّ والشوق إلى الوطن	8	55-55-138-139-143-143-148	21%
الحرب	18	33-35-39-42-44-50-51-57-63-77-78-79-89-96-109-125-128-130	47%
الحزن	7	40-68-108-108-156-130-148	18%
المجموع	38	كلّ الديوان	100%

إنّ هذا الجدول في الواقع يعطي رؤية عامّة لمن يريد الإلمام بالموضوع والنقاش فيه؛ إنّ الشاعر استخدم لفظ "النار" لبيان اشتماله وعدم رغبته في الحرب والحوادث التي تعقبها أكثر من باقي الدلالات وإنّ الدلالات السلبية تحتلّ المرتبة الأولى، وهذا يدلّ على الظروف الصعبة التي عايشها عبد الرحيم، فقد رأى أنسب وأقوى كلمة لإظهار حزنه وعدم ابتغائه للحرب هي كلمة "النار".

خاتمة:

لقد توصلنا في هذا البحث إلى النتائج الآتية:

إن حياة عبد الرحيم الشخصية كيثمه وحضوره الدائم في الحرب وشوقه إلى الوطن أثرت على دلالات كلمة (النار). وإن كلمة "النار" في شعر عبد الرحيم لها دلالات إيجابية وسلبية مثل: الشجاعة، الحب والشوق إلى الوطن، والحرب وويلاتها، والحزن الفاتك.

إن رؤية الشاعر الإيجابية الخاصة "بالنار" تمحورت داخل الأقطاب الآتية: الاجتهاد والشجاعة، الحب والشوق إلى الوطن الحبيب.

وقد قام للشاعر بتوظيف دال "النار" توظيفاً رمزياً سلبياً ما يقابل الوجه الأول؛ إذ ترد قوة النار عنده لتجسيد الحرب وويلاتها والحزن من أجل وطنه.

إن محمود استخدم لفظ "النار" في معنى الحرب أكثر من باقي المعاني، وهذا يدل على تأثير الحرب فيه وفي حياته الشخصية، وهكذا رفضه وعدم ابتغائه لهذه المنحوسة.

إن عبد الرحيم قد استعان بلفظ "النار" للدلالة السلبية 25 مرة وهذا يدل على الحياة الصعبة التي عاشها الشاعر فقد استخدم لفظة النار لإظهار ما في نفسه من الحزن والألم.

المصادر والمراجع:

- 1) ابن رمضان، فيروز، الغربة والحنين في شعر سليمان عازم، رسالة لنيل شهادة ماجستير في تخصص الأدب الشعبي، المشرف عبد الحميد بورايو، جامعة الجزائر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، (2005م).
- 2) أبوشمال، فايز صالح، على صهوة الشعر مع الشاعر الفارس الشهيد عبد الرحيم محمود، لا ط، خانيونس التجارية، (2003م).
- 3) أبو مازن، محمد عبد القادر، شهداء فلسطين، (ط1)، عمان الأردن: دار الفرقان، (1990م).
- 4) بشلار، غاستون، النار في التحليل النفسي؛ ترجمة نهاد خياطة، (ط1)، بيروت: دار الأندلس، (1984م).
- 5) بلاوي، رسول؛ مرضيه آباد، «ملاحم المقاومة في شعر يحيى السماوي»، آفاق الحضارة الإسلامية (أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية)، العدد الأول، (1435ق).
- 6) جبل، عبد الكريم محمد حسن، في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، لا ط، دار الجامعية، (1997).
- 7) جميل عابد، حنان، الصيغ الصرفية ودلالاتها في ديوان عبد الرحيم محمود، دراسة وصفية متطلب تكميلي لنيل درجة ماجستير في العلوم اللغوية، المشرف صادق عبد الله أبو سليمان، جامعة الأزهر - غزة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية - العلوم اللغوية، (2011م).

- 8) سعيد، جميل، مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر، بحث مقلّم إلى مؤتمر الأدباء العرب الخامس، بغداد، (1965م).
- 9) الشادي، صالح، هواجس الوحدة، (ط1) عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، (2010).
- 10) ضيغمي، علي وآخرون، «ملاحم المقاومة ضد الاستعمار في شعر الربيع بوشامة»، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها (فصلية محكمة)، العدد الواحد والثلاثون، (2014م).
- 11) عيسى، فوزي، رانيا فوزي عيسى، علم الدلالة النظرية والتطبيق، (ط 1)، الإسكندرية: دار المعرفة، (2008م).
- 12) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ)، قاموس المحيط: تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، (ط 9)، بيروت: مؤسسة الرسالة، (2005م).
- 13) ماني، نزار، الشعر قنديل أخضر، (ط2)، بيروت: منشورات المكتب التجاري، (1964م).
- 14) قميحة، جابر، الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود: ملحمة الكلمة والدم، (ط1)، القاهرة: كلية الألسن-جامعة عين الشمس، (1986م).
- 15) محفوظ، محمد، الواقع العربي وتحديات المرحلة الراهنة، (لا ط)، بيروت: دار الشرق الثقافة، (2003م).
- 16) محمد قدور، أحمد، مبادئ اللسانيات، (ط 3)، دمشق: دار الفكر، (2008م).
- 17) محمود، عبد الرحيم، الأعمال الكاملة للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود، (ط1)، دمشق: دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع، (1988م).
- 18) ناهض محمود إبراهيم محسن، الشخصية الإسلامية في الشعر الفلسطيني، قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد، المشرف نبيل خالد رباح أبو علي، الجامعة الإسلامية-غزة، كلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة، قسم اللغة العربية، (2005م).

التخييل السير ذاتي النسوي في الرواية الجزائرية

زهور ونيسي أنموذجا

Feminist autofiction in the Algerian novel Zhour Ouanissi as a model

د. عبد الله بوقصة

د. نسبية مساعدي

أستاذ محاضر "أ" جامعة غليزان

أستاذة محاضرة "ب" جامعة خنشلة الجزائر

Abdellah Bouguessa

Nsiba Messadia

Abdellah Bouguessa@yahoo.com

sibamess@yahoo.fr

الملخص:

تستهدف هذه الدراسة تحليل بُنى التخييل السير ذاتي النسوي في الجزائر. كما تروم استكناه جمالياته، واستكشاف دلالاته. وذلك من خلال مدونة سردية سير ذاتية نسوية ظلّت منسية لعقود من الزمن، ألا وهي نص "من يوميات مدرّسة حرّة" للأديبة الجزائرية الراحلة زهور ونيسي.

ونسعى عبر هذه الدراسة جاهدين من أجل استقراء خطاب الذات، وما يحمل بين طيّاته من مخزون الذاكرة الإنسانية، وميثاق السيرة الحياتية. فلإي مدى تمكّنت زهور ونيسي من استحضار بعض محطات سيرتها الذاتية في نصها السردية "من يوميات مدرّسة حرّة"؟ وهل نجحت في استثمار تلك المحطات في تجربتها السردية النسوية المتميزة؟ وكيف وفّقت بين أدوار: المولّفة والساردة والبطلة في الآن ذاته؟

الكلمات المفتاحية: سرد نسوي، سيرة ذاتية، تخييل سير ذاتي، مدونة، تجربة.

Abstract :

This study is an analysis of autobiographical narrative structures in Algeria. It also aims to appreciate its aesthetic, and explore its signs. Through a narrative progression of the feminist autobioigraphic corpus, which has been forgotten for years. it was the text of the "Mine youmiat moudarrissa hurra" of the great Algerian writer Zhour Ouanissi.

Through this study, we strive to extrapolate the autobiographical discourse, and the inventory of human memory, and the biography of the curriculum vitae. To what extent did Zhour Ouanissi recall part of her autobiography in

her narrative text "Mine youmiat moudarrissa hurra"? Have you managed to invest these stations in the story experience of distinct women? And how did she reconcile the roles of: The author, the narrator and the heroine at the same time?

Keywords: Feminist Narration, Autobiography, autofiction, Corpus, Experience.

المقدمة:

لعلّ من أهمّ نتائج تنوّع الأجناس الأدبية وتعدّد الخطابات السردية ذلك الثراء الموضوعاتي في فن التأليف، وتلك النقلة النوعية في فعل الكتابة. وقد تمخّض عن هذا الحراك الإبداعي بروز جنس سردي متميز نُعِيت بالسيرة الذاتية. وهو سرد ذو صلة وطيدة بالتخييل الذاتي، حيث التماهي بين الأنا الساردة والأنا الفاعلة في الخطاب الأدبي بصفة عامّة وفي النص السردى على وجه الخصوص. إذ يمكن عدّ الأنا بمثابة قطب الرّحى التي تتمحور حولها مختلف أطوار السيرة الذاتية. كما تصنّف السيرة الذاتية سجلا يحمل بين طياته موضوعاتها المتشعبة، وبوتقة تصهر فيها أفكارها المتسعة ضمن مجالات محدّدة من التخييل الذاتي الداخلي، قد تستأثره المرأة لخدمة نفسها وبنات جنسها بمعزل عن القضايا الإنسانية العظمى. ثمّ إنّ الكتابة في جنس السيرة الذاتية تندرج ضمن تفاعل فعلين: فعل أول يتعلّق باستحضار الذكريات الماضية. وفعل آخر يتصل بتثبيت اللحظات الراهنة.

ومن هذا المنطلق يتأسّس منظورنا في هذه الدراسة التي تروم تحليل بُنى السرد السير ذاتي النسوي في الجزائر. كما تستهدف استكناه جمالياته، واستكشاف دلالاته. وذلك من خلال مدونة سردية سير ذاتية نسوية ظلّت منسية لعقود من الزمن، ألا وهي نص "من يوميات مدرّسة حرّة" للأدبية الجزائرية الراحدة زهور ونيسي. ونسعى عبر هذه الدراسة جاهدين من أجل استقراء خطاب الذات، وما يحمل بين طيّاته من مخزون الذاكرة الإنسانية، وميثاق السيرة الحياتية. فإلى أي مدى تمكّنت زهور ونيسي من استحضار بعض محطات سيرتها الذاتية في نصها السردى "من يوميات مدرّسة حرّة"؟ وهل نجحت في استثمار تلك المحطات في تجربتها السردية النسوية المتميزة؟ وكيف وفّقت بين أدوار: المؤلّفة والساردة والبطلة في الآن ذاته؟

أولا: سرد نسائي أم سرد إنساني..؟

كثيرا ما تنبري المرأة إلى إنجاز أعمال أدبية إنسانية ذات شأن، فتطرح مسائل شتى متعلّقة بمزاحمة الأدب الرجالي، والتمايز عنه، أو محاولة منافسته. ونتيجة لذلك أُطلق على المنجز الأدبي الواقع ضمن هذا المضمار: الأدب النسوي، أو الأدب النسائي، أو أدب المرأة، أو الأدب الأنثوي، أو غيرها من المصطلحات. والناقد الأكاديمي إذ ينبذ مثل هذه المصطلحات، ولسان حاله يردّد: الأدب أدب إنساني، بغض النظر عن جنس مؤلّفه، فلا يمكن تصنيفه إلى أدب رجالي وآخر نسائي، إنّّه ينهض معترفا بأنّ قيمة الأدب في إبداعيته. كما أنّ كلّا من المرأة والرجل هما نتاج المجتمع ذاته، عندما نتمعن في كتاباتهما سرعان ما نجدهما

يشترحان الواقع الاجتماعي نفسه بخصوصياته وهمومه واهتماماته. ففيم تكمن معايير تقييم الإبداع النسوي؟ وهل ثمة فرق بين المرأة بوصفها مبدعة والمرأة بكونها امرأة؟ ومتى يؤون أوان الحديث عن سرد إنساني بلا حدود جنسية أو عرقية أو جغرافية؟.

ونطلق في مناقشة هذه الإشكالات المتعلقة بالسرد النسوي على الخصوص من إشكال لغوي يُوجب أن يكون النسب إلى المفرد، لا إلى الجمع، وبناءً على هذا، يكون الأقرب إلى الصواب أن نقول: السرد النسوي بدلا من السرد النسائي. بالرغم من أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة كان قد أصدر قراراً يُجيز النسب إلى جمع التكسير، وفي ضوئه يصح أن نقول: نسويّ ونسائي على حد سواء. فكان هذا التوجّه تركيزاً على "الانتقال إلى مرحلة اكتشاف الأنوثة بوصفها قيمة خاصة، والاحتفاء بالجسد بعلة مكوناً أساساً من مكونات الهوية الأنثوية" (عبد الله إبراهيم، 2011، ص 217) وتماشياً مع رفض نخبة من الأدبيات التعريف التصنيفي للأدب النسوي بناءً على جنس كاتبه، وتأكيدهن على أن الأدب جوهره إنساني. انزاح التعريف بالأدب النسوي إلى ذلك التأليف الذي يتناول قضايا المرأة بغض النظر عن جنس مؤلفه. وحتى هذا التعريف الأخير كان أمره جدلياً غير محسوم بين مؤيد ومعارض. ولو سلّمنا به لعددنا نصيباً كثيراً من شعر نزار قباني بوصفه شاعر المرأة العربية أدباً نسوياً.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الخبرة الأنثوية الخاصّة عن الحمل والمخاض والولادة والرضاعة وغيرها، عندما تظهر في كتابات المرأة لا يمكن نجد لها نظيراً لدى كتابات الرجل. ويقول جورج الطرابيشي في هذا المضمار: "المرأة تكتب بقلبها" (جورج طرابيشي، 1975، ص 71) ولكن يظلّ الفصل في الحكم على جودة العمل الأدبي النص ولا شيء غيره.

هذوكتيرا ما تتميّز المرأة الأدبية عن نظيرتها العادية، لأنّ الثقافة، التي تنفرد بها، تمنحها أفقاً ورؤى، ناهيك عن إسهامها في تشريح الراهن بكلّ حيثياته من خلال الكتابة. مثلما تقول زهور ونيسي: "الكتابة تحيي عظام الكلمات وهي رميم، وتحيي حياة المجتمع وهو ساكن" (زهور ونيسي، 1974، ص 15) ثمّ إنّ نزوع المرأة نحو استعراض أنوثتها في كتاباتها قد يحيل إلى نقص ما يعتري إبداعها. ومن جهة ذات صلة ترتفع أصوات هنا وهناك تعفّ هذا الضرب من السرد النسوي بوصفه انتفاضة ضدّ سيطرة الرجل، ممّا أنتج ضروباً علة من السرد النسوي، من قبيل سرد تجابه به المرأة سطوة الرجل، وسرد ثانٍ تستأثره لخدمة نفسها وبنات جنسها بمعزل عن القضايا بالإنسانية العظمى، وسرد ثالثٍ تنتجه المرأة بنزعة إنسانية دون الالتفات إلى الصراع الجنسي، وفي هذا الضرب الأخير ندرج أدبيات زهور ونيسي التي يشكّل فيها الوطن الجزائري بدينه الإسلامي الحنيف، ولسانه العربي المبين، وثورته التحريرية المباركة ضدّ الاستعمار الفرنسي حقلاً دلاليّاً ومعجمياً قائماً بذاته. ويعدّ نصّها "من يوميات مدرّسة حرّة" أول رواية نسوية جزائرية مكتوبة بالعربية سنة 1979. وكانت المرحومة زوليخة السعودي قد انطلقت في مشروع رواية، لكنّ القدر قد اختطفها سنة 1972 قبل أن تحقّق حلمها (أحمد دوغان، 1982، ص 9)، وها هي ذي أدبنا زهور ونيسي تتناول

موضوع البطش الاستدماري في حق رجال حيّها، قائلة: "قمة العذاب البشري، ضاع الابن، وضاعت البنت، وضاعت الأرض، وضاع الخبز، وضاعت الصحة" (زهور ونيسي، 1979، ص 113).

وتذهب الباحثة شيرين أبو النجا إلى أنّ مبتدع مصطلح الأدب النسوي هو الرجل ذاته، وليس المرأة، هذا الرجل الذي حسبها لا يؤمن أحياناً بإبداع المرأة. كما أنّ "النسوي من منظورها يعني إجمالاً إعادة التوازن الفكري والفعلية إلى موازين القوى بين الرجل والمرأة، فالنسوية توجّه فكري لا علاقة له بالجنسي البيولوجي، لذا ينبغي التفرقة دوماً بين نسوي (أي وعاء فكري ومعرفي) ونسائي (أي جنس بيولوجي) (شيرين أبو النجا، 2002، ص 127)، وتردّف إذا كانت النساء في مجتمعاتنا الشرقية مقهورات، فالرجال أكثر قهراً منهن، فالقهر بكافة ألوانه: الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي، وغيره، ليس مقصوراً على جنس دون آخر. وهو تعاطف جلي للمرأة المبدعة مع شقيقها الرجل، نجد له مثيلاً عند زهور ونيسي في نصها "من يوميات مدرسة حرّة" في قولها: "إنني كامرأة أعذر الرجل، فالتركة ثقيلة" (زهور ونيسي، 1979، ص 13)، مثال ذلك نجده في قولها: "سأقتسم مع زوجي زنارته، إذا كان لا يزال على قيد الحياة" (زهور ونيسي، 1979، ص 62).

ثانياً: الرواية السير ذاتية أم السيرة الذاتية الروائية؟

لعلّه أمرٌ مستبعد الوقوف على تعريف جامع يخصّ الرواية السيرة الذاتية، بوصفها جنساً أدبياً حديثاً مقارنةً بغيره. والحال أنّ مرد صعوبة التعريف برواية السيرة الذاتية، إنّما يكمن في انفلاتها إلى غيرها من الأجناس الأدبية، وانزلاقها نحو أنواع إبداعية أخرى على غرار الرواية والقصة والمقالة والمذكرات واليوميات ومن أجمل التعريفات الرائدة برواية السيرة الذاتية ذلك الذي قلّمه المنظّر الفرنسي فليب لوجون Philippe le jeune على "أنّها حكي استعاديّ ثريّ، يتّسم بالتماسك والتسلسل في سرد الأحداث، يقوم به شخص واقعيّ عن وجوده الخاصّ وذلك عندما يُركّز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته به بصفة خاصة، ويُشترط فيه أن يَصوّح الكاتب بأسلوب مباشر غير مباشر أنّ ما يكتبه هو سيرة ذاتية" (فيليب لوجون، 1994، ص 22). كما تعدّ رواية السيرة الذاتية فناً أدبياً يقوم فيه الكاتب بسرد أحداث حياته المتعاقبة، ويسود التركيز فيها على المجال الذي يطغى على شخصية المؤلّف، فمثلاً يغلب على شخصية ما الجانب الأدبي، قد يهيمن على أخرى الجانب السياسي أو غيره، ويسعى الكاتب في ذلك إلى انتخاب محطات مفصلية معيّنة من سيرة حياته، ورصدها بجمالية خاصّة تتيح له فرصة إنجاز نص سردي متكامل ذي طبيعة أدبية نشرة ونمط سردي حجاجي، يروم صاحبه الاستفادة من كلّ الآليات السردية اللازمة لتطويع نصّه وتعزيزه بالأدوات الفنية المثلى. وما فتى الالتباس يشوب العلاقة بين الرواية والسيرة الذاتية. فالكثير من الروايات تحمل معالم السيرة الذاتية، الأمر الذي أدّى إلى ظهور جنسين وسيطين هما: رواية السيرة الذاتية Roman autobiographique، والسيرة الذاتية الروائية Autobiographie romancée. أمّا فيما يتعلّق بالمعيار الأساس للتفريق بين الرواية والسيرة الذاتية، فإنّه يكمن في موثاق القراءة والتلقي والتأويل. إذ

يتمظهر الميثاق الروائي الإبداعي في الجانب التخيلي، في حين "يتجلى الميثاق السير ذاتي في الجانب الواقعي" (جورج ماري، 1992، ص 147).

فالسيرة الذاتية "هي أن يكتب الإنسان ذاته محطات تاريخية من حياته، فيسجل حوادثها وأخبارها. كما يسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام صباه وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث" (محمد عبد الغني حسين، ص 23)، لأن "السيرة الذاتية الناضجة تطرح عادة مسائل فكرية أو فنية أو اجتماعية دقيقة من خلال التجربة الشخصية للكاتب، ويكون معناها أحيانا أبلغ من أي كتاب فلسفي لأنها تقدم القنوات الفكرية مع إطارها الحي، كما أنها تتضمن اعترافات تتعلق بأعمال فكرية للمؤلف نفسه وتفحصا لمواقف فكرية وفنية سابقة" (حسام الخطيب، 1991، ص 240)، الأمر الذي يرفع مكانتها بين باقي الأجناس الأدبية، بالرغم من أن الأدباء لم يلقوا إليها كثيرا من الاهتمام إلا في عشرينيات القرن الماضي..

ومما يصعب من مهمة الكتابة السيرية ويجعل الأقلام تنأى عن تعاطيها، كونها "تقوم على الكشف الداخلي والاعتراف ولباقة العرض ولطف الإشارة، وهنا كان يحتاج لشروط اجتماعية مواتية، من أهمها أن يكون المجتمع قد بلغ درجة كافية من التطور والانفتاح تتيح له أن يتقبل اعترافات الكاتب وآراءه وصراحته وتجربته الخاصة بروح من التسامح والتعاطف وتقدير هامش الضعف الإنساني الذي لا بد أن تكشف عنه أية سيرة ذاتية ناجحة" (حسام الخطيب، 1991، ص 227)، دون إغفال العادات والتقاليد والأعراف والإيديولوجيات والثقافات التي من شأنها توجه كتابة السيرة الذاتية، ذلك لأن "كتابة سيرة ذاتية صريحة في مجتمع متزمت مثلا، يمكن أن تتضمن انتحارا على المستويين الشخصي والفني بما قد تجرّه من نقمة على الكاتب لا تتوقف عند إدانته كإنسان" (حسام الخطيب، 1991، ص 288)، وعليه يبدو الأمر شبيها بضرب من ضروب المخاطرة خاصة لدى أديب ذي باع طويل في دنيا الأدب.

وقد أفادت السيرة الذاتية بوصفها جنسا حديثا من المنجز الروائي. وقد بلغت هذه الإفادة حدّ التداخل والالتباس في أحيان كثيرة. إلا أن المتمعن سرعان ما يهتدي إلى ثمة خلاف واختلاف. فالسيرة الذاتية تبقى عملا ذا بنية مغلقة، ومنتهية بوفاة كاتبها. فهي تفتقر إلى التلقي المتجدد، والتأويل المرن، شأنها في ذلك شأن الأسطورة أو الملحمة. أما الرواية فتتبلّى للعيان بنية مفتوحة أكثر على التلقي المتنامي، والقراءات الجديدة، والتأويل المتغير عبر الحقب الزمنية المتعاقبة.

وتتوالى المفارقات بين الرواية والسيرة الذاتية من حيث الخط الزمني الذي يسير في الرواية بشكل منكسر ومتقطع، ويرتسم في أغلب السير الذاتية بشكل مستقيم ومستمر حسب المراحل المتتابعة لحياة أصحابها، وكذلك من حيث الإطار المكاني الذي يبدو خياليا إلى حد بعيد في الرواية، ويقترن بالأحداث الواقعية في السيرة الذاتية، وحتى من الجوانب التقنية السردية، نلاحظ الروائي ينتقل من السارد إلى بقية الشخصيات بحسب الأدوار والأطوار والأحداث والوقائع، أما كاتب السيرة الذاتية فينهض على أحادية الدور السردية، إذ الكاتب والسارد والبطل كثيرا ما يتمظهرون في شخصية واحدة رئيسة هي صاحب السيرة ذاته الذي ينبري

إلى سرد تفاصيل حياته. ف"الواقع ههنا هو المحور الأساس في سرد هذه الأحداث" (سلطان سعد القحطاني، 2008، ص 218).

ثالثا: السيرة الذاتية في الأدب العربي

تألفت السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث إثر صدور كتاب "الأيام" لطله حسين سنة 1929م، والذي ذاع صيته في الساحة الأدبية والنقدية في الوطن العربي برّفته. كما نشر أحمد أمين كتابه السير ذاتي الشهير الموسوم بـ"حياتي" عام 1950م، وتلاههما إبراهيم عبد القادر المازني في كتابه "قصة حياة" عام 1961م، ثمّ لطفي السيد في "قصة حياتي" عام 1962م، وقد بثّ عباس محمود العقاد سيرته الذاتية في كتابيه: "أنا" عام 1964م، و"حياة قلم" عام 1965م، وتعدّ نوال السعداوي أول امرأة عربية كتبت سيرتها الذاتية فيما نعلم، وذلك عندما أصدرت كتابها "مذكرات طبية" عام 1965م، كما ضمّن توفيق الحكيم سيرته الذاتية في كتاب "سجن العمر" عام 1967م، وبعد ذلك ظهرت سيرة ذاتية عربية أخرى، أنتجها أصحابها رفعا للتحدي الفني ومسايرة لروح العصر الأدبي، ومنها: "قصتي مع الشعر" لنزار قباني، و"رحلة جبلية..." لفدوى طوقان، و"الخبر الحافي" لمحمد شكري.

رابعا: السيرة الذاتية في الأدب الجزائري

لعلّ اللبنة الأولى للتأليف السير ذاتي في الجزائر كانت مع رمضان حمود المتوفى في 15 ديسمبر 1929، حينما أصدر عمله الموسوم بـ"الفتى" سنة 1929، الذي يعدّ من البواكير الأولى للأدب الجزائري الحديث. وقد انتظرت الساحة الأدبية الجزائرية حقبة زمنية، قبل أن ينشر القاص عبد المجيد الشافعي ما يشبه السيرة الذاتية بعنوان: "ذكريات من بعيد" في جريدة العبقريّة العدد 2 السنة 1 بتاريخ الفاتح من رجب 1366هـ. ومن محاولات السيرة الذاتية في الأدب الجزائري ما كتبه البشير الإبراهيمي سنة 1952 من عمل أدبي شبيه بالبطاقة الفنية التي نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عشية انتسابه إليه.

كما لا يفوتنا التذكير بأعمال جزائرية أخرى يمكن أن تدرج ضمن السيرة الذاتية، مثل: "يوميات الوجع" لعمار بلحسن وهو آخر إنتاجه الأدبي، وقد كتبه وهو طريح فراش المرض العضال سنة 1993م، قبل أن يرحل إلى جوار ربّه...⁴

ولعلّ من أنضح السير الذاتية الجزائرية كتاب عبد المالك مرتاض "الحفر في تجاعيد الذاكرة" الصادر سنة 2003م، وكذلك كتاب عبد الجليل مرتاض "ما بقي من نعومة أصابع الذاكرة" الصادر سنة 2006م الذي لا يقلّ عن سابقه نضجا واكتمالا.

ومن لأعمال السيرية النسوية الجزائرية المتأخرة نذكر النص الذي ألفته الأديبة زهور ونيسي بعنوان "عبر الزهور والأشواك" —مسار امرأة— الصادر عن دار القصبة 2012م، وهو العمل السردي السير ذاتي الثاني للمؤلّفة

بعد ذلك الذي كتبه عام 1979 م بعنوان "من يوميات مدّسة حرّ". كما لم يتخلّف الروائي الأعرج واسيني عن الركب كثيراً: عندما أصدر سيرته الذاتية المتميزة الموسومة بـ "سيرة المنتهى... عشتها كما اشتيتني" عام 2014.

وهكذا نجد الأدب الجزائري - فيما يخصّ فن السيرة الذاتية - لم يتأخّر، ولم يتقهقر، وبالموازنة مع نظيره العربي المشرقي، بل وجدناه يتصنّف في بعض الأحيان. ولنا في النص السردى العالمى الأول "الحمار الذهبى" لأبوليوس لكىوس، والنص الروائى المرجعى "حكاية العشاق فى الحبّ والاشتياق" لمصطفى بن براهيم، وأشعار الأمير عبد القادر الجزائرى، وكتاب "بذور الحياة" لرمضان حمود ملامح ريادية، ومعالم طلائعية فى الأدب العربى بصفة عامّة.

خامساً: بين الميثاق السير ذاتى والميثاق الإبداعى

ينصرف مفهوم الميثاق السير ذاتى - من منظور فيليب لوجون - إلى كونه عقد يبرمه الكاتب مع قارئه، يتم بموجبه تحديد نوعية القراءة وسرعان ما يوجّه القارئ إلى هدف محدّد أثناء القراءة. وينهض هذا المفهوم على أن السيرة الذاتية هي "نثر استعادي يحكي فيه شخص حقيقى عن حياته الفعلية بصورة تستهدف إبراز حياته الفردية وتاريخ شخصيته الفعلية بشكل خاص" (فيليب لوجون، 1994، ص 8)، ولعلّ من مضمرات هذا العقد السير ذاتى أن يلتزم الكاتب إزاء قارئه بحكي ما حدث فى الواقع دون أي انزياح تخيلى أو تمويهى يمكن أن يعتري الممارسة السردية، و"القارئ محمول على تصديق ما يرويه له كاتب السيرة الذاتية (صبرى حافظ، 2002، ص، ص. 7. 8).

وتندرج السيرة الذاتية ضمن ما يطلق عليه (النصوص المرجعية) كونها شبيهة الخطاب العلمى أو التاريخى فى كونها تخبر عن واقع معيش خارج النص ويمكن التحقق من صحته، بالرجوع إلى مصادر أخرى من وثائق وشهادات واعترافات. وبذلك ينشطر الميثاق سالف الذكر شطرين متماهين: شطر مرجعى، وآخر سير ذاتى. كما أنّ قراءة نص "من يوميات مدّسة حرّ" للأديبة زهور ونيسى تضعنا أمام إشكال: التمييز بين ملفوظات من قبيل: يوميات Journal المستلهم بشكل مباشر من عتبة العنوان ومذكرات Memoires. وثمة خلط لدى القراء بصفة عامة، وحتى المتخصصين بين هذين الضربين المتقاربين من الكتابة، والمتماهين لفن السيرة الذاتية، لكن الاختلاف بينهما يظلّ قائماً. فاليوميات بمثابة سجل للتجربة اليومية، يكتبها صاحبها بوتيرة مستمرة يوماً بعد يوم. وتتلاحق أحداثها بسرعة متزايدة وترتيب متسلسل. مثل: يوميات الأديب المصرى يوسف السباعى 1959 م. فى حين تعدّ المذكرات سرداً كتابياً لأحداث عايشها الكاتب، وشهادات تاريخية يرويها بشكل ذاتى. وذلك بخلاف المؤرخ الذى يتعامل معها بشكل موضوعى محايد. مثل مذكرات الأديب المصرى محمد حسين هيكى 2010 م.

سادسا: تحليل النتائج

لكن قارئ نص زهور ونيسي "من يوميات مدرّسة حرّة" يصطدم بنوعين من الميثاق القرائي:
الأول: السير ذاتي، ويتجلّى بين طيات النص في ذلك التطابق بين المؤلّف والسارد والبطل. وهو التوافق ذاته الذي أعلن عنه نص "من يوميات مدرّسة حرّة" بين كاتبته وساردته وبطلته. وهو توافق قوامه وظيفة التعليم، والنضال ضدّ المستعمر الفرنسي، والانتماء السياسي إلى حزب جبهة التحرير الوطني، دون نسيان مجمل الترتيب السردى لتسلسل الأحداث.

الثاني: المرجعي الذي يحيل إلى واقع خارج النص متمثّل في حوادث تاريخية بعينها من قبيل زمن الاستعمار الفرنسي، وثورة التحرير الجزائرية، وإضراب الثمانية أيام جانفي 1957 م، ومظاهرات 11 ديسمبر 1960 م، وغيرها، يمكن التحقّق من صحتها بالرجوع إلى المصادر التاريخية الأخرى. ولعلّ هذا الصنيع من أدبيتنا دليل قاطع على حرصها على إضفاء سيرتها نورا من المصادقية، فوائها للعقد المعنوي المبرّم بينها وبين قرائها. وقد استهلّت الكاتبة نصّها بثلاث لزوميات، من شأنها أن تكشف لنا الجوانب الذاتية لفصول هذا النص، إذ تستعرض الكاتبة مراحل من حياتها في قالب سردي. وقد استندت على ميثاق باد للعيان، بإمكانه الكشف عن جنس نصّها السير ذاتي. وقد أشارت بصريح العبارة أنّ إنتاجها بمثابة المذكرات الشخصية، وإن كان عنوانه يشي باليوميات، قائلة: "ثمة منطلقات وحقائق ثلاث يقوم عليها جوانبنا على سبب هذه المذكرات.."
(زهور ونيسي، 1979، ص 11).

إضافة إلى توقّفها عند أحداث تاريخية بعينها لتنتشلها من صرامة التوثيق المنهجي، وموضوعية الشهادات الحية الخاصّة بشخصيات واقعية، ووقائع تاريخية، ومواقف إنسانية، مثل: تصوير زمن الاستعمار الفرنسي، وثورة التحرير الجزائرية، وإضراب الثمانية أيام جانفي 1957 م، ومظاهرات 11 ديسمبر 1960 م، وغيرها من الأحداث المتعاقبة. إذ تقول: "هذه المذكرات حوار متصل مع النفس، طال مسافة زمنية ليست قصيرة، عصفت بي وبالمحيط الذي أتفعل داخله أحداث على جميع المستويات والمواقع.. فأول كلمة قيلت في هذا الحوار كانت مع بداية الاستقلال، حتّى لا تجرفها عجلة النسيان ودوامة الأيام" (زهور ونيسي، 1979، ص 11).

وينبغي على القارئ أن يتأقلم مع الميثاق السير ذاتي بما يتضمّنه من تطابق مرن بين المؤلّف والسارد والبطل، فحسب الكاتب أن يعترف بشكل ما أنّه يحكي حكايا حياته، ليهتدي قراؤه إلى أنّ السارد هو الشخصية الرئيسة، وهما ذاتهما الكاتب الذي يضع سيرته بين يدي قارئه. ولعلّ ما يرجح كفة الهوية السير ذاتية لنص "من يوميات مدرّسة حرّة" استعمال الكاتبة لضمير المتكلّم المفرد "أنا" الذي يحيل إلى جمالية السرد السير ذاتي. كما في قول الكاتبة: "ابتسمت وأنا أردّ التحية" (زهور ونيسي، 1979، ص 22). وقولها أيضا:

"-ما لي أنا وما للتفتيش؟

-كلا أنا استخلف المدرّسة فقط..." (زهور ونيسي، 1979، ص 23)

وبالرغم من ذلك، فالمؤلفة تصرّخ: "قلّمت هذا النص بصيغة الرواية، وقد أكون لم استند على الحبكة والبطل والعقدة والموضوع، أنني تمسكت بمقومات الفن الروائي، ولم أمسه بسوء، وتمسكت بمبادئ الرواية وبالشكل الروائي" (زهور ونيسي، 1979، ص 19) ولعلّ هذا التصريح يندرج ضمن اتجاهات حديثة وحثيثة نحو كسر الحواجز بين الأجناس الأدبية، والخروج بتقاطع أدبي لا مفترق فيه يدعى: رواية السيرة الذاتية، أو السيرة الذاتية الروائية.

واختارت زهور ونيسي لنصها عنواناً موحياً، وهو "من يوميات مدرّسة حرة"، وقد يكون الواقع شاهداً على أنّ الكاتبة امتهنت فعلاً مهنة التعليم في مدرسة جزائرية حرة من المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فهو يعبر عن شخصية الكاتبة وصمودها أمام ما عايشته من هوم واهتمامات قبل استقلال الجزائر. أما عناوين الفصول، فنحسبها تجيب عن العديد من الإشكالات المتعلقة بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه هذا العمل الأدبي؛ إذ نجد عناوين من قبيل "مدرّسة رغم أنفك/ سقف المسجد/ أعراس الدم/ عندما يذوب الأفراد في المجموعة/ ونجح الإضراب/ الفجر العنيد/ زغرودة الملايين). وقد تسيّدت مشاهد حوارية ومقاطع سردية من النص؛ مؤكدة عناصر فنية كالانتقاء والترتيب والتشويق.. وهي سمات مميزة للسرد السير ذاتي. فالنص في مجمله محاولة لتقديم بضعة تجارب حياتية ومنتخبات من خبرات ذاتية عاصرتها أدبنا زهور ونيسي، وسعت إلى مقاسمتها مع جمهور قرائها بعد ما حفرت في تجاعيد الذاكرة، وسبرت أغوار الماضي.

ونجد أيضاً نصاً موازياً للنص الأصلي لأدبنا يتمثّل في الكلمة التقديمية التقييمية التي دبّجها وزير خارجية الجزائر الأسبق الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، وهي ذات هدف توضيحي لنوع هذا العمل الأدبي على كونه مقاطع من سيرة الكاتبة الذاتية تراوح فيها بين أحداث من أعماق الثورة التحريرية المظفرة، وبين تجاربها الخاصّة وهوم الحياة واهتماماتها. وممّا جاء فيها: "هو كتاب معلّمة في إحدى المدارس الحرة التي قاومتها الإدارة الاستعمارية على الدوام، وهذا يعني أنّ هذه الشهادة آتية من معلّمة كانت متفانية في تعليم تلاميذها اللغة الوطنية، والإيمان بالدين الحنيف، وحبّ الوطن" (زهور ونيسي، 1979، ص 8) تعدّ هذه الكلمة التقديمية عتبة من العتبات النصية المحيطة بالنص المركزي، التي تسهم في فهم النص وتحليل بناءه، كما تجعل الجمهور المتلقي يقبض على الخيوط الأولية والمعالم الأساسية للعمل الأدبي، فتفضي به إلى التعرّف على محيط النص، وإدراك مقاصد كاتبه، وخطط تلقينه من قبل جمهور القراء.

ينفتح نص زهور ونيسي على قراءات متعدّدة، كثيراً ما تستدعي متعة ذاتية ووعي غيري. فالكاتبة بوصفها معلّمة في الواقع السير ذاتي، وفي المخيال الروائي على حدّ سواء، تسعى إلى الذود عن حرمة المدرسة التي يتربّص بها الاستدمار وأذنابه الدوائر من أجل غلقها. إذ تصرّخ: "لا يدري أبداً ما معنى غلق مدرسة بالنسبة لي... إنّّه موت على جميع المستويات..". (زهور ونيسي، 1979، ص 66). وهي صرخة تحمل نوعاً من التحدي الإنساني لا الأثوي. تحدي الإنسان الذي ينحت في الصخر الأصم، ويتشبّث ببصيص الأمل. وهي ذي البطلة تستعيد جرأتها قائلة: "فتشت عن نافذة زجاجها مكسور وأمرت الطالبات بالدخول... من

النافذة المكسورة واحدة واحدة" (زهور ونيسي، 1979، ص 67) لقد حققت جانبا من حلمها في زمن الاستبداد المغلف بمساحيق إنسانية. "كنت أشاهد حلمي الذهبي، مدينة من زجاج معبّ ق بالعطور، سكانها لا يعرفون غير الابتسام ولا يشعرون بغير السعادة" (زهور ونيسي، 1979، ص 71) وهو حلم مشروع من حقها، ما دامت تمتلك حسا إبداعيا سرديا، فقللم المرأة يبقى أصدق تعبيرا عن قضايا بنات جنسها، والأدبية تستحضر في مقطع سردي آخر صورة والدتها المقهورة، قائلة: "شعرت أنّ وجه أُمّي يكاد ينفجر غيظا، لم تكن ذليلة، ولكنها حكيمة، تترك الأيام وحدها تنتصر لها..." (زهور ونيسي، 1979، ص 77) ثمّة حل وحيد تقترحه الأدبية لمشاكل الإنسانية جمعا، إنه الحبّ. "حبّ لا يمكن تجسيده ولا إثبات محسوسيته، حبّ كبير عام وشامل جدا. يشمل السماء والأرض والناس وحتى الحيوانات. يشمل الماضي والحاضر والمستقبل..." (زهور ونيسي، 1979، ص 113) لعلّه حبّ الوطن "ها هو ذا علم الجزائر يرتفع بين يديه، وحمرة الهلال تبدو كأنّها جمرة لهب، مِرّ زها قلبي قبل عينيّ الدامعتين من الفرحة" (زهور ونيسي، 1979، ص 130)، هي الفرحة بالحرية التي تشكّل قيمة الكتابة النسوية من منظور زهور ونيسي، فهي تعيش لحظات الكتابة بوحا ومسؤولية في الآن ذاته، تماما كما تحي الحياة، ولسان حالها يردّد: "لقد أصبحت الساعات التي أكتب فيها هي أسعد الساعات، فعندما تمضي أيام ولا أنجز فيها مشروعا أدبيا، أكون كمن أضاع من عمره جزءا هاما ومعتبرا... وهكذا اقتطع من عمره، ليوصله وبسرعة إلى الموت. لقد كانت وما زالت الكتابة بالنسبة لي حياة" (زهور ونيسي، 1979، ص. ص. 478. 479).

الخاتمة:

- وختاما واستنادا إلى ما سبق نستخلص نقاطا مهمة نوجزها فيما يأتي:
- لم يحتف النقد الجزائري كثيرا بالتخييل السير ذاتي بصفة عامّة، ولم يحفل بالسيرة الذاتية النسوية على وجه الخصوص. وذلك بالرغم من وجود شذرات منها في أعمال سردية كثيرة من قبيل: "من يوميات مدرسة حرّة" و"عبر الأشواق والزهور" لزهور ونيسي، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، و"مزاج مراهقة" لفضيلة الفاروق، و"سيرة شغف" لربيعة جلطي.
 - تظهرت ملامح التخييل السير ذاتي بجلاء في نص "من يوميات مدرّسة حرّة" من تصوير الوقائع الحقيقية للمجتمع الجزائري إبان ثورة التحرير، ونضال الشعب بمختلف فئاته رجالا ونساء، شبانا وشبابا.
 - استعراض الأدبية زهور ونيسي تجاربها الذاتية هو بمثابة تأكيد لكفاءة المرأة وحرّيتها داخل النسيج الاجتماعي الجزائري، وانتفاضة الأعراف التي ظلّت سائدة ردحا من الزمن.
 - السرد السير ذاتي لدى امرأة مثقفة بمكانة زهور ونيسي، بقدر ما هو متنفس إبداعى لها ولبنات جنسها، فهو مشروع قائم بذاته، ومسيرة ثابتة بقيمتها.
- المصادر والمراجع:

- (1) أحمد، دوغان، الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر، مجلة آمال، الجزائر، 1982.
- (2) جورج، طرابيشي، أنثى نوال السعداوي وأسطورة التمرد، دراسات عربية، ع 2، م 12، كانون الأول، 1975.
- (3) جورج، ماي، السيرة الذاتية، ترجمة عبد الله صولة ومحمد القاضي، بيت الحكمة، 1992.
- (4) حسام، الخطيب، أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية في النقد الأدبي العربي الحديث "تأليف مشترك". جمع وتقديم عبد النبي اصطيف، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1991.
- (5) سلطان سعد القحطاني، الالتماس الفني بين الرواية والسيرة الذاتية، مجلة علامات، العدد 55، 2008.
- (6) شيرين أبو النجا، نسائي أم نسوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2009.
- (7) صبري حافظ، السير الذاتية والشهادات، مجلة ألف، العدد 22، 2002.
- (8) زهور ونيسي، على الشاطئ الآخر، ش و ن ت، الجزائر، 1974.
- (9) زهور ونيسي، من يوميات مدرسة حرة، ش و ن ت، الجزائر، 1979.
- (10) عبد الله إبراهيم، السرد النسوي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2011.
- (11) فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
- (12) محمد عبد الغني حسين، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة.

النسق الاستعاري؛ آليات الاشتغال وجماليات الحضور في رواية (الأسود يليق بك)
لأحلام مستغانمي.

**The metaphor Format ; The Working Mechanisms And
The Aesthetic Of Being Present In The « Black suits you »
Of Ahlam mosteghanemi.**

نادية سلطان

جامعة باتنة1- الحاج لخضر، الجزائر.

Soltane Nadia

soltanenadia05@gmail.com

الملخص:

تعد اللغة وعاء الفكر والمادة الأساسية التي يُبنى عليها الخطاب الروائي؛ وهي متطورة حسب تطور المنجز الروائي، لذلك انزاحت الرواية الحديثة عن اللغة النمطية المعهودة إلى لغة شعرية ذات تأثير بلاغي، فالرواية استعارة تمثيلية كبرى حسب حميد الحمداي؛ متصلة لغتها بالأسلوبية وأسس الجمالية، حيث قامت الاستعارة على أنقاض الإستيطيقية التي تقوم باستبدال اللغة الجامدة الميتة باللغة الحية، وتجاوز القراءة أحادية الرؤية الدلالية إلى قراءة ذات هيرمينوطيقات متعددة تسهم في إشباع القارئ جماليا.

وعليه تسعى هذه المداخل المعنونة بـ (النسق الاستعاري؛ آليات الاشتغال وجماليات الحضور في رواية "الأسود يليق بك" لأحلام مستغانمي) إلى الإجابة عن الإشكالات الآتية:

— كيف يتفاعل النسق الاستعاري مع التشكيل الروائي؟، وكيف تبلورت الاستعارة في الخطاب البلاغي السردية؟، ثم ما الأبعاد الجمالية لحضور الاستعارة في المتن الروائي؟، وما مدى استدعاء النسق الاستعاري في رواية (الأسود يليق بك) لأحلام مستغانمي؟.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الاستعارة، البلاغة، الجمالية.

Abstract:

Language is the vessel of thought and the basic material on which the novel is based, this is what made her move away from the classical language to a new poetic language the novel is a major metaphor, as Hamid Al- Hamdani said and its language is related to stylistic and aesthetic thus the paper entitled (the metaphor format ; the working mechanisms and the aesthetic of being present in the « Black suits you » of Ahlam mosteghanemi ; seek to answer the following question :

— How does the metaphor interact with the novel?.

_ What are the aesthetic dimensions of the presence of the metaphor in the fictional text?.

_ How was the metaphor manifested in the novel « Black suits you » of ahlam mosteghanemi?.

Key words : The novel, Metaphor, Rhetoric, Aesthetic.

مقدمة:

تعد الاستعارة ركنا بيانيا حاضرا بوفرة في النصوص الشعرية القديمة منها والحداثوية، وعصب البلاغة منذ القدم، بل و(كانت قبل كل شيء - ومنذ أبد طويل - موضوع تفكير فلسفي ولغوي وجمالي) (إيكو، 2005، صفحة 233)، ولتتبلور مرت بمرحلتين؛ قديمة وحديثة.

أولا: ماهية الاستعارة:

أ/ الاستعارة في البلاغة التقليدية:

يعد البلاغيون في الثقافة الكلاسيكية الاستعارة تشبيها بليغا حذف أحد طرفيه، (فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه، ولذلك عدّ أصلا، وعُلت الاستعارة فرعا له) (طبانة، 1981، صفحة 162)، أما التشبيه في هذه المسألة البلاغية فهو (قياس، والقياس يجري فيما تعبه القلوب، وتدركه العقول. وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والأذان) (الجرجاني، دت، صفحة 20)، كما أنّها (تمثّل ... بالنسبة لعدد كبير من الناس أمرا مرتبطا بالخيال الشعري والزخرف البلاغي. إنّها تتعلق، في نظرهم، بالاستعمالات اللغوية غير العادية وليس بالاستعمالات العادية) (توين، 2009، صفحة 21)، والمعروف عنّها أنّها تتواجد بصيغتين وتفرز نوعين نمطيّين هما: (الاستعارة المكنية والاستعارة التصريحية)؛ (فالمصرحة: ما صرح فيها بلفظ المشبه به نحو:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعصّت على العناب بالبرد

... والمكنية: ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه كقوله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كلّ نائمة لا تنفع) (السراج، 1983، صفحة 174).

ب/ الاستعارة في البلاغة الجديدة:

تعرضت الاستعارة في البلاغة القديمة (لأول مرة في تاريخ البلاغة لنقد عميق من أحد علماء البلاغة في العصور الحديثة وهو إيبور آرمسترونغ ريشارد، في كتابه الهام فلسفة البلاغة، والحقيقة هي أن هذا النقد قد فتح الباب على مصراعيه أمام أغلب المنظرين وفي مجالات علمية مختلفة لكي يعيدوا صياغة تصورات جديدة للاستعارة) (ريكور، 2016، صفحة 13) فأزاحوها عن الشعر وأدخلوها عالم السرد الروائي، هناك حيث كسرت الاستعارة ما راج من أفكار إثر الطرح الكلاسيكي الذي جعلها حبيسة الشعر فقط، فالاستعارة تتبدى في كل المجالات لتتولى بذلك البلاغة الحية تخطئة طرح أغلب الناس في (أنه بالإمكان

الاستغناء عن الاستعارة دون جهد كبير. وعلى العكس من ذلك، فقد انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية. إنها ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا. إن التصور العادي الذي يسيّر تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس (ريكور، **الاستعارة الحية، صفحة 21**)، إنها؛ أي الاستعارة لا تختص بها اللغة فقط بل تمس معظم جوانب الحياة ككل، إنها جزء ساهم في تكوينه المجتمع ككل، لكن يبقى دائما منطلقها ومنتهاها اللغة، فاللغة من شأنها التعبير عن الحياة واستنطاقها، كما تعمل على تصوير زوايا الواقع المعيش.

هذا كتعريف فقط ولا يسعنا الخوض في تقسيمات الاستعارة إلى مكنية وتصريحية لأنها تتوافق والطرح الكلاسيكي النمطي، والذي نقصده هنا هو الاستعارة الروائية التي تتحقق من خلال ثنائيتين تتجسّدان في:

أ/ الاستعارة اللغوية:

تؤخذ الأعمال الروائية بلغتها الاستيعابية؛ تلك التي يقف الكاتب/ المبدع عند حدودها؛ إذ اللغة وعاء الفكر والأداة العاملة على جذب القاريء أو تفكيره، و(الإنسان القادر على التعبير باللغة مزود بملكتين ضروريتين: ملكة الاختيار والتعويض، وملكة التركيب والربط. وإذا أصيبت إحدى الملكتان بخلل، أدى ذلك إلى اختلال إحدى وظيفتي اللغة، وهكذا فاختلال ملكة الاختيار والتعويض يؤدي إلى عدم القدرة على خلق العلاقات الاستعارية) (لحمداني، **1989، صفحة 55**).

إن الرواية قبل أن تكون نسيجا فكريا هي نسيج لغوي بالدرجة الأولى، وهذه اللغة تتكّىء على البلاغة؛ فالرواية استعارة كبرى كما قيل، والمتعارف عليه أن للاستعارة خصائص جعلت الروائيين يستعينون بها في نسج أعمالهم الروائية، فهل الرواية عملية فكرية أم صنعة لفظية؟.

اللغة الاستعارية لـ "أحلام مستغانمي" وليدة تكوينها الشعري؛ ذلك أنها ابتدأت مشوارا وزنيا قبل مسيرة (الأسود يليق بك) من خلال ديوان (عليك اللفظة) أين بلغت قمة النضج البياني، فأحلام سبق وأن اكتسبت لغة مرنة تستطيع بها جعل النص السردي طافحا بالشعرية ومفعما بالإستيعابية، إنه إبداع مزدوج التركيب؛ يتفاعل فيه الشعر والسرد في تركيبة استعارية ذات أبعاد دلالية أعمق وأكثر جمالية.

ـ استعارة العنوان:

يقف أي دارس عند عتبة العنوان لأنه (أول لقاء مادي (فيزيقي) محسوس بين القاريء والكاتب/ أو للقاريء بالكاتب، فكان العنوان يعترض ويظهر ويبرز أمام القارئ معلنا عن نفسه) (قطوس، **2001، صفحة 31**)، ودراسة عنوان أيّة رواية ما يسفر عن دلالات استعارية كونه قالباً استعارياً تصويرياً يقلّم صورة معيّنة ويعمل على معالجة قضية ما؛ ف (الأسود يليق بك) عنوان يحمل بعدا طاعنا في الاستعارة الأنطولوجيّة، يقدم صورة المرأة التي لبست حدادا بسعة جرح الوطن وفقدته، لتتوالى بعد العنوان ظهور الصور الاستعارية في المتن الروائي مع تسلسل الأحداث، إنها استعارات تنطلق من اللغة لتخدم الفكر،

استعارات تبدأ لغةً لتنتهي فكراً، بعد أن تراجعت الاستعارات القديمة التي لا تتعدى حدود النطق الألسني والبعد القائم قوامه على البنى اللغوية، فالاستعارة لم تعد مادة لغوية خاما تعمل على بثّ روح الجمالية في النصوص؛ بقدر ما غدت آلة فكرية وعملية تصويرية للوجود متجاوزة جدلية اللفظ والمعنى ومستقرة على أنها من سبل التفكير ودراسة الحياة الاجتماعية، والاستعارة (لا ترتبط باللغة أو بالألفاظ، بل على عكس ذلك، فسيرورات الفكر البشري هي التي تعد استعارية في جزء كبير منها، وهذا ما نعينه حين نقول إن النسق التصوري البشري مبنين ومحدد استعاريا. فالاستعارات في اللغة ليست ممكنة إلا لأن هناك استعارات في النسق التصوري لكل منا) (توين، الاستعارات التي نحيا بها، صفحة 23)، وأما استعارة اللون في العنوان (الأسود) فهي استعارة تدخل ضمن دائرة الاستعارة التصويرية؛ ففي الألوان دلالات وأبعاد سيميولوجية تنعكس أبعادها على المتن وتمتد ظلها إلى مجريات المنجز، أما زهر التوليب الذي يغطيّ الواجهة فلا يزيل الدلالة إلا سوداوية ومواتا، أوليست توضع على القبور باقات الزهور؟!.



— الاستعارة في المتن الروائي:

تساوي الاستعارة الروائية في معنى من معانيها الشعرية أو الأدبية، (ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثرا فنيا) (جاكسون، 1988، صفحة 24)، فالاستعارة وهي تعمل عمل الشعرية تمنح التفرد والأدبية

للنص الروائي؛ والأدبية (تكاد تترادف الاستعارة الحيّة) (شبايك، 2005، صفحة 5) كما جاء في أسود أحلام:

__ (كما يأكل القط صغاره، وتأكل الثورة أبناءها، يأكل الحبّ عشاقه، يلتهمهم وهم جالسون إلى مائدته العامرة، فما أَوْلَمَ لهم إلا ليفترسهم) (مستغامي، 2012، صفحة 11).

فالمشبه به هنا استمدّ من الواقع؛ أو لنقل هو الواقع عينه، إنه نص طافح بالشعرية الجاكبسونية، قام قوامه في بدئه على التشبيه، وهي؛ أي الاستعارة (تبنى عليه كما يبنى البيت على أسسه ويقوم على عمدته، فإننا نعني أن المراد منه التشبيه الذي يضمه المستعير في نفسه، وهو بخلاف التشبيه الاصطلاحي الذي يكون بطرفين ومشبه ومشبه به، وأداة، ووجه) (السيد، 1979، صفحة 20)، حيث لا تأخذ الاستعارة من التشبيه أركانها، بل تماثله في مضمراته، فنها تحيد باللغة عن التقريرية المعجمية الجامدة، أو بتسميتها الدقيقة "درجة الصفر"، تحمل التشبيه معنى وروحا لا مبنى وأركانا، والحق أن الاستعارة لا تطارد التشبيه بل تشكّله وتعمل على خلقه وإظهاره، ومن هنا (تظهر قوّتها في العثور على التشابه بين الأشياء المتنافرة حيث لا يوجد بشكل بديهي ومنذ الوهلة الأولى ولذلك تعمل على اختراعه وصنعه وتزيد على ذلك بالاستغلال على الاختلاف والتباين والمختلف وتعيد تشكيل عالم الحياة المشتركة وتظهر قدرتها في إنتاج معنى طازج لهذا العالم غير المؤلف) (الخويلدي، 2020).

تقول "أحلام مستغامي" في موضع ثان:

__ (كان عليه إكّنا، يحبّها أقلّ، لكنه يحلو له أن ينازل الحب ويهزمه إغداقاً. هولا يعرف للحب مذهباً خارج التطرف، رافعا سقف قصّته إلى حدود الأساطير. وحينها يضحك الحب منه كثيراً، ويرديه قتيلاً، مضجراً بأوهامه) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 12)، فهل الحب ينازل؟، يضحك؟، يقتل؟، إنها لغة استعارية وظفتها الروائية لتبلغ بها منتهى الشاعرية وعنان الفنّية.

ولأنّ الاستعارة الروائية تتنوع بتنوع الأساليب التعبيرية، فإنّها في رواية (الأسود يليق بك) متنوعة ومتعددة منها ما تسمى بتراسل الحواس وهي وصف حاملة بصفات حاسة أخرى كما جاء في قول الروائية:

(" لكل طائر لون صيحته" ارتدت لون العصيان) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 328)، فاللون يدرك بالعين "الرؤية" لكن الروائية قرنته بالصيحة "الصوت" لتتخطى بذلك المعقول في علم الكلم؛ وتكسر تلك اللغة التعبيرية النمطية إلى لغة تصويريّة خالقة؛ حيث إنّها تخلق من دمج المتناقضات ومزج الحواس مشهداً استعارياً يستفز القارئ للنموذجي ويجعله يبحث في تلك الدوائر الاستشكالية عن معاني الإبداع ومكامن الشعرية.

كما اتّكأ الكون الروائي كذلك على خاصيّة التشخيص كلون استعاري حاضر بوفرة مع تسلسل الحكمة السردية، والتشخيص (أننا نسند خصائص بشرية إلى أشياء غير بشرية كالنظريات والأمراض والتضخم... إلخ) (جونسون، صفحة 54)، وهو ما توضّحه الأمثلة الآتية:

(بقلب تكسرت أجنحته) (مساغامي، صفحة 302) ، حيث إن المقصود بالاستعارة أن القلب أصابه حزن عميق؛ فرأى أن يصفه بالانكسار رغم أن الانكسار لا يصيب الأحاسيس والمشاعر لأنها معنوية بل يصيب الأشياء المادية القابلة للتهشم.

والتشخيص أحد ضروب الاستعارات الأنطولوجية كما سمّاها كل من "لايكوف وجونسون" في كتابهما (الاستعارات التي نحيا بها)؛ والاستعارة الأنطولوجية أو "استعارة الوعاء" تتجسد في المنجز التخيلي من خلال الحياة الفنية للبطل "هالة الوافي" فالغناء وعاء كما الحياة، والمسرح وطقوس ممارسة الفن وتقديم الموهبة للجمهور وعاء أيضاً، فالرواية هنا مؤتنة بالاستعارات الأنطولوجية التي لا يخلو منها أي عمل تخيلي فني.

وبهذا الطرح يتبدى أن الاستعارة اللغوية (تقوم... على الجمع بين طرفين يبدو أنهما مختلفان كلياً كالوردة والمرأة، إلا أنها تؤلف بينهما بإيجاد وجه شبه يجمعها هو الجمال) (عافية، 2017، صفحة 24) ، فوجه الشبه هنا تعلّى وجه الشبه الكلاسيكي لتتنامي بذلك الصور الاستعارية (مسهمة بذلك في تنامي البنية النصية والدلالية على نحو رمزي) (عافية، أسرار النص، صفحة 26) أعمق وأكثر تأثيراً، إنها إذاً؛ أي الاستعارة وليدة ذلك التوليف بين الدوال ومدلولاتها في تركيبة تسفر عن وجه شبه قوامه التناقض بين المشبه والمشبه به، قوامه المباشرة والضدية.

إلا أنها تعلّت حدود الأوزان إلى السرد؛ وعلى وجه التحديد جنس "الرواية"؛ وهي حمالة الأوجه، فرى الاستعارة هنا تأخذ بعداً مناوئاً لما هو متعارف عليه في عرف الاستعارة في النصوص الشعرية، استعارة جديدة من شأنها مساقاة العصر وكل ما يمكن مساقته من حداثة ومستجدات، فإن كانت الاستعارة القديمة تخص الشعر وهو ديوان العرب، فإن الاستعارة الحديثة تخص الرواية وهي التي علّماها النقاد والدارسون "ديوان العرب المحدثين"، وعليه فالاستعارة في مجملها - وحسب ما جاء به كل من لايكوف وجونسون في كتابهما (الاستعارات التي نحيا بها) فهي استعارة تصوّية (يمكن أن تفسّر بشكل جيد عن طريق افتراض ترابطات تصويرية بين مجال تصويري وآخر) (جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، الصفحات 12-13) ، وهي تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

1/ الاستعارة البنوية: (Structural Metaphor).

2/ الاستعارة الاتجاهية: (Orientational Metaphor) .

3/ الاستعارة الأنطولوجية: (Otolological Metaphor) .

وهي استعارات تتمايز عن الاستعارات ذات التوظيف النمطي الذي لا ينأى في معانيه عن دلالة أحادية تنبئ في وجه الشبه القائم على المشابهة بين الطرفين؛ الدال والمدلول، وما ذكر في كتاب (الاستعارات التي نحيا بها) أن الاستعارات آنفة الذكر (عبارة عن "حقائق" مثبتة في نسقنا التصوري، تجعلنا ندرك العالم من حولنا ونمارس فيه تجاربنا بشكل استعاري. إننا نجعل الناس في مقام مستقل ونجعل أنفسنا في مقام

عال إذا كنا نراقبهم أو نتحكم فيهم (وهذه استعارة اتجاهية توظف البعد الفضائي - فوق - تحت)، وبنينا نوعا من الوجود المادي للتضخم مثلا، فيكون عدوا نحاربه أو نتضايق منه (وهذه استعارة أنطولوجية) كما نعامل الزمن كما لو كان مالا حقا، فنضيقه أو نستثمره أو نبذره (وهذا استعارة بنيوية) إذ نسحب بنية الزمن على المال فتحدث عن الأول بالفاظ الثاني) (جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، صفحة 12)، وهي ظواهر تتعلق باللغة إلا أنها ليست اللغة في ذاتها، وهي في هذه الحالة (تكون مظهرا ثقافيا عاما تتأثر به اللغة كما تتأثر به سائر المظاهر الأخرى مثل السلوكات والأنشطة التي نباشرها) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 300)، إنها وبطبيعة الحال أنواع استعارية تتكبد على اللغة كمنطلق أول لها إلا أنها تتجاوزها وتستقل بمعانيها.

تقول "أحلام مستغان"

— (ولا بأس أن تكون حاربت بأثوثة كل النساء، لتكسب معاركها بفحولة كل الرجال) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 300).

فلنكتب الأنتى أنوثتها عليها أن تحارب تفكير الذكر؛ أو الرجل الشرقي بتعبير الروائية عينها؛ وهذه الحرب بينهما هي ما تسمى بالاستعارة البنيوية. أما عن الاستعارة الأنطولوجية فتقول الروائية:

— (إيه والله... الرقم من مصادر طبية. ما الذي يخرج المرء عن صوابه غير أن يرى لصوفاً فوق المحاسبة) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 27).

— (الخطر في أن تتوحد لغة العواطف، ويسير العشاق خلف الألوية الحمراء للحب) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 23).

— (كيف أن طيوراً صادقها في الأرض، غدت عدوتها يوم بلغ السماء؟).
أكلما صعدنا ازدادنا خوفاً؟ أم أن وجودنا في الأعالي يجعلنا نتوجس الشر حتى من أصغر الكائنات؟ أم ترانا نكون الأكثر هشاشة، عند بلوغنا قوتنا الأقصى، ما لم بإمكان طائر صغير أن يسقط طائراً
تكنولوجيا في ضخامة طائرة) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 225).

فبين الأرض والسماء؛ الصعود والنزول؛ بلوغ العلو والإسقاط تتبلى الاستعارة الاتجاهية جلية، وهي التي تتحدد بصيغ (فوق، تحت، أمام، خلف...).

إنها صور استعارية حيّة وأنواع تتمايز عن القديمة الميتة منها؛ تلك التي دأبت الاشتغال على اللغة والمفردات والتراكيب، وهذه الصور الاستعارية الجديدة لها علاقة مع الواقع الاجتماعي والحياة التي يمارسها الفرد، وهو ما يعكسه عنوان (الاستعارات التي نحيا بها)؛ بمعنى ارتباطها بالجانب المعيشي البعيد كل البعد عن المقاصد المعجمية المحدودة.

ليس هذا وحسب بل هناك من يذهب إلى إطلاق اسم "الاستعارة غير اللغوية" على غير الإضراب الاستعارية المذكورة (البنوية، الاتجاهية، والأنطولوجية)، وهو ما يتبدى جليا في:

ب/ الاستعارة غير اللغوية:

تتعدى حدود اللغة إلى الميتالغة، تتجاوز خطاطة التواصل الجاكبسونية إلى حيث تغدو (الشخصيات، الأحداث، الزمكان، والأشياء) محط دراسة، تتعدها إلى الأبعاد الرمزية والدلالية التي لا تتيحها اللغة كمادة ألسنيّة يبنى عليها الخطاب الروائي.

كما استندت لغة الرواية على الرمز كونه نتيجة لاتساع الاستعارة بل وجزء متفّقى عنها، أما الاستعارة غير اللغوية في الرواية فتبني على عديد من اللبّات والمرتكرات تتباين وتختلف من منجز روائي إلى آخر. وفي رواية (الأسود يليق بك) تتمثل لا لغوية الاستعارة في المرتكرات التي تتولى تبسيطها الأمثلة الموالية والشروحات المرفقة.

إنّ أول ما يطالع الدارسين في مجال الاستعارة غير اللغوية في الأعمال السردية الروائية هو محور الشخصية، فالشخصية من الأساسات السردية واللبّات البؤريّة التي لا يخلو أي عمل روائي منها، وتعد (مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة. ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في الرواية منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق الروائي أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما) (هلال، 1997، صفحة 526)، والشخصية من النقاط المركزية التي تتمحور فيها الاستعارة، ومن خلالها يستطيع القارئ النموذجي الوصول إلى استعارات بعيدة عن تلك النمطية التي ألفها في الخطاب الكلاسيكي، بمقتضاها يتمكن من بلوغ استعارات جديدة؛ حداثة تتوافق والقالب الخطابي المعاصر، والاستعارة تتجسّد في تلك الشخصيات المستمدة من الواقع؛ فوالد بطل الرواية (هالة الوافي) استشهد إبان الفترة الكولونيالية، وهي شخصية تمثل كل أولئك الذين استشهدوا في الثورة التحريرية الجزائرية، (تمثيل شخصية الشهيد وحضوره وبصمته البارزة في القضية الوطنية)، إنها شخصية استعارية من حيث أنها مستعارة من المجتمع الجزائري مجتثّة من واقعه معبرة عنه ضمن إطار التشبيه الضمني المضمّر لا التشبيه النمطي الكلاسيكي القائم على الأركان المتعارف عليها، وبذلك يكون الواقع المعيش في الرواية استعارة كبرى قامت عليها؛ إضافة إلى الاستناد على العوالم التخيلية، فالواقع هو المادة الخام التي يعتمد عليها الروائي ثم يقوم بتحويلها لتصلح أن تكون عملا إبداعيا بعد أن يزاوجه بالخيال وفلسفة أعذب القول أكذبه، والرواية استعارة تمثيلية لأنها تقوم على معادلة الواقع، بحيث يكون الواقع هو المنطلق في حين تكون الرواية نتاجا موازيا للعالم الحقيقي؛ تتمثّله، تحاكيه... إنها إعادة تحويل لمجريات الحياة الواقعية مع إضفاء ما أمكن من الخيالات لتشكيل عالم ناضج من صنع الكاتب، و(الاستعارة التمثيلية، أكثر دلالة على خصوصيّة الحكّي، وأن الاستعارات القائمة على مستوى

العبرة، ليست هي المقصودة هنا، بل تلك التي تقوم على اقتباس أساليب الآخرين والاستدلال على هذا الرأي والبرهنة على مصداقيتها) (حمداني، أسلوبية الرواية، الصفحات 8 - 9).

إضافة إلى استعارة الشخصيات فإن الروايات من شأنها توظيف الاستعارة واستجلائها من خلال أركان الرواية وركائز السرد والمتمثلة أساساً في (الأحداث، الزمكان، الأشياء)، فالأحداث ليست مشابهة للواقع حد التطابق، بل بينهما علاقة مشابهة ليس إلا، وكذلك الأمر مع كل من الزمان والمكان والأشياء.

أما آليات اشتغال التعابير الاستعارية وجماليات حضورها في العمل الروائي عموماً و (الأسود يليق بك) خصوصاً فتتمثل في:

— توليد المعاني العميقة والدلالات الأكثر عمقاً.

— الانزياح عن القوالب التعبيرية الجاهزة.

— إضفاء مسحة جمالية على محتوى العمل الروائي.

— رفع مستوى اللغة الروائية السردية من لغة الخطاب التقريرية العادية المتداولة إلى لغة عليا نادى بها قبلاً "جون كوهن".

— اتخاذ تسلسل أحداث العمل ككل استعارةً، والنظر للرواية كجنس قائم بذاته على أنها استعارة كبرى؛ وعدم الاكتفاء بتلك التعابير المبتوثة في تضاعيف الأسطر على أنها المشاهد الاستعارية كما شهدها الإبداع الكلاسيكي.

فالاستعارة هي تحويل الموجودات باللغة؛ تحويل من شأنه إعادة خلق لكل ما هو كائن، فأن تقول:

— فلانة حزينة، لغة تقريرية مباشرة لا حس استيطقي فيها.

لكن أن تقول:

— (حاولت أن تخفي عن الجميع دمارها الداخلي. كان يلزمها إعادة إعمار عاطفي، كأنها مدينة مَر بها هولاء، فأهلك كل ما كان قائماً فيها) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 306)، فهنا مكن الاستعارة التي تبعث على بثّ الجمالية والشعرية في النصوص.

وبدل أن تقول:

— (حرمها حريتها).

تقول:

— هي (مهرة ليس من حقها أن تصهل خارج حظيرته) (مستغامي، الأسود يليق بك، صفحة 308).

فعمل الاستعارة هو تحويل العادي إلى الجمالي، وشدّ انتباه القراء بتعابير تفوق اللغة العادية وتتجاوز المؤلف، إنها نوع من أنواع الانزياح الذي شأنه الانحراف عن اللغة العادية؛ لغة الصفر إلى اللغة العليا؛ لغة الإبداع والفرادة.

— منْحُ القارئ القدرة على إدراك العالم من جرائها، (فالاستعارات تلعب دورا يوازي، من حيث أهميته، ذلك الدور الذي تلعبه حواسنا في مباشرة إدراك العالم وممارسة تجربته) (جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، صفحة 12).

الخلاصة:

هكذا مُنحت الاستعارة وسيلة إدراكية وتقنية بلاغية استيطيقية يقوم عليها المنجز التخيلي الروائي، إنها لغة تعد نتاج جهود "جان كوهن" الذي سعى إلى تطوير البلاغة القديمة القائمة أركانها (على المعيارية، والفصل بين ثنائية الشكل والمضمون إلى الأسلوبية القائمة على الوصفية والعاملة على ربط قطبي الثنائية "الشكل والمضمون"، إذ تؤمن بالترابط الوثيق بين الدال والمدلول، لأنها تحول الحدث الإبلاغي إلى حدث تأثيري جمالي) (تاويريت، 2008، الصفحات 160 - 161)، إنها؛ أي الاستعارة إحدى أبعاد اللغة العليا؛ تلك التي تتجاوز اللغة التقريرية المباشرة، تلك اللغة الشعرية التي تنبني أساسا على الانزياح الذي يتعلّق النثر التقريري بمحمولة شاعريته، والعلاقة بين الاستعارة والشعرية تختصر في كون الاستعارة من أساسات وخاصيات الشعرية.

أما أهمية الصورة الاستعارية فتتجلّى في تلك القدرة على التلميح والتميز، ومخاطبة القارئ النشط بأسلوب التشفير الذي يدفع به إلى الاجتهاد لفهم الخطاب المبطن، إنها عملية جذب القارئ برفع سقف اللغة من أرضية الألسنية المبتدلة إلى سماء الفنية والأدبية، وأما جمالية حضورها الروائي فتتجسد في مدى استكناه الواقع المعيش، ومدى تحويل المعطيات الحياتية واستنطاقها.

المصادر والمراجع:

- 1) أمبرتو، إيكو، السيميائية وفلسفة، تر: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2005.
- 2) بدوي، طبانة، علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، دار الثقافة، بيروت، 1981.
- 3) عبد القاهر، الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المدني، جدة، السعودية، دط، دت.
- 4) جورج، لايكوف، مارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2009.
- 5) محمد، علي السراج، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، دار الفكر، دمشق، ط1، 1983.
- 6) بول ريكور، الاستعارة الحية، تر: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2016.
- 7) حميد، حمداني، أسلوبية الرواية، منشورات دراسات: سال، الدار البيضاء، ط1، 1989.

- (8) بسام، موسى قطوس، سيمياء العنوان، مكتبة كتانة، عمان، ط1، 2001.
- (9) رومان، ياكسون، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي، مبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1088.
- (10) عيد، محمد شبايك، الاستعارة في الدرس المعاصر، وجهات نظر عربية وغربية، دار حراء للنشر، القاهرة، ط1، 2005.
- (11) أحلام، مستغامي، الأسود يليق بك، دار نوفل، بيروت، دط، 2012.
- (12) أحمد، عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1979.
- (13) وداد، بن عافية، أسرار النص، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2017.
- (14) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1997.

الموقع الإلكتروني:

- (1) زهير، الخويلدي، سطوة الاستعارة الحية بعد المنعطف اللغوي ومولد الابتكار الدلالي، (نشر يوم: 2020 /04 /02)، (اطلع عليه يوم: الخميس 2021 /4/11، على الساعة: 19:22)،
<https://m.ahewar.org/s.asp?aid=671336&r=0>

العنونة في الرواية العراقية نماذج مختارة
Subtitling in the Iraqi novel selected models.

د. ضياء غني العبودي

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الإنسانية

Dr.Dhyaa.Ghani AL -Uboody
thyambc@yahoo.com

الملخص:

تكن أهمية العتبات نابعة من منطلق مشاركتها في إنتاج الدلالة واغناء العلامات النصية شأنها في ذلك شأن النص الذي تحيط به، وبهذا تأخذ مفهوما جديدا يعرف بـ (النص الموازي) الذي يتميز باستقلالية الدلالة الخاصة به ولكنه يسهم في تكثيف دلالات النص العامة. ونحن عندما نقرأ عنوانا يتكون من لفظة أو لفظتين فانه بهذه الخاصية والميزة يستطيع ان يصف أو يختصر لنا الطريق إلى ذلك النص، وتحديد من الضياع وعدم التحديد في ذهن المتلقي.

ونظرا لأهمية العنوان في النصوص الأدبية ودلالاته ومقاصده التي يمارسها على تلك النصوص فقد عمدت إلى دراسة العنوان في مجموعة مختارة من الروايات العراقية للإجابة عن مدى أهمية العنوان، ومدى ارتباطه بالنص الذي يمثلها؟

كلمات مفتاحية : النص الموازي ، العنوان ، المتعاليات النصية ، الرواية .

Abstract :

The importance of the thresholds stems from their participation in the production of semantics and the enrichment of textual markers, as well as the text that surrounds it, thus taking a new concept known as (parallel text) which is characterized by its autonomy of its own significance but contributes to the intensification of the general semantics of the text. When we read a title consisting of one or two words, it is with this characteristic and feature that can describe or shorten the way to that text, and determine it from loss and non-identification in the mind of the recipient.

In view of the importance of the title in the literary texts and its implications and purposes, which it practices on these texts, I have studied the title in the novel of Iraqi to answer the importance of the title, and the extent to which it relates to the text it represents? In a selection of Iraqi novels.

Keywords: parallel text, title, text u.S. credits, novel.

مقدمة:

العتبات النصية بنية دلالية واحدة تعبر عن نص متكامل يستهدف مساحات التلقي بمختلف تقنيات التوصيل المذكورة وكان الاهتمام بدراسة العتبات النصية يهدف إلى إظهار ((ما للعتبات من وظيفة في فهم خصوصية النص وتحديد جانب أساسي من مقاصده الدلالية)) (جينيت، 2008، ص 71) فضلاً عن ذلك فأما -العتبات تلك ((مقصديتها الخاصة بعدّها محفلاً نصياً قادراً على إنتاج المعنى وتشكل (الدلالة)) (حمداوي، 1997، ص 96).

لذا فإن أهمية العتبات نابعة من منطلق مشاركتها في إنتاج الدلالة واغناء العلامات النصية شأنها في ذلك شأن النص الذي تحيط به، وبهذا تأخذ مفهوماً جديداً يعرف بـ (النص الموازي) الذي يتميز باستقلالية الدلالة الخاصة به ولكنه يساهم في تكثيف دلالات النص العامة.

وقد تعددت التعاريف التي توضح مفهوم العنوان، وكان لكل تعريف مرجعيته الفلسفية ورؤيته النقدية الخاصة به، ومن هذه التعاريف التي نتبنى وجهة نظرها التي حملها النقاد تلك النصوص التعريفية، ومن أهمها: العنوان مجموع العلامات اللسانية، كلمات مفردة جمل، التي يمكن أن تدرج على رأس كل نص لتحده، وتدل على محتواه العام، وتغري الجمهور المقصود، فالعنوان عند ليو هوك يحظى باهتمام بالغ، نظراً لكونه أكبر ما في القصيدة، إذ له الصدارة ويبرز متميزاً بشكله وحجمه (الغدامي، 1998، ص 263)، والعنوان هو رسالة لغوية تعرف بهوية النص، وتحدد موضوعه، وتجذب القارئ إليه، وتغويه به، وهي بعد ذلك نظام دلالي رامن له بنيته السطحية، ومستواه العميق مثله مثل النص تماماً (فطوس، 2001، ص 45)، وهو حمولة مكثفة من الإشارات والشفرات التي أن أكتشفها القارئ وجدها تغطي على النص كله، فيكون العنوان مع صغر حجمه نصاً موازياً ونوعاً من أنواع التعالي النصي، الذي يحدد مسار القراءة التي يمكن لها أن تبدأ من الرؤية الأولى للكتاب، انطلاقاً من العنوان ولوحة الغلاف، وشكل الكتاب (هيمه، 2007، ص 564) في حين يرى سعيد علوش في العنوان مقطعاً لغوياً أقل من الجملة، نصاً أو عملاً فنياً (علوش، 1985، ص 155).

نماذج مختارة:

العنوان من الموجهات الرئيسة للنص، فهو دال أشاري يوحي قصدية الباحث وأهدافه الأيديولوجية والفنية، وتوضيح لما غمض من إشارات في النص، فعنوان الرواية "ملف الحادثة 67" يتسم بالتشويق والإثارة للقارئ لمعرفة كنه هذه الحادثة، وبمن يتعلق هذا الملف؟ إن تتبع إحداث هذه الرواية يشير إلى ارتباطه بشخصية رئيسة في الرواية، شخصية فلسطينية تتهم بقتل شخصية فلسطينية أخرى، وهذا ما يؤكد النص المؤطر "إذن فالقتيل فلسطيني!... المحقق: والمتهم فلسطيني" (إسماعيل، 1978، ص 33) أما البنية العميقة للنص فهي تشير من طرف خفي إلى حرب الأيام الستة أو ما تعرف بنكسة حزيران، التي الحرب

التي خاضها العرب مع الكيان الصهيوني ، حرب عام 1967، وقد حاول الكاتب أن يعبر فيها عن الأيديولوجية التي يؤمن بها ، فأراد أن يكون شاهد صدق على عصره ، وان لا تبقى تلك الشهادة حبيسة، فجاءت مشفرة بأدوات مختلفة . فاتهم شخصية بريئة وخضوعها إلى أفسى أنواع التعذيب "المحقق لمن معه: جئتني بالسلك ... خيل إليه أن قوة أسطورية رفعته إلى أعلى بسرعة وضربت به الأرض، الصاعقة!!" (إسماعيل، 1978، ص 114) هذا التعذيب لا يختلف دلاليا عما سببته الأنظمة العربية المتواطئة لإجهاض النضال الفلسطيني والمعاناة التي كانت تعيشها الشخصية خارج السجن، فهي ضحية لمؤسسات وأشخاص أُكل لهم القيام برعاية ضحايا النكبة، وبدلاً من تحقيق آمالهم زادوهم عذاباً وضيقاً، فيتحول المكان بشكل عام إلى سجن كبير ((جئت هذا البلد باحثاً عن خبز ، فعملت في مخبز، أيام الوقوف في طابور بانتظار إهانة وكالة الغوث)) (إسماعيل، 1978، ص 19) إن ما يؤكد ارتباط الرواية بنكسة حزيران ما عمد إليه السارد من التداخل الصوتي بين المحقق وبين المذيع في غرفة التحقيق مما ساهم في إضاءة النص، ليأخذ بعداً دلالياً، من خلال التداخل بين سؤال المحقق وجواب المتهم، كما في النص "المذيع: ثم أضفت رئيسة وزراء حكومة العصابات إلى قولها ... إنه بات في حكم المنطق أن تتخذ السلطات المعنية للدول المحيطة موقفاً حازماً إزاء الأعمال الإرهابية التي تمارسها ال...." (إسماعيل، 1978، ص 34) وهذا الموقف الحازم قد أتخذته المصري من المتهم الفلسطيني ليلاقي فنون التعذيب كما لاقى ذلك الشعب الفلسطيني . وفي مشهد آخر يتداخل المذيع مع صوت المتهم "وفي مؤتمر صحفي عقد صباح اليوم صرح ناطق مأذون بلسان البيت ... المتهم: سيدي ... أنا بريء" (إسماعيل، 1978، ص 61) ويستمر هذا التداخل في الأصوات ليوحي بالانسجام التام بين العنوان وبين جريمة القتل من جهة وحرب الأيام الستة من جهة أخرى ، ((المذيع : هذا .. وقد بلغ عدد الطائرات التي أُسقطت منذ بدأ العدوان حتى الآن ...

المحقق : تكذب

المذيع : أما عن قتابل النابالم ...

المحقق : وإن لم تعترف بارتكاب الحادث فستضطري لانتزاع الاعتراف منك بالقوة " (إسماعيل، 1978، ص 30).

إن الصفات التي تميزت بها شخصية المتهم البريء توحى لنا بالثبات، ومن ثم تؤكد ما ذهبنا إليه من دلالة العنوان على قضية الشعب الفلسطيني وما تعرض له من نكبات ، فهي شخصية ذات قدرة كبيرة على الإصرار والعناد (إسماعيل، 1978، ص 96) وهذا العناد والإصرار لم يكونا وليدا اللحظة بل منذ الطفولة ، حين تنقل الشخصية وعلى لسان الأم ((كنت تسير إلى جانبي صامتاً ... طفلاً ليس بكبكية الأطفال ... الآخرون يصرخون ويكون يحتجون ... يرفضون متابعة المشي أما أنت ... عيناك الصغيرتان على الأفق، قدماك الرفيعتان تطويان الطريق بخطوات قصيرة متلاحقة)) (إسماعيل، 1978، ص 101) هذه

الصفات وغيرها في النص جاءت لتؤكد قدرته على تحمل المعاناة، معاناة شخصية من دون اسم، لتوحي بأنها نموذج لآلاف غيرها، نموذج لضحية، ضحية النكبة أولاً وما أعقبها من تغيرات، وضحية المؤسسات المسؤولة عنه، فالشخصية تقف على نفس الأرضية التي يقف عليها الشعب الفلسطيني المسحوق في المجتمع.

ولقد جمعت رواية (الأرض الجوفاء) بين مجموعة من التقنيات الحديثة التي ظهرت في نسيج النصوص الروائية ، كالاكتفاء على العجائبية في بنائها والأحلام والأساطير الخرافات، والاعتماد على العلوم الحديثة ونظريات تشكيل الأرض وحقيقتها.

ينطلق الروائي عبد الهادي الفرطوسي من عنوانه (الأرض الجوفاء) ليكشف لنا شفرات المتن الحكائي، وما يضم خلفه من أحداث، فاختياره للعنوان لم يكن عبثياً، وإنما هو عنوان ارتدادي من داخل النص إلى الخارج، إذ حاول أن ينطلق بهذا العنوان إلى داخل النص، فالعنوان يتكون من الناحية التركيبية من جملة اسمية، من مسند ومسند إليه، وتقدير المسند إليه هذه الأرض جوفاء، والجوفاء صفة لهذه الأرض. والأرض في لسان العرب أنثى، وتطلق الأرض ويراد بها أهل الأرض (الفرطوسي، 2002، ص 30) والجوف لا يختلف عن الأرض فهو المطمئن من الأرض، وجوف الإنسان بطنه . فالعنوان شكل الثيمة الأساسية التي دارت عليها أحداث الرواية التي ترتبط بباطن الأرض أي (الأرض وما داخلها).

إن العنوان في الرواية يعكس عجائبية النص فمنذ الوهلة الأولى يبدأ الإنسان بالتساؤل: كيف تكون الأرض جوفاء؟

إن أحداث الرواية تدور حول شخصية اختفت في رحلة عجيبة الانتقال إلى جوف الأرض "حالة من الهلع الشديد، لقد صرخت بأعلى صوتي: استغثت واستنجدت. ولكن من يسمع استغاثتي؟ حاولت أن أجد باباً للخروج فلم تعثر كفاي إلا على جدران صخرية خشنة، وبعد دقائق بدأت أفكر بجدي وقادني تفكيري إلى الاعتقاد بأن أكواما من التراب قد انهارت على ذلك الممر الطويل فدفنت حيا تحت تراب تل المهالك." (الفرطوسي، 2002، ص 33).

وينتقل بعد ذلك عالم تسكنه شخصيات أخرى "لكنني أشعر أن المركبة تحبط بي إلى الأسفل؟ طبعاً فعاصمتنا نفر في جوف الأرض على سطحها تذكرت سفرة مدرسية ، قمت بها إلى مدينة نفر الأثرية فقلت : لكن عهدي بنفر على سطح الأرض لا في جوفها انك تعني مدينة نفر الأثرية ، وقد هجرها أجدادنا منذ عشرة آلاف سنة ، بعد أن استطاعوا الوصول إلى جوف الأرض وإنشاء مدينة نفر الحديثة هناك" (الفرطوسي، 2002، ص. ص. 40. 41) تأتي الرواية منسجمة ما يطرح من أفكار حول حقيقة أن الأرض مجوفة وهم تمهيد لما يأتي بعد هذا التجويف ، هل يسكن الأرض مخلوقات أخرى، ولعل هذا ما يؤكده أستاذ الجيولوجيا ((كان الأستاذ يستعرض التي تناقش باطن الأرض ... تناولها يعرض موجز . وأنهى حديثه بالتطرق إلى نظرية فحواها ان الأرض مجوفة وقد وصفها بأنها نظرية لا يعتد بها. وأن

علماء الجيولوجيا يستخفون بصاحب هذه النظرية.. عند ذاك وجدت نفسي أقف محتجا وأرد على الأستاذ بنبرة غليظة:

- من قال لك أن الأرض ليست مجوفة؟

- القرائن العلمية تقول ذلك وقد درسناها مفصلة خلال الشهر الماضي)) (الفرطوسي، 2002، ص 21) وهذا ما أكدته الشخصية الأخرى الدكتور المغربي اسعد الجبلي قبل أن يختطف من الإنجليين، في بحث أخذ منه ثلاث سنوات ونصف من عمره ليؤكد حقيقة مفادها أن الأرض مجوفة وهذه البراكين في حقيقتها هي ليست نتيجة تفاعلات كيميائية بين الغازات ، وإنما هي نتيجة مؤثرات اصطناعية وضعتها قوى عاقلة في جوف الأرض (الفرطوسي، 2002، ص. ص. 90. 91).

يأتي العنوان في مكان اللوحة التي شغلت كل صفحة، بخط كبير وبلون أسود، يحيطه من الخارج اللون الأبيض، وكأنه أراد بهذا أن يرسم للقارئ حدودا بين باطن الأرض وخارجها، وخلق بصيص أمل للحياة.

العناوين الفرعية:

لم تكن العناوين الفرعية في رواية الأرض الجوفاء إلا عبارة عن ثلاثة أقسام (القسم الأول والقسم الثاني والقسم الثالث) وهي عناوين تؤكد مبدأ الانتقالية والربط الدلالي مع العنوان الرئيس، فهذه الأقسام تشكل الرواية ومثلت رحلة الشخصية داخل الأرض الجوفاء وهي أقسام يلجأ إليها الروائي ليصل إلى دلالات موحية "توضع هذه العناوين لزيادة الإيضاح، وتوجيه القارئ المستهدف" (الفرطوسي، 2002، ص 93) وإن هذه الأقسام الثلاثة التي اعتمدها الروائي جاءت للإشارة لتغير من يقوم بالسرد، فالفصل الأول والثالث يرويها الروائي المشاهد للأحداث، أما القسم الثاني فترويها الشخصية الرئيسة. وكان القسم الأول ممهدا للانتقال إلى صلب الرواية.

"خرجنا صباح اليوم أنا وأخي الجالس إمامك وعدد من الأصدقاء في سفرة صيد عند وادي المهاري وعند الساعة الرابعة والنصف توقفنا عند تل المهالك وقررنا التوجه إلى التل، وقد سبقتهم إلى ارتقائه، غير أنني التفت ورائي فلم أجد لهم أثرا، فاضطرت إلى العودة إلى المدينة بمفري ولما كانت المسافة تزيد على العشرين كيلو مترا فقد جن على الليل وأنا ما أزال اركض وسط الصحراء وحين أبصرت ضوء سيارتكم توجهت نحوها فنقلتموني إلى هنا

- ها.. ماذا تقولان؟

- أجبت بحيرة وذهول.

- لكني كنت هذا اليوم في الدائرة.

- رد أخي

- اليوم عطلة رسمية

- لماذا؟
- إنه يوم الجمعة
- عقب الضابط بسخرية
- اليوم هو الأربعاء أيها الشاطر.
- ماذا؟ أتسخرون مني؟
- تدخل أبي
- سيادة الضابط إن مارواه عباس قد وقع فعلا يوم الأول من آذار في العام الماضي وليس هذا اليوم. وهو مثبت في ملف القضية.
- حسنا. المسألة تحتاج إلى دراسة.
- أشار إلى شرطي أن يقود عباسا إلى زنزانة الحجز، حاول أبي الاعتراض لكن الضابط قال:
- هذا عملنا ونحن أدرى به.
- قلت له:

- المسألة أصبحت واضحة فهو مصاب بفقدان الذاكرة.
- وهناك احتمال آخر. ربما كان متورطا في قضية خطيرة لا يستطيع البوح بها. " (جينيت، 2008، ص، 125).

هذا النص يضعنا في ان الرواية ستنقلنا إلى عالم مفارق للواقع، ويفسر لنا عنوان الرواية بشكل مباشر، في رحلة إلى جوف الأرض. ولكي تقترب الرواية من الحقيقة تحاول الشخصيات ان تربط رؤية بطل رواية عباس بالواقع المعيش: ((لماذا لا نصدق وجود مخلوقات عاقلة في جوف الأرض؟ رد أحد الجالسين:

لكن احتمال تعرض عباس إلى أوهام تسلطية وارد أيضا. كلا الأمرين ممكن، لكن عباسا قد ذكر إنسانين في مذكراته هما منخي الفتال والدكتور أسعد الجبلي. فإذا كان الأمر أوهاما تسلطية - كما تقول - فلا من أن يكون الشخصان وهميين، لا وجود لهما في الواقع، أما إذا عرفنا إن هذين الشخصين لهما وجود واقعي، فلا بد أن يكون الأمر حقيقة لا وهما...)) (الفرطوسي، 2002، ص. ص. 17-18) ولكي تحقق الرواية مصداقية الرحلة في باطن الأرض يؤكد أصدقاء عباس حقيقة الشخصية التي التقى بها في العالم السفلي: «هكذا

- تأكد لنا - نحن السبعة - إن ما رواه عباس في مذكراته حقيقة ثابتة. لكن ما لذي علينا أن نفعله؟... أنخبر الجهات الرسمية؟ من سيصدقنا؟" (الفرطوسي، 2002، ص 119) إذ ان مكانته عند المؤلف، وعادة ما يكون الباب الموصل عند المؤلف حين يفكر في اختيار العنوان، لأن الكاتب يفكر في مشروع الكتاب وتفاصيله من فصول وأبواب، ويترك العنوان فيما بعد وهذه البنية هي لغة وخطوط وأشكال

وألوان، ومن خلال هذه اللغة يمكن إظهار الواقع أو التعبير عنه أو الإحالة إليه.

ويعد العنوان الوسيط الأول بين النص والقارئ يأخذ إلى تأكيدات داخل النص ضمن مجموعة من السياقات أو بعضها، كسياقات الحدث أو الوصف أو التركيب اللغوي أو الدلالي فكرياً أو حياتياً، وهذا يعني أن العنوان يدخل بك في عوالم عديدة ومحطات كثيرة في هيكل العمل وجسده.

نشير إلى أن العنوان قد كتب باللون الأصفر العريض، وهذا ما يجعله يحمل دلالات متناقضة، إلا أنه يحمل في معناه اللغوي دلالات أخرى لا تختلف عن مدلولها في سياق السرد، فهو يأتي ليدل على لمعان البرق، حمل العنوان دلالة الحياة ونقيضها الموت، فاللون الأصفر يرتبط بالنبات الجاف والمرض وما يصاحبه من تغير لون المريض، وهي دلالة الموت والضعف، ولكنه يحمل في دلالاته اللغوية معنى البرق وما يشير إليه من تألق وما يصحب ذلك من هطول الأمطار. وهو عامل الإنبات ومن ثم الحياة، وسنلاحظ تألق شخصيات الرواية وتحملها المسؤولية سواء الاجتماعية أم الأخلاقية التي حاولت إحداث الرواية أن تستنتجها. فالشخصيات في رواية (تألق) وتنوع، فهي تضم إلى جانب شخصية البطل التي تقنع بها الروائي (صلاح مدرس اللغة الانكليزية) مجموعة كبيرة من الشخوص تتباين طباعها ومواقفها، وإن كانت في معظمها تنتمي إلى الطبقة المثقفة، إذ يغلب عليها الحقل الثقافي والعلمي، فهناك الأستاذة الجامعية (نور) والطلاب الجامعيين (محمد طالب في أكاديمية الفنون الجميلة، ومجد طالب في كلية الطب، ولىلى في كلية العلوم، ورفاه مدرسة التصميم في معهد الفنون الجميلة) و(حورية طالبة الثانوية) فضلاً عن الشخصيات الأخرى. ولنا هنا أن نقف عند بعض الإشارات إلى تلك الشخصيات لنؤكد فكرة التألق للشخصيات، فشخصية (نور) الأستاذة الجامعية توحى لنا بامرأة قد خبرتها الحياة خلقت منها شخصية ذات قوة وكما سنلاحظ في تفاصيل أحداث الرواية، وكل صفاتها الخارجية تدل على ذلك "قامتها الطويلة والرشيقة رغم أن عمرها كان يبدو في الأربعين ولكنها بدت نضرة وبكامل عافيتها" (الفرطوسي، 2002، ص 121) وعينيها واسعتين تحديقان بالشباب (الموسوي، 2009، ص 4)، وصوتها فيه غنج أنثوي خالد (الموسوي، 2009، ص 5).

أما شخصية (حورية) فهي تتصف بكل صفات الجمال الأنثوي حاول السارد أن يثبها ليخلق منها نموذجاً للجمال، هذا الجمال الذي يأتي ليكسر حالة الخواء الروحي، فحين كان (صلاح) يمارس هوايته في الرسم، وقد تحولت الطبيعة إلى حالة من السوداوية إذ "زاد الغروب البطيء دكنة الألوان وبدت التجاويف البعيدة في عمق الغابة كهوفا سودا عميقة وأصبحت الفسحات الخضر الزاهية ظلمة مساء" (الموسوي، 2009، ص 6) يأتي "صوت هسيس واضح في ذلك الصمت أنه أرنب أبيض ... انطلق كشهاب ناري بين الشجيرات المتكومة بعيداً" (الموسوي، 2009، ص 7) ليكون بياض الأرنب وسرعته في الرحيل منطلقاً للدخول إلى شخصية (حورية) "أصابني شلل مفاجئ عندما شاهدت ركبتى ساقين رشيقتين وبيضاويتين، إنما هي ! رفعت ثوبها لتجنب الأشواك خوفاً على حاشية ثوبها أن يتمزق.

كانت تحمل رزمة من الحطب الثقيل على ظهرها وهي تمر عبر ممر الأشجار المزدهم ... هربت مثل ذلك الأرنب " (الموسوي، 2009، ص 18) ويصف جمالها مرة أخرى حين يفاجئ برؤيتها، ويصيبه الاختناق " كانت فتاة عارية ، مشغولة برمي حفنات الماء بيديها على جسدها العاري الذي كان بلون تفاحة حمراء باهتة. لمع جسدها مع لمعان قطرات الماء كحبات لؤلؤ تنزلق على قطيفة وردية ملساء" (الموسوي، 2009، ص. ص. 18، 19) وهي في عنفوان شبابها " كانت في السابعة عشر من عمرها" (الموسوي، 2009، ص 19) ويديها بيضاويتين ، وشعرها اسود على كتفيها ، ووجهها مدورا ابيض كأنه قطيفة بيضاء ناعمة الملمس علقت فيه عينها الواسعتان كفضين من الفيروز (الموسوي، 2009، ص 20) ولعل الأسماء التي تحملها هذه الشخصيات يحمل في طياته الضوء واللمعان فاسم حورية مشتق من الحُر وهو أن يَشْتَدَّ بياضُ العينِ وسَوادُ سَوَاهَا وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حوالها وقيل الحُر شدة سواد المِ قِلَّة في شدة بياضها في شدة بياض الجسد ولا تكون الأثناء حوراء فلا تسمى حوراء حتى تكون مع حُر عينيها بيضاء لُونِ الجَسَدِ... وإنما قيل للنساء حُر العين لأنهن شبنم بالظباء والبقر... وتسمى نساء الأمصار حوريات لبياضهن (ابن منظور، مادة حور).

وهذا ما جسده السارد في كل مكان من روايته لينقل لنا بياض حورية، وربما يحمل في داخله ما عرف عن حوريات البحر، وما نقل عن رؤية حورية جميلة نصفها امرأة ونصفها سمكة تملك عيوناً كبيرة وجدائل طويلة، وغالباً ما يراها الصيادون تطل برأسها من الماء فجأة أو تجلس على إحدى الصخور. وكانت تلك المخلوقات تتحرى معايشة بني البشر، وغالباً ما كانت تتنكر بهيئة فلاحات (كلارج، 2008، ص 129).

وقد أشار السارد إلى ذلك بقوله حين أنقذ سمكة من الموت " هل ان تلك السمكة الصغيرة التي انقذتها واعدت لها الحياة تحولت إلى جنية بذلك الجمال المذهل؟ هل هي تلك الفتاة ذات الخمار ام أنها امرأة أخرى جاءت من مكان مجهول " (الموسوي، 2009، ص 21).

أماسم نور فهو يحمل معنى الضياء والنور ضد الظلمة وفي المحكم التور الضوء أياً كان وقيل هو شعاعه وسطوعه والجمع أنوار... ونور الصبح ظهر نوره... ولمور هو الذي يبين الأشياء ويُرِي الأبصار حقيقتها (ابن منظور، مادة نور) وهو ما اتسمت به شخصية الأستاذة الجامعية نور ففضلا عن ممارستها مهنة التدريس الجامعي في قسم الاجتماع، فهي تعمل في إنارة الطريق للآخر والتضحية من أجله كما لاحظنا ذلك في علاقتها بصلاح وحورية .

ولقد حملت رواية الكاتب إبراهيم حسيب الغالي عنوان (اعترافات كائن) الذي يجعلنا نتساءل ما هي لاعترافات وما طبيعة هذا الكائن كون (اعترافات) خبر لمبتدأ محذوف مقدّر، وتدلل على البوح الذي تقصده القاص ليعبر فيه ناثراً عن كل ما يحتلج في نفسه من صراع وألم ومرارة تجرّعها وما زال ومشاعر غضب وانتقام ويأس، (كائن) جاء بهيئة النكرة التي تسحب الأذهان نحو الغموض الذي يتلبس طبيعة

التنكير والتعميم في اللفظة نفسها الدالة على مخلوق ما من دون تحديد ماهيته وكيانه لا يملك سوى الروح أما الجسد فلم يبقَ منه ما يحدد رجولته، كائن يتنفس ولا يجرؤ على الموت (الغالي، 2008، ص. ص. 98. 19).

بينما تقوم رواية (خريطة كاسترو) على مغامرة سردية واعية قائمة على أساس الامتلاك الجمالي المختزل للرصيد المعرفي التاريخي وقد نجح في المعادلة في التقاطع بين التاريخ الواقعي والخيال السحري، لذا افتتح خضير فليح الزيدي روايته بمقولة لكارلوس فونتيس (تفصح الرواية ما يحجبه التاريخ) (الزيدي، 2009، ص 7) ليمهد لرحلته بحثاً عن الحقيقة، في الكتب المصفرة، ومطويات ممسوحة الأثر والمعالم لعالم الأمس البعيد (الزيدي، 2009، ص 11)، وهي خرائط قديمة تسمى (كادسترو) وتعني خرائط التسوية الزراعية تعود في عمرها إلى مائة عام (الزيدي، 2009، ص 17)، وهو في محاولته هذه انه يحاول أن يعيد الإنتاج واقصد به إنتاج التاريخ، ويتحول المنتج هنا من متلقي للتاريخ إلى مكتشف له (الزيدي، 2009، ص 19) تاريخ يعكس معارك تحدث في الليل وفي نهار لا أحد يسجلها لموت من شارك فيها، كمعارك الشواليش وصدر العكيكة والبيور ومجينية (الزيدي، 2009، ص 40)، فكلام الكتب محض افتراء وكذب؛ لأن صاحب الكتاب يحشر أنفه بين طيات كتبه للبحث عن خلود زائف (الزيدي، 2009، ص 44) فالعنوان يتركب من شطرين الخرائط التي تركها والده، فقد كان موظفاً في هيئة الزراعة، قسم مساحة الأراضي، شعبة المسح الميداني، وقد انسحبت هذه التسمية (كادسترو) إلى شخصية رئيسة في الحدث يلتقيها السادر إثناء البحث عن أصحاب هذه الخرائط، وتسمى (كاسترو) وهو الشاهد الوحيد المتبقي على قيد الحياة الذي شهد الإحداث (مرزوق) الذي يطلق عليه الجميع (كاسترو) مع قرده النبيل وكلبه الأسود، يعيش في مملكة غريبة فهي ((عبارة عن مقبرة مسكونة بالأرواح الشريرة وأنواع من الجن، يعيش على تخومها منذ ما يقارب من التسعين عاماً)) (الزيدي، 2009، ص 39). ويأتي الوصف الخارجي لكاسترو ليجمع بين الزي الريفي والعسكري، في وصف ينبأ عن الحالة التي تعيشها الشخصية ((لازال كاسترو يرتدي الدشداشة الخاكية وفوقها قمصلة عسكرية مرقطة ويده عصا التبخر، واضعاً إياها تحت إبطه في حلة مسير على إيقاع المارش، يتبعه قرده النبيل، معتمراً قبعة خاكية أو يستبدلها بأخرى مسفوفة من خوص النخيل حين تشتد حرارة الأرض)) (الزيدي، 2009، ص 41). فهذه الشخصية أخذت اسمها من اسم هذه الخرائط لتشكل شخصية رئيسة في الرواية لأن الأحداث في الرواية تقوم على البناء التناسلي فالحدث الإطار يقوم على رحلة البطل المشارك لتنفيذ وصية والده بعد وفاته وتسليمه ثلاث خرائط كادسترو (خرائط التسوية الزراعية) بعد أن تركها له في صندوقه الأسود كأمانات ليعيدها إلى أصحابها، (الزيدي، 2009، ص. ص. 16. 17) لتنتفح هذه الرحلة على حكايات تاريخية قائمة على الغزو الإنكليزي لجنوب العراق عام 1915م وما يتعلق بموقف العشائر منه، ثم الانتقال إلى زمن آخر للحديث عن إخراج سفينة حربية تسمى الجنبية في ماض قريب، وهكذا ينتقل

السارد بين حدث وحدث آخر، وتتشابك الحكايات مع بعضها، بعد أن تنتقل من زمن إلى زمن، وهنا يحتاج إلى قارئ يستطيع أن يلم أطراف الحكايات ليصل إلى مرامي بعيدة للسارد. وتعتمد رواية ((ما قيل وما ...)) على الواقعية السحرية التي تدمج الواقع باللاواقع متحلية الأعراف السردية السائدة مكتسبة سحرها من كونها نتاج الخيال ، لا الملاحظة الواعية وحلها، انطلاقاً من أن تحلى الأشياء يدل على قوة لا يمكن تفسيرها، وهذا الخيال المجنح الذي يدخلنا في عوالم غير طبيعية يفيد من خيالات الوهم وتوهمات التفسير، وبذلك يجرع واقعاً جديداً بمعنى أو بآخر لكن في ظلال سحرية خيالية . وقد يبدو التصور الأولي للفعل السحري مركونا إلى اللامألوف لكنه ومع ذلك لا ينفصم عن الواقع أبداً، فإذا كان التأثير الأولي للفتازيا معقوداً بابتعاده عن الواقع، فإن التأثير الأهم هو صلاته بما هو مألوف والطريقة التي يسلط بها الضوء على عدم الاستقرار والتناقض أو حتى اللاعقلانية التي ينطوي عليها المألوف (ابتر، 1989، ص 191).. إذ يتداخل السرد باليوميات، والتاريخي بالمعاش، والأسطوري بالواقعي السحري، وهي تقع ضمن رواية الموجة الجديدة في الأدب العربي. لذا نلاحظ أن رواية ما يقل وما... يتجاوزها طرفان، طرف يقوم على الأصالة والبحث عن التراث والحكايات الشعبية والأسطورة وطرف آخر يقوم على البحث عن كل ما هو جديد سحري يثير المتلقي عن طريق امتصاص تلك النصوص وإعادة إنتاجها بشكل جديد إذ يتم في هذه الرواية وصف عوالم غريبة ونباتات عجائبية ورحلات وهمية وصفاً غريباً غير مألوف ، لخلق عوالم جديدة مثيرة لمخيلة المتلقي، وكل هذا يأتي من الراوي وكأن ما يعرضه حقيقة . وعنوان الرواية بلونيه الأحمر والبنفسجي يحكي لنا حكايات سمعها الروائي أو لم تقال من قبل وظلت مجهولة لا يعلمها إلا من خبر الحياة واقتحم أسرارها. فالسارد ومنذ الصفحات الأولى أراد أن يقول لنا إنه سينقلنا إلى عالم مؤسطر يتخذ من الواقع ملاذاً له، فحين كان طفلاً يستمع إلى روايات الملاية "زهرة" التي تجيد الخلق والابتكار والتحوير والإخفاء في رواياتها، وتتفنن في إدخال إحداثها بما هو أكثر غموضاً والتباساً ماهراً (عاصي، 2010، ص 9).

أخذ يتقن هذه الحرفة لتكون منطلقاً له حين يحكي لنا أسرار القلعة في روايته (ما قيل وما ...) ويترك لخياله الخصب ومنذ أن كان طفلاً يغير فيما يسمع من حكايات ليعرف فيما بعد ((أن سرد الحكاية ليس هو المطلوب، وإنما ابتكار مداخلها وكسر رتابتها)) (عاصي، 2010، ص 12)، فغدا هو الراوي الأول والبطل في الوقت ذاته في نص سحري أشبه بالمدينة السحرية ذات الألوان الزاهية وسط علامات وأشكال يصعب فك رموزها (عاصي، 2010، ص 12)؛ لتكون حكايات شهرزاد وسحرها إرثاً لا ينضب للرواي البطل (عاصي، 2010، ص 15).

فاللون البنفسجي لونا ثانويا ينتج من اتحاد اللونين الأحمر والأزرق، وفي علم النفس اللون البنفسجي لون التوازن العاطفي، وأصحابه لهم نظرة متوازنة للحياة. وقد ارتبط هذا اللون بالكثير من الخرافات والأساطير، وكان من المعروف قديماً أنه يرمز إلى الروحانية والقداسة لأن الأباطرة والملوك والملكات كانوا يرتدون هذا

اللون وكانوا يعتبرونه لون الآلهة أو لون الأشخاص المنحدرين من نسل الآلهة .

ويقول الخبراء في مجال الألوان إنّ الأشخاص الذين يميلون لتفضيل اللون البنفسجي يتمتعون بشخصية خيالية، تبدو كأنها تخلق في عوالم أخرى، لذا فهي شخصيات حاملة مبدعة تميل للابتكار والتميّز، وتستطيع الهروب من الواقع إلى عالم الأحلام بكل سهولة ويسر، فهو لون العظمة والفخامة والتميز، وأصحاب هذا اللون يحبّون أن يكونوا أشخاصاً مختلف يتسم بقدر من الروحانية والحساسية. وهذا ما أكدته لنا أحداث الرواية فالشخصيات حاملة لها من القدسية والعظمة ما يميزها. ولنا هنا أن نقف عند شخصية واحدة بشكل موجز لنؤكد ما ذهبنا إليه وهي شخصية العلوية "حميدة" شخصية في حالة من القدسية، لها هيئة مهيبة رغم انحناء قامتها واستطالة شعرات حاجبيها وتهدلها نحو الأسفل، بحيث شكّلت غطاء من نسيج على العينين تشد عصابتها السوداء بإحكام تاركة خصلات بيض تتقاطع على جانبي جبهتها)) (عاصي، 2010، ص 21) وهذه الشخصية اكتسبت الغرابة في نظر "إياس" من الكيفية التي تقطع بها هذه المرأة المسافة بين القلعة والمدينة، في زحمة البساتين وتشابك الحشائش ومسالك الأفاعي المائية والبرية وجحورها (عاصي، 2010، ص 22)، ولم تكن هذه القدرة إلّا باباً لإمكانات أخرى أكسبت هذه الشخصية أبعاداً تقديسية فحين مرض الأخ الأصغر لـ "إياس" ولم ينفع معه ما كان يأخذه من علاج، لم يكن شفاؤه إلّا بتدخل العلوية "حميدة" وهي تردد عبارات غير مفهومة، وترفع كفها من على رأسه، نافخة من فمها الأدرد، بجبهتها البيضاء، مرددة الباقي على الله سبحانه وتعالى ليستسلم في نوم عميق (عاصي، 2010، ص 34)، وهي تمتلك لذلك خصائص الورع والتقوى، وحفظ القرآن، ولا تخلد إلى الراحة أو السكون والدعة، دائمة العمل خارج القلعة مانحة ما تعلمته للآخر (عاصي، 2010، ص 35) وإلى جانب ذلك تمتلك من الصفات الجسدية ما يؤهلها للقيام بذلك (عاصي، 2010، ص 41) وهي كغيرها من الأولياء تستطيع أن تطلع على أسرار الشخصيات فحين قَلِمَ إليها إياس لأول مرة استقبلته ونادته باسمه ((لكن الذي حيرني هو كيف عرفت باسمي رغم أنني لم أواجهها يوماً بمفردي)) (عاصي، 2010، ص 47) ولم يكن شفاء الأخ الأصغر لإياس وحده ما يشير إلى قدرتها على فعل هذا ، فحين أصيب إياس نفسه بالحمى تدخلت لتنقذه من الموت بطقوس دينية، "راحت تبسمل مغمضة العينين، فأدركتني بدفئها، كما لو أنّها استلت مني ما يشبه الخيط الرفيع أخذ يسحب رويداً رويداً، وينزاح ثقل كنت أنوء به وقيد كان يكبلني بقسوة" (عاصي، 2010، ص. 49. 50) يحاول الراوي المشارك بمرويه أن يستمر في إسباغ الصفات المقدسة وكشف الغيبي والمستور على "العلوية حميدة" ففي أحد الأيام حين كان يجلس معها لتناول شاي المساء سقطت حصى لتكسر القدحين ، ومع ذلك لم يصدر منها ردة فعل ، متنبئة بقدوم الفاعل بنفسه بعد تكرار الفعل ذاته لثلاث ليالٍ ، لتؤكد أنّها تعرفه، وتصديق نبوءتها ففي اليوم الرابع وفي أثناء جلستها المعتادة لم يتكرر الفعل بل دخل من الباب "فاضل" وهي شخصية تتسم بالعبث ليعترف بذنبه وطلبه العفو؛ لأنّ اللعنة قد حلّت عليه وجافاه النوم وهاجمته

الوجوه الشريرة، وما أن قبلته على رأسه، حتى سكن طبعه وتغيرت شخصيته وتشذب سلوكه (عاصي، 2010، ص 8) هذه الشخصية تؤيد ما يؤكده اللون البنفسجي بكل معطياته. ليكشف ما يمكن أن تعرفه بطلّة الرواية وما تخزن من أسرار لا يدركها إلا من كان يحمل صفاتها. إنّ عملية إظهار الشخصية بوصفها أحد العناصر الفنية في العمل يحتاج فيها إلى مقدرة نقل تتجاوز حدود الزمان والمكان إلى عوالم رحبة، أكثر صلاحية لكي تصبح نماذج بشرية عامة وهنا نلاحظ أنّ شخصية العلوية حميدة قد اكتسبت إمكانيات مغايرة للمألوف عند البشر، وخير دليل على ذلك اختفاؤها بشكل غريب عن الحياة في فضاء القلعة الغرائبي.

فإننا نجد أمام عنوانه تقصد إثارة المتلقي ونقله إلى عوالم أخرى موعلة في التاريخ ليفتح أبوابا ويترك أخرى تكون مهمة المروي له في سبر أغوارها في أوراق صفر من كتاب قديم لتردد (العلوية حميدة) " يا سادة يا كرام .. ما كان لنا من حكاية البارحة أجود ، لكن حكايتنا تطول، وما بقي منها هو الأحسن" (عاصي، 2010، ص 9) فالروائي يعمد إلى إقامة منظومة سردية تعمل بقوة على الخيال والفانتازيا لشخصيات وأفعال يترشح عنها الدهشة وخلق عوالم يشوبها الحيرة والتردد. وقد شكّل اللون الأحمر أصل الوجود والقوة والشباب والانتماء لهذه القلعة بكل معطياتها.

وقد دون ناشر رواية (ذيل النجمة) على غلاف الرواية ما نصه "هذه الرواية ليست غرائبية كما يعتقد البعض أو جديدة في بنيتها الفنية الظاهرة. هي وبشكل دقيق صميمية من واقع معكوس على مرآة محدبة، فيها نجد القيعار السحيقة لمدينة ما على سطح مقلاة ساخنة ... سيرة شخوص صعقتهم حكمة أعمال المحبة والبغضاء " ونحن لا نتفق معه بل نقول بهذه الغرائبية فذيل النجمة سيرة لمجموعة من الأشخاص يقوم الروائي بتقديم حياتهم التي يتقاسمها جसार البدوي من خلال إعماله السحرية يكون مكان صراعها فندق الليل الذي شكل رمزا لمدينة كاملة بكل تقلباتها السياسية والاجتماعية هذه الشرائح جعلها نماذج لأطروحة دكتوراه يكتبها أحد شخوص الرواية السيد عوني في دراسة سوسولوجية لمدينة الناصرية في حقبة من الزمن. تدرس تدهور المدينة نتيجة للزحف الريفي عليها بعد عام 2003 وتعرض جماعات من شيوعية إلى بعثية إلى إسلاميين إلى قوميين بانتماءات مختلفة، تعكس بشكل جلي الحكومات التي حكمتنا منذ القرن الماضي، وكل هذه المجموعات تقع تحت رحمة جसार البدوي الذي يفرغ نجاته الشخصية في أرحام الجميع.

إن "الرواية تنهل من اليومي وتعيد صياغته بما أوتي من قوة الفن الروائي وأساليبه، حتى يوهنا النص بأن ما ورد فيه مجرد نقل لواقع كان له وجود تاريخي ومادي. وقد يخطر للقارئ أن هذا النوع من الروايات يدور في فلك الواقع، وغايته نقل الحكاية وإبراز ما فيها من قضايا، وقد يخطر له أيضاً أن تحليل الرواية يستند إلى هذا المستوى الخطابي الذي يرهنها في الواقعية وربما يتهمها بسرقة يوميات المجتمع واختلاس فضاءاته، ويقصرها على البعد الظاهر، لكن الرواية الواقعية قد تكون أبعد، وقد تتحول شخوصها وفضاءاتها إلى

رموز خفية يضمها الكاتب خوفاً من السلطة ومن القوى الاستبدادية المتوثبة لقمع الرأي المخالف والمزعج... بقدر ما فيها من غوص في الواقع وتناول لقضية المهجرة السرية" (خليف، 2012، ص 175) لذا تحاول الرواية أن تنقل من الواقع وتجعل القارئ يعتقد بذلك لأن الراوي ينقل لنا الأحداث من السجل الذي تركه له الأب، كميراث له وهو سجل عبارة عن حروز وتعويدات في نصفه الأول أما النصف الآخر فهو عبارة عن يوميات لفندق المدينة ونزلاء هذا الفندق، فهي رواية واقعية تسجيلية في الوهلة الأولى تنقل لنا أطياف مدينة السارد، في حقبة من حقب الزمن. ولكنها في الحقيقة رواية تخرج بشخصها وإحداثها إلى عالم آخر عالم غارق بالسحر والشعوذة عالم تعيش شخصياته تناقضات جمّة وتعيش صراع بين البداوة وزحفها على المدينة وبين المدينة وما تعانيه من هذا الزحف كما ذكرت سلفاً.

فالرواية تحمل عنواناً رئيساً (ذيل النجمة) هذه النجمة التي تعرفها الأوساط الشعبية بنجمة (أم ذويل)، فمتى ما لاح يريقها في السماء، كان ذلك علامة للتشائم الحقيقي (الزبيدي، 2010، ص 131). إن العنوان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمضمون النص ومن البديهي أن اختيار العنوان يقوم على جهد في مقصود من الروائي، لأن العنوان يأخذك إلى دوال داخل النص لذا فإن أول ما يواجه القارئ علاقة العنوان بالنص، فهو يتحدث عن النجوم ونحن نعرف ان للنجوم ارتباط وثيق بالطالع، وقراءة المستقبل وكشف الغيبي من الأمور.

وقد ذيل بعنوان فرعي (سيرة المعمول لهم) ليبين فيه ترك المنطق والعقل من قبل شخوص الرواية وسيرها وراء الترهات التي مثلتها إ حراز جّسار وتعويداته، وكأن سحر جّسار هو مصباح (علاء الدين) الأسطوري الذي بإمكانه تحقيق الأماني لإفراد الرواية، من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الجد والتعب للوصول إلى غاياتهم فهم يعيشون في كسل عقلي وبلادة جسدية في اتكالم على جّسار وقواه الغيبيّة فلكل شيء وضع حراز، حتى لألم الريح المحصورة في البطن فضلاً عن سواها، من تزويج أو حصول حمل أو تيسير ولادة أو نجاح في مدرسة وغير ذلك من الأمور .. فشخوص الرواية لا تفكر، ولا تعمل ولا تسعى لشيء سوى انقيادها الأعمى لأسحار جّسار.. حتى وصل بهم الحال إلى أن يطلبوا منه وضع حطة سحرية لأحزاب المدينة وتدمير تنظيماتهم وجعل الحكومة تنن من كثرة الحرب.

أما العنوان الفرعي فجاء ليوضح العنوان الرئيس ويعطيه تفصيلاً دقيقاً ليقول لنا بان هذه الرواية تحكي قصة أشخاص تعرضوا إلى السحر والشعوذة، ومن المعروف "لعل التنجيم والسحر من أقدم العلوم في تاريخ الإنسانية، فكلاهما - التنجيم والسحر - بوابة الإنسان غير المرئية نحو العالم الغيبي وتاريخ البشرية يزخر بالمخلفات الفكرية والتراثية والفلكلورية والفنية والأدبية التي تستولد معطيات ومفردات علمي السحر والتنجيم في إنتاج إبداعات تمثل إفرازات هذين العلمين اللذين نجد فيهما: استحضر الأرواح، واستحضر الجن، والتعويدات والطلاسم، وعلاقة حركة النجوم بالإنسان، والسيطرة على الآخر من خلال قوى مجهولة، واستشراف المستقبل، ووضع حدود للشر والجن والأرواح الشريرة التي تهدد حياة الإنسان "

(شعلان، 2004، ص 51). فحياتنا يسيرها عالمان "أحدهما واضح للعيان والآخر سري يلازمنا كظلالنا" (شعلان، 2004، ص 53).

ولقد قسم الروائي روايته إلى أقسام ووضع لكل قسم عنوان تسبقه كلمة (حطة) وهذه الحطات هي "عمل سحري له القدرة على تحريك قرني الحياة باتجاه الرغبات . بإرادة خيميائي العمل السحري .. خيميائي يدرك جيدا ما يفعله باحتراف ومهنية " كثيرا ما يوردها السارد بلغة غير مفهومة وكأنه يضع المتلقي منذ بداية النص في جو سحري مغاير للواقع " مسب هلا نحرلا مبحرلا .. دمحا هلا بر نيماعلا وبه نستعين ... 5...5... لا إله إلا هو ليوم الدين .." (الزبيدي، 2010، ص 22) وإن قراءة هذه الحطات بشكل معاكس يوحي لنا بصحة هذه الكلمات فكلمة مسب تقابل بسم وهكذا. وقد تبع كلمة الحطة باسم من أسماء لشخص روايته وعدد هذه الحطات خمس عشرة حطة وعنوان أخير يحمل اسم (حطة أخيره) بعنوان (حرز مذاب بالماء) وهذه الحطات على التوالي (كيمياء عمل المحبة) وهي الحطة الأولى وقد ذيل هذا العنوان بتعريف لمعنى الحطة في هامش الصفحة الأولى من روايته، ليوضح لنا بأنه عمل سحري. ثم يأتي عنوان (ولادة نجمة أم ذويل) الحطة الثانية، و(شجرة العائلة) حطة ثالثة، و(عين الساعاتي حسن) حطة رابعة، و(الحاج صالح .. مفتاح طويل) حطة خامسة، و(هاشم المعيدي) حطة سادسة، و(محيسن الزير .. رجل كحولي) حطة سابعة، و(حسنة راقصة الأجيال) حطة ثامنة، و(فاخر كمان أخرس) حطة تاسعة، و(السيد عوني) حطة عاشرة، و(جسار المثلث) حطة إحدى عشر، و(عدنان فلسفة) حطة اثنتا عشر، و(عباس حديقة أفندي) حطة ثلاثة عشر، و(عدنان عضو المحلية) حطة أربعة عشر، و(محمد الموسوي) حطة خمسة عشر، وفي كل عنوان من هذه العناوين وضع الروائي تاريخ شخصياته بشكل يعكس لنا تفاصيل حياتهم ، ولقد كانت هذه العناوين إشارات مبسطة لاتجاه كل شخصية، فهذا معيدي وهذا رجل موسيقى وهذا يمتحن الفلسفة وتلك راقصة وهكذا تعطينا هذه الأوصاف حقيقة هذه الشخصيات وطبيعة مهنتها من دون عناء. إذ إن للاسم دورا في تفعيل الأحداث الفوق طبيعية ولاسيما حين يتطابق أو يختلف الاسم مع دوره في النص الروائي، هذا، ويتمثل مفهوم اسم العلم الشخصي في مجال الرواية بأنه تعيين للفرد، وخلق تطابق بين اسمه و حالته النفسية والوصفية والاجتماعية، بل إن المعلومات التي يقدمها الروائي عن المظهر الخارجي للشخصية وعن لباسها وطبائعها وحتى عن آرائها تأتي كلها لتدعم تلك الوحدة التي يؤشر عليها الاسم الشخصي، بحيث تشكل معها شبكة من المعلومات تتكامل مع بعضها، وتقود القارئ في قراءته للرواية " بل قد يهدف الروائي من وراء اختيار الأسماء الإحالة على دلالات وأبعاد ومقاصد، وذلك لإثارة المتلقي واستفزازه، وتأزم الأحداث، أو تحريكها ويرى رولان بارت بأن اسم العلم، إذا جاز التعبير، أمير الدوال، إيجاءاته غنية، إنها اجتماعية ورمزية . فيكون الاسم أشبه بالأيقونة الدالة على مقاصد الشخصية، هذا الاسم الذي يأتي في أحيانا على شكل لقب، وهذه الألقاب ربما تحمل في داخلها الاستهجان، أو الاستحسان، وارتباط ذلك

بأفعال الشخصية في العمل الروائي، التي تعمل على إثارة المتلقي، ومن ثم تقبل الأعمال التي تقوم بها الشخصية.

وهذه المخططات تصور صرخة الواقع المرير الذي تبناه سحر [جَسَّار] وحطاته، وجعل منه كيانا تابعا له، فهي تصوير لتسلط السحرة على عقول الناس وأفعالهم. فسحر (جَسَّار) هو القوة التي لا يمكن لأحد أن يقف في وجهها، إنما تفعل ما تريد من دون أن تكون لشخص الرواية القدرة على منعها، (فجَسَّار) قد أتقن حيك احرازه، أما عقول الآخرين فصارت سحرة تابعة لقوى غيبية هيمنت عليها لدرجة أدخلتها في سبات عقلي طويل (الزبيدي، 2010، ص 24)، لتكون الأهواء والترهات هي صاحبة السيادة المركزية . فعالم الأنثروبولوجيا يعد "الشعوذة والسحر" شكل من أشكال الثقافة المرئية، وهي جزء من الثقافة الشعبية، ويرى بأن "الشعوذة" تتميز بالسرية والحميمية، وأن كل ما يعرض هو المفارقة بين الظاهر والخفي يرتبط بانعدام الوعي وتجنز الفكر الخرافي في المجتمع العراقي الذي مازال يؤمن بهذه الظاهرة كممارسة متبعة منذ آلاف السنين.

ورواية امرأة القارورة للروائي سليم مطر نشرت سنة 2010 ويبلغ عدد صفحاتها 151 صفحة من الحجم المتوسط، وتعد من الروايات التي وصلت ذروة الاعتراف من التراث القديم ومحاوله إعادة تشكيله في ضوء معطيات جمالية وأسلوبية ودلالية جديدة.

تفتتح الرواية على خطابات متعددة ونصوص كثيرة ترتادها وتؤمها فتتداخل فيها وتتمازج معها مشكلة بناء جديدا مستحدثا ولا ريب أن الكتابة الروائية الحديثة في حاجة من حيث المنطق الذي بنيت عليه إلى هذه التفاعلات والتداخلات النصية. فالنص لا يتأتى له أن يؤسس كيانه إن لم يكن متعلقا بخطابات مغايرة وبأنماط متنوعة من الكتابة كالتاريخية والدينية والأسطورية والصوفية والتراثية. فلا يتحقق نحت الكيان في عالم الرواية إلا بالخروج عن واحدية الخطاب وغط الكتابة المنفردة إلى جمالية التعدد والتنوع ولذة الامتزاج والتداخل في لحظة إبداعية جمالية قادرة على صهر هذا المتعدد في وحدة الرواية. وهذه النصوص متفارقة متباعدة في مستوى الزمن واللغة، ومن شأن هذه المسافات أن تنهض بوظيفة الإغراء بالنسبة إلى

القارئ فتدفعه إلى أن يملأ (عشمان، 2010، diwanalarab.com)

عمد الكاتب إلى توظيف الحديث النبوي، وهو حديث يفيض دلالة وإحياء توظيفاً فنيا فقد شكل عنوان الرواية امرأة القارورة مع عناوين الفصول التي كررت التسمية. وهذا التكرار اللفظي يفيد معنى التوكيد، ويؤكد التناس مع حديث الرسول (ص) "رفقا بالقوارير" (البخاري، 2004، ص 138/4) الذي يوحي أن معنى القوارير هي الزجاج وكلنا نعلم أن الزجاج يصنع عن طريق النار وهو المعدن الوحيد الذي لا يلزم طرقه ليتشكل ويلزم من يصنعه الرقة والهدوء والنفخ الهادئ ليتشكل بطريقه جميله ورائعة وكما يشاء صانعه، وإن حصل وعومل بالعنف وبالقوة فإنه ينزع ولم يعد صالح للصنع والتشكيل، وكلنا يعلم أن الزجاج سريع الكسر ويلزم معاملة خاصة لأنه إذا انكسر لن نقدر على إصلاحه وإعادةه كما كان.

إذا فقد شبه الرسول الكريم النساء بالزجاج لأنهن مثله قلبا وقلبا، فهي مثل الزجاج في تشكيله تحب أن تعامل باحترام وان تراعى مشاعرها، ويكفي أن الرسول الكريم قال رفقا بالقوارير وهذا مفتاح صغير ألقاه الرسول الكريم للرجل ليحسن معاملة المرأة. تلك العلاقة التي يصفها الحديث تحولت إلى علاقة حال بمحل، فالحال الأثنى والمحل القارورة (هاجر، سيدة القارورة) إنها شخصية فوق طبيعية خالدة، متحولة من حالة لطيفة إلى جسد كثيف، بل لها القدرة على سرد أحداث الماضي السحيق، فهي تتناص مع مارد مصباح علاء الدين في ألف ليلة وليلة، إذ إنها تخرج لك من يملك القارورة وآخرهم آدم فبعد أن فتح القارورة خرج منها شيء ضبابي مصحوب بصفير خافت وحزين (مطر، 2010، ص 212) إنها سيدة خالدة في قارورة منذ خمسة آلاف سنة يتوارثها السومريون من تموز إلى آدم / الراوي. فالمرأة مارد آخر يخرج من قارورة لا من مصباح يحقق حلم الرجال وتشبع طموحاتهم، إنها نموذج عشتار، رمز الحب والجمال الذي ظل يراود كل التمزيين، وكل الرجال الحالمين بخلود من يحبون، بخلود الجمال الذي عشقوه.

ولم تكن مكانة المرأة في الرواية بعيدة عن هذا الحديث فكانت المرأة رفيقة الرجل في حياته مؤكده ذلك على لسانها "أنا يا سيدي منذورة لك ولذريتك. أسلافك أمضوا شطرا من حياتهم معي ... كنت عشيقتهم السرية ورفيقتهم في ملذاتهم وانتصاراتهم، وفي متاهاتهم ونكباتهم وساعات احتضارهم ... منذ قرون لا تحصى وأنا أمضي خلودي في هذه القارورة يتوارثني أبناء عن آباء، من يملك قارورتي يملك أسرار روحي وجسدي" (مطر، 2010، ص 38) إن هذه الرقة تجسدت في أكثر من نص لتعزز لفظ القارورة فهي "ما إن يسترخي جسمها وتغمض عيناها حتى يستحيل كيانها إلى سائل تشربه القارورة. إن أبت الاسترخاء والنوم تملك، وإن كسروا القارورة فإن المرأة تستحي إلى سائل يتبدد في الأرض وتبخر حياتها إلى غيوم" (مطر، 2010، ص 48) إن امرأة القارورة مثلت جنس نساء على وجه الأرض منذ الأزل إلى يومنا هذا تنتقل من أرض إلى أخرى ومن حضن حفيد إلى حضن حفيد آخر . أجيال أمضتها بين الأهوار، وأجيال أخرى في الجبال وفي البوادي وبين البحار ... خلال مئة وخمسين جيلا عرفت الكثير من الأقوام والأوطان في آسيا وإفريقيا وأوربا.

إن تكرار اسم القارورة وارتباطه بالمرأة ما هو إلا إشارة إلى مكانة هذه المرأة، ان هاجر في أول الأمر كانت امرأة إنسية لا تملك ما يميزها عن النساء إلا جمالها، وحب الملك تموزي لها لكن بعد أن تحولت إلى امرأة خالدة أصبحت مختلفة عن نساء الأرض في كل شيء، وهذا ما أشار له الروائي عندما نقل لنا ماضي القارورة في الفصل الثاني المعنون (ماضي القارورة) يسرد لنا الراوي حياة هاجر على لسانها، فهي الجدة التي تروي لحفيدها قصص أجداده العظام عبر العصور التي عاشت فيها فتصريح (هاجر) بأنها عندما كانت إنسية وانتقالها إلى عالم الخلود وسكنها القارورة تحولت إلى أخرى إنها (إنانا عشتار) معشوقة تموزي الذي عشقها حد الجنون وابتعد عنها النساء وكل من حولها حتى ابنها ((وأمر نحاتي أور أن يصنعوا لها

تمثال من هيئتها صنم (إنانا عشتار) إلهة الأرض والخصب والجمال)) (مطر، 2010، ص 45) فهاجر في هذا الفصل تعمد إلى زواج ثم توارث الأبناء لها.

هاجر عندما عادت إلى العالم السفلي عالم الموت والفناء تعرض ومارلين وجنينهما وصديقه إلى حادث غريب يحكي لنا قرار آدم التزحلح مع مارلين وصديقة وهنا تشق زلاجتهم الطريق منحدره بسرعة متصاعدة حتى فقدوا السيطرة عليها، خافت مارلين على جنينها، وكأن ذات الآلهة التي رفضت عودة إنانا إلى العالم السفلي ترفض عودة هاجر إلى عالم الموت عندها انكشفت الأنوار ورأوا العجائب أقوام وأقوام انه شريط حياة الشعوب يحول بهم بين أموات وإحياء حتى آخر المطاف.

عودة هاجر من عالم الموت إلى عالم الخلود استدعى ولادة جديدة وهي ولادة ابن (آدم وهاجر) بعد ان تعرضوا للانزلاق الشديد فتجلت إمامهم امرأة القارورة بعد هذه الولادة أي أنها عادت إلى عالم الخلود. ثم نجده بعد ذلك يشير إلى صفاتها إذ يغوص في عوالم ذاكرتها وجسدها كي يرسم لنا صورة متكاملة لشخصيتها إذ يبدأ بالوصف الداخلي إذ يقول "كانت تمتلك ذاكرة مدهشة في خصوصيتها وغزارتها , ليس جسدها وحده يعيش خلوداً وشباباً، إنما كذلك روحها ومشاعرها وذاكرتها" (مطر، 2010، ص 61)، إذ يشير الروائي إلى أن هاجر تختلف عن نساء الأرض، في كل شيء، ليس في ذاكرتها فقط، بل حتى بتلك اللحظات السرمدية التي كان يعيشها آدم معها (مطر، 2010، ص 66)، لقد كانت تمتلك من الجمال ما لم ير آدم وصديقه وكأنها جمعت مواصفات نساء ألف وخمسمائة جيل، إذ يقول الروائي ((تجلت (هاجر) كواحدة من آفات جمال خرافي)) (مطر، 2010، ص 77)، وهذا ما زاد في تأثيرها في آدم إذ كان يأنس بسماع حكايات الأسلاف، وصار يتقبل الماضي، وهنا يمكنني القول إن سر تأثير هاجر عبر الأجيال كان جمالها، وما تمتلك من هبة تؤهلها لتكون أميرة في كل شيء حتى في طريقة جلوسها "ننت ركبته على طريقة أميرات العرب" (مطر، 2010، ص 78) كانت تمتلك من الشموخ الخاشع⁽⁷⁰⁾ ما يجعل متحدتها بصمت منبها بها، فهي امرأة خارج نطاق التصورات.

لعلني هنا أستطيع القول إن امتلاك (هاجر) لتلك المميزات أهلها إلى ان تحمل تاريخ الأجداد، لتضعه إمام أيدي أحفادها، الذين تناسوا هذا التاريخ، وباتوا يفكرون بأنفسهم، وتحقيق طموحاتهم خارج البلد، وكأن الملك (تموزي) تنبأ بما سيحدث لأبنائه عبر الأجيال فأختار لهم أما تحميمهم عبر الأجيال، فاختار (هاجر) من بين جميع نسائه لتلك المهمة الصعبة، وإذا به يطلب لها الخلود، وهو أساس تميزها عبر العصور.

لما فقدت (هاجر) ما يميزها عن كل المخلوقات، إلا وهو خلودها، فقدت معه كثيرا من صفاتها، إذ صارت امرأة كسائر النساء: ((فتحت عينها بهيئة غير معهودة: نظرت إلينا بحياء وغطت نفسها بكفيها وارتمت على محياها ابتسامة ضحك وقلق، وبان تعب بشري على جسدها)) (مطر، 2010، ص 78).

إن الدور الذي أراد الروائي إسناده إلى هاجر، لم يكن بالهين لذلك حاول ان يضفي على الشخصية ما يميزها، ويجعلها ضرباً من الخيال، لكنه صاغه بشكل قريب من الواقع، حتى اختياره للاسم كان جدير بالانتباه فلو بحثنا عن هذا الاسم عبر التاريخ، لوجدنا شخصية واقعية ساهمت وبشكل فعال في بناء مجتمع جديد، إلا وهي (هاجر عليها السلام) زوجة نبي الله (إبراهيم عليه السلام)، عندما جاء الأمر الإلهي لنبي الله أن يتركها وابنها (إسماعيل عليه السلام) في وادي غير ذي زرع، وهنا بدأت هي وابنها في بناء جيل جديد ومجتمع جديد، وهذا ما وجدناه في (هاجر) (امرأة القارورة) حيث كانت مع كل ابن لها (حفيد) حكاية جيل، وفي كل أرض جديدة أحداث جديدة، حتى كادت تنشئ في كل أرض مجتمع تضع فيه أسس بلاد وادي الرافدين، إذ كانت تتبع أبناءها وتنشئهم من تبعات الحروب، وما تتركه من آثار في النفوس، وكانت (جنيف) آخر محطة لها مع آخر وارث لها وهو (آدم).

والأسماء في رواية امرأة القارورة جاءت عن قصد مع أسماء تحمل دلالات لا يمكن للقارئ أن يتجاوزها من دون أن يحيلها إلى مرجعياتها، فلم يكن اسم (هاجر) بعيداً عن زوجة نبينا إبراهيم عليه السلام واستمرار النسل بولادة إسماعيل عليه السلام وكذا (آدم) وما يحمل من دلالات بداية الخليقة.

"وفي الجملة، فإن معظم المحللين والبنويين للخطاب الروائي قد أصروا على أهمية إرفاق الشخصية باسم يميزها، فيعطونها بعدها الدلالي الخاص.

ولقد ذيل الروائي العنوان في داخل الرواية بمقولة ((بين العراق وسويسرا، المغامرات العجيبة لامرأة خالدة منذ خمسة آلاف عام...)) ليوحي بتاريخ تلك القصص التي يسردها في فصول روايته السبعة، منذ محاولات هروبه من جبهة القتال في الحرب العراقية الإيرانية عام 1981، واسترجاع ماضي القارورة إلى السومريين ثم العودة إلى جنيف / سويسرا.

وعناوين الفصول دالة رئيسة في رواية سليم مطر، وشحت عنوان الكتاب وتكررت في عناوين فصولها المتتالية وكما يلي: - ف1: في البدء كانت القارورة/ ص5. - ف2: انبعثت سيدة القارورة/ ص25. - ف3: ماضي القارورة/ 41. - ف4: حاضر القارورة/ 56. - ف5: آباء وأرباب القارورة/ 74. - ف6: قرصان القارورة/ 89. - ف7: سيرة سيد الوجود/ 111. - ف8: ضياع القارورة والرحيل إليها/ 129

وهذه العناوين تحيل بشكل صريح إلى ما يتحدث عنه الفصل، وجلها تتحدث عن سيرة امرأة القارورة وكيفية حصولها على الخلود في قارورة، والارتداد الزمني للتفصيل في حياتها الماضية وصولاً إلى حاضرها بصحبة بطل الرواية (آدم)، إلى عودتها لوضعيتها الآدمية وفقدانها سر الخلود. فهي عناوين تؤكد العنوان الرئيس وتنسجم معه، وتؤكد أهمية المرأة في صنع الحياة وترميم التشظي الحاصل في الهوية العراقية.

أما رواية (بطن صالحة) الرواية من إبداعات الروائي (علي عبد النبي الزبيدي) من أبناء مدينة الناصرية العراقية. والطبعة التي اعتمدها طبعة (دار الينابيع 2010م) وهي باللغة العربية والإنكليزية، ينتهي النص المطبوع باللغة العربية صفحة 93. ومن الجانب الآخر تبدأ الرواية باللغة الانكليزية لتنتهي صفحة

106. تتحدث الرواية عن الوضع العراقي بعد سنة 2003 م أي بعد الإطاحة بالنظام السابق. ولكن الرواية التي جاءت على لسان احد شخصياتها كانت محاولة للكتابة عن استشراق المستقبل، إذ يبدأ الراوي بسرد الأحداث بتاريخ المستقبل في (2023/4/9...) ! أي بعد عشرين عاما من قيام الوضع السياسي الجديد في العراق، وبعد عشر سنوات توقعها الكاتب من تاريخ نشر الرواية. أهم شخصيات الرواية التي تتمحور حولها الأحداث: يحيى النباش وزوجته (صالحة) (*) وولدهما المختلفان على تسميته إذ تسميه صالحه (غايب) بينما يطلق عليه أبوه اسم (عنتره) وهذا الابن لم يولد بعد، فما يزال في بطن أمه منذ عشرين عاما - وهذا التاريخ (2003/4/9) هو ذاته تاريخ تكون الراوي في بطن أمه (صالحة) - ولهما بنت واحدة هي (عانس) التي تبلغ أربعين عاما ولم تتزوج بسبب رفض أبيها تزويجها إلا بعد خروج الاحتلال من العراق. هذان الزوجان يعيشان حياة أسرية تعيسة بسبب صراعهما المستمر حتى تحول بيتهما إلى ما يشبه (ردهة مجانين) (مطر، 2010، ص 133) يصير النباش على إخراج ولده من بطن أمه لكي يساهم بطرد الاحتلال وترفض صالحه ذلك، وفي النهاية يجبر الزوج زوجته بالقوة على إخراج جنينها بعملية قيصرية، وحينذاك يحدث ما يدعش إذ لم يجدوا جنينا في بطنها، وعندها يختفي الراوي وتنتهي الرواية. وهذا مما تميزت به الرواية وأبدعه الروائي، إذ فاجأ المتلقي وكسر أفق الانتظار بنهاية غريبة.

إن النص الأدبي بمكوناته المتنوعة من: عنوان رئيس، وعناوين فرعية وداخلية، والمؤلف، والغلاف ... وغيرها من العناصر النصية الموازية المشكلة لإطاره الخارجي، هي التي تمنح النص الأساس هويته واختلافه وفق ما يشير الناقد الفرنسي جيرار جينيت، إذ يرى أن الموازيات النصية تحيط بالنص وتمططه، فهي كائنة لتقدمه (الزبيدي، 2010، ص 7).

والعنوان بمستوياته المختلفة من اخطر عتبات النص في علاقته بكل من النص والقارئ، ولا يكتسب النص كينونته إلا بالعنونة، ويمثل العنوان الدليل الذي يفضي بالقارئ إلى النص، فيتخذ دور الثريا التي تضئ دهاليز النص (حسين، 2008، ص. ص. 45 46)؛ وهو يضيء الطريق الذي ستسلكه القراءة (حسين، 2008، ص. ص. 45 46)

وقبل الولوج في دراسة متن النص يستوقفنا العنوان والغلاف، فنحن لا نقرأ النص قبل أن نقرأ عنوانه كنص مواز للنص الأصلي وهو البوابة الرئيسية للنص.. ونتحسس الصفحة الخارجية لغلافه ولونه، كونه أول ما يقع البصر عليه :

"بطن صالحة": من العناوين المكثفة يعطي معاني متعددة مع قابليته لأكثر من قراءة، فهو يدل دلالة سطحية على حكاية حدث يتعلق ببطن امرأة اسمها صالحة، والبطن هنا من باب إطلاق الكل على الجزء، أي المراد الرحم الذي يضم الجنين، والرحم كما هو واضح وعاء للنماء والحياة وهو الذي يمنح سلسلة الامتداد البشري توصلها وديمومتها. وجاء نوع الخط الذي كتب به العنوان من الخطوط القديمة

لينسجم مع أصالة وقدم هذا الرحم الذي ينبج الأبناء وتناقضها وارتباط الماضي بالحاضر، وهذا ما دل عليه نوع خط العنوان التراثي الذي لا يزال مستعملاً إلى يومنا هذا، وكذلك النسق الثقافي السائد الذي يدلنا على هذا الترابط المنطقي الوجداني. هذا في حالة قراءة العنوان كتركيب من مضاف ومضاف إليه، وهو إما أنه يكون خيراً لمبتدأٍ محذوف، أو يكون مبتدأً خبره المتن الحكائي.

وأما إذا قرأنا (بطن صالحة) فسنحصل على دلالات جديدة منها: إن (بطن صالحة) نكرة مجهولة يمكن أن تكون الأرض التي تعد بطناً صالحةً للإنبات والنماء واستمرارية الحياة، ولا سيما أرض الرافدين المشهورة بخصوبتها، التي جعلت أبنائها يبنون أعظم الحضارات الإنسانية عندما أرادوا ذلك، ولكنهم إذا ما أهملوا هذه البطن التي تلد لهم أسمى سبل العيش وتبهم الرقي، فإنهم بإهمالهم إياها تنقلب موازينهم، ويعلموا عجزهم وإفلاسهم بعد أن تحبس بطن الأرض عطاءها للخصب، ولا تبهم النماء ولا تمدهم بحياة جديدة تزيج عنهم عناء السنين، وهذا ما ينسجم مع الوضع العراقي الذي صورته لنا المتن الحكائي هذا إذا ما نظرنا إلى أرض العراق. بيد أن العراق أشمل من كونه أرضاً، فالعنوان ينضوي على إشارات إلى العراق الذي ولد للإنسان قبلاً برأً وعلماءً كباراً وجهابذة مبرزين، لكنهم لاقوا القتل فحسروهم وطنهم. وكذلك يدلنا العنوان على وجود نقيض يدرك وإن لم يذكر، فوجود بطنٍ صالحةٍ يوحي بوجود بطنٍ أخرى غير صالحة، وهذا ما يثير التساؤل العربي لدى المتلقي ليتوصل لمعرفة البطن الصالحة من سواها ويميز ذلك كونه ضروري لتحديد مسيرته في الحياة.

ويبدو بوضوح أن العناوين الفرعية التي انتقاها الكاتب بعناية تحتل المتن الحكائي بكامله، وكذلك الترشيحات، ولذا سيعمل البحث بتحليلها سيميائياً بوصفها إشارات وصورا تتكشف الرواية من خلالها، وهذا ما يغنينا عن تحليل المتن الروائي بكامله، على أن التحليل يستضيء بنصوص من الرواية سعياً للاقتراب من إتمام موضوعية الدراسة.

ويمكن تقسيم العناوين الفرعية التي يبلغ عددها أربعة عشر عنواناً إلى:

أولاً: العنوان الرقمي: وهو (في 2023/4/9....!) :

وهذا الرقم يشير إلى حدث من أهم إحداث العالم وعلى وجه الخصوص العراق – إذ يمثل انقلاباً يكاد يكون شاملاً في الساحة العراقية على مختلف الأصعدة - . وليس بخاف على القارئ الكريم ما للأرقام من دلالات مرتبطة بها، ولها دلالاتها الخاصة جداً لدى أبناء الشعب العراقي لأنهم عاشوا إحداث تلك التواريخ المعبر عنها بالأرقام، ويبدو أن الروائي أراد أن يشير إلى أن العراقيين لهم علاقة يتفردون بها في التعاطي مع الأرقام، فقد عاشوا عقوداً وهم يحيون مناسبات ارتبطت بأرقام وضعها نظام الحكم، وربما كان يعاقب من لا يشارك في إحياء هذه المناسبات بتهمة الخروج أو معارضة حزب البعث الحاكم. ومن تلك الأرقام التي تعيش في ذاكرة الشعب العراقي لطول إحيائها قسراً ولا ارتباطها بإحداث ومناسبات رسمت خارطة مأساة ومعاناة الشعب العراقي – فغالباً ما كان العراقيون يستيقظون على طبول تفرع ولافتات

تعلق احتفاءً بالانتصارات المزعومة والابتهاجات المدعيات فالرواية تذكر مثل هذه التواريخ (في 4/7 أشرفت شمس البعث) ولا يدري العراقيون ماذا انتفعوا من هذه الشمس المحرقة لوطنهم وأبنائه بحممها، (4/28 ميلاد فارس العروبة والإسلام أمل الشعب والأمة). (8/2 , 8/8...، يوم النداء الأغر ويوم النصر العظيم , 10/15... يوم الزحف الكبير، ...) وغيرها مزيد مما هو أكثر من ان يحصى ويحتاج إلى مؤلفات خاصة؛ لأنه يمثل أرقاماً تؤرخ لإحداث ما يزيد على ثلاثة عقود عاشها العراقيون بأجواء استثنائية خطيرة وحرارة. وهذا الرقم الذي افتتحت به الرواية (4/9) يمثل نهاية تلك المرحلة بتواريخها وأرقامها الموضوعية وبداية مرحلة جديدة متجددة تغاير تلك المرحلة من نواح عديدة وتشاكلها من بعض الجهات بكونها أرقاماً وإحداثاً ترم متصلة على العراق تحاكي استمرارية المأساة لدخول الاحتلال واستعمار الطائفية باقتتالها وتفجيراتها، بحيث نجد بنية الرواية تركز على ما تحتزنه الذاكرة العراقية من إحداث وتواريخ وأرقام مؤثرة في حياته الاجتماعية والسياسية. وقد أشار الروائي إلى شيء من هذه المعاني والأرقام و تأثيرها في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، جاء على لسان الراوي: "يهتم أبي بالأسماء والأرقام التي لها علاقة بالتاريخ ... التاريخ عنده أرقام مقدسة ينطلق من عندها لقراءة التأريخ ... " (الزبيدي، 2010، ص 7). وفي نص آخر: "الأرقام التي تطلقها جارتنا تذكرني بالأرقام التي يطلقها النباش المقتزنة عادة بالمعارك والغزوات، 1914, 1918, 1920, 1935, 1945, 1980, 1991, 2003 والكثير من الأرقام الأخرى، إنه يؤكد أنها بدايات ونهايات حروب ومعارك وغزوات ولا أعرف إن كانت صحيحة أم لا، لكنه يستعرضها وهو واثق من أرقامه جيداً بالرغم من أنني اسمع منه أرقاماً تختلف بكثير عن الليلة التي سبقتها، لكنها تشير كلها إلى حوادث معروفة، ربما هذا هو الأهم عند أبي... وتحديداً عندما يسمع التصنيف الحاد التي يقطع [كذا] عليه سياق الكلام من قبل الجمهور الحاشد في رأسه" (الزبيدي، 2010، ص 62).

ومن هذه الأرقام: (1920) يقول عننرة (الراوي): "أبي يصير أن علي تحمل المسؤولية كاملة مع أقراني الذين ما زالوا يشخرون في بطون أمهاتهم، والعمل بجدية من أجل إخراج المحتل بالقوة، أو بالقالة والمقوار كما كان يفعل أجدادنا مع الاحتلال السابقة ... تحدث عن ثورة شعبية حدثت في عام 1920 قادها مجموعة من الثوار ضد الاحتلال الانكليزي ... " (الزبيدي، 2010، ص 11).

ثانياً: عناوين بأسماء شخوص: منها: (رأس عننرة) (الزبيدي، 2010، ص 27) وهو وإن كان يدل على جزء من الشخصية إلا أنه يشير إلى أهم جزء في الإنسان الذي لا تكون الحياة بدونه، وفي البلاغة يطلق الجزء ويراد الكل، بل هو من وجوه البلاغة على طريقة المجاز المرسل (الجارم، 2010، ص 86) ويحمل لفظ رأس أكثر من دلالة ورمز، فهذا الرأس قد يكون منفصلاً عن الجسد، ومن ثم فهو عديم الفائدة، وقد يكون متصلاً بجسده، وإذا ما اتصل فقد يكون فيه عقل أو لا، فإن لم يكن يحتوي عقلاً يسقط عن الاعتبار. وأيضاً يشير إلى منطقة التفكير لدى عننرة. كما أن فيه إشارة أيضاً إلى قمة الكيان العننري، وهذا العنوان قابل للدلالة على كل هذه المعاني، فعننرة رمز للبطولة العربية، ورأس عننرة إشارة إلى

قمة البطولة العربية... ويدل عنبرة على شخصيتين شخصية تاريخية وشخصية الراوي، وقد حاول الكاتب أن يدمج الشخصيتين، وقد صرح الراوي بذلك، " شكل من أشكال الشيزوفينيا، هذه الكلمة يفسرها أبي تفسيره الخاص والذي يشير بدخول شخصية تاريخية عظيمة جديدة مع الشخصية الأساسية التي تعيش في عصرنا الحالي وتقوم بأفعال خارقة تتناسب مع رغبات الشخصية الأصلية" (الزبيدي، 2010، ص 30) ويكرر الروائي في موارد متعددة من اتخاذ بعض شخصياته (عناوين فرعية) فقد جعل من (النباش، وعانس، وغائب، وحرمة بنت جارتنا، وجارتنا التي أنجبت أكثر من مائة وخمسين ولدا) (الزبيدي، 2010، ص. ص. 41. 59. 69. 86) عناوين تلوح أمام عين القارئ متصدرة لبعض أقسام الرواية، وهذا مما يفسح المجال أمام تأويلات القارئ، إذ الأسلوب الفني الراقي هو ذلك الذي "يحدد من خلال روابط الألفاظ بالأشياء، وكذا من خلال علاقة الألفاظ فيما بينها، ثم من خلال علاقة الألفاظ بالجهاز اللغوي الذي تنتل فيه" (المسدي، د.ت. ص 91). وهكذا تصنع الرؤيا، وتضيء النص. إن دراسة العناوين الفرعية التي تمثل شخصيات روائية تغني عن دراسة سيميائية هذه الشخصيات معرضين عن التكرار والإسهاب.

إن سيميائية عنوان (النباش) لها دلالات متعددة، ربما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن النباش تدل على النباش في الأرض أي: نبش القبور، وهذا الاسم أطلق تاريخيا على بعض الناس الذين كانوا ينبشون قبور الموتى ليسرقوا أكفانهم وقد وردت بذلك قصص مدونة في كتب مختصة (المجلسي، موقع الكرتوني، مج 349/66، مج 378/67)، ولكننا لا نجد في الرواية من يمتحن مثل هذا العمل المشين، والروائي هنا قد يحاول الربط بين نبش القبور ونبش التاريخ ربما لأنه يرى أن التاريخ فيه من التفسخ والبقايا الجائفة التي تنبعث منها الروائح الكريهة ما يشاكل بقايا جثث الموتى. وقد دل النص الآتي على ذلك إذ جاء مثلاً باعتقاد والد (يحيى النباش) "أعرف أن أبي مات وهو غير راض عني، وظل يعتقد بأنني أنبش في القبور" (الزبيدي، 2010، ص 42). ومن دلالاته ما يتوافق مع النص السردى، البحث أو النباش في التأريخ محاولة لتجسيده في الواقع وهو ما يسعى إليه يحيى النباش فقد جاء لقبه متناسبا دلاليا مع العمل الذي يقوم به "أنبش منذ أن عرفت أن النباش في التاريخ يعني النباش في تاريخ الموتى وهو تاريخ مقدس يصعب على المنبشين المساس بحرمته" ولكن نجد الدلالة تأويلية ذات مستوى معمق فمثلاً يقول: "عرفت من خلال مسيرتي النباشية.. أن تاريخ أي أمة هو مجموعة من المفردات التي تتوارثها الأجيال... أي إن مفردة (الكريم)... أخذت تخرج عن كونها صفة تشير إلى كرم ابن القبيلة... فهو كريم مع ضيفه وكريم في قتل الآخر... وكريم في السير بجناز قتلته... أنا نباش لا أستطيع أن أفسر المفردات من سطحها" (الزبيدي، 2010، ص. ص. 41. 42) ويستطرد يحيى في تأويل مفردة النباش التي تعد مهنته الأساسية "نبشي المستمر جعلني أتوقف إمام بلاغة وعظمة الشعر الجاهلي... مثلما اقترن الشاعر الفحل بالبلاغة... وبالصور المدهشة، راح يؤكد أن الثقافة في عصره هي الحاكمة. بعد أن يقرأ آخر قصيدة كتبها في

سوق عكاظ يذهب مباشرة إلى بيته ليأخذ ابنته لكي يدفنها ... الشاعر يحتاج إلى معاناة لكي يكتب، فإذا لم يدفن ابنته وهي على قيد الحياة كيف يكتب ... شعراء المعلقات كلهم دفنوا بناتهم في أرض الجزيرة، ليس لأنهم متعطشون لفعل الوأد ... بل لأنهم شعروا أن الضعف الشعري سيدب إلى أرواح قصائدهم، وستهمل قصائدهم ولن تعلق على صدر الكعبة ... هذا يعني إن لم يكونوا قد دفنوا بناتهم ما استطاعوا كتابة صدر وعجز بيت شعري واحد مؤثر ... فالشاعر عندما يدفن ابنته إنما يدفن ضعف شعره ليس إلا! أنا نباش ثقافات ... " (الزبيدي، 2010، ص. ص. 42. 43).

ومن العناوين الفرعية "عانس" وهي في الوقت ذاته من شخصيات الرواية كما سبقت الإشارة، ويكتنز هذا الاسم دلالات ثقافية واجتماعية ونفسية ولغوية، وظفها الكاتب توظيفاً يخدم المتن الحكائي وأجواء الرواية.

"عانس" لفظة مرتبطة باليأس والحزن وعدم الاطمئنان كما توحى بالانتظار والأمل في تجدد الحياة، جاء على لسان (عانس): "أربعون ورقة سقطت من شجري، وأربعون خريفاً غادرتني مسرعا باتجاه خريف آخر، وأربعون عاما من الانتظارات على عتبة الدار انقضت وأنا أضع يدي على خدي حتى طبعت أصابعي عليه" (الزبيدي، 2010، ص 70). إن هذا الانتظار الذي تعيشه عانس والأربعون خريفاً لا ربيع معها، تحاكي حالة الحرمان التي عاشها العراق إبان ما يقارب أربعة عقود من الحروب والدمار والمآزق السياسية والاجتماعية والنفسية، كما أن المفارقة التي يصورها الروائي من خلال رغبة "عانس" الأنسة الجميلة في الزواج وكثرة الخاطبين من جهة ورفض "يحيى النباش" تزويجها من جهة أخرى؟! تشير إلى مفارقة كبرى تتجسد على أرض الواقع في العراق، ففي الوقت الذي يمكن فيه تغيير الواقع السيئ مع توفر كافة وسائل وسبل الحياة السعيدة، نجد الحال المأساوي يجرم على صدور الكثير من أبناء العراق. إن عنوسة "عانس" وآلامها وضياع أحلامها بسبب والدها المتسلط المتزمت المتناقض مع الواقع، وغير المنسجم مع أفراد عائلته، لا بل مع نفسه أيضا.

كذلك نجد "عانس" - ورمزيتها التي أشار إليها البحث - غير منسجمة مع أخيها على الرغم من أنها لم تره على حقيقته، فضلا عن أنه وإياها أبناء أم وأب واحد، كما أن بعض الفئات العراقية غير منسجمة لدواعٍ واهية، فهذا النص من قول عانس يحكي لنا ذلك: "اسمع ضحكات أخي المزعجة، أشعر بأنه يسخر مني، عندما يخرج من بطنها سأصفعه ... كرهت أخي عنزة إلى درجة لم أعد أطيق النظر إلى بطن أمي ... " (الزبيدي، 2010، ص 71).

إن الروائي في الوقت الذي يصور لنا صراع الزوج مع زوجته في بيت واحد كذلك حاول أن يصور صراع الإخوة في البيت ذاته، فكل شيء في هذا البيت يوحى بالسلبية والحياة التعيسة المقلوبة، فالبطن صالحة ولكن الحياة غير صالحة، وعلاقة الزوجية موجودة ولكنها خالية المحتوى فاقدة لمقومات العيش السعيد،

وعانس جميلة ولها آلاف الخاطبين ولكنها تنتقل من خريف إلى خريف، وعلاقة الإخوة موجودة ولكنها قائمة على البغض والصراع الخفي.

ومن اللافت أن (النباش) يحاول أن يفقد أبناء عائلته خصوصيتهم ويدمج بين الأدوار بما يتماشى مع أفكاره ورغباته، فيحاول مثلاً تذكير أنوثة (عانس) فهو يطبق مبدأ (كل شيء من أجل المعركة) الذي نادى به حكام تسلطوا على العراق وجندوا النساء في تشكيلات عسكرية تحت تسميات معروفة كأمثال الجيش الشعبي الإجماري، نجد هذا في قول عانس عن أبيها: "لقد سمعت روايات عنزة كلها من أبي، فقد كان يروي لي ويخاطبني بولدي وكلما أصبح له ذلك يقول لي بأنه أدرى مني بهذا الأمر، أحاول أن أقول له بأنني أنثى، يزجني ويكمل روايته حتى شبت من جملة الطويلة التي التصقت بالسيف والدماء والغزوات" (الزبيدي، 2010، ص 72).

كما يلاحظ على عانس هذه ان الكاتب اتخذ منها وسيلة لنقد أفكار وآراء النباش التي تمثل فئة أو جهة حزبية غير مرضية لتناقضاتها التي تعيشها حيث وسمت تطلعات أبيها (النباش) ومن هم على شاكلته وما يدعون إليه من طرد الاحتلال بـ "العنزيون الجدد"، ولكن هذه التطلعات بدت غريبة وكما تقول عانس: "ظلت دعواته حبيسة بيتنا"، بل حتى من هم في بيته لم يستجيبوا له ولم يقتنعوا بأفكاره؛ لذلك "اتخذ من المرأة وسيلة لتفريغ أفكاره" كما تصفه لنا عانس عندما يتحدث أمام المرأة ليعبر عن آرائه. إنها محاولة لبيان الحالة النفسية المضطربة التي يمر بها النباش حتى انه يتحدث وحده كالمجنون أمام المرأة، وهذا حال من يصاب ببعض الأمراض النفسية أو يعيش كبتاً بسبب عدم تقبل الناس لأفكاره، إذ نجده يسلك سلوكاً منحرفاً للتعبير عن هذه الأفكار أما يفرضها بالقوة كما يفعل مع (صالحة) وأما يهذر بها عندما يكون متفرداً أمام المرأة إذ يتخيل من يصغي إليه.

وأرى أن الروائي كان ناجحاً جداً في اختيار اسم (حرمة) لأحد شخصيات روايته، فحرمة التي جعلها بنت الجيران توحى بالحرمان الذي عاشه أبناء الشعب العراقي طيلة عقود زمنية، فضلاً عن ذلك إشارتها إلى بعض العادات الاجتماعية في التسمية التي يتخذها ثلة من بسطاء الشعب إذ يطلق البعض التسمية على مولوده بما يتناسب مع الظروف التي تعيشها تلك العوائل. وهذا ما ينعكس ويتجلى في النتاج الأدبي سيما الروائي منه إذ "المرجعية الرئيسية للخطاب الروائي خاصة وللخطاب الروائي عامة هي الواقع بمفهومه العام" (هالبرن، 1981، ص 309). فمثلاً عندما يمرون بعسر وشدة ويولد لهم مولود يسمونه (عسر، غضبان، صبر أو صبرية...) وبالعكس أيضاً إذا كانت ظروفهم حسنة نوعاً ما (بشير، فرحان، يسر، سعيد، عيدان، عطية...) وغيرها من الأسماء التي يطلقونها بحسب الظروف السائدة (*). فعندما تسمي العائلة ابنتها حرمة فهذا يدل على مدى الحرمان الذي تعيشه العائلة العراقية وفي مختلف جوانب الحياة، الحرمان من الأمن والحرمان من الحرية والسيادة والحرمان الاقتصادي والحرمان من سعادة الطفولة ومن ظهور الذات ومن الحب وغيرها الكثير. وتظهر سيميائية (حرمة) في استحضار المفردة من رصيد الثقافة

الشعبية التي لا تنفك عن الواقع الذي يعيشه المجتمع، فحرمة مفردة يكثر تداولها شعبياً كونها مقتطفة من شعر شعبي مغنى، وهذا نص يقرر هذا المعنى ويذكر تسمية أمهالها: "سمتها حرمة وكانت تترنم لها بأغنية شعبية حزينة وشهيرة ظهرت قبل الاحتلال بسنوات: - "يا حرمة انباك الكلمات من فوق الشفايف .. ياحرمة... (الزبيدي، 2010، ص 86). كما نجد الروائي يسجل ملاحظة على بعض الأعراف الاجتماعية التي تحرم الشاب أو الشابة من حبهما وبالتالي من زواجهما؛ بسبب عدم قناعة الأهل أو احد الأبوين ويكون العاشقان هم الضحية مجرماً من حقهما في الحب والزواج جاء على لسان الراوي: "وجدتني في لحظة ما أحب حرمة... ولا ادري فعلاً كيف أصرح لأمي بأنني أحب حرمة ... سأجد ممانعة تامة منها... وسأقول لها... أنا أحب حرمة...، ولن ارتضي بوحدة غيرها... أعرف أنك تكرهين أمها ولكني سأزوجها هي وليست أمها... (الزبيدي، 2010، ص. ص. 87. 88).

ثالثاً: سيميائية عناوين الأحداث: ومن ذلك: (حرب باردة) (الزبيدي، 2010، ص 34)، ويدل على الصراع القائم بين الزوجين (صالحة ويحيى) الذي هو انعكاس للصراع التاريخي والسياسي الذي حاول الكاتب تمثيله في روايته: "صالحة والنباش هما الامتداد الطبيعي لهذا التاريخ، أو هما نتيجة من نتائجه... انقسم بيتنا إلى جبهتين، كل جبهة رفعت شعارات تؤكد حقها الطبيعي في اتخاذ القرارات..." (الزبيدي، 2010، ص. ص. 34. 35). إن هذه الحرب الباردة لها أثارها السلبية على المدى القريب والبعيد، حرب باردة وصراع داخلي عائلي (سياسي لا وطني) يتجدد يومياً على لسان صالحة والنباش كما يحكي لنا الراوي: "المشكلة ان صالح [كذا] النباش لا يملك القدرة على إقناع صالحة بضرورة خروجي من أجل أن استشهد، فهو لا يملك سوى الصراخ بوجهها وممارسة إظهار عضلاته الرجولية... إنه يظل مستمراً بصراخه الذي يحوله بعد ذلك إلى خطاب تأريخي موجه إلى جميع الأمهات الخائفات التافهات أمثال أمي :

- الوطن يضيع وعنتره ينام في بطنك، أما تستحين من نفسك.
- ليذهب الوطن إلى الجحيم ولا شيء يدعوني أن استحي!
- الزواج غير المكافئ هو الذي يهدم الأوطان.
- لأول مرة أسمع منك كلاماً صحيحاً.
- ... ما الذي يجعل حياتي تستمر على هذا المنوال؟ حرب باردة، لا شيء فيها سوى كلمات السن طويلة... (الزبيدي، 2010، ص 36).

إن من سيميائيات هذا العنوان (حرب باردة) الدلالة على وجود أنواع الحرب والمواجهات في الساحة العراقية، فهناك قتل وتفجيرات ومفخخات واحتلال ومقاومة، فضلاً عن ذلك كله توجد حرب باردة تهد البناء الداخلي لبيت صالحة والنباش وما يرمز له هذا البيت، ويمكن إبراز التشظي السيميائي له وبيان دلالاته المتعددة وفق المخطط الآتي:

(بيت صالحة والنباش) ↔ (البيت العراقي)

↙ ↘

↙ مواجهات ↘

↓

↙ ↘ ↙ ↘

احتلال تفجيرات حرب باردة

↓

↙ ↘

انقسام إلى جبهات حرب كلامية

↙ انهيار + دمار ↘

وبهذا تتمظهر السيميائية جلياً من خلال تشظي الدلالات عن بعضها.

إن توالد الدلالات الثانوية من الدلالة الأولية (معنى المعنى) لا يكون في اللغة الحقيقية المباشرة والتقريبية، وإنما يكون في التعابير التي تمثل خروجاً عن السنن المألوفة، فيبدع الفنان بأدبه في النسخ، ويحمل الألفاظ معاني ودلالات جديدة، فهي تمثل إثارات وإدراكات باطنية تتعلق بنفس - الراوي - والمتلقي وبذلك يكتشف وظيفتها ودورها (جويي، 2006، ص 34)؛ وهذا ما نلاحظه بوضوح في عناوين الرواية وتربطها مع النص - فهي بمثابة مفاتيح للنص - ومن خلالها يتم تكثيف النص.

فالمعاني الأوائل هي التي تكون من متن الكلام ونفس غرضه بمعنى أنها تفهم من اللفظ بغير وساطة أما المعاني الثواني فعلى خلافها تماماً إذ كانت ثمرة الإبداع (جويي، 2006، ص 34).

ومن سيميائية الإحداث عنوان (عملية خطفي): الذي يشير إلى جانب من جوانب مأساة العراقيين. يفتتح الراوي قصة الخطف بقوله: "هذا ما تخيلته صالحة أو هو ما يجري في رأسها منذ زمن بعيد: "إن عمليات الخطف طالت واقعا أو خيالاً حتى هذا (الكيلو غرام من العظام) في بطن أمه. "ضعوا مسدساتكم وبنادقكم جانبا، عظامي لا تستوعب ربع رصاصة..." (الزبيدي، 2010، ص 77) وانظر إلى هذا النص المستوحى من الواقع الكارثي المتناقض: "اشعر أن الاختلاف في وجهات النظر يفسد للود قضايانا، إلا أن الخاطفين يتشاورون في الأمر ليس إلا... أحس بأنهم يحاولون إرضاء الله الحي العظيم في ملكوته الأعلى عندما يجدوا الشكل الأجمل والأروع والأكثر محبة في عملية قتلي... أجد أن اجتماع القمة الخماسي من اجل رقبتى يدعوني إلى انتظار قرار استراتيجي... " (الزبيدي، 2010، ص. ص. 78.

79). وهذا من الاقتباس المضموني للواقع الاجتماعي والسياسي في المنطقة.

رابعاً: سيميائية عناوين مكانية أو آلية : ومن ذلك (نافذة صالحة) وهي باختصار تشير وترمز إلى نافذة الإحزان التي تطل على قلوب الأمهات وعلى البلد بأسره. "وإلى النافذة المطلة على شارع الجنائز تنظر بعينين تعرفان ماذا حدث... شاهدت أنا وأمي من النافذة الأرتال العسكرية الذاهبة إلى الحروب...

ولكنها لا تعود... " (الزبيدي، 2010، ص 56). وكفى بهذا النص دلالة وانسجاماً مع العنوان الفرعي المشار إليه آنفاً.

ومن العناوين الإلالية (سوييف خلف): وفيه دلالة معمقة واسعة تمتد امتداد هذا المثل الدارج باللهجة الشعبية. فكم نسمع أهلنا يقولون عن أشياء تحسبها جيدة ولكنها خاوية من الداخل بأنها تشبه (سوييف خلف) بتصغير السيف، الذي ظاهره سيف ولكنه لا يصلح للقتال أو دفع الضرر. والروائي أوجد حالة من المفارقة بين العنوان والتوشيح الذي يليه: (السيف الذي ينتظره جليته من عمق التاريخ طوله يمتد من أول الليل إلى آخر ليلة من أعمارنا) (الزبيدي، 2010، ص 50). فالنباش الذي يرى غياب (عنترة) يرى بندقيته (الكلاشنكوف) الدفينة في حفرة داخل الحديقة أنها سيف صقيل، قاتل للأعداء، طارد للمعتدين وهو امتداد لسيف فرسان العرب. وأين هذا السوييف من تلك السيوف؟! ينقل الراوي على لسان بندقية أبيه المدخرة له: "يحى النباش يتحدث معي بحماس متزايد منذ سنين طويلة... حفرتي صارت بيتي.. رأيت فيه كل أنواع الذل والمهانة... أريد أن أرى عنترة... متى يستعملي... وتتحول البندقية إلى راوٍ ثانٍ تنقل لنا ما يقوله لها النباش: "مجرد كلمات مكررة سمعتها ألف مرة منه: - سيخرج عنترة من بطن أمه وتصبحين بندقيته

- ستشعرين بالفخر عندما يلعلع صوت الرصاص...

- عنترة هو البطل.. الذي سيحيل أرض الوطن شواهد لقبور الأعداء.

- أنت بندقية عنترة ولست بـ(سوييف خلف)...

- ستدخلين التاريخ من أوسع بنادقه..

إن الروائي يصور الواقع باستمرار الصراع بين صالحه ويحى النباش، وبالتناقضات المتجلية بتضاد العناوين، إن الصراع والمفارقة والنقد الساخر والواقعية المأساوية هي السمات الرئيسة التي تتسم بها الرواية.

المصادر والمراجع:

(1) ابتر، نت. ي 1989، أدب الفتنازيا (مدخل إلى الواقع) ت، صبار السعدون، دار المأمون للنشر والتوزيع، بغداد.

(2) ابن منظور، د.ت. لسان العرب، دار صادر، بيروت.

(3) احمد، محمد فتوح 1984، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة.

(4) إسماعيل، فهد اسماعيل 1978، ملف الحادثة 67، دار العودة، بيروت.

(5) البخاري 2004، صحيح، دار الحديث، القاهرة.

(6) الجارم، علي 2010، البلاغة الواضحة، مصطفى أمين، مكتبة البشري، كراتشي..

(7) جينت، جيار 2008، عتبات من النص إلى المناص، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف،

ط1.

8) جويحي، يحيى شايف 2006، إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث (دراسة في المتن السيّاسي) اتحاد الكتاب اليمنيين.

9) حسين، خالد 2008، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، التكوين للطباعة والنشر.

10) حمداوي، جميل 1997، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، م(25)، ع(3)، يناير مارس.

11) الزبيدي، خضير فليح 2009، خريطة كاسترو، دار الينابيع - سوريا.

12) الزبيدي، خضير فليح 2010، ذيل النجمة سيرة معمول لهم، رند للطباعة والنشر، دمشق

13) الزبيدي، علي عبد النبي، 2010 بطن صالحة، دار الينابيع، دمشق.

14) شعلان سناء 2004، السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن من عام 1970 إلى 2002.

15) عاصي، جاسم 2010، ما قيل وما، دار الينابيع، سوريا.

16) علوش، سعيد 1985، معجم المصطلحات الأدبية، دار الكتاب، بيروت.

17) الغالبي، ابراهيم حسيب 2008، اعترافات كائن، دار التكوين.

18) الغدامي، عبد الله، 1998، الخطيئة والتكفير، الهيئة المصرية العامة سنة النشر.

19) فرج، حميد الشيخ 2013، العنوان في الشعر العراقي الحديث، دار ومكتبة البصائر، ط1.

20) الفرطوسي، عبد الهادي 2002، الأرض الجوفاء، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

21) فطوس، بسام سيمياء العنونة، وزارة لثقافة، عمان، 2001.

22) كلارج، جيسكا 2008، الحكايات الشعبية الفولكلورية والخرافات والأساطير، تر، حازم مالك

محسن، مراجعة ا.د. عبد الواحد محمد، سلسلة عالم المعرفة، 6 حزيران.

23) المسدي، عبد السلام، د. ت. الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب.

24) مطر، سليم 2014، امرأة القارورة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2.

25) الموسوي، فاضل عباس 2009، تألق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

26) هالبرن، جون 1981، نظرية الرواية، ترجمة محي الدين صبحي - وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق.

27) هيمية، عبد الحميد 2007، علامات في الإبداع الجزائري، وزارة الثقافة الجزائرية.

المواقع الإلكترونية:

1) عثمان، أمين 2010، التناس في رواية أسرار صاحب الستر، شبكة المعلومات الدولية
www.diwanalarab.com

2) المجلسي، بحار الأنوار، مج 349/66. ومج 378/67 كتاب إلكتروني من موقع
http://www.kaseralsanamain.com

اللغة العربية والسيادة الوطنية

العراق أنموذجا

Arabic language and national sovereignty

Iraq is a model.

أ.د. حسن منديل حسن العكيلي

كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد

Prof. Hassan Mendeel Hassan

aligeali@gmail.com

الملخص:

يناول البحث: الصلة بين اللغة والسيادة الوطنية. والشائج التي تربط بينهما. وقد توصل البحث إلى أنّ اللغة رمز للسيادة الوطنية وأن الحفاظ عليها لا تقل أهمية عن العلم الوطني والدفاع عن الحدود والهوية وغيرها. وعدم العناية باللغة يعني نقص في السيادة الوطنية والهوية. هذا ويقع البحث في ثلاث مباحث تسبقهما توطئة وتختتمها خاتمة وتوصيات. تناولت في التوطئة التعريف بالسيادة الوطنية لغة واصطلاحا. أما المبحث الأول فقد تناولت به بإيجاز اللغة والسيادة الوطنية. وفي المبحث الثاني: التخطيط والسياسات اللغوية في العراق. ثم تناولت في المبحث الثالث: اللغة العربية والقوانين. وفي الخاتمة أوجزت أهم مرامي البحث ونتائجه فضلا عن التوصيات.

الكلمات المفتاحية: اللغة، اللغة العربية، السيادة الوطنية، الهوية الوطنية، التخطيط والسياسات اللغوية، قوانين اللغة، السيادة الوطنية.

Abstract:

Addressing research: the link between language and national sovereignty. and the bonds that bind them. He concluded that language was a symbol of national sovereignty as important as the national flag, borders and others. Failure to take care of them means a lack of national sovereignty. The research is based on three investigations, preceded by a preface and concluded by conclusion and recommendations. In the introduction, it dealt with the definition of national sovereignty in language and terminology. The first topic dealt briefly with language and national sovereignty. In the second topic: planning and language policies in Iraq. In the third topic, she addressed the Arabic language and the laws. In conclusion, i outlined the most important objectives and results of the research as well as the recommendations.

Keywords: Language, Arabic, National Sovereignty, National Identity, Linguistic Planning and Policy, Language Laws, National Sovereignty

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه. وبعد... إن السيادة الوطنية لكل أمة، ترتبط باستقلالها وهويتها الوطنية لغتها الرسمية. فكلما قويت السيادة الوطنية قويت لغتها الوطنية وزاد انتشارها واتضحت هويتها ولاستقلالها. والعكس صحيح. ذلك أن اللغة تعد مقياساً للسيادة الوطنية. تتراجع بتراجعها وتقوى بقوتها. قال أندرسون: وسيادة الأمم تبدأ بسيادة لغاتها ومؤسساتها التي ترقى بهذه اللغات، وهذه حقيقة تؤكد الشواهد التي سوف أذكرها مفرقة في البحث. إذ لم تعد اللغة تقف عند حدود التواصل المجتمعي، بل أصبحت تمثل جزءاً من السيادة الوطنية. فالإنجليزية صارت لغة دولية لأن أهلها جعلوا منها لغة عالمية لغة الحضارة والاقتصاد، وكذلك فرنسا أثبتت حضورها كحضارة وقوة عالمية رئيسة عبر بسط سيطرة اللغة الفرنسية من خلال منظمة الفرنكوفونية. وإذا كانت السيادة الوطنية تعني: السلطة العليا المطلقة التي تتفرد بالحكم، فاللغة رمز للسيادة الوطنية لا تقل أهمية عن العلم الوطني والحدود وغيرها. وعدم العناية بما يعني نقص في السيادة الوطنية. إن اللغة ليست أداة للتعبير فحسب، أو وسيلة للتواصل، ولكنها تظهر السيادة الوطنية في كل وطن أو أمة، لهوية فهمهم يعني الإحساس بالانتماء إلى الوطن. واللغة هي الهوية ذاتها وجوهر السيادة هو الحفاظ على الهوية، واللغة أول دعائم هذه الهوية، والحفاظ عليها حفاظ على مقومات الأمة وبقائها وحضارتها وسيادتها. وهي الكيان والتاريخ.. (بودرع، ورشيد بلحبيب، ما علاقة اللغة بالهوية والهوية اللغوية في المغرب من التعاضد إلى التصادم، ص. ص. 247. 280 ثقافة العربية وعصر المعلومات، نبيل علمي، ص. 228).

تناول البحث السيادة الوطنية لغة واصطلاحاً. والصلة بين اللغة والسيادة الوطنية، واللغة العربية والقوانين من خلال التخطيط والسياسات اللغوية في العراق. وقد توصل البحث إلى نتائج ذكرتها في الخاتمة، فضلاً عن التوصيات.

أولاً: اللغة والسيادة الوطنية

السيادة لغة: مبنود، يقال: فلان سيّد إذا ساد غيره أو قومه، والجمع سادة، ويقال: سادهم سوداً سيادة. والمُلبّدُ السَّيّدُ الذي ساد غيره. ويطلق على الرب والمالك والشريف والرئيس والمقدم، وأصله من ساد يَسُدُّ فهو سيّد، والرّعاة: للّدة والرياسة (مختار الصحاح ولسان العرب مادة (س و د)).

السيادة اصطلاحاً: عرفت السيادة اصطلاحاً بأنها: "السلطة العليا التي لا تعرف فيما تنظم من علاقات سلطة عليها أخرى إلى جانبها" (معجم القانون (سيد)، والوجيز في النظريات والأنظمة السياسية، ص.

66). وعرفت بأنها: "وصف للدولة الحديثة يعني أن يكون لها الكلمة العليا واليد الطولى على إقليمها وعلى ما يوجد فوقه أو فيه" (الدولة والسيادة في ظل العولمة، ثامر عبد الغني سباعنه، صحيفة دنيا الوطن تاريخ النشر، 2019، 01-10).

وتعريف معهد القانون الدولي بأن السيادة هي ما " تكون فيه أنشطة الدولة أو اختصاصاتها غير مقيدة بالقانون الدولي" (أثر التحولات الدولية الراهنة على مفهوم السيادة الوطنية، محمد بوبوش، الرباط 2006).

[https://www.oujdacity.net/regional-article-1676-ar/regional-article-1676-\(ar.html\)](https://www.oujdacity.net/regional-article-1676-ar/regional-article-1676-(ar.html)).

السيادة وضع قانوني ينسب للدولة عند توافرها على مقومات مادية من مجموع أفراد وإقليم وهيئة منظمة وحاكمة، وهي تمثل ما للدولة من سلطان على الأفراد داخل إقليمها وتواجه به الدول الأخرى في الخارج. ويعني ذلك أن سلطة الدولة في الداخل والخارج لا يعلوها أية سلطة. وعرفها بودان "بأنها السلطة العليا على المواطنين والرعايا والتي لا تخضع للقوانين" (القانون الدولي العام، د. علي صادق أبو هيف، منشأة المعارف الإسكندرية، طبعة 1995، ص، 103؛ والعلاقات الدولية، وريمون حداد دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الأولى 2000، ن ص، 273 ..). وتعريف محكمة العدل الدولية في قضية مضيق "كورفو" سنة 1949 في أن "السيادة بحكم الضرورة هي ولاية الدولة في حدود إقليمها ولاية انفرادية ومطلقة، وان احترام السيادة الإقليمية فيما بين الدول المستقلة يعد أساسا جوهريا من أسس العلاقات الدولية" (القانون الدولي العام، د. عبد القادر القادري، مكتبة المعارف، الرباط، 1984). فداخلها تتمتع السيادة الحرية التامة في اتخاذ القرارات ووضع القوانين والأنظمة. أما خارجيا، فالسيادة الخارجية تعني أن الدولة لا تقر سلطة فوقها، فلا تقيدها في الميدان الدولي إلا العهود والاتفاقات الدولية التي عقدتها هي نفسها معبرة في ذلك عن سيادتها واستقلالها في أمرها. والمساواة بين الدول وعدم جواز التدخل في شؤون الدول الأخرى، والدفاع عن تراب الوطن من السيادة كالدفاع عن اللغة الوطنية. ولها حق التصرف في مواردها الأولية وثرواتها الطبيعية. كما يمكنها اتخاذ التدابير التي تراها مناسبة حيال الأشخاص المتواجدين على إقليمها بغض النظر عن صفتهم كمواطنين أو أجانب. (د. أحمد سرحال، قانون العلاقات الدولية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ص، 127).

إِنَّ اللِّغَةَ سُلَيْمٌ أَدَاءٌ لِلتَّعْبِيرِ فَحَسَبَ، وَلَا وَسِيلَةً لِلتَّوَاصُلِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَلَكِنَّهَا شَأْنٌ مِنْ شُؤْنِ الْهُوِيَّةِ وَالْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ وَالسِّيَادَةِ الْوَطْنِيَّةِ فِي كُلِّ بَلَدٍ أَوْ وَطَنٍ أَوْ أُمَّةٍ، وَالْهُوِيَّةُ فَهْوَ "يَعْنِي الْإِحْسَاسَ بِالانْتِمَاءِ إِلَى الْوَطَنِ أَوْ الدِّينِ وَاللِّغَةِ هِيَ الْهُوِيَّةُ ذَاتُهَا، وَثَقَافَةُ الْأُمَّةِ كَامِنَةٌ فِي لُغَتِهَا، وَمِنْ حَضَارَةِ إِنْسَانِيَّةٍ إِلَّا وَصَاحِبَتُهَا اللَّغَةُ، وَمِنْ صِرَاحٍ بَشَرِيٍّ لَا وَيَكُونُ خَلْفَهُ صِرَاحٌ لُغَوِيٌّ خَفِيٌّ (بودرع، وَشِيد بلحبيب، ما علاقة اللغة

بالهوية تُولت اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ص. ص. 247. 280 الثقافة العربية وعصر المعلومات، نبيل علمي ص 228).

إنّ اللغة هي انتماء وهوية وثقافة وسيادة وطنية. ووعاء تحمل موروث الأمة العلمي والتاريخي والأدبي وتجعله تراثاً حياً يتداوله أبناء هذه الأمة. كالأترك الذين انفصلوا عن موروثهم وحضارتهم بسبب ترك الحرف العربي مما جعل الأجيال المعاصرة لا يستطيعون قراءة كتابات أجدادهم. فهي تقيم روابط الاتصال والانسجام بين أبناء الأمة الواحدة. وبين تاريخهم قال فيلسوف الألمان فيخته: (اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً مترافقاً). وقال فوسلر: إن اللغة القومية وطن روحي للإنسان. وهي كيان أيضاً مثل أحياء العبرية لتكوين الكيان الصهيوني.

وهناك مقولات كثيرة تربط بين اللغة العربية والسيادة مثل كفاح الثورة الجزائرية بوجه اللغة الفرنسية ... قال: أمين الزاوي عثمان سعدي رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية عن وضع اللغة في الجزائر: إنّ: (أي ثورة لا يمكن لها أن تُعد ناجحة إلا إذا حققت هدفين: تحرير الأرض وتحرير الذات، وتحرير الذات لا يكون إلا بسيادة لغة البلاد، وثورة الفيتنام حققتهما الاثنان انطلاقاً من مقولة زعيمها في كلام موجه للفيتناميين: "حافظوا على صفاء اللغة الفيتنامية كما تحافظون على صفاء عيونكم" (أمين الزاوي، صحيفة الشروق، في يوم اللغة العربية الجمعة 11 ديسمبر 2020 م). وقد سادت الفرنسية في الجزائر لسيادة الاستعمار الفرنسي على الجزائر وأصدر قانوناً سنة 1794 نص مادته الثالثة كما يأتي: "كل من يوقع وثيقة ابتداء من يوليو بلغة غير اللغة الفرنسية يمثل أمام محكمة حيه ويُحكم عليه بستة أشهر سجنًا، وبالطرد من الوظيفة" (المصدر نفسه).

ومن نماذج ذلك ما أصدره الرئيس الفرنسي في الجزائر إبان الاحتلال عام 1937م من قرار: (كل من يخاطب السلطات الفرنسية بغير اللغة الفرنسية يعقوبة بالإعدام). وقال مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: "ماذلت لغة شعبٍ إلاّ ذلّ، ولا انحطّت إلاّ كان أمره في ذهاب". ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة المستعمرة، ويُسعّرهم عظمتها فيها، "فأمّهم من بعدها لأمره تَبَع".

ومن الشواهد على ذلك أيضاً إصدار قوانين بعد سقوط الأندلس تأمر بقطع لسان من يتكلم العربية، مما أدى إلى ذهاب الحضارة العربية وتغيير الهوية في تلك الربوع بذهاب اللغة. وكانت اللغة العربية دولة بلغت ذروتها في القرنين الثاني والثالث الهجريين إذ كانت اللغة تمثل الحضارة العالمية، فقد حلت محل اللغات العالمية آنذاك كالفهلوية واليونانية والقبطية والبربرية وغيرها.

وأقبلت الشعوب على تعلمها وحفظها باندفاع شديد، وجاءوا من دول أوروبا إلى الأندلس لتعلمها، يقول أحد المؤرخين: إن أدباء أوروبا آنذاك سحرهم الأدب العربي وصاروا يكتبون بلغة العرب واحتقروا اللاتينية،

حتى يقول أحد قساوستهم: وا أسفاه، إن الجيل الناشئ من المسيحيين لا يحسنون أدباً أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان .
وكتب الفارو نصار قرطبة في عام 1854م رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها : "إننا لا نرى سوى الشبان المسيحيين هاموا بحفظ اللغة العربية يبحثون عن كتبها ويقتنونها ويدرسونها بشغف، ويتحدثون بها بطلاقة.
هذا الانتشار الواسع للعربية كان مرتبطاً بسيادة الدولة العربية الإسلامية وقوتها، وما تزال آثار تلك السيادة القديمة، فالיום تكتب بالحرف العربي اثنتان وثلاثون لغة: كالفارسية والباكستانية والأفغانية والهندية ومنها لغة تستعمل في أوروبا أيضاً.

واليوم العالم مدين للعربية لأنها نقلت العلوم والحضارات القديمة التي انطلقت منها الحضارة المعاصرة، لأنها باقية وقد انقرضت اللغات السابقة كالفهلوية والهندية القديمة واليونانية...
لقد أدت العربية، دوراً أساسياً في حياة الفكر الإنساني، حين كان نُشر المعارف والعلوم يكاد يقتصر عليها طيلة المرحلة التاريخية التي ساد فيها العرب، لمدة لا تنقص عن ستة قرون، ساد فيها العرب الكون في الفكر والحضارة (عبد الله النملي، الفُرْسَة انتهاك للدستور والسيادة الوطنية، هوية بريس 17 أبريل 2019 22:58).

لكن في القرن الرابع الهجري قويت القوميات والشعوبية والزندقة وخفت الإيمان فأحيوا اللغات التي أهملت من قبل الشعوب الإسلامية غير العربية. قال الخليل بن أحمد الفراهيدي - رحمه الله - : ((عامّة من تزندق بالعراق لقلة علمهم بالعربية)) (أ.د. حسن منديل، الكلمة التي أُلقيت في احتفاء الجامعة التقنية الوسطى باليوم العالمي للغة العربية 2018/12/18).

إن اللّغة العربيّة لغة شريفة لها حقٌّ علينا؛ لأنها الدين والحضارة والتاريخ والهوية والسيادة الوطنية، ولا بدّ من عناية بها على وفق معايير تناسب المرحلة الجديدة المتمثلة بالانفتاح والعولمة والانفجار المعرفي وسرعة الاتصال الذي يشهده العالم. وأدنى ما ينبغي علينا العناية هي: الاعتزاز بما لدى المثقفين ونشر ثقافة لغوية ووعي بأهمية اللغة العربية واحترامها والالتزام بقواعدها في الأقل، إذ يعتقد كثير من ذوي الاختصاصات العلمية أنهم غير محتاجين إلى معرفة أسس اللغة السليمة ما دام الأمر متعلقاً بالفهم والإيصال فحسب. وهو اعتقاد واهم ذلك إن من لا يمتلك الحدّ المعقول من سلامة اللغة والأسلوب، لا يستطيع إيصال علمه إلى الآخرين بتعبير دقيق. يقول د. طه حسين: إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في شخصيتهم نقص أيضاً (المصدر نفسه).

فاللغة رمز للسيادة الوطنية وعدم العناية بها يعني نقص في السيادة الوطنية، إذ الناس ينتسبون إلى لغاتهم، وهي كذلك رمز للسيادة، لا تقل أهمية عن العلم الوطني والدفاع عن الحدود وغيرها". وكان الحاكم سابقاً

من أدنى شروطه أن يُحسن العربية الفصحى وعلومها على الخلاف من اليوم فإن إتقان الإنجليزية أو الفرنسية يضمن الوظائف الجيدة والمناصب والعيش الكريم في العالم الحديث.

أما اللغة الوطنية في العراق فقد اتسمت العناية بها بالضعف. ومن مظاهر هذا الضعف:

1. تعطيل المجمع العلمي العراقي الذي كان يتولى العناية باللغة العربية ورسم السياسة اللغوية في العراق. وكذا بيت الحكمة لا تعنى باللغة العربية.

2. التهاون بتطبيق قانون سلامة اللغة العربية لسنة 1973 الذي يعد أقوى قوانين المحافظة على لغة الضاد المرتبط بالسيادة الوطنية.

3. أما قانون اللغات العراقي لسنة 2014 فلم يقر اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة وإنما جعلها مشتركة مع اللغة الكردية في جميع مناطق العراق فضلا عن إقليم كردستان، الذي باتت اللغة العربية فيه مهددة بالانقراض.

وتكاد تنحسر اليوم اللغة العربية تدريسا ودراسة على وفق مناهج قديمة في أقسام اللغة العربية في الجامعات، وهي أقسام معزولة عن المجتمع ومؤسسات الدولة الثقافية والإعلامية والسياسية... فضلا عن أن الغالبية العظمى من التدريسين ليس لهم أثر واضح ولا فرص لبلوغ مواقع اتخاذ القرار ووضع السياسات اللغوية الرصينة والتخطيط اللغوي السليم. ناهيك عن أن أصحاب القرار في العراق لا يعوون أهمية اللغة العربية نفسها في السيادة والهوية الوطنية والتنمية. يذكرنا ذلك بقيادة الأمة الإسلامية عندما كانت الأمة في أوج قوتها وحضارتها، فقد تولى الحكام رعاية اللغة العربية بأنفسهم، وأصدروا الأوامر والقوانين بالحفاظ على سلامتها ومعالجة اللحن فيها، ودعم علمائها وتكريمهم وتقريبهم، وتعزید مؤلفاتهم. وتشجيعهم لدراسة مزاياها وخصائصها وأسرارها. إذ كانت نشأة علوم اللغة العربية والعناية بها بتوجيه من أعلى جهات في الدولة الإسلامية والعربية. وبإشراف مباشر منهم. لذلك تميزت اللغة العربية بسرعة انتشار لا نظير لها عبر التاريخ أذهل علماء تاريخ اللغات من المستشرقين. وقد تميزت بأضخم تراث شهده العالم من كتب ودراسات ومخطوطات.

وعندما تكون العناية صادرة من الجهات العليا في الدولة يعد ذلك انتصارا للغة العربية. ذلك أن من طبيعة المجتمع تدعو إلى الاقتداء بقادته والالتزام بالسياسة التي ترسمها الدولة، مما يسهم في تعزيز مكانة العربية في نفوس أبنائها، والحرص على سلامتها؛ لأن الحفاظ على اللغة هو حفاظ على الهوية الوطنية والثقافة والتاريخ، وتلك مهمة قادة البلدان ونخبها ومؤسساتها العلمية.

مثال عملي: أنشأت صفحة في الفيس باسم اليوم العالمي للغة العربية. وقد وجهت دعوات للأصدقاء للاستجابة بالإعجاب أو التعليق من فئات مختلفة.

أذكر بعض استنتاجات التفاعل مع هذه الصفحة في اليوم نفسه:

- كان الكثير منهم لا يعلمون بهذا اليوم.

- كانت استجابة طبقة المثقفين غير المختصين باللغة العربية واسعة جدا.

- كانت استجابة الأساتذة المختصين باللغة العربية ضعيفة جدا.

- وتكاد تكون استجابة المسؤولين معدومة.

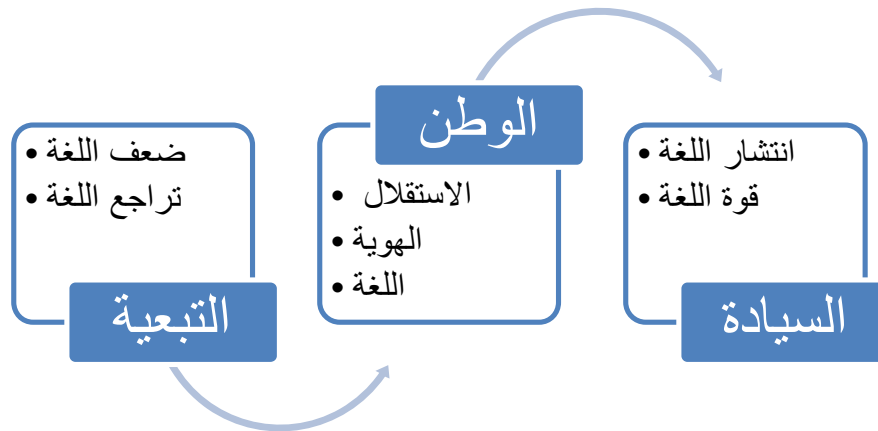
وهذا كله يدل دلالة واضحة على ضعف العناية باللغة العربية من لدن الدولة. ويؤثر في السيادة الوطنية ذلك أن اللغة تعد مقياسا للسيادة الوطنية. تتراجع بتراجعها وتقوى وتسود بقوة سيادتها الوطنية، كالإنجليزية والفرنسية وكذلك الألمانية والصينية وغيرها.

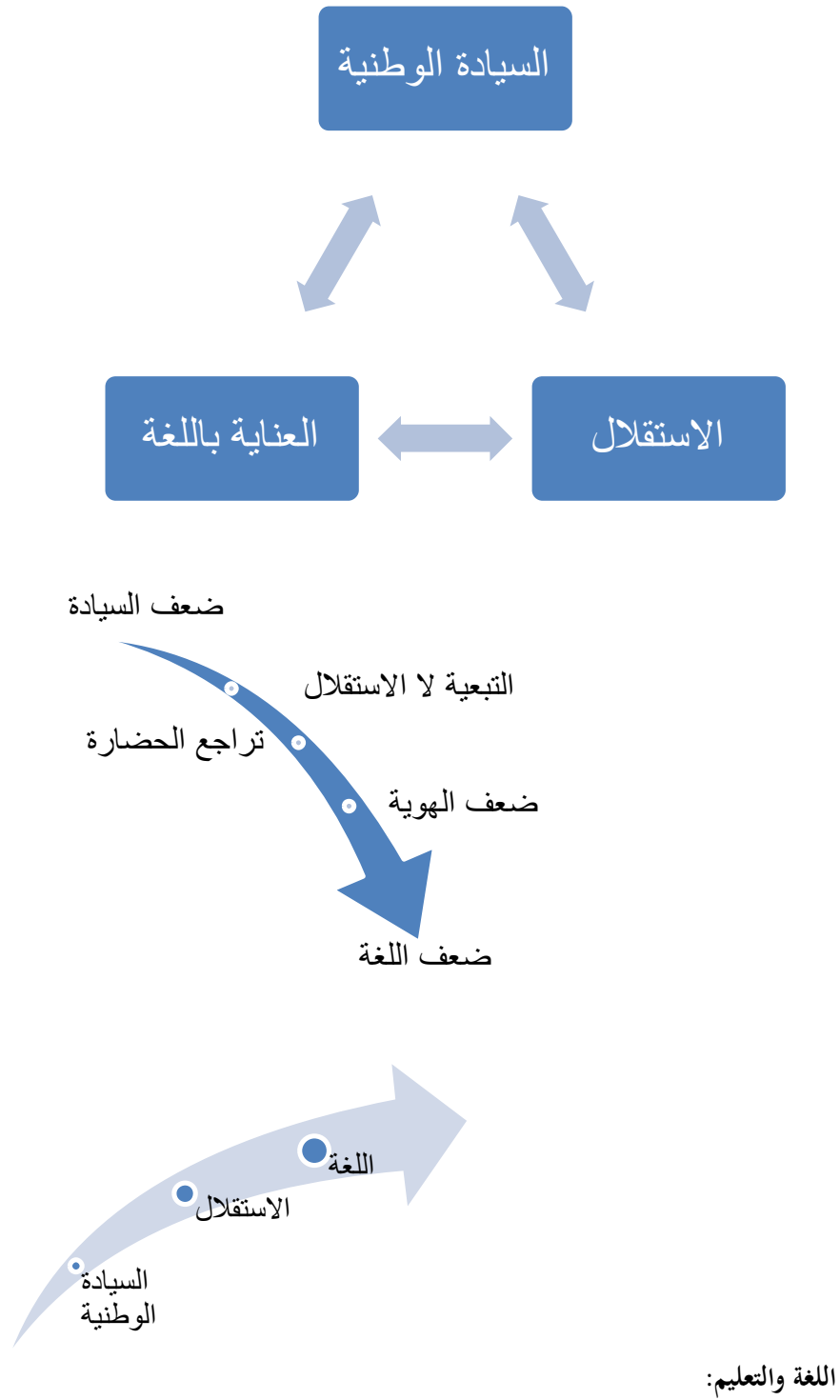
إن قوة الأمة من قوة لغتها كما أشار ابن خلدون، واللغة هي الأساس المتين الذي تقوم عليه حياة الأمة كما يقول أندرسون. وسيادة الأمم تبدأ بسيادة لغاتها ومؤسساتها التي ترقى بهذه اللغات، وهذه حقيقة تؤكدتها الشواهد الآتية:

إذ لم تعد اللغة تقف عند حدود التواصل الاجتماعي، بل أصبحت تمثل جزءاً من السيادة الوطنية، فالاتحاد الأوروبي مثلاً اندمج في المجالات كافة السياسية والاقتصادية والأمنية والقضائية، إلا في مجال اللغة، إذ يعمل في مؤسسات الاتحاد الأوروبي (الذي يشمل 27 دولة يتكلمون 26 لغة) نحو 4000 أربعة آلاف مترجم فوري وتحريرى بغية حماية الشرعية الديمقراطية للاتحاد (د. محمد داود، اللغة عنوان السيادة الوطنية).

فالإنجليزية صارت لغة دولية لأن أهلها جعلوا منها لغة دولية، كما عملت فرنسا وتعمل على إثبات حضورها كحضارة وقوة عالمية رئيسة عبر بسط سيطرة الفرنسية من خلال منظمة الفرنكوفونية. كل هذا يفسر سعى هؤلاء إلى التميز الحضاري والثقافي، وإلى الحفاظ على الهوية؛ لأن الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية.

مخططات توضيحية:





قال علي عبد الله موسى المنسق العام للمجلس الدولي للغة العربية: إن ضعف المنتج التعليمي والمخرجات، يعود إلى ضعف الطلاب في اللغة التي لم تؤهلهم لفهم واستيعاب المادة العلمية، ولا تساعدهم على التفكير والعمل الإبداعي، ما يجعل البعض يلجأ إلى اللغة الأجنبية لتكون لغة التعليم والإدارة وسوق العمل والتجارة، ولكن النتائج لن تعزز الوحدة والاستقلال والسيادة والقيم الوطنية، بل على العكس، سوف تؤدي إلى تشقق وتشظي المجتمع على المدى البعيد.

وقال: إن الاستثمار في اللغة الوطنية يعني الاستثمار في الإنسان والأجيال القادمة، وضمان وحدتها وتمسكها بقيمتها وثوابتها ومكتسباتها ومرجعياتها وتاريخها، ومنحها الفرصة للمنافسة في كافة الميادين، مع محافظتها على هويتها، والاستثمار في الجودة والإتقان والإبداع والابتكار في كل ما يتعلق باللغة العربية من وظائف وأعمال تعتمد على المهارات والقدرات والتفكير.

وإذا كانت العملة الوطنية من أهم المقومات الوطنية ولا يمكن أن تحل محلها عملة أجنبية، فإن اللغة الوطنية أهم أدوات تشكيل العقول الوطنية وتعزيز المواطنة والوحدة والسيادة والاستقلال.

وإذا كانت بعض دولنا تعاني من التحديات الأمنية الداخلية التي تهدد السيادة والاستقلال والوحدة. فأن ذلك يعود إلى الخلل في تفكير مواطنينا الناتج عن ضعف لغتهم وارتباطهم بلغات أجنبية ومشاريع خارجية تجعلهم رهينة لها على حساب المواطنة الصالحة، وبالتالي، تتحول تلك العقول إلى عقول مناهضة ومتصادمة مع القيم والثوابت المحلية، وتنفصل العلاقة بينها وبين مرجعياتها وثوابتها وقيمها الوطنية(أعمال مؤتمر اللغة العربية الثالث، دبي).

ويقول الدكتور عابد الجابري (لقد اعتدنا سماع عبارات تحكم على مستوى التعليم بالتدني، أي بالتراجع إلى الوراء بالنسبة لما كان عليه الحال في فترة ما. مثل هذه الأحكام، ولو أنها صحيحة نسبياً، أحكام ليست بريئة دائماً، هناك من يشتكي من انخفاض مستوى التعليم ليصل إلى النتيجة التي يريد، وهي أن السبب هو التعريب، وبالتالي فالعلاج يكون في العُدول عن التعريب)، ويضيف (بخصوص التعريب يجب الفصل بين شيئين: بين ما هو ثابت ومبدئي لا مجال فيه للمراجعة ولا للتراجع، وبين ما هو قابل للتغيير والتطوير. وأقصد بالثابت هذا كون اللغة العربية هي لغة المعرفة في المغرب. ليس هناك في أي مكان من العالم بلد يضع لغته موضوعاً للمناقشة. اللغة هي الوعاء التي تنصهر فيه الهوية ووحدة الوطن والمواطنة. ففي هذا الوعاء وبه تتحقق وحدة المشاعر ووحدة الفكر ووحدة الذاكرة ووحدة التطلعات، بدون هذا لن تكون هناك هوية ممتلئة وغنية، ولن تكون هناك جذور ولا ثقة بالنفس. الهوية ليست شيئاً جامداً جاهزاً، بل هي كيان يكون ويصير، ينمو ويغتنى باللغة بما تحمله وتنشره من موروث حضاري)، وأضاف قائلاً (هناك بالتأكيد من يرى ويلح على أن تدريس العلوم باللغة الفرنسية في مدارسنا الثانوية مسألة ضرورية تفرضها الظروف، وهذا قلب

للأمور) (عبد الله النملي، الفرنسية انتهاك للدستور والسيادة الوطنية، هوية بريس 17 أبريل 2019 (22:58).

وتدل الدراسات الميدانية أن أصلح لغة للتعليم هي اللغة التي يفكر بها الطالب، فالمفاهيم العلمية إذا أُلقيت على الدارسين باللغة التي يفكرون بها، نَفَّذَتْ يَسْرَ إلى أعماق أذهانهم، وأمكنهم أن يُبدعوا من خلالها، علاوة عن أن القارئ أو السامع يستوعب مضمون نص عربي بزيادة مقدارها 16_20% ، أكثر مما يستوعب نصا بلغة أجنبية، مهما كانت درجة إتقانه لهذه اللغة. ويزداد هذا الخطر كلما تقدم الطالب في مراحل التعليم، لتحل اللغات الأجنبية محل اللغة العربية، ويصبح تابعا ثقافيا وحضاريا لغيره. وفي مجلة اللسان العربي كتب الأستاذ إدريس الكتاني قائلا (وقد حدث أن طلبت الحكومة المغربية عام 1963 من البنك الدولي القيام بدراسة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب، فأرسل البنك بعثة علمية قضت شهرا في ربوع المغرب في البحث والدراسة، ثم أعدت تقريرا نصحت فيه الحكومة المغربية، ومن وجهة نظر اقتصادية بحة، أن تضع حدا لتعليم اللغة الفرنسية في المدارس، توفيراً لـ 30% من وقت التلاميذ والمعلمين. كما درست لجنة من خبراء اليونسكو هذا الموضوع، وأكدت بوجوب استعمال اللغة الأم في التعليم العالي، ولا يمنع هذا من أن يتعلم الطالب لغات حية أخرى تُعينه على الاطلاع والاتصال بالعالم المتقدم) (المصدر نفسه).

دولة اللغة العربية:

أردت في البدء تسمية هذا البحث ب: (دولة اللغة العربية) أو ثورة اللغة العربية، لكن قد لا يتضح هذا العنوان للقارئ مثل مناسبة عنوان: (اللغة العربية والسيادة الوطنية) له (الذي يتناول. مواضيع عدة منها اللغة العربية والثورة الجزائرية، واللغة العربية والثورة التكنولوجية، التخطيط والسياسات اللغوية، الألسنية ومناهجها الحديثة ولغة العرب، اللغة العربية والهوية، اللغة العربية والحروب اللغوية، اللغة العربية والاقتصاد... ويتناول عصورها التي قويت فيها وسادت. لقد بدأت دولة اللغة العربية عبر التاريخ منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي قام بحركة تعريب واسعة، ثم سار الخلفاء الراشدين على النهج نفسه وكانوا يحثون على تعلمها عليها وضبطها. وفي القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع الهجري بلغت ذروتها، إذ ساد العرب المسلمون العالم آنذاك. وكانت بعناية ولالة الأمر قادة الدولة الإسلامية كالصاحب بن عباد الذي كان عالما بها مقدسا إياها، وابن العميد والبويهيين الذين نشأت في عهدهم حركة علمية لغوية واسعة، على الرغم من أنهم كانوا من غير العرب، إذ شهدت دولتهم رقا فكريا وعلميا، وعناية كبيرة باللغة العربية فضلا عن حبهم العربية نتج عنه طفرة نوعية في التقدم بشتى المجالات.

وندعو إلى إحياء دولتها من جديد والعناية بها وابتكار أسرارها العلمية وعبقريتها وخدمتها والدعوة إليها وبيان ارتباطها بالقرآن الكريم والدين والشريعة. فلا بد من إحياء لغتنا الوطنية اليوم على وفق التخطيط

اللغوي ورسم السياسات اللغوية وأن يشارك علماءها باتخاذ القرارات، ذلك أنهم يختصون باللغة الرسمية للدولة التي تمثل هوية الدولة وسيادتها. ليضعوا الخطط والسياسات لتنمية اللغة العربية والعناية بها وإحياء مجدها، وأن يعنى بها القادة أو يكونوا مختصين بها في الأقل على غرار القدماء. فقد كان لها الصدارة في كل شيء لأنها لغة الدين والدولة القوية والعلماء الكبار كان ينصهر بها الأعاجم المسلمون وغيرهم يعجبون بها لعلمهم بأسرارها... كعلماء اللغة: سيبويه وأبي الفارسي وابن جني ... في عصر الأصالة العربية التي ينبغي الرجوع إليها والاستناد إليها، والبناء والانطلاق منها لا التقليد والتأخر الذي دخله شوائب لأن المتقدم كان أصيلاً فكراً وهذا يختلف عن التطور شريطة الرجوع إلى الأصالة لا التأخر...

يدعو هذا المبحث إلى دراسة اللغة العربية في ضوء أصالتها في نفسها وأصالة الدراسات المتقدمة فيها وفهمها والانطلاق منها. والأصالة غير التبعية من حيث العقل والتفكير والابتكار... ودراسة اللغة العربية وبيان عبقرية النحو وعبقرية اللغة في ضوء التطور المعرفي والتقني والانفجار المعرفي في التخصصات المختلفة كالتقانة والاقتصاد، وربطها بالسوق، والعمل، والابتكار. وصلتها بالدولة والمؤسسات العلمية والمجتمع المدني. إن المنطلقات العلمية السليمة والأسس الرصينة والمنهج العلمي القويم تفضي بالدراسة إلى نتائج مستقيمة. لا بد من استثمار العربية اقتصادياً وربطها بسوق العمل والوظيفة، وتطبيق معايير ضمان الجدوى في الدراسات اللغوية وتحديثها. وتطوير مناهج دراستها وتدريسها وبيان أهميتها...

ثانياً: التخطيط والسياسات اللغوية

التخطيط: لفظة محدثة، تعني وضع خطة مدروسة للنواحي الاقتصادية والتعليمية والإنتاجية وغيرها للدولة. والأنشطة السياسية والإدارية الهادفة إلى حل المشكلات اللغوية في المجتمع. واتخاذ القرارات التي تتعلق بتعليم اللغة واستعمالها. أو دعم لغة لنشرها خارج حدودها الجغرافية كدعم اللغة الفرنسية في لبنان والتخطيط لها والعمل على إبقائه (أ. بلال دربال، السياسة اللغوية المفهوم والآلية، مجلة المخبر، ع 10، س 2014، ص 329).

ومن مزايا اللغة العربية أنها لا تحتاج إلى مزيد من العناية في رسم السياسات اللغوية كسائر اللغات لدعمها أو نشرها، فهي قوية لأسباب خارجية وليس في ذاتها كاللغة العربية. ولا سيما إن واقع العالم الغربي وأهدافه من وضع السياسات اللغوية تنأى عن الواقع العربي، وإن طبيعة لغاتهم ولا سيما اللغة الإنجليزية تختلف جوهرياً عن لغتنا العربية للخصوصية التي تنماز بها، ولذلك ليس من وكدنا تطبيق السياسات اللغوية الوافدة على اللغة العربية للخصوصية التي ينماز بها الواقع العربي واللغة العربية أيضاً، ويمكننا أخذ ما ينفع لغتنا من خلال تجربة التخطيط اللغوي للغات العالمية التي تهيمن على الاقتصاد العالمي وسوق العمل والحياة الاجتماعية والثقافة كالإنجليزية أو الفرنسية. كما كانت لغتنا العربية عندما اجتاحت اللغة العربية العالم القديم بعد

الإسلام، من غير أن يبذل العرب جهوداً كبيرة أو أموالاً طائلة أو أن يرسموا الخطط والسياسات لنشرها، إنما انتشرت لإعجاب الشعوب بها، ولارتباطها بالإسلام والقرآن الكريم. فأقبلت الشعوب على تعلمها بشغف.

وثمة قضايا مهمة منها: أن نخطط كيف نعرف العالم بأسرارها وبإعجازها وبدقائقها ونقنع العالم بالسبل العلمية بصلاحياتها لتدوين المعارف والعلوم بها، لحفظ الحضارة العالمية، لأنها لغة ثابتة لا تتغير ولأنها لغة المستقبل. خلاف اللغات الأخرى. ونقنع العالم الإسلامي أن يجعل اللغة العربية اللغة الرسمية الأولى في بلدانهم كما كانت قبل عصر القوميات.

ويشمل التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية العامل الاقتصادي والاجتماعي فإن تعلم الناس بعض اللغات يضمن لهم التعليم والعمل في الوظائف الحكومية والمناصب والعيش الكريم في العالم الحديث كاللغة الإنجليزية والفرنسية. ويربط بعض العلماء بين ترويج المستحدثات الحضارية المتصلة بكل شؤون الحياة، وترويج المصطلحات الدالة عليها، ومن الممكن تطبيق طرق دراسة ترويج المستحدثات على دراسة التخطيط اللغوي، فالمقصود بترويج المصطلح اللغوي: الجهود المبذولة من أجل إقناع واستمالة المستهدفين من أجل تبنيه واستعماله. كما يربطون بين التخطيط اللغوي، ومجموعة من خطط تسويق البضائع من أجل تغيير سلوك الأفراد، إذ ينظر إلى عملية اكتساب اللغة على أنها منتج يمكن تشجيع المستهلكين على شرائها (د. أبو السعود أحمد الفخري، في فقه العربية"، ط4، 2006م).

والذي أراه أن السياسة اللغوية للغة الإنجليزية خاطئة بسبب التشدد في عدم إعطاء فرصة للتعليم والوظيفة والاشتراك بالمؤتمرات إلا من خلال إتقان الإنجليزية، ذلك أنه يفقد منهم الكثير من العلماء والمبدعين الذين لا يتقنون الإنجليزية لكن التعصب للغاتهم والفهم الخاطئ والأهداف الاستعمارية يجعلهم يرتكبون هذا الخطأ الجسيم. فضلاً عن أن إعطاء الفرصة لهؤلاء ولا سيما في ضوء انتشار وسائل الترجمة السريعة، وهم يحسرون وسيلة مهمة من وسائل نشر اللغة بين المتميزين الذين لا يحسنون لغاتهم لأن هؤلاء سيسعون إلى تحسين لغتهم الأجنبية ويسعون إلى إتقانها من خلال إتاحة فرص علمية واقتصادية لهم.

السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي في العالم العربي:

لقد أخفق العرب في مرحلتنا المعاصرة في تحقيق الوحدة الوطنية في المجال السياسي والاقتصادي أو الوقوف في القضايا المصرية، فينبغي لهم - في الأقل - أن يجلّوا في الحفاظ على وحدة لسانهم بلغتهم الفصيحة، ذلك أن اللغة أهم مقمّ من مقّمات الدولة الحديثة. ويرى علماء اللسانيات أن اللغة وهوية المتكلمين بها شيء واحد، ولهذا يمكن تأسيس الكيانات الاجتماعية والسياسية على أساس لغوي، ومن هنا تأتي خطورة المكون اللغوي في تحقيق أو زعزعة الاستقرار السياسي للمجتمعات. وقد حاولت الدول الاستعمارية فرض لغاتها على الشعوب المستعمرة في آسيا وأفريقيا والأمريكيتين، من خلال سياسة وتخطيط لغوي يسعى إلى تغيير

هوية الشعوب المستعمرة من خلال نشر لغتها وثقافتها، ما يضمن تبعية شعوب المستعمرات اللغوية والثقافية والتعليمية والاقتصادية للمستعمر حتى بعد رحيله كما في المغرب العربي. وجعلت اللغة الإنجليزية لغة للعولمة العلمية والاقتصادية والثقافية والسياسية والتعليمية. فضلا عن الدعم المادي والمعنوي الالمحدود لتعليم اللغة الإنجليزية في العالم، وكثرة المؤسسات التي تتمظهر بالتعاون التعليمي أو العسكري أو الاقتصادي لكنها تسعى الى نشر ثقافات المستعمر ولغاته، ودعم نشر المدارس والجامعات الأجنبية والمدارس التبشيرية في دول الفرنكفونية ودول الكومنولث وغيرها من دول العالم الثالث. يذكر فيشمان وآخرون 1968 م إن أحد تطبيقات التخطيط اللغوي هو تنظيم دور اللغة عند بناء الدول بعد تحررها من الاستعمار الذي طمس الهوية اللغوية والقومية للشعوب المستعمرة تمهيدا لإحلال لغة المستعمر بدلا من لغات تلك الشعوب. (جميل عبد الله، السياسة والتخطيط اللغوية من الاستعمار إلى العولمة اللغوية)..

اللغة هوية وحضارة:

اللغة هوية الأمة، وأعظم مقومات وجودها. والأمة الحية تحافظ على لغاتها حفاظا على أوطانها. والعلاقة بين مكانة الأمة ومكانة لغتها وثيقة جدا، فاللغة مكن أساس من مكونات الهوية، يجب الحفاظ عليها ورعايتها والعناية فيها.

ولولا خصائص العربية لضعفت وتفرعت أو ماتت كاللغة اللاتينية، بحسب قوانين تطور اللغات، لكنها أقوى من المتغيرات الزمانية ومن أهلها إذ ليس لأهلها أثر فاعل في الحضارة المعاصرة، ذلك أن قوة اللغات وضعفها ترتبط بمكانة وسيادة أهلها بحسب قوانين اللغات.

فلا بد من العناية الشديدة بتنمية اللغة ذلك أن المعرفة اللغوية هي العنصر الأساس للتحصن ضد الجهل، وهي التي تمكن الإنسان وتساعد على إنتاج الجمل المفيدة، وتوليد الأفكار والتعبير عنها وتحسيد الوعي اللغوي المتميز وإنتاجه، ومن ثم ترتفع قدرات الأفراد على الابتكار والتجديد من خلال الإسهامات الذاتية في الأنشطة اللغوية وتوطيد علاقاتها بالتكنولوجيا. وتكثيف برامجنا اللغوية بحيث يكون في إمكاننا التنافس مع لغات أخرى.

إن التقدم والتطور في التخصصات العلمية يفرض علينا تراكما معرفيا في مجال المعرفة اللغوية أو الإنتاج اللغوي.. وإن سر نجاح العديد من الدول في التنمية يرجع إلى سيادة لغتها على أرضها، وإن اللغة العربية هي أهم عناصر الهوية، والتفريط في اللغة هو تفريط في هويتنا التاريخية وقيمنا الثقافية والأخلاقية وسيادتنا الوطنية (أ. عمار بوحوش، لغة التنمية، موقع المجلس الأعلى للغة العربية، وساطع الحصري، "أبحاث مختارة في القومية العربية"، القاهرة، دار المعارف، 1964، ص. ص. 40. 43).

تحديات تواجه اللغة العربية:

ثمة تحديات تواجه اللغة العربية في العالم العربي تقف عائقاً أمام تنمية اللغة العربية أهمها عدم إدراك خطورة المشاريع التي تستهدف اللغة العربية على المدى البعيد منها: التخطيط لاستبعاد اللغة العربية من بين اللغات العالمية في هيئة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها ، ومشروع تشجيع اللهجات العامية في الوطن العربي، ومشروع تعليم مواد المعرفة باللغة الانجليزية في المدارس الخاصة والجامعات الخاصة في دول الخليج العربي، ومشروع اتحام اللغة العربية بالصعوبة وعدم مواكبة روح العصر واستيعاب العلوم المعاصرة وغيره (زهير غازي زاهد، ماهر خضير هاشم، قراءة في كتاب (العربية والأمن اللغوي)، جامعة بابل).

والمشكل هنا أن المشرفين على التعليم لا يدركون أن مجد الأمة وعزتها وكرامتها لا يمكن أن يعود إلا بالعودة إلى سيادة اللغة العربية على أرضها. وإن كل أمة أحرزت تقدماً ملموساً ونهضة علمية، لابد أنها تكون قد اعتمدت المنهج العلمي الصحيح والمتمثل في تدريس المناهج العلمية والتقنية باللغة الأم وليس باللغات الأجنبية. فالسيادة الوطنية مرتبطة بقوة اللغة الوطنية وسيادتها في الدولة، كما كانت العناية باللغة العربية قوية في العراق قبل الاحتلال والقوانين الخاصة بالحفاظ على اللغة العربية وسلامتها، وتراجع ذلك بعد الاحتلال. وسأتناول ذلك مما يكون مثالا للمقولة التي تربط بين السيادة الوطنية والهوية وبين اللغة فإن عدم العناية باللغة الأم دليل على النقص في السيادة الوطنية وضعف في الهوية والانتماء (ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، القاهرة، دار المعارف، 1964، ص. ص. 40. 43).

العربية والعملة اللغوية والسيادة (ثامر عبد الغني سباعنه، الدولة والسيادة في ظل العولمة، صحيفة دنيا الوطن، 01-10-2019؛ والمصطفى تاج الدين، سياسة لغوية متساهلة في زمن العولمة، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، ع 9، سنة 2005م.)

من أهم المعوقات التي تواجه العربية هي: العولمة.

والعولمة لغة مشتقة من العالم (العولمة وأثرها في المجتمع والدولة، 2002)، أو العلم، وليس بالإمكان اختزال العولمة في مفهوم سياسي أو اقتصادي أو ثقافي أو اجتماعي أو إعلامي أو تكنولوجي، فقد غدت تطال كل المفاهيم تقريباً، ولها علاقة بكل الجوانب والمجالات.

تبوأت اللغة العربية إبلد الفتح الإسلامي مكانة مرموقة بين لغات العالم، وارتبطت بقوة المسلمين، فكانت لغة العلم حتى القرن الخامس الهجري.

إن السيادة الوطنية في الوقت الراهن اهتزت، لكونها عرفت العديد من التحديات على صعيد العديد من القطاعات سواء في المجال الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي، وسواء أرادت الدول ذلك أم أبت، مما يجعلنا نتساءل حول أوجه التأثير على مظاهر سيادة الدول خلال فترة النظام العالمي الجديد.

وتعد اللغة من أهم الملامح التي تكوّن هوية الأمة وتميّزها عن غيرها، فاللغة العربية هي العنصر لأي ثقافة أو حضرة، واللغة العربية اليوم تواجه تحدياً قوياً في عصر العولمة، فالعولمة كما نراها اليوم تسير نحو التأثير السلبي

في الهوية والسيادة وتذويها وطمس معالمها، وابتعد الناس عن اللغة العربية ليزدهر التغريب وتتحقق التبعية (نهر، هادي، اللغة العربية وتحديات العولمة، ص 24؛ والدكتور محمد أجمل القاسمي، عولمة اللغة العربية وتحدياتها وإنجازاتها، مجلة الداعي، يونيو 2014م، العدد، 8، السنة، 38).

والذي أراه أن العربية أصلح ما تكون اللغة العلمانية للعالم، لمزاياها العلمية والعلمية الصالحة لكل زمان واستمراريتها. وهذا ما تسعى إليه العلمانية من بسط ثقافتها أو نفوذها في العالم.

ثالثاً: اللغة العربية والقوانين

لا يزال العراق في مرحلة انتقالية، ومحاض تحول اجتماعي واقتصادي، يحتاج إلى الحوار في المشكلات التي تعيق تقلّمه في كل الميادين. ومنها لغتنا العربية الرسمية الوطنية القومية الدينية، لتحتل لغتنا التي هي حضارتنا وتاريخنا وديننا من العناية التي تستحقها، وألا نغفل مكانها المناسب في التحول الحضاري الجديد، في ظل كثرة المؤسسات الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني المستحدثة والصروح العلمية والمؤسسات البحثية والإعلامية الجديدة والكيانات السياسية وغيرها التي ستؤدي دوراً فاعلاً في تغيير المجتمع العراقي في المستقبل القريب والبعيد، لذا أصبحت العناية بلغة المجتمع ضرورة وطنية لأنها البنية الأساس في بناء مجتمع جديد يعنى بواجباته كافة، ومنها الاعتزاز بلغته التي تمثل تأريخه وحضارته واستقلالته. ولأجل أن يكون النهوض العراقي الجديد شاملاً لا ينبغي إغفال العناية باللغة في هذا التحول الجديد حتى يكون النهوض العراقي شاملاً. لكنها عناية جديدة تواكب التحول الجديد وتوازيه واستحداث العديد من المؤسسات الثقافية والإعلامية المسموعة والمرئية والمقروءة.

قوانين اللغة العربية:

إن لغة الضاد تحتاج إلى تشريعات وقوانين، تحميها وتقوم على رعايتها، والحفاظ عليها لتواجه مزاحمات اللغات الأخرى، فضلاً عن إجراءات ملزمة ضمن خيارات وطنية وقومية جمعية، معتبرين أن هذه التشريعات تحافظ على اللغة بقوة القرار.

قال الدكتور محمد الضبيب رئيس تحرير مجلة العرب: إن جميع الدساتير في الدول العربية تنص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية، وهذه الدول تكتفي فقط بهذه الجملة ولا تؤازرها بقوانين وتشريعات، لافتاً إلى أن اللغة جزء من سيادة الدولة، وعنوانا من هذه السيادة، ويجب أن توجد تشريعات وقوانين، تحميها وتحافظ عليها، ويجب متابعة هذه التشريعات لينحسر ظل اللغات الأجنبية التي هيمنت على جامعاتنا. إن صون اللغة العربية وصونها يمثل مصلحة وطنية، كون هذه اللغة تعبر عن قيمنا وأصالتنا وهويتنا؛ فهي عنوان الأمة. (أعمال مؤتمر اللغة العربية الثالث، دي 66)..

ندعو إلى قوانين تنظم وضع اللغة الوطنية والمحلية والأجنبية، وتسهم في وضع سياسات لغوية وطنية تعمل على تعزيز اللغة العربية السليمة وحمايتها من الإقصاء، يدعم السيادة الوطنية.

لقد اقترح اتحاد المحامين العرب بتكليف من بعض علماء العربية قانوناً شاملاً للغة العربية: نتيجة لغياب السياسات والتخطيط اللغوي في الدول العربية فقد تولدت عن ذلك مشكلات لغوية على مستوى الفرد، والمجتمع، والمؤسسات الحكومية والأهلية... كما أسهم سوق العمل في إضعاف اللغة العربية وإقصائها وتهميشها، وفرضت على الفرد والمجتمع وجميع المؤسسات الخضوع لشروطها التي تفرض اللغة الأجنبية بديلاً عن اللغة العربية دون أية مرجعية قانونية أو سياسية لغوية.

ولكن لماذا يسمح لسوق العمل بالمخاطرة بهوية المجتمع التي يستمدّها من لغته العربية وسيادته على مؤسساته الوطنية من خلال لغته الوطنية التي يجب أن تسود في جميع مؤسساتها الوطنية والأهلية؟ إضافة إلى السلبات القائمة جراء تفشي لغات أجنبية ولهجات عامية، ولغات مختلطة ببعضها طغت على اللغة الوطنية (العربية) وعملت على إقصائها عن مواقعها الطبيعية؛ حتى أصبحت اللغة العربية السليمة غريبة معقدة، وغير مرغوب في استخدامها.. كما أسهمت عوامل أخرى في إضعاف اللغة العربية وإقصائها عن أماكنها الطبيعية، إضافة إلى سوق العمل، وخاصة في الإدارة والإعلام والتقنية والصناعات الحديثة، والتجارة، والسياحة، التي تعتمد اللغة الأجنبية، والحروف اللاتينية في إدارتها ومنتجاتها المستوردة للوطن العربي دون دعمها باللغة العربية، وفاقم من هذه السلبية أنه لم يتم وضع قوانين لمنع المنتجات والصناعات الأجنبية المستوردة لبعض الدول العربية دون الاكتراث بكونها غير مدعومة باللغة العربية السليمة (محمد بن أحمد الرشيد، قانون اللغة العربية، صحيفة الرياض، العدد 16619-24 ديسمبر 2013م).

ونظراً لغياب مرجعية قانونية لغوية يستند إليها صناع القرار وواضعو السياسات والمشرعون في جميع المؤسسات الوطنية الحكومية، والأهلية نتجت الفوضى اللغوية التي تهدد الوحدة الوطنية، والسيادة، والاستقلال، والسلم الأهلي.. من هذا المرتكز يأتي قانون اللغة ليسهم في تشجيع الدول العربية والمؤسسات لتبني قوانين وضوابط وسياسات تنظم وضع اللغة، وتؤسس للتخطيط اللغوي بما يخدم المصالح الفردية، والاجتماعية، والوطنية، والعربية.

ويعضي هذا القانون المقترح في مواده المتعددة التي شملت كل النواحي والاستعمالات اللغوية ناصاً - في مادته الثانية - على (أن اللغة مسألة سيادة وطنية، ولا يحق لأية مؤسسة حكومية أو أهلية أن تشترع أو تنظم أي قانون أو نظام للغة دون الموافقة من الجهة المشرعة للغة على المستوى الوطني في كل دولة).

وتنص المادة الثالثة على أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية للتعليم وسوق العمل والإدارة، والثقافة، والإعلام، والتجارة والصناعة، والاقتصاد والسياحة، والمعاملات اليومية في جميع المؤسسات والميادين والمهن دون استثناء (المصدر نفسه).

وأهم قانون يمثل السياسات اللغوية في العراق قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية رقم (64) لسنة 1977 (مجلة الوقائع العراقية - رقم العدد: 2587 تاريخ: 1977/16/5 رقم الصفحة: 714 رقم الجزء: 1) الذي يعد مثالا للمحافظة على العربية ينبغي أن يُقتدى به، وسياسة لغوية ناجحة أتت أكلها بإيجاد دولة ذات سيادة قوية، ذلك انه لا يمنح جميع اللغات - سوى العربية - أية فرصة للنمو أو الانتشار في العراق، ولا سيما اللغة الإنكليزية وبعد إنجازا عراقيا متميزا للحفاظ على اللغة العربية وهوية الأمة. نلاحظ فيه شدة وحزما ضد أي لغة تراحم العربية في العراق، بل يعد ثورة من ثوراتها على غرار الثورات العربية التي جعلت من اللغة العربية هدفها الأسمى كالثورة الجزائرية، مما عزز القومية العربية في العراق، وجعل العراق مركزا للقومية العربية. لإدراك الحكومة العراقية... بعمق مسؤولياتها القومية والحضارية، ومهمتها في صيانة اللغة العربية كونها تأكيداً شخصية الأمة ولمقومات ذاتها، وعاملا من عوامل وحدتها. ونلاحظ النفس القومي والفكر الحدودي والأيدلوجي والثوري في الصياغة نحو:

(الأسباب الموجبة: لما كانت اللغة العربية مقوما رئيسا للقومية العربية، وأساسا لوحدة الفكر بين أبنائها وكانت العناية بها موصولة بالعناية بوحدتها وبضميرها في الحاضر والمستقبل. ولما كانت غلبة العامية على العربية الفصيحة أثرا من آثار التخلف والجهل وسمة من سمات الأمية وعاملا من عوامل الفرقة والتجزئة وعوقا من معوقات انتشار التعليم ويقض الوعي القومي والجهود المنظمة نحو الثقافة. ولما كانت الحضارة الحديثة وما يصاحبها من ثورة علمية تقنية، وما تفتح من آفاق واسعة لتقديم الشعوب ورخائها، لا تخلو من مشكلات تمس ثقافتها ومن ذلك السيل المتصل من مفاهيم العلم الحديث وأسماء مخترعات التقنية ومواد الصناعة وإنتاجها التي لا بد أن تستوعبها اللغة القومية وألا انتشر الدخيل بينها وأضاعمت مقوماتها... ولما كانت العناية باللغة العربية تستوجب فيما تستوجب التزام الجهات الرسمية وشبه الرسمية والمصالح والشركات الجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها، كما تستوجب التزام الجهات المسؤولة عن التربية والتعليم وعن الإعلام برعايتها واعتماد الفصيحة منها أداة للتعليم وللأعلام وتنمية المهارات لأدائها).

وقد ألزم القانون في نصوصه ومواده الجهات الرسمية وغير الرسمية باللغة العربية وكما يأتي:

((المادة 1: تلتزم كافة الوزارات وما يتبعها من الدوائر الرسمية وشبه الرسمية والمؤسسات والمصالح والشركات العامة وكذلك الجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية، واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها وذلك بجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية.

المادة 2: على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم وعليها أن تحرص على سلامتها لفظا وكتابة وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها، وإدراك مزاياها والاعتزاز بها.

المادة 3: تلتزم مؤسسات النشر والإعلام التي تكون مطبوعاتها ومناهجها باللغة العربية أن تعنى بسلامة اللغة العربية، ألفاظا وتركيبا، نطقا وكتابة وتيسيرها للجماهير وتمكينهم من فهمها، على أن لا يجوز لها استعمال العامية إلا عند الضرورة القصوى، مع السعي إلى تقريبها من اللغة الفصيحة، والارتفاع بها على وفق خطة مقصودة.

المادة 4: يجب أن يحرر باللغة العربية ما يأتي:

أولا: الوثائق والمذكرات والمكاتبات وغيرها من المحررات التي تقدم إلى الدوائر الرسمية وشبه الرسمية ومنها المصالح والمؤسسات والشركات العامة، وإذا كانت هذه المحررات بلغة أجنبية وجب أن ترفق بها ترجمتها العربية.

ثانيا: السجلات والمحاضر وغيرها من المحررات التي يكون لممثلي الحكومة والمؤسسات وحق الإطلاع عليها وتفتيشها بمقتضى القوانين والأنظمة.

ثالثا: العقود والإيصالات والمكاتبات المتبادلة بين المؤسسات أو الجمعيات أو الشركات العامة أو بينها وبين الأفراد ويجوز أن ترفق بها ترجمتها بلغة أجنبية عند الحاجة.

رابعا: اللافتات التي تضعها المؤسسات والمنظمات التجارية أو الصناعية على واجهات محالها، ويجوز كتابة ذلك عند الحاجة، بلغة أجنبية إلى جهات اللغة العربية بشرط أن تكون الكتابة باللغة العربية أكبر حجما وابرز مكانا.

المادة 5: تكتب باللغة العربية العلامات والبيانات التجارية وبراءات الاختراع والنماذج التي تتخذ شكلا مميزا لها، كالأسماء والإمضاءات والكلمات والحروف والأرقام وعنوان المحال والأختام والنقوش البارزة. ولا يجوز تسجيل علامة تجارية تتخذ أحد هذه الأشكال إلا إذا كتب باللغة العربية. على أن ذلك لا يمنع من طالب تسجيل علامة مكتوبة بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية بشرط أن تكون اللغة العربية أكبر حجما وأبرز مكانا منها. أما العلاقات التجارية التي تم تسجيلها قبل العمل بهذا القانون ولم تتوافر فيها شروط هذه المادة، فيجب على مالكيها تقديم طلب جديد لتسجيلها بعد تعديلها وكتابتها باللغة العربية وذلك خلال سنتين من تاريخ نفاذ هذا القانون.

المادة 6: تكتب باللغة العربية : البيانات التجارية المتعلقة بأية سلعة تم إنتاجها بالقطر العراقي، كما تلصق بطاقة اللغة العربية على المنتجات والبضائع التي تستورد من الخارج تتضمن البيانات التجارية ذات الصلة بتحديد قيمتها ويجوز أن تكتب بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية فيما يتعلق بالبضائع الواردة من الخارج أو المعدة للتصدير إلى خارج العراق.

المادة 7: تشمل العناية باللغة العربية اعتمادها في التعبير في جميع ما سبق ذكره وتجنب استعمال المصطلحات الأجنبية إلا عند الضرورة وبصورة مؤقتة عند عدم توفر المصطلحات العربية.

المادة 8: على الوزارات أن تنشئ أجهزة لها تعني بسلامة اللغة العربية في وثائقها ومعاملاتها بما يكفل حسن تطبيق هذا القانون....))

ولم يكن القانون حازما في صياغته وبنوده فحسب، بل كان هناك حزم وشدة في تطبيقه ومتابعته، مما أحدث تغييرا في المجتمع العراقي ناهيك عن أجهزة الدولة ومؤسساتها العلمية والثقافية والإعلامية سواء القطاع العام أو الخاص، وأسهم في انتشار الفصحى وتقليل العامية. أما اللغة الإنجليزية وهي اللغة العالمية فقد انحسرت بشكل كبير.

وهناك قانون آخر لتشكيل مؤسسة عليا لوضع السياسات اللغوية ومتابعة تنفيذها: قانون المجمع العلمي العراقي المعدل لسنة 1974 م. أهم أهدافه المحافظة على سلامة اللغة العربية، والعمل على تنميتها ووفائها بمطالب العلوم والآداب والفنون. فضلا عن عنايته بلغات الأقليات القومية العراقية، ووضع معجمات وموسوعات علمية ولغوية. والإسهام الفاعل في حركة التعريب، ووضع مصطلحات العلوم والآداب والفنون والألفاظ الحضارية.... وغيرها.

وقد أسهم المجمع العلمي العراقي إسهاما فاعلا في الحركة العلمية في العراق، وكان له أثر كبير في العراق وخارجه من خلال القرارات التي اتخذها والمحافظة على اللغة العربية. إلا أن المجمع اليوم يخضع للمحاصرة الحزبية مما جعله مؤسسة شبه معطلة. بل إن الواقع اللغوي العراقي تراجع بعد 3003. وقد صدرت قوانين جديدة من شأنها إضعاف اللغة العربية في الدولة على المستوى البعيد لتأثير السياسة في إصدارها ولاسيما قانون اللغات العراقي سنة 2014: فهو لا يمنح الحقوق اللغوية للقوميات والأقليات العراقية فحسب، بل يكرّسها ويتجه بها نحو الانفصال على المستوى البعيد. خلافا للقوانين العراقية السابقة التي تعنى باللغات القومية للأقليات لكن لم تجعلها لغات رسمية للبلاد سوى اللغة العربية في كافة أرجاء العراق. وقد أدت القوانين اللغوية الجديدة إلى خلافات بين مكونات الشعب العراقي من الأقليات كما سنرى.

قراءة في قانون اللغات الرسمية العراقي:

في 7 كانون الثاني، 2014 صدر قانون جديد: (قانون اللغات الرسمية في العراق) ينأى عن القوانين اللغوية السابقة، ذلك أنه لم يحدد اللغة العربية اللغة الرسمية للعراق، وإنما وقع في ازدواجية لغوية لم نشهد لها مثيلا في القوانين اللغوية السابقة، إذ أقر للدولة لغتين رسميتين، لأسباب سياسية: العربية والكردية في جميع البلاد، وجعلهما متساويتين، بحيث يحق للغة الكردية أن تكون لغة المخاطبات الرسمية في جميع البلاد فضلا عن إقليم كردستان. معنى ذلك ان لها حقين في الإقليم وفي عامة العراق، وهي سياسة لغوية تستند إلى المكاسب السياسية من غير مراعاة السيادة الوطنية للدولة، ذلك أن السياسة الوطنية مرتبطة بسيادة اللغة الرسمية للدولة كما يقول المتخصصون بالسياسات اللغوية. فإن السياسة اللغوية الجديدة بعد سنة 2003 ستؤدي إلى

تراجع اللغة العربية في أجزاء كبيرة من العراق. بل أدى إلى موت اللغة العربية في إقليم كردستان وبعض مناطق العراق تدريجياً، وهذا ما يحدث للأسف اليوم، فاللغة العربية في إقليم كردستان مهمشة. فالذي يزور إقليم كردستان لا يجد للعربية أثراً واضحاً، إذ تخلو منها حتى في لوحات الدلالة ذلك أنهم يجعلون اللغة الكردية اللغة الرسمية الأولى واللغة الإنجليزية اللغة الثانية. أما اللغة العربية فمهمشة في الإقليم لا تكاد تقرأ كلمة عربية في لوحات الدلالة في الإقليم كله. وقد وصفت بعض المقالات هذا التهميش مثل مقال: (العربية.. لغة مهمشة في كردستان العراق، السليمانية): (تتجنب غالبية الأحزاب الكردية في كردستان العراق استعمال اللغة العربية في أسمائها وعلى شعاراتها رغم مشاركتها في الحكومة الاتحادية في بغداد. فقد كتبت شعاراتها مؤتمراتها في عامي 2010 - 2011، باللغتين الكردية والإنكليزية وهمشت العربية. إلا الأحزاب الإسلامية الكردية مثل: (الجماعة الإسلامية والاتحاد الإسلامي) حافظا على استعمالهما للغة العربية وهما متهمان من قبل الأحزاب القومية الكردية الأخرى بطغيان اللغة والأدبيات العربية على عملهما السياسي.

إن تهميش اللغة العربية في كردستان لعراق ليس حكراً على الأحزاب فقط بل أصبح حقيقة واقعة في مراكز لتعليم والأماكن العامة؛ وتشهد معاهد تعلم اللغة في مدن كردستان إقبالا ضعيفاً من طالبي تعلم العربية على عكس اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية.

وكان على الدستور منح الأكراد حقوقهم اللغوية في الإقليم فقط لغة رسمية إضافية حتى ينالون استقلالهم، أما اللغة الرسمية الرئيسة لجميع مناطق العراق بما فيها المناطق الكردية، فيجب أن تكون اللغة العربية. وكان ينبغي منح الأكراد حقوقهم اللغوية مثل سائر لغات القوميات الأقلية العراقية كالتركمانية والسريانية، اللتين أقرهما القانون لغتين رسميتين في الوحدات الإدارية التي يشكل التركمان أو السريان فيها كثافة سكانية، كما نصت المادة التاسعة من القانون: وفي المادة العاشرة منح الحق لكل إقليم أو محافظة اتخاذ أية لغة محلية أخرى لغة رسمية إضافية إذا أقرت غالبية سكانها ذلك باستفتاء عام.

إن اعتراف الحكومة العراقية بلغات الأقليات العراقية حق مشروع للمحافظة على كيانات مكونات الشعب العراقي وثقافتها، وقد أقر القانون ذلك في المادتين 7 و 14 التي نصت:

أولاً: لكل مواطن عراقي أو أجنبي تعليم أبنائه بلغة الأم.

ثانياً: لكل مكون عراقي الحق في إنشاء كليات أو معاهد ومراكز ثقافية أو مجامع علمية تخدم تطوير لغتها وثقافتها وتراثها. لكن المساواة بين اللغتين الكردية والعربية عمل سياسي.. وقد ذكرت ذلك صراحة المادة رابعاً من الأهداف والأسباب الموجبة للقانون: (تأمين المساواة بين اللغة العربية والكوردية في الحقوق والامتيازات بالنسبة لاستعمالها في المؤسسات الاتحادية).

وكذلك يساوي بين اللغتين العربية والكردية في الحقوق في المجالات الرسمية للدولة كلها: في التكلم والتعبير والمخاطبات الرسمية والأوراق النقدية والطوابع والوثائق الرسمية والجريدة الرسمية وجوازات السفر ولوحات

الدلالة المروية ولوحات الدلالة على الوزارات وإصدار الطوابع المالية والبريدية في جميع ما يتعلق بأمور الدولة في الداخل و الخارج وغير ذلك من المجالات الأخرى. وفي الاجتماعات الرسمية ومجلس النواب ورئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء الاتحادي ومجلس القضاء الأعلى والهيئات والمؤسسات الاتحادية الأخرى والاجتماعات الرسمية في إقليم كردستان وبرلمانه ورئاسته وحكومته.

وأخيراً نص القانون في المادة -16- على الالتزام بالقانون وفرض العقوبات الانضباطية والغرامات المالية لمن يخالف القانون وإعطاء الحق للمتضرر في تحريك الدعاوى الجزائية عند مخالفة أحكام هذا القانون.

إن قانون اللغات العراقي منبثق من أهداف سياسية لا تراعي أهمية اللغة في السيادة والهوية الوطنية، فقد أعطى للكرد فرصة لتأسيس الكيان الكردي وساعدهم على الرغم من الإشكالات الداخلية في الإقليم والتنوع

ويبدو السبب في ذلك ما شهده الإقليم من تهميش سابق، يقول: أحد أعضاء المكتب السياسي للجماعة الإسلامية الكردستانية: إن " تهميش اللغة العربية في كردستان العراق مرتبط بالانقطاع الكبير الذي حصل بين الإقليم وبغداد في السنوات التي سبقت سقوط نظام صدام حسين، فضلاً عن وجود حملة قومية في كردستان لإبعاد اللغة العربية وكان هذا دافعا لعدم الاهتمام بها في مراكز التعليم وتهميشها"

خاتمة وتوصيات:

بعد هذه الرحلة يمكن صياغة معادلة أثبت البحث صحتها هي:
إن السيادة الوطنية لكل أمة، مرتبط بسيادة لغتها الوطنية. فكلما قويت السيادة الوطنية اتضحت هويتها وقويت لغتها الوطنية وزاد انتشارها. والعكس صحيح. والسيادة مرتبط بالاستقلال الوطني والهوية والحضارة والتقدم الاقتصادي والعلمي. ذلك أن اللغة تعد مقياساً للسيادة الوطنية. تتراجع بتراجعها وتقوى بقوتها. فإن قوة الأمة من قوة لغتها كما يقول أندرسون. وسيادة الأمم تبدأ بسيادة لغاتها ومؤسساتها التي ترقى بهذه اللغات، وهذه حقيقة تؤكد الشواهد التي ذكرناها مفرقة في البحث. إذ لم تعد اللغة تقف عند حدود التواصل الاجتماعي، بل أصبحت تمثل جزءاً من السيادة الوطنية. فالإنجليزية صارت لغة دولية لأن أهلها جعلوا منها لغة دولية، كما عملت فرنسا وتعمل على إثبات حضورها كحضارة وقوة عالمية رئيسة عبر بسط سيطرة الفرنسية من خلال منظمة الفرنكوفونية. كل هذا يفسر سعي هؤلاء إلى التمييز الحضاري والثقافي، وإلى الحفاظ على الهوية.

وفيما يأتي أهم النتائج والتوصيات التي توصل اليها:

- إعادة دولة اللغة العربية وإحياء مجدها، بعصورها الزاهرة كعصر صدر الإسلام والقرن الرابع الهجري. إذ كانت اللغة العربية اللغة العالمية الأولى في العالم القديم. لغة الحضارة.

- تصدي علماء اللغة العربية لمسؤولية التخطيط السياسيات اللغوية في البلاد، ومنحهم الصلاحيات لإصدار القرارات في رسم سياسة لغوية رصينة.

- ربط اللغة العربية بسوق العمل واشتراطها لنيل الوظائف والدراسات.

- إقناع الدول الإسلامية بأن اللغة العربية هي اللغة الإسلامية الرسمية كما كانت ذلك أنها ليست لغة العرب بحسب النظرة القومية وإنما لغة الإسلام فإن توضيح ذلك بالدليل العلمي يتفهمه العلماء تدريجياً وعلى مراحل وبذلك نعيد إلى العربية والإسلام مكانتهما وهو مطلب الشعوب الإسلامية.

- إحلال اللغة العربية محل اللغة الإنكليزية في الدول العربية والإسلامية قدر الإمكان. فالغرب يسعى إلى سيادة اللغة الإنكليزية في العالم من خلال نشرها وربط التطور وفرص العمل والسوق والاقتصاد والوظائف والنخب القيادية بها وشرط لها، فإن سيادة لغة دولة يعني سيادتها وهو نوع من الاستعمار والغزو الثقافي أو اللغوي يتبعه غزو سياسي واقتصادي وتبعية للدول المستقلة.

- الاستفادة من تجربة السياسات اللغوية للعالم الغربي في الحفاظ على لغاتهم ونشرها. وتطبيقها في الدول الإسلامية مثل ربط العربية بسوق العمل.

توضيح للعالم أهمية اللغة العربية وصلاحياتها لأن محلّ محل اللغة الإنجليزية في تدوين العلوم والمعارف لثباتها وبقيائها واستمراريتها وقوتها ومرونتها وقد أثبتت التجارب عبر التاريخ أنها خرجت من محن كبيرة قوية منتصرة.

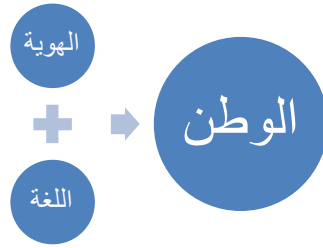
- إن المقارنة بين الإنجليزية والعربية غير متكافئة، فإن قوة اللغة الانجليزية خارجية تأتي من رعاية الدول التي تدعمها، وتنشرها وما تنفق عليها والسياسات اللغوية التي تضعها لها. أما اللغة العربية فقوتها في نفسها وماهيتها

- وجوب تشجيع البرامج اللغوية ومحاولات تيسير علوم اللغة العربية وتجديدها كالنحو والصرف والبلاغة، ومسايرتها العصر، وإصلاح المناهج الدراسية في أقسام اللغة العربية في الكليات، فضلاً عن العناية بتدريب الطلبة على التطبيق العملي على النطق بالفصحى.

- تفعيل قانون سلامة اللغة العربية ذلك انه من أهم القوانين اللغوية التي صدرت في الحفاظ على اللغة العربية.

- وتفعيل المجامع اللغوية في العراق ودمشق والقاهرة بمشاركة علماء ماهرين يشاد لهم بجهودهم العلمية وتكون مشاركة شاملة وليست مقتصرة على أشخاص معينين.

مخططات توضيحية:



اللغة والهوية أهم مكونات الوطن الأساسية

السياد الوطنية مرتبطة بالحفاظ على الهوية واللغة الوطنية



المصادر والمراجع:

- (1) ساطع، الحصري 1964، أبحاث مختارة في القومية العربية، القاهرة، دار المعارف.
- (2) د. محمود، فهمي حجازي 1993، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، مكتبة غريب.
- (3) أعمال مؤتمر اللغة العربية الثالث، دبي، 2017.
- (4) د. للدكتور عقيل، سعيد محفوظ 2013، الأكراد واللغة والسياسة: دراسة في البنى اللغوية وسياسات الهوية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- (5) أ. روبرت. ل. كوبر، التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي، ترجمة، د. خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام، ليبيا، 2006م.
- (6) محمد، رضا الشبيبي 2004، توحيد اللهجات، نشر في كتاب اللهجات العربية (بحوث ودراسات)، بإشراف الدكتور كمال بشر، القاهرة.
- (7) أ.د. حسن، منديل العكيلي 2010، الثقافة اللغوية العامة، بحث شارك في ندوة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد.
- (8) الدراسات اللغوية في العراق (في النصف الثاني من القرن العشرين)، أطروحة دكتوراه، عبد علي حن ناعور، كلية الآداب جامعة الكوفة 2007 م.
- (9) علي، القاسمي 2010، السياسة اللغوية في البلدان العربية: الإعلام نموذجاً، نشر في تازة .
- (10) بلال، دربال، السياسة اللغوية المفهوم والآلية، الجزائر، مجلة المخبر ع 10، س 2014 .
- (11) جيمس، أ. طوليفسن ترجمة، السياسة اللغوية وتعلم اللغة، محمد خطابي علامات، ع 17.
- (12) السياسة اللغوية خلفياتها ومقاصدها، جيمس؛ و طوليفصون، ترجمة، محمد خطابي مؤسسة الغني المغرب ط 1، سنة 2007.
- (13) أ.د. عبدالسلام، المسدي 2007، السياسة وسلطة اللغة.
- (14) المصطفى تاج الدين، سياسة لغوية متساحة في زمن العولمة، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، العدد التاسع لسنة 1426هـ/ 2005 م.
- (15) عبد الله، النملي، الفُرْنة انتهاك للدستور والسيادة الوطنية، هوية بريس 17 أبريل 2019 22:58.
- (16) أنور، الجندي 2007، الفصحى لغة القرآن، دار المعارف بمصر.
- (17) أ.د. عبد السلام، المسدي 2005، الفكر العربي بين لغة السياسة وسياسة اللغة، الاتحاد.
- (18) أبو السعود، أحمد الفخراي 1427هـ/ 2006م، في فقه العربية، الطبعة الرابعة.

- 19) أمين، الزاوي عثمان سعدي، رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، ما قاله في يوم اللغة العربية صحيفة الشروق ، الجمعة 11 ديسمبر 2020 م، الموافق لـ 25 ربيع الآخر 1442 هـ.
- 20) ماهر، خضير هاشم جامعة بابل، قراءة في كتاب (العربية والأمن اللغوي)، للدكتور زهير غازي زاهد.
- 21) د. علي، صادق أبو هيف 1995، القانون الدولي العام، منشأة المعارف الإسكندرية.
- 22) د. عبد القادر، القادري 1984، القانون الدولي العام، مكتبة المعارف، الرباط.
- 23) محمد بن أحمد الرشيد، قانون اللغة العربية، - صحيفة الرياض - العدد 16619، الثلاثاء 21 صفر 1435 هـ - 24 ديسمبر 2013 م.
- 24) أ.د. حسن، منديل العكيلي، الكلمة التي أقيمت في احتفاء الجامعة التقنية الوسطى باليوم العالمي للغة العربية 2018/12/18، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات.
- 25) زهير، غازي زاهد 200، العربية والأمن اللغوي، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن.
- 26) ريمون، حداد 2000، العلاقات الدولية، دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الأولى.
- 27) محمد، أجمل القاسمي، عولمة اللغة العربية وتحدياتها وإنجازاتها، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، شعبان 1435 هـ = يونيو 2014 م، العدد، 8، السنة 38.
- 28) العولمة واثرها في المجتمع والدولة، 2002.
- 29) أ.د. حسن، منديل العكيلي، اللغة الدبلوماسية، مجموعة محاضرات أقيمت في معهد الخدمة الخارجية، وزارة الخارجية العراقية سنة 2013/2014.
- 30) نهر، هادي 2010، اللغة العربية وتحديات العولمة»، ط. عالم الكتب الحديث، القاهرة.
- 31) د. محمود السيد، اللغة والهوية، مجلة المجمع اللغة العربية دمشق، المجلد (85)، الجزء (3)، 2010 م.
- 32) مختار الصحاح ولسان العرب مادة (س و د).
- 33) عمر، هزائم، المصطلحات والتنمية اللغوية العربية، مجلة العلوم الإنسانية، السنة الخامسة، العدد 35، 2007 الأردن.
- 34) معجم القانون (سيد) ، والوجيز في النظريات والأنظمة السياسية.
- 35) المصطفى، تاج الدين، نحو سياسة لغوية متسامحة في زمن العولمة، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، العدد التاسع لسنة 1426 هـ / 2005 م.

المواقع الالكترونية:

- 1) أثر التحولات الدولية الراهنة على مفهوم السيادة الوطنية، محمد بوبوش - الرباط. وجدة سيتي في 2006/07/22

<https://www.oujdacity.net/regional-article-1676-ar/regional-article-1676-ar.html>

- (2) الدولة والسيادة في ظل العولمة، ثامر عبد الغني سباعنه، صحيفة دنيا الوطن تاريخ النشر : 2019-01-10

<https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2019/10/01/503212.html>

موقع مؤسسة (أم أي سي تي) الإعلامية.

<http://www.niqash.org/ar/articles/society>

- (3) قراءة نقدية في قانون اللغات الرسمية النافذ في إقليم كردستان - العراق رقم 6 لسنة 2014 / السبت, شباط 21 2015 / د. منى ياقو.

<http://www.sorayapress.com/index.php/ara-wa-maqalat/item/>

موقع منظمة سوريا للثقافة والإعلام

- (4) لغة التنمية، أعمار بوحوش - جامعة الجزائر، محاضرة أقيمت بالمجلس الأعلى للغة العربية ضمن منبر حوار الأفكار في يوم 2010/04/13. موقع المجلس الأعلى للغة العربية:

<http://www.csla.dz/mjls/index.php>

- (5) د. حسن، منديل العكيلي، اللغة العربية والعراق الجديد، مقال نشر في عدد من المواقع الالكترونية.

المنهج التاريخي وتطوره

Historical method and its development

سعاد عمر انوير القجدار

وزارة التعليم الليبية

P. Suaad Omer Anwer Algajdar

sadmr890@gmail.com

الملخص:

لقد مر علم التاريخ بمرحلة مخاضٍ عسيرة خلال القرن التاسع عشر اختلفت فيه آراء الفلاسفة والعلماء والمؤرخين حول تصنيفه ومكانته حتى صدور كتاب . المدخل إلى الدراسات التاريخية . لمؤرخيه الفرنسيين لانجلوا (LANGLOIS) و سينيوبوس (SEIGNOBOS) بباريس عام 1898م الذي جعل من المنهج التاريخي محور اهتمام أهل التاريخ والمهتمين به ، بل وأصبح يحظى باهتمام الباحثين من مختلف المجالات لتميزه بشمولية معلوماتية واسعة وخضوع المادة فيه للنقد والتحليل للوصول إلى الحقائق المرجوة ، لذا فإن البحث يهدف لتوضيح ماهية المنهج التاريخي واستخداماته ومميزاته وعيوبه. أما أهميته فتأتي من أهمية استخدامه في الوصول للحقيقة باستخدام تقنيات المنهج العلمي عامة والمنهج التاريخي خاصة. أما عن إشكاليته: فتنتقل منذ انطلاقة حركة البحث العلمي وسنستعرض بعض آراء تلك الفترة وما آلت إليه من نتائج، اعتمادا على المنهج التاريخي كمنهجية علمية تخضع لقواعد البحث العلمي. وتحاول الدراسة الإجابة على تساؤلات تبحث في المقصود بالمنهج العلمي وعلاقته بالمنهج التاريخي ماهية علم التاريخ ومكانته وما هي خصائص المنهج التاريخي وكيفية استخدامه.

وعليه تحاول الدراسة تسليط الضوء على المنهج التاريخي كأحد مناهج البحث العلمي من حيث نشأته وأساليبه وتقنياته واستخداماته لتأييد ودعم نتائج مبنية على الموضوعية والإدراك السليم والأسس العلمية.

الكلمات المفتاحية: المنهج التاريخي - البحث العلمي - المنهجية - السيرورة التاريخية - المصادر الأصلية - المعرفة الالمصدرية.

Abstract:

History science has gone into a difficult times through the nineteenth century in which the ideas of scientists, philosophers and historians has gone through a lot of differences concerning its classification and its position until the issue of the book – (entrance to historical studies) by its two historians (LANGLOIS AND SEINOBOS) in Paris on 1898 in which has made the historical method as the main interest of the historians and those who are interested in it...

It has become an issue of interest of researchers of different fields because of its distinction with a wide comprehensiveness of information and as being the subject of criticism and analyses to reach to the actual aimed realities

So the research aims the clarification of what is the historical method its uses its defects and its distinctions

Its importance comes from the importance of its use for reach to the realities using the general scientific aspects and specially the historical methods ,

As for its problems it starts from its start up of the scientific research

We will show some of the ideas of that period and to what stage of results it has reached along the approval of the historical method as a scientific path under the regulations of scientific research

The research will try and answer the fallowing questions

- 1What means the scientific method and its relation with the historical method ?
- 2What is the history science and what is its position
- 3What are the specifications of the historical method and how to use it..

So the study will try to clarify about the historical method as one of the scientific research curriculums concerning its establishment, its technology its methods and its uses for supporting the results based on the correct and subjective scientific bases

Keywords : Historical method –scientific research – methodology – the historical issues- the original sources-the non original knowledge

مقدمة:

يعتبر منهج البحث العلمي هو كتابة المعلومات بطريقة مرتبة تمكن الباحث من تنظيم الأفكار للوصول للمعرفة، وبالتالي الوصول إلى حلول لمعالجة مشكلة اجتماعية أو علمية، ليساعدنا في وضع قاعدة عامة يقوم بتعميمها على قضايا علمية مماثلة، أو في إزالة الغموض عن أحداث ووقائع مبهمة أو طال عليها الزمن، أو دراسة جديدة لبحث لم يستكمل، أو نقد وتحليل ما وضعه السابقون من أبحاث إزاء ما تشهده الساحة العلمية من تقدم ملحوظ، معتمدا (الباحث) على الأساليب العلمية بكل موضوعية وشفافية، للوصول إلى الحقائق المرجوة.

كما أنه (أي المنهج العلمي) وصف وسرد مع تحليل للمعلومات التي يستقيها الباحث من المصادر أو المراجع ليضعها تحت مجهر عقله وبصيرته البحثية التي يحاول أن يصل بها إلى أفضل النتائج وأكثر الحقائق معقولة، دون الميل للعواطف. وعليه؛ نستطيع أن نقول إن منهج البحث العلمي هو وسيلة العبور إلى الحقيقة لتجاوز العقبات والمعوقات عبر أدوات معينة لا يمكن القيام بالبحث بدونها كمصادر المعلومات، للبحث في إشكالية البحث ووضع الفرضيات حيث يعمل البحث على التحقق منها والتي تجعل الدراسة قادرة على تقديم موضوع هادف وقيم، والعمل على تأييدها أو نفيها حسب ما تقودنا إليه الدلائل والحقائق والمعلومات المتوفرة لدينا.

ويعتبر المنهج التاريخي أحد أهم المناهج العلمية، من حيث كونه يقوم على جمع الحقائق ووصفها وفحصها وتحصيلها ونقدها عبر عملية تقنية تضمن سيرورة العملية العلمية على الوجه الأمثل، مع تقديم دراسات وصفية للمشكلة ودراسة أصولها وسيرورتها التاريخية ومن ثم تحليلها معتمدا على فرضيات وضعت أثناء البحث لإيجاد حلول لإشكالية ما يحاول دراستها والوصول إلى نتائج لها عن طريق المنهجية العلمية عامة والمنهج التاريخي خاصة؛ ولنبدأ بالتعريف بمصطلحاته :

المنهجية: (methodologie)

وهو مصطلح أُشتق من المنهج أو المنهاج للدلالة على الطريقة التي يتبعها الباحث في بحثه، وهي بالتالي الطريقة أو الوسيلة التي يستعملها الباحث في التحقق من صحة فرضياته عبر مجموعة خطوات منظمة

ومضبوطة بأحكام متعارف عليها لدى أهل الاختصاص، وتكسبه مهارات في كيفية التعامل مع الحدث التاريخي، فتساعده للوصول لتفسير بعض الظواهر وإزالة الغموض عن بعض الوقائع والأحداث للوصول للحقائق المرجوة بأسهل الطرق وأيسرها.

وتعرفها دائرة المعارف البريطانية بأنها: مصطلح عام لكافة العمليات التي ينص عليها أي علم ويستعين بها في دراسة الظاهرة الواقعة في مجال اختصاصه، وهذا ما يؤكد وحدة المنهج العلمي باعتباره طريقة تفكير يُعتمد عليها في تحصيل المعرفة وبالتالي يكون المنهج العلمي ضرورة للبحث. (لطاد وآخرون، 2019 صفحة 12).

التعريف بالمنهج: (methode)

في اللغة هو المسلك أو الطريق الواضح.

واصطلاحاً له عدة تعريفات منها:

- أنه نوع من التنظيم العقلي ينبغي على الباحث اتبعه في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وهو الخطة أو التخطيط لعملية كتابة التاريخ؛ (رسالان، 2011 صفحة 421)
- وأنه الطريق المؤدي لمعرفة الحقائق والوسيلة المؤدية إلى اكتشاف الحقائق والمعرفة العلمية؛ (الموسوعة الجزائرية السياسية. 2014)

- ويعرفه بعض المهتمين والعلماء بأنه : جملة المبادئ والقواعد والإرشادات التي يجب على الباحث اتباعها من بداية البحث إلى نهايته بغية الكشف عن العلاقات العامة والجوهرية والضرورية التي تخضع لها الظواهر موضوع الدراسة. (رسالان، 2011 صفحة 422)

البحث العلمي: (recherche scientifique)

كلمة البحث لغة تعني: التقصي والاستقصاء وجاء في مقاييس اللغة أنه لفظ يدل على إثارة الشيء "وبذل الجهد في موضوع ما، وجمع المسائل التي تتصل به." (لطاد وآخرون، 2019 صفحة 34) وأيضاً (رسالان، 2011 صفحة 422).

أما مصطلح علم فهو عبارة عن مجموعة من المعارف التي تتضمن المبادئ والفرضيات والحقائق والقوانين والنظريات التي كشفها العلم ونظمها، بهدف تفسير ظواهر الكون. ويرى كونانت نقلاً عن (عليان، 2001م، ص 14) أن العلم؛ "سلسلة تصورات ذهنية ومشروعات تصورية مترابطة ومتواصلة، وهي نتاج لعمليتي الملاحظة والتجريب." (عليان، 2001 صفحة 14)

ويورد (جيدير، مانيو). كذلك؛ أن "العلم هو جزء من المعرفة يتضمن الحقائق والمبادئ والقوانين والنظريات والمعلومات الثابتة والمنسقة والمصنفة والطرق والمناهج العملية الموثوق بها لمعرفة واكتشاف الحقيقة بصورة قاطعة يقينية." (جيدير، مانيو. د. ت. ص 5)

وأما المعرفة "في أبسط معانيها تعني تصوراً عقلياً لإدراك ماهية الشيء بعد أن كان غائباً، وتتضمن المعرفة المدركات الإنسانية إثر تراكمات فكرية عبر الأبعاد الزمانية والمكانية والحضارية والعلمية،" ويستطرد "أو بعبارة أخرى هي كل الرصيد الواسع والضخم من المعلومات والمعارف التي استطاع الإنسان أن يجمعها عبر التاريخ بحواسه وفكره". (جيدير، مانيو. د. ت. ص 6)

ومن ثم فإن البحث العلمي كما يراه بعض المختصين (لطاد وآخرون، 2019 صفحة 34) هو وسيلة أو استراتيجية للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق الذي يقوم به الباحث بغرض اكتشاف معلومات أو علاقات جديدة، بالإضافة إلى تطوير المعلومات الموجودة فعلاً أو تصحيحها، على أن يتبع في هذا الفحص والاستقصاء الدقيق، خطوات المنهج العلمي، اختيار الطريقة والأدوات اللازمة لجمع المعلومات وبحثها.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن البحث العلمي اليوم من أولويات اهتمامات الدول الكبرى خاصة، والمجتمعات الإنسانية عامة، وتخصص للإنفاق عليه ميزانيات كبيرة، فكثير من التطورات التي نشهدها اليوم -إن لم تكن كلها - هي نتاج البحث العلمي وجهود باحثين عبر فترات زمنية متلاحقة.

وما يجعل البحث العلمي محل ثقة وتقدير هو اتباعه المنهجية العلمية في عملية الاستقصاء في صحة المعلومات والفرضيات التي يتناولها الباحث عبر خطوات منظمة للوصول الى النتائج المرجوة.. وقد تعددت المناهج واختلفت بتعدد التخصصات العلمية واختلاف مجالاتها ولكل منهج أدواته ومعداته وأساليبه. وكما ذكرنا هي أداة للبحث لذا؛ لزم على الباحث اختيار المنهج المناسب لدراسته وهي كثيرة ومتنوعة اتفق علماء المناهج على أن أربع منها أصلية، هي المنهج الاستدلالي والمنهج التجريبي والمنهج الجدلي والمنهج التاريخي وهو موضوع الدراسة.

أولاً: المنهج التاريخي

يعتبر المنهج التاريخي هو أحد المناهج العلمية الأساسية المستخدمة في دراسة العديد من مجالات العلوم الإنسانية وخاصة العلوم الاجتماعية، إلى جانب المناهج العلمية الأخرى، إلا أنه يحظى باستخدام أكبر من قبل الباحثين لتمييزه بشمولية واسعة في البحث، حيث يبحث في الحدث أو الظاهرة أو المشكلة أو الحالة منذ بداياتها الأولى وقد يتوغل الباحث في سبر غور تاريخها للتعرف عليها والوصول إلى المعلومات اللازمة، ويساعده للوصول إلى الحقيقة التي ينشدها، كما يفتح أمام الباحث الأبواب من أجل أداء مهمته على أكمل وجه حيث يعينه على الدراسة والبحث ويوجهه نحو فهم الكثير من الحقائق من خلال خطوات المنهج العلمي وخصائص المنهج التاريخي التي تجعل مادة البحث تحت مجهر النقد والتحليل بالبحث والاستقصاء لأبعادها وكافة اتجاهاتها بعد اختياره للموضوع والاستشعار بالمشكلة ووضع الفرضيات وفحصها والتساؤلات والإجابة عليها والأهداف المرجوة منه وتجميع المعلومات الكافية لكل ذلك لمعالجة القضايا المطروحة للوصول إلى نتائج محكمة دقيقة، فما بالك ان كان الموضوع يتعلق بالتاريخ فيحاول تفسير وتحليل الأحداث التاريخية بالقراءات والتأمل والتحليل والنقد، فهو يدرس الماضي لفهم الكثير من أحداث الحاضر مما يساعدنا للتنبؤ بالمستقبل، حيث أن المنهج التاريخي هو وصف وسرد وتحليل للمعلومات التي يستقيها الباحث من المصادر والمراجع ليضعها تحت مجهر عقله وبصيرته البحثية محاولاً الوصول إلى أفضل الحقائق معقولة بتحليله بالسيطرة على العواطف والميول الشخصية وأن يكون أكثر موضوعية.

فالمنهج التاريخي عبارة عن وسيلة علمية وطرق تقنية تمكن دارس التاريخ من اكتساب المهارة في التعامل مع الحدث التاريخي بتحويله من الصورة الأدبية لأحداث الماضي إلى صورة منطقية في الذهن تُترجم بكل تفاصيلها وزواياها على الورق بصيغ حقيقية كما نتصورها وكما يُفترض أن يكون قد وقع بموضوعية وبدون ميول عاطفية. والجدير بالذكر أن هذه التقنية تمتاز بقابليتها دوماً للتطور والتكامل مع مجموعة المعارف الإنسانية التي يستعين بها الباحث.

ثانياً: ماهية علم التاريخ ومكانته

يُرجَّح بعض أهل الاختصاص أن كلمة "تاريخ" تعود إلى اللفظ السامي الذي يعني القمر أو الشهر والتي تتكون من لفظين هما تأريخ وتعني الوقت، ويقول السخاوي أنه يعني الإعلام بالوقت بينما يذكر الجواهري

بأنه التعريف بالوقت، وفي قاموس الصحاح أٌخ الكتاب وأُرخه وقَّته، وتاريخ الشيء وقته. وربما تعني سجله إذ يعرف تاريخ الأحداث بأنه تسجيلها وكتابة أحداثها وأسبابها وكيفية حدوثها وما ترتب عليها. (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 7).

وقد اهتم العرب منذ فجر الإسلام بالمنهجية العلمية في كتابة السيرة والأحاديث النبوية امتثالاً لأوامر القرآن التي تحث على التحري والصدق في كل ما يُقال وما يُسمع، ولما طال الزمن عمل علماء الحديث على التوثيق وكذلك تحري الصدق والموضوعية بالبحث وتكبد مشاق السفر للوصول إلى مصدر المعلومة أو من أخذت عنه، فظهر لاحقاً علماء ينادون باتباع الصدق والتحري في استقاء المعلومة التاريخية أياً ما كانت، عن طريق مشاهدتها وتسجيلها وأنه علم يعتمد على النظرة العلمية في تفصيله وملاحظته للأحداث. ومن هؤلاء العلماء أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي ت 470 هـ. 1088 م. وعبد الرحمن ابن خلدون ت 808 هـ. 1406 م الذي ارتقى بعلم التاريخ (الإسلامي) فحدد مجاله بتعريفه بقوله (اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم وأخلاقهم والأنبياء وسيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن ترومه أحوال الدين والدنيا.. فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المنزلقات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذهاب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق.) (ابن خلدون ع،

صفحة 3

بينما يرى الأستاذ أحمد حمقاني (حمقاني، 2018) أن محاولتي أبو بكر العربي وابن خلدون تعتبران الرائدتين في مجال تطور المنهج التاريخي من خلال معالجتهما للأحداث التاريخية حيث نلمح ذلك في رفض ابن العربي الصيغة الاستسلامية في التعامل مع الروايات بل ويدعو إلى نقد هذه الروايات وعدم التسليم لمعطيات مدونيتها بل ورفضها أن لزم الأمر ويشترك معه ابن خلدون في ذلك. (حمقاني، 2018). ويعتبر ابن خلدون من أهم أعلام المنهج التاريخي حيث استخدمه في دراسته للعمران البشري في تحليله لمراحل تطور الدولة وهرمها (علاء، 2009). وقد كان ذلك في العصر الوسيط عصر الحضارة الإسلامية، أما في العصر الحديث فقد مر علم التاريخ بمرحلة جدلية صاحبة حول ماهيته وكيونونه الحقيقية التاريخية وطبيعة المادة التاريخية وطرق الوصول للحقيقة الثابتة والمجردة فأثار ذلك عدة آراء مختلفة حول تصنيف ومكانة علم التاريخ بين من ينكر على التاريخ صفة العلم لعدم خضوعه للقوانين العلمية حسب معطيات القرن التاسع

عشر الميلادي فهو غير محدد المادة ولا يخضع للتجربة والاختبار، إلا أن آخرين رأوا أن التاريخ فوق العلم بكثير لأنه يجمع المادة العلمية إلى تصور أدبي في ثوب لائق تجعل الأحداث قوة فعالة في عالمنا الحالي، بينما رأي ثالث يرى أن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر، استناداً إلى خصائص المادة التاريخية المرتبطة بطرق البحث فأصبح مسلّم به اليوم في الأوساط العلمية ورسخ هذا الرأي التزام العديد من المؤرخين من رواد النظرة العلمية بالمنهج التاريخي، وبإثارة تلك التساؤلات والآراء المختلفة تبلورت علمية التاريخ وخضوعه لقواعد البحث العلمي، فأصبح بذلك علم التاريخ علماً يتميز بمنهج خاص به يقودنا إلى الحقيقة المؤكدة نسبياً بإخضاع المادة التاريخية للنقد والتحليل. وكان في مقدمة من ساهم في ذلك بيرنهام (e.bernheim) بتأليفه كتاب (منهجية البحث التاريخي) الذي نشر بلانزغ عام (1894) وفوستال دوكلانج (fustel de coulanges) صاحب كتاب (المدينة العتيقة) (la cile antique) (1889.1830) ولانجولوا (langlois) وسينوبوس (seignobos) صاحباً كتاب مدخل للدراسات التاريخية الصادر بباريس عام 1898م. (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 9_11).

ويرى د. أسامة النور (النور. 2001) بأن المناظرة حول علم التاريخ لازالت مستمرة والعراك حول معناه لازال صاخباً وأن "المؤرخين العرب، فيما هو واضح، آخر من يشترك في الصراع الدائر حول التاريخ ويستطرد أن عليه (أي المؤرخ) أن يختار معركته للوصول للحقيقة التاريخية والنزاهة في تقديم الماضي وأن لا يكون بمنأى عن تلك المناظرات "فتجاهله لها غير ممكن وتفرغ جل وقته لها استحالة " ولكن يتسلح بالعمل على توفير البراهين فيمنح بموقفه هذا التاريخ الأكاديمي الصمود والقوة وفي ذات الوقت يقوم بإنجاز عمله في تشييد البناء الأساسي للمعرفة المستند إليها التاريخ (النور. 2001. ص 3)

وعلم التاريخ من أوسع العلوم وأكثرها شمولية وهو يختلف عن العلوم الفيزيائية فهو ليس علم معاينة أو تجربة، ولكن علم نقد وتحقيق، (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 95) ولعل عبارة لانجولوا وسينوبوس "التاريخ يصنع من وثائق" تدل على أن التاريخ ملموس ويعتمد على شواهد مادية من عمارة ورموز كتابية أو رمزية وزخارف وأدوات وآلات فتكون مكملّة أو دالة على الشواهد الشفوية والكتابية جعل هذا علم التاريخ دوناً عن غيره من العلوم ذو معرفة شاسعة وفي بعض الأحيان معقدة لذلك كان على المؤرخ الاستعانة بتقنيات المنهج التاريخي وإجراءاته لكتابة وتدوين التاريخ لذا كان على المؤرخ أيضاً أو الباحث التاريخي أن يعمل على اكتساب ثقافة واسعة في حقول المعرفة البشرية وأن يكون ملماً بالكثير من المعارف والعلوم التي تكون على صلة بالتاريخ أو على الأقل يكون على اطلاع أولي بها، وفي ذلك يقول ناصر الدين سعيدوني (سعيدوني، ناصر الدين. 2000)، أن المؤرخ يجب أن يكون ذو ثقافة واسعة

بكافة المجالات وأن يكون ملماً بالموضوعات العلمية المتعلقة بالمادة التاريخية (وهي مجموعة من العلوم والمعارف والأساليب والمهارات والطرق المساعدة للمؤرخ على جمع مادته وفهمها و تمحيصها ونقدها) ويستطرد بأن (هذا ما يجعل التاريخ من أصعب مواضيع البحث العلمي). (سعيدوني, ناصر الدين, 2000 صفحة 13).

وحقيقة؛ إن ثقافة المؤرخ الواسعة وذكائه وقدراته العقلية وقدرته على التأمل وسعة اطلاعه هي ما تساعده على الوصول التصوري للمشاهد التاريخي وسيرورته عبر الأزمنة والحقب وبما تمتاز بمظاهر مختلفة ومتنوعة. ويمكن تصنيف تلك المعارف والعلوم إلى: علوم ذات صلة بالتاريخ، علوم مساعدة على فهم وتفسير التاريخ.

ثالثاً: علوم ذات صلة بالتاريخ

وهي العلوم التي تدخل مادتها في صلب التاريخ وتعد نتائجها مادة تاريخية هامة وتكون للباحث التاريخي أدوات أساسية يبني عليها فرضياته أو ينفذها ولعل أهم هذه العلوم:

1. علم الآثار: (archeologie)

وهو علم يبحث في مخلفات الإنسان المادية في الماضي سواء فوق الأرض أم في باطنها بالأساليب العلمية والتقنيات الفنية الحديثة المتبعة في التنقيب مع دراستها بهدف استخراج الأدلة التاريخية كدراسة أزمنة الطبقات ووصفها ووصف المكان الذي احتواها ثم دراسة المواد الصناعية (كما يسميها د. أسامة النور (النور. 2001. ص 28) والتي هي نتاج الفكر الإنساني في صناعة أدواته التي حتمتها عليه الاحتياجات والدوافع والعادات والسلوكيات التي دفعته لصنعها. فالآثار مهمة جداً في دراسة التاريخ عامة وفي البحث التاريخي خاصة فهي تقدم مصدراً أساسياً عن أحوال الماضي وما وصلت إليه الحضارات القديمة من فن ورقي وهي عبارة عن تاريخ ملموس يعتمد على شواهد مادية من عمارة وزخارف ونقوش وأدوات وآلات فتكون مكملات أو دالة على الشواهد الشفوية والكتابية التي خلفها لنا التدوين التاريخي بل إن علم الآثار ساعدنا على فهم مرحلة ما قبل الكتابة من خلال البقايا المادية التي ظلت تحتزن معطيات كثيرة عن صانعيها وعن أزمته الموعلة في القدم، كما عمل علم الآثار على سد الفجوات الذي تركتها لنا عمليات التدوين التاريخي من خلال المصادر الأدبية (فضلاً عن أنه يصحح في بعض الأحيان أخطاء

تاريخية مشهورة). (رسالن، 2011 صفحة 433) مما جعله تقنية تاريخية جديدة ضمن منهج البحث التاريخي. فكان أوثق وسيلة لجمع مصادر معلوماتية لا يرتقي إليها الشك في كتابة مادة تاريخية أصيلة.

2. علم قراءة الخطوط القديمة أو تطور الخط: (paleographie)

وهو علم يهتم مباشرة بالسجلات الأثرية والمواد القابلة للتلف كورق البردي، وهو من العلوم المتصلة بالتاريخ فهو يهتم بدراسة وقراءة الخطوط القديمة كالخط المسماري والخط المسند والكتابة الهيروغليفية والإغريقية واللاتينية والخط العربي الذي يعد من الخطوط ذات المكانة المرموقة من حيث تطوره وتنوعه وقابليته للتشكل والتعبير إضافة الى تعدد أصنافه: (النسخي، الرقعة، الثلث، الكوفي، الفارسي، المغربي، الغباري، الديواني، والقيمة...) وهذا الأخير كان يستعمل في الجهاز الإداري التابع للدولة العثمانية وهو أقرب ما يكون للشفرة أستمعمل بقصد كتمان أسرار الدولة المالية والإدارية، (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 14_15) لذا وجب على دارس التاريخ أن يكون على دراية بعلم الخطوط كي يوفر على نفسه الجهد والوقت بمعرفته نوع الخط وزمنه وأن يتجنب الوقوع في كثير من الخطأ.

3. علم النقوش أو الكتابات القديمة: (epigraphie)

وهي كل ما هو مكتوب أو مرسوم أو منقوش على اللوحات الحجرية أو المعدنية أو على جدران المعابد والقصور وشواهد القبور وتذكارات المباني والمنشآت حيث يهتم بحل رموز الخطوط القديمة ويقدم لدارس التاريخ معلومات عن الحياة المحلية أو النظم الإدارية والمالية والعسكرية والدينية.

4. اللغة:

من العلوم المتصلة بالتاريخ واللازمة لدراسة اللغة، فاللغة في تطور مستمر تنمو وتخبو وتموت وقد تندثر لذا كان تتبع ذلك ورصد أسبابه والوقوف على التغيرات الطارئة عليها مهم لفهم حركة التاريخ، فكان لزاماً على المؤرخ أن يكون على ثقافة واسعة من حيث اللغة وكتابات العصر الذي يريد البحث فيه عن طريق دراستها عبر الوثائق المكتوبة، فاللغة ترتبط بالمستوى الحضاري والفكري لأي أمة حيث يمكن استخلاص المعلومات التاريخية من خلال النصوص الأصلية؛ فعليه دراسة ما يلزمه منها إذ لا يمكنه أن يلم بكل اللغات ولكن يكون على دراية بما يهمه منها. (رسالن، 2011 صفحة 422)

5. علم الوثائق أو المستندات القديمة: (diplomatie)

هو علم المستندات القديمة التي تقوم على التحليل النصي لتلك المستندات وتشمل المراسلات والمعاهدات والمذكرات والسجلات والتقارير فيهتم هذا العلم بوصف الوثيقة والتعريف بصاحبها وتحديد مصدرها وإن كان مصدر أولي (أي الوثيقة الأصلية) أم ثانوية (أي نسخة عن الأصل) وضبط تاريخها والإشارة إلى مضمونها وحصر أهم عناصرها والمصطلحات التي وردت بها، ومن تم تحليلها ونقدها (النور، 2001، صفحة 57).

6. علم النقود والمسكوكات أو النوميّات (numismatique):

وهو علم يدرس اللقى النقدية، و لفظ النوميّات مشتق من اللاتينية أو الإغريقية وتعني الفضة المضروبة، (رسلان، 2011 صفحة 427) وهو من العلوم المهمة جداً للمؤرخ حيث نستخلص من تلك اللقى معلومات تاريخية غاية في الأهمية من خلال نوعية المعادن المصنعة منها والصور والرموز والنقوش التي عليها فنوعية المعادن تدل على غنى وفقر الدولة التي تنسب إليها ونستطيع أن نستشف من الصور والنقوش والرموز طبيعة السلطة و نوعية الحكم المتبع آنذاك بل ونوع الاقتصاد ونوع المعيشة. وتعمل المسكوكات في التاريخ الإسلامي على إثراء المادة التاريخية بألقاب الأمراء ومذاهبهم وتبعيتهم السياسية واستقلالهم كما خلدت أسماء مدن سكّت بها لعلو شأنها الاقتصادي والإداري.

7. علم الأختام (siligraphis) والرنوك أو الصنح (heraldique):

والرنوك هي الرموز والعلامات والصور الشارات التي تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس الأمراء والجنود والفرسان والمحاربين أو على الأعلام كالهلال والنسر والصليب ... وغيرها مما تجعل الباحث يستطيع التيقن من نسبة هذه اللقى والتعرف على العديد من الحقائق التاريخية عن أصحابها ومستواهم الحضاري ونفوذهم السياسي والعسكري والاقتصادي (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 17) و (رسلان، 2011 صفحة 428_429)

8. علم الأنثروبولوجيا: (antaropologie) علما لإنسان . علم الأجناس

وهو علم دراسة الإنسان من حيث كيفية خلقه وتطوره من ناحية الشكل أو الجنس (أي من حيث سلالته) وكما يدرس ثقافته ومعارفه وتطوره الحضاري كما يدرس أنماط حياته وتركيبية الجماعات البشرية وأوجه الشبه بينها والخصائص المشتركة وانتشارها على سطح الأرض.

9. علم السير (biographie) والتراجم (autobiographie):

ويدرس هذا العلم السير الشخصية والمعلومات عن أشخاص ما كان لهم تأثير في مجتمعاتهم كالحكام والقادة والكتاب والعلماء والفنانين إلا أن هذا العلم يحتاج من المؤرخ تحري الدقة والموضوعية إذ تغلب عليها النظرة الذاتية من قبل أصحابها.

رابعاً: علوم مساعدة على فهم وتفسير التاريخ

وهي مجموعة من العلوم والمعارف التي لا غنى لدارس التاريخ من الإلمام بها وهي: علم الجغرافيا، وعلم الخرائط، وعلم الاقتصاد . والعلوم السياسية . والفلسفة . وعلم النفس . وعلم الاجتماع.

فبعضها يمثل جزءاً لا يتجزأ من مكونات الحدث التاريخي وآخر الشهود عليه كعلم الجغرافيا، وبعضها تقدم لدارس التاريخ تفسيرات تسد الكثير من الفجوات التي قد لا توفر مادتها التاريخية مثل علم الخرائط التي تعمل اليوم وبفضل الصور الجوية (فتوغراميتري) كوسيلة أساسية في توضيح آثار الحضارات القديمة كأنظمة الري والتجمعات السكانية والخطوط الدفاعية الرومانية التي تظهر من خلال الملاحظة الدقيقة للصور التي يوفرها المسح الجوي، شرط تتبع الطرق العلمية والتقنيات المتطورة، (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 20) ولا يخفى ضرورة علم الاقتصاد والسياسة في ارتباط الاثنين بدراسة الحضارات وتأثير الاقتصاد ومسيرته في تقدم الناحية السياسية وانضوائهما مع الإدارة والمجتمع والدين في منظومات الدولة وتأثير ذلك في مجريات الأحداث التاريخية وكل ذلك يحتاج الى تفسيرات وتصورات فلسفية منطقية للأحداث من حيث تطور الفكر الحضاري ولا شك دراسة التغيرات الاجتماعية وتتبع حركة المجتمعات من خلال الإطار الزمني أمر ضروري جداً في تفسير الأحداث التي لها علاقة بالنظم والعادات والتي يقدمها علم الاجتماع، ناهيك عن تأثيرات الدوافع النفسية في كثير من الأحداث التاريخية وتحكمها في سلوك العديد من الشخصيات البارزة كالحكام والأبطال والقادة ودراسة الدوافع المختلفة لبعضهم وتأثير ذلك على بعض الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل وحتى الدينية.

خامساً: خصائص المنهج التاريخي

يعتبر المنهج التاريخي من أكثر المناهج استعمالاً وذلك لأنه:

أ. أكثر شمولية واتساعاً لمواضيع البحث فيه؛

ب. قد يكون أقدم المناهج المتبعة منذ القدم؛

ج. يعتمد أساساً على أرضية صلبة في الوصول للحقائق وذلك بتحري الدقة والصدق في عرض المحتوى بالبحث والتحليل والنقد؛

د. يُستخدم في أغلب العلوم لاحتواء التاريخ على خلفية كل العلوم. ولأن لكل علم تاريخ ولكل ظاهرة أو مشكلة أسباب أو جذور يوجب على الباحث استرداد معلومات نشأتها أو بداياتها وهو ما يطلق عليه المنهج الاستردادي الذي هو استرجاع ما حدث في الماضي لدراسة الحاضر والتنبؤ بالمستقبل؛

ز. منهج سهل وغير مكلف ومرن في تداخله مع العديد من المناهج الأخرى أثناء الدراسة.

سادساً: أهمية المنهج التاريخي وأهدافه وخطواته

تأتي أهمية المنهج التاريخي من كونه يختص دون غيره في دراسة السيرورة التاريخية للظواهر والمشكلات وتتبع تحولاتها وتطوراتها والإلمام بأغلب مجريات أحداثها وإمكانية البحث في تفاصيلها عبر تقنياته العلمية والمتمثلة في الوثائق العلمية، من خلال دراسة نقدية صارمة حتى لا يمكن التشكيك بها، فيساعد ذلك على تفادي تلك المشكلات وإيجاد حلول لها بل ويفيد في التنبؤ بالمستقبل في كثير من الأحيان.

يهدف المنهج التاريخي إلى الوصول إلى الحقيقة عبر الطرق العلمية. وهذه الأهداف قابلة للتبدل والتحول

خلال مسار التاريخ (النور، 2011 صفحة 76)

يرى د. أسامة النور، (النور، 2001)، بضرورة اعتماد الباحث في التاريخ بالمصادر الأولية واستقاء المعلومة من المصادر الأصيلة، وأن على المؤرخ المرور على الأقل بسبع مراحل في عملية بحثه أولها اختيار الموضوع وتحديد قدر المستطاع، وأن يكون مستعداً لإعادة التحديد متى ما تطلب الأمر أثناء سير الدراسة، ثانياً أن يبحث باستمرار عن الوثائق المتعلقة بموضوع الدراسة وهي عملية "الكشف عن الوثائق" أو عملية الهورسطقا (كما سميت في ألمانيا). ثالثاً قراءة رموز الوثيقة وأبجديتها. رابعاً فهم لغة الوثيقة وترجمتها. خامساً التأكد من أصالة الوثيقة. سادساً تحليل إفادات الوثيقة مستخلصاً منها الأهمية التاريخية. سابعاً عملية تركيب الوقائع والمعلومات في تسلسل منطقي وسرد تاريخي، (النور، 2011 صفحة 45) ومن المؤكد أن تعترضه أثناء العمل العديد من الفجوات أو الإشكاليات أو تناقضات لم يتم حسمها تضطره إلى العودة منذ البداية وإعادة الاستقصاء والبحث بطريقة تحليلية مبتعدة عن الأفكار المسبقة والأحكام

المتسرعة بل وقد يعيد النظر في كثير من المعلومات التي قد توصل لها الآخرون (النور، 2001 صفحة 65_66)

وفي العموم فإن البحث التاريخي يمر بعدة مراحل تتبع إحداها الأخرى وتتداخل في بعضها البعض مكونة هيكلية البحث وهي:

1. اختيار الموضوع:

ويُفضل أن يختار الباحث موضوعه بنفسه كي يكون أقدر على العمل وكشف الحقائق فيه، وأن يتحلى بالصبر والمثابرة وأن يكون لديه استعداد نفسي لما قد يعترضه من صعوبات ومشاق، وأن يتحلى بالمصداقية والنزاهة والأمانة العلمية، وأن لا ينصاع للميول العاطفية، ثم يجمع المعلومات من منطلق عدة تساؤلات هي: أين، من، متى، كيف، لماذا، وأن يكون على دراية بكافة المعلومات والكتابات والمصادر المتعلقة به، فيعمل على تحديد المكان والزمان قدر المستطاع ويضع عنواناً يحوي كل الموضوعات والقضايا، مع وضع خطة بحث يشير فيها إلى فرضياته والإشكالية التي يحاول حلها، ثم يعرض بعد ذلك تساؤلات بحثه التي ينبغي الإجابة عنها في متن البحث الذي قسمه لأبواب وفصول قد تزيد وتنقص وتتغير حسب مقتضيات موضوع البحث والمادة العلمية التي يجمعها، وتكون في البداية خطة أولية قابلة للتعديل وإعادة التحديد والحذف والإضافة متى ما تطلب الأمر ذلك حسب المادة المتوفرة والنتائج التي يتحصل عليها أثناء سير الدراسة.

2. جمع البيانات والمعلومات (المادة التاريخية):

بعد مرحلة اختيار الموضوع وجمع مادته والاطلاع على مراجعه ومصادره وأراء من سبقه، يبدأ في جمع المصادر الأصلية ليستقي منها المادة العلمية لبحثه على أن تكون هذه المصادر تخص موضوعه أو المسألة التاريخية التي يبحث فيها وقد تكون ذاتها التي وردت في المراجع والمصادر التي درسها، يجب عليه هنا دراستها بدقة وتأني وأن يتفحصها ويتأكد من ورود كل ما تحتويه بحثاً عما قد يكون جديداً. وهنا تنقسم المصادر إلى قسمين:

أ. المصادر الأصلية: وهي أقدم ما يحوي مادة عن موضوع ما، وتتمثل في الآثار والوثائق والسجلات والمذكرات الشخصية؛

ب . المصادر الثانوية: وهي ذات المعلومات المنقولة من المصادر الأولية وعادة ما تكون في غير حالتها الأولى وتوجد في الجرائد والصحف والدراسات السابقة.

3 نقد مصادر المعلومات:

وهي مرحلة مهمة جداً يركز عليها المنهج التاريخي حيث يتم فيها التأكد من صحة المعلومات التي جُمعت ومن صحة الوثيقة وهذا ما يجعل مهمة الباحث التاريخي مهمة شاقة وعسيرة إذ أن هذه الوثائق ليست الواقعة في حد ذاتها وإنما روايات ووصف عنها، (لطاد وآخرون، 2019 صفحة 122) ولا يمكن استحضار الحدث، لذا كان على الباحث التثبت من صحة الوثيقة بتفحصها خارجياً وداخلياً وذلك بعملية:

أ. النقد الخارجي: وهو يبحث في صحة الوثيقة أي أنها أصلية أم نسخة عن الأصل (وذلك من نوع الورق والخط والخبر واللغة والأسلوب والمصطلحات الخاصة بعصر الوثيقة) ثم التثبت من نسبتها إلى صاحبها وذلك بمقارنتها بأحداث عصرها، لما تتعرض له الوثائق من تزيف وإضافات وتحريف، وفي بعض الأحيان تتعرض الوثائق لذلك عن غير قصد عند نسخها وترجمتها، فهنا يتم تجهيز الوثيقة من جانب طرف ثالث عندما نجد مطبوعة وحتى وإن كان المحقق جاداً وأميناً ومنضبطاً فإن بعض سمات الأصل لن تتواجد بها وسيكون (المحقق قد تدخل بيننا وبين العقل التاريخي الذي ندرسه)، (النور، 2011 صفحة 48) كما يتم التأكد من زمن الوثيقة ومن مؤلفها بالتحليل المخبري عن طريق الكربون المشع؛

ب . النقد الداخلي أو الباطني : وهو الخطوة الأهم والتي تعتمد عليها المادة التاريخية وهو التحري والتحقق من الكلام الموجود داخل الوثيقة وماذا يقصد الكاتب منه وهذا يتطلب من المصحح جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً فبعد أن يتعرف على لغة الوثيقة وحروفها الهجائية وخطها يواجه أحياناً خطأ غير معروف، يحاول ترجمته لأفكار ونطق وكلمات، وأحياناً يواجه خطأ غير معتاد أو كلمة غير مفهومة أو مشكوك في معناها أو مقصدها، لذا كانت هذه المرحلة نقطة الانطلاق للعمليات البحثية حيث تقدم لنا المعلومات الصحيحة عن الوقائع التاريخية مع محدداتها الزمنية والمكانية، لذا كان على المؤرخ تحري الأمانة والمصداقية، وفي حالة اعتراضه مشاكل تعيق عملية الترجمة وفك الرموز والكتابات؛ عليه الاعتراف بذلك وأن لا يضل من سيأتي بعده إذ تعتمد كل إفادة واردة فيها على عملية كتابة التاريخ .

4 إشكالية البحث:

وهي نقطة انطلاق البحث فهي الفكرة العلمية التاريخية التي تقوم عليها التساؤلات وينتج عنها استخراج فرضيات علمية بمثابة إجابات مؤقتة لحلها، وهي عملية ليست بالسهلة فهي تتطلب معرفة واسعة وجهد كبير ويتم تحديدها منذ مرحلة اختيار الموضوع فالعثور على المشكلة هي بداية الطريق للبحث على أن يتم صياغتها بشكل واضح يعبر عن فكرة الباحث المراد البحث فيها.

5. وضع الفرضيات:

يُعرف الفرض العلمي " بأنه تخمين أو استنتاج ذكي يصوغه ويتبناه الباحث مؤقتاً لشرح بعض ما يلاحظه من الحقائق والظواهر في مجال بحثه." (بن حامد، 2012 صفحة 80) وحقيقة هذه الفروض التي توضع هي وجهة نظر شخصية وهي حلول يتصورها الباحث للمشكلة التي يحاول علاجها في بحثه، وبالتالي فإنه قد ينفياها أو يثبتها من خلال المادة التاريخية التي تتوفر لديه ومن خلال سياق صياغة المشهد التاريخي أثناء كتابته، إذاً هي حل مؤقت لمشكلة الدراسة قد يثبت نفيه بناء على ما توفره المعلومات المصدرة والموثوقة لدى الباحث، وتساعد الفرضيات الباحث في تحديد اتجاهات بحثه، وبعد فحص المعلومات وتحصيلها يمكن تعديل فرضيات البحث وقد تستبدل الفرضيات المدعومة بمعلومات غير كافية إلى فرضيات مدعومة بمعلومات كافية. والجدير بالذكر أنه في كل الحالات النتيجة التي تصل إليها الدراسة لا تُعد أمر مسلّم به أو حقيقة ثابتة نهائية لا تقبل الشك، بل تستمر عملية البحث ويمكن نقد الدراسة وإعادة صياغة فروض جديدة لها حسب ما تقدمه المعطيات والشواهد التاريخية أو نظرة كل باحث وطريقة تفكيره ومعالجته للأحداث التاريخية. وعادة ما تتعدد الفروض في البحث التاريخي لصعوبة تفسير الأحداث التاريخية بشكل موضوعي وذلك، (لسبب واحد وهو أن أحداث التاريخ معقدة ومتداخلة ويصعب ربطها بسبب واحد) (عليان ، 2001 صفحة 45)

6. تحليل الحقائق وإعادة صياغتها وتفسيرها:

وهي عملية متن البحث أو عملية تدوين المعلومات التي جمعها الباحث وصياغتها وتركيبها بتسلسل منطقي يهدف إلى إعادة تصور الماضي من خلال عمليات الجمع والنقد التي أشرنا إليها آنفاً، فبعد أن جمع الباحث المادة اللازمة من المراجع، واطلع على الدراسات السابقة لموضوع البحث سواء من المؤرخين السابقين أم المعاصرين والتمعن في آرائهم والأحكام التي صدرت وقيلت حول الموضوع الذي يبحث فيه ، حيث يجد نفسه مضطراً لتقبل بعض الأحكام معرفة عامة عن السيرة التاريخية وتفاصيل أكبر عن إشكالات المرحلة والمنطقة موضوع البحث وتشكيكه في أخرى مما يدفعه إلى التفكير والبحث عن مصادر

جديدة ويصل إلى أحكام قد تكون مؤيدة أو مغايرة لها؛ وبالتالي سيضطر إلى تغيير بعض مقترحاته أو جعلها. يبدأ الباحث بنسج المشهد التاريخي من خلال تحليل المعلومات وتفسير الوقائع واستنتاج الأحكام وهي من أهم المراحل التي يمر بها البحث فجمع المعلومات المبعثرة وصنع موضوع منها في أسلوب متميز وعرض تاريخي بأفكار مرتبة ولغة سليمة ومعنى واضح ليس بالأمر الهين، فبداية يعمل الباحث على ترتيب الأبواب والفصول بحيث يصل الباحث إلى إتمام الهيكلية البحثية بشكل واضح منسق وهي ثلاث أقسام المقدمة والمتن والخاتمة، بعد استيفاء المعلومات اللازمة بما تطلبه العملية البحثية، حيث عليه أن يركز في ترتيب معلوماته من خلال معالجته للموضوع الذي يبحث فيه حيث يكون هنا قد اكتسب معرفة عامة عن السيرورة التاريخية وتفاصيل أكبر عن إشكالات المرحلة والمنطقة موضوع الدراسة (وهو ما يسمى بالمعرفة اللامصدرية)، (النور، 2011 صفحة 65_81) فيقوم بفرز وقائعه وتجميعها وتحديد مرجعيتها، وحقيقة على الباحث أن يكون واسع التصور والاطلاع والمعرفة الواسعة ليقوم بعملية التركيب التاريخي التي هي جمع الحقائق بعد صياغتها وترتيبها زمنياً بتصنيفها حسب أهميتها وطبيعتها الداخلية سياسية كانت أم اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية أو إدارية أو دينية أو قانونية وغيرها، هنا أثناء عملية بناء البحث سيصادف الباحث فجوات لعدم وجود ما يغطيها من معلومات وهنا يأتي دور شمولية الباحث المعرفية والتسلح الذهني وخصوصية الخيال المدعوم بالمعرفة اللامصدرية العلمية بالاعتماد على علاقة الأشخاص بالأحداث ودوافعهم الحقيقية في الماضي بنوع من التفسيرات الموضوعية والتصور المبني على الحقائق المتوفرة والفهم العميق للمرحلة أو الفترة محل الدراسة (النور، 2011 صفحة 65_66)

يُعرض الموضوع بلغة سليمة وأسلوب بسيط مترابط وعلمي يراعى فيها الترتيب الزمني والتسلسل التاريخي بعيداً عن التكرار، والإسهاب المفرط حتى لا يتفكك الموضوع، والإيجاز المبهم حتى لا يعقد المسألة على القارئ، مع الاستعمال الجيد و الدقيق لقواعد اللغة، وإضفاء الحيوية والتشويق أثناء السرد باستعمال أدوات الاستفهام وضرب الأمثلة، (سعيدوني، ناصر الدين، 2000 صفحة 48) وعليه أن يراعى عرض العناوين الجانبية في جمل قصيرة موجزة ومعرفة لفكرة ما يناقشه محتوى موضوعها، وأن تكون عملية الربط بين فقرات المتن محكمة ومتينة ومتسلسلة الأفكار والزمن بحيث تبنى كل فقرة على ما قبلها وتمهد لما بعدها فتكون مرتبطة وتخدم العنوان الذي يشملها. وتجعل العرض التاريخي جيداً وذو قيمة أدبية، وكونه باحثاً عليه أن يبتعد عن الآراء الجزئية والقطعية أو الحتمية في حقيقة المعلومة وان يستعمل الألفاظ المرنّة كـ على ما يبدو، ومن الممكن، وربما كان وغيرها كي يحافظ على خط الرجعة إذا ما ظهرت حقائق جديدة تنفي القديمة (فالفأس الأثري تقلب الحقائق)، وأن يبتعد عن الكلم المنمق والعبارات المتحيزة والمطاطة، وعدم

استعمال الضمائر أثناء السرد كأننا، ونحن وغيرها وبدر الجمل بعبارات ونتيجة، وعلى أية حال، والآن، وغيرها ...

كما يجب على الباحث أن يتصف بالأمانة العلمية وبالدقة دون تشويه للحقائق أو حذف للأفكار، وعند الاقتباس ينسب المعلومات لصاحبها على أن لا يزيد النص المقتبس عن بضعة أسطر، (رسالة، 2011 صفحة 471) وينقله كما ورد عند صاحبه تماماً بين علامتي التنصيص " "، و أن لا يبالغ في الإكثار من الاقتباسات حتى لا تختفي شخصيته البحثية وأسلوبه وراءها.

إن عملية البناء العلمي هذه أو الصياغة تتطلب جهداً كبيراً من الباحث فإلى جانب المعلومات المصدرة تعتمد على قدراته سواءً كانت طبيعية كملكاته الإدراكية التي وهبها الله إياها أم مكتسبة باكتسابه المعارف المختلفة التي تساعد على فهم وتفسير العديد من الأحداث المبهمة والغامضة والغير مكتملة المعالم المشهدة، وهي كما سبق ذكره متمثلة في بنية المعرفة الالمصدرة العلمية والتي تختلف من مؤرخ لآخر. فهو بذلك يعبر عن عصر دراسته فيبت فيها من ملكاته تياراً من الحياة في العصور الماضية فيصورها بطريقته في أقرب صورة كانت عليها في زمانها.

7. استخلاص النتائج التي يتحصل عليها الباحث أو (الخاتمة):

وهي خلاصة ما توصل إليه الباحث من استنتاجات وحقائق من خلال ما وفرته الشواهد التاريخية والمصادر الأولية، كما قد تتضمن قضايا جديدة اكتشفها أثناء الدراسة يوردها في محاور محددة، مع عرض موجز وشامل للمراحل والأعمال التي قام بها خلال مرحلة إعداد البحث، كما يمكن أن يتحدث فيها عن العراقيل والصعوبات التي اعترضته أثناء البحث، مع مراعاة عدم تكرار ما جاء في متن البحث.

ولا يعني أن النتائج التي وصل لها الباحث نهائية ومسلم بها فالحقيقة التاريخية غير مطلقة وإنما نسبية كلما زادت نسبة الصدق فيها اقتربت من الحقيقة، وهي بذلك قابلة للنقد والمناقشة حسب المعطيات والشواهد التاريخية ونظرة الباحثين إليها.

الخاتمة:

حقيقة كما رأينا من خلال الدراسة فإن المنهج التاريخي يعتمد على قواعد المنهج العلمي، إلا أنه ليس هناك عمل* إنساني متكامل وهذه سنة الخلق لاستمرار المعرفة التي تسعى إليها فطرة الإنسان البحثية، لذا

فرغم ما وصل إليه المنهج التاريخي من تقنيات تحاول إخضاع مادة الدراسة للنقد والتحليل والتمحيص، إلا أنه لا يمكن الجزم والحتمية في نتائجه، لعدم حضور واسترجاع الحدث أو الواقعة ودراسة متغيراتها والسيطرة عليها، مما يجعل سد فجوات المشهد التاريخي تعتمد على قدرات الباحث وقوة تصوره العقلائي وخصوصية خياله المفعم بالخلفيات التاريخية والمعلومات المصدرية لمادة البحث، وإلمامه بالمعارف المتصلة بالتاريخ والمساعدة على فهمه، ورغم ذلك قد يساعدنا (المنهج التاريخي) على تفادي الوقوع في الكثير من الظواهر السلبية إذا ما عملت الجهات المعنية بتكثيف الجهود في سبيل نهضة البحث العلمي وتشجيع الدراسات التاريخية ونشأة المورخ المتميز. وختاماً لا ننكر أهمية المنهج التاريخي وتفضيله من قبل أغلب الباحثين كمنهج مستخدم في بحوثهم العلمية ولخصائصه المتعددة واعتماده على الأسلوب العلمي والمنهجية العلمية.

المصادر والمراجع:

- (1) أحمد حمقاني، تطور المنهج التاريخي من التفسير الإسلامي للتاريخ إلى المقاربة التاريخية للمنظومات القيمية، (مدونة الشامل التعليمية، 2018م).
- (2) الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، خطوات وأساليب المنهج التاريخي (201966.Politics-dz.com).
- (3) ربحي مصطفى عليان، البحث العلمي أسسه. مناهجه وأساليبه. إجراءاته، (عمان، بيت الأفكار الدولية، 2001م).
- (4) عبد الفتاح عبد العزيز رسلان، منهج البحث التاريخي، مجلة كلية الآداب، (جامعة بنها، دار المنظومة الرواد في قواعد المعلومات العربية، 2011م).
- (5) عبد الحليم عويس، توظيف المنهج التاريخي وفلسفة التاريخ، (شبكة الألوكة، 2014.4.19م).
- (6) عصام فاروق، المنهج التاريخي نشأته وتقاطعاته مع المنهج الوصفي، (شبكة الألوكة، 2018.2.28م).
- (7) علاء المنهج التاريخي، معهد العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التيسير، (الأربعاء، 30 ديسمبر. 2009).

- (8) علي عياد بن حامد، خطوات مناهج البحث العلمي من وجهة نظر خاصة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، (طرابلس، الدار الاكاديمية للطباعة، 2012م).
- (9) ليندا لطاد، وآخرون، منهجية البحث العلمي وتقنياته في العلوم الاجتماعية، (برلين، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، 2019م).
- (10) مانيو جيدير، منهجية البحث، (ترجمة ملكة أبيض)، بدون تاريخ.
- (11) ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، (الجزائر، دار القصبة للنشر، 2000م).

العلوم المساعدة في تطور منهج البحث التاريخي

Science Assisting the Evolution of the Historical Research Curriculum

نمير حسين

بن احمد عيسى جمال

مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر جامعة محمد خيضر بسكرة

مخبر دراسات الفكر الإسلامي جامعة جيلالي لباس سيدي بلعباس

Nemir Hocine

Benahmed aissa djamel

nemirh29@gmail.com

djamelbenahmedaissa93@gmail.com

الملخص:

تتصل دراسة التاريخ بأنواع مختلفة من العلوم يطلق عليها العلوم المساعدة، حيث يرى بعض الباحثين أن كل العلوم تعد علومًا مساعدة للتاريخ وذلك لطبيعة علم التاريخ الذي يتناول أوجه النشاط الإنساني المختلف، وعلم التاريخ يعطي تصورا دقيقا وواضحا عن العالم القديم والتجارب التي مر بها الإنسان بشرط أن تخضع هذه الدراسة لخطوات المنهج العلمي لمعرفة الزلات التي وقعت خلال حدوث الظاهرة التاريخية.

إن أيدارس لعلم التاريخ كعلم قائم بذاته عليه أن يعلم أن هذه الدراسة تتطلب منه الجد في فهم وقائع التاريخ شأنه شأن بقية العلوم و المعارف، فالعلوم الإنسانية متداخلة ومتراصة فيما بينها، بحيث لا يمكن أن تدرس علما مستقلا عن بقية العلوم الأخرى لهذا كان لزاما على الباحث أو المؤرخ أن يكون واسع الثقافة وعالما بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ، أي أن المؤرخ يحتاج إلى مجموعة من العلوم المساعدة التي تساعد وتعينه على الوصول إلى الحقيقة التاريخية وهذا هو الهدف المرجو من دراستنا حيث كان لزاما علينا نوضح لأي باحث أنه إذا انطلق معتمدا على العلوم المساعدة فحتما ستكون نتائج دراسة علمية دقيقة.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، علم التاريخ، المنهج العلمي، العلوم المساعدة، المؤرخ، الحقيقة التاريخية.

Abstract:

The study of history relates to different types of sciences called auxiliary sciences, so that some researchers see that all sciences are auxiliary sciences for history due to the nature of history science that deals with different aspects of human activity, and the science of history gives an accurate and clear perception of the ancient world and the experiences that man has undergone on condition That this study be subject to the steps of the scientific method to find out the slips that occurred during the occurrence of the historical phenomenon.

Any student of history science as a stand-alone science must know that this study requires him to understand the facts of history just like the rest of the sciences and knowledge. The human sciences are intertwined and interconnected with each other, so that a science cannot be studied independently from the rest of the other sciences. The researcher or historian is to be cultured and knowledgeable in the sciences related to the study of history, meaning that the historian needs a set of auxiliary sciences that help him and help him to reach the historical truth and this is the desired goal of our study, as it was necessary for us to explain to any researcher that if he set out on auxiliary sciences It will inevitably be the results of an accurate scientific study.

Keywords: History, History Science, Scientific method, auxiliary sciences, historian, historical fact.

مقدمة:

يعتبر علم التاريخ من العلوم السائدة في العديد من الدراسات، حتى ولو كانت علمية فلا بد للمؤرخ أن ينقل الشواهد والأحداث ليبرزها للعيان، فعلم التاريخ يقوم بتأصيل الأحداث والوقائع الهامة التي مرت على الأرض قبل وأثناء الحياة البشرية، ومن خلال الأحداث التي جرت بسبب الإنسان يعطي تصورا دقيقا وواضحا عن العالم القديم والتجارب التي مر بها الإنسان وبالتالي تكون هذه الدراسة بابا من تجنب ما وقع به الأقدمون من الأخطاء وبذلك فعلم التاريخ يدرس ماضي الشعوب لتفادي والتخطيط لعدم وقوعه في المستقبل.

إن المؤرخ أو الدارس للتاريخ؛ عليه أن يعلم أن هذه الدراسة تتطلب منه الجد والاجتهاد والمثابرة والصبر في فهم وقائع التاريخ شأنه شأن بقية العلوم والمعارف، فالعلوم الإنسانية متداخلة ومتراطة فيما بينها، بحيث

لا يمكن أن تدرس علما مستقلا عن بقية العلوم والمعارف الأخرى فعلى سبيل المثال لا يستطيع الدارس أن يفهم معاني القرآن الكريم دون أن يتقن اللغة العربية وعلوم القراءات والتجويد ... الخ. ولكن كلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه ومعرفته بمعاني القرآن الكريم.

ونفس القول ينطبق على علم التاريخ؛ لهذا كان لزاما على المؤرخ أن يكون واسع الثقافة عالما بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابه. فالمؤرخ يحتاج إلى مجموعة من العلوم المساعدة التي تساعد وتعينه على الوصول إلى الحقيقة التاريخية وخاصة أن هناك إغفال كبير من الباحثين العرب على استخدام العلوم المساعدة في دراساتهم، وعليه ارتأينا طرح الإشكال التالي: فيما تكمن أهم العلوم المساعدة لفهم وقائع وأحداث التاريخ؟ وهل من خلال هذه العلوم يستطيع باحث الوصول إلى الحقيقة التاريخية؟.

أولا: الإطار النظري

يندرج التاريخ ضمن حقل العلوم الإنسانية لكونه يتناول الحادثة التاريخية باعتبارها ظاهرة تحمل دلالة إنسانية تدل على ما حدث للإنسان في الماضي وترك أثره فيه سواء كان هذا الحادث طبيعيا مثل فيضان أو زلزال، أو كان اجتماعيا سياسيا كثورة أو حرب...

إن لفظة التاريخ في اللغة العربية تدل على معاني متعددة ومختلفة وقد اختلف العلماء في أصلها ولكن المرجح أنها الإعلام بالوقت وتحديد الزمن، فقد ذكر لسان العرب في مادة "أرخ" فقال "هو تعريف بالوقت والتواريخ فيقال أرخ الكتاب ليوم كذا"، (أبو الفضل جمال الدين، (د.س)، صفحة 04).

وتعتبر كلمة التاريخ مشتقة على الأرجح من اللفظ السامي والذي يعني القمر أو الشهر وهي ترد على لفظين: تاريخ بإثبات الهمزة ويقابل كلمة استوريوغرافيا ويفيد مطلق التعريف بالوقت ويشير إليه السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ بأنه يعني الإعلام بالوقت وهو ما يقبل كلمتي إستوار *histoire* الفرنسية واستوري *history* بالإنجليزية المأخوذتين من اللفظ اليوناني استواريا *hidtoria* الذي يفيد الرؤية أو النظر أو المعنى وقد يعني البحث فالذي قام أو شاهد يعرف بالإستوري *history* وبذلك يكون المؤرخ بهذا المعنى هو الشاهد على الوقائع أو الذي يقوم برسم لوحة بيانية عن مجرى الحوادث التي علم بوقوعها خلال العصور (ناصر الدين، 2000م، صفحة 07).

وهناك العديد من الصفات لمفهوم التاريخ والذي تدرج عند العديد من المؤرخين فمثلا ابن خلدون يصف التاريخ بقوله: "... اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة

الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا..." (ابن خلدون، 1425هـ/2004م، صفحة 92)، والتاريخ سابقا كان يسمى فنا وكثير من الباحثين أقروا على أنه يقصد بأنه بذلك العلم. ويصفه كذلك محي الدين محمد بن سليمان الكافيجي بقوله: "وأما علم التاريخ فهو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته"، ويقصد من هذا أن دارس التاريخ لا بد أن يلتزم بأصول هذا العلم فعليه في دراسة أي موضوع أن يحدد الإطار الزمني لتاريخ المراد دراسته، ومن أجل معرفة أحواله لا بد من معايشة الباحث للحدث التاريخي كأنه عاصر الحدث، وهذا يحدث عن طريق توظيف العلوم المساعدة في الدراسة الميدانية. (فرانز، 1403هـ/1983م، صفحة 327)

كما يرى أحد مؤرخي القرن التاسع عشر للميلاد الإنكليزي "تشارلز فيرث" نقلا عن الباحث عبد الواحد ذنون طه بقوله: "التاريخ شيء لا يسهل تعريفه ولكن يبدو لي انه سجل لحياة المجتمعات الإنسانية وللتغيرات التي اجتازتها تلك المجتمعات وللأفكار التي تحكممت في توجيه نشاط تلك المجتمعات وللظروف المادية التي ساعدت على تطورها"، ويقصد من هذا الكلام أن التاريخ متشعب يدرس نشاط الإنسان في أزمنة وأمكنة مختلفة والعديد من التغيرات التي تصاحبه (عبد الواحد، 2004م، صفحة 18)، كما أن الدكتور ناصر الدين سعيدوني له موقف واضح من وصف التاريخ فهو يرى بأنه معرفة ماضي البشرية منذ نشأتها الأولى، وحتى الوقت الحاضر، فهو علم البشرية بالدرجة الأولى وبذلك يحيط إحاطة شاملة بحياة الإنسان في كل أبعادها الزمنية بما في ذلك الحاضر والمستقبل وهذا ما يجعله عاملا أساسيا في الوعي بوجودنا حسب مقتضياتنا وحاجاتنا وإمكانياتنا (ناصر الدين، 2000م، صفحة 12).

ومن هنا يمكن تحديد تعريف لمصطلح التاريخ الذي هو حوار بين الماضي والحاضر، حوار بين الأجيال وبين الإنسان والزمان، وكذا بين المؤرخ والقارئ باعتباره ذاكرة العصور التي تناقلتها الأجيال، ولكونه التجربة المدونة للجنس البشري التي يمكن الاستفادة منها في أي ميدان من الميادين فضلا عن كونه في حد ذاته تدوينا وقصصا للشؤون البشرية والعرض الشامل لأحوال المجتمعات الماضية، فالتاريخ بهذا المفهوم هو الوزن المعدل الذي لا بد من وضعه في كفة تقابل كفة العلوم، لأن مجال اهتمامه هو الإنسانية التي تؤلف الوحدة التي يركز عليها التاريخ والمحور الذي تتضخم حوله المعرفة البشرية المكتسبة من تجارب وخبرة الأجيال السابقة وهذا ما يجعل التاريخ يتصف بالشمولية لكل معرفة بحيث يمكن القول إنه ليس هناك شيء خارج مجال اهتمام التاريخ وبهذا المعنى يشكل التاريخ اخطر محصول أنتجته كيمياء العقل البشري (ناصر الدين، 2000م، الصفحات 12-13)

ثانيا: العلوم المساعدة لعلم التاريخ

إن التخصص في البحث التاريخي وكتابة التاريخ مثل أنواع التخصص في العلوم والمعارف الأخرى، يستلزم الإعداد والدراسة، واكتساب ثقافة واسعة في حقول المعرفة البشرية، ولاسيما الموضوعات القريبة من التاريخ، وهذه الثقافة الواسعة تمثل مجموعة من العلوم والمعارف والأساليب والطرق يستعين بها الباحث التاريخي في جميع مصادره وفهمها وتمحيصها ونقدها. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن البحث التاريخي من أصعب مواضيع البحث العلمي المعروفة، إن لم يكن أصعبها، وإن هذه الصعوبات الملازمة للبحث التاريخي لا تقتصر على طبيعة الموضوع الذي يعالجه الباحث التاريخي، بل إنها ناشئة كذلك من تنوع الموضوعات والمعارف والثقافية الواسعة التي يجب أن يلم بها، والتي يطلق عليها العلوم المساعدة.

وإذا كان يتعذر على الباحث في التاريخ أن يتخصص في هذه العلوم المساعدة كلها أو بعضها، فإنه يلزم عليه أن يلم بالعلوم التي لها صلة مباشرة بموضوع بحثه، فإن العلوم المساعدة التي تلزم الباحث في الحضارات القديمة تختلف اختلافا عن الآخر في بحثه من التاريخ اليوناني أو الإسلامي أو التاريخ الأوروبي (عبد الفتاح عبد العزيز، 2011، الصفحات 424-425). ومن هنا سوف نحاول أن نرصد أهم العلوم المساعدة لفهم التاريخ التي توصل الباحث إلى الحقيقة التاريخية والتي سوف نحاول توضيحها على نحو التالي:

1- اللغة:

تعتبر اللغة من أهم العلوم مساعدة لفهم التاريخ، والتي ينبغي للباحث في التاريخ أن يتزود ويتحلى بها لأن معرفتك للغة وإيجادك لها يجعلك تصل إلى الحقيقة التاريخية بشكل صائب فهناك في اللغة العربية مثلا الكلمة لها معاني كثيرة ومن لا يجيد اللغة العربية فيمكنه أن يتعذر عليه الوصول إلى الهدف من الدراسة، (قاسم، 1990م، صفحة 51)، ومن هنا يتوجب على المؤرخ أن يلم باللغة الأصلية الخالصة بموضوع البحث التاريخي الذي ينوي الكتابة فيه، لأن الترجمة لا تفي بحاجة المؤرخ للتوصل إلى الفهم الكامل لما يريد الاطلاع عليه فعلى سبيل المثال، أن الذي يرغب في دراسة تاريخ العصور الوسطى الأوروبية يجب أن يكون عارفا باللغة اللاتينية، لكن هذه اللغة اللاتينية ليست ضرورية لدراسة تاريخ الثورة الفرنسية، بل إن اللغة الأصلية المطلوبة هنا هي اللغة الفرنسية، كذلك لا بد لمن يود دراسة العلاقات بين مجموعتين من البلدان أن يعرف لغة الاثنين، حتى يطلع على وجهات النظر المختلفة، فدراسة العلاقات المصرية الإنكليزية بعد الحرب العالمية الأولى تتطلب معرفة اللغة الإنكليزية واللغة العربية، ودراسة علاقات العرب في

الأندلس بالممالك الإسبانية، تتطلب أيضا معرفة كل من العربية والإسبانية، وربما الفرنسية أيضا لوجود الكثير من البحوث و الدراسات التي كتبت عن هذا الموضوع باللغة الفرنسية وهكذا. (عبد الواحد، 2004م، صفحة 43).

فكلما تعددت اللغات التي يتقنها الباحث، اتسع أمامه مجال الفهم والمعرفة والاستقصاء للموضوعات الخاصة ببحثه وأمكنه الاطلاع على مختلف المقالات والبحوث والكتب التي يمكن أن تضيف معلومات قيمة إلى ما يتوصل إليه من نتائج ولا يكفي لمن يرغب في التخصص بموضوع معين في التاريخ أن يعرف اللغة الأصلية الخاصة بذلك الموضوع، بل عليه أيضا أن يكون ملما بفقهاء اللغة الفيلولوجيا (عبد الواحد، 2004م، الصفحات 43-44).

1-1: علم اللغة الفيلولوجيا:

هو العلم الذي يبحث في تطور اللغات وتركيبها ومؤدى تعابيرها واقتباساتها من اللغة الأجنبية، عن طريق دراسة اللغة عبر الوثائق المكتوبة بهدف التعرف على تطور مضمونها من خلال نصوصها، فعلم اللغة بهذا التناول يزود المؤرخ بمعلومات تاريخية في غاية الأهمية وذلك لكون اللغة في الواقع ترتبط بالمستوى الحضاري والفكري لأي أمة فمن خلال النصوص الأصلية يمكن استخلاص المعلومات التاريخية لارتباط المادة التاريخية بتلك التي كتبت بها ولعل أحسن دليل على ذلك هو ما قام به فيكو (J.BVico 1668 - 1744) من رصد المعلومات واستخلاص الأحكام اعتمادا على قصائد هوميروس.

أما علم معاني المفردات السيمانتيك " فهو يبعد كثيرا عن اهتمامات الفيلولوجيا إذ يبحث أساسا في تطور المفردات وفي تغير معانيها من عصر إلى آخر ومن كاتب إلى آخر وهذا ما يساعد المؤرخ على اقتباس المعلومات التاريخية من خلال تطور معاني الكلمات في إطارها الجغرافي وبعدها الزمني ودلالاتها الحضارية (ناصر الدين، 2000م، صفحة 19)

2- علم قراءة الخطوط (paleography):

يعتبر هذا العلم من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ منذ أقدم العصور حتى أزمان متأخرة، وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الخطأ، وتوضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديدة مثل تاريخ مصر القديم وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام، وتاريخ اليونان، وتاريخ الرومان والعصور

الوسطى وكذا التاريخ الأوروبي الحديث حتى القرن السابع عشر، وتاريخ الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر، وذلك بالنسبة للغات التي تتعلق بهذه الموضوعات (حسن، 1964م، الصفحات 27-28).

3- علم الوثائق:

علم الوثائق هو العلم الذي يدرس الوثيقة أو علم الأصول بحيث يهتم بدراسة الوثائق ونقدها وتحديد أزمانها، لأن الباحث أول عمل له بعد جمع الوثائق أن يخضعها للمنهج التحليلي والمقارن من أجل معرفة صحة المعلومة التي تحتويها (ناصر الدين، 2000م، صفحة 16) وتجدر الإشارة أن هذا العلم حديث النشأة في العالم الغربي، فإنه كان معروفا عند العرب المسلمين، ولاسيما المتخصصين في علم الفقه والحديث، بحيث سمي بمصطلح علم الشروط، وقد اشتهر من العرب في هذا الموضوع جملة علماء ألفوا فيه مثل هلال بن يحيى الرازي (ت 245هـ / 859م) في كتابه " تفسير الشروط " وأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت 321هـ / 933م) وكتاب الموسوم " الجامع الكبير في علم الشروط " وأبي بكر محمد بن عبد الله البيهقي الذي ألف في " أدب القضاة والشروط و الموائيق"، وتعنى كلمة " الوثائق " في مفهومها العام كل الأصول التي يستخدمها المؤرخ للحصول على معلومات تاريخية، سواء كانت مكتوبة على الورق أو غير مكتوبة كالأثار المادية (عبد الواحد، 2004م، صفحة 46)، ولكنها في المعنى الدقيق الذي اصطلح عليه المؤرخون " الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية مثل الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة أو عادات الشعوب أو نظمهم وتقاليدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف أو المشروعات أو المقترحات المتنوعة التي تصدر عن المسؤولين في الدولة أو التي تقدم إليهم أو المذكرات الشخصية أو اليوميات ... (قاسم، 1990م، صفحة 53).

لهذا؛ لا بد للمؤرخ دوما أن يتقن الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذي يبحث فيه، وهناك طرق وأساليب فنية خاصة تتبع في تحديد أزمانها، والتعرف إلى المداد المستعمل في كتابتها، ونوعية الأقلام المستخدمة، نوع الورق وعمره، وذلك لأجل المساعدة في التثبت من صحة هذه الوثائق، أو بطلانها (عبد الواحد، 2004م، صفحة 46).

4- الأختام:

ويتصل بعلم الوثائق دراسة علوم أخرى خاصة بالأختام والرنوك التي تهمر بها هذه الوثائق، بحيث كانت تختلف من عصر إلى آخر وقد استخدمت الأختام المعدنية من قبل الملوك والأمراء في أزمنة مختلفة ووجدت أختام الذهب عند بعض الملوك في أوروبا في العصور الوسطى (عبد الواحد، 2004م، صفحة

(47)،وقد تعددت هذه الأختام وتنوعت، فمنها المستدير ومنها البيضوي الشكل، ومنها ما يشبه المثلث أو القلب أو الصليب (حسن، 1964م، صفحة 31) وكان لمعظم الحكام والأمراء والخلفاء المسلمين أختام خاصة بهم، عليها شعارات وعبارات معينة تميزها عن غيرها، كانوا يستعملونها في توقيعهم على الوثائق والسجلات التي يختم عليها (عبد الواحد، 2004م، صفحة 47) كما يقول ابن خلدون بـ "خاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرافي السجل عند طيه وإصاقه..." (ابن خلدون، 1425هـ/2004م، صفحة 429)

5- علم الرنوك: (heraldry):

وهي الشعارات أو العلامات المميزة التي تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والجنود أو على الأعلام. ولقد عرف القدماء هذه الرنوك أو العلامات المميزة، وعرفها أهل العصور الوسطى، فعرفها الشرق الإسلامي واستخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون، للدلالة على وظائف أرباب السيف ومن هذه العلامات نجد الكأس والسيف والدواة والنسر والهلل والصليب وذيل الحصان وزهرة الزنبق (حسن، 1964م، صفحة 31)، وقد استخدمت هذه الشارات أثناء الحروب الصليبية للتمييز بين الجيوش المختلفة التابعة لشعوب متعددة حتى لا يقع الالتباس بين أفرادها، كذلك استخدمت في العصور التالية في المشرق الإسلامي ولاسيما لدى الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وقد زينت في العصور الإسلامية بأنواع الزخارف والنقوش المختلفة كأوراق الأشجار والأزهار والأهلة والكوكب والحبال المضفورة بأشكال مختلفة.

وإن معرفة الباحث التاريخي بهذه العلامات وبالأختام الخاصة بالفترة التي يدرسها؛ تساعده في تحديد زمن الوثائق التاريخية الحالية من التاريخ، كذلك يستفيد من هذه الكتابات والرموز في التعرف إلى ألقاب الحكام والملوك والأمراء وشعاراتهم التي يستعملونها في توقيعهم فعلى سبيل المثال، كان نقش ختم الخليفة عبد الملك بن مروان "أمنت بالله مخلصاً" ونقش ختم الخليفة محمد المهدي العباسي هو "الله ثقة محمد وبه يؤمن" وكان للخلفاء أكثر من ختم واحد فلأمين محمد بن هارون الرشيد ثلاثة أختام مكتوب عليها على التوالي "حسي القادر" و"لكل عمل ثواب" و"محمد واثق بالله" وهكذا الأمر بالنسبة إلى معظم الخلفاء الراشدين ولأُمويين والعباسيين (عبد الواحد، 2004م، صفحة 48).

6- علم النقود والمسكوكات أو النوميّات (Numismatique):

يعد علم المسكوكات أو النقود من العلوم المساعدة الأخرى المهمة في البحث التاريخي، وهو ما يعرف أيضا بعلم النумيات فالنقود تعد وثائق تاريخية لا يمكن الطعن بها بسهولة وهي مهمة في إعانة المؤرخ على التوصل إلى الحقائق التاريخية (عبد الواحد، 2004م، الصفحات 48-49)، فهذا العلم يمكننا من الاطلاع على معلومات تاريخية غاية في الأهمية نستخلصها من خلال التعرف على نوعية المعادن ونسبتها والصور والرموز التي تحملها وتاريخها والكتابات المسجلة عليها فالتعرف على مجال استعمال النقود وانتشارها حيث يمكن للمؤرخ عند اطلاع على نقود أي دولة يجد عادة عليها رموز هذه الدولة التي تجعله يتعرف من خلالها على أصول هذه الدول وخبايها (ناصر الدين، 2000م، صفحة 16). فهذه المعلومات وما تحمله من كتابات ورسوم وعلامات، تقدم مادة أساسية، يمكن أن تخدم الباحث في ضبط الأسماء والتواريخ، وتعطي فكرة عن الأحوال التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية للفترة التي يؤرخ لها كما يمكن أن يستخلص من النقود أيضا معلومات ثمينة عن الأحوال المعيشية والأسعار، وأساليب التعامل التجاري، وأسماء الملوك والحكام، ودور الضرب التي سكت فيها النقود والعلاقات التجارية السائدة في عصرها والنقود سجل للألقاب والنعوت، التي يدونها الحكام والأمراء عليها، لذا فهي تلقي الضوء على كثير من الأحداث السياسية، فبالإمكان مثلا نفي أو إثبات تبعية بعض الولاة أو السلاطين والبلاد للخلافة أو للحكومات المركزية في التاريخ الإسلامي بواسطة النقود، كذلك يمكننا أن نحكم على أهمية التبادل التجاري بين الأمم من العثور على المسكوكات القديمة في مناطق مختلفة من العالم، فعلى سبيل المثال، أن العثور على كميات وفيرة من النقود العربية في أماكن بعيدة، ولاسيما في اسكندناوة ومنطقة بحر البلطيق وأودية الأنهار في روسيا يعد دليلا ملموسا على قيام تجارة واسعة النطاق بين العالم الإسلامي وهذه المناطق النائية (عبد الواحد، 2004م، الصفحات 48-49). (ناصر الدين، 2000م، صفحة 16).

7- علم البيبلوغرافيا والموسوعات المتخصصة (Bibliography):

لقد أصبح هذا علم البيبلوغرافيا من العلوم الهامة، وهو يندرج في إطار العمل التوثيقي (Documentary) ويعتبر من العلوم المساعدة في كتابة التاريخ، فالكتب البيبلوغرافية تجمع بين ثناياها أسماء الأشخاص والكتب والدوريات والمقالات الصادرة هنا وهناك في مجال التاريخ أو الأدب أو السياسية أو العلوم... وهذه البيبلوغرافيا تخفف عن الباحث المؤرخ الكثير من المعاناة. وبالرغم من هذه المساعدة تبقى عملية البحث والتنقيب وزيارة المكتبات مسألة ضرورية للبحث عن مصادر قد تكون

أغفلتها البيبلوغرافيا في موضوع تاريخي محدد، ثم تهدف الزيارة لاختيار المصادر التي أوردتها البيبلوغرافيا ذاتها. (حسان، 1424هـ/2003م، صفحة 95).

ولابد من الإشارة بأن الأوائل الذين أدركوا أهمية العمل البيبلوغرافي، هم اليونان والرومان فقد اصدر بعض الموسوعات القانونية والتنظيمية، كما أدرك المسلمون أهمية هذا العمل، فأصدروا خلال تاريخهم الكثير من الكتب البيبلوغرافية المفهرسة ولعل أهميها: الفهرست لابن النديم، "وعيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، و"طبقات الأطباء والحكماء" لابن جليل، و"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة، و"الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري (موسوعة جغرافية-تاريخية) (حسان، 1424هـ/2003م، صفحة 96)

8- علم الآثار (Archéologie):

ومن العلوم المهمة الأخرى التي لا يمكن أن يستغني عنها المؤرخ علم الآثار الذي يبحث عن مخلفات الماضي وبقاياه المادية ويهتم باستخراجها من باطن الأرض بالأساليب العلمية المتبعة في التقنيات ودراستها لاستخراج الدلالة التاريخية عن أحوال الماضي، وتحديد أزمان الطبقات الأثرية وضبط الأدوار التاريخية (ناصر الدين، 2000م، صفحة 14) فالبحث عن الآثار أو التنقيبات هو في الحقيقة البحث عن مادة التاريخ الأولى أي عن أصوله وموارده وهي أولى المهام التي يضطلع بها المؤرخ الباحث إن البحث عن الآثار بالطرائق العلمية يعد علما حديثا بدأ أول أطواره منذ منتصف القرن التاسع عشر للميلاد وقبل ظهور هذا العلم لم يكن شيئا ذا قيمة عن مدينيات العراق القديم ومدينيات الشرق بوجه عام وكل ما كنا نعرف هو بعض الأخبار الموجزة التي ورد ذكرها في التوراة وأخبار يسيرة أخرى من بعض مؤرخي اليونان والرومان أمثال: هيرودتس وبطليموس وغيرهم، وذلك لأن حضارات العراق القديمة دمرت في أواخر أيامها من قبل أقوام أخرى كانت تعيش بالقرب منها فاندurst مدنها العامرة مثل بابل و النمرود، وانطمرت الآثار التي خلفتها تحت الأنقاض وعلى عليها الزمن ولكن بظهور علم الآثار إلى النور لتصبح المادة الرئيسية الأولى، والموارد التي لا يمكن الطعن في قيمتها و أصالتها في دراسة تاريخ العراق القديم وبقية الحضارات الأخرى في العالم (عبد الواحد، 2004م، صفحة 56).

وبذلك أصبح علم الآثار يقدم للمؤرخ مصدرا أساسيا لاكتشاف طبيعة الثقافة الإنسانية من خلال الآثار الماثلة للعيان من عمارة وزخارف وأدوات وآلات، والتي تشكل الشاهد المادي على الماضي الذي يصح أو يكمل أو يؤكد الشاهد الكتابي أو الرواية الشفوية التي يوفرها التدوين التاريخي بل يتجاوز الشاهد

الأثري ذلك ليعطي المرحلة السابقة لظهور الكتابة التي تمتد على فترات زمنية طويلة لم تعد تعرف عنها سوى البقايا المادية والمخلفات التي صنعها الإنسان والتي ظلت تحتزن بطريقة أو بأخرى معطيات كثيرة عن صانعيها الذين ماتوا.

وهذا ما يجعل علم الآثار في حقيقته تقنية تاريخية جديدة ضمن البحث التاريخي تطورت هي بدورها وأصبحت علما واضحا محدد الطرائق والوسائل التي تطورت هي بدورها وأصبحت تستخدم معطيات العلم الحديث مثل التصوير الجوي، والغوص في أعماق البحار. فالآثار من هذا المنظور أصبحت أكثر تشخيصا ومباشرة وأقرب إلى مخاطبة الفكر بشكل مباشر وهذا ما جعل علم الآثار يساهم منذ قرنين في إثراء معرفتنا بالماضي وتحديد فهمنا للتاريخ (ناصر الدين، 2000م، صفحة 14).

9- العلوم الاجتماعية:

وهناك جملة من العلوم الاجتماعية الوثيقة الصلة بالتاريخ والتي لا يمكن للمؤرخ الذي يسعى إلى فهم الواقع الاجتماعي للحقبة التي يدرسها الاستغناء عنها لأن التاريخ شامل كل الشمول ولا يمكن أن يكون لدى المؤرخ مهما يكن لامعا معرفة وخيال كافيان لأدراك جميع وجوه مادته. فالعلوم الاجتماعية تعالج موضوعات صريحة يستطيع المؤرخ أن يكتشفها خلال بحثه ومن أهم هذه العلوم علم الجغرافية وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الإنسان الأنثروبولوجي (عبد الواحد، 2004م، صفحة 57).

10- علم الجغرافيا:

تعد من أهم العلوم المساعدة المترابطة بالتاريخ ارتباطا وثيقا أو بمعنى آخر بين الزمان والمكان، وهي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، وهي ذات أثر كبير في توجيه البشر وبالتالي لها نفس الأثر على سير التاريخ وذلك تبعا لنوع تفاعل الإنسان مع بيئته ومواجهته لظروفها ومن هنا يلزم للمؤرخ أن يلم بجغرافية المنطقة التي يريد دراستها والظروف والظواهر الجغرافية التي تسودها وتؤثر فيها ولقد بلغ من أهمية الجغرافيا أن ظهرت نظرية لتفسير حركة التاريخ عن طريق الجغرافيا (نجاة سليم، 1431هـ/2010م، صفحة 148).

إن هذا الترابط بين البيئة الطبيعية وقابليات الإنسان وقدراته وسلوكه هو شيء محتم فالحضارة والتاريخ ما هما إلا تفاعل بين بيئة الإنسان وقابليته فنرى مثلا أن المناخ العام كحالة الأمطار والأنهار والطقس وما تقدمه البيئة من إمكانات اقتصادية وكذلك موقع القطر الجغرافي واتصالاته يؤثر في تكوين الإنسان وفي

خلقه ونفسيته وفي حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد أدرك المؤرخون لكتبهم التاريخية مقدمات جغرافية ذكروا فيها الخصائص والعناصر التي أثرت في سير تاريخ البلد الذي يكتبون عنه ولعل أوضح مثال على ذلك ما جرى عليه معظم المؤرخين العرب في الأندلس الذين قدموا للتاريخ بالجغرافيا فوصفوا الميدان قبل ذكر الوقائع وبذلك استطاعوا أن يفسروا كثيرا من الخصائص و المقومات الحضارية لبلدهم في ضوء المعطيات الجغرافية (عبد الواحد، 2004م، صفحة 58). فعلى سبيل المثال لا يمكن إهمال تأثير البحر في حياة اليونان القديمة أو الإمبراطورية الانجليزية في القرن الماضي، كما أن العامل الطبيعي (الجغرافي) يفسر لنا مثلا انحسار الإمبراطورية الاسبانية بتحطم أسطولها (الارمادة) في القتال الإنكليزي سنة 1588م (ناصر الدين، 2000م، صفحة 20). فقد ساعدت العواصف الأسطول الإنكليزي على التغلب على أرماد الاسبانية مما أدى إلى فرض إنجلترا لسيطرتها على البحر وارتفاع شأنها (نجاحة سليم، 1431هـ/2010م، صفحة 149).

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا في التاريخ ما نلاحظه من تدخلها أحيانا تدخلا حاسما في تغيير مجرى التاريخ. فمثلا عاق البحر تقدم تيمورلنك عن العبور إلى أوروبا بعد أن هزم با يزيد الأول في موقعه أنقرة في سنة 1402م، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة، فاستعادت مكانتها بعد قليل، وأدت للشرق الأدنى دورها التاريخي في عصر تقدمها وقولها (حسن، 1964م، الصفحات 33-34).

كما يفسر لنا أيضا تراجع جيوش نابليون 1812م وكذلك فيالق هتلر 1941م في السهول الروسية، وصمود البندقية في القرون الوسطى أمام هجمات القوط والهون مما ساعدها على النمو والتحول إلى قوة اقتصادية (ناصر الدين، 2000م، صفحة 20).

كما تضمنت هذه المصنفات لرحلة الجغرافيين العديد من الحقائق الكثيرة والتي يجب الإفادة منها في البحوث التاريخية، لاسيما وأن كثيرا منها كان يعنى بوصف البلاد وبيان المسافات بينها، وحاصلات كل منها، وما يؤلف شرتها وعادات أهلها، بل إن الكثير من الرحلة كانوا يكتبون بهدف تثقيف القارئ، فيتطرقون إلى الكثير من النواحي التاريخية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما يجعل منها مصدرا هام لمعرفة أحوال العالم الإسلامي في العصور الوسطى (سيدة اسماعيل، 1403هـ/1983م، صفحة

(87)

11- علم الاقتصاد:

يعد علم الاقتصاد من العلوم المساعدة على دراسة التاريخ، إذ أن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعال في سير التاريخ. فالثروة الطبيعية في بلد ما تحدد نوع الإنتاج الزراعي والصناعي، ونوع التبادل التجاري ومدى نشاطه، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية أو الأموال ومدى تركيزها في يد طبقة أو طبقات معينة، أو مستوى توزيعها بين فئات أكثر عددا، يؤثر في السياسة الداخلية لدولة ما ويؤثر في نظام الحكم بها، وفي مستوى الرخاء أو الفقر، وفي حياة الشعب، وفي علاقة طوائفه بعضها ببعض، ويؤثر في مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها، وتؤثر الظروف الاقتصادية في علاقة الدولة بالعالم الخارجي، سواء أكان ذلك في الناحية الاقتصادية البحتة، أم في العلاقات السياسية، وكذلك تؤثر في مستوى قوتها العسكرية ومركزها في المجتمع الدولي (حسن، 1964م، الصفحات 36-37).

وفي علاقة الدولة بالعالم الخارجي سواء أكان ذلك على الصعيد الاقتصادي أم السياسي أم العسكري وتؤثر الظروف الاقتصادية في مجرى التاريخ للدول أيضا مثال ذلك فان الثورة الصناعية التي حدثت في بلدان أوروبا في القرن الثامن عشر للميلاد نتيجة للمخترعات الحديثة قد أحدثت أيضا ثورة في النظام الاقتصادي الأمر الذي فرض على دول أوروبا الغربية أن تنتهج سياسة التوسع والاستعمار للحصول على المواد الخام والبحث عن أسواق لتصريف المنتجات الصناعية، وكان للسلاح الاقتصادي أثر فعال في الصراع الذي نشب بين نابليون بونابرت وانكلترا فقد حاول كل منهما أن يستخدمه للقضاء على الطرف الآخر، ففرضت انكلترا الحصار الاقتصادي على فرنسا في حين أن نابليون حاول قبل ذلك غزو مصر وكان أحد أهدافه من هذه العملية الاستعمارية تهديد مركز انكلترا الاقتصادي في الهند (عبد الواحد، 2004م، الصفحات 60-61).

12- علم السكان أو الديموغرافيا (Démographie):

يدرس التوزيع العددي و الجغرافي للمجموعات البشرية والتغيرات التي طرأت عليها من زيادة أو نقص نتيجة مختلف العوامل كالوفاة والتكاثر والهجرة وغيرها وهذا ما يجعل المؤرخ بحاجة إلى الرجوع إلى مصادر ومناهج علم السكان التي تمكنه من تفسير وشرح العلاقات القائمة بين السكان والعوامل الأخرى المؤثرة في الشؤون الإنسانية والتي القائمة بين السكان والعوامل الأخرى المؤثرة في الشؤون الإنسانية والتي بدورها لا يمكن رصد تطور الظاهرة البشرية وما يتصل بها من أحداث (ناصر الدين، 2000م، صفحة 20).

13- علم الإنسان والأجناس (Anthropology): وعلم وصف الشعوب (Ethnography):

يعتبر علم الإنسان الأنثروبولوجي من أكثر العلوم الاجتماعية صلة بالتاريخ فهو يعالج المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشري وانتشار بني الإنسان على سطح الأرض، ونشوء الثقافات الإنسانية كما يدرس مؤسسات المجتمعات الأولى وأديانها وفنونها وطقوسها وشعائرها وقيمها، ونظراتها إلى الحياة وتقاليد (عبد الواحد، 2004م، صفحة 61). ويرى البعض بأن مناهج علم الآثار وعلم الإنسان الفيزيائي (علم التطور الحياتي البيولوجي) هي في أساسها مناهج التاريخ مع تعديلات تتطلبها المعطيات.

فعلى سبيل المثال؛ فإن مرحلة علم الإنسان الفيزيائي التي تدور حول تطور البشر والحيوانات العليا هي في جوهرها بحث تاريخي، بل يمكن الاستفادة من هذه البحوث في مجالات التأريخ والتدوين بشكل أساسي. ولا يمكن أن ننسى في هذا المجال ما لعلم الآثار القديمة " الأركولوجيا " من أهمية في التاريخ الإنسان في اكتشاف القراءة والكتابة معتمدا على الآثار القديمة أي على الأكلوجيا. (حسان، 1424هـ/2003م،

الصفحات 106-107)

كما تجدر الإشارة عن العالم " هيوغ أتكين " قد أكد على أهمية الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وأنه من أشد العلوم الاجتماعية ملائمة للمؤرخين ذلك لان علماء الأجناس والمؤرخين يواجهون مشكلات مشتركة، وتظهر بينهم في بحثها في بعض الأحيان اختلافات متشابهة في الرأي. ومهما يكن من أمر فإن ما يتوصل إليه علم الأجناس (الإنسان) ممكن جدا أن يخدم المؤرخ لاستكمال أبحاثه. وقد اهتم بعض القدامى بالربط بين التأريخ جدا أن يخدم المؤرخ لاستكمال أبحاثه. وقد اهتم بعض القدامى بالربط بين التأريخ والأنثروبولوجيا -بقصد أو بغير قصد- فقد حرص يوليوس قيصر أثناء كتابته لمذكراته أن يمدنا بمعلومات خاصة عن أجناس البشر التي رآها خلال تنقلاته في فترة الحروب التي خاضها. وقد تضمنت تلك المذكرات معلومات عن سلالات الغال والجرمان والبريطانيين ومعلومات عن ثقافتهم وأوضاعهم. وهو بذلك يكون قد مزج بين التاريخ والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وأدى خدمة تاريخية واجتماعية. وهذا ما فعله ابن خلدون عندما تفرد بتاريخ وذكر الجالية الأندلسية وأخبارها وأوضاعها أثناء نزوحها إلى المغرب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي (حسان، 1424هـ/2003م، صفحة 106).

14- علم الاجتماع (Sociologie):

ويعتبر هو آخر من العلوم المساعدة لفهم التاريخ من خلال التعرف على القوانين التي تتناول أفعال الناس وعلاقاتهم ببعضهم، وما يتصل بذلك من مظاهر التغير الاجتماعي، وهذا ما جعل علم الاجتماع على صلة بالتاريخ فالمؤرخ يحتك بعلم اجتماع من خلال دراسته للتغير الاجتماعي في الماضي وتتبع حركة المجتمع

خلال الإطار الزمني كما أنه مضطر أي المؤرخ للتعامل مع علم الاجتماع حتى في النصوص وتفسير الأحداث التي لها صلة بالنظم والعادات ليتمكن من فهم تطورات من خلال غاياتها ومراميها الاجتماعية (ناصر الدين، 2000م، صفحة 22).

وهكذا فإن العلاقة وثيقة جدا بين علم الاجتماع والتاريخ حتى إن واحدا من مشاهير الباحثين وهو جورد هوارد ذهب إلى القول بأن " التاريخ هو علم اجتماع الماضي وعلم الاجتماع هو تاريخ الحاضر " فدراسته إذًا تقدم للمؤرخ حافزا للاهتمام بالتاريخ الاجتماعي للعصر الذي يبحث فيه لا أن يقتصر على مجرد السرد العمل للمعارك أو لتواريخ الملوك والقادة والنبلاء (عبد الواحد، 2004م، صفحة 62).

15- العلوم السياسية والدراسات الحقوقية:

وهي من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بالتاريخ، وقد حرصت بعض كليات الآداب والعلوم الإنسانية في الكثير من الجامعات، على ربط التاريخ بالعلوم السياسية، وبات لزاما على طالب التاريخ دراسة بعض المواد في العلوم السياسية. وكما أن العلوم السياسية مساعدة للتاريخ في إمداده بالتفسيرات والوقائع السياسية، فإن التاريخ بدوره مفيد للعلوم السياسية في إمداده بالمعلومات وأسباب المعلومات وأسباب ونتائج الوقائع التاريخية. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن منهج البحث التاريخي المعاصر، لم يعد يعتبر أن الأحداث السياسية، فحسب هي الأساس في التركيب التاريخي. ذلك لأن المنهج التاريخي الحديث لا يعتبر أن التاريخ هو مجرد حروب وثورات ومعارك عسكرية، بل أصبح هذا المنهج يلتزم سبر غور أسباب هذه الأحداث من المنطلقات الاقتصادية والاجتماعية. ولا يعني ذلك أيضا بان التأريخ الحديث أهمل إهمالا تاما الأحداث العسكرية والسياسية، فتلك جزء لا يتجزأ من التاريخ. ولعل واقع التاريخ العسكري أصبح أكثر أهمية في ميدان الكليات الحربية والعسكرية (حسان، 1424هـ/2003م، الصفحات 108-109).

ومن المعروف أن من ضمن ما يهتم به علم السياسية دراسة المؤسسات السياسية والهيئات الحكومية والنظريات والمعتقدات الإيديولوجية في مختلف البلدان الديمقراطية والشيوعية وأساليب الحكم. كما أن العلاقات الدولية ناحية من النواحي التي يعني بها علم السياسية. فكل هذه الاهتمامات لعالم السياسة تمتزج مع اهتمامات المؤرخ. ولا يفضل بين التاريخ الدبلوماسي والعلاقات الدولية إذا أمكن فصلها تماما إلا الفترة الزمنية التي يتناولها الباحث. غير أن المؤرخ قد يفيد في هذا الميدان من دراسة التحليل والمنهجية عند عالم السياسة (حسان، 1424هـ/2003م، صفحة 109).

أما الدراسات الحقوقية فلها أيضا ارتباط وثيق بالتاريخ، ولا يمكن مطلقا إغفال أهميتها، فالحقوقي يدرس عادة القوانين اليونانية والرومانية القديمة، أو الدساتير والتشريعات الانجليزية والفرنسية والأمريكية. فهو يستفيد منها من النواحي القانونية وفي تطور القوانين والدساتير، في حين أن المؤرخ يوظف هذه التشريعات لدراسة التطور التاريخي وربطها بالأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي فرضت وضع هذه التشريعات أو تعديلها أو تطويرها أو إلغائها. ويكفي أن نسوق مثلا حيا عن أهمية الدراسات والمجموعات القانونية كعلوم مساعدة في كتابة التاريخ. فمصادر التاريخ الروماني مثلا لا تكمن في الكتابات التاريخية أو في الآثار والنقوش والنقود وأوراق البردي فحسب، وإنما تكمن هذه المصادر أيضا في القوانين والتشريعات الرومانية التي تبين أن لها أهمية بالغة في كتابة التاريخ، ومن بين هذه المجموعات القانونية الرومانية: القانون الروماني، المراسيم والدساتير الإمبراطورية، منشورات الحكام، قوانين التعيين، محاضر مجلس (السناتو) الشيوخ، قرارات السناتو، الفتاوى والتفسيرات القانونية، أحكام وقرارات القضاة والقضاة، المجموعات القانونية، الموسوعات القانونية، التشريعات (حسان، 1424هـ/2003م، الصفحات 109-110).

16- الأدب:

يعتبر الأدب من العلوم المساعدة والتي لها صلة بالتاريخ، فهو مرآة العصر، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، وهو يفصح عن ذخائر البشر ويصور أحلامهم وأمانيتهم، ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم الواقعية، من حياة الأفراد أو الجماعات، ومن حياة المدينة أو الريف، بل ومن النظم، ومن الحال الاقتصادية، ومن العلم والفن، ومن الحرب والسلام، ومن كل ما يقع تحت الإنسان ويدخل في نطاق إدراكه أو تصوره (حسن، 1964م، صفحة 38).

ويكون النتاج الأدبي في بعض الحالات المصدر الرئيسي لمعرفة أحوال عصر من العصور ولاسيما في حالة قلة الموارد الأخرى أو انعدامها، وخير مثال على ذلك الشعر العربي قبل الإسلام، وما جاء فيه من مادة غزيرة عن أحوال العرب قبل الإسلام فهو وإن لم يكن في ذاته نصا تاريخيا فإنه بالنسبة إلى تاريخ الدولة العربية، يعد سجلا معاصرا لأخلاق العرب وحياتهم لذلك جعلوه (عبد الواحد، 2004م، صفحة 62) كما يقول ابن خلدون "... ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، واصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم". (عبد 4م2 صفحة 396). "فلا ريب أن الكتب الأدبية القديمة معين لا يتضمن الحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى، ولاسيما من نواحي الذوق والعادات، والمقاييس الخلقية والمثل العليا، ومستوى المعيشة، والأعياد وأساليب التسلية، وأحوال

المدن وغير ذلك من النواحي الاجتماعية فضلا عن أننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسي والواقع أن كثيرا جدا مما نعرفه عن الدولة مستمد من كتب الأدب (سيدة اسماعيل، 1403هـ/1983م، صفحة 98)، فمثل يعد الأدب المصري القديم مثالا يساعد على تفهم نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة فقد تناول الكتاب المصريون القدماء كثيرا من القضايا الخاصة بمجتمعهم فكتبوا عن الآلهة، وعن الحياة الأخرى، وكتبوا عن الغزل والحب والغيرة ودونوا قصصا خيالية رسموا فيه حياة الأبطال ونظموا الأدب التعليمي لتهذيب الأبناء الصغار كما كتبوا في فن الحكم والسياسة وفي أحوال المجتمع إن هذه الصور الأولية التي تشرح حياة المصريين القدماء في مختلف مجالات الحياة لا يمكن للمؤرخ أن يتجاهلها حين يدرس تاريخ مصر القديم لأنها نعينه على فهم عقليتهم وعاداتهم وحياتهم وبذلك تصبح دراستهم أسهل وأيسر وهكذا فإن دراسة الأدب العربي ضرورية لدراسة موضوع ما من التاريخ العربي، كذلك الأمر بالنسبة إلى أهمية الأدب الفرنسي أو الإنكليزي لفهم التاريخ الفرنسي والإنكليزي (عبد الواحد، 2004م، الصفحات 62-63).

17- الرسم والتصوير والنحت والعمارة والموسيقى:

ويساعد الإلمام ببعض جوانب فن الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصر من العصور المؤرخ على فهم تاريخه، لأن هذه الفنون هي مرآة العصر وهي تعكس صورة دقيقة عن حضارات البلاد التي هي موضوع بحث المؤرخ وكذلك الحال بالنسبة إلى فنون الموسيقى وما يرتبط بها من فنون المسرح والرقصات الشعبية التي لا تكفي المدونات التاريخية، أو الوصفية أو الأدبية في التعبير عنها ونضرب مثلا على ذلك فمن يرغب في التخصص في ناحية من تاريخ العصور الوسطى في جنوب فرنسا عليه أن يعرف شيئا عن الألحان الشعبية لشعراء التروبادور التي كانوا يؤدونها مصحوبة بحركات الرقص الجماعي والغناء وأن يدرك أن هذا الغناء ما هو إلا حصيلة التأثير الذي تركته الحضارة العربية الإسلامية التي انتقلت من المشرق عبر الأندلس إلى جنوب فرنسا ومنها إلى أقطار أوروبا (عبد الواحد، 2004م، صفحة 65).

18- الإعلام والاتصالات الحديثة:

إن أحدا لا يستطيع نكران ما للإعلام والاتصالات الحديثة من دور في عملية التأريخ. ولم تعد وسائل الإعلام قاصرة على أخبار المواطنين الأخبار أو البرامج التقليدية. بل بات الإعلام المعاصر (أقمار اصطناعية، تلفزيون، راديو، سينما، فيديو، صحافة...) وسيلة هامة واستراتيجية تهتم بمختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرياضية والعلمية. وبواسطة الإعلام أصبح باستطاعتنا

أن نجمع معلومات بسرعة تصنف في إطار التاريخ السياسي أو التاريخ الاقتصادي أو التاريخ الاجتماعي أو التاريخ العلمي وهكذا في كل ناحية أو زاوية من زوايا العلم والحياة.

واهتمت دول العالم بإنتاج برامج تاريخية إذاعية أو تلفزيونية ومسلسلات حول الشخصيات أو الأحداث التاريخية البارزة في العالم، وهي برامج موثقة علميا يمكن الاستفادة منها في مجال التاريخ. وكانت الجمعية التاريخية الأمريكية من رواد إعداد البرامج الإذاعية التاريخية منذ ما قبل عام 1935م.

والصحافة المعاصرة تقدم عرضا شاملا للتاريخ المحلي أو العربي أو الدولي من خلال متابعتها يوميا للأحداث، وهي تعرض الأحداث للقارئ بعد أربع وعشرين ساعة على حصولها، في حين أن الأخبار تصل إلى مكاتبها مباشرة بعد حدوثها لاتصال تلكس هذه المكاتب بأجهزة تلكس وكالات الأنباء العالمية. (حسان، 1424هـ/2003م، الصفحات 111-112)

19- الدراسة والمعاينة الميدانية والسفر:

إن دراسة الوثائق والمصادر مسألة هامة في عملية التدوين والتأريخ. ولكن يجب أن لا نغفل موضوع العمل الميداني لاسيما إذا كان البحث يتطلب ذلك، فيكون السفر والترحال ضروريا. فالكتابة مثلا عن تاريخ من القصور أو مسجد من المساجد أو كنسية من الكنائس، لا يتطلب قراءة المراجع فحسب والاعتماد عليها، بل يتطلب زيارة ميدانية لرؤية هذا الصرح أو ذاك عن قرب وعن كثب، حيث بالإمكان قراءة النصوص المنقوشة على أبوابه وجدرانه. وعوضا من أن ينقل الباحث نصا مبدورا أو منقوصا، فإذا به مباشرة أمام النصوص والنقوش. أضف إلى ذلك فإن السفر يمد ذاته يوسع المدارك ويفتح الأفاق العلمية. وكثير هم العلماء والمؤرخون الذين اكتسبوا علومهم من خلال الأسفار والرحلات.

وهناك مجموعة كبرى من الرحالة الأجانب والعرب والمسلمين أنجزوا مؤلفاتهم التاريخية والجغرافية بعد رحلات قاموا بها في الشرق والغرب على السواء ومنهم على سبيل لا الحصر: روبنسون، جون كارن، عبد الغني النابلسي، عبد الرحمن سامي بك، محمد رفيق ومحمد بهجة الاثري، الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، بالإضافة إلى الورثيلائي، ابن بطوطة، ابن حوقل، ابن جبير، الادريسي، المقدسي (حسان، 1424هـ / 2003م، الصفحات 103-104).

ولقد أشار العلامة ابن خلدون إلى أهمية الرحلة في طلب العلم، ولقاء الأساتذة (المشيخة) لأن في ذلك مزيد كمال في التعليم. وأبرز ابن خلدون ذلك بقوله: " والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة: علما وتعلما وإلقاء وتارة: محاكاة وتلقينا بالمباشرة،

إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين" (عبد الرحمن بن محمد، 1425هـ / 2004م، صفحة 358).

20- علوم الأخرى:

من المفيد أيضا على المؤرخ أن يلم بباقي العلوم المساعدة فيلزمه أن يدرس شيئا من المنطق الذي يفيد في بنائه التاريخي، وكذلك يفيد الإلمام بتقسيم العلوم في أن يفهم موضع التاريخ من سائر العلوم كما ينبغي عليه أن يدرس أشياء من فلسفة التاريخ وأراء المفكرين فيه وهو في حاجة كذلك إلى أن يعرف أشياء من علم الآثار ومن علم الأجناس ومن علم الاجتماع ومن علم النفس ، ومن القانون ومن النظريات السياسية، ومن علم الإحصاء ومن الرياضة أو الفلك أو النبات أو الحيوان... إذا ما عرضت له نواح من هذه المسائل وإذا لم يكن له بها معرفة سابقة فيمكنه تحصيل القدر الذي يكفيه منها لفهم الموضوع التاريخي الذي يعالجه، حينما يصبح في حاجة إلى ذلك (قاسم، 1990م، الصفحات 50-51).

الخاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع "العلوم المساعدة في تطور منهج البحث التاريخي" يتضح لنا ما يلي:

تتصل دراسة التاريخ بأنواع مختلفة من العلوم، يطلق عليها مصطلح " العلوم المساعدة"، ومنها الجغرافيا، والاقتصاد، والاجتماع، والآثار، والأدب وغيرها من العلوم، ويرى بعض الباحثين أن كل العلوم تعد علومًا مساعدة للتاريخ، وذلك لطبيعة علم التاريخ الذي يتناول أوجه النشاط الإنساني المختلفة.

وتمثل العلوم المساعدة أهمية كبيرة للباحث في مجال التاريخ، إذ يحتاج أن يكون واسع الثقافة، مطلعًا على العلوم التي تساعد في فهم الظواهر الإنسانية، والتعريف إلى وجهات نظر جديدة تساعد في تفسير الحدث التاريخي بشكل سليم.

ومن جهة أخرى، فإن العلوم المساعدة هي علوم قائمة بذاتها، ولكل منها منهج علمي، وبنية معرفية تختلف عن علم التاريخ. فلذلك من المهم أن يدرك الباحث في مجال التاريخ أن علاقته بالعلوم المساعدة لا تعني أن يغادر ميدان تخصصه، بل عليه الاستفادة من المعلومات المتاحة بالقدر الذي يخدم موضوعه

وتخصصه البحثي، وأن يوظف المعلومات والخبرات التي تقدمها العلوم المساعدة لصالح الكتابة التاريخية، ويستفيد منها في ضوء منهج البحث التاريخي.

ومن التجارب الناجحة التي تؤكد هذا المبدأ، تجربة مدرسة الحوليات الفرنسية، التي تميزت بالانفتاح على العلوم المساعدة، واستقطابها إلى ساحة التاريخ للاستفادة منها، فمنبع التجديد لديهم كان من خلال تطوير المنهج التاريخي، ليتمكن من طرق موضوعات جديدة، مما نتج عنه ازدهار الكتابة التاريخية وعودة الاعتبار للتاريخ بوصفه علما منهجيا مقننا.

إن الباحث الذي يقوم بدراسة التاريخ بشكل جيد ومعظم معتمدا في ذلك على العلوم المساعدة لفهم وقائع وأحداث التاريخ، يكون إخراج للحقائق التاريخية دقيق، وبالتالي يستطيع الباحث أو المؤرخ في حقل التاريخ أن يساهم في وضع رؤية واضحة للمستقبل من خلال دراسة الماضي للاستفادة منه في الحاضر وعليه يمكن معرفة الأخطاء التي وقعنا فيها في الماضي ونركز عليها، لتجنب وقوعها مجددا.

وختاما علم التاريخ علم متفرد، وتحديد ينبع من قدرة الباحثين على التطوير والبناء بالاعتماد على المصادر المتجددة والمنهج العلمي الدقيق، فمن الضروري على الباحث الاستفادة من هذه العلوم في ضوء اختصاص التاريخ، ولكن يجب على المؤرخ الحفاظ على علم التاريخ استقلاليته وخصوصيته، وتجنب ذوبانه ضمن العلوم الأخرى.

المصادر والمراجع:

- (1) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين. (د.س.). لسان العرب (المجلد 3). بيروت: دار صادر.
- (2) حلاق حسان. (1424هـ/2003م). مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات مع دراسة للارشيف العثماني والبناني والعربي والدولي. بيروت: دار النهضة العربية.
- (3) ذنون طه عبد الواحد. (2004م). أصول البحث التاريخي. بيروت: المدار الاسلامي.
- (4) رسلان عبد الفتاح عبد العزيز. (2011). منهج البحث التاريخي. مجلة كلية الادب - جامعة بنها - (العدد 26)، الصفحات 417-484.
- (5) روزنتال فرانز. (1403هـ/1983م). علم التاريخ عند المسلمين (الإصدار 2). بيروت: مؤسسة الرسالة لطباعة والنشر والتوزيع.
- (6) سعيدوني ناصر الدين. (2000م). أساسيات منهجية التاريخ. الجزائر: دار القصة.
- (7) عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون. (1425هـ/2004م). مقدمة ابن خلدون (الإصدار 1). دمشق: دار يعرب.

- (8) عثمان حسن. (1964م). منهج البحث التاريخ. القاهرة: دار المعارف.
- (9) كشاف سيدة اسماعيل. (1403هـ/1983م). مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه. بيروت: دار الرائد العربي.
- (10) محاسيس نجاه سليم. (1431هـ/2010م). مفاتيح علم التاريخ (الإصدار.1). عمان: دار زهران للنشر والتوزيع.
- (11) يزيك قاسم. (1990م). التاريخ منهج البحث التاريخي. بيروت: دار الفكر اللبناني.

تطور الفكر التربوي في الحضارة العربية الإسلامية

The development of educational thought in the Arab Islamic civilization

الدكتورة هيفاء سليمان الإمام

رئيسة تحرير مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة

الجامعة اللبنانية الدولية / البقاع - لبنان

Dr. Haifa Suleiman Al-Imam

h_imamomais@hotmail.com

الملخص:

من أجل خدمة الرؤية الحضارية الإسلامية كان لا بدّ من البحث والدراسة في أهم عناصر تطوّرها، من هنا كان لا بد من تسليط الضوء على مفهوم الفكر التربوي الإسلامي في هذه الحضارة العريقة. وقد تم استعراض خصائص وأساليب التربية والتعليم عبر حقب التاريخ الإسلامي. لذلك عملت الباحثة من خلال هذه الدراسة، على الكشف عن مراحل تطور التربية الإسلامية، فكانت أهم المراحل التي تخلّلت تطوّر التربية الإسلامية هي: مرحلة النشأة والتأسيس، ومرحلة البناء والتطبيق، ومن ثم مرحلة النهضة والازدهار. كما استعرضت الباحثة -إلى جانب ذلك- أهم المؤسسات التي كانت تعمل في حقل التربية والتعليم، وكيف تطورت، وكيف كانت تستوعب مختلف العلوم المعروفة في ذلك العصر، وكيف كان يستفيد منها كل من كان يعيش تحت حكم المسلمين، وقد ظلت هذه المراكز إلى وقت طويل منهلاً للفكر والعلم في العالم أجمع. هذا وتوصي الدراسة الباحثين بضرورة القيام بدراسات أكثر عمقاً وتمحيصاً للتراث التربوي الإسلامي للكشف عن عناصر النظرية التربوية الإسلامية. وقد خلصت إلى أن دراسة تاريخ التربية الإسلامية حاجة ضرورية في الحقل المعرفي التربوي تسهم في تتبّع النماء المعرفي، والكشف عن العناصر التربوية الحيّة في التراث التربوي الإسلامي والفكر التربوي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الفكر التربوي الإسلامي، المؤسسات التربوية، العلماء المسلمين، علوم التربية والتعليم.

Abstract:

In order to serve the Islamic civilization vision, it was necessary to research and study the most important elements of its development, from here it was necessary to shed light on the concept of Islamic educational thought in this ancient civilization.

The characteristics and methods of education throughout the eras of Islamic history have been reviewed. Through this study, the researcher worked to uncover the stages of Islamic education development. The most important stages during the development of Islamic education were: the stage of formation and establishment, the stage of construction and implementation, and then the stage of renaissance and prosperity. The researcher also reviewed in this study the most important institutions that were working in the field of education, how they developed, how they accommodated the various sciences known at that time, and how everyone who lived under the rule of Muslims benefited from them, and these centers remained for a long time consuming thought And science all over the world. The study recommends researchers to carry out more in-depth studies and scrutiny of the Islamic educational heritage to uncover the elements of Islamic educational theory. The researcher concluded that the study of the history of Islamic education is an essential need in the educational cognitive field that contributes to tracking cognitive development and revealing the living educational elements in the Islamic educational heritage and contemporary educational thought.

keywords: Islamic educational thought, educational institutions, Muslim scholars, education sciences.

مقدمة:

كانت القيادات الفكرية في الحضارة الإسلامية تتمتع بقوة نفسية تجعلها تأخذ من الثقافات المتنوعة، وتعيد صهرها بما ينسجم ويخدم الرؤية الحضارية الإسلامية، وكانت ثنائية القول والرفض ملمحاً منهجياً جلياً، حيث كانوا يبحثون عن أحسن المصادر، ويقومون بفحصها وتدقيقها ثم يستقون منها ما يريدون، وهو الأمر الذي نفتقده في تفكيرنا التربوي المعاصر. ومن جهة أخرى؛ فإن التربية الإسلامية تعنى كل

العناية بالمجتمع، فهي علم مرتبط بعملية اجتماعية تسهم في إعداد مجتمع مؤمن بالله، محفوظ من الانحراف والميل عن جادة الصواب بتفعيل قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد بدأت نشأة التربية الإسلامية في عهد النبي، مع بدء رسالة الإسلام والتي هي مستمرة باستمرار الإسلام، لذلك تطورت مع تطور العصور التي مر بها المسلمون، وتأثرت بمراحل قوة المسلمين وازدهارهم وعوامل ضعفهم وانكسارهم. (فوارس، 2016: 77).

من هنا تأتي هذه الدراسة لتقف على حقيقة التطور التاريخي لمسيرة التربية الإسلامية عبر العصور. (فوارس 2016: 78).

• أهمية الدراسة:

وتبرز أهمية هذا البحث في العمل على مواجهة التحديات التي يفرضها علينا هذا العصر والتي رزحت أمتنا تحت ثقلها وعجزت عن إثبات وجودها والحفاظ على كيانها وهويتها الثقافية العربية المتّوجة بقيم الدين الحنيف.

• إشكالية الدراسة:

كانت إشكالية الدراسة تتمحور حول طرح سؤالين اثنين من الأسئلة الملحة في وقتنا الحاضر وهما:

- ما هي ملامح ومفهوم الفكر التربوي في الحضارة العربية الإسلامية؟
- وكيف تطوّرت مؤسسات التربية والتعليم عبر حقب التاريخ الإسلامي؟؟؟

• فرضيات الدراسة :

ومن الفرضيات التي بُني عليها الفكر التربوي الإسلامي ما هو متعلّق بالنظرة للواقع والمجتمع في الحقبة الأخيرة، مثل :

- ضرورة بناء نهضة أمة الإسلام على أساس قوي من دينها، وأن تعيد صياغة ثقافتها بما يوافق أسس بنائها ويمنحها القدرة على الانطلاق من حضارتها ..
- أن معظم مفكرّي الإسلام لا يرون أن الثقافة الغربية تصلح أساساً للنهضة قبل أن تتمكن تلحجات الإسلاميّة من نقدها وتعديلها حسب ثقافتها الإسلاميّة الأصيلة؛

- قدّم الفكر التربوي الإسلامي إسهامات واسعة، ربما إلى درجة يصعب معها الإحاطة بمعامله وأساسياته الرئيسة، ويزيد من هذه الصعوبة أن هذا الفكر بعد أن أُقرت مسلّماته أو معظمها، لم تكن الإسهامات التي بُنيت عليها متجهةً في اتجاه واحد، على كثرة ما فيها من اجتهاد وإبداع.

• **أهداف الدراسة:**

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إعداد جيل يتمتع بعقلية منفتحة واعية تعدّ لنهضة علمية شاملة وترسم خطوط المستقبل مع احتفاظها بقيم حضارتها العربية الإسلامية ودورها التربوي المبدع الذي رسم الماضي بخيوط أنارت الدروب للإنسانية جمعاء.

وقد استعملت في هذا البحث المنهج التاريخي التحليلي حيث قمت بعرض وتحليل كل ما يتعلق بمفهوم الفكر التربوي وقيمه العلمية وكيفية تطبيقها في عصر الحضارة العربية الإسلامية.

وكانت حدود هذا البحث الزمانية والمكانية تحول في حقب الدولة الإسلامية من عصر صدر الإسلام إلى بدايات الخلافة العثمانية.

• **الدراسات السابقة:**

لقد استخدمت في هذه الدراسة عدداً مهماً من المراجع والمصادر والمقالات العلمية التي أغنت معلوماتي وكان أهمها:

1. **كتاب بيت الحكمة (كيف أسس العرب لحضارة الغرب)** لجونثان ليونز. إنه كتاب مهم جداً استفدت منه في هذا البحث خاصة عند الكلام عن المدرسة المستنصرية وعن دار الحكمة حيث سلط المؤلف الضوء على أهميتهما فيما حققه العرب من تقدم رائع في العلم والفلسفة؛
2. **كتاب طرائق ومناهج التربية والتعليم،** لحسان حلاق، هذا الكتاب تحدث عن طرائق التدريس في عصرنا الحاضر وقد استفدت منه حين تكلمت عن التربية وطرقها في الحضارة العربية الإسلامية؛
3. **كتاب التربية الإسلامية (نظمها - فلسفتها - تاريخها)** لأحمد شبلي، لقد استفدت كثيراً من هذا الكتاب خاصة عند استعراضه لمؤسسات التربية والتعليم عند المسلمين وحين تحدثت عن مراحل تطور الفكر التربوي عبر العصور الإسلامية؛

4. كتاب العرب والتربية والحضارة (الاختيار الصعب) لمحمد جواد رضا، الذي يتحدث عن علاقة التربية بالحضارة وقد أفدت كثيرا من معلوماته عن الفكر التربوي في الحضارة العربية الإسلامي والذي ناقشها الفصل الثالث من الكتاب؛
5. كما استفدت من مقالات تحمل نفس عنوان دراستي، وهي منشورة في مجلات علمية، كان منها مقال لعلي عفيفي علي غازي، وهو تحت عنوان **تطور الفكر التربوي الإسلامي**، حيث توسع علي في الحديث عن تجدد الفكر التربوي الإسلامي ومقارنته مع الحاضر إلا أنه أهمل مراحل تطور هذا الفكر عبر العصور الإسلامية؛
6. وهناك مقال آخر لهيفاء فياض فوارس، تحت عنوان: **تطور التربية السلمية عبر التاريخ السلمي وتحديات دراسته (2016)**، وقد استفاضت صاحبته كثيرا في مناقشة تحديات وعوائق الدراسة، مهمة الحديث عن مؤسسات التربية والتعليم وتطورها عبر العصور الإسلامية؛
7. أما مقال **تطور الفكر التربوي مقاربات فلسفية**، لبدر محمد ملك، ولطيفة حسين الكندري فقد أفادني في نواح هامة من دراستي إلا أنهما تعمقا في فلسفة التربية دون مناقشة واقع التربية والتعليم عبر حقب التاريخ الإسلامي.

أولاً: مفهوم الفكر التربوي وملاحه في الحضارة العربية الإسلامية
أ. تعريف ببعض المصطلحات:

يُعرّف الفكر في معاجم اللغة على أنّه إشغال الخاطر بشيء ما، ويستخدم في الأمور المعنويّة فقط، وجاء عن الفكر عند علماء العرب أنّه التردّد الحاصل في القلب، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم قرابة العشرين مرّة، قال تعالى في سورة الملتّن آية 18 ﴿إِنَّهُ فُكِّرَ وَقَدَّرَ﴾ (حلاق 2012: 137).

بعد تعريف التفكير على أنّه العمليّة التي يقوم العقل بها للوصول إلى المعرفة، لا بدّ من الخوض في الحديث عن التربية وعن علاقتها بالفكر وما يُسمّى بالفكر التربويّ، فالتربية تقوم على التعليم السليم للتكيّف والتخطيط وحسن التعامل والتأثير، وتعمل التربية على ابتكار سبل للتعامل مع المتربّي في المستقبل وإيجاد الحلول المناسبة والبدائل مع الزمن، وأن يتمّ تنمية القدرة على اكتساب المعرفة والتعلم والاستمرار في نهج التقدّم العلمي الذي وصل إليه العالم (حلاق 2012: 13).

ب. مفهوم الفكر التربوي الإسلامي:

يدلّ مفهوم الفكر التربويّ على العلاقة التي تجمع الفكر والتربية التي تدلّ على العطاء الناتج عن العقل على المستوى الفرديّ والمستوى الأمميّ والعالميّ، ولدراسة الفكر التربويّ أهمية كبيرة للإنسان من أجل التكيف مع حلّ المشاكل التي قد تواجهه ومع المتغيرات التي تطرأ على حياته في العموم وعلى وجه الخصوص، كما أنّه ولدراسة هذا النوع من الفكر لا بدّ من اتّباع المنهج الملائم من خلال تتبّع الظروف والأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي انتشرت في المجتمع، إضافةً إلى وجوب التطرّق إلى الفكر الإنسانيّ الذي يقوم به المجتمع.

يعرف مفهوم الفكر التربوي في الحضارة العربية الإسلامية على أنه أسلوب يعمل على إعداد المسلم إعداداً كاملاً من جميع النواحي في جميع مراحل نموه، للحياة الدنيا والآخرة، وذلك على ضوء المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام. وهي لا تختلف عن التربية المعاصرة إلا أن مصدر التربية المعاصرة، (ملحس، 1989: 7) يعتمد على الخبرات الإنسانية، أما التربية الإسلامية فمصدرها ربّي. من هنا كانت دعوة الرسول الكريم للعلم والتعلم بقوله: "يَا ذُرِّيَّاهُ لَا تَقُولُوا قَوْلَ مَنْ قَبْلَكُمْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ، وَلَئِنْ تَقُولُوا قَوْلَ مَنْ بَلَا مِنْ الْعِلْمِ هُمْلٌ بِهِ أَوْ لَمْ يَهْمَلْ - خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ" (ابن شاهين، الكتاب اللطيف 61/1).

إنّ أحد مظاهر العجز الدائمي ومركزيته في أزمة التربية والتعليم، هو أن نخبتنا لا تلتزم بمبدأ المسافة مع الغرب، بمعنى أنّهم حولوا الغرب من مصدر للمعرفة إلى معيار للمعرفة، معياراً ليس كونياً ولا صادقاً ولا ضرورياً، وإنّما معيار تاريخي مشبع بمذاهب واضعیه في المعرفة والقيم، حيث يهرع البعض منبهرّاً بتجربة هنا أو نظرية هناك، مما يمجّج به فكر الغرب التربوي ومسيرته التعليمية، فيسرع إلى نقلها إلى الأرض العربية الإسلامية دون أن يخضع ما ينقله لعمليات فحص ونقد وانتقاء واختيار واستبعاد وقبول وفقاً للذاتية الحضارية الإسلامية". (علي، 2008، أصول التربية الإسلامية 202).

وإذا كان الفكر انعكاساً صادقاً لحياة الجماعة الإنسانية، فإنّ نوعه يتحدد بنوع هذه الحياة، وبالإطار العقائدي الذي يهّج مسارها، وطالما أننا نعيش في مجتمع إسلامي، فإنّ الفكر الذي يعكس حياتنا الثقافية في المجال التعليمي هو الفكر التربوي الإسلامي؛ بكل أصوله وركائزه ومحدداته ومقوماته وأساليبه النابعة من شريعتنا الإسلامية، (حلاق 2012: 9) وواقعنا الإسلامي، وتطلعاتنا المستقبلية، (غازي، 2020 تطور الفكر التربوي الإسلامي). وعلى هذا كانت مصادر المعرفة في تصوّر الإسلامي على نوعين :

أولهما: الوحي في الجوانب التي يعلم الله سبحانه وتعالى أن الإنسان لا يهتدي فيها إلى الحق من تلقاء نفسه، والتي لا تستقيم فيها الحياة على وجهها السليم إلا بمفردات ثابتة من عند الله المحيط بكل شيء علماً؛

وثانيهما العقل البشري وأدواته في تفاعله مع الكون المادي نظراً وتأملًا وتجربةً وتطبيقاً في الأمور التي تركها الله العليم الحكيم لاجتهاد هذا العقل وتجاربه، بشرط الالتزام التام فيها بالأصول العامة الواردة في شريعة الله المنزلة، بحيث لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، ولا تؤدي إلى الشر والضرر والفساد في الأرض (غازي 2020 تطور الفكر).

وأصالة هذا الفكر تبدو في قدرته على تفسير الظواهر التربوية، والعلاقات الإنسانية، وتتبع نتائجها، والتنبؤ على أساسها، وتتمثل أصالته كذلك في شجبه أنماط الفكر الأخرى القائمة على المساومات الهامشية، والحلول الوسطية، والنزاعات الخرافية، والاتجاهات الميتافيزيقية، كما أن أغراض هذا الفكر تستهدف المحافظة على تراثنا الروحي، ودعم مبادئ وأهداف المجتمع الإسلامي، واستيعاب روح العصر ومطالبه في القدرة على التغيير والتجديد والابتكار والارتقاء.

ومن الفرضيات التي بُني عليها الفكر التربوي الإسلامي ما هو متعلق بالنظرة للواقع والمجتمع في الحقبة الأخيرة، مثل: ضرورة بناء نهضة أمة الإسلام على أساس قوي من دينها، وأن تعيد صياغة ثقافتها بما يوافق أسس بنائها وبمنحها القدرة على الانطلاق من حضارتها.. ومعظم مفكري الإسلام لا يرون أن الثقافة الغربية تصلح أساساً للنهضة قبل أن تتمكن المجتمعات الإسلامية من نقدها وتعديلها حسب ثقافتها الإسلامية الأصيلة (ملحس، 1989: 8-9).

ت - خصائص التربية الإسلامية:

إن الخصائص العلمية والتربوية والإنسانية المتميزة، تكمن في المعلم والمدرس المتميز، العالم والتربوي والإنسان (حلاق، 2012: 9). من هنا كانت أهم خصائص التربية والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية ما يلي:

1 - **التربية الإيمانية:** إن الغرض من التربية الإيمانية عقد الصلة بين الإنسان وخالقه مما يجعل حياة الإنسان معنى في هذه الدنيا. فتسمو أخلاقه وتنمى دوافعه مما يؤهله لخلافة الله في الأرض. وإيمان الفرد يزيد بكثرة الطاعات لله، وينقص بارتكاب الفرد المعاصي والآثام (حلاق، 2012: 8).

2 - **التربية العلمية:** اهتم الإسلام بالجانب العلمي، وتنمية العقل وشجع عليه، فالعلم نور والعلم عبادة، فعلى كل فرد أن ينمي ويغذي عقله بالعلم النافع الذي يفيد ويفيد مجتمعه (ملحس، 1989: 8)؛

3 - **التربية العملية:** إن ثمرة الإيمان العمل؛ لذلك يُذكر العمل في كثير من آيات القرآن الكريم والتأكيد على أهميته؛ فالعمل ليس فقط مقتضراً على هذه الحياة، وإنما على الإنسان أن يوازي بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة وأن لا يغفل عنها، ويجب على المسلم أن يتقن عمله، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ إذا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عملاً أن يُتَّقَهُ "؛ (الألباني، الصحيحة: 1113)

4 - **التربية الاجتماعية:** إن التربية الإسلامية تسعى إلى تنمية القيم الاجتماعية في الفرد المسلم حتى يصبح مقبولاً ومندمجاً في المجتمع المسلم، وأن يتحلى بالصفات الحميدة والتعاون والتكافل والإيثار والعدالة؛

5 - **التربية الخلقية:** تهدف التربية الخلقية إلى بناء إنسان على خلق قويم، وقيام مجتمع تسوده مجموعة من القيم الحميدة والمثل العليا، والأخلاق الإسلامية تتميز بأنها واقعية بمقدور الإنسان أن يتخلق بها وأن يلتزمها.

ث - أساليب التربية الإسلامية:

تعددت وسائل التربية وأماكن التعليم، ويمكن اعتبار الأسرة من أهم هذه الوسائط، كما لعب المسجد في التاريخ الإسلامي دوراً هاماً في التعليم والتربية، حيث انطلقت من المساجد حلقات العلم، سواء كانت لتعليم الكتابة والقراءة أو تلك المخصصة للعلم الشرعي (حلاق، 2012: 14) .

ويتحدث ابن خلدون (ابن خلدون 2019 المقدمة: 533) عن "اختلاف العلماء في طرق التدريس، وأهميتها في التحصيل العلمي، وعن فرق بين الطرق الرديئة والطرق الجيدة، ووضع مساوئ ومحاسن كل منهما"، مشيراً إلى أن طرائق التدريس لا تختلف باختلاف المعلمين فقط، بل وباختلاف المتعلمين حسب أعمارهم ومستوياتهم الفكرية وتفاوت مواهبهم، وطبيعة المادة العلمية. وله في هذا الباب ملاحظات كثيرة منها قوله: "من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ألا يختلط على المتعلم علمان معاً، فإنه حينئذ قلَّ أن يظفر بواحد منهما" بسبب تشتت الذهن وتشعب المعلومات، وقوله أيضاً: "إن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا" (ابن خلدون، 2019: 394)، وحرصه على تذكير المعلم بمراعاة الحالة النفسية للمتعلم المبتدئ واستعداده وقابليته لتلقي العلم،

محذراً من إرهابه والقسوة عليه. وكان ابن خلدون يفصل في طرق أهل المغرب في تدريس القرآن ومدى اختلافها عن طرق أهل المشرق (الخلف 2018 : العلم والتعليم بين التراث والحضارة).

ومن أهم الأساليب التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في تغيير المجتمع هو:

- أسلوب الحوار؛
- أسلوب الترغيب والترهيب؛
- أسلوب القصص القرآني؛
- أسلوب الأمثال. (عبد الهادي، 2017، التربية في الحضارة الإسلامية).

ج- مراحل الفكر التربوي العربي الإسلامي:

لكي نفهم العلاقة بين منشأ الفكر التربوي العربي الإسلامي، وأحداث السياسة والفكر والاجتماع في المخاض الحضاري الذي صنعه الإسلام، لا بد من وعي أمرين مهمين:

الأول: أن الحدود السياسية للحضارة العربية الإسلامية، والتي درج المؤرخون عليها حتى الآن في تقسيم تاريخ هذه الحضارة إلى صدر الإسلام، وعصر الأمويين، وعصر العباسيين، ثم الفترة المظلمة، وعصر النهضة. إن هذه الحدود لم تعد تجدي كثيراً في تفسير الحركة الثقافية العامة للمجتمع الإسلامي وتياراتها التربوية. ففي الوقت الذي كانت الحكومات الإسلامية تقوم وتسقط، والعائلات الحاكمة تظهر وتختفي، كانت حركة التطور الفكري تسير ثابتة في اتجاهها، وكانت قوى التبديل الاجتماعي تفعل فعلها سلباً وإيجاباً في إعادة تشكيل القواعد الاقتصادية والأخلاقية للمجتمع من خلال:

- ظهور الطبقات وخروجها مبرقة ببرايق العقيدة؛
- فقدان الوحدة الاجتماعية وغياب روح التكافل بين أبناء الأمة؛
- وقوع التصادم بين الأصول النظرية والأخلاقية للمجتمع كما أرادها الدين، وبين الممارسات الفعلية للسلطة السياسية؛

وكان من نتائج هذا كله ضياع الثقة بين الطبقة المفكرة والطبقات الحاكمة وليس مما يتعذر إثباته أن المسؤول عن هذا الانشطار بين جناحي العملية التطورية للمجتمع هو بطش رجال السياسة وشكهم الدائم في ولائها لأنظمة حكمهم .

الأمر الثاني الذي يجب وعيه، هو أن تداخل الأزمنة الثقافية في دراسة الثقافة العربية الإسلامية يموّ الواقع ويفسد الحقيقة التاريخية في أذهان دارسيها، ولهذا فلا بد من التمييز بين مراحل التطور الثقافي العربي

الإسلامي تمييزاً يعصم من جعلها بدائل بعضها. ومن هنا تمّ رصد ثلاث مراحل واضحة المعالم في حركة تطور الثقافة والتربية عند المسلمين وهي :

1- المرحلة الأولى، وهي مرحلة النشأة والتأسيس، تبدأ من هجرة الرسول عليه السلام، حتى قيام دار الحكمة في بغداد عام ٢١٧ للهجرة (٨٣٣م). فالوحي الذي نزل على النبي الكريم جاء بمنهج تربوي رباني متكامل يبدأ بإعداد الفرد المسلم من خلال تكوين شخصيته المتكاملة وينتهي بإخراج الأمة المسلمة المتمسكة بهويتها الإسلامية والمنتمية إليها مما يتيح لها قدراً من القوة الذاتية والقدرة على الانفتاح على غيرها، ومن ثم تحقيق غاية الوجود الإنساني بتحقيق العبودية لله تعالى.

ولما كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة التي يجب أن تستمرّ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الأمر يتطلب وضع الأسس الثابتة الراسخة الوثيقة لإعداد أجيال تحمل الرسالة كما هي على مدى تتابع العصور بأمانة ووعي وفاعلية وإخلاص، ولذلك اقتضى العمل في اتجاهين:

- إعداد جيل المعاصرين للرسالة إذ حولتهم التربية النبوية لعمق الإيمان فارتقوا بسرعة مذهلة من القاعدة إلى القمة، فأصبحوا قادة الأمم ، وورثة موازين العلو ومعايير الخير ، وحراس الحق؛

- إعداد الأجيال اللاحقة لجيل الصحابة إذ لم يكن إعداد جيل واحد كافياً لتأمين استمرار حمل الرسالة، لذلك حرص الرسول الكريم على وضع القواعد الأساسية للتربية المستمرة عبر العصور.

فقد بدأ إرساء قواعد التربية الأساسية في جذورها الفكرية مع بعثة الرسول العربي الكريم، واستمرت في حياتها إلى هذا القرن الخامس عشر الهجري، وستبقى بحفظ الله ما بقي الإنسان، وقد ظهر ذلك في أجيال الصحابة التي رباهما النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ساروا من بعده على تلك القواعد التربوية التي أرساها الإسلام ، لتبقى هذه القواعد عناصر حيّة لإعداد الأجيال المسلمة القادرة على حمل أمانة التكليف إلى قيام الساعة؛ (فوارس، 2016: تطور التربية الإسلامية).

وأهم ما ميز هذه المرحلة فكرياً وتربوياً هو هيمنة الفكر الديني شبه المطلقة عليه وشيوع "الاتباع" أو التقليد الذي كان استمراراً طبيعياً لزمن الرسول، ومحاولة الثبات عليه. وقد عبرت هذه الهيمنة عن نفسها فيما فعله الخلفاء الراشدين والصحابة وخلفاء بني أمية لتعزيز تعليم القرآن والسنة وهما مصدرين من مصادر الفكر والتشريع والتربية.

وهكذا عندما اقتربت هذه المرحلة الأولى من نهايتها، كانت الثقافة العربية الإسلامية يتواشح في نسيجها ثلاثة عناصر تكوينية هي :

- الإسلام؛
- واللغة العربية؛
- وما أخذه العرب من علوم الأمم الأخرى وفلسفاتها.

2- المرحلة الثانية وهي مرحلة البناء والتطبيق: تبدأ مرحلة البناء والتطبيق من بداية عهد الخلفاء الراشدين، وتستمر حتى نهاية الدولة الأموية، حيث ساهم الخلفاء الراشدون الذين رباهم النبي صلى الله عليه وسلم في ترسيخ القواعد التربوية التي جاء بها الإسلام. ومع تطور الحياة في مجالاتها المختلفة في عصر الدولة الأموية ظهرت تطبيقات كثيرة لتلك القواعد التي من خلالها ظهرت مظاهر التربية الإسلامية الخالصة.

وقد ساهمت مجموعة من العوامل في ترسيخ قواعد التربية الإسلامية وتطبيقها في هذه المرحلة كان من أبرزها:

- انقطاع الوحي وبداية زمن الاجتهاد في كل ما هو طارئ ولم يرد فيه نص قرآني أو نبوي فقد استمر المسلمون بعد وفاة النبي في عهد الخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية في نشر الإسلام وإعداد الأجيال المسلمة القادرة على حمل أمانة الرسالة الإسلامية متخطين كل التحديات التي واجهتهم؛
 - توسيع حدود الدولة الإسلامية واحتكاك المسلمين بالثقافات الأخرى.
- فحركة الفتح الإسلامي التي قامت في عهد الخلافة الراشدة، وبني أمية ليست مجرد توسع في الأرض، إنما هي حركة هداية الناس في التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور. فقد أسهمت حركة الفتوحات الإسلامية في هذه المرحلة في نشر حضارة المسلمين في مجاليها: المادي والمعنوي في الأرض، كما أدى احتكاك المسلمين بالثقافات الأخرى إلى الاستفادة منها ثم إحداث نقلة نوعية في تطور العلوم وتقدمها.

إن التغيرات السياسية والاجتماعية في عصر الدولة الأموية على وجه الخصوص كان لها انعكاس على التربية الإسلامية ومن أمثلة هذه التغيرات: انتقال الحكم من الشورى إلى الوراثة ، وانتقال العاصمة من المدينة إلى دمشق ونشوب النزاعات بين المسلمين وظهور بوادر العصبية بأنواعها المختلفة. وقد

ساهمت هذه العوامل وغيرها في بناء التربية الإسلامية وبروز المربين الحقيقيين الأمر الذي جعل للتربية الإسلامية في هذه المرحلة سمات خاصة يمكن تلخيصها فيما يأتي:

- تربية عربية إسلامية خالصة؛
- تربية استهدفت إرساء قواعد الدين الجديد؛
- اعتمدت أساساً على العلوم النقلية واللسانية؛
- اهتمت بالكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للاتصال؛
- أفسحت المجال لتعلم اللغات الأجنبية؛
- اعتمدت على الكتاب والمسجد والمكتبة كمراكز ومعاهد للتعليم (فوارس، 2016: تطور التربية الإسلامية).

وكانت هذه الجهود تترجم عن نية مخلصه للاحتفاظ للحياة الدينية بنقائها وصفائها نقاء وصفاء صورتها. وأحسن تصوير لهذه المرحلة كان وصية عمر بن عبد العزيز إلى مؤدّب أولاده. قال عمر : "وأما بعد، فياني اخترتك عن علم بك لتأديب أولادي فصرفتهم إليك عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي، فخذهم بالحق فهو أmeen لإقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك فإن كثرت تميّت القلب. وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدوها من الشيطان وغايتها سخط الرحمن، فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم ان حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء. ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء لينتفع به. وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته، فإذا فرغ؛ تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض حافياً فرمى سبعة أرشاق ثم انصرف إلى القائلة، فإن ابن مسعود (رضي الله عنه) كان يقول: يا بني قبلوا.... فإن الشياطين لا تقبل" (صفوت 1938: 368-369).

إن هذه النية الرفيعة في الدفاع عن نقاء العقيدة وصفاتها كانت غير متناغمة مع تحولات الواقع الثقافي الذي وجد العرب أنفسهم فيه، بعد الفتوح الإسلامية ومخالطتهم الملل الأخرى وتدوّقهم ما عندها من فنون العلم والإدارة والآداب والتعليم. ففي وقت مبكر بعد فتح الشام، مثلاً، عمد المسلمون إلى " إرسال أبنائهم لتعلم الكتابة في الكتاتيب القائمة التي كان يديرها المعلمون النصارى" (أبيض، 1980: 85) .

وأكثر من هذا، تنبّه العرب المسلمون في هذه المرحلة لقيمة ما عند الأمم الأخرى من ذخائر الحكمة، فأقبلوا عليها يترجمون ما يستطيعون ترجمته منها إلى اللسان العربي، وكان أول ما عنوا بنقله كتب النجوم والتاريخ والسير، وكانت لهم دوافعهم العملية وراء نقلها.

ونلاحظ أن أول عربي ارتبط اسمه بالترجمة من اليونانية وهو **خالد بن يزيد بن معاوية**، كان يجمع في شخصه تأثيرات تربوية مختلطة، "فلقد أشرف على تربيته الدينية التابعي المحدث عمر بن نعيم العنسي، على حين أن تنشئته العلمية قد قام بها راهب نصراني اسمه مريانوس، وقد اهتم خالد بصورة خاصة بالكيمياء والطب والنجوم (أبيض، 1980: 103-104). على أن الاحتكاك الثقافي بين العرب المسلمين وغيرهم من أبناء الأمم الأخرى سرعان ما تجاوز طبيعته الفردية ليتحول إلى ظاهرة ثقافية راحت تفعل فعلها في التمهيد لخلق الثقافة العالمية التي ازدهرت في القرون الإسلامية الثلاثة: الثاني والثالث والرابع، والتي كانت مزيجاً أخذاً من تلاقح الثقافة العربية الإسلامية وثقافات الأمم التي دخلت الإسلام أو وقعت تحت تأثيره .

وكانت اللغة العربية، بحكم كونها لغة الإيمان والعقيدة، هي مفتاح هذا التلاقح، إذ أقبل الموالى أول من أقبل على تعلم العربية وحذق فنونها والبراعة فيها، وعلى سبيل المثال فقد اختار عبد الملك بن مروان أحد الموالى، إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر، لتعليم أولاده اللغة العربية. وعرف عن عبد الملك أنه كان يقول في معرض الاستيعاب: "ما رأيت مثلاً ومثل هؤلاء الأعاجم. كان الملك فيهم دهرًا طويلاً فو الله ما استعان منا إلا برجل واحد (يريد النعمان بن منذر) ثم عدوا عليه فقتلوه. وإن الملك فينا منذ هذه المدة وقد استعنا منهم برجال. هذا إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر يعلم ولد أمير المؤمنين العربية (أبيض، 1980: 112).

لقد كانت حالات التواصل الأولى هذه بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافات الأمم الأخرى شواهد مبكرة على أن الثقافة التي أبدعها الإسلام قد ارتفعت في ضمائر المسلمين إلى مرتبة النسب الثقافي الذي يتسامى على الأصول العربية والثقافية السابقة على الإسلام. يروي ابن عساكر أن عبد الملك سأل يوماً رجلاً دخل عليه: "أمن العرب أنت أم من الموالى؟ فأجاب الرجل: يا أمير المؤمنين، إن تكن العربية أبا فليست منها، وإن تكن لساناً فإني منها، قال عبد الملك: صدقت. وعندما خرج الرجل التفت عبد الملك إلى الّهري وقال: ويحك يا زهري، ما ناظرني رجل بمنظرة إلا علوته فيها خلا هذا الرجل.

صحيح أن الإسلام أكد قيمة العلم والتعلم في الارتقاء بالوجود الإنساني عقلاً وعقيدة واجتماعاً، غير أن طبقة الخاصة كانت سريعة التفتن إلى القوة الاجتماعية المهيمنة التي تنجم عن اجتماع سلطان العلم وسلطان السياسة والمال (رضا، 1993: 93).

من هنا، مثلاً، كانت جهود معاوية بن أبي سفيان التربوية في الشام مبعثها "إيمانه بالتربية وسيلة فعالة لتحقيق أهدافه" وعلى هذا، "شهدت التربية في بلاد الشام عقب مقتل عثمان وامتناع والي الشام والجزيرة معاوية بن أبي سفيان عن مبايعة علي، انحرافات ضارة بالتربية العربية الإسلامية. فقد انتشر القصص تحت وطأة الصراع السياسي انتشاراً كبيراً استمر فترة طويلة بعد تمكن الأمويين من السلطة " (ابيض، 1980: 90).

لقد أدّت سيرة معاوية في تربية ولده يزيد إلى نشوء ازدواجية في التربية العربية تتمثل في تقديم تربية واسعة لأبناء الخاصة تضم دراسة الدين واللغة والأدب والعلوم والفنون والفروسية وقواعد السلوك. وبكلمة موجزة، كل ما يؤهل هؤلاء للوظائف الجليلة التي يتوقع منهم أن يشغلوها .

أما أبناء العامة فكان تعليمهم يقتصر على القرآن ومبادئ الدين وبعض مبادئ النحو الضرورية لقراءة القرآن. وهذا التعليم كان يمثل التعليم العام الضروري لكافة المؤمنين. "ولما ولي مروانيون تبنا " نظام التعليم المزدوج الذي دشّنه السفليانيون والذي يتوزع إلى طريقتين:

- طريق الكتاب المسجد لأبناء العامة؛

- وطريق مؤدب القصر لأبناء الخاصة " (ميتز، 1967: 346).

3 - المرحلة الثالثة: هي مرحلة النضج والازدهار: وتبدأ من قيام دار الحكمة حتى إنشاء المدرسة النظامية في بغداد حوالي سنة (٤٦٢ هـ / ١٠٦٥ م). وصلت التربية الإسلامية مرحلة متقدمة في عصر الدولة العباسية الأمر الذي جعل كثير من الباحثين يطلقون على هذه المرحلة : مرحلة العصر الذهبي ولعل هناك مجموعة من العوامل التي أسهمت في تقلّمها كان من أهمها:

- تشجيع الخلفاء البحث العلمي والأدب وإكرام العلماء وطلبة العلم نتيجة الاستقرار السياسي، وكثرة موارد بيت المال؛

- ازدهار حركة الترجمة وأخذها الطابع المؤسسي فقد اتصل الخلفاء العباسيون بعلماء المدارس وكانوا يستدعونهم إلى بغداد وينفقون عليهم الأموال لترجمة الكتب إلى اللغة العربية، وقد وضع

نظام دقيق لهذه الحركة العلمية فما حل عصر المأمون حتى كان قد ظهر في بغداد ما سمي بيت الحكمة الذي جمع بيوتاً كثيرة تترجم فيها الكتب؛

- إتاحة قدر من الحرية الفكرية للعلماء مما دفعهم إلى التأليف والبحث والانتقال من بلد إلى آخر لتلقي العلم والاستفادة منه .

ولقد ساهمت هذه العوامل وغيرها؛ في نضج التربية الإسلامية، إذ شهدت هذه المرحلة انتشاراً للغة العربية في جميع أنحاء آسيا، و ظهور أئمة الفقه والحديث كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، والبخاري، والطبري المفسر. (فوارس، 2016: تطور التربية الإسلامية).

وعليه؛ فإن التربية الإسلامية في هذه المرحلة بدأت تظهر من خلال المؤلفات المستقلة وبروز المربين والمؤدبين كما برزت ملامح الأنظمة التعليمية للتعليم الإسلامي فيها، حيث اتسمت التربية الإسلامية بملامح واضحة، وسمات بارزة كان من أبرزها:

- إنشاء المدارس كمؤسسات مستقلة ومتخصصة في التعليم وتدرّس العلوم العقلية فيها إلى جانب العلوم النقلية مثل: علوم الفلسفة، الرياضيات، الهندسة والجبر، والطبيعة، والطب، والتاريخ والجغرافية؛

- ظهور الآراء التربوية المتميزة حيث يعد ابن سحنون، والقابسي من أوائل من كتب التربية الإسلامية بصورة متخصصة علاوة على أن كتاباتهم كانت إسلامية خالصة، ثم تلتها كتابات تربوية أخرى متأثرة بالفكر الإغريقي وغيره أمثال كتابات ابن مسكويه (فوارس، 2016: تطور التربية الإسلامية)؛

- ظهور اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي، فقد نشط الاتجاه الفقهي من خلال حركة المذاهب المختلفة، كما نشطت التيارات الصوفية، والفلسفية، والكلامية، والشيوعية؛

- وقد كان للحوارات والمناظرات بين الاتجاهات التربوية المختلفة أثر كبير في تنمية الفكر التربوي، إلا أن هذا الأثر الإيجابي سرعان ما تحوّل ليعصف بفكر الأمة المسلمة فبلغ ذروة التخاصم والتنازع والتحالف مع أعداء الأمة المسلمة في عصر الدولة العثمانية.

- تكامل عناصر النظرية التربوية لدى مربّي هذه المرحلة إذ أن الدّارسَ لمؤلفات التراث التربوي في هذه المرحلة كمؤلفات ابن سحنون، والقابسي، والزرنوجي والغزالي يستدل على العناصر النظرية التربوية الإسلامية بشكل واضح دون عناء في البحث، مع احتفاظ هذه الكتابات بالصيغة الفقهية (فوارس، 2016: تطور التربية الإسلامية).

و لقد ترك للمرحلة الثالثة المسؤولية الكبرى، مسؤولية تحقيق التلاحم التام بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الهيليني، والفكر الشرقي القديم تمهيداً لبزوغ الثقافة العالمية في الحضارة العربية الإسلامية (رضا 1993: 97). حيث بدأت هذه المرحلة منذ تأسيس دار الحكمة على يد المأمون (٢١٧هـ / ٨٣٢م) التي كانت تعبيراً ثقافياً عفويّاً عن استحالة الاستعصاء على المؤثرات الثقافية غير الإسلامية التي وجد المسلمون أنفسهم معها وجهاً لوجه من دون سابق تخطيط اجتماعي. إذ وضعت دار الحكمة بين أيدي المفكرين المسلمين كل التراث الهيليني الكلاسيكي الذي جلبه معهم العلماء الوثنيون الهاربون من اضطهاد الإمبراطور جوستنيان في القسطنطينية والذين هاجروا بعلومهم ومعارفهم إلى سوريا والعراق وإيران، وخصوصاً إلى مدارس نصيين وجنديسابور. وعندما امتد الإسلام في القرنين السابع والثامن الميلادي إلى هذه البلدان، اتصل اتصالاً مباشراً بهذا الميراث الوثني المادي، ووجد بعض المسلمين فيه جلةً وجاذبية. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح القرن التاسع الميلادي (القرن الثالث - الرابع الهجري) عصر الترجمة العظيم، ترجمة الفلسفة الإغريقية وكتب الطب والرياضيات والعلوم الأخرى، إلى اللغة العربية (صليبا، 1970: 97).

ولم يقتصر عمل دار الحكمة على الترجمة، فقد ألحقت بها مكتبة واسعة للمحفوظات وعدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء بالترجمة، وأنشئ إلى جانبها مرصد فلكي، وإلى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك ومع وجود المكتبة والعلماء الباحثين والمرصد ومدرسة الفلك والأوقاف التي تُيسر تمويل هذه المؤسسات، غدا من المتعذر أن لا تجتذب دار الحكمة الطلاب إليها، وهكذا أصبحت نوعاً "جديداً" من معاهد البحث والدراسة العليا، أو بعبارة أخرى، أكاديمية.

وبموازاة ذلك لم يقف أثر دار الحكمة في الترجمة فقط، فسرعان ما أعقب عصر الترجمة عصر آخر من نوع آخر كان عصر إنتاج وابتكار أثبت العرب فيه أنهم لم يكتفوا باقتباس تراث فارس القديم وتراث اليونان وهضمه، بل حولوا التراثين إلى حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم، وأضافوا إليهما ما استطاعوا أن يستنبطوه. وقد ظهرت مآثرهم في الطب والفلسفة لكنها تجلت بنوع خاص في الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا. بل قد تفردوا عرباً ومسلمين بمذاهب في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وعلومها.

لقد كان الدور الذي مارسته دار الحكمة وما رمزت إليه ومثلته من قوى اجتماعية وثقافة وما ترتب على ذلك، كان كل ذلك إيذاناً بسقوط آخر الحُجُب بين نظامين فكريين غريبين عن بعضهما غربةً تامة، ولكنهما مستعدان للتفاهم وتبادل التأثيرات: النظام الهيليني بعقلانيته وماديته وواقعيته، والفكر

الإسلامي بغيبياته وروحانياته وتفسيراته العلوية للوجود والأشياء. وسنرى ما فعلته هذه المواجهة بالفكر الإسلامي وتطبيقاته التربوية، وما فعله الفكر الإسلامي في هذه المواجهة أيضاً (رضا، 1993: 98) .

ولقد قدر لهذا التوجه الطبقي في التعليم ان يمتد في العصر العباسي. وفي وصيتين من وصايا الخلفاء، يفصل بينهما قرن أو يزيد، تبرز الطبيعة الطبقية الأرستقراطية لتربية الخاصة ليست واضحة وجليّة وحسب، بل ومتطابقة في ما تكشف عنه من التوقعات الاجتماعية لأبناء هذه الطبقة. فمثلاً: قال عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده: "علم أولادي الصدق كما تعلمهم القرآن... وعلمهم الشعر بمجدوا وينجدوا.... وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة وأقلهم أدباً.... وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة.... وجالس بهم على القوم يناطقوهم الكلام.... واحفف شعورهم تغلظ رقابهم وأطعمهم اللحم يقرأوا، ومرهم يستأكلوا عرضاً وأن يمشوا الماء مصاً ولا يعبوا عِباً وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم به أحد من الحاشية فيهنّوا عليهم" (ابن أبي الدنيا في كتاب "العيال" (ص 80) ، رقم: 338)

وقال الرشيد الكسائي لمؤدب ابنه الأمين: "أقرئه القرآن وعرفه الآثار وروّه الأشعار (رضا، 1993: 93). وعلمه السنن وبصره مواقع الكلام وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذ حضروا مجلسه، ولا تمرّ بك ساعة إلا وأنت مغتم فيها فائدة تفيده إياها من أن تحرق به فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ وبألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة" (المسعودي 1385هـ: 321-322).

ولم تكتفِ الخاصة، على ما يظهر، بإعطاء أولادها تعليماً ممتازاً من تعليم أبناء العامة، بل هي حاولت عزل أبنائها عن أبناء العامة حذر التدني في مسلكياتهم الطبقية. وقد روى المحدث الفقيه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ) أن الأمير أحمد الموفق (أخو الخليفة المعتمد) طلب منه "أن تروني لأولادي في كتاب السنن... وأن تفرد لهم مجلساً للرواية فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة" فلما قال له أبو داود: "أما هذه فلا سبيل إليها لأن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء". وافق الأمير الموفق أن يجلس أولاده مع أولاد العامة لاستماع الحديث، على أن "يضرب بينهم وبين الناس ستر" (أبيض، 1980: 208) .

وتبعاً لتعاظم هذا الحس الطبقي في التربية، سرعان ما انعكس ذلك على مهنة التعليم ذاتها، فانقسم المعلمون إلى ثلاث طبقات اجتماعية متميزة:

- **الأولى** معلمو الكتاتيب الذين كانوا يعنون بتعليم أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب. وكانوا يمثلون أوطد درجات السلم المهني ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً (ميتز، 1967: 321)؛
- **والثانية** كانت معلمي أبناء الطبقات العليا في المجتمع... الأمراء والوزراء والأغنياء، وكان هؤلاء يدعون- "المؤدبين" في حين كان أعضاء الطبقة الأولى يسمون "المعلمين"؛
- **أما الطبقة الثالثة** فكانت المعلمين الخاصين بأبناء الخلفاء وولاة العهد (ميتز، 1967: 319)، وكان هؤلاء من العلماء الأعلام ذوي الاطلاع الواسع في الثقافة العربية الإسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة، وكانوا بهذا يمثلون ذروة المهنة التعليمية ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، وقد سمو بحق "كبار المؤدبين"، وكان منهم سيبويه والكسائي والأصمعي (رضا، 1993: 94).

ثانياً: تطور مؤسسات التربية والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية

لقد أدرك المسلمون الأوائل أن التربية هي أداة الحضارة ووسيلتها في تخليد ذاتها وضمان انسيابها وتناقلها عبر الأجيال. "ويكون فعل التربية في الحضارة هو رسم هذا الفعل وتحديد مداه والتأثير في سلوك الفرد الإنساني حتى ينسجم مع الأنماط الاجتماعية السائدة" (بهيح، 2011: الفكر التربوي). وهذا ما أدركه أيضاً الصينيون القدماء والإسبرطيون والآثينيون بخصوص أهمية التربية في تحديد سلوك حضارتهم.

في الواقع، لا يمكن أن يجادل اثنان في أن قضية التربية بصفة عامة كانت تحتل مكانة كبرى عند المسلمين قديماً. وهكذا؛ فإنه "لم يفت علماء التربية المسلمين الاشتغال على مناهج البيداغوجيا، فقد ألقوا بسهامهم في الموضوع وكانوا على موعد مع التاريخ حين استجابتهم لطرق هذا الأخير، وتطعيم النظريات التربوية التعليمية العلمية تماشياً مع متغيرات الزمان ومستجداته. والدارس لتراثهم التربوي يجد لمساهمتهم بارزة بقوة في هذا الشأن بما يسجل دون شك سبق بصمتهم وإبداعهم المنقطع النظر على المستويين المنهجي والعملي. أقصد كيف المنهجي والكم الذهني الواجب مراعاته في إطار العلاقة التعاقدية الضمنية بين المكونات الثلاثة :

- المدرس؛
- والمتعلم؛

● والمادة موضوع التدريس .

هي علاقة تخضع للمد و الجزر، والبسط والغلّ وفق ما يقتضيه المقام " (عبد العال 2015 : إسهامات العلماء) . ولا نتعجب من ذلك ما دام الإسلام قد قلّس العلم والعلماء، وسما بالعلم إلى درجة العبادة وعني بالتربية الروحية والدينية والدينية والخلقية للإنسان (الكبري، 2017: قضية التربية). أما المنهاج التعليمي للأولاد فقد عرف مبكراً عند المسلمين، فقد وضع نموذج عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لتعليم الأطفال وكتبه وبعث به إلى ساكني الأمصار وهو: " أما بعد... فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر". وكان ابن التوأم يقول: من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتاب والحساب والسباحة (شبلي، 1978، ص:55).

ثالثاً: أهم مؤسسات التربية والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية:

لقد شهدت المؤسسات التعليمية في صدر الدولة الإسلامية أشكالا علةً منها:

- **الكتاب:** وقد وجدت الكتابات قبل ظهور الإسلام وأول من تعلم الكتابة من أهل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وقد تعلمها من بشر ابن عبد الملك الذي تعلمها من الحيرة وقد ذكر ذلك ابن خلدون (ابن خلدون، 2019: 293-294).
- وزادت بعد ظهوره حيث ان الدين الجديد والنظام السياسي الذي نشأ في أحضانه شجعا الناس على تعلم القراءة والكتابة وأصبحنا ضروريين لرواة الحديث و ذوي الطموح السياسي آنذاك (شبلي، 1978 : 44). وقد شهد المسلمون نوعين من الكتابات: وهي الكتابات الخاصة بتعليم القراءة، والكتابة والحساب، والكتاتيب التي كانت تعلم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي وكان غالبا ما يتم هذا في المسجد. وكان اللوح المخصص للكتابة موجوداً عند المسلمين في وقت مبكر جداً. فلقد روي عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات في الحكمة ليقلدها تلميذ كانت تعلمه القراءة والكتابة (شبلي، 1978: 49). وازداد عدد الكتابات وعدد المعلمين في القرن الثاني الهجري وما تلاه من قرون، وكانت زيادة سريعة وضخمة، حيث كان في كل قرية كتاب بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب وقد ذكر ابن حوقل أنه عدّ حوالي 300 معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بلرم في صقلية (شبلي، 1978 : 54-55). ونشأ في العهدين الأموي والعباسي نوع من التعليم الابتدائي الخاص بهدف تأهيل الأبناء لتحمل الأعباء المستقبلية، وقد كان الأب يضع المنهاج لولده أو يشارك

في وضعه وكان يسمى المعلم في القصور مؤدباً وهو أرقى من معلم الكتاتيب وتستمر مرحلة التعليم حتى الصبا؛

- **مجلس المناظرة:** وكانت من أهم المؤسسات التربوية في الإسلام حيث كانت تجمع العلماء والأدباء في مجالس الخلفاء أو في المساجد وكان يطلق عليها صالونات الأدباء وقد ازدهرت هذه الظاهرة في العصر العباسي، ومن أشهر المناظرات اللغوية ما جرى بين سيبويه والكسائي في عصر الرشيد ومناظرات الشافعية والمالكية في المساجد حول أمور الفقه الإسلامي؛

- **حوانيت الوراقين:** أنشئت هذه الحوانيت في البداية لأغراض تجارية انحصرت في بيع الورق، ثم أصبحت ساحة للثقافة والحوار العلمي، وأصبح معظم الوراقين من الأدباء أصحاب الثقافة الرفيعة ومن أشهر الوراقين ابن النديم وياقوت الحموي. وتعدت المهنة بيع الورق إلى نسخ الكتب وبيعها وتداولها (شيلي، 1978 : 62)؛

- **المساجد:** تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد لهذا فالحديث عنه يعد الحديث عن المكان الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، ويعد المسجد هو المدرسة الدينية الأولى، ثم تحولت المساجد إلى منارات للعلم والثقافات الأخرى ويؤثر عن عمر بن عبد العزيز أنه أمر عماله بنشر العلم والفقه في المساجد، ومن أشهر المساجد التي كانت منارات للعلم :جامع عمرو بن العاص، والجامع الأموي في دمشق، وجامع المنصور ببغداد (ميتز، 1967: 332)، فقد قامت حلقات الدراسة في المسجد منذ نشأ واستمر على مرّ السنين والقرون وفي مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع، ولعل السبب في جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو أن الدراسات في بداية الإسلام كانت دراسات إسلامية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه . والمسلمون منذ عصورهم الأولى توسعوا في فهم مهمة المسجد، فاتخذوه مكاناً للعبادة ومعهداً للتعليم وداراً للقضاء، وساحة تتجمع فيها الجيوش، ومنزلاً لاستقبال سفراء الدول (شيلي، 1978: 102)؛

- **المدارس:** كان عام 459 للهجرة حداً فاصلاً فيما يختص بإمكانة التعليم عند المسلمين ، ففي هذا العام افتتحت في بغداد أول مدرسة من مجموعة المدارس الكثيرة والمنظمة (شيلي، 1978 : 43)، التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك وهي أولى المدارس التي أنشئت في الحضارة الإسلامية، ومن أشهر المدارس المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله (ليونز، 2014: 87)، والمدرسة الناصرية بالقاهرة. وكانت المدارس تحتوي على سكن للطلبة وكان التعليم فيها مجانياً بل وكان

الطلبة يتقاضون فيها راتباً شهرياً ووجبات يومية وألحق بالمدارس حمامات ومرافق للرعاية الصحية ومكتبات تحتوي على أمهات الكتب، وكان التعليم الديني هو الغالب على هذه المدارس؛

- **الصالونات الأدبية:** ظهرت الصالونات الأدبية ساذجةً في العصر الأموي وانتشرت رائعةً غنيةً في العصر العباسي، وهي ليست إلا تطوراً لمجالس الخلفاء الراشدين، فالخليفة في الإسلام كان عليه أن ينظم أعمال الدنيا ويفتي في شؤون الدين، فمن أجل هذا كان يستقي من أهم العلم المؤدي إلى الاجتهاد. (شibli، 1978 : 71)؛

- **المكتبات:** إن المكتبات كانت طريقة القدماء لنشر العلم، ولما كان يتعذر على غير الأغنياء اقتناء الكتب نظراً لأنها كانت غالية الثمن، لجأ من أحب تعليم الناس إلى إنشاء مكتبة يجمع فيها الكتب ويفتح أبوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الإسكندرية، والعباسيون في بيت الحكمة، وكانت هذه المؤسسات نواة الجامعات الإسلامية المبكرة كبيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة وأصبحت المكتبات في العالم الإسلامي تقوم بمهمة المعاهد العلمية في العصر الحديث بالإضافة إلى ما تؤديه دور الكتب في الوقت الحاضر من خدمات (شibli، 1978 : 139). فاهتم المسلمون بالكتب و أنشأوا مكتبات في كل مسجد، كما كانت مكتبة الخليفة خالد بن يزيد بن معاوية من أكبر وأقدم المكتبات العربية، وقد عرفت الحضارة الإسلامية ثلاثة أنواع من المكتبات: وهي المكتبات العامة مثل دار الحكمة ببغداد والقاهرة، والمكتبات التي أنشأها الخلفاء في قصورهم وكانت تخدم العلماء ووجهاء الناس وخاصة الخليفة، والمكتبات الخاصة التي أنشأها العلماء والأدباء في منازلهم مثل مكتبة حنين بن إسحق (ميتز، 1967: 323)؛

- **الخوانق والزوايا والروابط:** الخوانق والزوايا أنشأها المتصوفون للعبادة ومجاهدة النفس وكان تُدرس فيها علوم الفقه والتصوّف واللغة والحديث والقرآن وكان لكل شيخ جماعة من المريدين يتبعونه ويتعلمون منه، أما الروابط فهي جمع رباط وكانت في الأصل ثكنة عسكرية يربط فيها الجنود على الثغور وكان يتم فيها تعليم القرآن واللغة كما بنيت روابط للنساء لتعليمهن؛

- **البيمارستانات:** وهي كلمة فارسية معناها المستشفى وقد أنشأ الخلفاء العباسيون هذه الأماكن لتكون أشبه بكليات لتعليم الطب والتمريض والتدريب العملي ويتوافر فيها مكتبات ضخمة وآلات التطبيب والجراحة والصيدليات، وكان يمنع من مزاوله مهنة الطب من لا ينال إجازة الطبيب من هذه البيمارستانات؛

- **دار الحكمة :** "ولو قارنا هذه المبادئ بالنظريات التربوية الحديثة لوجدنا تطابقاً في كثير من الآراء" (ليونز، 2014: 83)، ونحن نصل إلى نهاية القرن الرابع الهجري، فلن ننسى الدور الكبير الذي قامت به "دار الحكمة" التي أسسها الخليفة المأمون (217 هـ / 832 م) وأثرها على الفكر التربوي عند المسلمين بما جلبته من علماء ومترجمين من "اديسا" و"نصيبين" و"جنديسابور" في مجالات الطب والرياضيات والفلسفة وغيرها، وكانت مكتبة دار الحكمة تحوي آلاف المخطوطات، حركة الترجمة هذه قد بدأت منذ عهد الخليفة خالد بن يزيد بن معاوية المعروف بحكيم آل مروان. ثم حلت محلها المدرسة النظامية في مراحل لاحقة 1067 م وهي تمثل ظاهرة جديدة في العلاقة بين الدولة والتعليم، فقد كانت المدرسة النظامية نموذجاً للمؤسسة التربوية الموضوعة في خدمة الدولة والموجهة أصلاً لخدمة أغراضها السياسية، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النظامية الإمام أبو حامد الغزالي. وقد قسم علماء التربية المحدثون الفكر التربوي الإسلامي من هجرة الرسول حتى القرن الرابع الهجري إلى ثلاثة تيارات هي:

1 - التيار المحافظ: وهو يقم العلوم تقويماً دينياً محضاً وقد مثل هذا التيار الإمام الغزالي، والشيخ الطوسي، وابن جماعة الأندلسي؛

2 - التيار المنفتح على الفكر الإغريقي: ومثل هذا التيار جماعة إخوان الصفا وابن مسكويه؛

3 - التيار الذرائعي (رضا، 1987: 150): وهو الهدف الذي يتوصل به إلى بلوغ شيء آخر وتزعم هذا التيار المفكر المسلم ابن خلدون (بهيج، 2011 : الفكر التربوي) .

لذا علينا أن ننظر إلى أفكار هؤلاء العلماء جميعاً بمنظار العصر الذي عاشوا فيه، وأنهم مثلوا بذلك الطلائع التربوية التي تفتح مجاهل الطريق ولهم اتفقوا جميعاً على أن الأسس النفسية للتعلم في التربية الإسلامية تتشعب إلى ثلاثة اتجاهات منفصلة هي:

أركان عملية التعلم: ومنها التهيؤ النفسي للتحصيل، والإدراك، والخبرة، ومرحلة النمو والقدرة على التعلم، أي مراعاة سن المتعلم، ثم اللغة ودورها كوسيلة تربوية؛

طريقة التعليم: (أول من تنبّه لها ابن خلدون) تقريب المعرفة إلى إدراك المتعلم مع الأخذ بعين الاعتبار علم المتعلم ونضجه اللغوي والعقلي، واستعمال أسلوب المطارحة والمناظرة والمحاورة لأنها تهيئ للمتعلم فرص الجرأة والثقة بالنفس. (رضا، 1987: 151) .

يقول الماوردي حول الفروق الفردية: "وينبغي للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته، فإنه أروح للعالم و أنجح للمتعلم" (الكيري (2017) قضية التربية) .

ويؤكد الغزالي ذلك أيضا في كتابه "إحياء علوم الدين" عندما يشير إلى أن من وظائف المعلم "أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، أو يخلط عليه عقله... و لا يبيث إليه الحقيقة إلا إذا علم أنه يستقل بفهمها، و قد قال الإمام علي (رضي الله عنه) وبعد أن أشار إلى صدره: "إن هنا لعُلُومًا جمةً لو وجدت لها حَمَلَةٌ"، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد، وهذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلا للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه، ولذلك قيل: كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه ويتنفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار (الكيري لحسن ، (2017) قضية التربية عند علماء المسلمين). وقد قال تعالى: في سورة النساء، آية (5): ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضّره أولى وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق؛

المهنة التعليمية: نادوا بمعرفة طبيعة الطفل وإمكاناته للتعلم، كما حددوا مسؤولية المعلم وفرقوا بين التربية والتعليم وعرفوا أن التربية أكبر من التعليم وأشمل منه، لذلك لا بد أن يضاف للعلم فن التربية، وقرروا أن السن المناسبة لبدء التعليم هي سن السادسة، وأدركوا أهمية اللعب والترويح عن النفس بين المعلم والتلميذ، وهذه المبادئ هي التي تنادي بها التربية الحديثة (بهيج ، 2011 : الفكر التربوي).

وهذا سبق المعرفي في مجال التربية وغيرها من المجالات انتقل إلى الغرب بطريقة من الطرق منذ القرن الثاني عشر عبر قناة الترجمة والاستعراب والاستشراق فيما بعد و ما وازاه من دخول العرب في سُبُحات عميق إبان ما درجنا على الاصطلاح عليه بعصر الانحطاط. وهذه القطيعة جعلت الأجيال العربية الإسلامية الحديثة تنبهر بالثقافة الغربية أما انبهار متناسية أن تلك الثقافة مدينة في جزء كبير منها لشمس الحضارة العربية الإسلامية التي أشرقت على الغرب كما تذهب إلى ذلك المثقفة الألمانية زيجريد هونكه.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم وبالنظر إلى كل التصورات التربوية الغربية سواء القديمة أو الحديثة التي تعرفنا عليها من خلال معاشرتنا المتواضعة لفلسفة التربية نجمع القول فنقول إن " الأمة الإسلامية قد خلفت لنا ثروة علمية مطمورة في ثنايا شتيت من المصنفات تنتظر من يعقد العزم على مدارستها ونبش دفائها ومكنوناتها" .

لقد طرق هؤلاء غالبية الموضوعات التي تشكل جوهر الفعل التربوي في العالم المعاصر. فعندما نقرأ لعلماء مسلمين آخرين من أمثال الماوردي والغزالي مثلاً؛ فإننا نحسّ تماماً و كأننا نقرأ لهوارد غاردينر أو جون دبوي أو مونتسوري .

• النتائج :

1- تعد دراسة تطور التربية الإسلامية ضرورة لا بد منها في العالم المعاصر. وذلك من أجل تتبع العطاء المعرفي التربوي وربطه بالواقع مما يتيح قدراً من الكشف عن العناصر التربوية الحية في التراث الإسلامي والتي تسهم في بناء النظرية التربوية الإسلامية؛

2 - كما تسهم دراسة تطور التربية الإسلامية في ربط اتجاهات الفكر التربوي بمعطيات الزمان والمكان التي ظهرت فيه؛

3 -لقد اختلفت طرق الباحثين في دراسة تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ فمنهم من تتبع مسألة تربوية فردية أو جزئية. ومنهم من تتبع التربية الإسلامية في عناصرها المختلفة وفق قرون أو عصور أو مراحل؛

4 -وقد مر تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي بمراحل كان من أبرزها:

أ-مرحلة النشأة والتأسيس التي جسدت عصر الرسالة الإسلامية حيث رسخت الأسس التربوية فيها خاصة في ظل تفسخ الأطر الفكرية وقصور النظريات السائدة آنذاك فجاء الإسلام بإطار إلهي ونظرية تربوية متكاملة لإعداد الفرد وبناء المجتمع؛

ب- مرحلة البناء والتطبيق والتي بدأت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) واستمرت حتى نهاية عصر الدولة الأموية وقد طبق المربون في هذه المرحلة الأسس التربوية التي أرساها الدين الحنيف على أكمل وجه فكانت إسلامية خالصة معتمدة على الوحي بشكل مباشر؛

ج-مرحلة النضج والازدهار والتي تخللت عصر العباسيين وقد شهدت هذه المرحلة تقدماً في كافة حقول المعرفة وظهور الآراء التربوية المتميزة وظهور الاتجاهات المختلفة للفكر التربوي وذلك نتيجة للاستقرار السياسي وإغداق الأموال في مجالاتها الصحيحة في تلك المرحلة.

التوصيات:

1 إن عرضنا المتواضع هذا؛ نبتغي من ورائه بدايةً التفكير في ضرورة تعميق النظر في الفكر التربوي العربي الإسلامي و مقارنة نتائج ذلك بما يوجد في الثقافة الغربية لكي نستمد منه ما يمكن أن ينفعنا في إنارة الطريق لنا في المستقبل، وذلك لإخراج المنظومة التربوية الإسلامية من الفوضى العارمة؛

2- على الباحثين القيام بدراسات تحليلية للتراث التربوي الإسلامي تساهم في الكشف عن عناصر النظرية التربوية الحية؛

3 -على مؤسسات التعليم العالي عقد مؤتمرات تعنى بقضايا العلوم التربوية الإسلامية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- (1) ابن أبي الدنيا؛ عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان، كتاب: العيال ، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، السعودية -الدمام- دار ابن القيم، (1410هـ/1990م) ، ط1.
- (2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: هشام جمعة هلال لبنان -بيروت، دار ومكتبة دار المعارف (2019) مجلد1، الطبعة1.
- (3) ابن شاهين أبو حفص عمر بن أحمد(287 هـ/ 385 هـ) الكتاب اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنن، تحقيق عبد الله بن محمد البصري، المدينة المنورة- مكتبة الغرباء الأثرية 1416هـ الطبعة الأولى
- (4) الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة) ، بيروت - مكتبة المعارف ،(1415هـ/1995م)،
- (5) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، لبنان صيدا-المكتبة العصرية(١٣٨٥هـ)، ج٦.
- (6) أبيض ملاك، التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بيروت - دار العلم للملايين، (1980م) .
- (7) أمين أحمد فجر الإسلام ، القاهرة-مكتبة النهضة المصرية، (1959) ، ط ٧.
- (8) حلاق حسان، طرائق ومناهج التربية والتعليم، بيروت-دار النهضة العربية، (2012م)، طبعة رابعة.
- (9) الخلف عبد الحسن حسن ، العلم والتعليم بين التراث والحضارة، بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (2018م).
- (10) رضا محمد جواد ، العرب والتربية والعالم، لبنان-بيروت- دار نوفل، (2005م) طبعة أولى.
- (11) رضا محمد جواد، العرب والتربية والحضارة (الاختيار الصعب) بيروت-مركز دراسات الوحدة العربية (1987) الطبعة الثالثة.
- (12) شبلي أحمد، التربية الإسلامية (نظمها-فلسفتها-تاريخها) القاهرة -دار العلوم، (1978م)، الطبعة السادسة.
- (13) الشعراي ربي ناصر المصري، الإبداع في التربية المدرسية، بيروت-دار النهضة العربية، (1430هـ/2009م).

- 14) الصالح صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، بيروت - دار العلم للملايين، (1388هـ/1968م) الطبعة الثانية،
 - 15) صفوت أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهر، القاهرة - مكتبة الباني الحلبي (١٩٣٧-١٩٣٨)، ج ٢.
 - 16) صليب جميل، تاريخ الفلسفة العربية، بيروت - دار الكتاب اللبناني، (١٩٧٠)، ص ٩٧.
 - 17) علي سعيد إسماعيل أصول التربية الإسلامية، مصر - دار السلام، (2008)/
 - 18) ملحق ثريا عبد الفتاح منهج البحوث العلمية للطلاب الجامعيين، بيروت - الشركة العالمية للكتاب (1989)، طبعة رابعة.
 - 19) لوبون غوستاف، حضارة العرب، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، (2014).
 - 20) ليونز جوثان، بيت الحكمة (كيف أسس العرب لحضارة الغرب)، ترجمة مازن جندلي، بيروت - الدار العربية للعلوم ناشرون، (1435هـ/2014م)، الطبعة الثانية.
 - 21) ميتز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، بيروت - دار الكتاب العربي، ودار الكتاب العربي، (1387هـ/1967م) الطبعة الرابعة.
 - 22) لعقروز عبد الرزاق، جذور أزمي التربية والتعليم في العالم الإسلامي، جامعة محمد لين دباغين الجزائر. (2015)
- المواقع الإلكترونية:
- 1) بهيج بهجت سكيك، الفكر التربوي و تنشئة الأولاد عند المسلمين الأوائل، مقالة منشورة بموقع قصة الإسلام (2011)
 - 2) عبد العالي عباسي، إسهامات علماء التربية المسلمين في حقل البيداغوجيا، مقالة مهمة جدا منشورة بموقع تربويات (2015) و هذا رابطها الإلكتروني
<http://www.tarbawiyat.net/news11394.html>
 - 3) عبد الهادي أسماء، التربية في الحضارة الإسلامية، مقال نشر قصة الإسلام 2017
 - 4) غازي علي عفيفي علي، تطور الفكر التربوي الإسلامي، المنتدى الإسلامي العالمي للتربية (2020) <http://montdatarbawy.com/show/124446>
 - 5) فوارس هيفاء فياض، تطور التربية السلمية عبر التاريخ السلمي وتحديات دراسته
Journal of Education and Social Sciences, Vol. 5, (October)
 - 6) الكيري لحسن، قضية التربية عند علماء المسلمين: القابسي وابن سينا أنموذجاً، الميادين نت (2017)
 - 7) ملك بدر محمد والكندري لطيفة حسين، تطور الفكر التربوي مقاربات فلسفية، إسلام أون لاين، جريدة أكاديميا (2019).

المؤسسات التعليمية في العصر العباسي

The educational institutions in the Abbasid era.

د. لطفي بقال بريكسي.

جامعة تلمسان. الجزائر.

lotfibbx78@gmail.com

الملخص:

إنّ التاريخ الحضاري لدى الأمم الواعية يعتبر رصيда كبيرا ومرجعا قويا لبداية واستمرار الحضارة فهو مهم لدفع أبناء الأمة إلى دخول وولوج مرحلة العمل والإبداع، ولا يكون ذلك إلّا بعد استيعاب ما فعله أسلافهم من التحضر العلمي والمعرفي، فالحركة العلمية والمعرفية بمؤسساتها تمثل أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية لارتباطها بالإسلام، فأول كلمة تلقّاها المصطفى صلى الله عليه وسلم وحيا هي: "اقرأ" التي كانت إيذانا ببداية عصر جديد؛ عصر العلم والتحرر العقلي من عبادة الأصنام، فارتباط الحضارة بين الإسلام والعلم واضح وجلّي لا انفصام بينهما.

واصل الخلفاء العباسيون، هذه المسيرة العلمية الثّقافية خاصّة في العصر الأوّل والذي شهد ذروة الازدهار العلمي الحضاري؛ وكان ذلك لوعي الخلفاء العباسيين وتشجيعهم للحركة العلمية وفتح هذا المجال لكلّ قاصد له دون تمييز جنسيّة على أخرى فللعلم لا يعرف الأجناس، فكثرت المؤسسات التعليمية وبرزت بغية نشر المعرفة والرقي، هذا ما سأطّرق إليه بشيء من التفصيل والله الموفّق والمعين.

الكلمات المفتاحية: المؤسسات + التعليميّة + العصر + العباسي.

Abstract:

The civilized history of a wake nations is a great asset and a firm reference to the start and continuity of civilization as it is necessary to impel the nation's citizens to enter and go into the stage of labor and creativity. Still, that will not be fulfilled unless they absorb the science-and knowledge-based civilization, which their ancestors have achieved. The scientific

movement represents the most prominent manifestations of the Islamic civilization due to its relation to Islam; where the first word prophet Mohamed _peace be upon him_ has received was; read, which indicated the start of a new era; an era of science and mental liberation from the worship of idols.

The Abbasid caliphs continued this scientific and cultural course, especially in the first era, which has witnessed the peak of scientific and cultural prosperity, owing to the Abbasids; awareness and their support for the scientific movement and providing the chance for every one interested with no nationality-based discrimination as science doesn't acknowledge races. Educational institutions abounded and emerged to spread knowledge and prosperity, which I will discuss in a bit of detail.

Keywords: Foundations + Educative + Era + Abbas.

مقّلة:

إنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في العصر العبّاسي أسست جذورها على شخصيّات ومؤسّسات كان لها اللّور الفعّال في بناءها، ويعود ذلك لأسسهم العلميّة الصّحيحة نالوا شهرة واسعة في تخصّصاتهم، فقد شهدتهم الكتاتيب صبية صغاراً يتلقّون المعارف الأولى، كما تلقّوا العلم في المساجد شاباً يافعاً، يتحلّقون حول كبار العلماء ليتزوّدوا من معارفهم المختلفة.

إنّ الموضوع الذي سأطّرق إليه له أهميّة كبيرة خاصّة في هذا العصر الذي نسيت فيه الأمة أو تناسلت تاريخها وحضارتها وانبهرت بالحضارة الغربيّة وتجاهلت حضارتها التي علّ عليها الغرب في بناء مستقبله وحضارته، بهذا نذكر أنفسنا وغيّرنا أنّ الإسلام جاء ليحرّر العقول ويشجّع على العلم، وعلى ذلك سار الخلفاء العبّاسيون الأوائل.

- 1- الإشكاليّة ما هي أهمّ العوامل التي ساعدت على نهوض الحضارة العبّاسيّة ؟
- 2- أهداف الدّراسة إنّ ما يصبوا إليه بحثنا أن نقدّم صورة عن أماكن التّعليم في العصر العبّاسي، ونبيّن فيه الأسباب التي ساعدت في بناء حضارة أو أمة قويّة تدافع بنفسها عن نفسها.
- 3- المفاهيم الأساسيّة إنّ بحثنا يتناول أهمّ المؤسّسات التّعليميّة التي ساهمت في تكوين الشّخصيّة العلميّة والتي بدورها أسهمت في بناء حضارة علميّة ضخمة ولا زال العالم بأسره يتحدّث عنها ويبحث فيها ويتعلّم منها منذ أن قامت، ومن تلك المؤسّسات: الكتاتيب والمساجد، ومنازل العلماء، حوانيت الورّاقين، إضافة إلى قصور العلماء فهذه المراكز العلميّة ساهمت في تكوين شخصيّات بغية تحقيق هدف سام وهو تطوير العلم لخدمة الإنسان والرّقي به.

4- المنهج المتبع: اعتمدت في بحثي المنهج الوصفي التاريخي لأعرض أهم ما وصلت إليه الحضارة العباسية من تأسيس للبنية العلمية وذلك من خلال مؤسسات تعليمية قوية قامت عليها حضارة حكمت نصف العالم بل أنارته كله، وكان ذلك بمراكز تنوعت علومها وبرزت شخصياتها.

5- الكتابات السابقة: من الكتابات السابقة في هذا الموضوع:

أ- المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول (132هـ - 232هـ / 749م - 846م)، مفتاح يونس الرياصي، منشورات جامعة 07 أكتوبر، مصراته، ليبيا، دط، د. مط، 2010م؛
بأماكن التعليم في العصر العباسي الأول، أزهار أحمد حمدان التميمي، سلطنة عمان، مجلة التراث، عدد خاص بأشغال مؤتمر اسطنبول، التولي الثاني للعلوم الإنسانية والطبيعية، تركيا، اسطنبول، 25-27-2019م؛

ج- التعليم الجامعي في العصر العباسي الأول (132هـ - 232هـ / 749م - 846م)، ولاء وجيه عبد الحميد عبد الغني، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، 2009م، مركز النظم للدراسات وخدمات البحث العلمي؛

د- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر دط، د. مط، 2010م؛
هـ- مراكز التعليم ودورها التربوي في حركة التدريس في العصر العباسي الأخير (477هـ-656هـ) معيوف سالم جالمشمري، مجلة البحوث التربوية والنفسية، ع 14، 2014م.

أولاً أهم المؤسسات العلمية في العصر العباسي:

يمثل العصر العباسي الإطار الزمني للدولة الإسلامية التي زخرت بثقافات متنوعة وشهدت مرحلة اطلاع المسلمين على تراث غيرهم بفعل حركة الترجمة، وهذا الأخير مهد لظهور مدارس كمؤسسات تعليمية تشرف عليها الدولة وهي: المساجد، الكتاتيب، منازل العلماء، حوانيت الوراقين، قصور الخلفاء، المكتبات أماكن التعليم في البادية:

1 - المساجد:

إن المساجد لها تاريخ وثيق وارتباط قوي بالتعليم الإسلامي، حيث أصبح المكان الرئيسي الذي انتشرت منه التعاليم الإسلامية، فصار مقصدا للعلماء وطلبة العلم على حد سواء، إذ ازدهرت المساجد في العصر

العبّاسي وتطوّرت استجابة للحاجة الملحة لأداء الشعائر الدينية واتخاذها مكانا للتعليم، وقد اشتهرت في بعض المساجد ومن أبرزها المسجد الذي بناه أبو جعفر المنصور (136هـ-158هـ/753م-775م) في مدينة بغداد؛ ومن أبرز ما ميز المساجد عن الكتاتيب في دورها التعليمي أمرين مهمين:

1- التّوسّع العلمي في حلقات المساجد؛ من علوم القرآن إلى حديث وفقه وعلوم اللّغة ومناظرات...، بينما الكتاتيب مادّتها العلمية محدودة نظرا لصغر سنّ قاصديها والتي تركز على حفظ القرآن مع مبادئ يسيرة في بعض العلوم الأخرى؛

2- المستوى العلمي لمعلم المساجد أعلى وأرقى من معلمي الكتاتيب الذين اكتفوا بحفظ القرآن مع اطلاعهم اليسير على بعض العلوم الأخرى، وهذا الفرق حادث نظرا لاختلاف المتعلّمين؛ فيونس بن حبيب الضبي (90هـ-183هـ/799م) مثلاً "كانت حلقتة بالبصرة ينتابها الأدباء وفصحاء الأعراب والبادية" (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن الملاحم وآخرون، ج10، صفحة 190)، ومجلس الشافعي أيضاً كان "يحضره أهل الحديث والفقه وأهل الشعر وكان يأتيه كبراء أهل الفقه والشعر فكلا يتعلّم منهم ويستفيد" (البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، مناقب الشافعي، ج1، صفحة 236).

لقد كان المتعلّم في المسجد ميول ومواهب فينظّم إلى ما يرغبه من علوم وتخصّص فينظّم إلى الحلقة التي يهواها ويريدها، زيادة على تلك الحرّة تنوّعت المناهج في الحلقات العلمية، ممّا ساعد على ظهور المواهب في شتى المجالات وهذه لفئة مهمّة تثير الإعجاب لعدم إجبار الطّالب على دراسة تخصّص لا يميل إليه ولا يرغبه، كما كانت حافظاً للمنافسة الشّريفة بين المعلّمين ليتقنوا تدريسهم ويحيطوا بمادّتهم العلميّة التي يدسّونها.

للّكوفة الحرّة التّامّة للمعلّمين من حيث نظام التّعليم ووضع المناهج التعليميّة، أو وضع شروط معيّنة لقبول الطّلاب في الحلقات العلميّة بالمساجد، ممّا ساعد هذا الفعل على توغلّ الحركة العلميّة إلى طبقات المجتمع وبرز كثير من العلماء من طبقات فقيرة إذ وجدوا أبواب المساجد مفتوحة أمامهم لتلقي العلم أمّا عن نظام المساجد فقد اعتمد على الحلقات، بل إنّ الحضور تعلّى الكبار إلى الصّغار فقد ذكرت بعض الروايات وجود صبيان؛ منها أنّ الكميت بن زيد كان يعلم الصّبيان في مسجد الكوفة (الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، ج7، صفحة 4)، وذكر أنّ أبا نّواس (ت198هـ/814م) كان يقصد على حلقات المساجد في المساء عندما كان صغيراً يتعلّم في الكتّاب. (ابن المتوكل عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، دار المعارف، القاهرة، 1956م،.، صفحة 68).

لا شكَّ أنَّ حضور عددهم كان يسيرا وذلك لتلقيهم الحفظ في الكتاتيب، وحتى يتأهل لطور آخر ثان وهو الحلق في المساجد؛ وقد يقتصر حضورهم على مجالس الوعظ أو القصاصين بدليل أنَّ عبد الرحمن السلمي القارئ (ت 148هـ/766م) كان ينهي الصبيان عن حضور بعض مجالس القصاص ويرشدهم إلى حضور البعض الآخر (ابن السعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، دت، ج 6، صفحة 213)؛ فقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه يجلس مع كبار الصحابة ليتعلم، ولمَّا كانت هذه الحلق مفتوحة للجميع حضرها الصغار كذلك.

إنَّ الحلقات التعليمية قد تعددت في المساجد نتيجة ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي؛ فكثرت العلماء في مختلف التخصصات المعرفية، وكثر أيضا الطلاب؛ لمَّا قدم الإمام الشافعي إلى بغداد كان في الجامع إما نيف وأربعون حلقة أو نيف وخمسون حلقة (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، ج 3، صفحة 68).

تعددت الحلق في المساجد وتنوعت وكثر فيها العلماء وطالبي العلم، ولم يكن فيها إلا السمت والمهابة، عكس ما زعمه البعض من أنَّها ضجَّت بالمناظرات وتعالَت فيها الأصوات ودبَّ الشجار، فما بنيت المساجد لمثل هذا، فلا يمكن أن يحدث هذا، إذ الحلق لها آداب ومجالس العلم لها وقار، وقد صنّف العلماء في مثل ذلك مصنفات، وديننا نهي أن تعلو الأصوات في المساجد ولو بالقرآن؛ فقد قال الشافعي: "كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحا رفيقا هيبا له لئلا يسمع وقعها" (علي محمد هاشم، الأندية الأدبية في العصر العباسي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978م، صفحة 184)، بل واصل بن عطاء لمَّا اختلف مع شيخه الحسن البصري اكتفى بأن اعتزل مجلسه وعقد لنفسه حلقة علمية ليدرس فيها آراءه الفكرية.

أ- منهج حلقات المساجد:

وكما أسلفنا القول عن منهج الكتاتيب التي كان المشايخ يكتفون فيها بتحفيظ القرآن؛ وأخذ شيء يسير من العلم على حسب المقام والمتعلم، فإنَّ المساجد باعتبارها المرحلة الثانية من التعليم قد شهدت حلقا متنوعة في المادة العلمية إذ أصبح بعضها عامًّا يدرس مختلف العلوم وأخرى متخصصة في علوم بعينها؛ فالإمام الشافعي مثلا كان يحضر مجلسه العلمي أهل الحديث والفقه وأهل الشعر (البیهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، مناقب الشافعي، ج 1، صفحة 226) بينما كان ليونس بن حبيب الذحوي حلقة نحو في البصرة (القفطي، إنباء الرواة عن أنباء الذحاة، ت: محمد أبو الفضل، ج 3، صفحة 76)، كما كان

لأبي حنيفة (150هـ/767م) حلقة لتعليم الحديث في مسجد بغداد. (ابن خلكان، تاريخ بغداد، ج1، صفحة 380).

إنّ نظام التّعليم في المساجد تميّز بإعطاء الحرّية التّامّة والكاملة لطالب العلم في الالتحاق بالحلقة التي يرغب فيها تبعاً لما يرغبه من تخصّص علمي ممّا نتج عن ذلك نبوغ فئة وبروزها حتى صارت من العلماء، فتعدّدت الحلقات وتنوّعت العلوم بها ممّا جعل مناخ المنافسة الشّريفة قد بلغ أوجه فاجتذب طلبة كثيرين إلى حلقة العلماء، ومن أبرز العلوم التي كانوا درّسوها في الحلقات:

1- علوم القرآن:

تنوّعت العلوم في حلق المساجد وأهمّ علم درّس: علم القرآن؛ إذ لم يكن يكفي حفظ القرآن دون فهمه وتدبّره، فقد كان الصّبي يحفظه في الكتّاب ثمّ ينتقل إلى المساجد ليدرس من العلوم المتعلّقة به؛ كالتفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم ممّا يسهّل له فهم كتاب الله، وقد ثبت أنّ الشافعي كان يجلس في حلقاته إذا صلّى الصّبح فيجيئه أهل القرآن فإذا طلعت الشّمس قاموا. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، صفحة 118)، كما أنّ الفراء (207هـ/823م) قد درس تفسير القرآن في مسجد الكوفة (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن الملحم وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت، ج10، صفحة 272).

2- علوم الحديث:

إنّ علوم الحديث ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعلوم القرآن باعتبارهما مصدرَي التّشريع؛ وعليهما الموقول في الحجة، ممّا جعل العلماء يهتمون به اهتماماً كبيراً، فلم تخل حلق المساجد من محدّثين يحدّثون بما يحفظونه من أحاديث نبويّة ويفسّرونها ويميّزونها بين صحيحها وموضوعها بل وضعيفها، ويدلّنا على ذلك ما اشتهر عن الإمام مالك بن أنس (ت179هـ) بتدريس الحديث في المسجد النبوي وكان يرى أنّ أهل المدينة "هم الأكثر دراية وإلماماً بالسنّة النبويّة الشّريفة" (عبد الفتّاح عاشور، دراسات في الحضارة العربيّة للإسلاميّة، دار المعرفة، القاهرة، 1996م، صفحة 47)، وبسبب انتشار مثل هذه المجالس وإقبال الطلبة عليها بالآلاف ظهرت وظيفة المستملي لغرض إسماع الحاضرين الأحاديث التي يملئها المحلّث بصوت جهوري.

لعلّ من أبرز الأسباب التي أدّت إلى ازدهار حلقات الحديث في المساجد تدوين الحديث الذي ظهر في عصر عمر بن عبد العزيز (99هـ - 101هـ) وازدهر مع بداية العصر العبّاسي الأوّل بعد مروره بمراحل، فكان له أثر كبير في تخليص الحديث النبوي من اللّس والتّزوير، كما أفادت في توفير المادّة العلميّة

للمعلّمين والمتعلّمين كما أوجدت هذه الحلق كتباً ومكتبات كبيرة في بيوت العلماء، بل أوجدت هذه الحلق كذلك وظائف مثل وظيفة الخطّاطين الذي اعتنوا بنسخ كتب العلماء وبيعها ونشر العلم بمذه الطريقة بين مريديه وقاصديه ومحبيه وطالبيه (الرباضي، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي (132هـ-232هـ/749م-846م)، صفحة 76).

3- الفقه:

لقد ظهرت في بداية هذا العصر أشهر المذاهب الفقهية وهي أربعة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد؛ فكان لأبي حنيفة حلقة الفقه في جامع المنصور ببغداد (ابن خلكان، تاريخ بغداد، ج1، صفحة 409) وللإمام مالك حلقة في المدينة في الحرم النبوي، والشافعي في مصر وأحمد في العراق.

وقد بدأ تدوين الآراء الفقهية في هذه الفترة، ممّا أدّى إلى بداية ازدهار علم الفقه؛ حيث حرص فقهاء المدينة على تدوين فتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وبقية التابعين، كما حرص أهل العراق على جمع وتدوين فتاوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود (حسن أحمد محمود الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996م، صفحة 210).

إنّ مرحلة تدوين الفقه ساعدت طلاب الحلقات العلمية على استيعاب الآراء الفقهية بحكم وجود مدونات مكتوبة لإبراز الآراء الفقهية، كما أسهمت المدونات في بناء الملكة العلمية لدى طلبة العلم وتطوير النشاط العقلي وذلك بالمقارنة بين الآراء الفقهية وترجيح بعضها استناداً إلى القرآن والسنة.

ستنلوا إلى ما سبق؛ نقول إنّ العصر العباسي الأول أسهم بتنوع المادة العلمية ونشاط المناظرات الفقهية وتعدّد المدارس الفقهية واللغوية في الحجاز والعراق وبلاد المغرب.

4- علوم اللغة والشعر:

إنّ اللغة العربية وعلومها هي المفتاح الأول لفهم القرآن والسنة، لهذا عول عليها العلماء فهذبوا قواعدها وجمعوا فصيحها وعلموها للمسلمين ولغيرهم بغية فهم الوحيين والحفاظ عليهما من التحريف والتدليس، كما أدرك العلماء المسلمون أهمية اللغة لاستيعاب علم الفقه؛ فالإمام الشافعي خرج إلى البادية ليكتسب لغة سليمة من أهلها فقابله أحد البدو وسأله عن مسألة فقهية فلم يجبه، فقال البدوي: يا ابن أخي الفريضة أولى بك من الدافلة فقال الشافعي: إنّما أريد هذا لذاك وعليه قد عزمت وبالله التوفيق (ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار الفكر، بيروت، 1992م، ج2، صفحة 148)؛ فقد وعى الإمام الشافعي أهمية اللغة في فهم واستنباط المسائل الفقهية، وأدرك كنهها وعلاقتها بالعلوم الإسلامية.

لهذا عرفت علوم اللّغة طريقها إلى الحلقات وأصبحت تدرس في المساجد؛ ومن ذلك علم النّحو، فقد جلس حمّاد بن سلمة (189هـ/788م) الذي كانت له حلقة نحو تعلّم فيها يونس بن حبيب النّحوي (القفطي، إنباء الرواة عن أنباء النّحاة، ت: محمد أبو الفضل، ج3، صفحة 365)، ثم أصبحت ليونس حلقة أخرى في مسجد البصرة (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن الملحم وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت، ج10، صفحة 190) وقد جلس بعض العلماء يدرّسون النّحو في مساجدهم الخاصّة كسيبويه (ت180هـ/769م) مثلاً (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، ج3، صفحة 190) والفراء (ت207هـ/823م) (القفطي، إنباء الرواة عن أنباء النّحاة، ت: محمد أبو الفضل، ج3، صفحة 13) وغيرهم..

والملاحظ أنّ علوم اللّغة ازدهرت في العراق بمساجد البصرة والكوفة خاصّة علم النّحو، لهذا برزت مدرستين مشهورتين وكبيرتين سمّيتا بالمدينتين البصرة والكوفة ثم ظهرت مدرسة بغداد إذ هي وسط بينهما في هذا الفنّ.

كما شهد العصر العبّاسي الأوّل من ظهور أوّل محاولة لوضع معجم شامل للكلمات العربيّة وأوّل من فكّر فيه الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ/175م)، حيث رتّب الكلمات على حسب مخارج الحروف وأسماء كتاب العين؛ باعتباره بدأ بحرف العين، وكان هذا العمل مبتكراً عظيماً في بابه، إذ أنّه محاولة لوضع معجم لمفردات اللّغة العربيّة (عاشور، دراسات في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، صفحة 60).

إنّ ما ألّف من معاجم في هذه الفترة بدءاً من معجم الخليل وغيره أخذ طريقه إلى حلقات العلم في المساجد فكانت مستنداً علميًّا لطلبة العلم ومرجعاً لهم يستندون عليها ليتعرّفوا على الألفاظ العربيّة، خاصّة أنّ تلك الفترة قد فشلت فيها اللّحن بسبب دخول الكثير من الأعاجم للإسلام واختلاطهم بالعرب وتصاهرهم معهم.

أمّا علم الشّعر فقد كان متداولاً في حلق المساجد وما دلّنا على ذلك أنّ أعرابيًّا "دخل مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة علم يتذاكرون الأشعار والأخبار وهو يستطيب كلامهم ثمّ أخذوا في العروض فلما سمع المفاعيل والفعول ورد عليه ما لم يعرفه فظنّ أنّهم يأترون به فقام مسرعاً وخرج ثمّ قال:

قد كان أخذهم في الشّعر يعجبني حتّى تعاطوا كلام الزّنج والّوم

أ سمعت كلاماً لست أعرفه كأذّه زجل الغربان والبوم

وليت منفلتا والله يعصمني

من التقحم في تلك الجرائم

(الأصفهاني، الأغاني، ج 6، صفحة 37) وكان الشعراء يجلسون بالليل في مجلس الصّافة ينشدون ويتحلّثون (الأصفهاني، الأغاني، ج 6، صفحة 173).

إضافة إلى هذه العلوم الرئيسيّة التي أسلفنا الكلام عنها ظهرت حلق علم الكلام حيث ذكر أنّ أبا المعتمد معمر السّلمي (215هـ/830م) قد انتقل من البصرة إلى بغداد وعقد لنفسه حلقة علم الكلام (الأصفهاني، الأغاني، ج 6، صفحة 413)، كما ظهر الوعظ والإرشاد في بعض الحلق؛ يعظ فيها الوعاظ النّاس ويرشدونهم إلى الهدى.

أما في مصر فقد بني فيها مسجد عمرو بن العاص وكان ذلك سنة: (21 هـ) وهو أول مسجد بغرض إقامة الصّلاة وتعليم المسلمين الجدد مبادئ العلم، وتذكر بعض الروايات أنّ أول من دس فيه عبد الله بن عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطّاب (محمّد حسين، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي، العين، 2001م، صفحة 138) ثمّ توالى مجيء الصّحابة والتّابعين حيث استقرّ للتّدريس به سعد بن مسعود التّجيبى وهو من أفراد البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز لنشر العلم في مصر وبلاد المغرب.(الرياضي، المؤسّسات التعليميّة في العصر العبّاسي)132هـ-232هـ/749م-846م، صفحة 82).

أما مدرسة القيروان في بلاد المغرب فكانت تنافس مدرسة بغداد، فقد اعتمدت الفقه المالكي، ويدرس في حلقات المسجد كما هو الحاصل في المشرق، إذ رحل بعض علماء المشرق إلى المغرب قصد التّدريس، وعلى العكس من ذلك فقد رحل بعض الطلبة من المغرب لتحصيل العلم في المشرق والاستزادة منه، فذاع صيتهم هناك ومنهم عبد الله محمّد بن سعيد الذي أخذ عنه بعض علماء المشرق، لذلك توحّدت الأنظمة التعليميّة بحكم هذه الصّلات الثّقافيّة وعرفت حلقات المسجد في بلاد المغرب مثلما عرفت في المشرق. (الرياضي، المؤسّسات التعليميّة في العصر العبّاسي)132هـ-232هـ/749م-846م، صفحة 83).

قويت العلاقات الثّقافيّة بين بلاد المغرب ومدن الحجاز ممّا ساهم في نقل الأنظمة من هذه الأخيرة إلى بلاد المغرب؛ فقد سافر بعض علماء إفريقيا إلى المدينة النبويّة وتلمذوا على يد مالك بن أنس منهم: أسد بن الفرات، وعلي بن زياد، والبهلول بن راشد وهم الذين نقلوا المذهب المالكي إلى إفريقيا (اللبّاغ عبد الرحمن الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل قيروان، ج2، صفحة 155)، ولاشكّ أنّ هؤلاء العلماء

هم الذين قلّدوا طرق التدريس التي كانت في المدينة النبويّة وتصدّوا للتدريس في القيروان والتي تعتمد على نظام الحلقات في المساجد، تأثر أهل القيروان بهذا المذهب ممّا جعل بعض علمائه يرحلون إلى مصر لينهلوا من علماء أهلها ومن أولئك: الإمام سحنون الذي رحل سنة (188هـ) وسمع من ابن القاسم وابن وهب وابن عبد الحكم وأشهب وغيرهم (اللباغ عبد الرحمن الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج2، صفحة 52).

كان لمسجد القيروان التّوالف عمّال في تعليم الطلبة ونقل العلوم عن طريقه ممّا جعل الخلفاء يهتمّون به فقد تمّ توسيعه أربع مرّات؛ كانت الأولى في عهد حسان بن النّعمان بين سنتي (78هـ إلى 83هـ) والثّانية في عهد بشر بن صفوان والي الشّام ابن عبد الملك على إفريقية سنة (106هـ)، والثّالثة في عهد يزيد بن حاتم سنة (157هـ) بينما الرّابعة في عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذي هدم المسجد وأعاد بناءه من جديد سنة (221هـ) كما أضاف إليه مقصورة للنساء (إبراهيم بن القاسم الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ت: عبد الله الزّيدان، عز الدين موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، صفحة 126)، ففي عهد عمر بن عبد العزيز وفي سنة (99هـ) أرسلت بعثة علميّة إلى القيروان واستقرّت به برئاسة إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر بما يدلّ على مكانة القيروان في نشر العلم ببلاد المغرب (الرباضي، المؤسسات التعليميّة في العصر العبّاسي (132هـ-232هـ/749م-846م)، صفحة 84).

ومن المساجد أيضا التي اشتهرت بحلقاتها العلميّة في بلاد المغرب مسجد الزيتونة في تونس، وقد تمّ بناءه سنة (114هـ) إذ ساهم إلى جانب القيروان في نشر العلم في ربوع المغرب، وقد أنشئت بجواره أسواقا - تتعلّق بمهمّة التّعليم وهي سوق الكتّابين "الوراقين" وسوق السّفاريين "المجلّدين" - فوجود هذه الأسواق يؤكّد المكانة التّعليميّة لهذا المسجد (محمد دياب، مقدّمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلاميّة، صفحة 109).

إن ما ذكر عن بلاد المغرب ينطبق عن الأندلس من حيث الحركة العلميّة؛ فقد بنيت مساجد وانتشر في أرضها فقد وصل عددها مثالا في قرطبة وحدها في عهد عبد الرّحمن النّاسخ الأموي 490 مسجدا، أضف إلى ذلك ألّواتب التي خصّصها الحكام لشيوخ الحلق العلميّة ليتفرّغوا للتّعليم فقط والاستزادة من العلم، ممّا جعل للطلّاب فسحة كبيرة ينهلون من علم مشايخهم دون أيّ عناء أو دفع للأجور لأنّ

أساتذتهم يتقاضون راتباً معلوماً من الحكام. (إبراهيم علي العكش، التربية والتعليم في الأندلس، صفحة 76).

هذه الخطوة الحضارية ساهمت مساهمة كبيرة في ازدهار الحركة العلمية وزادت من إقبال الطلبة على حلقات العلم في المساجد، إلا أن هذا اللعم لم يتخذ شكلاً دائماً بل كانت بشكل محدود زماناً ومكاناً، حيث ذكرت بعض الروايات أن بعض المشايخ كانوا يتقاضون أجورهم من الطلبة (إبراهيم علي العكش، التربية والتعليم في الأندلس، صفحة 122).

ب - الكتاتيب:

إن مصطلح الكتاتيب جمع لكلمة كتّاب؛ وهو موضع تعليم الصبيان (ابن منظور، لسان العرب، ج 6، صفحة 699) اشتق من التّكتيب وتعليم الكتابة، وعرفت في عهد النّبوّة حيث وجدت في المدينة لتعليم الكتابة (البلاذري، فتوح البلدان، دت، مكتبة النهضة، القاهرة، صفحة 611)، وتابع على هذا الأمويون إلى أن جاء العبّاسيون فتزايدت الكتاتيب بحكم فترة الازدهار العلمي وكان ذلك ما بين: (132هـ - 232هـ / 749م - 846م) حيث أصبحت بغداد مقصداً لطلّاب العلم إذ وجدوا التّشجيع المادي والمعنوي من قبل الخلفاء العبّاسيّين فكان شعيب بن جبير (هو أشعب بن جبير مولى عبد الله من أهل المدينة زكان طماعاً له نوادر توفي 154هـ/779م) (ابن عبد ربه، العقد الفريد، الطبعة العلمية، دت، ج 8، صفحة 135)، يجلس عند معلّم في مكتبه (ابن خلّكان، تاريخ بغداد، ج 1، صفحة 473)، وكذلك أبو نّواس (ت 203هـ/816م) تردّد في صغره على الكتّاب في البصرة (المعتز، طبقات الشعراء، صفحة 194)، وكان النّضر بن شميل (ولد بمرو ونشأ بالبصرة، كان لغويّاً وشاعراً وعارفاً بأيّام العرب، توفي: 203هـ/816م) (ابن خلّكان أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، بيروت، دار صادر، 1969م، ج 5، صفحة 397) يقول: "كنا ثلاثة في كتاب واحد أنا وأبو زيد الأنصاري وأبو محمّد اليزيدي (اليزيدي، طبقات النّحويّ بين اللّغويين، دار المعارف، القاهرة، دت، صفحة 62)، وقد رثى سعيد بن وهب الكاتب (208هـ/823م) ابنه الذي توفي وله عشر سنين بأبيات فقال:

وإذا ما رأيت كتّابه
لم أر فيه ربحانة الكتّاب

(الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، ج 7، صفحة 83)

إن إنشاء الكتاتيب لم يكن على عاتق العامّة فحسب؛ بل ساهم الخلفاء العبّاسيون في إنشاء كتاتيب لفئات خاصّة للأيتام حيث أنشأها يحيى بن خالد البرمكي (ت 190هـ/806م) بأمر من الخليفة هارون

(ت170هـ-193هـ/789م-809م) (الجاحظ أبو عمرو بحر، البيان والتبيين، ج2، صفحة 45)، ولم تكن تقتصر على المدن فحسب، بل تعلّت إلى القرى حيث قال الجاحظ (ت255هـ/868م): "دخلت يوما قرية ووجدت فيها معلّم كتّاب" (الجاحظ أبو عمرو بحر، البيان والتبيين، ج2، صفحة 83).

إنّ هذه الشّذرات توحى باهتمام الخلفاء العباسيّين وغيرهم بالعلم والتّعليم كما وكيفا فقد شجّعوا العلماء طلبة العلم وقربوهم إلى القصور، ممّا شكّل حافزا مهمّا للاتّجاه التّعليمي، وهذا هو الأمر الذي تنبّه إليه المسلمون عبر قرون طويلة، فالعلم ضوري لحياقتهم الدّينية والدّنيويّة، إذ أن ديننا يحثّ على ذلك فأول آية نزلت هي "اقرأ" تلك التي تحثّ على العلم والتّعلم، فيها تقوم الحضارات ودونها تتخلّف الأمم وتضمحلّ وتتقهقر فالحضارة تكون بالعلم، والعلم يحتاج إلى حرص وبذل وتضحية وتشجيع.

أما عن مكان وجود الكتّاب فقد كانت ملتصقة بالمساجد ولم تكن داخلها فقد كره العلماء المسلمون أن يكون تعليم الصّبيان فيها لأنّهم لا يتحفّظون من الدّجاسة على رأي الإمام مالك (ابن سحنون، آداب المتعلّمين، صفحة 87)، وخوفا أيضا من تشويشهم على المصلّين، مع حرص المعلّمين على تعليم الصّبيان الصّلاة وتعويدهم عليها، وهذا ما رواه الشّافعي (ت204هـ/819م) عن تعليمه في الكتّاب حيث قال: "كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني إلى الكتّاب فلما ختمت القرآن دخلت المسجد" (الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج9، صفحة 73)، وكان بعضها بعيدا عن المساجد؛ فقد كان أبو محمّد الزيّدي (ت202هـ/817م) يدرّس الصّبيان بجداء دار أبي عمرو بن العلاء (الزيّدي، طبقات النّحويّين اللّغويين، دار المعارف، القاهرة، دت، صفحة 161)، ويعقوب بن السّكيت (ت242هـ/856م) كان يؤدّب مع ابنه في بغداد صبيان العاّمة (ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، صفحة 644).

كانت الكتاتيب من الدّاحية العمرانية مبان بسيطة، أثاثها بسيط تفرش بالحصر التي يجلس عليها الصّبيان متربّعين حول المعلّم، وكان المعلّم يستعين في تعليمه للصّبيان بصبي بارز؛ فقد سئل مالك بن أنس (ت179هـ/795م) عن المعلّم يجعل للصّبيان عريفا قال: "إن كان مثله في نفاذه". (ابن سحنون، آداب المتعلّمين، صفحة 91)، إلّا أنّ ابن سحنون اشترط في العريف ختم القرآن حتّى يعين شيخه في تعليم الصّبية (ابن سحنون، آداب المتعلّمين، صفحة 80)، وهذا ما يؤكّده الإمام الشّافعي في قصّة تعليمه

حيث قال: "كنت يتيما في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام" (الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج9، صفحة 73).

أما عن المادة العلمية التي كان يتلقاها الصبيان في هذه المرحلة فقد كان القرآن الكريم هو المحور الرئيسي في التعليم، وهذا ما ذكره ابن خلدون فقال: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القول من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل من الملكات" (ابن خلدون، المقلمة، صفحة 505).

إن ما يمكن قوله عن تحفيظ القرآن للصبي لم يكن بمعزل عن تعليمهم مبادئ الكتابة والقراءة لأن حفظ القرآن لا يتأتى إلا بتعلمهما، ولم يكن تعليم الكتابة ومبادئ القراءة أيضا خارج الكتابات، بل كان بداخلها. إلا أن المحور الرئيسي كما أسلفنا؛ كان يدور على حفظ القرآن، وهذا ما يؤكد الإمام الشافعي حيث قال: "رأيت سفيان بن عيينة قائما على باب كتاب فقلت: ماذا تعمل؟ قال أحب أن أسمع كلام ربي من في هذا الغلام" (السبكي تاج الدين، طبقات الشافعية، دار أحياء الكتب، القاهرة، دت، ج2، صفحة 83)، ويروى أيضا عن أشعب الطامع (ت154هـ/770م) أنه كان يجلس عند معلم في مكتبه وكان هذا المعلم يقرأ الصبيان القرآن (ابن خلكان، تاريخ بغداد، ج1، صفحة 473) وكان الخليل بن عمر يؤدب الصبيان ويلقنهم القرآن (الأصفهاني، الأغاني، ج6، صفحة 200).

إن طريقة تعليم القرآن في الكتابات كانت بالملقين؛ وفي هذا المقام قال الإمام الشافعي: "كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقي الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم فيل إلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت حفظت جميع ما أملي" (البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، مناقب الشافعي، ج1، صفحة 94).

إن العنصر الرئيسي والمحتوى الأول الذي يعمل عليه في الدراسة في الكتابات هو حفظ كتاب الله عز وجل وهذا ما دللت عليه الشواهد، أصف إلى ذلك مواد أخرى تتمثل في بعض العلوم منها: الشعر؛ الذي كان بمثابة العنصر الرئيس في تعليم الصبي العربي. قال التّوخي متحلثا عن رجل يسمى أبو البيان: "رأيت يوما عند معلّمي في مكتبي وقد حضر وقتا كان فيه المعلّم يأخذ علينا الشعر، وكان من عادته أن يقيم الصبيان صفا ويطلبهم بإنشاد القصيدة" (التّوخي، نشوان المحاضرة وأخبار المذاكرة، دار صادر، لبنان، ط2، 1995م، ج3، صفحة 100). ويروى عن الخليل المعلم أنه كان يعلم الصبيان القرآن والخط، ويعلم

الجواري الشعر على حسب مستواهم وسنّهم، كما كانوا يعلّمون الذّحو البسيط، وكان ذلك لزاماً عليهم لمعرفة إعراب القرآن الكريم هذا ما يؤكّده ابن سحنون (256هـ/869م): "وينبغي له أن يعلّمهم إعراب القرآن، وذلك لازم له" (ابن سحنون، آداب المتعلّمين ، صفحة 82)، كذلك نصح الجاحظ (256هـ/868م) في رسائلأحد المتعلّمين بقوله: "أما الذّحو فلا تشغل قلبه منه إلّا بقدر ما يؤدّيه إلى السّلامة من فاحش اللّحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه وشعر إن أنشدته وشيء إن وصفه" (الجاحظ، الرّسائل، تحقيق: عبد السّلام هارون. دار الجليل، لبنان، 1991م، ج3، صفحة 38)، أضف إلى ما سبق حفظ الحديث؛ فقد كانوا يحفظون بعضه فقد ذكر الخطيب البغدادي من أنّ عبد الله بن محمّد البخاري قد ألهم حفظ الحديث وهو في لكتّاب لم يتجاوز سنّه العشر سنوات. (ابن خلكان، تاريخ بغداد، ج1، صفحة 6) وينطبق ما ذكرناه عن الذّحو والحديث إلى حدّ كبير على الحساب والأيلم. (الجاحظ، الرّسائل، صفحة 35)، إذ تعلّم الصّبيان مبادئ بسيطة من هذه العلوم استعداداً للحلقات العلميّة بعد ختم القرآن، وقد شمل التعليم في الكتاتيب أيضاً الجانب السلوكي حيث كان المتعلّمون يهتمّون بتعليم طلّابهم الصّلاة على اعتبار أنّ سنّهم مناسب لمقام الصّلاة بها، وتعويدهم على اللّعاء لله والابتغال إليه. (ابن سحنون، آداب المتعلّمين ، صفحة 86) ، ليتعوّدوا الفرائض والسّنن وهذا يتناسب مع حفظ القرآن؛ فالحفظ جانب علمي والآخر تطبيقي.

إنّ ما ذكرناه آنفا لا يشمل كلّ البلاد الإسلاميّة حيث ذكر ابن خلدون أنّ أهل المغرب "مذهبهم في الولدان الاختصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرّسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ولا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب" (ابن خلدون، المقلّمة ، صفحة 538)، والأمر يختلف مع أهل الأندلس حيث كانوا لا يقتصرون على القرآن بل أضافوا إليه الشعر والذّحو وإجادة الخط (ابن خلدون، المقلّمة ، صفحة 538) لهذا الاختلاف يبدو طبيعياً نظراً لاتّساع رقعة الدّولة الإسلاميّة إلّا أنّ الأمر المتّفق عليه هو القرآن الكريم إذ يمثّل المنهج الأساسي في الكتاتيب.

مما سبق؛ يمكننا القول إنّ تعلّم القرآن الكريم في الكتاتيب كان أمراً ضرورياً أضف إليه مبادئ الكتابة والقراءة وبعض العلوم الأخرى كقواعد الذّحو البسيطة التي لها علاقة بحفظ القرآن الكريم.

والذي ينبغي أن نلفت إليه الذّهني؛ طبيعة العلاقة بين المتعلّم والمتعلّم في الكتّاب وتبرز أهميّة هذه النّقطة من أنّ هذه العلاقة تمثّل أحد ومثّل نجاح العمليّة التّعليميّة فيجب أن تسودها الرّحمة والثّفقه من قبل المتعلّم نظراً لصغر سنّ الصّبيان من جهة لتحبيب الطّلب والحفظ إليهم من جهة، وخدمة للعمليّة التّعليميّة

وضمن استيعاب الطالب للمادة العلمية من جهة أخرى، كما يجب عليهم عدم تكليف التلاميذ مالا يقدرون عليه ولا يطبقونه من الأعمال؛ مثل استخدام المعلم الصبيان في مصلحته الخاصة، "إذ لا يجوز له أن يرسل الصبيان في حوائجه" (ابن سحنون، آداب المتعلمين ، صفحة 85).

تجدر الإشارة إلى أن إظهار المعلم للرحمة على طلابه يخفف جو التوتر نتيجة للقيود الدراسية، ونظرا لبعده عن البيت وحنان والديه فالمعلم هو من يعوض دور الوالدين فيظهر الشفقة والرحمة والعدل بين الطلبة.

ومن مظاهر العدل أن لا يولي أحدا من الصبيان الضرب ولا يجعل لهم عريفا منهم إلا أن يكون الصبي الذي ختم القرآن (ابن سحنون، آداب المتعلمين ، صفحة 80) فالمفاضلة بينهم لا تخضع إلا للتفوق العلمي وهذا مدعاة للمنافسة.

ت - منازل العلماء

إن ما تطرقنا إليه سلفا من أن الكتاتيب والمساجد وما كان فيها من حلقات تعليمية ودعم من قبل الخلفاء لتؤكد لنا أنها مؤسسات رسمية تحكمية ، أما ما انتشر من بيوت تعليمية فتحتها العلماء لطلبتهم لنشر العلم والخير فهي مؤسسات خاصة بأهلها ومن فتحها، كانت قد استعملت كمؤسسات تعليمية لظروف معينة وخاصة وربما في أوقات الحاجة فقد يتيح المعلم لبعض طلبته الموهوبين الذين يتوسم فيهم الخير، بالتدريس عليه في منزله ليستزيدوا من العلم والمعرفة، فكان ابن المبارك النحوي (ت194هـ/810م) إذا حضر الطلبة إلى منزله "رأوا منزلا كمنازل الملوك ينفح منه الطيب ويوسع لهم في المأكول والورق والأقلام والمداد ويريههم بشرا وسرورا" (عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتعريف المسالك، ت: أحمد بكير، ج1، صفحة 120)، كذلك كان منزل مالك مبسوطا بأنواع المفارش لمن يأتيه من الطلاب (عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتعريف المسالك، ت: أحمد بكير، ج1، صفحة 313).

كان محمد بن الحسن الشيباني (ت189هـ/805م) "إذا حلت عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع" (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن المحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج10، صفحة 330)، كما كانت المناظرات تعقد فيها بين العلماء فقد ناظر أبو يوسف (ت182هـ/789م) زفر بن الهذيل العلاف (ت158هـ/775م) عند أبي حنيفة في الفقه فأطالا، فقال أبو حنيفة لزفر: "لا تطمع في رئاسة بلد فيها هذا" (الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، صفحة 299).

ولم تقتصر مجالس العلم على المجالس الدينية فحسب؛ بل تجاوزتها إلى علوم اللغة والأدب فقد اجتمع أبو نّواس (198هـ/814م) ومسلم بن الوليد (ت208هـ/824م) وجماعة من الشعراء في مجلس أحدهم فقال لهم أبو نّواس: "مجلسنا قد اشتهر باجتماعنا فيه ولهذا اليوم ما بعده فليأت كل امرئ منكم بأحسن ما قال فلينشده" (المعتمر، طبقات الشعراء، صفحة 207).

إنّ منازل العلماء لم تكن مقصدا لطلاب العلم فقط؛ بل قصدها الخلفاء لطلب العلم حيث أرسل هارون الرشيد إلى الإمام مالك يطلب منه يأتيه ليحدثه فقال مالك: "إنّ العلم يؤتى" فذهب الرشيد إلى منزل مالك وجلس بين يديه فحدثه (الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، صفحة 291).

هذه بعض الأدلة على أنّ المنازل كانت مقصدا لطلبة العلم والعلماء فيما بينهم بل تعدى ذلك حتّى إلى الخلفاء، وهذا لتعميم العلم ونشره قدر الإمكان، وتشجيع طلبة العلم لاستقبالهم في بيوت العلماء وإكرامهم.

ث - حوانيت الوراقين:

لقد شغف العلماء وطلبة العلم بالكتب في العصر العباسي إلى حدّ كبير نتيجة نشاط حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء لها فكان الخليفة المأمون يعطي لمن يترجم كتابا وزنه ذهباً، أما عن العامل الثّاني الذي شجّع في الحصول على الكتاب هو صناعة الورق الذي تعلّمه المسلمون من الصينيّين، فقد طوّروه وجعلوا له حوانيت خاصّة للوراقين، وقد عرّف ابن خلدون دور الوراقين بقوله: "وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخت والتّصحیح والتّجليد وسائر الأمور الكتبيّة" (ابن خلدون، المقلمة، صفحة 382).

ولم تكن حوانيت الوراقين مقتصرة على مهمّة بيع الكتب بل كانت مؤسسات تعليميّة يلتقي فيها العلماء والشّعراء وطلّاب العلم وتُعقد فيها المناظرات، فقد كان لعبد الله ابن محمّد الأزدي دكان ببغداد "يورق فيه ويجمع إليه عامّة أهل الأدب ويحصل فيه بينهم من المحاضرة والمذاكرة مالا يحصل في غيره من أندية الأدب" (القفطي، إنباء الرواة عن أنباء النّحاة، ت: محمد أبو الفضل، ج3، صفحة 134).

كان الشعراء كذلك يعقدون مجالسهم في حوانيت الوراقين حيث ذكر ابن أبي شقيقه الوراق أنّ الشعراء كانوا يجتمعون في دكان والده "وأنّ أبا العتاهية حضرهم يوما فتناول دفترا ووقع على ظهره شعرا" (المعتمر، طبقات الشعراء، صفحة 207).

كما كانت هذه الحوانيت ملكا للمفاضلة بين الكتب والمذاهب اللغوية حيث قال أبو بكر بن دريد البصري (ت224هـ/839 م) "رأيت رجلا من الوراقين بالبصرة يفضل كتاب المنطق ليعقوب بن السكيت، ويقدم الكوفيين" (ابن النديم، الفهرست، صفحة 118)، وكان الجاحظ يكثر دكاكين الوراقين ويبين فيها للنظر (الجاحظ، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ج1، صفحة 5).

مما ساعد على نجاح الدور التعليمي لهذه الحوانيت أن كثيرا منهم كانوا من العلماء فكانت لهم الفرصة أن يطلعوا على كل ما هو جديد في مجال التأليف في مختلف العلوم وليس لطلب الرزق فقط، بل كان من النساخين علماء مثل محمد بن الحسن ابن دينار العالم باللغة والشعر ومحمود بن الحسن الوراق (الرياضي، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي (132هـ-232هـ/749م-846م)، صفحة 91).

إن مهمة هؤلاء الوراقين ليست تجارية فحسب، بل كانت مهنتهم أيضا نسخ الكتب وهي مهمة كبيرة ساهمت في انتشار العلم في وقت لم توجد فيه المطابع التي تطبع الكتب "وقد راجت هذه المهمة في العصر العباسي الأول راجا عظيما لتوسع التأليف والترجمة والكتابة" (محمود عباس حمودة، تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، دت، صفحة 34) مما جعل لهم الخليفة سوقا خاصة في مدينة بغداد.

ج- قصور الخلفاء:

إن النهضة العلمية في العصر العباسي الأول (132هـ-232هـ/749م-849م) شهدت مظاهرا تنبئ باهتمام الخلفاء بالجانب العلمي ألا وهي: فتح الخلفاء قصورهم للعلماء واجتماعهم فيها، وتناظرهم في مختلف المسائل العلمية، وتأديب أبناء الخلفاء وتعليمهم شيئا من الأدب والشعر وغير ذلك.

ثانيا: تأديب أولاد الخلفاء

اختلفت مظاهر التعليم في القصور عن غيرها، وأول هذه المظاهر الاختلاف في عدد الطلبة فكان العدد محدودا، فالمؤدب مكلف بتعليم أبناء الخليفة فقط، ولقب أيضا بالمؤدب؛ لأنه يهيئ خليفة المستقبل، فيركز على الجانب السلوكي إضافة إلى الجانب المعرفي، فقد ضم أبو جعفر المنصور (136هـ/158هـ، 754م/776م) شرقي ابن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه مكارم الأخلاق (المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، صفحة 187).

إنَّ المنهج التَّعليمي الذي اتَّخذه العلماء لتأديب أبناء الخلفاء قد شارك فيه الخلفاء أنفسهم، فقد أوصى أبو جعفر المنصور مؤدِّب ولده المهدي بأن يعلمه أيام العرب، ورواية الأخبار، ورواية الأشعار (المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، صفحة 191) وهذه الوصايا كانت للصغار، ودليل ذلك قوله أقرئه القرآن.

لم يقتصر منهج تأديب أبناء الأمراء على القرآن الكريم بل تضمَّن الحديث والفقه حيث قصد الأئمة والمأمون عبد الله بن إدريس الكوفي (ت192هـ/808م) فأسمعهما مائة حديث فقال المأمون: "يا عم إن أردت أعدتها من حفظك، فأذن له فأعادها من حفظه كما سمعها" (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن المحم وآخرون، دار الكتب العلميَّة، بيروت، دت، ج10، صفحة 217)، بل وصل الحد بالخلفاء إلى امتحان أبنائهم في مسائل علميَّة مثل النِّحو وغيره، وهذا حرصا منهم على التَّحقُّق من مستواهم العلمي فهم عمدة المستقبل في الحكم والسياسة.

1- المناظرات العلميَّة:

إنَّ قصور الخلفاء العبَّاسيين لم تخل من حلقات العلم، فقد شارك العلماء فيها لاهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء وتشجيعهم لذلك، فالمناظرات العلميَّة لم تكن عابثة بل خصَّت للعلماء البارزين والخلفاء فقط، ممَّا يشجّع العلماء على الاستزادة من البحث العلمي كي يستطيع كلَّ واحد منهم أن يبرز قدرته في أخذ المسائل العلميَّة وردَّ الشبهات وإبراز مكنته المعرفيَّة أمام الخلفاء ممَّا يجعل هذا الأخير مشجعا للعلم والعلماء.

وأدب هؤلاء العلماء في مثل هذه المجالس كان واضحا من خلال سمتهم في خفض الصَّوت أمام بعضهم البعض، كما أنَّ هيأتهم في لباسهم تدلُّ على مكانتهم العلميَّة، وقد ذكر هذه الآداب أحمد شلبي نقلا عن مخطوط (رسوم دار الخلافة للصَّابي) وفيها قوله: "فالدَّاخل إلى حضرة الخليفة أو إلى مجلس سمره يجب أن يكون نظيفا في بَزته وهيئته، وقورا في خطوه ومشبهه، متبَخِّرا بالبخور الذي تفوح روائحه، وأن يتجنَّب منه ما يعلم أنَّ السُّلطان يكرهه" (أحمد شلبي، التَّربية الإسلاميَّة، مكتبة النهضة المصريَّة، القاهرة، 1982م، صفحة 73) وغيرها من التَّقاليد التي تليق بمجلس الخليفة.

تنوّعت العلوم في مجالس الخلفاء في ذلك العصر، فهناك مجالس خاصَّة بالعلوم الدِّينيَّة إذ قَرِب إلى بلاطه علماء الفقه والحديث (السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ت: محمَّد محي الدِّين، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1989م،، صفحة 67)، وكان الهادي إذا أعزل عليه أمر أحضر الفقهاء (الخطيب

البغدادى، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربى، بيروت، دت، ج3، صفحة 198) ، أما هارون الرشيد فقد عرف بتقريب الفقهاء والاستماع إلى مواعظهم، ومن المناظرات التي جرت بمجلس الرشيد تلك المناظرة التي جرت بين الإمام مالك وأبو يوسف (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن المحم وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت، ج10، صفحة 213).

ولقد عرفت المجالس العلميّة عند الخلفاء مناظرات في العلل والنحو لعلّ من أشهرها تلك المناظرة التي جرت بين الكسائي وسيبويه "حين زعم الكسائي أنّ العرب تقول: كنت أظنّ أنّ الزنبور أشدّ لسعا من النحلة فإذا هو إيلها، فقال سيبويه: بل الصّحيح فإذا هو هي" (الحموي، معجم الأدباء، ج5، صفحة 97).

من خلال ما أوردنا في هذا المبحث نقول إنّ القصور كانت مؤسّسة تعليميّة لتأديب أبناء الخلفاء وإقامة المناظرات العلميّة ولا تكون هذه المجالس إلا لخاصّة العلماء.

ح- المكتبات:

تنافس الطلّاب في اقتناء الكتب وقراءتها فكان لهم الشّغف في ذلك كلّ على حسب قدرته، ولعلّ من أسباب لشار هذه الظّاهرة تشجيع الخلفاء العباسيّين لها، وتكريم العلماء المؤلّفين؛ فالمأمون كان ينام والكتب حوله ينظر فيها متى أتته من نومه، وقبل أن ينام (تقييد العلم، يوسف العش، 1974م، صفحة 124)، فصار اقتناء الكتب ظاهرة مألوفة في ذلك العصر حيث قال الأصمعي: "خرجت مع الرشيد فلقيت إسحاق الموصلي فقلت له: هل حملت شيئا من كتبك؟ فقال: حملت ما خفّ فقلت كم مقداره؟ فقال ثمانية عشر صندوقا، فعجبت وقلت: إذا كان هذا ما خفّ فكم يكون ما ثقل؟ فقال أضعاف ذلك" (القفطي، إنباء الرواة عن أنباء النّحاة، ت: محمد أبو الفضل، ج3، صفحة 252).

تعتبر المكتبات مركز إشعاع للباحثين والعلماء، قامت بدورها التّعليمي ولم تكن مجرّد خزائن للكتب بل كانت ملتقى العلماء وطلّاب العلم، وكان هذا منذ العصر الأوّل العبّاسيّ فأبو جعفر المنصور ترجمت له الكتب من اللّغات الأعجميّة إلى العربيّة (المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، صفحة 223).

لقد ظهرت منذ العصر الأوّل مكتبات عامّة وأخرى خاصّة منها: مكتبة إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت236هـ/850م) التي قال عنها أبو العبّاس تغلب: "رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب وكلّها بسماعه" (ابن خلكان، تاريخ بغداد، ج1، صفحة 204)، وكذلك مكتبة أبي عمرو ابن

العلاء(ت154هـ/771م) الذي "كانت دفاتره ملء البيت إلى السقف" (الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 1979م، ج6، صفحة 273).

هذا في المشرق أما عن المغرب فقد "أسس إبراهيم بن الأغلب بيت الحكمة في رقادة بتونس وأصبح ينافس بيت في بغداد وكان الأغلبة يرسلون من يأتيهم بالكتب من بغداد وانتشرت المكتبات في الأندلس لتقوم بنفس الدور الذي قامت به المكتبات في المشرق" (الرياضي، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي(132هـ-232هـ/749م-846م)، صفحة 104).

خ- بيت الحكمة:

إن الفترة الأولى من الخلافة العباسية كانت زاهرة من حيث تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء، ونتج عن ذلك تأسيس بيت الحكمة فرغوا فيه جهود المؤلفين والمترجمين وأغلب الباحثين أجمعوا على أن تأسيسه كان في عهد الرشيد (170هـ - 193هـ/786م-809م) ودليل ذلك ما ذكره ابن النديم عن إعلان الشعبي من أنه "كان رواية عارفا بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعا إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة" (ابن النديم، الفهرست، صفحة 104) كما ذكر ابن النديم في حديثه عن أبي سهل الفضل بن نوبخت إنه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد (ابن النديم، الفهرست، صفحة 382) وزادها اهتماما المأمون، أما الخليفة المنصور فقد كانت له مكتبة مهدت لبيت الحكمة فكان نواة له.

ويقدر ما كان بيت الحكمة مؤسسة رسمية رعاها الخلفاء واستقطبوا لها العلماء، بقدر ما كان ذلك تشجيعا معنوي لطلاب العلم. ذلك أن إشراف الخلفاء الشخصي كان حافزا كبيرا لإذكاء روح المنافسة بين العلماء لنيل شرف الخليفة. إن اتصاف بيت الحكمة بالصفة الرسمية يكون مدعاة لدخوله ضمن دائرة التعامل الدبلوماسي بين الدولة العباسية واللول المجاورة، فبسببه استقطبت كتب من خارج الخلافة كي تترجم ويستفاد منها، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يرتب له موظفين منهم: يوحنا بن ماسويه أمينا على الترجمة، كتّابا صادقين يكتبون بين يد (ابن أبي صبيعة أبو العباس، عين الأنباء في طبقات الأطباء، ت: نزار رضا، صفحة 246)، كما أرسل جماعة منهم لإحضار الكتب من بلاد الوم "فأخذوا ممّا وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل" (ابن أبي صبيعة أبو العباس، عين الأنباء في طبقات الأطباء، ت: نزار رضا، صفحة 174) وهكذا كان جهاز الترجمة منظما يزاوّل عمله بانتظام، وهؤلاء الأفراد مشهود لهم بالكفاءة؛ فكان "سهل بن هارون فصيحاً شاعراً حكيماً" (ابن النديم، الفهرست، 1989م، صفحة 409) لم يعيّنّه المأمون كاتباً على خزانة الحكمة إلا أن قابله وأعجب ببلاغته وعقله

(جمال الدين نباته، شرح العيون في رسالة ابن زيدون، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب، بيروت، 1986م، صفحة 342).

ومن الذين اشتهروا بالعلم وانقطعوا إلى خزانة الحكمة محمد بن موسى الخوارزمي الذي اشتهر في مجال الرياضيات (القفطي، إنباء الرواة عن أنباء النحاة، ت: محمد أبو الفضل، ج3، صفحة 112)، إذ أن وجود مثل هذه الشخصيات العلمية يؤكد الصبغة التعليمية لهذه المؤسسة بحكم وجود مناظرات علمية حول الكتب المترجمة وغيرها، مع تردد التلاميذ على بيت الحكمة، والمصادر تؤكد ذلك فقد ذكر ابن العربي أن يوحنا بن ماسويه "الذي ولّاه الرشيد ترجمة الكتب الطيبة القديمة، وله تصانيف قيمة، وكان يجتمع إليه تلاميذ كثيرون (ابن العربي أبو الفرج، تاريخ لمختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، دت، ، صفحة 236)".

د - أماكن التعليم في البادية:

إن ظاهرة إرسال الأطفال إلى البادية هي قديمة قدم العرب، فكان أهل مكة يرسلون أطفالهم في سن مبكر إليها، فقصة محمد صلى الله عليه وسلم وحليمة السعدية لأكثر دليل على ذلك، لكن ما ميز ظهور البادية كمؤسسة تعليمية في العصر العباسي هي الضرورة فبظهور اللحن في المدينة بسبب اختلاط العرب بالأعاجم بدأ العلماء وطلبة العلم يقصدون البادية لأجل تعلم الفصحى ومن مصادرها الأصلية لأنها بقيت بعيدة عن الاختلاط وظلت لغة أهلها سليمة فقد خرج الكسائي إلى البصرة "والتقى الخليل بن أحمد الفراهيدي وجلس في حلقاته وسأله: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز ونجد وتامة" (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن الملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج10، صفحة 209) فقد نحا الكسائي نحو الخليل فخرج للبادية ليتعلم اللغة من مصادرها الأصلية ثم رجع "وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه" (ابن كثير، البداية والنهاية، ت: أحمد بن الملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج10، صفحة 209).

لقد كان التعلم في البادية يتطلب صبرا لما فيه من مشاق الانتقال المستمر من مكان إلى آخر وقد تطول المدة قال النضر بن شميل (ت203هـ / 819م): "أقمت بالبادية أربعين سنة" (السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، بيروت، دت، ج2، ، صفحة 316)، ولم يكن التعليم في البادية يقتصر على العامة بل شارك فيه حتى أبناء الخلفاء من بني أمية كي يتفصحوا؛ فقد وجه

الرّشيد بالمعتصم إلى البادية (ابن عبد ربه، العقد الفريد، ت: أحمد أمين وآخرون، دار الأندلس، بيروت، 1988م، ج2، ، صفحة 273).

م يكن دور البادية كمؤسسة تعليمية مقتصرًا على من يفد عليها من طلاب العلم بل كان فصحاءها قد وفدوا إليها ليعلموا النّاس الفصحى، وكان في البصرة سوق اسمه المربد يلتقي فيه أهل الفصاحة من مختلف القبائل (الحموي، معجم الأدباء، ج5، 1993م، صفحة 98) وقد ذكر ابن النّديم مجموعة من الفصحاء الذين قصدوا المدينة منهم: أبو البداء الّياحي وثور يزيد الذي تعلّم منه الفصاحة عبد الله بن المقفع (ابن النّديم، الفهرست، 1989م، صفحة 66).

الخاتمة:

أهمّ النّتائج المتوصّلة إليها:

إنّ الخلافة العبّاسية في العصر الأوّل أقامت أسسها ودعائمها على نشر العلم وتشجيع العلماء وتأسيس المدارس التّعليمية ليعمّ الخير والمعرفة، ومن تلك المدارس:

1- الكتاتيب: كانت تهمّ بالصّغار يتعلّمون فيها مبادئ الكتابة والنّحو ويحفظون القرآن، هي بيوت صغيرة مجاورة للمسجد يتجمّع فيها الطّلبة الصّغار مع شيخهم؛

2- المساجد: اجتمع فيها المشايخ مع الطّلبة الكبار وخريجي الكتاتيب في حلق علم خاصّة وعمّامة؛ فأما الخاصّة فتكون محصورة في علوم معينة كالنّحو مثلاً أو علوم اللّغة، وأما العمّامة فتكون لعموم النّاس يكون فيها الوعظ والإرشاد والتّذكير بالآخرة وغيرها؛

3- منازل العلماء: فتح بعض العلماء منازلهم لخواصّ الطّلبة لأجل الاستزادة في العلم، وللعلماء بغية مدارس العلم والمناظرة؛

4- حوانيت الوراقين: أنشأ العبّاسيون هذه المحلّات في سوق لقب بسوق الوراقين يصنع فيه الورق ويكتب فيه من قبل الخطّاطين، تكتب فيه العلوم وما ألفه العلماء تشجيعاً للعلم ونشره بين النّاس، فكان العلماء يكترون هذه المحلّات لأجل مطالعة ما فيها من كتب خطت، فكانت بحقّ مؤسسة تعليمية؛

5- قصور الخلفاء: فتح الخلفاء قصورهم للعلماء لأجل المنافسة والمناظرات العلمية في شتى التخصصات هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت تستقطب العلماء لتأديب أبناء الخلفاء، فصارت مدرسة خاصة بأبناء الخلفاء؛

6- المكتبات: تأسس العباسيون مكتبات ليجمعوا فيها ما ألفه العلماء بغية التعلم ونشر العلم، أضف إلى ذلك بيت الحكمة فقد أوجده هارون الرشيد لأجل ترجمة الكتب المستقدمة من الخارج؛

7- أماكن التعليم في البادية: لم تكن البادية بمعزل عن التعليم فقد لعبت دوراً مهماً في هذا الجانب؛ كان يقصدها العلماء وطلبة العلم لتهلّلفصحى من القبائل العربية التي بقيت فيهم السليقة والسجية ولم يدخلها اللحن.

وخلاصة القول إنّ هذه المؤسسات لعبت دوراً مهماً في نشر نور العلم في أقطار الدنيا وبناء حضارة لا زال العالم الغربي يتحلى عنها ويكتشف منها وينهل من علومها ويؤسس عليها معارفه ويطوّرها، ومن أراد أن تكون له العزة فليقرأ تاريخه الإسلامي، وليقتف آثار سلفه. وبالله التوفيق.

المصادر والمراجع:

- (1) إبراهيم بن القاسم الرقيق. (1990م). تاريخ إفريقيا والمغرب، ت: عبد الله الزيدان، عز الدين موسى. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- (2) إبراهيم علي العكش. (1986م). التربية والتعليم في الأندلس. عمان: دار عمار.
- (3) ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم. (1980م). عين الأنباء في طبقات الأطباء، ت: نزار رضا. بيروت: دار الكتب العلمية.
- (4) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي. (1992م). صفة الصفوة، ج2. بيروت: دار الفكر.
- (5) ابن العبري أبو الفرج محمد. (د.ت). تاريخ لمختصر اللؤلؤ. بيروت: دار المسيرة.
- (6) ابن المتوكل عبد الله بن المعتز. (1956م). طبقات الشعراء. القاهرة: دار المعارف.
- (7) ابن النديم محمد بن إسحاق. (1989م). الفهرست. بيروت: دار الكتاب العربي.
- (8) ابن خلدون. (د.ت). المقلمة. بيروت: دار الكتاب العربي.
- (9) ابن خلكان. (د.ت). تاريخ بغداد ج1. بيروت: دار الكتاب العربي.
- (10) ابن سحنون محمد بن أبي سعيد. (1969م). آداب المتعلمين، سحنون. الجزائر: الشركة الوطنية للطباعة والنشر.

- 11) ابن سعد أبو عبد الله محمد. (دت). الطبقات الكبرى، ج6. بيروت - لبنان: دار صادر.
- 12) ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد. (1988م). العقد الفريد، ت: أحمد أمين وآخرون، ج2. بيروت: دار الأندلس.
- 13) ابن عياض موسى. (دت). ترتيب المدارك وتعريف المسالك، ت: أحمد بكير، ج1. بيروت: دار الحياة.
- 14) ابن كثير. (دت). البداية والنهاية، ت: أحمد بن الملحم وآخرون، ج10. بيروت: دار الكتاب العلميّة.
- 15) ابن منظور الإفريقي. (1988م). لسان العرب. بيروت: دار الجليل.
- 16) أحمد شلبي. (1982) التربية الإسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- 17) الأصفهاني. (1985م). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج9. بيروت: دار الكتاب العربي.
- 18) الأصفهاني. (1992م). الأغاني، ج1. بيروت: دار الكتب العلميّة.
- 19) الأصفهاني أبو الفرج. (1992م). الأغاني، ج7. بيروت: دار الكتب العلمية.
- 20) البغدادي. (1974م). تقييد العلم، يوسف العش. دار إحياء السنّة.
- 21) البغدادي أبو بكر أحمد بن الخطيب. (دت). تاريخ بغداد، ج3. بيروت: دار الكتاب العربي.
- 22) البلاذري. (دت). فتوح البلدان. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- 23) البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين. (1971م). مناقب الشافعي ج1. القاهرة: دار التراث.
- 24) تّنوخي الحسن بن علي. (1995م ، ط2). نشوان المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج3. لبنان: دار صادر.
- 25) الجاحظ. (1991م). الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ج1. بيروت: دار إحياء التراث.
- 26) الجاحظ. (1991م). الرسائل، تحقيق: عبد السلام هارون. ج3. لبنان، بيروت: دار الجليل.
- 27) الجاحظ أبو عمرو بن بحر، ت: عبد السلام هارون. (دت). البيان والتبيين، ج2. بيروت: دار الجليل.
- 28) الجاحظ. (بلا تاريخ). الرسائل.
- 29) الحموي ياقوت. (1993م). معجم الأدباء، ج4. بيروت: دار الكتب العلميّة.
- 30) الحموي ياقوت بن عبد الله. (1993م). معجم الأدباء، ج5. بيروت: دار الكتب العلميّة.
- 31) الحنبلي أبو الفلاح بن العماد. (1979م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج1. بيروت: دار المسيرة.
- 32) الدباغ عبد الرحمن الأنصاري. (1901م). معالم الإيمان في معرفة أهل قيروان، ج2. تونس: تونس.
- 33) البيدي (محمد بن الحسن). (دت). طبقات النّحويّين اللّغويين. القاهرة: دار المعارف.
- 34) سبكي تاج الدين. (دت). طبقات الشّافعيّة ج2. القاهرة: دار أحياء الكتب.
- 35) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن. (1989م). تاريخ الخلفاء، ت: محمد محي الدين. بيروت: المكتبة

للمصريّة.

36) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن. (دت). بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، ج2. بيروت:

المكتبة المصريّة.

37) الطبري محمّد ابن جرير. (1967 م). تاريخ الرّسل والملوك، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار

المعارف.

38) القفطي جمال الدين علي يوسف. (1986م). إنباء الرواة عن أنباء النّحاة، ت: محمد أبو

الفضل، ج3، بيروت: دار الكتب الثّقافيّة.

39) المسعودي علي بن حسين. (دت). مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج2. بيروت: دار الأندلس.

40) جمال الدين نباته. (1986 م). شرح العيون في رسالة ابن زيدون، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم.

بيروت: دار الكتب .

41) حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشّريف. (1996م). العالم الإسلامي في العصر العباسي. القاهرة:

دار الفكر العربي.

42) معيد عبد الفتاح عاشور وآخرون. (1996) دراسات في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

القاهرة: دار المعرفة.

43) عبد الفتاح عاشور. (1996م). احلّات في الحضارة العربيّة الإسلاميّة. القاهرة: دار المعرفة.

44) علي محمّد هاشم. (1978) الأندية الأدبيّة في العصر العبّاسي. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

45) محمد حسين محاسنة. (2001م). أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين. العين: دار الكتاب

الجامعي.

46) 4) حمود عبّاس حمودة. (دت). تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط. القاهرة: دار غريب للطباعة

والنّشر.

47) مفتاح محمّد دياب. (1992). مقلمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلاميّة. طرابلس: الهيئة

القوميّة للبحث العلمي.

48) 48- مفتاح يونس الرّياصي. (2010). المؤسّسات التعليميّة في العصر العبّاسي (132هـ-

232هـ/749م-846م). مصراته، ليبيا.: جامعة 7 أكتوبر.

"المدرسة في المغرب الأدنى ودورها العلمي خلال العصر الوسيط "

**"The School in the Maghreb and its scientific role during
the medieval era"**

سنوسي بدر

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر -

Senouci Badra

senouci.badra20@gmail.com

الملخص:

إنّ نشأة المدرسة في المغرب الأدنى لم تكن وليدة الصدفة بل كانت نتاج مراحل تطورية ثلاث مثلتها مؤسستان تعليميتان سابقتان هما: المسجد والخان (الرباط). كما أنّ دخولها إلى بلاد المغرب الأدنى كان بتأثير مشرقى دعمه التقارب السياسي والجغرافي بين البلاط المملوكي في مصر والبلاط الحفصي في المغرب الأدنى. بادر السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول إلى إنشاء أول مدرسة عرفت بالشماعية كانت بمثابة الانطلاقة الأولى التي فتحت الباب أمام بناء وتشيد المدارس ليفوق عددها في الدولة الحفصية وحدها أزيد من 22 مدرسة.

الكلمات المفتاحية: المدرسة النظامية - المغرب الأدنى - مدارس رسمية - مدارس خاصة - المدرسة الشماعية - وظيفة السكن - المذهب المالكي.

Abstract:

The establishment of the school in the Maghreb was not a coincidence, but rather the product of three developmental stages represented by two previous educational institutions: the mosque and the khan (Rabat). Its entry into the countries of the Maghreb was under the influence of Mashreqi, and it supported the political and geographical convergence between the Mamluk court in Egypt and the Hafsid court in the Near Maghreb. Sultan Hafsy Abu Zakaria I initiated the establishment of the first school known as

Shama'iya, which was the first breakthrough that opened the door to building and constructing schools, so that the number in the Hafsid state alone exceeds more than 22 schools.

Keywords: the Nizamia school - the Near Morocco - public schools - private schools - the Shamami school - the housing function - the Maliki school.

مقدمة:

لما كان التعليم أساس الرسالات ومبدأ الحضارات ورمز التقدم الفكري والثقافي، ونتاج التوسع العمراني وفق رؤية ابن خلدون الذي يرى "أن العلوم من جملة الصنائع وإنما تكثر في الأمصار حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة". لذا فقد اهتم سلاطين وحكام وعلماء بلاد المغرب الإسلامي بالعلم والتعليم باعتباره رهاناً حضارياً وأحد أهم قواعد الدعوة إلى الله وتلقين أساسيات الدين وحرصوا على إنشاء المدارس بصفتها مؤسسة طبيعية لاكتساب العلوم وتلقينها وإشاعتها. فقد أدى هؤلاء دوراً محفزاً ومشجعاً في النهضة الفكرية التي واكبها المغرب الأدنى حيث عرفت مدنه وحواضره العديد من المؤسسات التعليمية: كالمساجد والكتاتيب والزوايا والربط وصولاً إلى المدرسة التي مثلت إشعاعاً علمياً خلال العصر الوسيط. وعليه هل ساهمت المدرسة في المغرب الأدنى في تحقيق التقدم الحضاري؟ وما هي الظروف التي أحاطت بنشأتها؟ وما هو دافع السلطة الحفصية في إنشائها؟ وما هي أبرز مميزات؟ وما مدى إسهامها في إرساء أسس التعليم في المغرب الأدنى؟.

أولاً: مفهوم المدرسة

وردت عدة تعريفات للمدرسة لعل أبرزها ما جاء في كتاب الخطط للمقريزي حيث قال: بأن المدرسة مشتقة من الفعل "درس الكتاب" يدرسه درساً ودراسةً، أي كرهه للتمكن منه (المقريزي، 1998، صفحة 436)، أما المعاجم اللغوية فقد اتفقت على أن المدرسة لغة مشتقة من الفعل "درس" أي "درس الكتاب"، يدرسه درساً ودراسة بمعنى قرأه وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه، ودارستُ ودرستُ والمدّرتُ أو المدّراس هو الموضع الذي يدرس فيه، والدارسون هم الطلبة (البستاني، 1987، صفحة 276؛ الفيروزآبادي، 1998، صفحة 544، 545؛ الرازي، 1986، صفحة 84).

أما اصطلاحاً: فتطلق المدارس على تلك الأماكن التي أسست لنشر نوع خاص من المعرفة (جيدة، 2001، صفحة 85) ورغم أن المدارس يُقصد بها الأماكن التي يتم فيها التدريس، إلا أن وظيفتها لا تقتصر على التعليم فقط بل تتعداه إلى السكن وإقامة الصلوات (الباجي، 1987، صفحة 282)، أما من حيث المصطلح الوظيفي فهي مؤسسة لتدريس العلوم الإنسانية والعلوم الشرعية من آداب وفلسفة وعلم اللغة وغيرها، وقد تتعداه إلى تدريس العلوم الطبيعية والطب كما هو شأن مدراس المشرق ومصر و المغرب الأدنى (العرج، المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، 2001، صفحة 116).

ثانياً: ظروف نشأة المدارس بالمغرب الأدنى وتطورها

تعتبر المدارس في للإلام امتداداً للمساجد، حيث جاءت نتيجة مراحل مختلفة ابتداءً من الحلقة التعليمية في المساجد ثم أخذ التعليم يستقل عنها تدريجياً ليمتد مهمته الحضارية في مؤسسة مستقلة بذاتها. (بجاني، 2010، صفحة 56) فالمدرسة هي معهد الإسلام العلمي بلا منازع حيث كان ظهور المدرسة بهذا الشكل تطوراً طبيعياً لمؤسستين ظهرتتا قبلها وهما: المسجد بصفته مؤسسة للفقهاء والخان (في المشرق أما الرباط في المغرب): الذي كان يُقام بجواره لينزل فيه الطلاب الذين يدرسون الفقه في المسجد. (رزوي، 2016، صفحة 114؛ الباجي، 1987، صفحة 282)، فقد سبق وكانت المساجد والزوايا من أبرز مراكز التعليم الشرعي إلا أن ضرورة ملحة أدت إلى ظهور وإقامة المدارس وهي كثرة العلوم المتداولة في المسجد وتشعب مهامه من اجتماعية وسياسية.. (بوشقيف، 2011، صفحة 58). وكذا وجود علوم تحتاج إعمال الفكر والعقل كعلم الكلام والمنطق وربما تحتاج إلى أماكن مخصصة لإقامة التجارب والأبحاث كالعلوم العقلية من صيدلة وفلك وحساب... فيتخرج المدرسون من تدريسها في المساجد باعتبارها مقتصرة على التعليم الديني فاضطروا إلى إنشاء مؤسسات تعليمية مستقلة تؤدي هذه المهمة وتعتبر بمثابة جامعة أو كلية في القادم.

وعليه يذهب معظم الباحثين في مجال التاريخ أن أولى المرافق التعليمية الحقيقية التي جسدت المدرسة هي ما أسسه الوزير السلجوقي نظام الملك (1: نظام الملك: أبو علي الحسن قوام الدين الطوسي (ت 485هـ/ 1106م) من أشهر وزراء الدولة السلجوقية، وأمهر ساستها، حكم لمدة 34 سنة. بنى مجموعة من المدارس والخانات والمساجد في بغداد وغيرها. كان محباً للعلماء والأدباء والمتصوفة). (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصالحية، 2002، صفحة 143، 141) الذي بنى المدرسة النظامية ببغداد،

أو مجموعة مدارس تسمى كلها بالنظامية قرر فيها للفقهاء أجوراً ورواتب معلومة (بوشقيف، 2011، صفحة 58)، وعلى العكس من ذلك فإن المقريري يؤكد بأن المدارس بدأ إنشاءها سنة أربعمئة للهجرة ويعلل ذلك بأن المدرسة البيهقية بنيسابور كانت الأقدم إقامة وتشبيداً (المقريري، 1998، صفحة 436؛ رزبوي، 2016، صفحة 112)، ومهما يكن من أمر فإن الوزير نظام الملك قد ساهم في وضع اللبنة الأولى لإنشاء المدارس من قبل الدولة والقيام عليها والحرص على تسيير شؤونها وفق ما تراه الدولة مما يجعلها منفصلة عن المسجد، وهو الأمر الذي عمل على دخول التعليم مرحلة الاكتمال والنضج من خلال إقامة ما يعرف بالمدارس النظامية. وبعدها انتشرت المدارس في بلاد الشام ومصر ولما كان المغرب الأدنى أكثر قرباً واتصالاً بمصر لاسيما في عهد أبي زكرياء الحفصي (2: أبو زكرياء الحفصي: يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي ولد بمراكش سنة 599هـ/ بويغ سنة 625هـ بالقيروان.) (الشماخ، 1984، صفحة 54 وما بعدها) فقد دخل نظام بناء المدارس إلى بلاد المغرب الإسلامي بداية من القرن (7هـ/13م) فبدأ إنشاءها في المغرب الأدنى، ثم انتقل إلى المغربين الأقصى والأوسط (رحيم، 2018، صفحة 104). بمعظم تأثيراته سواء السياسية أو المذهبية أو التعليمية، فالمتبع لتاريخ بناء المدارس يدرك بأن الدافع السياسي المذهبي كان وراء إنشاء المدارس في المشرق (بغداد) ثم تأتي الغاية التعليمية والأمر نفسه في بلاد المغرب، إلا أن الباحث أحمد فكري استبعد هذه الفكرة لأنه يرى بأن المساجد والجوامع كانت دائمة كفيلة بتغليب المذهب الذي ترتضيه الدولة ومناهضة أي مذهب آخر مخالف للمذهب الذي أقرته. وهي الفكرة ذاتها التي يؤكد بها الباحث عبد العزيز لعرج بقوله: "إن هذا التوجه لا ينطبق على المغرب والأندلس فغلبة المذهب الواحد جعلها في منأى عن المفارقات الفكرية والمذهبية المثيرة للجدل، ماعدا تلك الأفكار المتعلقة بإصلاح المجتمع ومجابهة الانحرافات والتصدي لها" (فكري، 2008، صفحة 145؛ لعرج، المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، 2001، صفحة 118). وعليه فبناء المدارس في بلاد المغرب راجع إلى الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة، فمتى ما كانت الأوضاع متسمة بالرخاء والازدهار انعكس ذلك إيجاباً على بناء وتشبيد المدارس، أما إذا كانت الدولة تعاني من تردي الأوضاع السياسية والفتن والجوائح يكون من المتعذر إنشاء أي مرفق تعليمي من قبلها (الباجي، 1987، الصفحات 283-285). ويفهم من هذا الطرح أن بناء المدارس كان نتاج تضافر عدة أسباب منها الدينية والثقافية والتربوية والشخصية، فالمدرسة في مجملها تعتبر منظمة اجتماعية أنشئت في كل مجتمع نتيجة ما بذله أفرادها من جهود لتوجيه الأجيال وفق ما اختاره هؤلاء من قيم ومعارف وأحكام وطرق وأنظمة فهي إذن حصيلة جهود المجتمع

على امتداد قرون من الزمن قد تصل جذورها إلى البدايات الأولى للفتح الإسلامي لبلاد المغرب (جيدة، 2001، صفحة 86).

ويمكن اعتبار المدرسة حصيلة مراحل تطورية ثلاث: حيث كانت المرحلة الأولى تتم فيها العملية التعليمية داخل المسجد أو الجامع مع الإبقاء على إقامة الصلوات. أما المرحلة الثانية فمؤسسة تجمع بين المسجد والخان (الرباط) الذي يستخدم لسكنى الطلبة الغريباء عن المدينة. والمرحلة الثالثة هي المدرسة بأسسها ونظامها وهي تستجيب لوظيفة المسجد والخان اللذان يجتمعان فيها، فهي قائمة على وقف واحد يجد فيها الطلبة مأوى لهم، فالمدرسة اتخذت مهمتها الأساسية من كونها أعَدت لتضم بيوتاً لسكن طبقة متميزة من الفقهاء وطلبة العلم (لعرج، المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، 2001، صفحة 116؛ فكري، 2008، صفحة 149). على اعتبار أنها تعد بناية مستقلة عن أية بناية عامة أخرى وهذا المفهوم رسخته تقاليد نظام المدرسة الشرقية. فجاءت هندستها تضم بيتاً للصلاة والدراسة، وصحناً مكشوفاً واسعاً، وسكنى للطلبة تتألف من طابق أو طابقين بهم غرف أو حجرات صغيرة، والمدرسة مزودة بمرافق ضرورية كالمكتبة والحمام والمطعم.... فهي بذلك جمعت بين الوظائف الثلاث (الصلاة، السكن، التعليم) (رزويوي، 2016، صفحة 114).

ثالثاً: مميزات وخصائص مدارس المغرب الأدنى

اتسمت مدارس المغرب الأدنى بسمتين اثنتين الأولى سمة المدارس الرسمية: فالمدارس الرسمية أنشئت بأمر من الحكام والسلاطين أو من طرف أحد أفراد البيت الحاكم ومن بين هذه المدارس التي أخذت هذه الميزة نجد: المدرسة الشماعية والمدرسة المنتصرية والتوفيقية والعنقية... (BRUNSCHVIG, 1940, pp. 350- 351) فيما تعلق بالمغرب الأدنى فإن الوحدة المذهبية جعلت المعمار يركّز اهتمامه على تكييف المخططات مع الوظيفة (الجمع بين الإقامة والدرس) وهو ما تحوي عليه الرباطات فيكون المظهر المعماري مطابقاً إلى حدٍّ بعيدٍ لمظهر الربط (لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب - دراسة أثرية تحليلية، 2009، صفحة 107).

المدرسة الشماعية: أورد ابن الشماخ في مستهل حديثه عن أخبار أبي زكرياء الأول (647هـ/1249م) قائلاً: " وفي عام تسعة وعشرين وستمائة (629هـ/1230م) بنى جامع الموحدين، وبنى صومعته العجيبة وهو الذي بنى مصلى العيدين، ومدرسة الشماخين، وسوق العطارين..."، ندرك أن هذه المدرسة عاصرت فترة الاستقلال عن الموحدين، حيث قام البلوي (3: البلوي: أبو عبد الله محمد القاسم (ت 842هـ/

1438م) ودفن بزواوية ابن أبي زيد، كان مفتي القيروان وخطيبها، درس فيها وخرج عدة علماء منهم ابن مرزوق الحفيد. اشتهر البلوي بشرحه لرسالة ابن أبي زيد. (نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 1989، الصفحات 224 - 225) بزيارتها بعد رجوعه من الحج سنة (739هـ / 1338م) ونزل بها واجتمع بمدرسيها وبطلبتها (الشماع، 1984، صفحة 56). اتفقت الأبحاث على أنها سميت بهذا الاسم لقربها من سوق الشماعين، وكانت تعرف بأسماء المدارس تعظيماً لشأنها، وقد بناها أبو زكرياء الحفصي على ما يبدو لتكريس المذهب الموحد ونشره وتغليبه على المذهب المالكي وضمان استمراريته (مجان، 1999، الصفحات 158 - 159). ومهما يكن من أمر فإن هذه الفكرة لم تلق التأييد الكامل من طرف الباحثين فهناك من يرى بأن أبا زكرياء الحفصي بنى هذه المدرسة لقطع صلته بالموحدين في المغرب الأقصى وذلك من خلال تشجيعه على تدريس الفقه المالكي وهو التقليد نفسه الذي اتبعته مدارس المغرب فيما بعد. أما الباحث عبد العزيز لعرج فيرى " بأنه أقامها لمدِّ نفوذه على المجتمع وتقوية سلطته وتثبيت أركان دولته الناشئة المنفصلة عن الموحدين في مراكش (القابسي، 1981، صفحة 189؛ لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب - دراسة أثرية تحليلية، 2009، صفحة 89). ومن أبرز علماء هذه المدرسة: أبو علي عمر بن قدامح الهواري (734هـ / 1333م)، وأبو العباس أحمد بن محمد القلشاني (863هـ / 1458م). كانت جارية الدولة فيها عشرة دنانير للمدرس بها، وكان يومي الخميس والجمعة يومي راحة بها وكان أبو علي بن قدامح الهواري يضيف إليها يوم الاثنين، ومن سكن هذه المدرسة من الفقهاء: ابن عرفة (4: أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي التونسي (ت 803هـ / 1400م) تولى إمامة الجامع الأعظم، أخذ عن ابن الحبّاب والأبي ومحمد بن عبد السلام، له عدة تأليف في الفقه والمنطق والتفسير والفرائض والتوحيد. (1397م)، 1996، الصفحات 419 - 421)، البرزلي (5: أبو القاسم بن إسماعيل بن محمد (ت 841هـ / 1437م) من أهل القيروان تلقى علومه الأولى بها ثم ارتحل إلى تونس وجالس علماءها أمثال ابن عرفة الذي أخذ عنه مختصره الفقهي وتفسير القرآن الكريم، تولى التدريس بالمدرسة الشماعية، ثم انتقل إلى الزيتونة. (1036م)، 1989، الصفحات 368 - 370). أما من الناحية العمرانية فتميزت المدرسة الشماعية ببنائها وتصميمها الفريد من نوعه من الجانب الفني والزخرفي، إذ حظيت بتأثيرات أندلسية ومغربية ومصرية.. كما اقتبست في هندستها بعض التأثيرات المشرقية كوجود إيوانين (الباجي، 1987، صفحة 284؛ القابسي، 1981، صفحة 189)، أما من حيث المداخل فيةُ دخل إلى المدرسة الشماعية من الشارع إلى سقيفة تتقدم الباب الخارجي، ويفتح الباب الداخلي على منتصف الصحن عبر رواقه المحيط به ولكنه في اتجاه محوري مع مدخل بيت الصلاة ومحرا به

في الجهة المقابلة (لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب - دراسة أثرية تحليلية، 2009، صفحة 100).

أما السمة الثانية لمدارس المغرب الأدنى فهي سمة المدارس الخاصة، فلما كانت المدارس الرسمية أكبر أهمية كان يعين بها أشهر العلماء وتحبس عليها أوقافا هامة لم تكن تحسب على المدارس الخاصة مما أحدث فارقا علمياً وفنياً بينها وبين المدارس الخاصة، ورغم ذلك فقد وجد بالمغرب الأدنى عدد معتبر من المدارس الخاصة التي يرجع تأسيسها إلى العلماء والفقهاء والمتصوفة وقادة الجيش كما يرجع بعضها إلى الجالية الأندلسية نذكر منها: المدرسة العصفورية والمرجانية والمغربية والأندلسية.....

المدرسة العصفورية: ينسب ابن خوجة هذه المدرسة إلى الشيخ أبو علي بن موسى المعروف بابن عصفور الاشبيلي من أئمة النحو (ت 666هـ / 1297م)، تقع هذه المدرسة بسوق العطارين (خوجة، 1985، صفحة 289)، وسميت هذه المدرسة كذلك بالمدرسة الخلدونية لانتصاب معهد ابن خلدون بجانبها (6 نسبة إلى ابن خلدون: عبد الرحمن أبو زيد بن محمد (ت 808هـ / 1407م) وهو أحد نوابغ الفكر بالغرب الإسلامي، إذبرع في العديد من العلوم النقلية والعقلية كأصول الفقه والفلسفة وعلم العمران. وهو أيضا رجل سياسة ساهم في رسم الحياة السياسية بكل من تونس وبجاية وتلمسان وفاس، ارتحل إلى مصر وتقلد عددا من مناصب القضاء بها في الفترة الحديثة. ((ت 808هـ / 1406م)، 1979، صفحة 3 وما بعدها)، كما يُحتمل أن تكون هذه المدرسة من تأسيس الجالية الأندلسية الوافدة على تونس، وهناك إشارة إلى وجود مؤلفات ابن عصفور النحوية والصرفية فيها ووجود مصنفات الأدباء الأندلسيين ودواوينهم خاصة شعر حازم القرطاجني وابن الأنبار وأبو المطرف ابن عميرة وغيرهم (رحيم، 2018، صفحة 115).

رابعاً: مناهجها الدراسية

انفردت مدارس المغرب الأدنى عما سبقها من مؤسسات تعليمية بعدة نقاط إيجابية إذ يذكر العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في المقدمة أنّ مدة الدراسة كانت تحدد بخمس سنوات في مدارس المغرب الأدنى، أما عدد الطلبة فيبقى من اختصاص الدولة أو منشئها أو الواقف عليها، كما يتم اختيار المدرس في هذه المدارس حسب لوائح تحددها الدولة أو يضعها الواقف (خلدون ع..، 2001، صفحة 545؛ جيدة، 2001، صفحة 85)، وكان من بين الشروط في اختيار المدرسين أن يكونوا مختلفي الاختصاصات

يجمعون بين الفقه وعلوم الحديث وأصوله والعلوم اللغوية والعربية والطبية.... حيث كان القاضي هو من يقوم بإعطائهم الإذن في التدريس بعد مقابلته لهم (القابسي، 1981، صفحة 191).

أما عن المناهج الدراسية فلم تكن ثابتة وموحدة، ذلك أنّ كل مدرس وله منهج محدد في إلقاء دروسه، إلّا أنّنا نجد أنّ أبرز الطرق المنتهجة في التدريس في المغرب الأدنى ما ذكره ابن خلدون: طريقة الحفظ والنقل، وطريقة المحاور والمناظرة". أما طريقة الحفظ والنقل فهي طريقة إلقائية يلجأ إليها المدرس في سائر العلوم العقلية والنقلية، وهي طريقة تستند إلى الرواية وتنكر الجدل والتفكير والمناقشة، لم يستحسنها ابن خلدون وانتقدها لأنّ الطالب في رأيه لا تحصل له ملكة التصرف في العلم والتعليم (خلدون ع..، 2001، صفحة 545؛ رحيم، 2018، صفحة 158؛ رزيوي، 2016، صفحة 136). أما طريقة المحاور والمناظرة فقد أشاد بها ابن خلدون واعتبرها أيسر الطرق للحذق والتحصيل، تعتمد هذه الطريقة على الحوار والمناقشة والتعمق في البحث واستخدام المناظرة في المسائل العلمية، وهي الطريقة التي اعتمدها ناصر الدين المشدالي (731هـ / 1331م) في التدريس، ساهمت هذه الطريقة في تطوير التعليم والدراسات الفقهية واللغوية (خلدون ع..، 2001، صفحة 545؛ رزيوي، 2016، صفحة 137).

المصنفات المتداولة في حلق التدريس (1)

المجال	المصنفات	المؤلفين
التفسير	تفسير ابن عطية	ابن عطية الأندلسي (541هـ / 1147م).
القراءات ورسم القرآن	التيسير في القراءات السبع الشاطبية	أبي عمرو الداني (444 هـ / 1052م). أبي القاسم الشاطبي (590هـ / 1193م).
الحديث	الموطأ الصحاح الستة الشفاء	مالك بن أنس البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي.... القاضي عياض (544هـ / 1149م).
السير	السيرة النبوية السيرة النبوية	ابن إسحاق (337هـ / 949م) ابن هشام (761هـ / 1360م).

الفقه	مختصر ابن حاجب الفرعي مختصر خليل الرسالة	ابن حاجب بن عثمان (646هـ / 1248م) خليل (767هـ / 1366م) ابن أبي زيد القيرواني. (376هـ / 986م).
أصول الفقه	ابن حاجب الأصلي.	عثمان ابن حاجب (646هـ / 1248م).
النحو	المختصرات والشروحات على ألفية ابن مالك. كتاب سيبويه المقرب والممتع	ابن مالك (672هـ / 1283م) سيبويه ابن عصفور (ت 666هـ / 1297م).
البلاغة	مقامات الحريري	الحريري
العروض	سينية ابن الآبار في مدح أبي زكرياء الحفصي. شعر حازم القرطاجني ومقصوده في مدح المستنصر. كتاب الجمل للخونجي.	ابن الآبار (595هـ / 1199م). حازم القرطاجني الخونجي (648هـ / 1250م).
الحساب والجبر	الياسمينية في الجبر والمقابلة. كتاب في الجبر والهندسة.	ابن ياسمين (601هـ / 1205م). ابن البناء. (721هـ / 1321م).
كتب الفرائض	مختصر أبي القاسم الجعدي في الموارث والفرائض الأرجوزة التلمسانية.	أبي القاسم الحوفي الاشبيلي للطرابلسي.

التصوف	الرسالة	القشيري النيسابوري (456هـ / 1073م).
	إحياء علوم الدين	الغزالي أبو حامد (505هـ / 1112م).
المديح النبوي	الردة	البوصيري (697هـ / 1298م).
	الشقراطية.	
الطب والصيدلة	أرجوزة ابن سينا القانون في الطب	ابن سينا (428هـ / 1037م). ابن سينا (428هـ / 1037م).
الفلك والتنجيم	أرجوزة ابن أبي الرجال تسهيل الطالب في تعديل الكواكب	ابن أبي الرجال (432هـ / 1041م). ابن قنفذ (804هـ / 1402م).

جدول يوضح أهم العلوم المتداولة في حلقات التدريس بمدارس المغرب الأدنى (موسى، 2001، الصفحات 67 - 70؛ رحيم، 2018، الصفحات 134 - 144) لأكثر تفصيل ينظر: (الرصاص، 1967) (القليصادي، 1978، الصفحات 113 - 121).

خامسا: دور المدارس في تنشيط الحركة العلمية

ساهمت مدارس المغرب الأدنى في تفعيل وتنشيط الحركة العلمية في المغرب الإسلامي والأندلس والسودان الغربي وذلك من خلال نشاط خريجي هذه المدارس في الحركة الفكرية ونشر العلوم العقلية والنقلية وعقد المجالس العلمية المناظرات، والتأليف والتصانيف في مختلف حقول العلم.

وقد كان لانتشار المدارس أثراً كبيراً في إحياء علوم أهل السنة من خلال الجو الملائم الذي وفرته للمدرسين وللطلبة (شاهين، 1999، صفحة 173، 175)، وعليه فقد أصبحت المدارس تقوم بتدريس مختلف الفنون والعلوم، وإغناء المكتبات بعدد لا بأس به من المخطوطات، كما خرجت فطاحل العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء (بوسلاح، 2011، صفحة 181)، ساهمت في منحهم إجازة تمكنوا بفضلها من أن يرتقوا إلى مصاف المشيخة العلمية ولاسيما في علم الحديث الذي كانت الإجازة فيه تعتبر

أمراً ضرورياً من أجل الرواية، وفيما بعد عمم أخذ الإجازة على سائر العلوم والفنون (رزويوي، 2016، صفحة 138).

كما أمدت هذه المدارس والمؤسسات والمعاهد التربوية الأخرى أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة والمتقنة التي تشتغل في الجهاز الإداري والتعليمي والقضائي والشرعي، وخرجت علماء ومدرسين من الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق يتولون التدريس في مدارس مهمة يؤدون فيها دوراً ريادياً (القابسي، 1981، صفحة 189).

وما يحسب للمدارس كذلك أنها وحدت الفكر الإسلامي المغربي عقدياً تحت سيادة المذهب المالكي وذلك من خلال دعم السلاطين له وتشجيعهم للعلماء بحضورهم دروسهم والجلوس بين أيديهم.

مدارس المغرب الأدنى: (2)

المدارس	تاريخ نشأتها	مؤسسوها
1 المدرسة الشماعية	629هـ/1230م.	الأمير أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي. الأميرة عطف زوجة الأمير أبو زكرياء.
2 المدرسة التوفيقية (مدرسة جامع الهواء).	650هـ/1252م	الأمير يحيى بن الخليفة أبو إسحاق إبراهيم.
3 المدرسة المعرضية	680هـ/1281م	الشيخ أبو علي بن موسى بن عصفور.
4 المدرسة العصفورية	توفي مؤسسها سنة 666هـ/1267م	الشيخ أبو محمد عبد الله المرجاني.
5 المدرسة المرجانية	توفي مؤسسها عام 699هـ/1299م.	الشيخ أبو محمد عبد الله المغربي.
6 المدرسة المغربية	ق8هـ/14م.	الأميرة فاطمة بنت الأمير أبي زكرياء الحفصي.

7	المدرسة العنقية	733هـ/1332م.	الشيخ يحيى السليماني.
8	مدرسة سيدي يحيى	747هـ/1346م.	الحاجب أبو محمد عبد الله ابن تافراجين.
9	مدرسة ابن تافراجين	759هـ/156م.	ابن الحكيم محمد بن علي النحوي.
10	المدرسة الحكيمية	744هـ/1343م.	السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي.
11	مدرسة باب البحر	801هـ/1398م.	السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان.
12	المدرسة العثمانية	840هـ/1436م.	السلطان محمد المنتصر، والسلطان أبو عمرو عثمان.
13	المدرسة المنتصرية	841هـ/1437م.	القائد العسكري نبيل بوقطاية.
14	مدرسة القائد نبيل	850هـ/1446م.	أهل جالية الأندلس منهم الشيخ علي النوي السراج.
15	المدرسة الأندلسية	1043هـ/1624م.	الشيخ البكريّ ون الأوائل.
16	المدرسة البكرية	ق 11هـ/17م	

جدول يوضح أهم مدراس المغرب الأدنى في العصر الوسيط: (خوجة، 1985، الصفحات 182-185).

خاتمة:

تطرقنا من خلال هذه المداخلة إلى إحدى أهم مؤسسات التعليم في المغرب الأدنى عكست صورة التقدم الحضاري الذي بلغته الدولة، ولا أدل على ذلك من امتدادها إلى وقتنا الحاضر ولا سيما في تونس. ساهمت ظروف وعوامل عدة في نشأة وقيام المدرسة في المغرب الأدنى لعل أبرزها هو ظهور نظام المدارس في بغداد من خلال نموذج المدارس النظامية وانتشاره في الشام ومصر ثم دخوله إلى تونس في عهد أبي زكرياء الحفصي الذي قام بتشييد أول مدرسة عُرفت بالشماعية. تذهب بعض الآراء التاريخية إلى أنه بناها

لتنشيط مذهب الموحدين (العقيدة التومرية) بعد إلغاء العمل به في مراكش ومحو رسمه. لكن سرعان ما تبنت هذه المدرسة المذهب المالكي وعملت على تكريسه وتأكيد سيادته في المغرب الإسلامي وهو التقليد الذي سارت عليه باقي مدارس المغرب الأدنى ويظهر ذلك جلياً من خلال العلوم والمصنفات المتداولة في هذه المدارس.

وما تجدر الإشارة إليه أنّ كثرة العلوم وتشعبها وتعذر تدريسها في المساجد نظراً للمهام السياسية والاجتماعية الملقاة على عاتق المسجد أدت إلى ظهور المدرسة التي تدرجت كمؤسسة علمية من المسجد إلى الخان (الربط) لتصل إلى درجة معهد علمي ذو طابع خاص لم تقتصر أهميته على توفير المسكن للطلاب وتلقينهم مختلف فنون العلم والمعرفة فحسب بل تعدته إلى إمداد الدولة وتدعيم أركانها من خلال فئة مثقفة ومتعلمة تقلدت مناصب قضائية وشرعية ساهمت في تنشيط الحياة الثقافية والفكرية، وأدت فيما بعد أدواراً سياسية وعسكرية.

المصادر والمراجع

- (1) الباجي، محمد بن مامي، (1987). مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (القرن السابع هـ/ الثالث عشر م - الثالث عشر هـ/ التاسع عشر م)، المؤرخ العربي، العدد 34، السنة 13، الصفحات 282-286.
- (2) البستاني، بطرس، (1987). محيط المحيط، بيروت. مكتبة لبنان.
- (3) بوسلاح، فايزة، (2011). المدارس العلمية بتلمسان على عهد بني زيان: إشعاع فكري وحضاري، مجلة عصور الجديدة، العدد 2، الصفحات 181 - 191.
- (4) بوشقيف، محمد، (2011). المدارس ونظام التعليم بالمغرب الأوسط خلال القرنين 9/8 هـ - 15/14 م، دورية كان التاريخية، العدد 11، الصفحات 58 - 62.
- (5) التبنكي، أحمد بابا (ت 963 هـ / 1036 م)، (1989). نبيل الابتهاج بتطريز الديباج، (ط1)، طرابلس. كلية الدعوة.
- (6) جيدة، أحمد خالد، (2001). المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي (923 - 648 هـ / 1250-1517 م)، بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- (7) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808 هـ / 1406 م)، (1979). التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، بيروت. دار الكتاب اللبناني.

- (8) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808هـ / 1406م)، (2001). مقدمة ابن خلدون، بيروت. دار الفكر.
- (9) ابن خوجة، محمد، (1985). تاريخ معالم التوحيد، (ط2)، بيروت. دار الغرب الإسلامي .
- (10) الرازي، محمد بن أبي بكر (ت666هـ / 930م)، (1986). مختار الصحاح، بيروت. مكتبة لبنان.
- (11) رحيم، عائشة، (2018). المؤسسات العلمية في العهد الحفصي، (اطروحة دكتوراه غير منشورة)، الجزائر. جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- (12) رزيوي، زينب، (2016). العلوم والمعارف الثقافية في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7هـ و9هـ / 13م و15م، (اطروحة دكتوراه غير منشورة)، الجزائر، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس.
- (13) الرصاع، محمد (ت894هـ / 1489م)، (1967). فهرست الرصاع، تونس، دار الكتب الوطنية.
- (14) سيدي موسى، محمد الشريف، (2001). الحياة الفكرية ببجاية من القرن السابع الهجري إلى بداية القرن العاشر الهجري (13-16م)، (رسالة ماجستير منشورة)، الجزائر. جامعة الجزائر.
- (15) أبو شامة، شهاب الدين المقدسي (ت665هـ / 1267م)، (2002). الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصالحية، (ط1)، بيروت. دار الكتب العلمية.
- (16) شاهين، سلام أيمن، (1999). المدارس الإسلامية في مصر في العصر الايوبي ودورها في نشر المذهب السني، (اطروحة دكتوراه)، جامعة طنطا. كلية الاداب.
- (17) ابن الشماخ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت861هـ / 1457م)، (1984). الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، (تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري)، تونس. الدار العربية للكتاب.
- (18) فكري، أحمد، (2008). مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، القاهرة، دار المعارف.
- (19) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ / 1488م)، (1998). القاموس المحيط، ط6، لبنان. مؤسسة الرسالة.
- (20) القابسي، نجاح، (1981). المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي ، المؤرخ العربي، العدد19، الصفحات 175 - 193.
- (21) القلصادي، أبو الحسن علي (ت891هـ / 1486م)، (1978). رحلة القلصادي، تونس. الشركة التونسية للتوزيع.
- (22) لعرج، عبد العزيز، (2001). المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة العلوم الانسانية، العدد1، الصفحات 112 - 124.
- (23) لعرج، عبد العزيز، (2009). النظام المعماري لمدارس المغرب - دراسة أثرية تحليلية، مجلة آثار

جامعة الجزائر، العدد 7، الصفحات 87 - 120.

(24) المالكي، ابن فرحون ابراهيم بن نور الدين (ت 799هـ / 1397م)، (1996). الديباج المذهب في

معرفة أعيان علماء المذهب، (ط1)، بيروت، دار الكتب العلمية.

(25) مجاني، بوبة، (1999). المدارس الحفصية نظامها ومواردها، مجلة العلوم الانسانية، قسنطينة، العدد

12، الصفحات 157 - 164.

(26) المقرئ، تقي الدين أحمد (ت 845هـ / 1441م)، (1998). الخطط المقرئية، (تحقيق محمد

زينهم)، ج3، ط1، القاهرة. مكتبة مدبولي.

(27) يماني، رشيد، (2010). الانتاج الفكري في الثغر الأدنى الاندلسي خلال القرنين 7 و 8 هجريين/

13 و 14 ميلاديين، (رسالة ماجستير)، الجزائر. جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

- 1) BRUNSCHVIG, Robert, (1940). LA BERBERIE ORIENTALES, SOUS LES HAFSIDES, PARIS. ADRIEN MAISONNEUVE.

المظاهر الحضارية في القدس في العصر الأموي (41-105هـ/ 661-724م)

Manifestations of Arab and Islamic civilization in Jerusalem in the Umayyad era

د. محمود رياض الأسطل

Mahmoud Reyad Mahmoud Alastal

MAHMOUDREYAD631@GMAIL.COM

الملخص:

هدفت الدراسة لبيان دور الخلفاء في التطور الحضاري في مدينة القدس من الجوانب المعمارية والاجتماعية والاقتصادية، ورصد لأهم منجزاتهم بالمدينة في ذلك الوقت. وقد توصل الباحث إلى أن خلفاء المسلمين اهتموا بمدينة القدس ولم يتخلوا عنها يوماً ما، وأن سياستهم التي اتبعوها في معاملة السكان قد ساعدت على التعايش والتبادل الحضاري، وأوصى الباحث بضرورة التأكيد على عروبة القدس وهويتها الحضارية العربية الإسلامية وضرورة حث العرب والمسلمين على التمسك بالقدس لأنها حق عربي ووقف إسلامي لا يمكن التنازل عنه أو التفريط فيه.

الكلمات المفتاحية: القدس، فلسطين، الأمويين، قبة الصخرة

Abstract :

The study aimed to clarify the role of the Umayyad caliphs in the civilized development in the city of Jerusalem from the architectural economic and social aspects .

The researcher monitored the most important achievements of the caliphs in Jerusalem at that time .

The researcher concluded that the umayyad caliphs paid attention to the city of Jerusalem and they followed a policy of justice and tolerance which contributed to the cultural exchange between the residents .

The researcher recommended emphasizing the Arab identity of Jerusalem and its Arab civilization identity .

Urging Arab and Muslims to adhere to Jerusalem because it is an Arab right and an Islamic endowment that cannot be waived

مقدمة:

تعتبر الحضارة العربية الإسلامية واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم نتيجة الدور الذي لعبته في تاريخ الإنسانية إذ التقت بخصوصيتها العربية نتاج الحضارات الأخرى وقد أسهمت فيها كل الشعوب والأمم التي تكلمت بالعربية وغير العربية وانضوت تحت لواء الخلافة الإسلامية. (الرحيم: 1995 :29)، ويمكن تعريف الحضارة الإسلامية بأنها تلك الحضارة التي قامت من خلال أسس محددة وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والعنصر العربي، وشعوب البلاد المفتوحة، والنطاق الجغرافي والعناصر الأجنبية واللغة العربية، ومن خصائصها الوحدانية المطلقة والنزعة العقلانية والطابع الإنساني، وطابع التسامح، والقدرة على مواجهة هذه التحديات، والتوازن بين الماديات. (عوض : 2010 : 14) .

وفي ضوء هذا التعريف؛ نسجل أن هناك علاقة بين فتح بيت المقدس وانضوائه تحت لواء الخلافة الأموية وبين ظهور أولى ملامح الحضارة العربية الإسلامية المنفردة فيها، وبالرغم من مرور أكثر من 1000 عام عليها إلا أن آثارها لا تزال باقية وصامدة إلى يومنا هذا وشاهدة على عظمة تلك الحضارة، وعلى الرغم من ذلك تزور إسرائيل الحقائق التاريخية وتدعي بيهودية القدس وتنفي عروبتها. ومن هنا وجب علينا دراسة العوامل التي أدت لظهور تلك الحضارة في مدينة القدس، وبيان دور الخلفاء في قيامها، ووصف لأهم الملامح الحضارية (المعمارية والاجتماعية والاقتصادية) في تلك الفترة، والتأكيد على عروبة القدس وعلى هويتها الحضارية العربية الإسلامية وتهدف الدراسة إلى:

- 1- بيان مكانة القدس وأهميتها لدى الخلفاء الأمويين؛
- 2- بيان العوامل التي أدت لقيام حضارة عربية إسلامية في مدينة القدس، ومعرفة دور الخلفاء الأمويين في ظهور أولى ملامح الحضارة العربية الإسلامية المتميزة في مدينة القدس؛
- 3- كشف أهم مظاهر التطور الحضاري من الناحية المعمارية والاجتماعية والزراعية والصناعية في مدينة القدس في العصر الأموي؛

ومن خلال ما سبق سنسلط الضوء على أهمية القدس الدينية والتاريخية والسياسية في العصر الأموي، ودور الخلفاء الأمويين في ظهور الملامح الحضارية العربية الإسلامية الأولى في مدينة القدس، ونقدم لمحة تاريخية عن ملامح الحضارة العربية الإسلامية في مدينة القدس، ونعتمد في ذلك على المنهج الوصفي: لتوصيف اهتمام

الخلفاء الأمويين بمدينة القدس وسياستهم نحوها، وبيان أثره في التطور الحضاري، ثم المنهج التاريخي: لضبط تسلسل الأحداث وتحليل النصوص من خلال توظيف إمكانات التحليل التاريخي للنصوص محل الدراسة، في الفترة الزمنية المحددة بالعصر الأموي (41-105هـ/661-724م)، ونحدده مكانيا بمدينة القدس .

أولا: القدس في العصر الأموي

حظيت مدينة القدس بمكانة كبيرة في التاريخ العربي الإسلامي لما لها من بعد روحي إسلامي مرتبط بالمكان والزمان فهي أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين، كما ورد في حديث النبي (صلى الله عليه وسلم): "أتوه فصلوا فيه، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيته يسرج في قناديله". (أبو داود: ج4: 1950: 182) وفي حديث آخر أن من مات في أثناء زيارته للمسجد الأقصى مات شهيدا. (البرهان فوري: 1975: 234). وقد وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) أهل القدس بقوله "رجلهم ونسأؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن احتل ساحلا من سواحل الشام وبيت المقدس، فهو في جهاد إلى يوم القيامة". (السيوطي: 1993: 112).

لقد أقام الرسول (صل الله عليه وسلم) والمسلمون ستة عشر شهرا في المدينة يصلون إلى قبلة الإسلام الأولى وهي القدس (الحنبلي: ج1 : 172) . ومن الصحابة الكرام الذين سكنوا بيت المقدس : شداد بن أوس الأنصاري، وذو الأصبع الجهنني (أبو داود : ج : 4 : 1950 : 7)، وذكر ابن العبري أن بعض الصحابة فكر في دفن النبي بعد وفاته (صلى الله عليه وسلم) في القدس، لأنها مدفن الأنبياء (ابن العبري : 1890 : 95) .

ارتبطت القدس الشريف بالعقيدة الإسلامية بحادثة الإسراء والمعراج حيث استفتح الله سبحانه وتعالى سورة الإسراء بالآية الكريمة "سبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله". سورة الإسراء، آية رقم 1 وهي أرض مباركة أقسم الله بها حيث قال. (وَاللَّيْنِ وَالزُّيُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ أَلْهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ). سورة التين، آية رقم 3، وقيل إنها كانت محل الأنبياء وقبله الشرائط ومهبط الوحي، وما فيها من موضع شبر إلا وصلّى فيه نبي أو قام فيه ملك (القزويني : 1960 : 159-160) .

وقد وفد إلى القدس من تجار من الجزيرة العربية، للتجارة عبر قيامهم برحلة صيف إلى بلاد الشام ومنها يتجهون إلى فلسطين ويذكر عبد اللطيف الطيباوي¹ في كتابه " القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام أن عمرو بن العاص وهو من تجار مكة، عرف جنوب فلسطين حتى بيت المقدس قبل أن يعرفها كقائد للجيش الإسلامي الذي حاصر تلك المدينة (الدجاني : 2019) . وهكذا كانت قلوب المسلمين تحفو إلى مدينة القدس؛ لأنها قبله المسلمين الأولى ومسرى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) (الحمادي : 2019) .

كانت معركة اليرموك التي وقعت سنة 16هـ/638م آخر معارك المسلمين الفاصلة في فلسطين، حيث دخلت معظم مدن الشام في الإسلام ولم يبق سوى تحرير القدس، واستشار المسلمون الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يتوان عن دعوتهم لإتمام فتح المدينة (البلاذري : 1987 : 140)، فصعد يزيد بن أبي سفيان من سور المدينة، وعرض على أهلها الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو القتال فاختراروا القتال (الواقدي : 230-231)، ثم طلبوا مفاوضة المسلمين واشترطوا حضور الخليفة عمر بن الخطاب لاستلامها (البلاذري : 1987 : 144)، وعندما قدم عمر رضي الله عنه، أمر أن يبلغوا بطريق المدينة بقدمه؛ فخرج البطريرك من الكنيسة، يتبعه الأساقفة والرهبان، ولما انتهوا إلى مقام الخليفة خف للقائهم، وحياهم بالسلام، ثم تحادثوا في شروط التسليم (الطبري: ج3: 1976 : 105)، وكتب لهم كتابا عرف بالعهد العمرية² أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم "فلا تهم كنائسهم ولا يكرهون على دينهم، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير مع فائهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن شاء قعد، وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية " (الطبري : ج3: 1976: 105). ثم صلى عمر رضي الله عنه في المكان الذي يسمى محراب داود (ابن كثير: ج7: 1988: 53)، ثم أمر ببناء المسجد الذي سمي بمسجد عمر من الخشب؛ ليتسع لنحو ثلاثة آلاف مصلي (الحنبلي: ج1 : 53) ذكر المجاهد عبد الله التل في كتابه خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، أنه وجد نصا في دير المصلبة يسجل بالتفصيل قدوم عمر بن الخطاب

¹عبد اللطيف الطيباوي : ولد سنة 1910، وهو معلم تاريخ، وعين مفتش في مدينة القدس، منح درجة الدكتوراه من جامعة لندن، مكافأة على آثاره العلمية، وله مراجع كثيرة في التاريخ .

²هي وثيقة صلح تمت بين عمر بن الخطاب والبطريك صفرونيوس عام 15هـ/636م، وشهد علي ذلك خالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص وتنص العهد على "بسم الله الرحمن الرحيم العهد العمرية : هذا ما أعطى عبد الله : عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريقها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهم، ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية .

رضي الله عنه إلى القدس وفيه أن بطريك القدس صفرونيوس طلب من أبي عبيدة وجنده المحاصرين للقدس أن يسلم القدس لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصيا (البار : 2013 : 150).

ويرى الباحث أن عمر بن الخطاب ضرب أروع الأمثلة في العفو والتسامح وحماية حقوق جميع الرعايا، حيث ضمن لأهل القدس حرية الاختلاف وحرية التعبد، وحرية الإقامة والسفر، والأمن على الأنفس والأموال . ويرى الباحث أن العهدة العمرية كانت بمثابة دستور لأهل القدس ساوى بين الطوائف المختلفة فيها من مسلمين ونصارى وغيرهم، وكانت بداية للتعايش السلمي والتطور الاجتماعي والتبادل الحضاري والثقافي بين ثقافات الطوائف والأجناس المختلفة فيها.

ونتيجة لذلك الحدث التاريخي برزت الأهمية السياسية لمدينة القدس والتي تمثلت بزيارة أعلى مرجعية دينية وسياسية إسلامية للمدينة وما نتج عنه من صلح وأمان واستقرار الأوضاع فيها، وبدل على سماحة المسلمين مع أتباع الديانات الأخرى. (الحروب : 213 : 99). وهكذا صارت القدس بالعهد العُمري آمنة بمن فيها، وفرح أهل إلبلاء بما أعطاهم المسلمون من الأمان، وتحولت القدس لولاية إسلامية يتتابع عليها الولاة ويرعون مقدساتها، ويعاملون الوافدين عليها من النصارى بكل سماحة ورفق. (فريق البحوث والدراسات الإسلامية "فدا : 2005 : 101) . وقبل أن يغادر عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس عين عليها عبادة بن الصامت ليكون قاضيا ومعلما في بيت المقدس. (الدوري : 2007 : 144) .

ثانيا: اهتمام الخلفاء الأمويين في مدينة القدس وملامح الحضارية العربية الإسلامية

• معاوية بن أبي سفيان (41هـ/660م):

حظيت القدس باهتمام خاص في عهد الأمويين لأسباب سياسية ودينية إذ إن مكانة القدس الدينية عند المسلمين أضفى على حكم الأمويين نفحة إسلامية ودفعهم لاستغلال مكانتها فقاموا بأخذ البيعة فيها ومن على منبرها ومسجدها.

أكد الخليفة معاوية على حرمة بيت المقدس وفي رواية له عن خالد بن معدان عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال : "عليك بالشام فإنها خيرة الله من بلاده ويجتي إليها خيرته من عبادة . (ابن عساكر : ج 1 : 60)، وأضحت القدس في عهده من حيث الإجراءات السياسية عاصمة فلسطين إذ جعلها مركز الجزء الثاني لجند فلسطين، وأعطيت خصوصية إدارية فالوالي يعين من الخليفة نفسه (الحروب : 2013 : 100)، إذ قام

بتعيين سلامة أو سلام بن قيصر³ واليا عليها الذي أقام في نفس المكان الذي كان يقوم عليه قصر هيرودس في عهد الرومان (الطبري : 1976 : ج3 : 161) . وعين الخليفة معاوية خراج لفلسطين قيمته 450 ألف دينار (اليعقوبي : 2010 : 144) .

ظهر بشكل واضح اهتمام الخليفة معاوية بالقدس بالجوانب العمرانية والسياسية فيها، إذ قام بتوسيع المسجد الأقصى ونصب المنبر الخاص به، واهتم بالإمامة والخطبة بالمسجد الأقصى، وشجع الناس على الإقامة والسكن فيها، وأنشأ دار ضرب النقود إذ ضربت الدنانير والدراهم النحاسية في فلسطين ونقشت عليها صورة الخليفة معاوية بن أبي سفيان (زعرور، وأحمد: 1995 : 141)، بالإضافة لدار الإمارة في الجنوب الغربي من الحرم الشريف . (الحروب : 2013 : 100).

وقد قام معاوية — إلى جانب ذلك - بزيارة جبل الجلجلة بالقدس وصلى فيه (سلطان، والغضنفر: 2008 : 222)، وقام ببناء مسجد على ساحة الحرم القدسي سنة 50هـ/670م، فقد جاء في الموسوعة الفلسطينية مادة جوامع، عن شاهد عيان زار القدس سنة 670م، قال : "إن المسجد كان مبنيا من ألواح الخشب وجذوع الأشجار وكان بناؤه بسيطا ومربع الشكل، ويتسع لثلاثة آلاف من المصلين" (البار : 2013 : 159) ثم تم توسيعه في عهد معاوية (البار : 2013 : 48)، ليكسب الاحترام والشهرة بين المسلمين (الدوري : 2007 : 147) .

قام الأسقف الفرنسي اركولفوس بزيارة القدس عام 670م وقضى فيها 9 شهور وذكر أن للقدس سور مكون من 84 برجاً، وله ستة أبواب، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها ويخرجون: واحد غربي المدينة، والثاني شرقيها، والثالث في الشمال. وكان يأتي المدينة في اليوم الخامس عشر من شهر أيلول من كل سنة، جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان بقصد التجارة وتبادل البيع والشراء. ويقضي هؤلاء بضعة أيام فيها. (العارف: 1999: 106)، وهكذا؛ زار بيت المقدس في عهد الخليفة معاوية الرحالة وقال السائح والمؤرخ "جيروم" أن المسجد الأقصى كان يتسع ل 3000 مصل. (نجم: 1996: 191) .

• عبد الملك بن مروان: (65هـ-86هـ/684-705م) (العارف : 1951 : 51)

يذكر اليعقوبي بأن الخليفة عبد الملك بن مروان قال للناس الحديث النبوي الشريف "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى"، ثم قال: هذه الصخرة التي وضع رسول الله

³ هو سلام بن قيصر الحضرمي، ولي بيت المقدس ومات ودفن فيها، حدث عنه: أبو الخير : مرثد بن عبد الله البزني .

صلى الله عليه وسلم قدمه عليها، لما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على صخرة القبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها. (اليعقوبي : 2010 : 178) .

ذكر ابن كثير : إنه لما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال و كل من رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس وأرسل إليهم بالأموال الجزيلة الكثيرة وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراما بلا توقف، فبنو القبة فجاءت في أحسن البناء، وفرشاهما بالرخام الملون وحفاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخداما بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران يعملون منه غالية ويبخرون القبة والمسجد من الليل، جعلوا فيها قناديل الذهب والفضة، والسلاسل الذهبية والفضية شيئا كثيرا " (ابن كثير : ج8 : 1992 : 280)

رصد عبد الملك لبناء مسجد القبة أموالا ضخمة خراج مصر لسبع سنين وبنى القبة على الصخرة وجعل أعلى القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب، في كل صفيحة سبعة مثاقيل ونصف من الذهب، وأفرغ على رؤوس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهبا وخارج القبة كلها ملبس بصفائح الرصاص، وطول المسجد 3 أشبار بالذراع الملكي -750 ذراعا، وفيه من الأساطين 684 اسطوانة، والعمد التي في قبة الصخرة 30 عمودا وفيه 5 آلاف قنديل توقد فيه ليلة كل جمعة. (الحميري : 1974 : 69). ويصف المقدسي المسجد فطوله ألف ذراع بذراع الملك الأشباني، وعرضه سبعمائة وفي سقفه من الخشب 4 آلاف خشبة و700 عمود رخام، وعلى السطح 45 ألف شقفه رصاص وحجم الصخرة 33 ذراعا في 27، والمغارة التي تحتها تتسع لتسعا وستين نفسا، وكانت وظيفته في كل شهر مائه قسط زيت وفي كل سنة 800 ألف ذراع خضر وخدامه مماليك، أقامهم عبد الملك من خمس الأسارى ولا يخدمه غيرهم (المقدسي : 2002 : 147-148) وهو ما يؤكد على أهمية القدس لديه . وقام بتغليف الدعامات والقبة بالذهب وجاء البناء على أجمل صورة. (سلطان، والصفدي : 2008 : 222) . قام عبد الملك بن مروان ببناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة سنة 72هـ/691م. (البار : 2013 : 159، الباش : 1997 : 150، نجم : 1996 : 194-196، غوانمة : 1999 : 13). ويقول المؤرخون إن عبد الملك أراد أن يصرف الناس عن التفكير بالسفر إلى الحجاز وأن يشغلهم عن الكعبة ببناء هذا الأثر العظيم. (العارف : 1951 : 52) خاصة وأن الكعبة أصبحت تحت سيطرة ابن الزبير في هذا الوقت. ويرجح الباحث على أن سبب بناء قبة الصخرة هو لصرف قلوب المسلمين عن جمال كنائس النصارى بالإضافة لاكتساب الشرعية السياسية .

ومن المؤرخين من يرى أن عبد الملك بناه لينافس كنائس النصارى في روعته خاصة أنه كان في دمشق وفلسطين كنائس في غاية الروعة والجمال، وبالتالي قام ببناء مسجد القبة لكي يتفاخر المسلمون بمساجدهم ويؤكد على

ذلك المقدسي إذ ذكر بأن عبد الملك رأى قبة كنيسة القيامة فخشى أن تؤثر بفخامتها على أفئدة المسلمين فاعتزم بناء مسجد قبة الصخرة على طراز أجمل منها (العارف : 1999 : 108-109) وكان بناؤها تأكيداً لحرمة مسجد بيت المقدس ولكسب المزيد من النفوذ بين المسلمين وللتأكيد على صلة الصخرة بالإسراء والمعراج ومن أهم الأسباب هو أن يشمل مشروع التعريب الذي بدأ فيه عبد الملك بالمؤسسات الإدارية بالدولة وموظفيها تعريب مدينة القدس، إذ كانت المدينة قبل ذلك نصرانية وتكلم لغات غير اللغة العربية (مركز التعليم المفتوح : 2013 : 35) .

ويرى الباحث أن السبب في بناء مسجد قبة الصخرة هو اكتساب الشرعية السياسية بالإضافة لصرف المسلمين عن إعجابهم بالفن المعماري البيزنطي المتمثل في الكنائس المحيطة بمدينة القدس.

وتوجد في القدس كذلك؛ قبة السلسلة وقد ذكرت عند بناء عبد الملك بن مروان وأنها على صفة قبة الصخرة، وهي شرقيها بين الباب الشرقي ودرج البراق فيها من العمود الرخام 17 عمود غير عمودي المحراب (الحنبلي : ج 2 : 1968 : 18)، وقام عبد الملك بترميم سور القدس (حزبون : 1996 : 124). ونقش في الناحية الجنوبية الشرقية في مسجد قبة الصخرة اسم الخليفة وتاريخ البناء بالخط الكوفي المذهب في عبارة تقول (بنى هذه القبة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين في سنة 72 . تقبل الله منه ورضي عنه، آمين . وغطوها بكسوة من اللباد والجلود، لتقيها من الرياح والأمطار والثلوج في فصل الشتاء .(مركز التعليم المفتوح : 2013 : 33) .

تعتبر قبة الصخرة بشكلها الثماني وفسيفسائها المطعم بالذهب الذي يغطي رسوما نباتية، وأهلة ونجوماً وتيجان، ورخامها المجزء، والزخرفة بالخط العربي المتمثلة بكتابة الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى، واسم النبي (صلى الله عليه وسلم) درة العمارة الإسلامية بلا منازع (مركز التعليم المفتوح : 2013 : 35) . أقيم مسجد قبة الصخرة على طراز كاتدرائية بصرى أما أبوابه البرونزية المزينة بصفائح فضية مزخرفة فهي أقدم ما بقي لنا من هذا النوع من الزخارف والفن وهو الفن الذي أتقنه الفنانون البيزنطيون وتميزوا به . (فرج، و يوسف : 1981 : 354) .

وفي عهد عبد الملك كان للمسجد الأقصى خمسون باباً مصفحاً بالذهب والفضة، وفيه سبعة محاريب وأربعة منابر، وبضياء المسجد وقبة الصخرة بخمسة آلاف قنديل معلقة في سقوفها بسلاسل نحاسية، وتضاء إلى جانبها ألف شمعة في أيام المناسبات كالجمع وشهر رمضان والأعياد، بسبب كثرة الزوار فيها، ويزوده بالمياه مع

قبة الصخرة أربعة وعشرون صهيبيجا موجودا في ساحة الحرم القدسي .(مركز التعليم المفتوح : 2013 : 37)

كما أراد عبد الملك أن يعبر عن روعة الإسلام بعمل عمراني فذ في مدينة الكنائس الفخمة كما أشار المقدسي وأن يؤكد على حرمة الحرم القدسي وأن يكسب نفوذا شخصيا لدى المسلمين. وهذا كله مفهوم ضمنا من النقوش الظاهرة في القبة والتي تعكس نوعا من الحوار الإسلامي المسيحي في ذلك الوقت، وتؤكد على شمولية رسالة الإسلام وعلى أنها خاتمة الرسالات السماوية (الدوري: 2007 : 149) .

أما المسجد الأقصى في عهد عبد الملك كان فيه من الخشب المسقف 6 آلاف عمود خشبي وفيه 50 باب منها باب داود وباب سليمان وباب حطه، وفيه من العمود 600 عمود من الرخام وفيه من المحاريب سبعة ومن السلاسل للقناديل 400 سلسلة منها 230 سلسلة في المسجد الأقصى وذرع السلسلة 4 آلاف ذراع ووزنها 43 ألف رطل وفيه من 5 آلاف قنديل تسرج ألف شمعة في ليلة الجمعة وفي ليلة النصف من رجب وشعبان ورمضان وليلتي العيدين وفيه 15 قبة، وعلى سطح المسجد من شقف الرصاص 7 آلاف شقفه، ورتب عليه عبد الملك من الخدم 330 خادم (الحنيلي : ج 1 : 248) .

ومن أعماله أنه عبّد طرقا عديدة منها: الطرق الرئيسية بين القدس-الشام لتسهيل سبل الزيارة للقدس والمسجد الأقصى، وطريق القدس-الرملة. ووضع مواضع معينة حجارة نقش عليها اسم الذي أمر بتعمير الطريق، والمسافة بين ذلك الموضع ودمشق مقر الخلاف بالأميال. (العارف : 1951 : 52، و علي : 2012 : 29) . خصص عبد الملك المصلى المرواني كمدرسه فقهية متكاملة وأطلق عليها المصلى المرواني وهو يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد الأقصى ويتكون من 16 رواقا ومساحته (2775 متر مربع) أي 4 دغمات (بركو: 2010: 33)، وكان قبل ذلك يسمى التسوية الشرقية وقد استعمل زمن النبي (عليه الصلاة والسلام) مصلى للأنبياء جميعا ضمن المسجد الأقصى المبارك .(عبد الغني : 2007 : 37).

وتزامنا مع التطور المعماري؛ أعاد عبد الملك بناء عسقلان التي دمرها البيزنطيون، ورمم المساجد والأحياء في قيسارية وعكا، (المدلل، و أبو عامر: 2013 : 15) .واهتم بالعلم فانتشرت في مدينة القدس المدارس العلمية وعمها الوثام الروحي. (موسى: 2010: 26)، وفي عهده سك المسلمون في إيلياء نقودا نقش عليها محمد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ورسم سيف وعلى الوجه الآخر إيلياء وفلسطين وحرف م والهلل (العارف : 1999 : 114). وهكذا؛ شهدت فلسطين في أيام عبد الملك بن مروان، الرخاء والازدهار كما أقيمت فيها العمارات الجميلة والفخمة. (شوفاني : 1996 : 174) .

• الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-714م) :

أحب الوليد بيت المقدس وقيل إنه قبل مبايعة الناس وهو على سطح الصخرة؛ وكان ينوي أن يتخذها مقرا للخلافة. (العارف: 1951 : 52). وفي عهد الوليد بن عبد الملك اتخدم شرقي المسجد، ولم يكن في بيت المال كثير، فأمر بضرب ذلك وإنفاقه على ما اتخدم منه، وفي عهده تم حف الصخرة بدرابزين ومن خلف الدرابزين سور الديباج مرخاة بين العمدة وكان كل يوم اثنين وخميس يدق الزعفران ويطحن ثم يعمل من الليل بالمسك والعنبر والماورد ويخمر بالليل، ثم يؤمر الخدم في اليوم التالي فيدخلون حمام سليمان يغتسلون ويتطهرون، يأخذون الخلوق فيلطخون ما قدروا أن تناله أيديهم حتى يغمره كله حتى الصخرة، وتفرغ الآنية ثم يأتون بجامر الذهب والفضة والعود القماري المطعم بالمسك والعنبر فتترخى الستور حول الأعمدة كلها ثم يأخذون البخور يدورون حولها حتى يحول البخور بينهم وبين القبة (الحنبلي : ج1: 242).

واصل الوليد بن عبد الملك بعد والده إعمار القدس والمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، فأضاف له قباب غير قبة الصخرة مثل قبة المعراج والميزان وقبة السلسلة وقبة المحشر (سلطان، والغضنفرى : 2008 : 223)، وقام ببناء الأسوار المحيطة بالمدينة وأعاد بناء القصور والزوايا الجنوبية لسور الحرم والتي كانت تسكن من قبل الولاة في العصرين الأموي والعباسي. (سلطان، والغضنفرى : 2008 : 223)، وقام ببناء المصلى الجنوبي في ساحة المسجد الأقصى على الطراز البازليكي⁴ المستخدم في بناء الكنائس ودور العبادة المنتشرة في بلاد الشام في العهدين الروماني والبيزنطي، ويقوم تخطيط هذا النمط على الأعمدة والأروقة المتعامدة على جدار القبلة، أوسعها الرواق الأوسط، بدون أية ساحات داخلية مكشوفة أو غير مكشوفة، وقد كان المسجد الأقصى وقبة الصخرة أول بناء في الإسلام خالف النمط التقليدي في بناء المساجد على غرار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. (أبودية: 2010 : 1058) .

وفي عصره تم إكمال بناء المسجد الأقصى والانتهاء منه وأقام المسجد بجوار قبة الصخرة (شوفاني : 1996: 174). وإلى جانب ذلك؛ اهتم الوليد بقراء المسجد الأقصى ورعايتهم وهي من الأولويات في ذلك الوقت، فكان يوزع قصاب من الفضة لفقراء بيت المقدس تشجيعا لهم لقراءة القرآن. (سلطان، والغضنفرى: 2008 : 223، وعلي : 2012 : 29)، ناهيك عن تشييد المصانع والمستشفيات والآبار وأصلح الطرق وبنى مدينة على بحيرة طبرية (المدلل، و أبو عامر : 2013 : 15) .

⁴هو نوع من المباني، وعادة ما تكون كنيسة مستطيلة بشكل نموذجي مع صحن مركزي وممرات، مع منصة مرتفعة، وهو طراز معماري

شائع للمزيد انظر <https://www.hisour.com/ar/basilica-32815>

• سليمان بن عبد الملك 96هـ/714م:

بعد وفاة الوليد تولى الملك أخوه سليمان وبويع بالخلافة سنة 96هـ/714م .(ابن كثير: ج 9: 1990: 166)، لما توفي أخوه الوليد كان سليمان بالرملة، فلما أقبل تلقاه الأمراء ووجوه الناس وساروا إليه إلى بيت المقدس فبايعوه هناك، وعزم على الإقامة بالقدس، وأتته الوفود إلى بيت المقدس وكان يجلس في قبة صحن المسجد الأقصى مما يلي الصخرة من جهة الشمال، وفيه كان يجلس أكابر الناس على الكراسي، وتقسم فيهم الأموال (ابن كثير: ج 9: 1990: 178)، كما أخذ سليمان البيعة من الوفود التي جاءت خصيصا إلى القدس، فاحتفل بهذه المناسبة وهو يجلس في صحن المسجد الأقصى ويتقبل التهاني والتبريكات (المقدسي: 87: 2002)، في الوقت الذي أبدى رغبته في الإقامة بالقدس (ابن كثير: ج 9: 1990: 174)، وعندما هم بالإقامة فيها تاركا دمشق، قرر المكوث بدمشق فيما بعد (شاکر: 2000: 210)، ولقد أحب هذا الخليفة فلسطين وخاصة الرملة، حتى كان واليا عليها (العارف: 1951: 53)؛ فكلف بإنارة المسجد الأقصى خدما من اليهود، إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز ففصل اليهود من هذه الأعمال وجعل الخدم جميعا من المسلمين. (الظاظا: 1970: 31).

وسع ما فعله والده توسعه كبيرة، حيث يبلغ ارتفاع قبة 30 م، وتتكون من طابق علوي مكسو بصفائح من الرصاص، والطابق السفلي مصفح برقائيق الرخام الأبيض الجميل، تزينها مربعات من القيشاني الفيروزي، كتبت عليها سورة ياسين باللون الأبيض، وتزدان هذه الواجهات الثماني بنوافذ من الزجاج الملون عددها 56 نافذه، وتحت الصخرة مغارة الأنبياء التي ينزل إليها بإحدى عشرة درجة، وللمسجد أربعة أبواب مزدوجة (علي: 2012: 48). ويبدو المسجد كبقعة رائعة الجمال والفن الرفيع الجدران الخارجية مجلدة بالرخام الأبيض الفاخر حتى منتصفها ثم تزدان بعد ذلك بالقيشاني الفاخر الملون، أما الجدران من الداخل والدعائم والأعمدة فتزدان بالرخام وزخارف الفسيفساء الملونة في أشكال نباتية تجل عن الوصف حيث وصفها البروفيسور بريتش " تبدو وكأنها تسبح في فضاء خال من الهواء متحررة من قانون الجاذبية الأرضية ويتساءل عن قصد المسلم تصويرها بالجنة؟! (علي: 2012: 49) .

• عمر بن عبد العزيز 99هـ/717م.

أما عمر بن عبد العزيز فقد طلب من جميع ولاته أن يزوروا المسجد الأقصى وأن يقسموا في القدس بمين الطاعة والعدل في معاملة الناس هناك (الحمادي: 2019، سلطان، والفضنفر: 2008: 223)، ومن أعماله أنه لما أحس بنية اليهود ببيت المقدس أخرجهم منها (العارف: 1951: 53)، فقام بعمليات الإصلاح وإرضاء الرعية دون تفريق بين أحد (زعور، و أحمد: 1996: 90). وجعل العطاء للعرب وغير العرب كالموالي

(زعرور، و أحمد: 1996: 95)، وعامل النصارى معاملة حسنة وترك لهم حرية العبادة (المرجع السابق : 96) .

• يزيد بن عبد الملك 101-105هـ :

لم يحدث شيء يذكر في عهده.

خلاصة :

1- يرى الباحث أن الخلفاء الأمويين اهتموا بمدينة القدس لعدة أسباب أولها مكانتها الدينية من حيث أنها قبلة المسلمين الأولى ومسرى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأرض رباط إلى يوم الدين، بالإضافة لذلك سعى خلفاء بني أمية لاكتساب الشرعية السياسية لحكمهم عبر أخذ البيعة من مدينة القدس وخاصة من مسجدها المبارك ؛

2- أضفى الإسلام هالة من القدسية على مدينة القدس، وأقام معالم دينية مهمة فيها في ظل الخلافة الإسلامية مثل : قبة الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما . (شوفاني : 1996 : 165)؛

3- استهوت فلسطين الخلفاء الأمويين إذ أمضوا فصولاً كاملة فيها فكان معاوية وابنه يزيد يقضيان الشتاء بالقرب من بحيرة طبريا بفلسطين، وأقام سليمان بن عبد الملك بالرملة، ومروان بن الحكم في الغور وتوفي في طبريا، وقد طلب عمر بن عبد العزيز من جميع ولاته أن يزوروا بيت المقدس ويقسموا بيمين الطاعة والعدل بين الناس في مسجدها (المدلل، و أبو عامر : 2013 : 13) ؛

4- ظهر اهتمام الخلفاء الأمويين بالقدس بوضوح من خلال قيامهم بزيارات متكررة للمدينة حيث قام كل من : معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك بزيارات متكررة إلى المدينة . (الدوري : 2007 : 147) بالإضافة لاهتمام الخلفاء الأمويين بالعلم فانتشرت في مدينة القدس المدارس العلمية وعمها الوثام الروحي . (موسى : 2010 : 26) .

ويمكن تلخيص العوامل التي ساهمت في قيام حضارة عربية إسلامية في مدينة القدس كالآتي :

- 1- أهمية القدس الدينية عند المسلمين جعل منها محل أنظار واهتمام لتكون على أفضل صورة إسلامية؛
- 2- لخلفاء المسلمين دور بارز في قيام تلك الحضارة فهم عندما شاهدوا الكنائس المسيحية المنتشرة في بلاد الشام وانبهروا في جمالها وزخرفاتها حاولوا خلق طراز معماري جديد وفريد مختلف عن الطراز الإسلامي الأول على أيام النبي (صلى الله عليه وسلم)؛

- 3- للقدس دور سياسي إذ استغل بعض الخلفاء الأمويين مكانتها الدينية لدى المسلمين في إعلان خلافتهم منها وذلك بهدف اكتساب الشرعية السياسية في ظل الخلافات على منصب الخلافة في ذلك الوقت، بالإضافة لاكتساب محبة المسلمين وصرف أنظارهم عن إعجابهم في الكنائس المنتشرة في فلسطين وبلاد الشام ؛
- 4- تطبيق الخلفاء الأمويين لمبدأ المساواة والعدالة الاجتماعية والتسامح والتعايش السلمي بين مختلف الأديان والأجناس الموجودة في مدينة القدس ؛
- 5- الأمن والاستقرار في كنف الدولة الإسلامية ساعد في تحقيق الانسجام الاجتماعي بين الأطياف المختلفة؛
- 6- تحلى أهل القدس عند دخولهم الإسلام بأخلاق الإسلام العليا المبنية على الحوار التسامح والتعايش وتقبل الآخر والمعاملة الحسنة وهو ما شجع على التبادل الحضاري وأدى لخلق طراز جديد من فن العمارة الممزوج بين العمارة البيزنطية والعمارة الإسلامية، وتجلى ذلك ببناء مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى؛
- 7- ساهم انتشار اللغة العربية بين السكان إلى زيادة التبادل الثقافي والحضاري بينهم، إذ امتزج السكان مع بعضهم البعض وحدثت مصاهرة اجتماعية، وتعايش سلمي، ساهم في تطور كافة مناحي الحياة المختلفة؛
- 8- ويتفق الباحث مع مجموعة باحثين في أن أهم عنصرين مهمين من عناصر الثقافة هما اللغة العربية، والدين الإسلامي اللذان شكلا العمود الفقري لنشر الثقافة العربية الإسلامية.

ثالثاً: التطور الحضاري في العصر الأموي

1- : الآثار (فن العمارة) في العصر الأموي:

تميزت العمارة الإسلامية في العصر الأموي في التنوع بالزخرفة وتغطيتها لكل فراغ طبقاً لتعاليم الإسلام وانحصر اهتمام الفنانين المسلمين إلى العمارة والزخرفة، وكان لتشجيع الخلفاء الأمويين أثر بالغ في ازدهار العمارة

(الشمري: 2014 : 5)

من أنماط الزخارف الإسلامية في العهد الأموي : 1- الزخارف الهندسية : استخدمت المستطيلات والمستقيمات والمربعات والمثلثات والدوائر المتماسة والمتقاطعة والأشكال السداسية والمثمنة، والألوان المتنوعة والمتناسقة (الشمري: 2014 : 6)، 2- الزخارف الكتابية : باستخدام الخط الكوفي المورق أو المنقوش على الأرضية، والكوفي المزهر الذي تخرج حروفه فروع نباتية، والكوفي المضفر الذي تشتبك فيه الألف مع اللام (الشمري : 2014 : 7)، 3- الزخارف التصويرية: وهي مزيج من الزخارف الخطية والهندسية والنباتية (المرجع السابق : 8)، 4- زخارف الفسيفساء وهي عبارة عن أشكال مختلفة من العاج والأصداف تثبت على سطح خشبي (المرجع السابق : 9) .

يعتبر المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة من أهم آثار الحضارة الإسلامية، ومن أهم بصمات الخلفاء الأمويين، ويعتبر مسجد قبة الصخرة من الأمثلة البارزة للعمارة الدينية الذي أقيم في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام 72هـ / 691م، وهو أول مسجد بني في بلاد الشام (عوض : 2010 : 30، و علي : 2012 : 29) ويتميز بالآتي :

1- يعد من أقدم المنشآت العمرانية الأموية، والبناء الإسلامي الأكثر قدما، ولا يزال يحتفظ بملامحه الأصلية، متحديا الزمن بإتقان وروعة وحسن دائم، على الرغم من الزلازل التي حلت ببلاد الشام. (عوض : 2010 : 386) ؛

2- إنه المسجد الوحيد بشكله ومخططه المثلث، وهو بالتالي فريد بنوعه، ويمكن تعليل ذلك بأن العمرانيين والفنانين الأوائل كانوا من أهل البلاد وبالتالي قاموا بنقل تقاليد العمارة السائدة على نحو كلي أو جزئي إلى العمارة الإسلامية المبكرة. (عوض : 2010 : 387) .

3- أن قبة الصخرة أقيمت على صخرة مقدسة منها كان عرج الرسول الكريم إلى السماء، وطول تلك الصخرة 17 مترا و 70 سم، وعرضها 13 مترا، و 50 سم، وارتفاعها حوالي متر، وهي من الحجر الصلد غير المشذب، ويلاحظ أن القبة المقامة عليها يبلغ قطرها 20 مترا، و 44 سم، وارتفاعها 31 مترا، و 50 سم . وتميزت بالزخرفة الهندسية والكتابية المتأثرة بالفن البيزنطي وهو أمر لا يعيبها. (عوض : 2010 : 389) ؛

4- لقد تميزت قبة الصخرة المشرفة زمن الخليفة عبد الملك بأنها أقدم معلم حضاري إسلامي وأعلى بقعة في الحرم، وتتكون من قبة خشبية قطرها 20.44م متكئة على أسطوانة تشمل 16 شبكا وترتكز على 4 دعائم و 12 عمود منظمة في شكل دائري بحيث وجد 3 أعمدة بين كل دعائمتين تقع القبة في

مركز شكل ثنائي بلغ طول ضلعه 20.59م وارتفاعه 9.50م، وهناك تصوية فوق الجدران يبلغ ارتفاعها 2.60م ويوجد في الجزء العلوي من كل جدار 5 شبايك كما أن هناك 4 أبواب في أربعة جدران خارجية يبلغ قياس كل منها 2.55م للعرض 4.35م للارتفاع أما الصخرة المشرفة فمقاييسها الداخلية حوالي 5 في 7 في 3 م الارتفاع (نجم : 1996 : 196) .

5- إن أقدم نقش توثيقي يوجد في مسجد الصخرة والذي سجل تاريخ بنائه، والذي أجمع المؤرخون على أنه يرجع إلى عبد الملك بن مروان وأوردا نصه على النحو التالي : "بنى هذه القبة عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين في سنة 72هـ تقبل الله منه ورضي عنه آمين" وفي أيامنا هذه نجد النص قد تغير وقد كتب عليه التالي "بنى هذه القبة عبد الله، الإمام المأمون أمير المؤمنين، تقبل الله منه ورضي عنه آمين"، ويبدو أن الفني الذي قام بإعادة ترميم مسجد قبة الصخرة زمن الخليفة المأمون؛ استبدل اسم الخليفة عبد الملك باسم الخليفة المأمون ونسي تغير سنة البناء، وهو مكتوب بخط كوفي يابس باللون المذهب على أرضية من الفسيفساء اللازوردية الزرقاء التي تضرب إلى الخضرة في الجهة القبلية الشرقية من فوق القناطر التي تحمل التثمينة الوسطى والتي تحمل القبة من الداخل (عمرو : 1996 : 168) .

ويتضح أثر اهتمام الخلفاء الأمويين بالقدس من خلال فن العمارة الإسلامي :

تشهد المنشآت العمرانية في فلسطين على تنوع الفنانين المعماريين وهم من السكان المحليين المسلمين والنصارى، وصممت هذه المنشآت لتلبية الأغراض الدينية والسياسية (علي : 2012 : 43) ويضيف الباحث إلى ذلك الأغراض الاقتصادية والسياحية . وكانت القدس من أكبر مدائن الكور، بناؤها حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أكبر من مسجدتها، ليس لمعتقتها نظير . (المقدس : 2002 : 144-145).

ثم تطورت المساجد في العهد الأموي، وزخرفت جدرانها بكتابة آيات من القرآن الكريم، وزينت أعمدتها بالحص والتيجان، وأصبحت تضم مساحة كبيرة، يحيط بها أربعة أروقة تسندها الأعمدة، والرواق المتجه نحو الكعبة واسع فيه المحراب والمنبر، وثم استعملت القبة، والأقواس نصف الدائرية. وقد زين الأمويين البلاد بالقصور والأبنية الفخمة، مثل قصورهم في القدس، وينسب إليهم قصر حيفا وهي لازالت تبهر علماء الآثار بروعتها الهندسية (علي : 2012 : 44) .

ولا تزال بعض آثار البناء الأموي قائمة حتى الآن إلى يومنا هذا، منها الأساسات والتسويات الغربية والشرقية التي حملت المسجد فوقها، إضافة إلى الطابق الأرضي من المصلى الجنوبي، وهو ما يعرف اليوم بالأقصى القديم،

كما أن منطقة القبة فوق المحراب وما يحيط بها لا زال أمويا صامدا بما فيه من الفسيفساء بديعة الصنعة . (أبو دية : 2010 : 1056). ومؤخرا؛ تم اكتشاف مجمع بنائي أموي، لا تزال آثاره قائمة في الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الأقصى، ويبدو أنه يشمل على بيت لعبد الملك، ودار الإمارة ودار الضيافة، وتشمل ثلاثة قصور أموية يعود زمنها للوليد بن عبد الملك . (مركز التعليم المفتوح : 2013 : 39) .

وللتأكيد على ذلك؛نورد قصة للخليفة المهدي تقول: قيل للخليفة العباسي محمد المهدي بأن خلفاء بني أمية قد سبقوه في هذا الطراز المعماري الفريد . (طقوش : 2010 : 105) . ففي طريقه نحو بيت المقدس عام 163هـ/780م دخل الخليفة العباسي محمد المهدي المسجد الأموي في دمشق، وأعجب بعمارته فقال لكاتبه: "سبقنا بنو أمية في ثلاث بهذا البيت -المسجد- لا أعلم على ظهر الأرض مثله، ونبيل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، فلما أتى بيت المقدس ودخل قبة الصخرة قال لكاتبه: وهذه رابعة" . (أبو السعود، والمغربي : 2018 : 471) .

يصف العالم الأثري الشهير "فان برشم" قبة الصخرة بقوله لعل "روعتها وجمالها (علي : 2012 : 47)، يعودان لما في تصميمها من بساطة وتناسق حقا انما مفخرة العمارة الإسلامية " . (علي : 2012 : 48) وقال الأستاذ هايتز لويس " أن مسجد الصخرة بلا شك من أجمل الأبنية الموجودة والآثار التي خلدها التاريخ"، وقال كرزويل أستاذ فن العمارة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة "لقبة الصخرة أهمية في تاريخ العمارة الإسلامية فقد بهرت في رونقها وسحرها " (العارف : 1999 : 110). وقال العلامة هايتز لويس عن الأثر الإسلامي البارز والفريد في بيت المقدس " من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه الأرض وأجمل الآثار التي خلدها التاريخ " . وهو من الآثار التي تؤكد على عروبة فلسطين أمام حملات التهويد المسعورة التي تقوم بها إسرائيل . (عوض : 2010 : 387) .

ومن الآثار العمرانية الأموية القريبة من مدينة القدس قصر خربة المنية بالقرب من بحيرة طبرية، وقصر القسطل، بالإضافة لقصر خربة المفجر بالقرب من أريحا والذي قام ببنائه هشام بن عبد الملك وهو عبارة عن قصر شتوي تزين جدرانه برسوم آدمية وحيوانية، وقد سجل اسم الخليفة على اسم القصر . (زعرور، وأحمد : 1995 : 150) . ووجدت مؤخرا مجموعة من النقود النحاسية والفضية والذهبية تعود للفترات الإسلامية من بينها الفترة الأموية (660م-749) (حزبون : 1996 : 148) .

يرى الباحث إلى أن هناك علاقة بين دخول فلسطين بما فيها القدس تحت لواء الدولة الأموية وبين ظهور أولى ملامح الحضارة الإسلامية المتميزة فيها والتي مزجت بين فن العمارة البيزنطي والإسلامي وأن الخلفاء الأمويون

اهتموا بالقدس وبتجميلها وزخرفتها، وشهدت على أيديهم نخضة عمرانية فريدة. وصمموا أقدس بقعة في فلسطين بذلك الطراز بهدف صرف العامة مؤقتاً عن مكة والمدينة المنورة التي كانت خاضعة لعبد الله بن الزبير، ولكسب الشرعية السياسية لحكم البيت الأموي الذي حول نظام الحكم الإسلامي إلى ملك عضوض، ولاكتساب محبة المسلمين وصرف أنظارهم عن الكنائس والمنشآت العمرانية المسيحية المنتشرة في بلاد الشام بل لمنافستها بطراز جديد وفريد من نوعه .

2- مظاهر تطور الحياة الاجتماعية في العهد الأموي :

حرص الأمراء الأمويين على اتباع سياسة المساواة وإقامة العدالة التي هي من أبرز صفات المسلم والتي يحرص ويحث عليها الإسلام والتي أدت لتأليف القلوب، إذ كان لكل فئة خصوصيتها السياسية والاجتماعية إذ حرص الأمويين في توزيع الوظائف بحيث شملت كافة الأعراق والطوائف مختلفة. (طقوش : 2010 : 149) .

يستنبط الباحث مبدأ التعايش السلمي والحوار الحضاري والعدالة الاجتماعية الذي طبقة الخلفاء الأمويين من القرآن الكريم حيث قال تعالى (فَقُلْ إِنِّي الْكَافِرُ إِلَى كُلِّ حَةٍ سَوَاءٌ مِّنِّي أَوْ مِنِّي) سورة آل عمران -64، وقال أيضاً (وَلَوْ عَسَّيْتُ لَجَعَلَ لَ النَّاسِ أُمَّةً حَتَّةً) (يَا زَالُونَ مَنَّةً لَمَنِّينَ) سورة هود الآية -118، وفي هذا وضوح لمبدأ التعايش، وفي آية أخرى قال تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ إِلِيَّ دِينِ) سورة الكافرون آية رقم-6، ولقد أثل للإسلام لمبدأ إقامة العدل بين الناس حيث قال تعالى (وَأَنزَلْنَا بِهِ هُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُؤمَّ النَّاسَ بِالْقِسْطِ) سورة الحديد آية رقم-25، وقال أيضاً (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ أَنْ قُومَ عَالِيَا أَلَّا تَعْلَمُوا) (اعْلَمُوا هُوَ أَقْبَلُ لِمَتَّقُوا) سورة المائدة آية رقم-8، وفي سورة النساء حيث على إقامة العدل بين الناس (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَلِفَ إِلَىٰ هَلَا هَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) سورة النساء آية رقم-58.

يتفق الباحث مع الدكتور علي الصلابي في أن حركة التعريب بين الشعوب وتحول لسان أهالي البلاد إلى اللغة العربية، قد ساهم في التبادل الثقافي والحضاري والتطور الاجتماعي في تلك الفترة وتحول معظم سكان البلاد المفتوحة إلى عرب مسلمين. لم يقتصر التأثير الفكري والثقافي البيزنطي الذي تأثر به المسلمون في مجال الفن فقط، بل تعداه لكافة مجالات الحياة المختلفة. وهكذا؛ امتلك العرب عنصرين مهمين من عناصر الثقافة وهما اللغة العربية، والدين الإسلامي. (فرج، و يوسف : 1981 : 355).

عرف اليهود والنصارى في الدولة الأموية بأهل الذمة، وشملهم الإسلام بالأمان، وصانهم بالعهود والمواثيق (فرج، ويوسف : 1981 : 337). وكانت نظرة العرب المسلمين إلى الديانة المسيحية نظرة واقعية كدين من الديان

السماوية، واعتبروا رعاياهم النصارى أهل كتاب ونظروا إليهم نظرة تختلف عن نظرهم إلى الكفرة المشركين، وتميز العرب في معاملتهم لرعاياهم المسيحيين بالتسامح الديني فتركوا لهم كنائسهم، وسمحوا لهم بأداء شعائهم الدينية، وقد ظل بيت المقدس مفتوحا للحجاج المسيحيين الذين حضروا فلسطين من الغرب الأوروبي للعبادة. (فرج، ويوسف : 1981 : 337) . واستمر الحج الى بيت المقدس وانتعشت الحياة فيها (الدوري: 2007 : 146).

إن تسامح العرب مع رعاياهم المسيحيين واضح تماما، لقد تحول سكان الشام البيزنطيين إلى العرب حين بدأت الفتوح قائلين ان حكمكم وعدالتكم أكثر قبولا لنا من ذلك الطغيان وتلك الاهانات التي نخضع لها (فرج، ويوسف : 1981 : 339) . تطورت في العصر الأموي شروط العهد العمرية فتطورت العلاقات مع النصارى في بيت المقدس إذ سمح للحجاج النصارى بزيارة القدس وكانت لهم فنادق للإقامة فيها (الدوري: 2007 : 142). سكن النصارى في المنطقة بين باب العمود وكنيسة القيامة وباب الخليل، وقدر عددهم في مطلع خلافة معاوية ب 43 ألف نسمة، بينما كان يبلغ عدد المسلمين 15 ألف نسمة، وقد تناقص عدد النصارى وزاد عدد المسلمين في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك وذلك بسبب دخول كثير من النصارى في الإسلام. (مركز التعليم المفتوح : 2013 : 30) .

لقد استقرت القبائل العربية في فلسطين من العرب والعجم ومن لحم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة (القططي: 2016 : 113-114) حتى تحول إلى فلسطين في العصر الأموي عدد من العرب العراقيين والخراسانيين واستقروا في مدينة القدس، فقد نقل الخليفة معاوية بعض أنصار الإمام علي المخلصين إلى فلسطين ومنهم : القعقاع بن عمرو التميمي، وأنزله في القدس، وتحول عطاء الخراساني (50-135هـ) من بلخ إلى فلسطين، واستقر مع أبناؤه في القدس خلال فترة حكم عمر بن عبد العزيز . وانتقل إليها عدد من الزهاد والعباد من الأمصار واستقروا هناك طلبا للعلم والعبادة منهم: حماد بن عبد الله بن أبي صالح المكي، والعباد إبراهيم بن أدهم، وقد زارها عدد كبير من طلبة العلم من العراق وأجناد الشام والحجاز ومصر لدراسة الفقه وسماع الحديث (مركز التعليم المفتوح: 2013 : 29) .

عامل الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد النصارى معاملة حسنة وكان يثق بهم لدرجة أنه استخدمهم في المسجد الأقصى وسمح لهم بتوارث الخدمة فيه. (العارف : 1951 : 52). وسمح الخليفة عبد الملك بن مروان لليهود بالإقامة في القدس وأقام بفناء الحرم عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكس والنظافة نظير إعفائهم من الجزية (ظا : 1970 : 30).

وحرص الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز -من جانبه- على العدل في معاملته للرعايا غير المسلمين وحمى للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة، وسمح لهم ببناء كنائس جديدة (فرج، و يوسف : 1981 : 337- 338) . يعلق أرنولد قائلا " لقد قام عمر بن عبد العزيز بحركة تحول للإسلام واسعة النطاق، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام بلا قهر أو إكراه وقد قيل إنه أعطى قائدا نصرانيا (بطريك) في إحدى المناسبات ألف دينار تألفه بها على الإسلام. (فرج، و يوسف: 1981 : 339)، وهكذا؛ تمتعت مختلف الطوائف بالعيش في جو من التسامح والاحترام والتقدير لم يعرفوه من قبل (البدور: 2004 : 267) .

ولقد اشتعل المسلمون الجدد في عدد من مراكز الدولة، فكان حاجب مروان بن الحكم أبو سهل الأسود مولاه من فلسطين، وكان حاجب الوليد بن عبد الملك أبو عبيدة مولى من موالى فلسطين .(البدور : 2004 : 269) ، فكانت النتيجة أن اندمج المجتمع المقدسي وحصلت مصاهرة بين أطيافه المختلفة من العرب وغيرهم، وبالتالي ظهرت طبقة المولدين (أبناء من الأب العربي الأصل والأم الرومية) وقد كانت أمهات الخلفاء من الإماء مثل الخليفة الأموي يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد (البدور : 2004 : 275) .

يرى الباحث أن حفاظ المسلمين على الكنائس المسيحية في القدس تنفيذا للعهد العمري أولا ونتيجة للأخلاق الإسلامية التي تحلى بها المسلمون واحترامهم للأديان المختلفة، هو ما أدى لانتشار الأمن والاستقرار في معظم أرجاء الدولة الإسلامية ودفع السكان المتنوعين إلى الامتزاج والاختلاط والتزاوج والتبادل الثقافي والحضاري فيما بينهم .وتنوع النسيج الاجتماعي في القدس واندماج السكان المسلمون والمسيحيون مع بعضهم، وانفتح العرب على الشعوب الأخرى وحصل تبادل ثقافي وحضاري واجتماعي وأخذوا من الحضارات السائدة في المنطقة ما يلائمهم . هذا يدل على مبدأ التعايش السلمي والتسامح الذي طبقة خلفاء الأمويين .

3- مظاهر التطور الزراعي في العصر الأموي

تطور القطاع الزراعي في العصر الأموي نتيجة للاستقرار السياسي والنقدي إذ ورثت الدولة الأموية الدنانير البيزنطية والتي ظلت عملة مستقرة لم تتعرض للغش مثل الدراهم الفارسية .(الصلاحي: 2008 : 686) . وتم استخدام الضرائب العينية في كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال المسح الذي تم لها في عهد عبد الملك بن مروان . وقد انعكس ذلك على نظام الري الذي تطور وزاد من إنتاج الأراضي الزراعية .(الصلاحي : 2008: 687) .

تعتبر القدس من أشهر مناطق فلسطين في زراعة الزيتون، حيث اعتنى الخليفة معاوية ببساتين الكروم والزيتون (علي: 2012 : 29) . وكان جبل الزيتون مغطى بأشجار العنب والزيتون .(العارف : 1951 : 51)، ويشير ناصر خسرو إلى كثرة زيت الزيتون حيث كان يحفظه البعض في آبار وأحواض ويتم تصديره إلى العالم، ولقد سمي جبل الزيتون في القدس بذلك الاسم لكثرة الزيتون فيه (البدور : 2004 : 37) . ويصف المقدسي أن أكثر مشاهد القدس قائلا عنبها خطير (المقدسي : 2002 : 145)

زرع في القدس العنب وأجود أنواع القمح والحبوب والزهور (العارف : 1999 : 106)، يشير المقدسي إلى أن بيت المقدس اشتهرت بتصدير الزبيب .(المقدسي : 2002 : 180). حيث كان المقدسيين يجففون العنب ويصنعون منه الزبيب وكان معاوية بن أبي سفيان يقدم لضيوفه في الشتاء الفواكه اليابسة (والذانجوج) وفي الصيف يقدم لهم الفواكه الرطبة وهذا يمثل أولى ملامح التطور الحضاري في التعامل مع الثمار لاستعمالها في مواسم مختلفة (المسعودي : 2005 : ج3 : 32)، جمعت في مدينة القدس أصناف شتى من فواكه الأغوار والسهول والجبال مثل الأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز (المقدسي : ج1 : 2002 : 145)، والماء بها واسع، ليس مكان في القدس إلا وبه ماء، وبها 3 برك عظيمة، بركة سليمان وبركة عياض، وعمد إلى واد فجعل بركتان يجتمع إليهما السيول في الشتاء وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع .(المقدسي: ج1: 146).

اهتم الخلفاء الأمويين ببساتين القدس وغاباتها فكثرت أشجارها واستخدمت في البناء والوقود .(البدور : 2004 : 44). ذكر المقدسي أن الأمويين أنشأوا في القدس السدود والقنوات لنقل المياه في القدس في الربيع لتملى الصهاريج (المقدسي: 2002 : 168)، ويرى الباحث أن الزراعة في تلك الفترة تطورت كثيرا مما كانت عليه بالقدس في العصر البيزنطي .

4- مظاهر التطور الصناعي في العصر الأموي

شهدت الدولة الإسلامية في العهد الأموي تطورا حضاريا في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وذلك بسبب الاستقرار السياسي في بلاد الشام واستقرار مقر الخلافة في دمشق الذي أثر بشكل كبير في الأسواق والأنشطة الاقتصادية .(القحطاني : 2016 : 100). فانتشرت بذلك؛ الصناعات الخشبية من الأشجار حيث تم استخدامها في أسقف البيوت والأدوات المنزلية والنقش على الخشب وزخرفة المسجد الأقصى الذي احتوت قبة على أربعة آلاف خشبة (المقدسي : 2002 : 171)، وكذلك صنع الأثاث والكراسي الخشب.. ومما جاء عن ابن كثير -في هذا الشأن- أن الوفود المبيعة لسليمان بن عبد الملك قد

جلسوا على كراسي خشبية (ابن كثير : ج 9 : 178) . كما وجدت في القدس غابة مزروعة بأشجار الصنوبر، استخدمت في البناء والوقيد، ويتم نقله عبر الجمال . (العارف : 1999 : 107) فكانت القدس مقصدا للتجارة والزيارة (علي : 2012 : 29) .

ولقد شهدت الدولة الأموية اهتماما بالعمران وتشيد المساكن وزخرفتها، ومن أبرز تلك المعالم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت إلى ظهور صناعات تلي تلك الرغبات، فظهرت صناعة قطع الرخام وزخرفته، واستخدام الزخارف الحبيسة لتزيين المباني (الصلابي : 2008 : 692) . قام معاوية بن أبي سفيان بترميم مرفأى عكا وصور، وحولهما إلى دار هامة لصناعة السفن (المدلل، و أبو عامر : 2013 : 14).

وفي القدس ازدهرت صناعة الزجاج والمرايا ذات الجودة العالية وتنوعت أصناف الزجاج المخروط والحز الملون كما دخلت الصناعات الزجاجية في القناديل التي تعلق في المنازل والمساجد (البدور : 2004 : 98)، وأشار المقدسي إلى صناعة الإبر في القدس (المقدسي : 2002 : 180).

ويتصل بباب القدس سوق القطانين إلى سوق المشاطين الكبار إلى العطارين (الحميري : 1975 : 268) وهو دليل على حركة الاستيراد والتصدير المزدهرة في القدس في العهد الأموي . وكان يؤم القدس في 15 من شهر أيلول في كل سنة، جماهير غفيرة من مختلف الجناس والأديان بقصد التجارة . (الحنبلي : ج 1 : 51) . ويشير المقدسي لنظافة أسواق مدينة القدس وأنها لا تخلو من غريب (المقدسي : 2002 : 145)

كان في فلسطين مراكز صناعة النسيج في بيت لحم وغزة والقدس ووجد في القدس سوق للقطانين وهو ما يدل على رواج تلك المنسوجات وجودتها (الحميري : 1975 : 268) . وكان من آثار النشاط التجاري أن عم الرخاء في المدينة وتحسنت الأحوال المعيشية . (القططي : 2016 : 105)، الأمر الذي أدى إلى تطور النشاط الصناعي، فتحباب العمل لأهل الريف للعمل ولتسويق منتجاتهم الزراعية وهو ما أدى لازدهار التجارة الداخلية.

ويرى الباحث أن الصناعة تطورت بشكل ملحوظ في القدس في العصر الأموي بسبب الموقع الجغرافي الذي سيطرت عليه الدولة الأموية وسط قارات ثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا ولاتساع رقعتها وزيادة الفتوحات والبلاد التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية بالإضافة للامتزاج الحضاري بين السكان من النصارى والفاحين المسلمين وهو ما ساهم في انتقال المعارف والخبرات في شتى مجالات الحياة، بالإضافة للأوضاع الاقتصادية الجيدة التي كانت تتمتع بها الدولة الإسلامية.

خاتمة:

حظيت مدينة القدس باهتمام ورعاية الخلفاء الأمويين وذلك لأسباب سياسية منها اكتساب الشرعية السياسية في الخلافة ولزيادة نفوذهم بين المسلمين، وظهر ذلك جليا في اهتمامهم بزيارة مدينة القدس وفي أخذ البيعة فيها، وتجلى اهتمامهم الأبرز في بناء مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وكانت أعمال التجديد والترميم والزيادات في المسجدين دائمة ومستمرة؛ فزهت المدينة وتألقت أقصاها وكانت قوافل الحجاج تتوالى إليها حاشدة من مختلف الأديان إذ كانوا ينعمون بكل مظاهر التسامح والحرية الدينية. وارتفعت مجموعة متنوعة من المباني والمؤسسات في القدس، مساجد ومدارس ودور للقرآن. ولقد تأثر اهتمام الخلفاء الأمويين بالقدس تبعاً للظروف الداخلية من التنوع الطائفي والظروف الاقتصادية تبعاً للظروف الخارجية من خلال التهديدات المحيطة بالدولة الإسلامية .

النتائج :

- 1- كانت للقدس مكانة دينية عظيمة لدى الخلفاء الأمويين والدليل أخذهم البيعة في القدس ومسجدها المبارك، بالإضافة لزياراتهم المتكررة إليها وعنايتهم بالمسجدين الأقصى وقبة الصخرة؛
- 2- أصبحت للقدس مكانة سياسية إذ استغلت من قبل بعض الخلفاء الأمويين لاكتساب الشرعية السياسية لحكمهم في ظل الخلافات القائمة في ذلك الوقت، ولاكتساب محبة المسلمين وتأييدهم؛
- 3- كانت هناك علاقة بين انضواء القدس تحت لواء الدولة الأموية وبين ظهور أولى ملامح الحضارة العربية الإسلامية المتميزة والفريدة عن غيرها في ذلك الوقت، خاصة من ناحية فن العمارة إذ امتزج فن العمارة الإسلامي بفن العمارة البيزنطي وأخرج فن عمارة جديد وفريد من نوعه أبحر الغرب والعرب؛
- 4- زاد اهتمام الخلفاء المسلمين بمدينة القدس في بداية العصر الأموي وكان لهم دور بارز في تكوين الشخصية الحضارية العربية الإسلامية لمدينة القدس خاصة في مسجد الصخرة الذي بدأ بناؤه عبد الملك بن مروان 72هـ وانتهى منه الوليد بن عبد الملك 92هـ ؛

- 5- امتزجت العناصر المختلفة في القدس من مسيحيين ومسلمين في ظل الخلافة الأموية وذلك لعدل الخلفاء وتطبيقهم مبدأ التعايش السلمي واحترام الأديان الذي بدأ بالعهد العمري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وتطور في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز؛
- 6- إن الوجود العربي الإسلامي كان حاضرا في مختلف العصور ولا تزال الآثار الإسلامية شاهدة إلى يومنا هذا على بصمات المسلمين وتاريخهم وحضارتهم العربية الإسلامية؛
- 7- لا تزال بعض آثار البناء الأموي قائمة إلى يومنا هذا، منها الأساسات والتسويات الغربية والشرقية التي حملت المسجد فوقها، إضافة إلى الطابق الأرضي من المصلى الجنوبي، وهو ما يعرف اليوم بالأقصى القديم، كما أن منطقة القبة فوق الخراب وما يحيط بها لا زال أمويا صامدا، وهو دليل قاطع لا لبس فيه على عظم الحضارة العربية الإسلامية وعلى عروبة المدينة المقدسة، وعلى ملكية العرب والمسلمين لها؛
- 8- تؤكد الدراسة على عروبة القدس وحضارتها العربية الإسلامية وتؤكد على بطلان الادعاءات والأكاذيب الصهيونية حول القدس .

التوصيات :

- 1- ضرورة دراسة تاريخ القدس، والتأكيد على عروبتها والتمسك بها من قبل جميع المنظمات والهيئات والتجمعات العربية الثقافية والأدبية والتراثية، في ظل الهجمة الاستعمارية الصهيونية التي تستهدف المدينة المقدسة لتهويد المقدسات والمعالم والآثار العربية الإسلامية والمسيحية فيها؛
- 2- المطالبة بإضافة مادة عن تاريخ القدس إلى المناهج العربية لتبقى الأجيال القادمة على اتصال بتاريخ المدينة المقدسة وبمسجدها المبارك؛
- 3- التأكيد على عروبة القدس، ومواجهة الأكاذيب الإسرائيلية حول تاريخ المدينة وآثارها الإسلامية بكافة الوسائل الممكنة؛
- 4- تسليط الضوء إعلاميا ومن خلال الندوات والمؤتمرات وورش العمل على أن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية تتقبل الآخر وتقوم على مبدأ التعايش السلمي والعدالة الاجتماعية؛
- 5- العمل على توعية الشباب العربي والإسلامي بأن القدس والمسجد الأقصى هما حق تاريخي عربي ووقف إسلامي للعرب المسلمين جميعا لا يمكن التنازل عنه أو التفريط فيه؛

6- العمل على الحفاظ على التاريخ والتراث العربي والهوية الحضارية الإسلامية لمدينة القدس من الضياع والتزوير؛

7- تشجيع الدول على إقامة وتنظيم رحلات دينية وسياحية للمسلمين لشدة الرحال للقدس والمسجد الأقصى؛

8- دعم الرواية الفلسطينية حول عروبة القدس وهويتها الحضارية في كافة المحافل العربية والدولية .

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث النبوي الشريف

(1) البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (1975) : كنز العمال في السنن والأقوال والأفعال : ط2 : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية : حيد آباد الدكن.

(2) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279هـ): (1987) : فتوح البلدان : تحقيق عبد الله الطباع : مؤسسة المعارف - بيروت .

(3) الحميري، محمد بن عبد المنعم (1975): الروض المعطار في خبر الأقطار: معجم جغرافي: حققه: إحسان عباس: ط 1: مكتبة لبنان - بيروت .

(4) الحنبلي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (ت 928هـ): الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل: الجزء الأول : مكتبة دنديس - عمان : د.ت .

(5) الحنبلي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (1968) : الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل : الجزء الثاني : المطبعة الحيدرية ومكتبتها في النجف .

(6) أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث (1950) : سنن أبي داود : ج 4: تحقيق محيي الدين عبد الحميد : مطبعة السعادة - القاهرة .

(7) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ) : (1993) : الدر المنثور في التفسير المأثور: دار الفكر - بيروت .

(8) الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ) (1976) : تاريخ الأمم والملوك : الجزء 3 : مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

- 9) ابن العربي، غريغوريوس بن هارون الملطي : (1890) : تاريخ مختصر الدول : المطبعة الكاثوليكية - بيروت.
- 10) ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم، علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي : تاريخ مدينة دمشق : دراسة وتحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر العموي : دار الفكر .
- 11) القزويني (1960) : آثار البلاد وأخبار العباد : دار صادر - بيروت.
- 12) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت 774هـ) : البداية والنهاية : ج 9 : 1990 : مكتبة المعارف : بيروت - لبنان .
- 13) (1992) : البداية والنهاية : ج 8 : مكتبة المعارف : بيروت - لبنان .
- 14) (1998) : البداية والنهاية : ج 7 : تحقيق علي شيري : دار احياء التراث العربي - القاهرة .
- 15) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (346هـ) (2005) : مروج الذهب ومعادن الجوهر : اعتنى به وراجعته: كمال حسن مرعي : ج 3 : ط 1 : المكتبة العصرية - صيدا - بيروت .
- 16) المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 380هـ) (2002) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ط 1 : علق عليه ووضع حواشيه : محمد أمين الضناوي : دار الكتب العلمي : بيروت - لبنان .
- 17) الواقدي، محمد بن عمر (ت 207هـ) : فتوح الشام : مكتبة المحتسب - عمان : د.ت .
- 18) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (2010) : تاريخ اليعقوبي : تحقيق عبد الأمير مهنا : مجلد 2 : شركة الأعلمي للمطبوعات : بيروت - لبنان .
- 19) البار، محمد علي (2013) : القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ-مع دراسة تحليلية للقضية الفلسطينية: الطبعة الثانية: دار الفقيه - جدة .
- 20) الباش، حسن مصطفى (1997) : القدس بين رؤيتين هل تحسم النبوءات الصراع دراسة مقارنة بين الرؤية القرآنية الإسلامية والرؤية التوراتية الصهيونية حول القدس والمقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين : دار قتيبة.
- 21) البدور، سليمان (2004) : فلسطين في العهد الأموي (الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية) : المكتبة الوطنية : عمان - المملكة الأردنية الهاشمية .

- (22) بركو، عبد بن محمد (2010) : المسجد الأقصى المارك والهيكلم المزعوم: الطبعة الأولى: دار قتيبة - دمشق.
- (23) الدوري (2007) : أوراق في التاريخ والحضارة الجزء الثالث : ط 1 : دار الغرب الإسلامي - بيروت .
- (24) الرحيم، عبد الحسين مهدي (1995) : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الجامعة المفتوحة-طرابلس .
- (25) زعرور، إبراهيم، وأحمد، علي (1995) : تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري : منشورات جامعة دمشق .
- (26) شاكر، محمود (2000) : التاريخ الإسلامي في العهد الأموي : ط 7 : المكتب الإسلامي .
- (27) شوفاني، إلياس (1996) : الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت .
- (28) الصلابي، علي محمد (2008) : الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار : المجلد الأول : ط 2 : دار المعرفة : بيروت - لبنان .
- (29) ----- (2008) : الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار : المجلد الثاني: ط 2 : دار المعرفة : بيروت - لبنان .
- (30) طقوش، محمد سهيل (2010) : تاريخ الدولة الأموية : ط 7 : دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت - لبنان .
- (31) طهوب، صلاح (2009) : موسوعة التاريخ الإسلامي العصر الأموي : دار أسامة : الأردن - عمان
- (32) ظاظا، حسن (1970) : القدس مدينة الله أم مدينة داود : مطبعة جامعة الإسكندرية .
- (33) العارف، عارف باشا (1951) : تاريخ القدس: دار المعارف-مصر .
- (34) العارف، عارف (1999) : المفصل في تاريخ القدس الجزء الأول : ط 5 : مطبعة المعارف - القدس.
- (35) عبد الغني، مصطفى (2006) : الأوقاف على القدس : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (36) علي، عرفة عبده (2012) : القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات : ط 1 : الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة .

37) عوض، محمد مؤنس (2010) : في رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى : ط 1 : دار العالم العربي - القاهرة .

38) غوانمة، يوسف حسن (1999) : صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي: ط 1 : دار الفكر : عمان - الأردن .

39) فرج، وسام عبد العزيز، و يوسف، جوزيف نسيم (1981) : العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي : الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية .

40) فريق البحوث والدراسات الإسلامية "فدا" (2005) : الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي : الجزء الأول : إشراف ومراجعة : قاسم عبد الله إبراهيم، و محمد عبد الله صالح : ط 1 : مؤسسة أقرأ - القاهرة .

41) المدلل، وليد حسن، و أبو عامر، عدنان (2013) : دراسات في القضية الفلسطينية : ط 1 : جامعة الأمة للتعليم المفتوح : غزة - فلسطين .

42) مركز التعليم المفتوح (2013) : تاريخ القدس : الوحدة الثانية : القدس من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة الأموية : جامعة القدس المفتوحة .

43) موسى، حسن (2010) : القدس والمسجد الأقصى المبارك حق عربي وإسلامي عصي على التزوير: تقديم سليم الحص: باحث للدراسات - بيروت ، لبنان .

رسائل الماجستير :

1) القططي، أفرح أحمد (2016) : الثغور الشامية في العهد الأموي (661-749م) : رسالة ماجستير في التاريخ والآثار - كلية الآداب - الجامعة الإسلامية - غزة .

المجلات:

1) الحروب، أحمد (خريف : 2013) : القدس والإسلام دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي : مؤسسات الدراسات الفلسطينية : حوليات القدس العدد (16) : بيروت .

2) حزبون، لويس (1996) : المتحف الإسلامي في رحاب الحرم القدسي : القدس دراسات إسلامية ومسيحية : ط 1 : مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة - القدس .

3) أبو دية، عدنان أحمد (يونيو : 2010) : المصلى القبلي في المسجد الأقصى في العهد الأيوبي : مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد (18) : العدد (2) .

(4) أبو السعود، لؤي محمد، و المغربي، عبد الرحمن (حزيران :2018) : الآثار المعمارية في فلسطين خلال العصر العباسي الأول (132-232هـ/750-847م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية : :
مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية : جامعة بابل : العدد (39) .

(5) سلطان، طارق فتحي، والغضنفر، صهيب حازم (2008) : القدس في المصادر الجغرافية العربية في العصر العباسي : مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية: المجلد (8) : العدد (4) : كلية التربية جامعة الموصل

(6) الشمري، حصة بنت عبيد صويان (يوليو : 2014) : فن الزخارف المعمارية في العصر الأموي : مجلة العلوم العربية والإنسانية – جامعة القصيم : المجلد (7) : العدد (4) .

(7) عمرو، يونس (1996) : رقوم المسجد الأقصى في القدس ودورها في فنون العمارة ومكانتها في الحضارة العربية : القدس دراسات إسلامية ومسيحية : ط 1 : مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة – القدس

(8) نجم، رائف (1996): عروبة القدس عبر التاريخ : القدس دراسات إسلامية ومسيحية : ط 1 :مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة – القدس .

المواقع الإلكترونية :

(1) الحمادي، خليل محمود (2019) : القدس عبر التاريخ
<https://ketabonline.com/ar/books/15936>

(2) الدجاني، احمد صدقي (2019) : قدس برس
<https://ketabonline.com/ar/books/20209>

الحوار الحضاري في ظل العولمة والخصوصية الثقافية

Cultural dialogue under globalization and cultural privacy

نسرين ضامن

طالبة دكتوراه في جامعة الحاج لخضر باتنة -1- الجزائر

Damene Nesrine

damenedamene216@gmail.com

الملخص

إن معظم الدول التي استطاعت أن ترتقي سلم الحضارة ، هي تلك التي استطاعت أن تخلق حالة من التواصل والتفاهم مع الآخر على اختلافه فكتب لها البقاء، والتاريخ شهد على ذلك، لقدرتها على تحقيق الوفاق والسلام العامين، ولأن مجتمع الأمس يختلف عن مجتمع اليوم بسبب ما يطرأ على هذا الأخير من متغيرات وتحولات سريعة مست كل جوانب المعرفة، وكل أشكال المجتمعات وهو ما يعرف اليوم باسم العولمة، فأصبحت الحاجة ملحة للتواصل بين الثقافات المختلفة للمجتمعات البشرية، من أجل بعث القيم السامية والحوار الحضاري للتأثير والتأثر، والتبادل الإيجابي للمعارف والخبرات، ثم الانفتاح على الآخر وتقبل الاختلاف، وحيث يمكن للحوار الحضاري أن يكون مشروع الأمل والسلام القائم على ديمقراطيات المشاركة والمنفعة الجمعية لا الفردية، يمكن أن يكون كذلك عاملا من عوامل الاختراق الثقافي في ظل تيار العولمة الجارف، وما يحمله من أفكار قد تهدد هوية الدول وتفقدتها خصوصيتها تحت مظلتها.

وعليه؛ من خلال هذه الورقة البحثية التحليلية نحاول الإجابة عن سؤال رئيسي مفاده: كيف يمكن إيجاد قنوات مشتركة للحوار بين الحضارات دون ذوبان طرف في آخر في ظل العولمة؟

الكلمات المفتاحية: الحوار، الحضاري، العولمة، الخصوصية الثقافية.

Abstract :

Most of the countries that have been able to raise civilization , are those that could create a state of communication and understanding with the other

even if they are different , for its ability to provide global reconciliation and public peace ,and because the societies are different from one day to another for what they live from changes and quick transformations touch all aspects of knowledge which is known as globalization , then the need appeared for communication between defferent cultures for the deployment of the high values , civilized dialogue, the positive exchange of knowledge and expertise ,openness of the other , and accept the difference .

And since the cultural dialogue can be the project hope and peace based on participation and public benefit democracies not individual,it can also be a factor of cultural hack factors under the globalization and its ideas that may threaten the identity of states.

Accordingly , through this teoretical research paper we try through an analytic study to answer a fundamental question : how common channels are created for dialogue between civilization without melting a party to another party with the challenges of globalization .

Keywords : Dialogue, cultural, globalization , cultural privacy .

مقدمة:

تعتبر العولمة من القضايا التي كثر الحديث عنها؛ وتنوعَ الدارسون لها من علوم مختلفة في الآونة الأخيرة، خاصة مع انهيار المعسكر الشيوعي الذي يمثله الاتحاد السوفياتي، وتولي النظام الرأسمالي قيادة العالم، ويشير هذا المصطلح إلى بروز نظام جديد للعالم تتقلص فيه الحدود المكانية والزمانية، حيث يعتبر عصر العولمة العصر الذي لم تعد فيه الثقافات حكرا على شعب واحد، وأصبحت ثقافات البلدان والأمم مفتوحة على العالم من خلال الحوار والتواصل المتمركز في وسائل الإعلام والاتصال والتواصل المختلفة، وبالرغم من هذا؛ فإننا لا نحتاج لجهود كبير لنذكر أيضا وجود أزمة حوار وتواصل بين الحضارات، الحوار الذي يمثل السبيل الوحيد للخروج من الصراع إلى التعايش المشترك، والذي يعبر عن قدرة أكبر للفرد وللجماعة على التفاعل المعرفي والعاطفي والسلوكي بين البشر والأمم، على ألا يعني ذلك الانصهار والذوبان في الآخر، والذي يحدث في الغالب بسبب عدم التكافؤ بين الأطراف في جوانب عدة قد يأتي العامل الاقتصادي على رأسها، يسيطر فيه طرف على آخر يفرض بذلك ثقافته عليه وهو ما يعرف بالاختراق الثقافي الذي تفقد فيه الشعوب هويتها وخصوصيتها الثقافية شيئا فشيئا، تصل مرحلة من التناقض يعيشها شبابها في محاولة التوفيق بين ملامح الهوية، وبين مواكبة ما يطراً من مستجدات وتغيرات، أي بين التقاليد والثقافات الأصلية ، وبين الثقافات الدخيلة في إطار الحداثة والعصرنة.

على هذا الأساس؛ يعتبر الاحتكاك الثقافي سلاحا ذو حدين، فكما يمكن أن يكون سببا في صناعة السلام العالمي، بالانتقال من حوار الأنا والآخر إلى حوار الذات الإنسانية، يمكن أن يكون كذلك عاملا من عوامل الخطر التي تهدد بطمس الثقافة الأصلية خاصة في ظل هذا التسارع الرهيب والتغيرات التي يشهدها العالم وتجسدها العولمة، فلا الانغلاق على الذات والانكماش ورفض التواصل مع الآخر حلا يمكن القبول به، ولا الانفتاح القائم على التنازلات التي تهدد الخصوصية الثقافية وتعمل على محوها مقبول أيضا.

واستنادا إلى تأكيد الغرب على هويته الحضارية وتميزه حضاريا عن العالم، قدم هنتنجتون **Huntington** تصورا لسلوك بقية العالم وحضاراته **The rest** استجابة للموقف الغربي، وهو أن لحضارات العالم ثلاثة خيارات هي : الاختيار الأول وهو العزلة، والثاني السعي في الالتحاق بالغرب، وذلك من خلال قبول نظمته وقيمه وما يصدر منه والتسليم بها ، في حين يكون الاختيار الثالث تبني الحضارات المختلفة وشعوبها منطق النضال، والذي يكون بتطوير قدراتها الاقتصادية والعسكرية والتي يجب أن تكون مستندة إلى قيمها ونظمها الحضارية من أجل إحداث التوازن مع الغرب (ليلة، تفاعل الحضارات بيت إمكانية الالتقاء واحتمالات الصراع، 2006، صفحة 81)، ولا يختلف عاقلان على أن الغرب لن يسمح في ظل القوة الهائلة التي يتمتع بها، بأن تكون هناك قوة موازية له تقود العالم معه وتقاسمه ما انفرد به يوما.

انطلاقا مما سبق جاءت هذه الورقة البحثية لطرح فكرة: إمكانية الانفتاح على الآخر والتعايش معه في ظل العولمة بمتغيراتها، والتمسك بالهوية والخصوصية الثقافية، وكيف تكون الهوية الثقافية مادة تفاعل بها مع الآخر؟ وكان الهدف من هذه الورقة البحثية: إدراك أهمية الحوار الحضاري والوقوف على حجم التحديات التي تواجه غير الغرب في التمسك بلامح الهوية في ظل مغريات وتأثيرات العولمة والسيطرة الأوروبية الغربية، والتي لا يمكن الخروج منها إلا بالاستثمار في المحلي من مقومات النجاح.

وهكذا؛ كانت الدراسة مقسمة إلى محاور حاولت الباحثة من خلالها تغطية جميع تفاصيل الموضوع، بالتطرق في البداية إلى جملة من المصطلحات والمفاهيم التي قد تشتت فهم القارئ، ثم التطرق إلى الحوار الحضاري، بعدها مفهوم العولمة بين مؤيد ومعارض، وكيفية تأثيرها على الخصوصيات الثقافية، وأخيرا تم التطرق إلى مقومات التواصل والحوار الفعال ومعيقاته ، وكيف يمكن الوصول إلى الأرضيات المشتركة التي تبني على أساسها العلاقات وتتفاعل من خلالها الأمم، ويثمر تفاعلها دون المساس بالخصوصية الثقافية تحت تأثيرات العولمة ومغرياتها .

أولاً: معنى الحوار والحوار الحضاري

بداية يجب الفصل بين بعض المفاهيم لتجنب الخلط وتداخل المعاني ومنها:

1 - الثقافة والحضارة:

تمثل الحضارة " الحصيصة الشاملة للمدنية والثقافة ، فهي مجموع الحياة في صورها وأنماطها المادية والمعنوية" (الريامي، 2016، حوار الحضارات، صفحة 310)، ويفرق بينهما ماكس فيبر (M. WEBER) فيرى "أن الحضارة تشتمل على المعرفة الوضعية، والعلم، والتكنولوجيا ، والتي تتكون من معلومات يمكن تمريرها من جيل إلى جيل، وتتمتع بدرجة عالية من الدقة والضبط، أما الثقافة فتتعلق بدراسة الأشكال الروحية للإنسان، وما تتضمنه من قيم، ومقاييس، وعادات، وأفكار، وانطباعات لا يمكن القول عنها بأنها صحيحة أو غير صحيحة، لمرونتها ونسبيتها واختلافها من مجتمع لآخر، ومن فرد لآخر، ومن فترة زمنية لأخرى" نقلاً عن (بردي، التراث المحلي والوافد في الهوية الثقافية الجزائرية، 2018، صفحة 27)، أما إميل دوركايم (E. durkheim) فلا يرى للحضارة سوى صورة يحفرها في المرجعية الغربية فقط، ويدعو إلى تعميمها، والأخذ بما كقوة دمج حضاري عظمى يجب أن تخضع لها كل الثقافات" نقلاً عن (بردي، التراث المحلي والوافد في الهوية الثقافية الجزائرية، 2018، صفحة 27).

ويعرف ابن خلدون الحضارة على أنها صناعة القوة وقوة الصناعة، وأن الحضارات لا تتحاور، بل الحضارات تتناوب وهي تخضع لمفهوم النشوء بمعنى البقاء للأصلح (مونيس، دس، صفحة 2) ، والحضارة عنده لا يمكن تصورها دون مجتمع ، فهي تعبير عن الطريقة التي ينتظم بها البشر للبقاء على قيد الحياة (شداددي، ابن خلدون الإنسان ومنظر الحضارة، 2016، الصفحة 612) وهي - أي الحضارة - أيضاً نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر، والبعد عن الخير (خلدون، مقدمة ابن خلدون 2004، الصفحة 248).

1-1 مفهوم حوار الحضارات: يشير إلى درجة من التفاعل والتشاقف والتعاطي الإيجابي بين الحضارات، يؤمن بالحق في الاختلاف، ويكرس التعددية، ويؤمن بالمساواة . (ياقوت، حوار الحضارات وخناجر في جسد الإسلام، دس، صفحة 5)

2-1 الحوار الحضاري: ويقصد به الحوار المتسم بالوعي الحضاري والأخلاق والرفي الحضاري (أحمد، انخيار وهم الحوار بين الحضارات 2016، صفحة 9)

ويعتبر الحوار إحدى آليات التفكير الإنساني المتطور، وهو الشكل المميز والخاص باللغة الإنسانية ويقصد به "عملية تتضمن أشخاصا من مختلف مناحي الحياة في أي مجتمع كان، تجمعوا معا لتعزيز التفاهم وتبادل المعلومات حول القضايا التي تهمهم" (منظمة البحث عن أرضية مشتركة عن Daniel، تصميم عملية الحوار المجتمعي، 2016، الصفحة 7). كما يؤكد بوم (Bohm) على أن الحوار هو طريق لاكتشاف جذور كل الأزمات التي تواجه إجراء اتصال حقيقي بين الأفراد والأمم، خاصة أن الحديث المشترك حول الموضوعات التي تهم الأفراد قد يؤدي إلى النزاع والانقسام وأحيانا إلى العنف، وهذا يرجع إلى نقص وعيب في عملية التفكير الإنساني، ومن هنا يصبح الحوار أحد أشكال التعلم الاجتماعي للاختلافات الثقافية في عملية التفكير الإنساني التي تحكم بدورها الأفكار والقيم والمعتقدات من أجل التوصل إلى نوع من التواصل الحقيقي (وآخرون، الحوار مع الغرب، 2008، صفحة 80) وللحوار الحضاري شروط ومتطلبات أهمها الاستعداد للحوار، كما تكمن أهميته في تلك الإسهامات الإيجابية التي تعود بالنفع على المستوى المحلي والعالمي .

2- أهمية الحوار: ويمكن أن تلمسها فيما يلي:

- يمكن لعملية الحوار أن تؤثر إيجابيا على المجتمعات من خلال إظهار أن المشاكل والخلافات يمكن أن تحل سلميا؛

- الحوار يعزز فكرة الإنصات والتفاهم من خلال اكتساب المعرفة وفهم وجهات نظر الآخرين؛

- ليس بالضرورة أن تقوم عملية الحوار على مبدأ الاتفاق مع الآخر في الرأي، حيث يمكن التأقلم والتعايش بشكل سلمي من خلال احترام بعضهم البعض دون الحاجة إلى الاتفاق مع ما يعتقد أو يقوم به الآخر (yankelovich, 2016)

- إن أهمية الحوار تكمن في كونه يؤدي إلى تداخل آفاق المشاركين فيه مما يدفعهم إلى الاقتراب من بعضهم بدرجة أكثر من الموقف الذي يوجب الرؤية من زاوية واحدة، على هذا النحو يمكن أن نصل من خلال الحوار إلى " أفق شامل " ومن ثمة يدفع الحوار ما هو موقفي، وخاص ليتحرك باتجاه ما هو عام (ليلة، تفاعل الحضارات بين إمكانية الالتقاء واحتمالات الصراع، 2006، صفحة 28) وبالتالي يؤدي في نهاية الأمر إلى تكوين علاقة بين أطراف الحوار يسودها التضامن والاحترام؛

- الحوار هو السبيل المؤدي إلى التفاهم وحل النزاعات من خلال فهم المواقف الفكرية التي تعمل على إنشاء قاعدة يتكون من خلالها مجتمع إنساني متكامل في المحبة والحكمة والتسامح والسلام والازدهار ويتجاوز النظرة الأحادية في النظر للآخر.

كما يعتبر مفهوم الحوار من المفاهيم التي ظهرت جنبا إلى جنب مع مفهوم الصراع، ورغم أن الحوار ظهر مع فجر الفلسفة الإنسانية مع سقراط وأفلاطون وأرسطو، حيث يرى سقراط أن "الحوارات ذات طبيعة معرفية وأخلاقية في نفس الوقت ويتم اللجوء إلى الحوار بقصد إنتاج المعرفة، ويوجه الحوار المبادئ الأخلاقية عادة"، أما أفلاطون فيرى "أن العقلانية هي المبدأ الضابط للحوار"، وبالتالي فالفلسفة الكلاسيكية تضع مبدئين أساسيين لبناء الحوار أو التفاوض وهما: الأخلاق والعقلانية الإنسانية (ليلة، تفاعل الحضارات بين إمكانية الالتقاء واحتمالات الصراع، 2006، 27)، كما يرى جيرجون هابيرماس *jurgen habermas* من خلال نظريته "عقلانية الاتصال" إلى أن الاتصال داخل المجتمع يؤدي إلى نوع من التآزر غير المقيد للأفعال، والذي يعمل أيضا على تصريف متفق عليه للصراعات، ويرى أن هناك مبادئ إنسانية وأخلاقية عامة موجودة في البشر بالفطرة، وإذا كانت هناك أنانية ومصالح تعبر عن تحيزات ذاتية عزلت وفصلت البشر عن بعضهم البعض لتضارب المصالح واختلافها، فإن تفاعلهم وحوارهم قد يكشف المبادئ العامة المغروسة في طبائعهم البشرية، ومن ثمة بالحوار والتفاعل يصلون إلى المبادئ الجوهرية الإنسانية السامية التي من المفروض أن يتعايشوا ويتفاعلوا في ظلها وتحت رايتهما، ولكن شرط أن لا تتحول مبادئ وقيم إحدى الحضارات لتعم وتصبح هي المبادئ الإنسانية السائدة، والتي قد تعترض عليها الحضارات الأخرى (ليلة، تفاعل الحضارات بين إمكانية الالتقاء واحتمالات الصراع، 2006، الصفحات 28-32)، ونعتقد أن هذا ما نعيشه تحديدا ونعاني منه من خلال العولمة التي ساهمت في فرض النظام الغربي الذي غير من نوعية العلاقة وطريقة التواصل بين المجتمعات، فأصبح الطرف القوي والمسيطر هو المتحكم في طبيعة التفاعل، وهذا بسبب ما أحدثته العولمة من عدم تكافؤ في القوى بين مختلف الأطراف.

ثانيا: العولمة

انطلاقا مما قيل سابقا؛ اختلفت وجهات النظر حول مفهوم العولمة وتعددت بتعدد المرجعيات والخلفيات التي ينتمي إليها الباحثون، والتي يمكن اعتبارها ظاهرة سريعة التطور، كثيرة التنوع مختلفة النواحي والأبعاد وإن كان الاعتقاد السابق أنها تمس الجانب الاقتصادي فقط، إلا أنها أثبتت أن امتداد تأثيرها يصل حد الجانب

الاجتماعي والعقائدي والثقافي وجوانب أخرى ،وقد يبقى تأثيرها في المستقبل خارج نطاق التوقعات ،ولقد صاحب ظهورها وانتشارها في العالم العديد من التفسيرات والتحليلات، منها من يرى في العولمة حلولا سريعة وفعالة لكل المشاكل ، ومنهم من يرى العكس، وأنها فحٌّ يجلدول التابعة والفقيرة للحد من تطلعاتها نحو المستقبل ،في إقامة نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،ولعل القول الصائب هو ما جمع بين هذا وذاك ،فلا يمكن إنكار ما جاءت به العولمة من محاسن ،كذلك لا يمكن تجاهل آثارها المدمرة لكيان الشعوب.

1- تعريف العولمة :

تشير العولمة عموما إلى شيئين اثنين هما: انكماش العالم، وازدياد الوعي بالعالم ككل وحسب تعريف روبرتون للعولمة فإنها تعني " تشكيل وبلورة العالم له بوصفه موقفا واحدا، وظهورا لحالة إنسانية عالمية واحدة " (مراد، ظاهرة العولمة بين رفض العرب والإسلاميين والترويج الغربي، دس، صفحة 92). ويمكن التطرق إلى بعض التعاريف المؤيدة للعولمة مثل: ماترين وولف الذي يعتبرها "عملية تحرر تاريخية من أسر الدول القومية إلى أفق الإنسانية، ومن نظام التخطيط الصارم إلى نظام السوق الحرة، ومن الولاء لثقافة ضيقة ومتعصبة إلى ثقافة عالمية واحدة يتساوى فيها الناس والأمم جميعا ، والتحرر من التعصب لإيديولوجية معينة إلى الانفتاح على مختلف الأفكار ، والتحرر من كل الصور اللاعقلانية الناتجة عن التحيز المسبق لأمة أو دين أو إيديولوجية معينة إلى عقلانية العلم وحياء الثقافة" (محمد، تحديات العولمة وآثارها على العالم العربي، دس، صفحة 22). أما أنتوني غدنز (Anthony Giddens) فيعرف العولمة فيقول: "هي مرحلة جديدة من مراحل بروز وتطور الحداثة، تتكشف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي ،حيث يحدث تلاحم غير قابل للفصل بين الداخل والخارج ،ويتم فيها ربط المحلي بالعالمي بروابط اقتصادية وثقافية وسياسية وإنسانية" (فهيمي، العولمة والشباب من منظور اجتماعي، 2007، صفحة 18).

ومنهم من يبيّن تعريفه للعولمة انطلاقا من سلبياتها فيقول: ستيفان كاستل Stephen Castele إنها "تعني فرض التغييرات الجذرية على المجتمعات المحلية عن طريق قوى متحركة من أعلى ،ولكن تطور القوى الموازية من أسفل هو الأمل الكبير ، من أجل عالم أكثر مساواة"، ويصورها حسن حنفي فيقول "هي صراع تاريخي بين المركز والأطراف ، بين الدول الغنية والدول الفقيرة ،بين الشمال والجنوب ،بين الاستعمار والتحرير..." (محمد تحديات العولمة وآثارها على العالم العربي ، دس، الصفحات 22 - 25)، ويعرفها آخرون بكونها اجتياح الشمال للجنوب، أي اجتياح الحضارة الغربية وتحديد النموذج الأمريكي للحضارات الأخرى، وهي التطبيق الفعلي لشعار "نهاية التاريخ"، الذي أريد به تطبيق الرأسمالية الغربية واعتبارها قدر وحتمية للبشرية يقوم على

أسلوب صراع الحضارات أي تصرع الحضارة الغربية ما عداها من حضارات (عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، 1999، صفحة 14).

ومن بين مجمل هذه التعريفات؛ وإن كانت أحيانا متضاربة لا يسعنا إلا أن نقول إنها متكاملة بطريقة ما لأن كل وجهة نظر ترى وتعالج جانبا من الجوانب حسب الخلفيات والمرجعيات، ولكن ما يستوقفنا في هذا المقام هو تلك المبالغة في جعل النموذج الغربي هو الوحيد الذي يجسد العولمة وقيمها ويفرض على باقي الحضارات السير على خطاها، وتجاهل أصالتها وتراثها وحضارتها الضاربة في عمق التاريخ .

إن العولمة التي نعيش في إطارها اليوم تعد مرحلة جديدة من المراحل التي خلفها الصراع في الغرب بطريقة ما، فبعد انتهاء الصراع الذي كان إبان الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفياتي (1991) وانتصار المعسكر الرأسمالي وتفوقه على المعسكر الاشتراكي، وبذلك خروج هذا الأخير من المنافسة يجر أذيال الهزيمة، بدأت في هذه الأثناء القوى الرأسمالية والمتمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية تفتح جبهات واسعة للصراع، فبدأت مرحلة العولمة التي كان الغرض من ورائها سيطرة القوى الرأسمالية على العالم برمته، وإعادة صياغته بما يخدم مصالحها وفرض نط الحياة الرأسمالية ، وتكمن ملامح العولمة في ثلاث ظواهر أساسية هي :

الأولى: بروز النظام الرأسمالي كقوة جبارة وانفراده بقيادة العالم، خاصة مع تفكك المنظومة الاشتراكية؛

الثانية: قيام ثورة علمية تكنولوجية تكاد تحقق نقلة معرفية وإنتاجية جديدة؛

الثالثة: هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على وسائط نقل المعرفة وسعيها لتنميط العالم سياسيا واقتصاديا وثقافيا من أجل إحكام الهيمنة (مراد/ ظاهرة العولمة بين رفض العرب والإسلاميين، ص 120)

وحيث تمثل العولمة جانبين اثنين: أولهما يمثل عملية تلقائية تراكمية محابدة، وثانيها جانب مقصود محمل بمشاريع وأفكار إيديولوجية، ظهرت تحت تسمية عولمة الثقافة وإن كانت تعني "أن ينتقل اهتمام الفرد من ثقافته المحلية إلى الثقافة العالمية دون أن يهتمش هويته الوطنية (مزيان، العولمة الثقافية وتأثيراتها على هوية الشباب والمراهقين الجزائريين، 2012، صفحة 46) "إلا أنها في الواقع ذلك "الاستهلاك الثقافي للثقافة الأمريكية بمكوناتها ومقوماتها وذلك بفرض وسائل كالهيمنة على العقول عن طريق وسائل الإعلام، ترسيخ ثقافة الإدراك التي تمهد للذوبان في الآخر ونفي ثقافة الوعي" (مغازي، العولمة والخصوصية الثقافية، دس، صفحة 201)، ويساهم في إحداث هذا، ذلك التخاطب العالمي المفتوح البعيد عن الرقابة، القادر على التأثير على الدول، ثم التأثير على ثقافات شعوبها، يعني هذا أن المضامين الثقافية للعولمة تهدد عبر أجهزة الاتصال والتواصل الإعلامي الأسس التي تقوم عليها مراكز القوى (السماك ، العولمة وآثارها على الخصوصية الثقافية ، دس، صفحة

84 ، وما زاد من تهديدات العولمة هو اختفاؤها وراء مزاعم أخلاقية وإنسانية (مراد، ظاهرة العولمة بين رفض العرب والإسلاميين والترويج الغربي ، دس، صفحة 144) تهدد المجتمعات العربية والإسلامية على وجه الخصوص بمحاولات مقصودة لطمس الهوية وصهر الثقافات الأخرى في ثقافة واحدة، تضيع معها خصوصية الثقافات المحلية، تحت شعار التواصل والتحاور والانفتاح على الآخرون كان الحوار في بعض الأحيان العامل الأكثر أهمية لمواجهة العولمة الليبرالية التي تعمل على حصر كل الحضارات في حضارة واحدة وهي الحضارة الغربية أو كما يعبر عليها تحديدا "أمركة العالم".

2- الخصوصية الثقافية: وتمثل مركب يحتوي على عدد من الأجزاء المترابطة والمتفاعلة التي يختص كل جزء منها بوظيفة معينة، مع وجود درجة من التعامل والتكامل بين تلك الأجزاء في أدائها لوظائفها "، وتعني الخصوصية الثقافية من خلال هذا المفهوم ما يلي:

- مجموعة من العناصر الثقافية المتنوعة كاللغة والقيم والعادات والأديان والأخلاق؛

- تقوم بين عناصر هذه الخصوصيات عمليات متداخلة منها ما هو ملموس ومنها ما هو غير ملموس؛

- عناصر هذه الخصوصيات مترابطة ومتكاملة لكنه يمكن دراسة كل جزء مستقل عن الآخر مع صعوبة عزل تأثير العناصر بعضها عن بعضها الآخر (دليو، العولمة والهوية الثقافية، 2010، الصفحات 99-100)

وبالعودة إلى الخصوصية الثقافية الجزائرية فيعرفها الأستاذ الدكتور عبد الله بوجلال إجرائيا على أنها: "العناصر الثقافية المادية الروحية والقيمية والحياتية الموروثة والمكتسبة والتي تقوم بوظائف إيجابية في حفظ التماسك الاجتماعي والأسري وضبط وتوجيه سلوك الأفراد والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية وتحدد تصورات وأهداف أبناء الشعب الجزائري الحضارية والتنموية حاضرا ومستقبلا " (محلل، التصور الخصوصي للهوية الثقافية الجزائرية، 2015، صفحة 59) ، فلا يمكن لمجتمع ما أن يحدد مكانة له في التاريخ إن لم يكن صورة واضحة المعالم عن كيانه الاجتماعي والثقافي، إذ يشير المفكر العربي برهان غليون في نفس السياق إلى أنه لا تستطيع الجماعة أو الفرد إنجاز مشروع مهما كان نوعه أو حجمه، دون أن تعرف نفسها وتحدد مكانها ودورها وشرعية وجودها كجماعة متميزة، فقبل أن تنهض لا بد لها أن تكون ذاتا.

وفي هذا المقال؛ لا بد أن نتطرق إلى الهوية والهوية الثقافية بالضرورة؛ تلك التي يقصد بها وإن كانت مرتبطة بهوية وبالثقافة"كل الجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية والمستقبلية، لأعضاء

الجماعة الموحدة التي ينتمي إليها الأفراد بالحس والشعور الانتمائي له " (قويدر، الإعلام المحلي وإشكالية الهوية، دس، صفحة 2).

يقول الأمريكي توم فريدمان Tom Friedman "إن العولمة بالمفهوم المعاصر ليست مجرد سيطرة وهيمنة والتحكم بالسياسة والاقتصاد فحسب، ولكنها أبعد من ذلك بكثير فهي تمتد لتطال ثقافات الشعوب والهوية القومية والوطنية، وترمي إلى تعميم أنموذج من السلوك وأنماط أو منظومات من القيم وطرائق العيش والتدبير، وهي بالتالي تحمل ثقافة تغزو بها ثقافات مجتمعات أخرى". (تومي، من ثقافة الحوار إلى واقع الصراع، دس، صفحة 44)

إن فكرة السيطرة التي جاء بها الغرب عموماً وأراد إسقاطها على العالم العربي والإسلامي، خاصة ما تعلق بالجانِب الثقافي للمجتمعات، خلق نوعاً من العداء والتصادم وجعل فكرة التفاعل الحقيقي بينهما يصعب تطبيقها، وتعتبر الثقافة حصيلة تراكمية للقيم المادية والروحية عبر التاريخ والركيزة الأساسية في بناء الأمم والشعوب واستمرارها، ولعل حركة التطور الثقافي تتعلق بشكل من الأشكال بالتواصل الثقافي، هذا الأخير الذي قد يصبح عامل خطرٍ يسيطر فيه طرف على آخر، وتتحوّل بذلك العلاقات من تواصل وتجاوز حضاري بين الثقافات إلى هيمنة ثقافية، وهذا راجع لعدة أسباب تعيق التواصل.

3- معوقات التواصل الحضاري

3-1: تراكم الوعي السلبي الذي يزيد من حدة الصراع بدلا من تخفيفه : والذي نتج عن تلك العلاقة المضطربة التي يسودها التوتر والتشكيك في نية الطرف الآخر وإن كانت مبررة عند العرب والمسلمين " بسبب الحروب الصليبية، ثم الاستعمار الأوروبي الحديث للعالم العربي والإسلامي، وانتهاء بالدعم الأوروبي للاحتلال الصهيوني لفلسطين ،.... الخ ، يقابله الشعور الأوروبي بالخطر الإسلامي بسبب تلك الهجمات الإرهابية والعمليات الانتحارية في بعض الدول الأوروبية المنسوبة للإسلام هنا وهناك" ، واعتبار الفتح الإسلامي على أنه غزو لا بد من نسيانه، واضطهاد الجاليات المسلمة في بلاد الغرب، واضطهاد غير المسلمين وغير العرب في المجتمعات العربية الإسلامية كدليل على همجية الثقافة الإسلامية وعدائها للآخر (خليل، ثقافة التواصل في عصر العولمة، 2008، الصفحات 431-432)؛

3-2: تفوق قيم الثقافة الغربية: يؤمن فلاسفة الفكر الأمريكي ورجال الدولة والزعماء السياسيون بأن الولايات المتحدة الأمريكية أمة صاحبة رسالة خالدة كقول تيودور روزفلت "أمركة العالم هي مصير وقدّر أمتنا"، ما يؤكد أن هذا التفكير جزء من ثقافة اجتماعية سائدة، حيث يبرر مبدأ التطور حسب التأويل البراغماتي

التنافس بين الثقافات، ويدعم قانون الطبيعة البقاء للأصلح أي الأقوى في الفكر الغربي عموماً، هذا الأقوى في اعتقاداتهم يحمل ثقافة يجب أن تكون سيدة الثقافات من خلال ما يعرف بمهندسة الثقافة التي تعتمد على إنكار العقل والوعي، وبذلك تغيير الاعتقادات والتفضيلات والمدرجات الحسية والغايات والمواقف والآراء، وقد يغير المرء اعتقاده إذا وجد في ما أرسل إليه مغنماً يستهويه ومظهراً يرضيه أو متعة، لتصل أحياناً درجة الإفساد الأخلاقي ويعبر بطل (قالدن2) عن هذا النهج حين قال: "إننا نلتزم نظاماً للسيطرة بحيث أن المسيطر عليهم يشعرون بأنهم أحرار على الرغم من أنهم يخضعون لقانون أشد صرامة من النظم القديمة، إذ عن طريق تصميم دقيق وحذر للثقافة نتحكم في نوازع السلوك... أي نتحكم في الحوافز والرغبات والأمان... الخ"، كل هذا بسبب ما تملكه الدول الأوروبية وعلى رأسها و.م.أ من ترسانة مهولة من القوة الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية والعلمية تركزت جل هذه القوة في عدد محدود من الشركات سميت "بالشركات متعددة القوميات" التي تعمل بالدرجة الأولى على نقل المنتجات الثقافية والكتب والأفلام والمواد التعليمية لترحب بها الدول المستقبلية لتتماثل بها ساعات الإرسال الطويلة (جلال، العقل الأمريكي يفكر، 2000، ص 227-229).

إن هذه السياسة التي يقوم بها الغرب هي مشروع استعماري فكري ثقافي يهدف إلى فرض نموذج واحد هو النموذج الثقافي الغربي، وما يؤكد هذه الفكرة تخوفهم من المهاجرين الجدد المتمسكين بقيم ثقافتهم والمنددين بالتعددية الثقافية واعتبارهم تهديد للهوية الغربية.

3-3: الصورة النمطية للشرق في الخطاب الغربي: يعاني الإسلام والعرب في الخطاب الديني والسياسي الغربي تشويهاً في صورته، على أنها تتميز بالعنف والعداية والتخلف، والتشجيع على الإرهاب ومعاداة الآخر، وأن العرب فرضوا إسلامهم بالقوة وبحد السيف (خليل، ثقافة التواصل في عصر العولمة، 2008، صفحة 434). والواقع أن الإسلام يدعوا إلى الحوار والتعايش، من خلال اعترافه بالحوار كقيمة خلقية، وكاستراتيجية للتعايش بين الديانات الموحدة، والاعتراف بالآخر (زريق، حوار الحضارات وبعده الديني، 2018، الصفحات 7-11)، فهي إذن مبادئ تنم عن شمولية الإسلام وسماحته واحترامه للآخر ولخصوصيته وانفتاحه عليه وقدرته على التكيف مع الثقافات الأخرى، وعلى التعلم منها من غير فوقيّة، ويشهد التاريخ أن الحضارة العربية والإسلامية قد احتوت ثقافة الآخر، وبالتالي تنفي تلك التهم الباطلة حول ارتباط الإسلام بالإرهاب والتعصب والتخلف، وكأن الغرب أصبح يعتمد إيصال هذه الفكرة إلى جمهور العامة من غرب وغيرهم، وإقناعهم بأن مقاومة الاحتلال هو قتل للأبرياء وعداء للديمقراطية، والسؤال المطروح: ماذا يسمى تدخل الغرب في الشؤون الداخلية للدول والشعوب، والغارات الجوية بين الحين والآخر على دول تحاول فرض نفسها ومنع التدخل الخارجي؟

3-4: الإسقاط الثقافي: والذي يهدف إلى الإلحاق الثقافي والتبعية وإلغاء الآخر، حيث أعطت الثقافة الغربية لنفسها حق الوصاية من خلال برامج سياسية واقتصادية وثقافية تقدمها مؤسساتها للعالم العربي والإسلامي ويظهر هذا من خلال مظاهر عدة أهمها:

- الوصاية في وضع القيم ونشر المقاييس الغربية وإعطائها صفة الشمولية، والنظر إلى الحضارة الغربية على أنها مقياس التقدم؛

- دفع الدول الغربية بلدان العالم العربي والإسلامي إلى فكرة علمانية الدولة، والتي تهدف من ورائها إلى تهميش البعد الحضاري في حياة الشعوب.

3-5: ضعف التواصل عربي-عربي وعربي إسلامي: أثر ضعف التواصل العربي -عربي - والعربي - الإسلامي في تشتت الجهود وقلة التنسيق وفي إيجاد ثنائيات ثقافية، ففي الوقت الذي أخذت فيه العوائق الطبيعية في التقلص شيئا فشيئا، كانت العوائق الاجتماعية والتدهور العام للتواصل العربي -عربي يزداد باستمرار؛

3-6: فقدان الأرضية المشتركة: إن غياب فهم مشترك في النظر للقضايا العالمية والاختلاف على المسميات وتضارب الفهم في الجدل الدائر حولها يعمق الخلاف وذلك لاختلاف الرؤى وتنوع الخلفيات الثقافية، إلى جانب تجاهل مؤسسات المجتمع المدني في أي تواصل وحصر ذلك لدى جهات رسمية سياسية خاصة، يتذيل الجانب الثقافي سلم اهتماماتها، واستغلال الخلافات العربية -عربية أو العربية - إسلامية، واستغلال أحيانا بعض الأفلام التي تدعي إسلامها وتفيض بالحق على الإسلام وتوظفها في خدمة أغراضها الخاصة (خليل، ثقافة التواصل في عصر العولمة، 2008، الصفحات 438-439).

4- مقومات التقارب الثقافي: وإن كانت هناك معوقات التواصل والتحاور الحضاري، هناك أيضا عوامل أخرى تمثل مقومات للتقارب الثقافي ومنها:

- الفهم الصحيح للآخر من خلال مصادره الدينية والثقافية والتاريخية وعدم الاعتماد على الوسطاء كالمستشرقين والمؤرخين (دليو، العولمة والهوية الثقافية، 2010، ص 96) ؛

- احترام السبق التاريخي لتطوير البشرية والبحث عن المشترك وهنا يقول صمويل هانتنغتون Samuel Huntington في معرض حديثه عن صراع الحضارات "لن تكون هناك حضارة عالمية واحدة، بل عالم يضم حضارات مختلفة، ينبغي أن يتعلم كل منها طريقة التعايش مع غيرها، ووجوب بذل جهد لتحديد ما هو

مشارك بين الحضارات الغربية وغيرها من الحضارات الأخرى" (خليل، ثقافة التواصل في عصر العولمة، 2008، ص29)؛

- الاقتناع من الجميع بأن هناك العديد من الاحتياجات وتشارك المصالح ولا يمكن العيش في معزل عن الآخر؛
- توفر حد أدنى من المصادقية في الحوار والتقارب؛

- الاستعداد الحقيقي للتنازل عن بعض العناصر المنفردة للحوار (دليو، العولمة والهوية الثقافية، 2010، صفحة 97)، إلى جانب التأكيد من الاستعداد الحقيقي للطرف الآخر وهدفه من الحوار أصلاً ، لأنه أحياناً يكون الهدف من الحوار إما الاستبعاد وإما الاستيعاب وكلاهما لا يخدم الطرف المقابل، وهنا يقول ميشيل فوكو (Michel Fuku) والذي يرى أن الحوار "أحد أطرافه هي استبعاد الآخر الأضعف أو استيعابه حتى لا يشكل وجوده المستقل في الموقف قيداً أو عقبة في سبيل تحقيق مصالح الطرف الأقوى في الحوار" (لبلة، تفاعل الحضارات بين إمكانية الالتقاء واحتمالات الصراع، 2006، صفحة 33).

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى الجهود التي بذلتها منظمة اليونسكو في الدفاع عن الثقافات وخصوصيات الشعوب، من خلال دعوة كل الشعوب إلى الحفاظ على ثقافتها من أجل تكريس مبدأ التنوع الثقافي والتعايش في إطار احترام التعددية الثقافية للجميع ، كما أشار أريش بك عن إمكانية وجود ما أسماه بـ "الثقافات الثالثة أو "المجتمع المدني الشامل" مشيراً إلى من يربط بين المجتمع المدني والتجربة الذاتية أن يستفسر حول احتمال وجود شيء مثل ذاكرة شاملة نشأت عن تجارب وأخطار منفصلة، علاقات التجربة عبر الحدود تقوم وتنشأ تاريخياً مثلاً من خلال العلاقات التجارية المتبادلة بين القارات وحركات الهجرة والعبودية والفتوحات والحروب والاحتلال والاستعمار (دودو، ماهي العولمة، 2012، ص 146).

ثالثاً: الخصوصية الثقافية والعولمة الثقافية والحوار

إن ما تطرحه العولمة من أفكار وثقافات وأنماط للسلوك، تعد بالأساس مستنبطة من الوعاء الحضاري الغربي بمقوماته الإلغائية، قد تهدد بالتشويه الثقافي خاصة بالنسبة للمجتمعات التي تعيش أصلاً أزمة في هويتها الثقافية أو تشوها فيها (الاستعمار)، يطرح إشكالا حول كيفية الحفاظ على المكونات الأساسية التي تعبر عن الخصوصية الثقافية التي يتميز بها كل مجتمع إنساني.

إن القوى العالمية الكبرى تؤمن بتفوقها المادي والتقني المعرفي الذي يجبر بالضرورة في اعتقادها تفوقاً حضارياً وقيماً، من الضرورة إتباعه ومسايرته. من هذا المنطق تشكل ما يعرف بـ "الأنا المركزي الغربي" الذي يهدف

إلى تكريس " الكونية القيمية " والتي يقصد بها حسب الدكتور برقوق أمحمد "محاولات تطوير عدد من الأنساق المعيارية والقيمية التي يجب أو على الأقل يمكن أن تطبع العالم وتحكمه باسمه... وتكون غير معروفة لا بجنس أو بدين أو بعرق أو بلغة أو بثقافة "... (مخلوف، إشكالية الخصوصية الثقافية في ظل العولمة، دس، صفحة 111).

ونحن نرى هذا التصور يختلف كل الاختلاف ويتناقض تماما مع ما هو كائن وموجود، فالقوى الغربية الكبرى تهدف إلى ربط الكونية القيمية بالقيم والثقافة الغربية، وتحديد الأريكية على الكيفية التصورية للشعوب، وقد نجحت في ذلك بصورة لا تحتاج الكثير من المجهود لإدراكها ورؤية تماثلها في المجتمعات، ويمكن الإشارة إلى حدود العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية في النقاط التالية:

- تسعى العولمة إلى الوحدة والنمطية، مقابل التنوع والتعدد الذي تقربه الهوية؛
- تهدف العولمة إلى القضاء على خصوصيات المجتمعات، بينما تعترف الهوية بالاختلاف؛
- تنتقل الهوية من العام إلى الخاص ومن الشامل إلى المحدود، وتنتقل العولمة من العام والشامل إلى المحدود واللاتجانس (مزيان، العولمة الثقافية وتأثيراتها على هوية الشباب والمراهقين الجزائريين، 2012، صفحة 47).

على هذا الأساس؛ لا يمكن أن تشكل العولمة وعاءً مشتركاً بين الغرب والعرب تتم فيه التفاعلات البينية، لأن المركز هو من يفرض مساره على الأطراف، وبما أن الغرب هو المركز فرض ثقافته على باقي الثقافات عن طريق البث الفكري دون امتلاكه لأي لاقط لأفكار الآخرين، هذه الثقافات التي ازداد الاغتراب الثقافي والحضاري لدى شعوبها، ويمكن تقسيم حركة التعامل مع الفكر الغربي في واقعنا المعاصر إلى ثلاثة مراحل هي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الصدمة والانبهار وهي المرحلة التي هزت المسلمين بعنف وأخرجتهم عن مواقعهم الفكرية والثقافية؛

المرحلة الثانية: وفيها تم الانتقال من الانبهار بالآخر إلى المقارنة والالتقاء بين الثقافتين الإسلامية والغربية؛

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة المتعلقة بالصحو الإسلامية المعاصرة، أو مرحلة الوعي بالذات واكتشافها عن طريق إدراك مزايا الإسلام وخصائصه وتفوقه فكرياً، وثقافة، وعقيدة، ونظاماً، ومنهاجا (آخرون، الحوار مع الغرب، 2008، صفحة 186)، حيث يركز الخطاب الإسلامي على القرآن الكريم الموجه لكل الناس، وليس للمسلمين فقط كما يدعي الغرب، والدليل على ذلك بداية الكثير من الآيات القرآنية بقوله تعالى "يا أيها

الناس"، وكلمة الناس في اللغة العربية تعني "الجنس البشري" والتي وردت في القرآن الكريم أكثر من 200 مرة (العشماوي، الحوار بين الحضارات وقضايا العصر، دس، صفحة 101)، وكان يحث على التواصل والتحاور والتعارف وهذا موجود في الخطاب القرآني الشامل لكل الأقوام والأجناس، وفيه يقول القرصاوي "إننا نحن المسلمين نؤمن بالحوار، لأننا مأمورون به شرعا، وقرأنا مليء بالحوارات بين رسل الله وقومهم، بين الله تعالى وبعض عباده، ولهذا نحن نرحب بثقافة الحوار بدل ثقافة الصراع سواء بين الحضارات أو بين الديانات (ياقوت، حوار الحضارات وخناجر في جسد الإسلام، دس، صفحة 11)، وكانت الرسالة الإسلامية رسالة عالمية تلغي أفضلية أقوام على أقوام إلا بالعمل الصالح، وليس بالقوة والهيمنة كما يفعل الغرب .

لقد جاء الإسلام بمبادئ أساسية في الحياة تجمع بين المجتمعات، قائمة على الحوار والتواصل والسلام والأمن، وهو ما تنادي به الأمم المتحدة اليوم ، ولا عجب في ذلك لأن كلمة "إسلام" مشتقة من كلمة "سلم"، بالتالي فالتعايش بين المجتمعات على أساس السلم والسلام هو الأساس، والصراع والحرب هو الاستثناء، وحث على تكريس مبدأ الثقة بين الشعوب والقبائل، بالالتزام بالعهود والمواثيق، وهو المبدأ الذي تفتقر إليه الشعوب اليوم، فهي تعاني من التخوف والشك والحذر المستمر من الآخر، وهذا ناتج بالأساس عن عدم احترام الاتفاقيات وخرقها باستمرار. على هذا الأساس يكون الحوار بين الشعوب هو الأفضل، يكرس فيه مبدأ التعاون على تحقيق المصالح والأهداف المشتركة، والابتعاد عن الصراع الذي يكون عادة نتيجة رغبة طرف ما في الاستئثار بالمنفعة. ولعل هدف الإسلام من الحوار مع الآخر وتحديد الغرب، هو إيصال الصورة الحقيقية عن الإسلام - هذه الصورة التي وصلت إليهم مشوهة وإن كانت تلقى على عاتقهم المسؤولية الأكبر في تشويهها -، والتأثير الإسلامي في الساحة الدولية عبر المؤتمرات العالمية لنشر قيمه ومبادئه السامية، ومحو تلك الأفكار المغلوطة حوله، والذي يؤدي في محصلة الأمر إلى إحداث نوع من التقارب واستيعاب وتفهم الاختلاف، والإدراك بأنه يعني التكامل بطريقة ما، وأن العولمة قد ساهمت بالرغم من سلباتها في التفاعل بين الشعوب، هذا التفاعل الذي يجب أن يكون مرتكزا على الثقافات والهويات الوطنية، وهذا ما تسعى إليه دول شرق آسيا التي تمسكت بملامح هويتها وخصوصياتها الثقافية أشد تمسك، خاصة إذا علمنا مثلا أن الصين واليابان تتقنان اللغة الانجليزية إتقاننا تاما لكنها لم تتخلَّ عن لغتها الأم، ولم تعتنق غير ثقافتها، وإنما تعرفت على اللغة والثقافة الأخرى لتدخل بها مجال العلوم والتكنولوجيا وعلى أحدث وآخر ما توصل إليه الأمريكيون، ووصلوا إلى ما وصل إليه الأمريكيون وتجاوزوهم، والاتحاد الأوروبي أيضا الذي يعمل على ترسيخ الهوية الأوروبية سياسيا، اقتصاديا ونقديا من خلال توحيد العملة، ويرفض العولمة الثقافية جملة وتفصيلا، لإدراكه لحجم الخطر الذي يهدد الهوية، وكانت فرنسا أشدهم حرصا وتشددا في هذا من خلال إقرار جملة قوانين تسعى من خلالها إلى

الحفاظ على اللغة الفرنسية، وضمان عدم سيطرة اللغة الانجليزية على محيطها، فمنعت استعمال هذه الأخيرة (اللغة الانجليزية) في وسائل الإعلام، كما رفضت قبول أي قرارات أو وثائق صادرة عن المنظمات والهيئات الدولية باللغة الانجليزية، وأصررت على أن تصل إليها مترجمة، والسؤال هنا ماذا فعلت الدول العربية والإسلامية للحفاظ على خصوصيتها الثقافية (العشماوي، الحوار بين الحضارات وقضايا العصر، دس، الصفحات 102-106).

ونعتقد جازمين أن استرجاع اللغة العربية -وهي لغة القرآن- وإعادة تمها إلى مكانتها الحقيقية، هي أول خطوة لضمان استمرار الهوية والثقافة الإسلامية، والتي تحلى عنها الكثير من أبنائها قلة منهم عن وعي، والكثير منهم دون وعي، اعتقاداً منهم بأنهم يواكبون اللحظة، جاهلين أنهم في تلك اللحظة يدوسون على تفاصيل وملامح هوياتهم الثقافية، إلا أن هناك ما يوحي ببعض الأمل والتفاؤل وهو بداية إدراك الشعوب من خلال متعلميها ومثقفيها خطورة الاستمرار في هذا الوضع، وضرورة بذل الكثير من الجهود لإعادة إحياء ما دفن، وإن كان مجهوداً متواضعاً إلا أنه ينبع من وعي المجتمعات ونلمسه من خلال بداية نشر الثقافات الخاصة من خلال وسائل الإعلام المحلية.

من هذا المنطلق؛ سعى العديد من الباحثين والمفكرين إلى إيجاد حلول تسمح للفكر العربي والإسلامي من مواجهة الغرب وإنجاح العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية وأهمها ما طرحه محمد عابد الجابري من خلال أطروحته العشرة وهي:

- 1- ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وإنما هناك ثقافات متعددة متنوعة؛
- 2- للهوية الثقافية ثلاث مستويات: فردية وجمعية ووطنية قومية؛
- 3- لا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها الحضارية إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاث عناصر هي: الوطن والأمة والدولة؛
- 4- ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، وإنما هي بالدرجة الأولى إيديولوجية تعكس إرادة الهيمنة على العالم يجب التعامل معها بحذر؛
- 5- العولمة شيء والعالمية شيء آخر، فالعالمية تفتح على العالم وعلى الثقافات الأخرى مع الاحتفاظ بالاختلاف الحضاري والاختلاف الإيديولوجي، في حين العولمة نفي للآخر وترجم الاختراق الثقافي؛
- 6- ثقافة الاختراق تقوم على التطبيع والهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري؛

7- العولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع للتفتيت والتشتيت؛

8- العولمة تعمل على تكريس الثنائية والانشطار في الهوية الثقافية العربية؛

9- إن تجديد أي ثقافة لا يمكن أن يتم إلا من داخلها؛

10- إن حاجتنا للدفاع عن هويتنا الثقافية لا تقل عن حاجتنا في اكتساب الأسس والأدوات التي تساعد في دخول عصر العولمة والتقنية (شهادة، أزمة الحوار الثقافي العربي الغربي في ظل العولمة، دس، الصفحات

(94-93)

على هذا الأساس وجب على الشعوب المختلفة وليس بالضرورة متخلفة أن تحصن نفسها ذاتيا بما تملكه من إمكانيات ومقومات ما يؤهلها بأن تكون الأجدر على التأثير على الآخر لا التأثير به، ويعتبر الحوار الحضاري بين المجتمعات بديلا قد يكون فعالا لمجابهة إفرازات الصراع والتنافر الذي أنتجته العولمة الثقافية تحديدا، ويؤتي الحوار أكله إذا انطلق من المشترك بين الشعوب فيحدث التواصل ويسعى كل طرف لفهم الآخر قبل إطلاق الأحكام المسبقة، فيضمن بطريقة ما استمرار الخصوصيات الثقافية بعيدا عن هيمنة العولمة وفق المنظور الغربي.

إن كل هذه الأفكار المقدمة حول الحوار بين الأطراف المختلفة والتي تعتبر الحضارة العربية والإسلامية واحدة من هذه الأطراف، في مقابل الحضارة الغربية التي يمثلها النموذج الأمريكي بامتياز، وكيفية التواصل دون المساس بالخصوصيات الثقافية يبقى منوط بمجملته من الجهود المبذولة من جانب الطرف المستضعف أو التابع بإرادته أو تحت تأثير ضغوط معينة، وتقديم تنازلات من الطرف المؤثر، واقصد هنا كلمة "تنازلات" لأن الحوار بين الأطراف المتكافئة لا يكون نفسه بين قوي مسيطر وضعيف خاضع، ولأن الطرف القوي عادة هو في غنى عن الطرف الضعيف، وحتى إذا احتاج إليه وجمعت بينهم مصالح سيخضع الطرف الضعيف بالقوة عن طريق الضغط بطرق شتى، إلا إذا كان الغرب لديه من الوعي والإدراك بأهمية الحوار والاحتكاك الثقافي والتلاقح الحضاري، وهذا لا يوجد عادة لدى الطبقة السياسية الحاكمة والمسيطرة، ولهذا لا بد من أن تركز الشعوب على مقومات قوتها وأن تفعّل ثقافة القدرة على التمييز والانتقاء بين ما يؤخذ من الغرب وما يرد عليه.

خاتمة:

إن مشاريع الحوار والتعايش هي مشاريع يجب أن تقوم أولا على الحرية والانفتاح والعقلانية واحترام الآخر والانطلاق من الأرضية المشتركة بين الحضارات في ممارسات تطبيقية واعية تقوم على مبدأ الاعتراف بالآخر، ولأن العالم متنوع في الديانات، الثقافات..... الخ، فإن التفاعل والحوار موجود تلقائيا شئنا أم أبينا خاصة في

ظل العولمة التي قلصت الحدود والأمكنة والأزمدة ودخلت حياتنا بشكل رسمي وغير رسمي كوسائل الإعلام، التواصل الفردي مع أشخاص آخرين من ثقافات وبلدان مختلفة، وهو أمر محتوم لا مفر ولا مهرب منه ، ولكن هذا لا يبرر ذلك الانفتاح المبالغ فيه على الآخر الذي ننسى من خلاله من نكون ؟ وبماذا نتميز ؟ وما الذي يجعلنا نختلف عن الآخر؟

متى استطعنا الإجابة عن هذه التساؤلات استطعنا أن ندرك جوهر هويتنا، التي نصل من خلالها إلى احترام ذواتنا وتقديرها، والذي يحقق بالضرورة احترام الآخر لنا وان كان غير معلن، وعليه للوصول إلى تحقيق عملية حوار حقيقي، يحمل معه تبادل المنافع والمصالح وتبادل الاحترام وهو الأهم .

وعليه نصل إلى جملة من النتائج والتوصيات لعل أهمها ما يلي:

- إن التفاعل بين الدول العربية والإسلامية والدول الغربية يتميز بأنه ذو اتجاه واحد ولا يمكن الحديث عن تواصل حقيقي وحوار بين الثقافات المختلفة إذا لم يتخلص النموذج الغربي من تلك النظرة الاستعلائية على الحضارات الأخرى، وحاول النموذج المقابل ولوج عصر العلم والتكنولوجيا كفاعلين مشاركين وليس مستقبلين مستهلكين، أي العمل على إحداث قوة وتكافؤ اقتصادي؛

- الحوار مرهون بقوة متكافئة بين الطرفين والآخر، فإذا تحدثنا مثلا عن المستوى العربي والإسلامي فهو مرهون بقدرته على التخلص من مظاهر الضعف والعجز في مجالات عدة، إلى جانب الحرص على أن ينشأ الأفراد وهم متشبعون بثقافتهم المحلية والإسلامية معترزين بها مسوقين وناشرين لها ، بداية بالأسرة التي هي مسؤولية الأولياء، ثم المدرسة وتلقى المسؤولية في يد المدرسين ، وهكذا كل مسؤول من موقعه، وفي هذا الصدد يقول محمد الغزالي: "إن الغزو الثقافي يمتد في فراغنا"، حيث يرى أن المجتمعات اليوم تعاني من فهم سطحي وطفولي للإسلام، وهذا الأخير يظلم باسم الإسلام من قبل علماء يخدمون السلطة وشباب عديمي الفقه، وغوغاء حيارى، جاؤوا ببدع ذميمة وإفهام سقيمة وأوضاع جامدة وعادات فاسدة شوهوا بها وجه الحق، وأضاعوا بها الكتاب والسنة (الغزالي، 1987، صفحة 10)، ويقابله تقبل التعددية الثقافية التي يمكن أن تكون وسيلة لعولمة أكثر رشدا وعدلا؛

- إذا كانت فكرة الاختراق الثقافي وتعرض الخصوصية الثقافية للشعوب للخطر أمرا واردا، فإن هذا لا يبرر موقفنا في الانغلاق والانعزال الذي يمثل بطريقة ما انفصال ورفض للعالم جملة وتفصيلا، والأصح أن نتمسك بهوياتنا ونتشبع بثقافتنا على رأسها الدين الإسلامي ونفتح على الآخر بكل ثقة ، لأن الدين يعتبر عنصرا جوهريا في تكوين الشخصية الحضارية وفي هذا الصدد يقول كريستوفر داوسن Christopher

Dausen "الدين من السمات الأساسية المحددة للحضارات... وأن الأديان الكبرى هي الأسس التي تعتمد عليها الحضارات الكبرى" (هنتنجنون، صدام الحضارات، 1999، الصفحة 79)؛

- إن كل حضارة وكل أمة قادرة بما تملك على المشاركة في حوار وتفاعل بين بعضها البعض، ولديها من المقومات ما يجمعها ويجعلها على اتصال أكثر مما يفرقها فمثلاً: يمكن أن تشارك الدول الغربية بما تملكه من ترسانة مهولة على الصعيد التكنولوجي والتقني والمادي، والدول العربية الإسلامية بما تتميز به من مقومات على الصعيد القيمي والروحي وهكذا..... الخ.

لنصل في الأخير فنقول؛ إنه حين نتمكن من ضبط جهازنا الفكري والثقافي وبنائه على ركائز وخلفية ذاتية نابعة من هوية واضحة المعالم والمركّزات، ونصحح مسارنا المعرفي والعلمي ونعطي لأهل العلم قدرهم حينها نستطيع الحديث فقط عن الوسائل اللازمة للتفاعل الفكري والحضاري مع الآخر.

المصادر والمراجع:

- 1) أحمد مغازي. (دس). العولمة والخصوصية الثقافية. مجلة الباحث، العدد 2، الجزائر، 201.
- 2) أحمد مونس. (دس). الحضارات بين الصدام والحوار (شروط ومتطلبات الحوار الثقافي)، جامعة وهران، الجزائر
- 3) ألريش بك ترجمة: أبو العيد دودو. (2012). ما هي العولمة. منشورات الجمل، لبنان، الطبعة 2.
- 4) أمّنة ياسين بالقاسمي، محمد مزيان. (2012). العولمة الثقافية وتأثيراتها على هوية الشباب والمراهقين الجزائريين. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الثامن.
- 5) برهان زريق. (2018). حوار الحضارات وبعده الديني، الطبعة 1. سوريا.
- 6) بن عزة فاطمة الزهراء، سيكوك قويدر. (دس). الإعلام المحلي وإشكالية الهوية. الجزائر.
- 7) حفيظة محلب. (2015). التصور الخاص للهوية الثقافية الجزائرية. معارف، العدد 18، 59.
- 8) ساحل مخلوف. (دس). إشكالية الخصوصية الثقافية في ظل العولمة. دراسات استراتيجية، العدد العاشر
- 9) شوقي جلال (2000). العقل الأمريكي يفكر (من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات). مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة 1.
- 10) صليحة بردي. (المجلد 5، العدد 15، سبتمبر، 2018). التراث المحلي والوفاد في الهوية الثقافية الجزائرية (قراءة في إشكاليتي المفهوم والممارسة). التعليمية، 27.
- 11) صامويل هنتنجنون، ترجمة: طلعت الشايب (1999) صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، مؤسسة سطور للنشر، الطبعة 2.
- 12) طاهر أحمد محمد الريامي. (2016). حوار الحضارات. مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية

- 13) عبد القادر تومي. (دس). من ثقافة الحوار إلى واقع الصراع. مجلة الحكمة، العدد 9، الجزائر.
 - 14) عزت السيد أحمد. (2016). انخيار وهم الحوار بين الحضارات - قراءة تاريخية سياسية - تركيا.
 - 15) على ليلة. (2006). تفاعل الحضارات بين إمكانية الالتقاء واحتمالات الصراع. دار شركة الحريري للطباعة، القاهرة، الطبعة 1.
 - 16) عبد السلام شدادي، ترجمة: حنان قصاب حسن، 2016، ابن خلدون الإنسان ومنظر الحضارة، المكتبة الشرقية، الطبعة الأولى، لبنان.
 - 17) غربي محمد. (دس). تحديات العولمة وآثارها على العالم العربي. مجلة اقتصاديات شمال إفريقيا - العدد السادس، الجزائر، 22.
 - 18) فوزية العشماوي. (دس). الحوار بين الحضارات وقضايا العصر - العولمة وآثارها على الخصوصية الثقافية.
 - 19) فوزيل دليو. (2010). العولمة والهوية الثقافية. مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، قسنطينة.
 - 20) محمد السماك. (دس). العولمة وآثارها على الخصوصية الثقافية.
 - 21) محمد الغزالي. (1987). الغزو الثقافي يمتد في فراغنا.
 - 22) محمد سيد فهمي. (2007). العولمة والشباب من منظور اجتماعي. دار الوفاء، الإسكندرية، ط 1.
 - 23) محمد عمارة. (1999). مخاطر العولمة على الهوية الثقافية. دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة 1.
 - 24) محمد محمد سيد خليل. (2008). ثقافة التواصل في عصر العولمة. دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة .
 - 25) محمد مسعد ياقوت. (بلا تاريخ). حوار الحضارات وخناجر في جسد الإسلام. 6.
 - 26) منظمة البحث عن أرضية مشتركة عن daniel yankelovich. (2016). تصميم عملية الحوار المجتمعي. search for common ground.
 - 27) منى أبو الفضل وآخرون. (2008)، الحوار مع الغرب - آلياته - أهدافه - دوافعه -، دار الفكر، الطبعة 1، دمشق.
 - 28) مهدي شحادة. (دس). أزمة الحوار الثقافي العربي الغربي في ظل العولمة. شؤون الأوسالجامعة اللبنانية، ويكيبيديا الموسوعة الحرة (2014-4-22)
 - 29) ولي الدين عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، 2004، مقدمة ابن خلدون، دار يعرب، ط 1، دمشق.
- الموقع الإلكتروني:

مسكوكات المغرب الإسلامي

(من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة العبيدية 22-363هـ / 643-974م)

د. إكرام البشير الجمل.

Ekram Albasher Aljamal

e.aljamal@art.misuratau.edu.ly

ملخص:

لاشك أن دراسة المسكوكات من المواضيع الهامة والجادة وتبرز أهميتها في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والحضارية للدول من خلال المعدن التي تسك منه وجودتها والنقوش والصور التي تحملها، أيضاً من خلال تطور الخط وتنوعه، كل هذا يجعل المسكوكات وثيقة هامة لدراسة تاريخ الشعوب والحضارات المختلفة، حيث نستقي منها معلومات عن تسلسل الحكام وفترات حكمهم، وأتساع رقع دولهم، وهل كان السك مقتصر على مدن معينة أم كانت تسك في أكثر من مدينه، كذلك تساعدنا على معرفة مدي رقي أو ركود الأحوال الاقتصادية وتبين المعتقدات الدينية لدولة وهل كان مذهب معين سائد بها أم تعددت المذاهب الفكرية بها، بالإضافة لتبيان الأحوال العسكرية والسياسية لدولة من خلال ما تحمله من نقوش أو صور، بالإضافة إلى الجوانب الأخرى كالاقتصادية والحضارية وغيرها.

من هنا تكمن أهمية دراسة العملة و المسكوكات بالمغرب الإسلامي من كونها كنز كاشف عن حال الأمم وتداول الأيام عليها.

Abstract:

Coins are important and serious topics that emerge and reveal the various political, economic, religious, social and civilizational aspects of countries through the metal from which they are minted, their quality and the inscriptions and images they carry, also through the development and diversity of calligraphy. Where we derive information from them about the hierarchy of rulers and their periods of rule, the breadth of their countries, and whether the minting was limited to certain cities or were minted in more than one city, as well as help us to know the extent of progress or stagnation of conditions Economic and religious beliefs of a state and whether a certain

sect prevailed in it or the multiplicity of intellectual doctrines in it, in addition to explaining the military and political conditions of a state through the inscriptions or images it bears, in addition to other aspects such as social, cultural and others.

Hence the importance of studying currency and coins in the Islamic Maghreb from being a treasure that reveals the state of nations and the circulation of days over them.

مشكلة الدراسة.

تكمّن إشكالية هذه الدراسة في معرفة ما كان للمسكوكات من دور هام لمعرفة تاريخ دول المغرب الإسلامي من كافة النواحي الدينية والسياسية والفنية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الإسلامي.

أهداف الدراسة.

تهدف الدراسة للتعريف بالمسكوكات في المغرب الإسلامي وكيفية تطورها وما هي الأدوار التي لعبتها العملة في مختلف مناحي الحياة بالمغرب الإسلامي.

المنهج المتبع.

اتبعت الدراسة المنهج التاريخي السردى التحليلي، واعتمدت على عرض المعلومات وتحليلها وفق ما تقتضيه الدراسة.

مقدمة:

يطلق لفظ السكة (المسكوكات) على جميع النقود التي تعاملت بها الشعوب من الدنانير الذهبية والدرهم الفضية وأيضاً الفلوس النحاسية (حلاق، 1988، ص 15) فالمسكوكات من المصادر الوثائقية الهامة جداً للمعلومات عن الأحداث والدول خصوصاً في التاريخ الإسلامي، فهي مرآة صادقة لأبرز وأهم الأحداث في التاريخ الإسلامي، كذلك تمثل سجلاً لما كانت عليه أحوال البلاد الإسلامية خلال العصور المتعاقبة.

ارتبطت المسكوكات ودراساتها بالفنون الإسلامية بما حملته من نقوش وزخارف وصور وخطوط، فلكل عنصر احتوته دلالاته التاريخية والعقائدية والسياسية وأيضاً الاجتماعية من خلال بعض النقوش المحلية، وكذلك تلقي الضوء على الحالة الاقتصادية عبر العصور التاريخية وذلك من خلال التعرف على قيمة العيار في المسكوكات ووزنها ونقائها.

تمثل السكة إحدى شارات الملك والسلطان الثلاثة (السكة والدعاء على المنبر، والطرز) حيث يحرص كل حاكم على سكها بمجرد توليه الحكم، بالإضافة إلى دورها السياسي والذي يتمثل في كونها سجل لأسماء الخلفاء والولاة والحكام والملوك، فمن خلالها نستخلص تاريخ الأسر الحاكمة وتاريخ حكمها، مع أن تدوين مدن السك يوضح أيضا مدى نفوذ كل خليفة، والأقاليم الخاضعة له.

لم يعرف الإنسان الأول العملة، وذلك لأنه كان يعيش على ما كانت تجتنيه يده من ثمار وجيوب وصيد الحيوانات والطيور، ثم انتقل الإنسان من الكهوف والمغارات والجبال إلى السهول والبطاح، وبالتالي تكونت المجتمعات البشرية الأولى (عبد النبي، 14، ص 155).

وتعتبر فكرة النقود واستخدامها في التبادل نابعة عن الذكاء الإنساني، لتجاوز الصعوبات التي تكتنف نظام المقايضة (قريصة، 1990، ص 9)، والمتمثلة في الآتي:

- 1- عدم إمكانية الاحتفاظ بالقيم أو السلع المستخدمة في المقايضة (قريصة، 1990، ص 11)؛
 - 2- عدم وجود معيار مشترك تتم في ضوئه المبادلة (الدليمي، 1998، ص 12)؛
 - 3- أن عملية المقايضة لا تقوم على أساس عادل في بعض الأحيان وخاصة إذا كان المبادل مضطراً والمبادل معه زاهداً في الحاجة التي مع المبادل (نخلة، بدون سنة، ص 188).
- وعلى هذا اكتشفت وسيلة التبادل حينما ظهرت الحاجة إلى تبادل السلع بين الأفراد، وتذكر بعض المصادر التاريخية أن الليديين وهم سكان المناطق الساحلية في آسيا الصغرى كانت مدتهم موطناً للتجارة، حيث تجمع المعادن النفيسة في هذه المدن (الرزاق، بدون تاريخ، ص 11) وهم أول من سك النقود المعدنية، وكان ذلك في القرن السابع قبل الميلاد، من مادة الإلكترولوم وهو سبيكة تتكون طبيعياً من الذهب والفضة (عبد الرزاق، 1990، ص 47).

واستمر استخدام المقايضة خلال فترات مختلفة من تاريخ البشرية في الشرق والغرب، والحال في المغرب العربي كباقي الدول (<http://search.manduman.com/Record/176765>، 2000). وفيما يلي نتناول بالحديث المسكوكات بالمغرب الإسلامي، وكيف تطورت ومدى استفادتنا منها كباحثين في التاريخ الإسلامي.

أولاً: المسكوكات خلال الفتح الإسلامي بالمغرب

استخدم العرب بداية الأمر الدنانير البيزنطية والدرهم الفارسية، وبعد مجيء الإسلام أقر الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم النقود السائدة في ذلك الوقت، حيث أقرها بوزن الإسلام (الأفندي، 2009، ص 38).

يمكننا إرجاع السبب وراء إقرار رسولنا الكريم لهذه المسكوكات رغم حملها لصور الأباطرة وصورة الصليب إلى كون الدولة الإسلامية في بداية تكوينها لا تملك مقدرات وإمكانات كالتى تمتلكها أقوى إمبراطوريتين في ذلك الوقت المتمثلتين في دولتي الفرس والروم، لذلك أقر مسكوكاتهم تجنباً لصراعات أو توتر للعلاقات حينها.

وبقي الوضع على ما هو عليه في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (العربي، 1982م، ص 46)، أما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ظهرت مسكوكة أخرى إلى جانب الدينار والدرهم، الأمر يتعلق بالفلس النحاسي الذي نقش عليه عبارة التوحيد (حبيب، بدون تاريخ، ص 196). أما الخليفة عثمان بن عفان فقد سك درهما ونقش عليه الله أكبر (علم الدين، 1992، ص 153). في حين نجد أن المصادر التاريخية تذكر أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حاول في خلافته سك عملة إسلامية خالصة وذلك سنة 36-37هـ (الكتاني، بدون تاريخ، ص 430) بالبصرة، إلا أن الأحداث التي جرت في عهده حالت دون استكمال هذه العملة (المبار، 1990، ص 169).

واستمر التعامل بهذه المسكوكات حتى العصر الأموي حيث قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بتعريب كامل للمسكوكات لتأخذ صبغة إسلامية خالصة، وذلك سنة 76هـ، ليتم على إثرها إنشاء دُرّور الضرب في العديد من المدن الإسلامية التابعة له (فلهوزن، 1968، ص 21)، والحال ذاته عرفه الحكم العباسي حيث حرص الخلفاء على ضرب المسكوكات بمجرد توليهم الخلافة، فسكّت المسكوكات العباسية في كثير من المدن التابعة لهم.

إن البحث في تاريخ مسكوكات المغرب الإسلامي لاسيما خلال عصر الولاة الأمويين يكتسي أهمية كبيرة وذلك لمعرفة أنواع المسكوكات المضروبة سواء الدنانير الذهبية أو الدراهم الفضية أو الفلوس النحاسية، فضلا على أن الأمر يزودنا بمعلومات عن هذه الحقبة، وكل ما يتعلق بها من الجوانب المختلفة: سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية وفنية.

ففي بداية الأمر كانت عملية سك المسكوكات تقتصر على السلطة المركزية فقط؛ ولم يسمح لهؤلاء الولاة بضرب المسكوكات إلا أنه بسبب بعد هذا الإقليم عن دمشق في العصر الأموي مما جعل الخليفة يسمح لوالي

أو حاكم إفريقيا بسك المسكوكات لتلبية احتياجات الناس (قرية، 1986، ص 69). أما الاستمرار في التعامل بالمسكوكات البيزنطية فيمكن إرجاعه إلى انشغالهم بالفتوحات الإسلامية وتثبيت دعائم الدولة بالمغرب (بنعبد الله، 2000، ص 15).

وكانت أول نقود عثر عليها للقائد موسي بن نصير سنة 84-96هـ/703-715م حيث سك المسكوكات على الطراز اللاتيني وكتب عليها نصوصاً لاتينية مقتضبة نُقشت بصورة مقلوبة وفي غير موضعها الصحيح (فهيم، 1965، ص 79). ولقد انتهج الفاتحون العرب بالمغرب سياسة نقدية تقوم على تقليد المسكوكات المحلية المتداولة في ذلك الوقت، تبعثها بعد ذلك مراحل أخرى تميزت كل منها بمميزات خاصة (قرية، 1986، ص 71).

قلد للعرب بدايةً أنواع النقود المتداولة في هذا الإقليم وهي نقود هرقلية، وامتازت المرحلة الثانية بظهور عبارات إسلامية تشير إلى رسالة التوحيد بدلاً من العبارات اللاتينية المتمثلة في اسم الإمبراطور البيزنطي وألقابه (الحسيني، 1969، ص 54).

أما المرحلة الثالثة؛ فتميزت بحذف صورة الإمبراطور وولي العهد وأصبح العمود مكور الرأس ثم ما لبث أن زال نهائياً سنة 97هـ/716م (قرية، 1986، ص 81).



Figura 4 a: Félis de Musà ibn Nusayr. British Museum. Aversus: DNDOMINIVS (In Nomini Domini Utraque Solus).

Figura 4 b: Félis de Musà ibn Nusayr. British Museum. Reverse: MUSEFNVSRA (Musa Félis NVSRA Avers).

قطع محفوظة بالمتحف البريطاني

ومن جهته؛ سك موسي بن نصير فلوساً نحاسية حيث كان سكهها غير مرتبط بالسلطة المركزية، وقد احتوت عبارات إسلامية باللغة اللاتينية من هذه العبارات (حسين، 1994، ص 15):

IN Nomini unus dues- Hie Feritus IN Africa Musefilius Nacir Amira

ومعنى هذه العبارات (بسم الله - الله أحد - ضرب هذا الفلوس بإفريقية - الأمير موسي بن نصير)

ويمكننا إرجاع سبب سك موسي بن نصير للفلوس النحاسي إلى تلبية حاجات الجند الفاتحين من البربر والعرب بحيث تكون لديهم عملة سهلة التداول والصرف، غير أن الملاحظ في هذه الفلوس هو أنها لا تحتوي على مكان السك، على الرغم من المصادر التاريخية تؤكد أنها في كل من طرابلس وطنجة (القيسي، 2011، ص 377).

وفي السياق ذاته؛ تعاقب على ولاية المغرب الإسلامي بعد موسي بن نصير ولاية عدة، منهم إسماعيل بن عبيد الله الذي عمل على تعريب المسكوكات اللاتينية إلى الطراز العربي الخالص، فسك دنانير بالقيروان، وكانت على غرار الدينار الأموي بدمشق من حيث الشكل والحجم والوزن وتم ذلك سنة 101هـ. (عبد الوهاب، 1987، ص 407)

من كل ما تقدم؛ يتضح أن ظهور مسكوكات حملت النقوش العربية راجع إلى انتشار الإسلام، وانتشار اللغة العربية كلغة رسمية لبلاد المغرب الإسلامي، بالإضافة إلى كونها دليلاً على استقرار المسلمين من الناحية السياسية والاقتصادية.

وهكذا؛ استمر سك المسكوكات بالمغرب الإسلامي في عصر الولاة بشكل متقطع حتى سنة 138هـ/757م، وهو تاريخ تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية (الدوري، 1997، ص 144) وصولاً إلى العصر العباسي (المقرزي، بدون تاريخ، ص 51)، بعد تعريبها بالمشرك بزمان وذلك سنة 112هـ/731م .

نستخلص من ذلك؛ أن المسكوكات المغاربية مرت بمراحل متعددة حتى وصلت لمرحلة التعريب الخالص وبرز ذلك بشكل واضح خلال حكم الدول المستقلة بالمغرب. ومن أمثلة المسكوكات المغاربية خلال عصر الولاة أو كما تسمى الفترة الانتقالية:

- درهم بشر بن صفوان الكلبي (حركات، 2000، ص 82)

القطر: 26مم. الوزن: 2.54 غرام.

السنة: 103هـ مكان السك: إفريقية.

الخط: كوفي بسيط. (البكري، بدون تاريخ، ص 162)

الوجه	الظهر
الهامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بإفريقية سنة ثلث ومية. المركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.	الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. المركز: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

واستمر سك الدرهم على نفس النسق باختلاف الوزن والقطر وسنة السك ولكنها حملت نفس العبارات. أما المسكوكات النحاسية فهي تعتبر عملة ثانوية فلم تسك بمثل كمية الدراهم والدنانير، إلا أنها حملت اسم الوالي الذي قام بسكها، عكس الدراهم وقلما تحتوي هذه المسكوكات النحاسية على مكان وتاريخ السك كذلك من النادر أن تحمل هامش الوجه والظهر (قربة، 1986، ص 113). أما بعد سقوط الدولة الأموية فقد ظهرت مسكوكات ترجع إلى الفهريين، وأخرى تعود إلى العديد من الاتجاهات الفكرية المختلفة.

- مسكوكات الفهريين.

وتمثل نموذجاً لمسكوكات الوالي عبد الرحمن بن حبيب (حسين، 1994، ص 27) وهي عبارة عن درهم يرجع تاريخ ضربها إلى الفترة من 134-136هـ.

القطر: غير مذكور. الوزن: 2.65 غرام.

سنة السك: 136هـ المكان: إفريقية.

الوجه	الظهر
الهامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بإفريقية سنة ست وثلاثين ومائة. المركز: لا إله إلا الله وحده	الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. المركز: الله أحد الله، الصمد لم يلد،

لا شريك له	ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد

وقد وجدت كذلك؛ مسكوكات لتخليد ذكرى انتصارات بعض قادة الثورات التي قامت ضد الحكومات المركزية أو الولاة منها: الدينار وسكّه زعيم المذهب الإباضي بإفريقية أبي الخطاب عبد العلي (زبيب، 1995، ص220) ويرجع تاريخ سكّه إلى سنة 141هـ، يرجح أن يكون سبب سكّها هو انتصاره على الصفرين وإخراجهم من القيروان سنة 141هـ (معمر، بدون تاريخ، ص 56-57). أما وصفه فكان كالآتي:

القطر: 11مم الوزن: غير معروف.

سنة السك: 141هـ مكان السك: غير مذكور.

الوجه	الظهر
الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينار سنة إحدى وأربعين ومية. المركز: محمد رسول الله.	الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. المركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له

مما سبق؛ يمكننا القول بأن المسكوكات بالمغرب الإسلامي خلال عصر الولاة كانت على غرار المسكوكات الأموية والعباسية مع اختلاف مكان سكّها المتمثل بالقيروان أو مدينة العباسية بشمال إفريقيا، إذ حافظت على شكلها ونوعها ووزنها بالإضافة لأغلب العبارات التي نقشّت عليها. كما يمكننا اعتبار أن كل ما طرأ عليها من تطورات إنما هي تطورات محلية، ولم تحمل هذه المسكوكات اسم الخليفة أو الوالي إلا خلال العصر العباسي.

ثانيا: المسكوكات زمن الدول المستقلة بالمغرب الإسلامي

بعد استقرار الحكم للعباسيين بالمشرق الإسلامي كان الولاية بإفريقية تابعين للسلطة المركزية ببغداد (المسعودي، 1987، ص 266) إلا أنه وبسبب بُعد المسافة بين بغداد والمغرب الإسلامي، بالإضافة إلى سوء العلاقات بين العباسيين وولايتهم بالمغرب؛ استقلت بلاد المغرب عن الخلافة العباسية لتنشئ بذلك دولا مستقلة تماما عن الخلافة. ومن هذه الدول:

- الأغلبية.

كانت علاقة بني الأغلب بالعباسيين علاقة جيدة فكان يأتي تعيين الأمراء من الخليفة العباسي نفسه، وأصبح فيما بعد نظام الحكم أو الولاية وراثياً لدى بني الأغلب (محمود، 1962، ص 131) وقد كانت هناك العديد من دور السك بالمغرب معتمدة من الخليفة العباسي، والتي سُكَّت بها مسكوكات حملت اسم الخليفة وسنة السك وأيضاً بعض الحروف على هامشها قد تكون دلالة على أسماء الصناع (عبد الرزاق، المسكوكات وكتابة التاريخ، 1988، ص 46) ويمكننا اعتبار ذلك نواة لانفصال المغرب الإسلامي عن الخلافة الإسلامية بالمشرق وظهور أول دولة مستقلة بالمغرب الإسلامي.

أما المسكوكات الذهبية الأغلبية التي سكّت بإفريقية لم تحمل أي عبارات تدل على تبعيتها للدولة العباسية إلا نادراً، وكان ذلك خلال الفترة التي كان خلالها الخليفة إبراهيم بن الأغلب (مفتاح، 1978، ص 240) يسعى للحصول على اعتراف رسمي من الخليفة العباسي هارون الرشيد (السيوطي، 2004، ص 226) على ولاية المغرب فنقش ابن الأغلب على الدينار الذهبي اسم الخليفة هارون الرشيد، وجاء في هوامشها تاريخ السك (عبد الرزاق، المسكوكات، 1990م، ص 47) ولم تحمل شعار الأغلبية (غلب) واستمرت هذه المرحلة من 184-196هـ، ثم انتقلت بعد ذلك المسكوكات إلى المرحلة الثانية والمتمثلة في الفترة 196-201هـ وفي هذه الفترة ازداد نفوذ وقوة موقف بني الأغلب ونستنتج ذلك من خلال العبارات التي حوتها مسكوكاتهم التي لم يأت بها أي إشارة إلى الخليفة العباسي.

أما المسكوكات الأغلبية في المرحلة الثانية فقد تخلصت من أي تبعية سياسية، وهذا يدل على مدى قوة دولة بني الأغلب، وإلى الاستقرار الذي وصلت له، بالإضافة لقوة الجانب الاقتصادي بها والذي يظهر جلياً من خلال سكها لدنانير من معدن الذهب التي حملت اسم الأمير الذي قام بسكها وسنة ودار السك، بالإضافة إلى شعار الأغلبية في الجزء المركزي لظهر المسكوك. (قربة، 1986، ص 113)

كانت كلمة "غالب" في البداية أسفل الجزء المركزي لظهر المسكوك أسفل عبارة "محمد رسول الله" ثم صارت أعلى هذه العبارة، مع دمج اسم الأمير الأغلبي أسفل هذه العبارة، وفي بعض الحالات اسم صاحب السكة في الجزء المركزي لوجه المسكوك تحت عبارة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" رغم اختلافها عن النقود العباسية من حيث الوزن والمقاييس، إذ أن مسكوكات الأغلبية تقترب منها من حيث شكل الخط الكوفي. (العجاني، 1988، ص 51) واستخدمت الدنانير الذهبية الأغلبية في مناطق نفوذ الأغلبية بتونس وشرق الجزائر وغرب ليبيا، فضربت مسكوكاتهم بمدينتي القيروان والعباسية، واستمر سكها في هاتين المدينتين حتى سقوط دولة بني الأغلب على يد العبيدين الفاطميين.

نماذج من المسكوكات الأغلبية:

بالنسبة للنصوص التي حوتها الدنانير الذهبية الأغلبية فقد كانت من أبرز ميزاتها عدم التنوع، حيث كانت نصوصها على النحو الآتي:

الوجه	الظهر
الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. المركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.	الهامش: تاريخ الضرب المركز: غلب محمد رسول الله عبد الله



دينار أغلبي ضرب عام 192 هـ \ 808 م في عهد أول الأمراء الأغالبة إبراهيم بن الأغلب. محفوظ في متحف فنون الحضارة العربية الإسلامية بقراده بتونس. ويلاحظ بهذه المسكوكة كلمة غلب أسفل عبارة محمد رسول الله في ظهر الدينار (قربة ، 1986م، ص117).



دينار أغلبي ضرب عام 292 هـ \ 905 م في عهد آخر الأمراء الأغالبة زيادة الله الثالث (زيتون، 1990، ص 99) حيث وضعت كلمة غلب أعلى عبارة محمد رسول الله وكلمة زيادة الله أسفلها في ظهر الدينار، وكلمة خطاب و هو اسم صاحب السكة في ذلك الوقت تحت عبارة لا إله إلا الله وحده لا شريك له (قربة، 1986م، ص 126)



ربع دينار أغلبي ضرب عام 266 هـ \ 879 م بصقلية في عهد الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني حيث نقش عليها بلاغ وهو اسم صاحب السكة أسفل عبارة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" في وجه ربع الدينار، وكلمة إبراهيم (وهو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد) أسفل عبارة "محمد رسول الله" في ظهر ربع الدينار (M.L.Bates., 2002)

أما دار الضرب: فهو اصطلاح أطلق على الجهة المسؤولة على سك المسكوكات المتداولة في الدولة العربية الإسلامية، حيث استخدم العرب بعد فتحهم البلاد التي كانت تحت سيطرة البيزنطيين والساسانيين دور الضرب التي كانت موجودة فيها، واستمر التعامل في بلاد المغرب الإسلامي بعد تحريرها من البيزنطيين على

أساس الدينار الذهبي (السولديس Solidus) وذلك بسبب سيطرة البيزنطيين على مناجم الذهب التي آلت إلى المسلمين بعد فتح إفريقيا.

ولقد ضربت الدنانير الصافية في إفريقية في بادئ الأمر بدمشق لصالح المغرب، ولم يختلف الخط على هذه المسكوكات على الخط المشرقي وأسلوبه، ولم يظهر عليها اسم مكان الضرب حتى سنة 198هـ/813م. ونتيجة لاتساع النشاط التجاري والصناعي وظهور عدد من الدول ضمن نطاق العالم الإسلامي ازداد عدد دور الضرب في العصر العباسي، لتصبح هناك دور لسك المسكوكات بالمغرب تمثلت في مدينة القيروان وورقاده وطرابلس وطنجة. (القيسي، 2011، ص 169).

ومما سبق؛ يمكننا القول أن من أبرز سمات المسكوكات الأغلبية هو كونها ظلت محافظة على نفس النسق العباسي بالمشرق الإسلامي، غير أنها حملت نقش شعارهم غلب، واستمر هذا النمط من المسكوكات حتى أواخر العصر الأغلبي، مع حرصهم على قوة وجودة عملتهم.

ومن مميزات المسكوكات الأغلبية هو استقرارها؛ فلم يحاول الأمراء الأغلبية سحب المسكوكات التي كانت موجودة بالأسواق خلال حكم أي أمير منهم. غير أنهم حاولوا تحديثها، وتحديث الدراهم الأغلبية التي سكت من الفضة من خلال ثورة إصلاحية أخبرتنا عنها المصادر التاريخية كانت على يد الأمير الأغلبي إبراهيم بن الأغلب وتسمى ثورة الدراهم، فيذكر لنا مثلاً ابن عذاري المراكشي في كتابه البيان المغرب أن ((...إبراهيم بن الأغلب قام بسك الدراهم الصحاح، وقاطع ما كان يتعامل به من القطع⁵، (عذاري، بدون تاريخ، ص 511)

فضرب إبراهيم دراهم خالصة العيار، فأصبحت كل عشر دراهم تساوي دينارا فسميت بالعاشرية (قرية، 1986، ص 238). وبهذا العمل للأمير الأغلبي إبراهيم استطاع تكوين قاعدة سليمة لتعاملات التجارية وطريقة التبادل وهذا ما يزيد تأكيدنا على كون الدولة الأغلبية كانت دولة قوية اقتصادياً وسياسياً أيضاً.

وبالإضافة لمسكوكات الأمراء الأغلبية ظهرت مسكوكات أخرى كان الغرض منها هو الانفصال عن الأغلبية أو إعلان الانتصار عليهم، وأيضاً كنوع من الدعاية لدعوته، فقام بسكها بعض الثائرين على الحكم الأغلبي كالمسكوكات التي ضربها منصور بن نصر المعروف بـ "الطنبدي" (الزيدان، 2005م، ص 132). وكانت دراهمه عبارة عن قطعة مستدارة الشكل:

⁵القطع هي كما تسمى الدراهم القطع وهي عبارة عن دراهم فضية غير مكتملة، وذلك بسبب ذهاب جزء منها بسبب القطع، فكانت تلك الدراهم تقبل في تعامل العامة. ينظر لمزيد من التوضيح، المقريري، تقي الدين، إغاثة الأمة بكشف الغمة،

قطرها: 26مم وزنها 2.70غرام

حملت نقوش بالخط الكوفي البسيط.

الوجه	الظهر
الهامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بإفريقية سنة عشرة ومائتين.	الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركين
المركز: لا إله إلا	المركز: عدل
بخ بخ	محمد
الله وحده	رسول الله
لا شريك له	منصور بن نصر
	منصور

يلاحظ أنه استبدل شعار الأغلبة بكلمة "عدل" وهو يمثل شعارا لهم كدليل على عدلهم وأيضا لاجتذاب الأنصار له، أيضاً ذكر اسم منصور مرتين الأول اسمه والثانية كناية عن نصره على بني الأغلب كما يبدو.

المسكوكات العبيدية (الفاطمية).

بعد سقوط دولة بني الأغلب بقراده؛ عين على دار السك عامل آخر هو أبو بكر القمودي الذي كان يعرف بالفيلسوف، وسك مسكوكات حملت اسم الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (عذاري، بدون تاريخ، ص 151) أطلق عليها "السيدية" خلال الخلافة العبيدية لبلاد المغرب الإسلامي سنة 297هـ/909م على أنقاض دولة الأغلبة حيث سكّت عملتها على طراز المسكوكات العباسية إلى جانب اسم الخليفة عبيد الله المهدي أول الخلفاء العبيديين سنة 358هـ/669م (ل. أبسيمينوف، 2001، ص 33)، حيث أمر بإحداث تغيير جذري في طراز العملة، من حيث التصميم، فقاموا بنقش كتاباتهم في ثلاث دوائر متحدة المركز، تسير عكس اتجاه عقارب الساعة، بدلاً من الترتيب الأفقي الذي كانت تنقش عليه كتابات عربية منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان الهدف من وراء هذا الطراز الفاطمي هو التأكيد على حقهم المطلق في الخلافة. (محمود ، 2021، ص 59)

وقد انتشرت المسكوكات المغاربية خلال القرون الأربعة الأولى الهجرية في أنحاء العالم خاصة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة التاسع والعاشر للميلاد، وأصبح الدينار المغربي نقداً دولياً مستعملاً في المعاملات التجارية والمالية، وحل محل الدينار البيزنطي الذهبي، وخاصةً في الأيام الأخيرة لحكم العبيديين ببلاد المغرب، حيث أكتروا من سك العملات الذهبية (الخزاعي، بدون تاريخ)، وذلك كنتيجة لوفرة معدن الذهب بخزائن الدولة بسبب توفر مناجم الذهب بإفريقيا وسيطرتهم عليها وكذلك نشاط حركة القوافل التجارية ببلاد المغرب الإسلامي (بولبيص، 2009، ص 154).



دينار عباسي ضرب في عهد المهدي بالله عام 167 هـ / 783 م

إن الألقاب الواردة على المسكوكات الفاطمية؛ تكشف لنا بوضوح ميول الحكام ونزعاتهم الفردية ومفهوم الملك لديهم (الكرمي، بدون تاريخ، ص 116)، فهي بذلك سجل حافل بالألقاب والعبارات التي توضح أبرز الأحداث السياسية البارزة، فتثبت أو تنفي تبعية الولاة والأمراء للدولة أو استقلالهم عنها، فضلاً عن معرفة الحوادث المتعلقة بفتح بلد ما عنوة أو صلحاً، وذلك من اسم الخليفة أو الأمير على مسكوكات إقليم من الأقاليم.

فالنصوص المسجلة على المسكوكات الفاطمية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتجاهات السياسية والاقتصادية والمذهبية للدولة، فالأفكار السياسية والمذهبية التي حملها الفاطميون إلى بلاد المغرب لم تؤثر على نظام السكة الذهبية تأثيراً واضحاً. وفي مقدمة هذه النقود نقود الداعية أبي عبد الله الشيعي الذي يعتبر أول من ضرب دنائير جديدة تخليداً للانتصارات التي أحرزها على الأغلبية.

وتذكر المصادر التاريخية التي تناولت بالحديث سيرة حياة عبد الله الشيعي طبيعة النصوص المسجلة على السكة الفاطمية المبكرة مثل ((بلغت حجة الله)) في الوجه وعبارة ((تفرق أعداء الله)) في الظهر و ((الحمد لله رب العالمين)) (قربة، 1986م، ص 143).

عند ملاحظة الشعارات والعبارات المنقوشة على مسكوكات أبي عبد الله الشيعي أنه قصد من ورائها الدعاية الإعلامية، وتمهيد الجو الملائم لظهور أمام جديد (صالح بن قرية، المسكوكات الفاطمية في حضارة المغرب الإسلامي، ص34-35) ضرب أبو عبد الله نوعين من الدنانير في الأعوام 286-297هـ وزعت نصوصها على الشكل الآتي:

الوجه	الظهر
الهامش: كتابة هامشية تشير إلى لرسالة المحمدية	الهامش: كتابة هامشية تشير إلى تاريخ ومكان الضرب
المركز: لا إله إلا	المركز: الحمد لله
الله وحده	محمد
لا شريك له	رسول
	رب العالمين

كذلك جاء النوع الثاني للمسكوكات شبيه بالنوع الأول من حيث ترتيب النصوص، وبإضافة عبارتين جديدتين في مركز الوجه والظهر "بلغت حجة الله" و "تفرق أعداء الله" (قرية، 1986م، ص 156). ولقد ضربت المسكوكات العبيدية خلال حكم عبد الله المهدي (297-322هـ) والقائم بالله (322-334هـ) والمنصور بالله (334-341هـ) والمعز لدين الله (341-362هـ) (خباية، 2019، ص50)، أما في عهد مؤسس الدولة عبد الله المهدي، فكانت عبارة عن صفيحة مستدارة من الذهب قطرها ما بين 17 و 21مم وزنها بين (4.1 و 415غ) و(4.5غ) ضربت على طراز الدنانير الأغلبية شكلاً ومحتوى، باستثناء ظهور اسم المهدي وألقابه لدرجة يصعب التمييز بينهما. وقد سككت هذه النماذج في مدينتي القيروان والمهدية (الدشراوي، 1994، ص 504)، فحملت نصوصاً كتابية على الوجه والظهر، وفي الوجه كتابتين هامشية ومركزية من خمسة أسطر كالتالي:

الوجه	الظهر
الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق	الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينار سنة... وثلاث مائة
ليظهره على الدين كله	المركز: الإمام
المركز: عبد الله	

محمد	لا إله إلا
رسول	الله وحده
الله	لا شريك له
المهدي بالله	أمير المؤمنين

يذكر ابن خلدون في مقدمته، أن السكة وظيفة ضرورية للملك والسلطان وشارة من شارات ملكه، فكانت مسكوكات عبد الله المهدي لا تحتوي على شعارات جديدة تشير إلى المذهب الشيعي، رغم احتوائها على اسمه وألقابه (خلدون، بدون تاريخ، ص183)، ويمكننا أن نرجع سبب ذلك إلى مراعاته لغالبية سكان المغرب حيث كانوا من السنة أو أنه في ذلك الوقت لم تستقر له أمور الدولة.

وهكذا؛ اعتبرت المسكوكات وسيلة إعلامية عن الخليفة حيث حملت اسمه الرسمي بصيغة عبد الله وليس كما تذكر لنا المصادر التاريخية عبید الله والذي انشق منه اسم العبيديين أو الدولة العبيدية نسبة له.

تولى الخلافة بعد عبد الله المهدي الخليفة القائم بالله (322-334)، فتأثرت المسكوكات في عهده بالأحداث السياسية والعسكرية المتمثلة في الثورات وانتشار الفتن مثل ثورة ابن طالوت القرشي الطرابلسي، وثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار (الدينوري، 2008، ص 19). وبسبب هذه الثورة وخطورتها كتم القائم بالله وفاة والده عبد الله سنة كاملة وسك الدنانير باسم عبد الله المهدي، وذلك خشية أن يختلف الناس عليه إذا علموا بذلك.

تؤكد هذه الوضعية أن المسكوكات كانت تلعب دوراً كبيراً في تهدئة النفوس، وما يؤكد ذلك؛ ضرب أبي القاسم محمد (القائم بالله) نوعين من الدنانير إحداهما باسم أبيه، والثاني باسمه. واتسمت المسكوكات في عهده بالتطور السريع من ناحيتي الشكل والمضمون. فمن ناحية الشكل أصبح التخطيط الهندسي للدينار يضم نصوصاً دائرية تفصلها حلقات من خطوط معدنية بارزة وظهر الخط الكوفي المورق في النهايات المورقة لأول مرة على السكة الفاطمية (قربة، 1986م، ص158). أما من ناحية المضمون فقد أضيفت عبارات جديدة كنتيجة لهامش جديد، وبذلك أصبح الدينار يحتوي في الظهر على هامشين ومركز.

مثال لمسكوكات القائم بالله:

الوزن: 4.15 غ. القطر: 21 مم.

مكان السك: المهديّة. سنة السك: 328هـ (القيسي، 2011).

الوجه	الظهر
الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.	الهامش الخارجي: وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدلاً لكلماته وهو السميع العليم.
المركز: محمد.	الهامش الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بالمهديّة سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة.
أبو القاسم	المركز: الإمام.
لا إله إلا الله	القائم بالله.
وحده لا شريك له.	أمير المؤمنين.
المهدي بالله.	

من خلال نصوص هذا الدينار يمكننا استقاء الكثير من الأحداث والأمور منها:

- الميل في تلك الفترة لاستخدام آيات قرآنية؛
 - معرفتنا بلقبه الخلافي الصحيح، حيث يرد لقبه في أغلب المصادر التاريخية باسم القائم بأمر الله والصحيح ومن خلال مسكوكاته القائم بالله؛
 - أوضحت لنا أيضاً مستوى الحياة في عصره؛
 - كذلك تبين لنا مسكوكات القائم بالله أنه اعتمد سك مسكوكاته في مدينة المهديّة عاصمة الخلافة العبيديّة (الفاطمية) آنذاك؛
 - أيضاً لم تظهر على مسكوكاته أي شعارات للمذهب الشيعي.
- وبعد وفاة القائم تولى الخلافة ابنه أبي طاهر إسماعيل 334-341هـ الذي تولى الخلافة في ظروف حرجية، فأخفى أمر وفاة والده، وتأكيداً على ذلك سك الدنانير في القيروان والمهديّة بنفس نسق مسكوكات والده.
- من هنا؛ يتبين لنا أن المسكوكات تأثرت بالأحداث الهامة وأثرت فيها، على اعتبار كونها الوسيلة الإعلامية الوحيدة. فكانت الوسيط بين الخليفة والرعية، إلى جانب تأثيرها على الرأي العام للشعوب.

وكان لآخر الخلفاء الفاطميين بالمغرب الإسلامي المعز لدين الله 341-365هـ (عبدالرزاق 2011، ص 51) نصيب أيضاً في سك المسكوكات، حيث تميزت المسكوكات في عهده بسعة انتشارها، كما تعد فترة

خلافته أهم فترات تطور السكة المغاربية، فكانت المسكوكات الذهبية دعامة مهمة من دعائم سياسة الدول (قربة، المسكوكات المغربية من الفتح إلى سقوط دولة بني حماد، 1986، صفحة 350)، حتى أصبحت المسكوكات الفاطمية أداة إعلامية لمذهب الفاطميين. (المذهب الشيعي) (العش، 1974، ص911). أما عن دور السك بالمغرب الإسلامي فقد سك العبيديين الفاطميين مسكوكاتهم بزويلة والقيروان والمنصورية والمهدية وطرابلس فسكت العملة الذهبية والفضية والنحاسية. (الدينار، الدرهم، الفلس) (العش، 1974م، ص913).

خاتمة:

- من خلال عرضنا السابق خلصنا إلى مجموعة من النتائج التي نراها ذات أهمية للباحث في التاريخ وهي كالآتي:
- شكلت المسكوكات بالمغرب الإسلامي مرآة صادقة وسجلاً لما كانت عليه بلاد المغرب الإسلامي طيلة العصور الإسلامية المتتالية؛
 - استمرت المسكوكات بالمغرب الإسلامي خلال عصر الولاة سواء الدراهم الفضية أو الفلوس النحاسية بنفس الطراز الأموي والعباسي في المشرق؛
 - ظهرت بعض المسكوكات لبعض الولاة الذين استغلوا فترة الفراغ السياسي لإثبات حكمهم وذلك بسك مسكوكات تحمل أسماءهم وسنة سك القطعة كنوع من أنواع الاستقلال على الحكومة المركزية؛
 - من ناحية تطورها الفني فقد اتصفت ببساطتها حيث سادتها ظاهرة استخدام الخط الكوفي البسيط المورق الذي يمتاز بخلوه من نقاط التعجيم، بالإضافة إلى شيوع الأخطاء الإملائية في رسم الكلمات بشكل متصل؛
 - تميزت المسكوكات الأغلبية بالجودة والقوة عن سابقتها خلال عصر الولاة، ويمكننا إرجاع ذلك إلى قوة الجانب الاقتصادي للدولة، وتوفر المعادن كالذهب والفضة بالإضافة لاستقرارها من الجانب السياسي والأمني؛
 - كانت المسكوكات وسيلة إعلامية أوضحت استقلال الدول بالمغرب الإسلامي عن السلطة المركزية بالمشرق وذلك من خلال عدم ذكر الخليفة العباسي على المسكوكات والاعتماد على دور السك بالمغرب؛
 - كذلك لعبت المسكوكات دوراً بارزاً في إمدادنا بمعلومات وافية عن عمالات سككت لمعارضين للخلافة بالمغرب من خلال ما احتوته مسكوكاتهم من معلومات من اسم المعارض وسنة ومكان السك بالإضافة للمعدن المستخدم فالسك؛

- تميزت المسكوكات الفاطمية بجودتها وجمالها من خلال ما نقش عليها، كما أوضحت لنا مدى قوة الجانب الاقتصادي للدولة.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

- (1) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية والولايات الدينية. (بيروت، بدون تاريخ).
- (2) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ترجمة ج.س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت، بدون تاريخ) ج2.
- (3) أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.. عيون الاخبار، تحقيقمنذر محمد سعيد أبو شعر، المكتب الاسلامي (بدون مكان، 2008م).
- (4) أبوبكر بن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مكتبة أسامة بن زياد (بيروت، 1982 م).
- (5) أبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر المكتبة العصرية(بيروت، 1987م).
- (6) تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق ياسر سيد صالحين (بدون مكان، بدون تاريخ) ص51.
- (7) جلال الدين السيوطي، (2004). تاريخ الخلفاء، دار الفجر (القاهرة، 2004م) .
- (8) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، دار ابن خلدون (الاسكندرية، بدون تاريخ).
- (9) عبد الحفي الكتاني، التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، دار إحياء التراث العربي (بيروت، بدون تاريخ).
- (10) http://search.manduman.com/Record/176765، - (2000)pp11-23 ..
M.L.Bates. (2002). The introduction of the quarter-dinar by the Aghlabid in 264H. Rivista italiana di numismatica e scienze affini(Issn1126-8700)
- (11) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين، دار الراشاد الحديث(الدار البيضاء، 2000م)
- (12) الأب انستانس الكرملي، النقود العربية والاسلامية وعلم النميات، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، بدون تاريخ).

- 13) إيناس خبايا، مسكوكات دويلات المغرب الأوسط نماذج من القرن 4-7هـ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة المسيلة، (الجزائر، 2019م)
- 14) تقي الدين عارف الدوري، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم في الاندلس دراسة في المصادر والتاريخ والحضارة والتأثير منشورات جامعة ناصر (الخميس، 1997م)
- 15) جمعة المهدي كشبور، مسكوكات إسلامية من مدينة سرت.. مجلة المكتبات والمعلومات، (يناير، 2011)
- 16) حامد العجاني. (1988). جامع المسكوكات العربية بإفريقية، المعهد القومي للآثار والفنون.
- 17) حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة العربية (بيروت، 1988م)
- 18) حسن سليمان محمود، ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب (القاهرة، 1962م)
- 19) خالد علي الديلمي، النقود والمصارف والنظرية النقدية، دار الأنيس (مصراته، 1998م)
- 20) زكريا مهران، موجز النقود و السياسة النقدية، مؤسسة هندراوي (بدون مكان، بدون تاريخ)
- 21) صالح بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر، 1986م)
- 22) صالح مصطفى مفتاح، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع الإعلان (بدون مكان، 1978م)
- 23) صالح ونيس عبد النبي، العملة العربية خلال دينار أموي من الذهب. مجلة البحوث التاريخية مركز الجهاد ، العدد 14 (طرابلس الغرب، بدون تاريخ)
- 24) صبحي تادرس قريصة، اقتصاديات النقود والبنوك (الاسكندرية، 1990م)
- 25) طاهر راغب حسين، تطور النقود المغربية إلى قيام الدولة الفاطمية (بدون مكان، 1994م)
- 26) عبد العزيز بن عبد الله، + العملة بين المشرق والمغرب: أول درهم مغربي سك عام 181هـ. مجلة الاكاديمية، (المغرب، 2000م)
- 27) عبد الله بن علي الزيدان، سياسة الدولة العباسية تجاه إفريقيا والمغرب 144-296هـ/761-908م. مجلة جامعة الملك سعود، كلية الاداب (السعودية، 2005م)
- 28) عبدالرحمن فهمي، فجر السكة العربية (القاهرة، 1965م)
- 29) عبدالفتاح رجب محمد بولبيص، تاريخ برقة في الفترة من القرن الخامس حتى الربع الأول من القرن العاشر الهجري من 400-925هـ، دار الكتب الوطنية (طرابلس، 2009م)
- 30) علي يحيى معمر، الأباضية في ليبيا (بدون مكان، بدون تاريخ)
- 31) فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب (التاريخ السياسي والمؤسسات) 296-365هـ/909-975م، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1994م)

- (32) كريم عاتي الخزاعي، أسواق بلاد المغرب من القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري الدار العربية للموسوعات (بدون مكان، بدون تاريخ)
- (33) ل. أبسيمينوف، تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة حسن بيومي، المجلس الاعلى لثقافة (الاسكندرية، 2001م)
- (34) لمحّة تاريخية عن نشأة العملة القديمة، مجلة آثار العرب. (1990)
- (35) محمد أبو الفرج العشي، النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن، بحث بالمؤتمر الدولي لبلاد الشام (1974)
- (36) محمد أحمد الأفندي، النقود والبنوك، جامعة العلوم والتكنولوجيا (صنعاء، 2009م)
- (37) محمد العناسوة، المسكوكات مصادر وثائقية للمعلومات في التاريخ الإسلامي. دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية (بدون مكان، 2016م)
- (38) محمد باقر الحسيني، تطور النقود العربية الإسلامية، دار الجاحظ (بغداد، 1969م)
- (39) محمد محمد زيتون، المسلمون في المغرب و الأندلس (بدون مكان، 1990م)
- (40) محمود أحمد محمود، تاريخ النقود العربية الإسلامية. الموسوعة العربية العالمية، 2021/3/19 م .
- (41) مصطفى علم الدين، المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين، دار النهضة العربية (بيروت، 1992م)
- (42) منى يوسف نخلة، علم الآثار في الوطن العربي، منشورات جروس برس (طرابلس لبنان، بدون تاريخ)
- (43) موريس لمبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2-5 هـ/8-11م، دار الآفاق الجديدة (المغرب، 1990م)
- (44) ناصر محمود النقشبندى ومهاب درويش البكري، الدرهم الاموي العرب (بدون مكان، بدون تاريخ)
- (45) ناهض عبد الرزاق، المسكوكات (بدون مكان، بدون تاريخ)
- (46) ناهض عبد الرزاق القيسي، المسكوكات النقدية في البلدان العربية قديماً وحديثاً، دار الحكمة (بغداد، 2011م)
- (47) ناهض عبد الرزاق، المسكوكات وكتابة التاريخ، دار الشؤون الثقافية (بغداد، 1988م)
- (48) نجيب زيبب الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس، تحقيق أحمد بن سودة، دار الامير. (بيروت، 1995م)
- (49) يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الاموية، تحقيق محمد أبو ريدة، (القاهرة، 1968م) مج2.

دور الأمير محمد أمين بـُغْرا في تأسيس جمهورية

تركستان الشرقية الإسلامية

The role of Prince Muhammad Amin Bughra in the establishment of the Islamic Republic of East Turkestan

د. ط. عيسى عبد الرسول

جامعة صباح الدين زعيم/ قسم العلوم الإسلامية/ معهد العلوم الاجتماعية إسطنبول/
تركيا

Abudurusuli Aisa

abudurusuli1988@gmail.com

الملخص:

شكل إقليم تركستان الشرقية منطقة استراتيجية للعالم الإسلامي منذ وصول الجيش الإسلامي تحت قيادة قتيبة بن مسلم عام ٩٦هـ، وازدادت أهميته بعد دخول السلطان عبدالكريم سطوق بـُغْراخان إلى الإسلام، وذلك أنه كان يمثل طريق الحرير اقتصاديا، ومحطة رئيسية وبوابة توسيع الفتوحات الإسلامية إلى أقصى الشرق معنويا، ولعب أبناء الأويغور الذين يعيشون في هذا الإقليم دوراً كبيراً في حفظ ثغور المسلمين في أقصى الشرق عدة قرون، من أقدام الأعداء، لكن في مقابل هذه الميزات أصبحت تركستان الشرقية مثار نزاع سياسي بين الاتحاد السوفياتي والصين بعد تراجع عام وقع على العالم الإسلامي في القرون الأخيرة. ولكن لم تهدأ الثورات الشعبية في هذا الإقليم ضد الاحتلال مهما كلف ثمنها، فكانت (١٩٣٣/١١/١٣) فترة كبيرة في تاريخ تركستان الشرقية، لأنه في هذا اليوم أسست أول دولة إسلامية بعد سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م بجهود العلماء والقادات، منهم: محمد أمين بـُغْرا الذي سيتناول هذا البحث (دور الأمير محمد أمين بـُغْرا في تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية) دوره في تحقيق استقلال شعب تركمان الشرقية، وحياة محمد أمين بـُغْرا وجهوده الدعوية والتعليمية، والحركة الجهادية، والعلمية والسياسية،

وجهوده في طريق تحرير مسلمي تركستان الشرقية وتطهير أوطانهم من تحت وطأة المعتدين. ويحتوي عوامل سقوط جمهورية تركستان الشرقية بعد قيامها في كاشغر، وكذلك يتعرض لتعريف تركستان الشرقية وتاريخها موجزاً.

الكلمات المفتاحية: محمد أمين بughra، تركستان الشرقية، الصين، الجمهورية الإسلامية، الحزب الشيوعي الصيني، الاتحاد السوفيتي، كاشغر، الحركة الجهادية والسياسية.

Abstract:

The East Turkestan region has formed a strategic region for the Islamic world since the arrival of the Army of Islam under the leadership of Qutaiba bin Muslim⁹⁶, and its importance increased after the entry of Sultan Abdul Karim Sattuq Bograkh Khan to Islam. The Silk Road represents economically, a major station and a gateway to expanding the Islamic conquests to the far east, morally, and the Uyghurs living in this region played a major role in preserving the Muslim frontiers in the far east for several centuries, from the feet of the Muslim enemy. But in return for these advantages, East Turkestan became the subject of a political conflict between the Soviet Union and China, after a general decline in the Islamic world in recent centuries. However, popular revolutions against the occupation did not abate in this region, no matter what the cost of it, so the 12/11/1933 was a great period in the history of East Turkestan, because on this day he established the first Islamic state after the fall of the Islamic caliphate by exerting the efforts of scholars and leaders, including: Muhammad Amin Bughra. This paper (the role of Prince Muhammad Amin Bughra in establishing the Islamic Republic of East Turkestan) will deal with the role of Prince Muhammad Amin Bughra in achieving the independence of the people of East Turkestan, the life of Muhammad Amin Bughra and his advocacy and educational efforts, the jihadist movement, the scientific and political, and his efforts in the way of liberating the Muslims of East Turkestan. And cleansing their homelands from under the weight of the aggressors. It contains the factors of the fall of the East Turkestan Republic after its establishment in Kashgar, as well as

presents the definition and history of East Turkestan briefly.

Keywords: Muhammad Amin Bughra, East Turkestan, China, the Islamic Republic of China, the Communist Party of China, the Soviet Union, Kashgar, Jihadist and political movement.

مقدمة:

إن إقليم تركستان الشرقية يقع في آسيا الوسطى موطن الأتراك قديما ومهدهم، فهم الذين استوطنوا تلك البقاع وأقاموا عدة دول فيها، وانتشروا منها حتى استقر ببعضهم المقام في الأناضول. وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي اقتسمت كل من روسيا القيصرية والصين تركستان، فاستولت روسيا القيصرية على الجزء الغربي منها فأصبح تحت نفوذها وسيطرتها، وفي الطرف المقابل احتلت الصين الجزء الشرقي منها، وجعلته مقاطعة تابعة لها أسمتها (شنجانينخ) وتعنى: المستعمرة الجديدة، وذلك عام (١٨٧٨م). ومن ذلك التاريخ ظلت تركستان الشرقية تحت نفوذ الصين وسيطرتها تمارس جميع أنواع القمع والاستبداد ضد السكان الأصليين.

ولقد نهجت الصين سياسة المد والجزر إزاء إقليم تركستان، فتارة تشعر السكان بأنهم أصحاب الأرض أحرار في تصرفاتهم ينعمون بخيرات بلادهم ويؤدون شعائرتهم الدينية كما يشاءون، وفي أحيان كثيرة كانت سياسة القمع والاستبداد هي التي تطفئ على سياسة المحتل، وهكذا استمرت الأوضاع في الإقليم إلى بدايات القرن العشرين حيث شدد المستعمر وطأته على الإقليم مما دفع السكان إلى مقاومة هذا الظلم، فاندلعت مقاومات داخلية واشتعلت ثورات مناهضة، ولعل من أبرزها مقاومة الأمير محمد أمين بغرا في سنة ١٩٣٢م، وسبقها قبل ذلك ثورة قومول بقيادة تيمور خليفة سنة ١٩١١م، وأسهمت تلك المقاومات في زيادة الوعي لدى السكان بتحرير بلادهم، فبرزت عدة شخصيات وقيادات تنادي بتحرير البلاد وإعادة الحق إلى أصحابه، كالأمير التركستاني الراحل محمد أمين بـُغرا الذي أسهم بإسهامات كبيرة وأحدث تغييرا في واقع تركستان الشرقية، فقد جاهد - مع رفاقه - وناضل وقاوم واستبسل في الدفاع عن وطنه، وتحريره من قبضة الروس والصين. فهو يعد من الرواد الأوائل الذين رفعوا علم تركستان عاليا وأسهموا في إقامة دولة حرة - وإن لم تستمر طويلا حيث دامت ستة أشهر -.

فالأمير محمد أمين بغرا أنموذج حي للتنضحية والمقاومة من أجل إصلاح واقع تركستان الشرقية وتغييره، فقد ترك بصماته الإصلاحية وخلد بأعماله وأفكاره اسمه في تاريخ تركستان الشرقية الحديث، فهو يعد من الرواد الأوائل الذين رفعوا علم تركستان عاليا وجاهدوا لتحرير مسلمي تركستان الشرقية وتطهير أوطانهم من تحت أقدام الروس والصين.

أولاً: إطار الدراسة

تظهر أهمية هذا الموضوع؛ أولاً: في إبراز إسهامات شعب الأويغور في حماية وطنهم من احتلال الأجانب - الروس والصين-ثانياً: في تسليط الضوء على حياة الأمير محمد أمين بـ غُرا، ودوره في تحرير أرض المسلمين عن أقدام الصين والروس، ثم ثالثاً في إحياء التراث وسيرة علماء الأئمة وإثارة ثمة جهودهم المخبأة في صفحات التاريخ. ويأتي سبب اختيار البحث في عدة نقاط؛ الأول: عدم توفر المصادر العربية عن سيرة محمد أمين بـ غُرا وحياته رغم أنه جاهد لحرية قومه، وكرس حياته كلها لتطهير بلاده من المحتل؛ الثاني: بيان دور محمد أمين بـ غُرا في تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية سواء كان في الجانب السياسي أو العلمي، والثالث: إن المكتبات الخاصة والعامة في حاجة ماسة إلى هذا النوع من المعلومات، فكان تزويدها بهذه المعلومات من الواجبات على أبناء تركستان الشرقية قبل غيرهم. وتتمثل مشكلة البغث التعريف بتركستان الشرقية، والتعريف بحياة الأمير محمد أمين بـ غُرا، وبيان دور الأمير محمد أمين بـ غُرا في إشعال نار الثورة بين الشعب التركستاني على المستعمرين، وإبراز دور الأمير محمد أمين بـ غُرا في تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية سياسياً وعلمياً وحركياً. ويقتصر حدود البحث على الحديث عن نبذة مختصرة عن تركستان الشرقية وتاريخها وثقافتها، وحضارتها وحاضرها، وعن سيرة الأمير محمد أمين بغرا، (١٩٠١م-١٩٦٥م)، ودوره السياسي والتعليمي والحركي في تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية في سنة ١٢/١١/١٩٣٣، وحياته السياسية في الهند وأفغانستان، ومصر، وتركيا وغيرها معتمداً على المنهج التاريخي معتمداً على جمع المعلومات من المصادر والمراجع.

ثانياً: خلفية البحث

هناك كتب ومقالات باللغة الأويغورية والتركية والعربية تحدثت عن جانب حياته ونضالاته من خلال سرد تاريخ تركستان الشرقية، ولم تتحدث عنه بوجه خاص، ولهذا نرى هذه الدراسة مهمة في هذا الشأن:

- فهناك كتاب بقلم محمد أمين بغرا، وترجمة محمد قاسم أمين، بعنوان "تاريخ تركستان الشرقية"، نشر في السعودية، من طبعة الملك فهد سنة ١٤٢٩هـ، وقد تحدث مؤلفه تاريخ تركستان عامة وتركستان الشرقية خاصة إلى وقت التأليف؛

- وكتب محمد قاسم كتاباً بعنوان " تركستان الشرقية في عهد ملوك الطوائف " وقد صدر عن دار تكليماكان الأويغوري في إسطنبول سنة ٢٠٠٠م، تحدث عن الملوك الطوائف وقاداته في تركستان الشرقية.
- وكتب محمد قاسم أمين كتاباً آخر بعنوان "الإعلام لبعض رجالات تركستان" وقد نشر في السعودية من مكتبة ملك الفهد الوطنية للنشر ١٤٢٩؛
- وهناك كتاب جمع صاحبه محمد أحمد مجموعة من أعلام تركستان الشرقية باللغة الأويغورية بعنوان "يُوز مه شهؤر ئۇيغۇر" وقد صدر عن دار سطوق بغراخان في إسطنبول ٢٠١٧م، وقد تحدث مؤلفه عن حياة محمد أمين بغرا بصفحات عديدة.

ثالثاً: التعريف العام لتركستان الشرقية

1. تعريف تركستان الشرقية

إن كلمة تركستان تتركب من كلمتين "ترك" تعني: بها الأقوام المميزة عرقاً ولساناً من سائر الشعوب الناطقة في قارة آسيا و"ستان" هي كلمة فارسية بمعنى البلاد أو الأرض فمعناها بلاد الترك، (ياقوت الحموي، ١٩٩٥م، معجم البلدان، ٢ | ٢٣). ويطلق اسم (تركستان) على تلك المنطقة التي تحدها من الشرق جبال تنغري تاغ، أي: جبل الإله، ومن الغرب جبال الأورال وبحر قزوين، ومن الشمال سلسلة جبلية قليلة الارتفاع، وكانت تعيش في هذه البقعة الواسعة القوم الأويغوري⁶ مع قبائلها منذ آلاف السنين، (محمد أمين بغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٤٦. وسعاد هادي، ٢٠١٦، ص ٢٩، ونجيب عاصم، ١٣١٦هـ، ص ٢)، وهي تنقسم إلى قسمين: الغرب والشرق. أما المدن الغربية تدخل تحتها كازاخستان وأوزبكستان، وتركمنستان،

⁶ كلمة "أويغور" بضم الألف وسكون الواو والياء المعجمة وضم الغين وسكون الواو والراء المهملتين، ويكتب باللغة الأويغورية «ئۇيغۇر» وبالإنجليزية (Uyghur) أو (Uighur) وبالتركية (Uygur) وبالصينية (维吾尔)، وهي تعني "الاتحاد والتضامن" باللغة الأويغورية. وهي اسم لشعب يعيش في آسيا الوسطى. وجاء في "ديوان لغات الترك": «أُيغُر - اسم ولاية وهي خمس مدائن، بناها ذو القرنين حين صالح ملك الترك. وقال: أخبرني نظام الدين إسماعيل طغان تكين بن محمد جقر طنقاخان عن أبيه قال: لما وصل ذو القرنين قرب ولاية أويغور بعث إليه خاقان الترك أربعة آلاف رجل، وأجنته فلانسههم كأجنته الشواهين، وكانوا يرمون خلفاً كما يرمون قداماً، فتعجب منهم ذو القرنين فقال: «إنيان خوذ خرنده» أي: هؤلاء استبدوا مآكلهم لا يحتاجون إلى طعام غيرهم لأنهم لا ينقل الصيد عنهم فيأكلون متى ما أرادوا. فسميت الولاية «خذ خر». ثم قلبت الخاء ألفاً ... والذال ياء والحاء في «خر» غيناً وكذلك يفعل بحروف الحلق» محمود بن الحسين الكاشغري، ١٣٣٣هـ، ص ٢٦. سابت ئۇيغۇرى، ٢٠١٨م، ص ٧٩.

وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وبعض المدن التي تابعة إلى أفغانستان حالياً، وإقليم كشمير كما يقول علماء الجغرافيا. أما سبب تسمية تركستان الغربية والشرقية يرجع إلى بداية القرن العشرين، عندما احتل الروس إمارة البخارى وإمارة خيوه وإمارة فوقند، ودمر الثقافة والحضارة، سماه بالغربية، وأما تركستان الشرقية سميت بتسمية العلامة، القائد، ثابت بن عبد الباقي الكاشغري، رئيس الوزراء لجمهورية تركستان الشرقية الإسلامية باعتبار جغرافي، لأن تلك البلاد تقع على غرب الكاشغر عاصمة تركستان الشرقية، وتقع هذه المنطقة في قلب آسيا. وتمر عنها طريق الحرير القديم، وكان أحد أهم المراكز التجارية في العالم منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة (محمد تورسون عمر، ٢٠٢٠، واقع الدعوة الإسلامية في تركستان الشرقية، ص ٢٨-ومؤهه مهده زونون نوقيا، ٢٠١٧. نؤيغفور يلنامسى، ص ٢٩٨).

2. تعريف تركستان حضاريا وثقافيا:

إن التحقيقات الأثرية تدل أن حضارة تركستان تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد، يقول علماء الآثار بعد التنقيب والتحفير: إن بقايا الآثار اليدوية والجثث المخططة، وخرابات المعابد والجثث التي نقب من مدينة كروون القديمة، وألف بيت، بنيت جابيا الجبل، وكهوف دوتخوان، والمنحوتات الحجرية التي نقشت على تذكارات حجرية على نهر أورخون وجبال آلتاي، وغيرها، تدل أن حضارة تركستان تعود عهدها إلى ٤٥٠٠ قبل الميلاد. (تورغون ألماس، ٢٠١٧، الأويغور، ص ١٤. ومحمد أمين بغرا، ١٤٢٩، ص ٥١. وسابت نؤيغفوري، ٢٠١٨، ٧٩. وتاريخ أورتا آسيا، ص ٣. ويوسف بك مخلصي، ١٩٧٣م، ص ٨٨. ومحمد عاطف، ١٣٠٠هـ، ص ١٣). وشعب الأويغور هي من أقدم الأقوام الذين سجلوا تاريخهم ووصايا ملوكهم إلى جدار المعابد وتذكارات الحجرية. ولقد صنعوا القرطاس من ألفاف شجرة التوت، وانتشروا بطريق الحرير إلى الصين والمشرق العربي وغيرها. سميت ورق سمرقندي، ولو كانت قد ابتكرت في مدينة ختن (ثابدوراخمان باقى، ئؤيغفۇرلارنىڭ ي. زىق تارىخى، ص ٩٣). وأنشأوا المدارس الحكومية والمستشفيات، والتكيات والحمامات وغيرها بعد دخول خاقان سلطان عبد الكريم سطوق بغرا خان إلى الإسلام، منها: المدرسة الصاجية التي أسسها إمارة القاراخانيين في كاشغر، (جمال القارشي، ص ٣. وهاجن فۇرھاجى، ١٩٩٥، ١٤٩. وثابدوراخمان باقى، ١٠٥. Ibrahim Muti, 2002, s309). منار كالان في بخارى، ولقد ترجم القرآن إلى اللغة التركية لأول مرة، (عبد العزيز جنكيز خان، ١٩٤٥، ص ٥٧). واشتغل بالطب منذ ٢٥٠٠ سنة، وتطوره بشكل فائق، وسجل هذه التطور والتقدم المؤرخ اليوناني هيروودوتس، وتحدث في الطب الأويغوري تم تطويره بمساهمة الطبيب الأيغوري غازي باي، (ثابلمست يۇسۇپ، ٢٠٠٤، ١٥) حتى اهتموا القاراخانيون رسميا في مدارسهم، وأنشأوا قسما خاصا للطب، ومزجوا نظرية هذا الطب بثقافة الإسلام عقيدة وأخلاقا، فتحولها إلى طب إسلامي محض، وفي

نتيجة ذلك تخرج منها ابن سينا، وعماد الدين الكاشغري، وشرف الدين الإيلافي وغيرهم، وواصله الشعب الأيغوري جيلاً بعد جيل حتى أسس الجامعات والمعاهد للطب الأويغوري في جميع أنحاء تركستان الشرقية، وقدموا العديد من المساهمات. وتقدمت في الهندسة والمعمار والنقوش تقدماً كثيراً تدل عليها النقوش المعمارية المستخدمة في تشييد المساجد والمباني. وكان أيضاً من أوائل الذين اكتشفوا البترول في فترة القاراخانيين، وأخذها جنكيزخان في أثناء غزو المغول للصين وأماكن أخرى (يوسف بك مخلصي، ١٩٧٣، ص ٥٥). وعاش شعب تركستان عبر المرحلة التاريخية الطويلة من عصر التاريخ المكتوب إلى القرن العشرين حيث أنشأوا العديد من السلالات، منها: "إمبراطورية الهون" (٢٢٠ ق.م - ٢١٦ م) وإمبراطورية "هون أوروبا" (٣٧٥ - ٦٤٨ م)، و"الإمبراطورية الآق هون" (٤٢٠ - ٥٦٥ م)، وسلطنة "كوك ترك" (٥٥١ - ٧٤٥ م)، وسلطنة "أورخون الأويغورية" (٦٤٦ - ٧٤٥ م)، وسلطنة "يديقوت الأويغورية" (٨٥٠ - ١٣٣٥ م)، و"الدولة القاراخانية" (٨٥٠ - ١٢١٢ م)، و"الدولة الغزنوية" (٩٦٠ - ١١٨٧ م)، و"الدولة السلاجقة" (١٠٤٠ - ١١٥٧ م)، و"الدولة الخوارزمية" (١١٧٢ - ١٢٣١ م)، و"الإمبراطورية ترك مغول" و"الإمبراطورية موغولستان" و"السلطنة السعيدية" (١٥٠٤ - ١٦٧٨ م)، و"الإمارات اليعقوبية" (١٨٧٢ - ١٨٧٨)، و"مملكة ختن" و"سلطنة علي" و"جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية" وغيرها (تورغون ألماس، ٢٠١٧، ص ١٤. وقههرمان غوجام بهردى، ٢٠٢٠، ص ٤٦. وثاببدو جليل توران، ٢٠١٧، ص ٢٤٢).

3. الموقع الجغرافي والسكان في تركستان الشرقية

تبلغ مساحة تركستان الشرقية، (٨٢٨،٤١٧) كيلومتراً مربعاً، وتبلغ مساحة الصحراء فيها (٦٥٠) ألف كيلومتر مربع، وتبلغ مساحة الغابات فهي (٩١) ألف كيلو متر مربع (أركين آلب تكين، ٢٠١٢، ص ٩١. وقههرمان، ص ٣٣). وتعد أرض تركستان الشرقية أبعد الأماكن إلى البحر، لأن أقرب بحر يبعد ١٩٠٠ كيلومتر، ويتقاسم سطحها ثلاث سلاسل جبلية من خمس سلاسل جبلية موجودة في القارة الآسيوية، وحوضين، ويوجد بها أربعون نهراً، و١٢ بحيرة، و١٦ مدينة كبيرة، و١٢٦ بلدة، وأكثر من ثلاثة آلاف قرية كبيرة، وأهم مدنها: الأرومجي، خُتن، كاشغر، ياركند، آقسو، كورلا، تورفان، غولجا، آلتاي، قمول، قاراماي (توختي آخون أركين، ١٩٩٧، ص ١٠). أما بالنسبة لقضية سكان تركستان الشرقية فهو من القضايا المثيرة للجدل، حيث تقدر الحكومة الصينية أن عدد سكان تركستان الشرقية يبلغ ١٣ مليوناً في تركستان الشرقية، بينما يقدر المثقفون والعلماء بنحو ٢٥ مليون إلى ٣٠ مليون، وإذ تبدو هذه

الإحصائيات افتراضية، لكنها ليست بعيدة عن العقل، لأن عدد السكان في سنة ١٩٣٣م، كانت ٣,٧٣٠,٠٥١ مليون. (Ondrej Klimes, 2015, p 154)

يقول محمد أمين بوغرا: أمرت الموظفين المحليين في عام ١٩٤٨م بإجراء الإحصاء، وبعد الإحصاء ظهر عدد السكان بين ٨ ملايين و٩ ملايين. (توران، ١٩٩٧س ٢٤٣)، وعندما زار إسماعيل أحمد الرئيس المحلي لإقليم تركستان الشرقية المملكة العربية السعودية في عام ١٩٨٥م، سُئل عن السكان في تركستان الشرقية، فقال: إن عددها هو ١٤ مليوناً (محمد قاسم، ٢٠٠٠، ص ٢٥٧)، ويقول محمد قاسم صاحب أعلام تركستان: كان عدد السكان المسجل من قبل مكتب الإحصاء ثمانية ملايين ونصف في عام ١٩٤٢م.

وبهذه المعطيات؛ نستطيع القول إن إحصائيات هؤلاء المثقفين موافقة للعقل والنقل، (محمد قاسم، أعلام تركستان، ص ١٠٨)، من منطلق أنهم أبناء هذه الأرض وأصحابها.

4. تعريف تركستان الشرقية دينيا

اعتقد شعب الأويغور في مدى التاريخ أديانا متعددة، من الشامانية (ثابدوشكُور مؤهه ممد نمن، ١٩٩٨، ص ٣٢) والمانوية (Bahaeddin Ögel. 1971, 1/171) والزرادشتية (ثابدوشكُور مؤهه ممد نمن، ٣٦) والبوذية (ثابدُور اخمانباقي، ص ١٠٨. وهاجنُور هاجي، 2009، ص ١٨٣. وسعاد هادي، ٢٠١٦، ص ٤٤٤. والجويني، ص ٨٣. وأبو الفضل رجب لي، ١٣٩٣هـ، ص ٨١)، والنصرانية، (ثوتُور ائاسياتار خنتزيسلري، ٢٠٠٨، ص ١٥٨، ونجيب عاصم، ١٣١٦هـ، ص ٨٣)، إلى أن دخلوا الإسلام كاملاً في القرن العاشر الميلادي، وجعلوه ديناً رسمياً للدولة القاراخانية (٨٤٠م - ١٢٢١م) (سعاد هادي، ٢٠١٦، القاراخانيون، ص ٣٣) أما وصول الإسلام بعد فتح بلاد فارس وخراسان، اتجه الجيش العربي المسلم تحت قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي نحو الشرق حتى وصل إلى كاشغر - عاصمة تركستان الشرقية - في سنة ٩٥هـ. وفي سنة ٣٣٢هـ في العصر العباسي، تشرف الخاقان سلطان ستوق بَغرا خان - مؤسس الدولة القاراخانية - بالدخول في الإسلام، وتبعه أبناؤه وكبار رجال الدولة ومنذ ذلك اليوم أصبح الإسلام ديناً رسمياً في تركستان ونواحيها (محمد أمين بوغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٢٠٧).

ومنذ انتشار الإسلام في تركستان الشرقية، لم يقبلوا أي دين آخر غير الإسلام، وقد تنصر بعض الشباب بسبب التبشير العصري الذي يحث على النصرانية بالمال، لكن هؤلاء قلة قليلة. فلقد جاء في تقرير موجز

في دراسة حول نشر المسيحية والكاثوليكية في تركستان الشرقية: كان عدد الكاثوليك في تركستان الشرقية في الخمسينيات 300 فقط، (李建生, 2008, 1) التسعينيات توسعت الكنيسة الكاثوليكية بسرعة، وبحلول عام 2009 وصل عدد المسيحيين في تركستان الشرقية إلى 7000 نسمة، وكان عدد الأويغور ١٪ فقط. (郭换平, 龙开义 2009, 25)

5. التعريف في حاضِر تركستان الشرقية

احتلت الصين تركستان الشرقية عام ١٩٤٩م، واستهدفت بكل الوسائل طمسَ كافة المظاهر الإسلامية والأويغورية في تركستان الشرقية عمدا لإذابة أبنائها في نسيج المجتمع الصيني، وهذا ما يظهر في ممارستها العملية وتشريعاتها وتنفيذ قوانينها واقعيًا، فقتلوا أكثر من ثلاثمائة ألف في الثورة الثقافية - ١٩٥٨ | ١٩٧٨ - من العلماء والمثقفين ورجال أعمال، وغيرهم. واشتدت عمليات انتهاكات حقوق الإنسان في تركستان الشرقية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر حيث إن سلطات الاحتلال حاولت على الصعيد الخارجي اتّهام الأويغور بالإرهاب فإنّها تقوم على الصعيد الداخلي في تركستان الشرقية بتصعيد حملاتها القمعية الموجهة ضدهم، حيث اعتقلت كثيرا من الأشخاص بدعوى ومزاعم واهية، وتشددت بنظامها القاسية على المسلمين طوال السنة، بدءاً بتحريم وتسمية مواليد الأويغور بالأسماء الإسلامية، ومنع إطلاق اللحية للرجال ومحاربة حجاب النساء وصولاً إلى الإبادة الجماعية. (محمد تورسون عمر، ٢٠٢٠، ص ٦٨. وزياذ الشامي، ٢٠١٧، حول تصاعد اضطهاد الصين لمسلمي الأويغور، وقهرمان، ٢٠٢٠، ص ٩٧٢).

رابعاً: الأمير محمد أمين بَغْرا وحياته

1- ولادته واسمه ونسبه

هو محمد أمين بن الحاج فريد الدين التركستاني الختني العلامة، المؤرخ، المفكر، المجاهد، الأديب، الأمير، الحنفي، الماتريدي، ويشتهر بحضرتيم - هي عنوان تقال لمن فاق في العلوم الشرعية وقارا واحتراما -، (تل كومتتي، ٢٠١١، ص ١٠٩١. خبؤير تومور، ٢٠١٦، ص ٧٧٠) بَغْرا، - هي كلمة أويغورية قديمة، تقال لذكر الإبل، فاستخدمها الملوك كالألقاب في إمارة القاراخانية، وكان السلطان عبد الكريم بغراخان أول من لقب بها -، (تل كومتتي، ٢٠١١، ص ١١٨. خبؤير تومور، ٢٠١٦، ص ١٥٣) والأمير، ولد سنة إحدى وتسعمائة وألف ميلادية، وتسعة عشر وثلاثمائة وألف هجرية (١٣١٩هـ/١٩٠١م) في قصبة أوي باغ من محافظة قاراقاش أولى محافظات ولاية خُتْ نالواقعة في جنوب

تركستان الشرقية اليوم، (محمد أمين بَغْرا، ١٤٢٩، ص ٩. ومُؤهَممه د تَفُرسُون
 ئه هَمه د، ٢٠١٧، ٢ | ٢٤٩)، في أسرة علمية ذات شأن. وقيل: قد ولد في حارة دار الخليفة بمدينة
 خُتن. (مُؤهَممه د تَفُرسُون، ٢٠١٧، ٢/٢٤٩) بمأ محمد أمين بَغْرا في عائلة علمية، فكان أبوه
 فريد الدين عَلماً من أعلام الإسلام في وقته، ودرس على والده منذ صباه ولكن سرعان ما توفي أباه،
 فواصلت والدته سكينه بانو بنت حكيم شاه تربية أولادها الستة، فكانت عالمة فقيهة، إلى وفاتها
 ١٩١٣ م، (مُؤهَممه د تَفُرسُون ئه هَمه د، ٢٠١٧، ٢/٢٤٩ ومحمد أمين بَغْرا، ١٤٢٩، ص ٩)،
 فأخذ عمه محمد نياز الحاجي تحت حمايته، وأرسله إلى المدارس الشرعية، كان عمه عالم وطبيب مشهور في
 إقليم ختن، كان يأتي الناس زائراً من كل البلاد.

عندما بلغ عمره ثنتي عشرة سنة قدم إلى ختن زوار من دول الأجنبية، وكان لعمه علاقات قوية مع الدول
 الخارجية لشهرته، وكان محمد أمين بغرا يسمع أقوال هؤلاء الأجانب بأذن واعية. وقد أخبر عن نفسه
 فقال: بقيت في بيت خالي بعد وفاة أمي، وكان خالي محمد نياز عالماً وطبيباً مشهوراً. فيجئ إليه كثير
 من الناس من داخل المملكة أو من خارجها مثل: تركستان الغربية وشبه قارة الهند، كشمير، وتركيا.
 وأتيحت لي الفرصة لمقابلة كثير من الناس هناك، وسمعت كلامهم، وتعلمت من محادثاتهم معلومات كثيرة
 (İslâm Ansiklopedisi, 1/213) فأخذ العلوم السياسية والثقافية عن أحد القادمين من تركيا،
 وبعد ذلك بدأ في قراءة المجلات والكتب التي جلبها الزوار إلى تركستان الشرقية. وعندما بلغ الخامسة
 عشرة من عمره ساءت أحوال المسلمين، وملاً قلبه الغضب والعداوة للطغاة والظالمين، وفي نتيجة هذه القوة
 الدافعة بدأ بدراسة التواريخ القديمة والحديثة لدول العالم (توران، ٢٠١٧، ٢٧) يقول في هذا الشأن: قد
 رسخ في قلبي النفار من الصينيين والحزن على حال قومي ووطني وشعرت بضرورة الاستقلال وأنا في
 الخامسة عشر من عمري. وبدأت بدراسة تاريخ قومي وبحثت عن التاريخ القديم والحاضر للأمم السالفة
 والباقية. (م، س، ٢٠١٧، ص ٢٨) أكمل تعليمه العالي في العلوم الإسلامية واللغة العربية والفارسية في
 مدرسة "داملا حضرت" أشهر مدارس ختن، وعين مدرساً في نفس المدرسة وعمره إحدى وعشرين سنة،
 واستمر في إلقاء الدرس والمحاضرة فيها وفي المدارس الثلاثة الأخرى، حيث كان يقضي ساعات نهاره
 لإلقاء الدروس بين الطلاب، فحصل على لقب "حضرتيم" (مُؤهَممه د تَفُرسُون
 ئه هَمه د، ٢٠١٧، س ٢٥٠) بناءً على نشأته هذه؛ يمكن أن نستنتج العوامل التي أثرت في حياته
 وظهوره:

1. ولادته في بيت علمي وشريف، ومشهور بالعراقة والأصالة؛
2. تأثره بتاريخ أجداده الذين رفعوا راية الإسلام في تركستان الشرقية؛
3. ساعدت التقاليد والأعراف التي ورثها أسرته في صقل شخصيته، حتى ظهرت عليه العبقرية والنبوغ
 منذ طفولته؛

4. تأثر السيد محمد أمين بـ غُرا مما كان يراه من ظلم الصينيين واستبدادهم الشديد؛

5. اهتمامه بدراسة علوم السياسة والتاريخ في سن مبكرة.

2- حياته العلمية:

وقد قضى محمد أمين بـ غُرا طول حياته لتحقيق الحرية والاستقلال في تركستان الشرقية، مقاومة الصين من جانب، الاتحاد السوفيتي من جانب آخر، فقضى ثلث عمره في بلاده بالتعليم والتدريس وبالجهاد. وعندما بلغ التاسعة من عمره كان قد أتم الدراسة الابتدائية وبدأ دراسته في مدرسة قاراقاش وقام بتحصيل العلم في شتى الفنون الدنيوية والشرعية، وعند بلوغه الثانية والعشرين نال قصب السبق على أقرانه، حيث أصبح عالماً فذاً في جميع العلوم الإسلامية كالتفسير والحديث والفقه وأصوله وغير ذلك، ماهرًا في الألسن واللغة العربية والفارسية، وإماماً في لغة قومه ومرجعاً فيها جميعاً (محمد قاسم أمين، ٢٠٠٠، ص ٢٠٥).

وبعد مدة وجيزة استدعاه علماء مدينة خُتن في قصبة إجلًا إلى زمالتهم في التدريس بمدرسة دار الخليفة فاستجاب لذلك. وبدأ بالتدريس في مدينة ختن وكان يقسم ساعات نهاره بين أربع مدارس في المدينة وعمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين. ففي عام ١٩٢٥م قام برحلة استكشافية إلى سائر ولايات تركستان الشرقية، وزار في هذه الرحلة عشر مدن في تركستان الشرقية، وهي: كورلا وطورفان وبوجور وقارا شهر وتوخسون والأورمجي حتى وصل إلى مدينة جوجك أقصى الولايات شمالاً، وزار في رحلته العلماء والمثقفين في كل مدينة مر بها، وتبادل معهم الآراء حول مصير الأمة واستقلالها وحريتها. وكذلك ألقى نظرة فاحصة على قوة الصين وحال قومه في هذه البلاد. وقابل في هذه الرحلة الاستطلاعية شخصين مهمين، أولهما: الشيخ مراد رمزي بيك، ثم المكّي وأخذ عنه أكثر علوم وحيثيات الجهاد الإسلامي. (توران، ٢٠١٧، ص ١٣٢). ومحمد قاسم أمين، أعلام تركستان، ص ٢٠٦) وثانيهما: العلامة ثابت دافلا كمالی الأرتوحي، حيث صب محمد أمين بـ غُرا ما في جعبته من اليقين الجازم إحياء لفريضة الجهاد في سبيل الله لتحرير شعبه من ظلم الصينيين. وأخبر ثابت دافلا أنه لا خيار أمام المسلمين للخلاص من هذه الحالة البشعة سوى العمل المسلح في تركستان الشرقية، فواعدهم السيد محملاًمين بـ غُرا إلى اللقاء في أتون المعارك الإسلامية. (محمد قاسم أمين، ٢٠٠٠، ص ٢٠٦) بعد سقوط جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية عام ١٩٣٤م بيد الروس والصين، هاجر إلى أفغانستان واضطر للعيش كضيف سياسي من عام ١٩٣٤/٩/٢م إلى عام ١٩٤٢/٣/٢٣م، وانتهز هذه الفرصة واشتغل بالبحوث العلمية فخاض في علوم التاريخ وألف كتابه المشهور "تاريخ تركستان الشرقية". (مؤهدهم تفرسون نههمه ٢٠١٧، ص ٢٥) خلال

مدة إقامته في كابول -عاصمة أفغانستان- أرسل العديد من الشباب معه للدراسة في المدارس العسكرية والسياسية في تركيا وغيرها.

انتقل محمد أمين بغيرا إلى الهند في عام ١٩٤٢م، ثم إلى الصين، فالتقى هناك مسعود صبري وعيسى يوسف ألب تكين، وقادر أفندي الساماني، وإسماعيل أفندي، فأنشأ معهم جمعية أبناء تركستان، واشتغلوا بالكفاح القلمي، وعاد ١٩٤٥م إلى وطنه العزيز، ففي عام ١٩٤٧م تم تعيينه رئيس تحرير صحيفة "ألك"، ورئيس اللجنة الأكاديمية لرابطة الأويغور، واشتغل بالتدريس في جامعة دار الفنون، ولأول مرة في تاريخ الجامعة ألقى محاضرة علمية عن الطاقة النووية. ففي عام ١٩٤٩م هاجر إلى الهند ثم تركيا واشتغل في تركيا أستاذاً محاضراً في جامعة أنقرة، وكتب عدة مقالات علمية.

3- حياته السياسية:

ويمكن تقسيم أنشطته السياسية في النقاط التالية:

الأول: أنشطته قبل تأسيس جمهورية تركستان الشرقية: رجع الأمير إلى مسقط رأسه بعد رحلته الاستكشافية واستعد للمعركة والجهاد، أما العلامة ثابت داهلا الكاشغري فقد عزم على التجوال في سائر بلاد الإسلام، فحج حجتين في عامي ١٩٣٠، ١٩٣١م، بعد عودته من الحج نزل إلى ولاية ختن في شهر رجب، وجلس للتدريس في مدرسة آل قاسم، فبدأ حركته السياسية بتربية الشباب، وتعليمهم كيفية استخدام السلاح، وعقد الاجتماعات لمراقبة سير الأحداث. وكان ثابت داهلا يبين المغازي والسير على الشعب في ليالي رمضان المبارك. (محمد قاسم، أعلام تركستان، ص ٥٩٠ محمد أمين بغيرا، تاريخ تركستان ص ٧٨٣) استمر في هذا المنهج إلى أواخر شهر شوال، فعرفا أن الجواسيس بلغوا حركاتهم ونشاطهم إلى الحكومة الغاصبة، وبهذا عجلت الثورة قبل آوانها حتى لا يفشل هذه العمل في أوله فتخمد شعلة الحرية، فعقدت الاجتماعات السرية في فبراير ١ سنة ١٩٣٣م، وفي الاجتماع انتخب قاضي القضاة محمد نياز أعلام لتولي القيادة العليا رئيسا للبلاد فقبله، وكلف ثابت داهلا مستشارا ومساعدًا بجانب شؤون المعارف والعدلية والشؤون الدينية، وعيّن محمد أمين بغيرا أميراً للشؤون العسكرية وسمي بالأمير من هذا اليوم. (سابت نويغوري، ص ٣٦٠. ومحمد قاسم، ٢٠٠٠، ص ٥٩٥). فبدأ الكفاح الجهادي ضد الاحتلال الصيني وحرر مدينة ختن ونواحيها من الصين. يقول محمد أمين بغيرا: على الرغم من أنه كسب عددا كافيا من الأعضاء وجمع مبالغ مهمة من المال؛ إلا أن السلاح لم يكن بمقدار كافٍ، بل كان قليلا جدا. وفي منتصف فبراير كُشفت منظمتنا واستعدت الحكومة لاعتقالنا، فقررنا أن نبدأ الثورة على أي

حال قبل أن يقبض علينا، وهاجنا مدينة قاراقاش في ٢٤ فبراير (محمد أمين بـُغُرَا، تاريخ تركستان، ٧٨٤)

ثم أعلنوا الجهاد في سبيل الله يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر شوال، بهجوم مباغت على قصر الحاكم الصيني بمدينة ختن في ذلك الوقت، ونجحوا في إبادة من فيها من الصينين وصلوا صلاة المغرب في داخل المحكمة، وطردها المستبشرين الأوربيين الذين قدموا من السويد لتنصير المسلمين. وبعد تحرير مدينة ختن زحفت القوات الإسلامية إلى مدن جوما وقارغليق وياركند حتى وصلوا إلى ولاية كاشغر فاتحين مظفرين منتصرين، ودارت خلالها ٣٦ معركة على الصين. فأعلن تأسيس إمارة ختن، وأرسل الرسالة إلى الحكومة الهندية في شراء السلاح، ولكنها لم تستجب، وأرسل الوفد الرسمي إلى ملك أفغانستان محمد زاهر شاه للمطالبة بالاعتراف باستقلال تركستان الشرقية وتقديم بعض الأسلحة، وعدهم الملك الأفغاني بإعطائهم الأسلحة مقابل المال، وتوقف في اعترافه بالدولة (محمد أمين بـُغُرَا، تاريخ تركستان، ص ١٥٢). وشهد الأخوان الشقيقان الأمير شاه منصور (عبد الله) والأمير نور أحمد في حرب فتح مدينة يني حصار إحدى محافظات ولاية كاشغر. (توران، ٢٠١٧، ص ٣١) وكانت الحرب سجالا بين المسلمين والصين في السنتين ١٩٣٢-١٩٣٣م، ولم تكن الثورة في ولاية ختن فحسب، بل كانت ثورة عارمة في جميع الولايات والمدن من أدنى البلاد إلى أقصاها.

وهكذا؛ أسست جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية في كاشغر على يد ثابت داهلا الكاشغري في عام ١٩٣٣/١١/١٢م وإن كان محمد أمين بـُغُرَا لم يكن راضيا عن إعلان هذه الجمهورية، إذ رأى أن الوقت لم يحن بعد لتأسيس الدولة، ولذلك لم يكن من بين وزراء الدولة المعلنة حديثا، وبرغم ذلك اعترف بهذه الجمهورية وأعلن تبعية حكومة ختن لجمهورية تركستان الشرقية. (محمد أمين بـُغُرَا، جغرافية تركستان الشرقية، وحاضرها. ص ١٥٣). وانتخب خوجا نياز حاجي رئيسا لهذه الدولة الحديثة، وبايع عليه كل الأمراء والوزراء في المؤتمر الذي عقد قبل إعلان الدولة (ثالمجان بؤغدات، ٢٠١٨، ص ١٤٧). **مؤسات تركستان، ٢٠٠٨، ص ١١١** وفي عام ١٩٣٣م تغيرت الأحوال في صفوف المجاهدين ودب الخلاف بينهم بسبب وجود عناصر داخلية أمثال فئة التونجان المسلمين الصينيين المستوطنين والمهاجرين الأوزبكين وعناصر الروس البيض الهاربين من روسيا أثناء ثورة أكتوبر عام ١٩١٤م و١٩١٧م واللوبي الصيني المنشق الهارب ماجونغ ينغفلوله المتناحرة (شرپ خؤشتار، ٢٠٠٠، ص ٣١٢)، وبسبب دسياسة الاتحاد السوفيتي المتاخمة، حيث انفصمت عرى ترابط الثورة الباسلة، وبالتالي سقطت حكومة تركستان الشرقية الإسلامية التي شكلها المجاهدون عام ١٩٣٣م برئاسة الشيخ ثابت داهلا، والقائمة مؤقتا

في ولاية كاشغر، وكانت الحكومة الصينية في تركستان الشرقية برئاسة شين سي ساي. (مؤهدهد نه من بؤغرا، ماقالهر تويلسمي، ٣٠)

الثاني: حياته السياسية بعد سقوط تركستان الشرقية هاجر السيد محمد أمين بؤغرا بعد سقوط جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية، واستقر في وادي بوروغيل - وهي منطقة حدودية بين الهند وأفغانستان وتركستان الشرقية - مع أصحابه، وأراد تحرير بعض المناطق الحدودية لتركستان الشرقية بحرب العصابات، فقبل التركستانيون في أفغانستان وسلّحهم بأسلحة حديثة لكي يعود إلى بلاده جاهزا لمحاربة العدو. والتقى ببعض الشخصيات الرئيسية في منطقة واخان بأفغانستان - وهي المحافظة الأقرب إلى تركستان الشرقية - وعقد عقدا مع قربان الله رئيس إحدى القبائل الأفغانية لشراء أسلحة وبعض مواردها المهمة، وشمل العقد ألف جندي من القبيلة الأفغانية. لكن بسبب خيانتهم فشلت هذه المحاولات. وبعد الفشل في استئناف الجهاد قرر الأمير الانتقال مع أسرته إلى كابول - عاصمة أفغانستان - ومكث هناك لسبع سنوات حتى عودته إلى الصين ١٩٤٣م، ليعقد اتفاقا مع قبائل واخان لشراء الأسلحة والذخيرة، ولكن خانت قبائل واخان ولم يستلمها، ثم مشى وأصحابه ووصل إلى كابول - عاصمة أفغانستان - عن طريق بشاور. (مؤهدهد تفرسؤن نه همد، ٢٠١٧، س ٢٥١. توران ٢٠١٧، س ٣٣)

كان السيد محمد أمين بؤغرا في كابول في أوائل عام ١٩٣٥م وكان معه في هذه الهجرة زوجته وأفراد أسرته وحرسه الخاص والأمناء المخلصين من رجاله الكرام. وأرسل أحد مرافقيه شير علي خان حاجي عام ١٩٣٦م إلى قادة فئة التونجان ماخوسن برسالة يعرض عليه مشاركته في حكم مقاطعة ختن، فوافق ماخوسن بصدر رحب وقال: نقبله سيدا وإماما لنا في بلده وأهله، فعاد رسوله إلى كابول عن طريق تيب وكشمير وبشاور في أوائل عام ١٩٣٧م، ولكن الأحوال تغيرت حيث إن شين سي ساي هاجم على ماخوسن في ختن، والجنرال محمود محيطي في ولاية كاشغر (سهيجنسؤك، ٢٠١٤، س ٣٢٢) فهاجر الجنرال محمود إلى بلاد الهند عبر هضاب جبال كشمير في شهر أبريل عام ١٩٣٧م، وبهذا فانت العودة على السيد محمد أمين بؤغرا إلى بلده. وبعد أن عاش في كابول لمدة ثماني سنوات، انتقل إلى الهند واستقر في بشاور، والتقى فيها بالسيد عيسى يوسف آلب تكين، وأراد أن يصدر جريدة ليبلغ بها العالم بما وقع على قومه من الظلم، ولكن الوقت لم يساعده حيث إن الحرب العالمية الثانية كانت في أشد ضراوتها واشتداد قسوتها المهلكة، فضلا عن ذلك اعتقلته حكومة الإنكليز احتياطا لكونه من قيادات الثورة، ثم أطلق سراحه من السجن بكفالة الرئيس الصيني جان كيشي، وبعد إطلاق سراحه من السجن طلبت الحكومة البريطانية منه العودة إلى الصين، فهاجر إلى الصين في عام ١٩٤٣/٤/٤م بالطائرة التي أرسلتها

الصين.⁷ لأن الحكومة السوفيتية تولت حكم تركستان الشرقية، وبقي الحكم للصين اسماً. والتقى مع جان كيشي عدة مرات واستقبله بحفاوة كبيرة (توران، ٢٠١٧م، ص ٤١ محمد أمين بـغرا، ١٩٥٩م، ص ٧) وقام بنشر المقالات في الصحف الصينية، وعين عضواً في الكونغرس الصيني عن تركستان الشرقية.

وقد ثار الشعب التركستاني بمدينة غولجا عام ١٩٤٣م تحت قيادة العلامة علي خان توره، ونجح في تحرير شمال تركستان الشرقية، وأعلن ١٢ نوفمبر عام ١٩٤٤ في مدينة غولجا جمهورية تركستان الشرقية مرة ثانية بعد سقوط الجمهورية الأولى ١٩٤١م. فعاد السيد محمد أمين بـغرا إلى الأورجيجي -عاصمة تركستان الشرقية- مع صاحبيه في عام ١٩٤٥م (عمر الورداني، ٢٠٠١، ص ١٠٢). نهلخان توره ساغوني (٢٠١٦م، ص ٤٦٣) ووقع المفاوضات بين حكومة تركستان الشرقية والصين بواسطة السوفيت، (نهبيجان نهل، ٢٠٢٠، ص ٣٣٨/٨)، فتشكلت الحكومة الائتلافية في ١٩٤٦/٧/١م، وعين وزيراً للتنمية العمرانية، ورئيس التحرير لصحيفة أرك، وكانت هذه الصحفية من صحف المشهورة والمنشرة في ذلك الوقت.

فقام الاتحاد السوفيتي في ١٩٤٦/٨/١٦م باختطاف علي خان توره رئيس جمهورية تركستان الشرقية، وأقدم السوفييت على ذلك التصرف خشية أن تقوم الثورة في المستقبل لتمتعه بتأييد الشعب، ولأنه لم يكن راضياً عن تشكيل الحكومة الائتلافية (نهبيجان نهل، ٢٠٢٠، ص ٧٦٧) ثم قامت الحكومة برئاسة الدكتور مسعود صبري، والسيد محمد أمين بـغرا وزيراً للإنشاء والتعمير حتى عام ١٩٤٧م، (توران، ٢٠١٧، ص ٧٠) ثم تولى رئاسة الحكومة برهان شهيدي -أصله من التتار- وهو الذي سلم تركستان الشرقية لماو رئيس الحكومة الشيوعية الصينية في ١٩٤٩م، وخان البلاد وشهدها. (توران، ٢٠١٧، ص ١٩٤) وقبل هذا التاريخ انسحب السيد عيسى يوسف آلب تكين والسيد محمد أمين بـغرا كلاهما إلى ولاية كشمير الهند برجال كثير، فيهم: العلماء، والمتفقون، والشعراء، والأكاديميون، ثم هاجرا إلى تركيا عام

⁷ كان السبب الأساسي من رئيس الصيني جان كيشي من إعادة الأمير أن شن سي ساي زار السوفييت الاتحادي سريراً، ودخل في الحزب الشيوعي واستلم بطاقة الحزب برقم ١٨٥٩١١، وطلب من السوفييت الاتحادي استقلال تركستان الشرقية عن الصين والجلوس في كرسي الحكم شخصياً، وإن لم يوافق السوفييت على تكليفه لكن أرسل القوات الخاصة واستقرها في منطقة ياقول تقع حدود بين الصين وتركستان، كما أرسلت القوة الخاصة إلى الأورجيجي. فأراد أن يستخدم محمد أمين بـغرا على ضد شن سي ساي، وعلى ذلك رخص جان كيشي إنشاء الجمعية وإصدار المجلات والصحف، وكتابة المقالات في الحرية لتركستان الشرقية. شريف خوشنار، ٢٠٠٠، ص ٧٨. سيجنس ولف، ٢٠١٤، ص ٣٧٢.

١٩٥٢م، وواصل فيها نضاله وكفاحه لأجل استقلال شعبه، حتى انتقل إلى جوار ربه سبحانه وتعالى في سنة ١٩٦٥/٤/٢٩ بأنقرة، ووري جثمانه في مقبرة عظماء الأتراك.

خامساً: دور الأمير محمد أمين بـُغْرا في تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية

1- دوره التعليمي والدعوي:

احتل طريق الحرير موقعا استراتيجيا مهما على جميع الأصعدة فهو المنفذ التجاري للبلدان الواقعة على خطه، كما مثل جسرا لتبادل الثقافات فقد كان المنفذ الوحيد لشعب الأويغور للتواصل مع ثقافات الدول الأخرى، والاطلاع على حضاراتها. وبعد افتتاح الطريق البحري في القرن الخامس عشر، بدأ الطريق الحريري يفقد قيمته الاستراتيجية شيئا فشيئا، مما أدى بذلك فيما بعد - في القرن السابع عشر - بانقطاع علاقة مسلمي الأويغور بالعالم الإسلامي، وكان لهذا أثره في تأخر الشعب التركستاني المسلم في العلوم الدنيوية والشرعية، وعمَّ التخلف جميع أنحاء تركستان الشرقية. ومما زاد الأمر سوءاً تعاقب آل مانجو والمغول والروس والصين على شن غارات على الشعب التركستاني بعد سقوط السلطنة السعدية الياكندية (١٥١٤-١٦٩٩) عام ١٦٩٩م، واستولى هؤلاء المحتلون على بعض الأقاليم جزئياً، واتبعوا مع السكان سياسة التجويع والإجلاء وإجبار الآخرين على الأعمال الشاقة، فأصبح معظم الشعب التركستاني لا يفكر إلا في قوت يومه، لأن الاضطهاد الممنهج من قبل المحتل لم يمنحه فرصة للتفكير في الاستقلال وتأسيس الدولة. وفي ظل هذه الأوضاع المريعة نشأ الأمير، وكان شاهداً على الظلم الذي مورس على قومه، مما أقلق الأمير ونغص حياته فكان لا يفكر إلا في السبيل الذي سينقذ شعبه من هذا الجحيم.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، بدأت الصحوة تسري بين الناس، فكان الأمير ممن أخذ بنصيب من هذه الصحوة، فلقد سمع من الوفود الزائرة عن نضالات دول العالم من أجل استقلالها، فبدأ يفكر في قومه، ورأى أن أول خطوة في الإنقاذ هي إيقاظ عقول الناس وزرع بذور الحرية والاستقلال في قلوبهم، فواصل جهده في نشر الوعي والصحوة بين أبناء البلاد بأساليب متعددة كالتدريس والوعظ والخطب مستثمرا كل فرصة سانحة كالمجالس العامة ومواسم الأفراح والحفلات المختلفة. ويمكن تلخيص جهوده التعليمية والدعوية في النقاط الآتية:

الأولى: دوره في المدارس: تصدر محمد أمين بغرا للتدريس وتوعية الناس بعد تخرجه من المدرسة، فاتخذ مدرسة في مدينة ختن منطلقاً لدعوته وإصلاحاته، فأدخل في المنهج الدراسي دراسة سيرة النبي - صلى

الله عليه وسلم - ومغازيه ومناقب الصحابة - رضي الله عنهم - لغرس فكرة الجهاد في نفوس الطلاب. وكان يُسمع الطلاب دائما جهود الصحابة - رضي الله عنهم - وتحملاتهم المشقة في إقامة دولة إسلامية في المدينة المنورة إلى جانب تضحياتهم في الفتوحات الإسلامية، ويطلع طلابه على تضحيات الشعوب في سبيل حريتها واستقلال أوطانها. وعباً روح الطلاب ومعنوياتهم الجهادية بتدريس وتفسير آيات الجهاد وفضائله من القرآن الكريم، وفضل من خرج في سبيل الله ومات شهيدا بجانب شرحه للأحاديث التي تحت على الجهاد في سبيل الله مع اطلاعهم على تاريخ وطنهم وقومهم إيقاظا للحرية والاستقلال في نفوسهم. **(محمد قاسم أمين، ٢٠٠٠، ص ٢٠٥)** ولعل صدق الأمير مع الله سبحانه وتعالى وإخلاصه في تحقيق هدفه قطف ثمرات تربيته، فوجد من الشباب المتعلمين من يفهم كلامه فزاد بهم أنسه وقوى بهم عزيمته. ويحكي الأمير عن هذه التجربة بقوله: بدأت في التدريس ووجدت من الشباب المتعلمين من يفهم كلامي ويميز أنسي وانسجامي معهم، وبمرور الوقت كثر مثل هؤلاء الشباب، فاتخذت منهم أصدقاء، وقد حظيت منهم بمحبة وإخلاص ... ووصلت إلى مركز يمكنني أن أوقظ بينهم المكان للبلوغ إلى قصدي ومبتغاي آملا منهم النهوض إلى عمل ما يوقظ الأمة ويهزها إلى النضال لصالح أمتنا **(محمد أمين بغرا، ١٤٢٩، ص ٧٧٦)**. وهكذا واصل مسيرته الإصلاحية حتى استطاع أن يصنع من الشباب من يهتم بشؤون بلده ويسعى لاستقلالها من ظلم الصينيين، ويوجد من أتباعه من يستنفروا للجهاد في سبيل الله إذا استنفر. وعندما زاره العلامة ثابت بن عبد الباقي دألام، أسند إليه تدريس القرآن الكريم طيلة شهر رمضان المبارك، فاحتشد الطلاب وعوام الناس ينهلون من علم الشيخ، فبدأ ثابت دامولام بتفسير آيات الجهاد كما فسرها الأمير. وكان لهذه الخطوة المباركة ثمارها حيث زاد عدد أعضاء الجمعية، كما كان لانضمام بعض الأثرياء - في مدينة ختن - للجهاد ثمرة أخرى، فقد حققت الجمعية مكاسب مادية أسهمت في شراء معدات حربية كالسيوف والرماح وغير ذلك من عتاد حربية، ومعدات عسكرية. يقول الأمير: تكفل الشيخ ثابت دامولام بتدريس تفسير القرآن الكريم طيلة شهر رمضان المبارك وأنه يعمد رأسا في تفسير آيات الجهاد من القرآن الكريم تحت ستار تفسير القرآن الكريم، ونجح الشيخ في عمله هذا لحت الناس على الجهاد في سبيل الله، وإن هذا العمل الجليل يساعدنا كثيرا في ازديادنا من أعضاء الجمعية. **(م، س، ص ٧٨٣)**.

الثانية: دوره في المجالس العامة والمساجد: وبالرغم من تجمع الشباب حوله، إلا أنه تحرير في تنفيذ الأمور وكيفيةها، لأنه كان لا يعرف شيئا عن أوضاع البلاد ومعنويات الشعب وقوة الأعداء، فسافر وزار عدة مدن من جنوب تركستان إلى شمالها، وعرف في هذا السفر الأوضاع المختلفة في هذه المدن، وأشرفها

بدقة. يقول: علمت أثناء سفري هذا مختلف أوضاع بلادي الواسعة وشؤون الناس وعاداتهم الاجتماعية والمعيشة وقدراتهم المالية. (م، س، ص ٧٧٧) بعد عودته من هذه الرحلة التي استغرقت ستة شهور، بدأ يفكر في وسائل وأساليب الدعوة وطرقها لجمع الناس حوله، فلم تمر الأيام إلا وقد وجد طريقة لحل هذه المشكلة، وهي الدعوة في كل المناسبات، مثل: الأعراس والمجالس لعزاء أهل الميت والمساجد وغيرها. يقول فيها: بمجرد عودتي من الرحلة، بدأت في البحث عن طرق للاستعداد للثورة، وجمع الناس من حولي، واقترب الناس مني دون أن تعرقلهم الحكومة. وكان الحل سهلاً، لأن لدي معرفة دينية كافية، فبدأت بإلقاء الخطب في جميع أنحاء ختن. فأصبح الناس يأتون من أماكن بعيدة لاستماع وعظي وخطبي. (توران، ٢٠١٧، س ٢٩) بعد اجتماع عديد من الشباب من طلاب العلم، اتخذ المساجد مكاناً لدعوة الناس إلى الجهاد في سبيل الله كما اتخذ المدارس قاعدة لتربية الشباب لأن الشيخ كان مدرساً لنصف اليوم في المدارس، والنصف الآخر إماماً للناس في المساجد، واغتنم هذه الفرصة في خطبته اليومية والجمعة، وحرص على الجهاد في مدينة ختن.

بعد نجاح الشيخ في دعوته بمدينة ختن، وسَّع دعوته إلى محافظة قاراقاش، فحث الناس على الجهاد، وشرَّح أهمية الدولة المستقلة ومكانتها في دفع الظلم عن المسلمين بحكمة، فدعا الشيخ أولاً أقاربه وأصدقائه ومن كان حوله فرداً فرداً، ثم دعا عامة الناس جماعياً في المساجد والمجالس المختلفة، كما مر، ونتيجة لهذه الجهود والدعاية، برعم براعم الجهاد والحرية في عقول الناس وتحشد الناس حوله فملاً قلبه بالأمل، حتى أسس الجمعية السرية في يونيو عام ١٩٣١م باسم جمعية الوحدة الوطنية، في إيلجا تابعة لولاية ختن، كان الهدف الأساسي متأسيسها جمع الأموال وشراء السلاح، وقبول أعضاء جدد، ثم أنشأ فرعاً لها في كاشغر، يتمثل دورها في دراسة القوات الصينية هناك، والتعرف على وعي الناس وتوفير المال للثورة المستقبلية. (محمد أمين بغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٧٨١).

الثالثة: دوره في توعية الأثرياء لدعم أنشطته: جمع الأمير أشراف المدينة وأغنياءها حوله، وأيقظ رغبة حرية البلاد واستقلالها في قلوبهم، وحثهم للنفقات في سبيل تحرير أوطانهم من تحت أقدام المستعمرين، فلبَّى نداءه من لبّي، وانضم إلى صفوفه وساعد إلى الثورة بما لهم. وذكر محمد أمين بغرا أن أهم الأشخاص ممن انضم إلى صفوفه هو الشيخ محمد نياز أعلم مفتي ديار خُتن آنذاك (محمد أمين بغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٧٨٤) فاستعد مجاهدو مدينة ختن للجهاد بما استطاعوا، ونجح الشيخ محمد أمين بغرا في دعوته نجاحاً كبيراً.

2- حركاته الجهادية:

ويمكن أن يلخص هذا المطلب في النقاط الآتية:

الأولى: بدء الثورة: على الرغم من أن الخطة وضعت كما كانت قبل، إلا أنها حدثت بعد يوم من البيعة بالولاء، يقول محمد أمين بغرا في سبب تعجيل وقت الثورة: في نفس يوم الاثنين مساء جاء مخبرنا في الدوائر الحكومية أن الحكومة عرفت وقت ثورتنا ولذا لاحظت قواتها العسكرية، هل تكفي لإسكات هذه الحركة الثورية أم لا؟ وأيقنوا أن القوات العسكرية في ولاية ختن لا تستطيع إخماد الثورة، فاستدعت قوات إضافية من مدينة جوما، وإن هذه القوات الإضافية ستصل إلى مدينة قاراقاش في يوم الخميس (محمد أمين بغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٧٨٤) وبهذا الخبر السيئ دعا أعضاء الجمعية القرييين من مكائها، فتحشد سبع وستون رجلا حوله، وبدون التفكير في قلة الرجال، أصدر الأمير أمراً حاسماً بمهاجمة مدينة قاراقاش. فقامت ثورة عارمة مع هؤلاء المجاهدين، ولم تستمر الحرب أكثر من نصف ساعة بسبب مباغتته للعدو، فسقطت مدينة قاراقاش في أيدي الثوار. وانتشرت أخبار انتصارات المجاهدين في جميع أنحاء المدينة، ووصل عشرة آلاف رجل إلى المدينة. وأرسل محمد أمين بغرا ألف رجل إلى ضفاف نهر قاراقاش في تلك الليلة لمنع القوات الصينية من دخول المدينة. كما أرسل أكثر من ألف رجل بقيادة شقيقه عبد الله، والشيخ إسماعيل داملام إلى منطقة زاوا لحراسة طريق مدينة جوما وقطع الطريق أمام الجيوش الصينية القادمة من جهة جوما. وشارك نفسه بتنسيق شؤون إدارة مدينة قاراقاش وتنظيم الجيوش. وبهذا الشكل تقدم المجاهدون إلى الأمام وفتحوا محافظة زاووا ثم محافظة آق تاش ثم قاراساي. وفي اليوم السادس من الهجوم تم فتح قاراقاش بالكامل، واستعدوا لمهاجمة مدينة ختن وحاصروها تحت قيادة عبد الله، وطردها فلول القوات الصينية الذين لجؤوا إلى المدينة، واندلعت معارك ضارية بين المسلمين والصينيين. استمرت الحرب الدموية ثلاث ساعات متتالية، هزمت القوات الإسلامية العدو هزيمة مؤلمة، ووقعت أسلحتهم غنيمة لهم. وفي ٩ مارس عام ١٩٣٣م، وافق الأمير محمد أمين بغرا على وقف مؤقت لإطلاق النار، وبدأ مفاوضات مع عناصر العدو الصينيين يوم الجمعة (توران، ٢٠١٧، ص ٣٠) فعقد محمد أمين بغرا معاهدة تنص على أن القوات الصينية ستسلم مراكزها وأسلحتها وحصونها، وتكفل حياة الصينيين وتوفر لهم الأمان، فمن أسلم منهم من أسلم، وأشهر إسلامه أمام حضرة مشايخ المجاهدين، وخرجوا من البلد من خرجوا هؤلاء المرتزقة، وبهذا تم في قرابة شهر فتح مدينة قاراقاش ومدينة ختن (مؤهدهد تفرسؤن نههمهه، ٢٠١٧، ص ٢٥٠) لعب محمد أمين بغرا دورا رئيسيا في هذه الحرب الأولى، فعلى سبيل المثال: قام بتسريع الثورة قبل الموعد المحدد، وترتيب الجيوش، وإرسال القوات العسكرية إلى مداخل المدينة، وقطع علاقة العدو مع الخارج، وتبديل القادة العسكريين عندما رأى قلة الخبرة وانعدام الحماسة منهم.

الثانية: تطور الجهاد وتوسعه: أتى الخبر من طرف مدينة كاشغر وياركند وقارغلق بأن الجيش الصيني قد اتجه إلى مدينة ختن، وقسم الأمير المجاهدين إلى عدة فصائل، لمقاومة القوات الصينية التي جاءت من كاشغر، فوزع السلاح الذي تسلمه من العدو على المجاهدين، وأعدَّ وحدة قوامها ستمائة وخمسون رجلاً بقيادة مولوي صبغة الله ونور أحمد، وأرسلهم إلى زاوا إضافة إلى القوات الموجودة هناك. وقد طلب نور أحمد من الأمير أن يكون في ساحة المعركة، فوصل الأمير قادما من مدينة ختن، ليقود الجهاد بنفسه، بدأت الحرب الساعة الواحدة ليلا، واستمرت حتى الساعة الخامسة صباحا، وبعد التضحية الكبيرة بدأ العدو بالانسحاب والهرب من ساحة المعركة، وطارد فرسان المجاهدين العدو من ورائهم إلى منطقة آق لنكر (محمد أمين بغرا، ١٤٢٩، ص ٨١٣) وبذلك فشل الجيش الصيني في زحفه من جهة كاشغر. وبعد هذه المعركة أرسل الأمير ألفي جندي من المجاهدين بقيادة أخيه نور أحمد أخون ومولوي صبغة الله، ووصل المجاهدون إلى مدينة قارغلق في عيد الأضحى المبارك، وفي أثناء ذلك فتح أهالي محافظة فوسكام مدينتهم فالتقى مجاهدو فوسكام مع المجاهدين في قارغلق، ثم توجهوا إلى مدينة ياركند سويا. ورأى الأمير وصاحبه محمد نياز أعلم والشيخ ثابت داملام ضرورة إعلان وتشكيل حكومة باسم "الإمارة الإسلامية الختنية"، فأعلنها في خطبة يوم الجمعة على المنبر ١١/٤/١٩٣٣م، وفي هذه الحالة جاءت الأخبار السارة من شرق مدينة ختن، حيث تم افتتاح مدينتين بدون دم، وهما: كريا وجريا. بعد إعلان الحكومة وتنظيمها، أرسل الأمير قوات إضافية إلى ياركند بقيادة أخيه عبد الله لكي يساعد نور أحمد في ٢٦ أبريل ١٩٣٣م، فتحها بنصرة الله عز وجل، وفي يونيو ١٣، استشهد القائد مولوي صبغة الله في هذه الحرب، وهكذا فتحت المدن والقرى، وضمها إلى الإمارة الختنية الإسلامية (م، س، ١٤٢٩هـ، ص ٧٩٤).

الثالثة: ثمار حركة الجهادية بعد هذه الانتصارات، قرر الأمير جعل إيلجا عاصمةً أو مركزا للحكومة الإسلامية، وبايعوا محمد بن نياز أعلم، وأجلسوه على عرش هذه الإمارة الجديدة، فقام بترسيم حدود هذه الدولة، وحددها من مدينة جرجن شرقا ومدينة ياركند غربا. وبعد فتح مدينة ياركند، أمر الأمير بوقف الهجوم، لأن الثورة الختنية أيقظت المسلمين في جميع أنحاء تركستان الشرقية. وأصبحت أراضي تركستان الشرقية محررة كلها باستثناء مدينة الأورججي وآلتاي، فتحت ولاية قومول وطورفان بقيادة المجاهد خوجينياز حاجي، وكاشغر بقيادة الأمير تيمور. في أعقاب هذه الفتوحات، سعى العلامة ثابت عبد الباقي دامولام إلى حشد هذه القوات والحكومات المحلية لتشكيل حكومة مستقلة ورسمية، وكان يعتقد أن هذا العمل لن يحقق إلا في كاشغر. واقترح ثابت دامولام على محمد أمين بغرا أن يذهب إلى كاشغر، وتشبث برأيه. يقول محمد أمين بغرا: لكون الشيخ ثابت دامولام من أهل كاشغر، كان في عجلة من أمره للذهاب إلى كاشغر قبل اندلاع الحرب بين الطوائف التي توجد في كاشغر - فئة التونجان والقرغيز والأويغور -، أنا والملك

حضرت محمد نياز أعلم، كنا راغبين في الأمر، ولكن القوى السياسية في كاشغر منعونا من القيام بأي إجراء في هذا الموضوع، وأما الشيخ ثابت دامولام من حيث رغبته الملحة تشبث في رأيه وتنفيذه تشبثاً ملحوظاً حيث أقنعنا وأسرد لنا أوجه القناعة وأساليب الوعود الصادرة من جهات شتى في مدينة كاشغر، وأن أهل كاشغر العقلاء، والحكماء، والمثقفون، والأثرياء، فمنهم من يصوب في تنفيذ الرأي المذكور. وبعد موافقتهم على الذهاب إلى كاشغر، غادر ثابت دامولام في ١٥ يونيو ١٩٣٣م مع شقيق الأمير شاه منصور (عبد الله) إلى كاشغر (مؤهه ممد زونون، ٢٠١٧، س ٣٧٨) فوصلوا إليها في ٢٠ يوليو ١٩٣٣م، واستقبلهم عشرات الآلاف من سكانها واقفين على جانبي الطريق، لأنهم كانوا يعرفون فضائل الشيخ وعلمه دينياً وسياسياً. فوصلوا إليها في ٢٠ يوليو ١٩٣٣م، واستقبلهم عشرات الآلاف من سكانها واقفين على جانبي الطريق، لأنهم كانوا يعرفون فضائل الشيخ وعلمه دينياً وسياسياً. بمجرد وصوله إلى كاشغر اشتغل بتنظيم جيوش المسلمين وتعبئة القوات الإسلامية لغرض تأسيس جمهورية إسلامية رسمية. وقام بعمل مهم كإعلان حكومة جديدة، وتشكيل وزراء الحكومة، وانتخاب الوزراء المناسبين، وتشريع الدستور، وحل المشاكل الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية واتخاذ إجراءات أخرى تحتاجها الدولة الجديدة في المستقبل. فبعد شهرين من العمل التحضيري، أعلن أول جمهورية إسلامية - وإن كانت المملكة العربية السعودية والدول المماثلة كانت دولاً إسلامية، إلا أنها كانت نظماً ملكية - وليست جمهورية إسلامية، كما أنتركستان الشرقية أول دولة أضيف الإسلام إلى اسمها - في التاريخ الإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية في ١١ سبتمبر ١٩٣٣م، وعين الوزراء لهذه الدولة الجديدة، وأصدر إعلاناً بقيام جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية.

بيان تأسيس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله بفضله وكرمه ولطفه، تشكلت الحكومة المؤقتة لدولتنا المستقلة بموافقة الرئيس المعظم حضرت خوجا نياز بن أمين نياز حاجي وبموافقة ممثليه المؤهلين وقادة الجيش الإسلامي، إعجاباً وحبا لوحدة شعب تركستان، كما هي موضحة في التالي:

اسم الدولة: جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية. العلم الوطني: العلم الأزرق مع الهلال والنجمة. الدستور: القرآن الكريم. الشعار الوطني: كلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» منقوشة بين سنبلتين، رئيس الوزراء: ثابت بن عبد الباقي، الوزير العدلي: ظريف قاري الحاج، وزير الداخلية: سعيد زاده يونس، وزير الخارجية: قاسم جان حاجي. وزير الدفاع وأمير الجيش: أوزار بيك، وزير الأوقاف: شمس الدين توردي حاجي، وزير المعارف: عبد الكريم خان مخدوم، وزير الاقتصاد والزراعة: الحاج أبو الحسن بن موسى باي، وزير المالية:

علي أخون باي، المفتش: الحاج أعلم أخون، وزير الصحة: عبد الله خان. الأمين العام: محمد حاجي رئيس مقر القيادة المركزية: يوسف جان، رئيس وحدة التموين العسكري: سلطان بيك. فألقى ثابت دامولام، وقاضي العسكر الملا محمد جان آخوند، وموسى أفندي، ومحمود نديم بي خطابات بليغة بين الناس بمناسبة شرف هذا اليوم العظيم، وأطلقوا قذائف مدفعية على الاحتفالات، فأقيم استعراض عسكري باشتراك ٧٠٠٠ جندي. حضر السفير البريطاني تومسون جروير في كاشغر، وأرسل رسالة إلى ملك بريطانيا مفادها أنه يمكن تقديم المساعدة العملية والتعاطف للحكومة الجديدة في كاشغر (تالجان بوغدا، ٢٠١٨، س ١٤٨. سابت ئۇيغۇرى، ٢٠١٨، س ٣٦٥. مؤسسات تركستان، ٢٠٠٨، س ١١٤. ومؤهدهم زونون، ٢٠١٧، س ٣٨٠) وهكذا تأسست الجمهورية الإسلامية لتركستان الشرقية نتيجة ثورة قادها المجاهدون بقيادة الأمير محمد أمين بغرا، لكنه لم يقبل أي وظيفة في الجمهورية لأنه كان يعتقد أن إعلان الجمهورية كان سابقا لزمانه.

أنا أحسب أن ثابت داملام كان بعيد النظر، ذا خبرة في السياسة، فأدرك ببصيرته ضرورة إنشاء الدولة في هذه البقعة الإسلامية حتى لا تمحى آثار الإسلام، ولا يذوب المسلمون بين هاتين الدولتين الشيوعيتين - الصين والسوفييات - وإلا سينسون وستكون الأندلس الثانية في تاريخ المسلمين، كما أن قوته العقلية اكتشفت وأدركت مستقبل تركستان الشرقية. لذا مهما كانت النتيجة، فقد أراد تأسيس هذه الدولة مهما كانت عاقبتها، وقد دلت على ذلك إجابته لما سأله أحد أصحابه: داملام ما مدى إيماننا بهذا العمل؟ - أي تأسيس الدولة -، حتى لو تخلصنا من الصين، سيبحث الروس عن الاستعمار، فهل نتحمل نتيجة التضحيات التي سنقدمها في هذا الأمر؟ أجاب: نعم، لها فوائد، على الأقل هناك فائدة، وهي إعادة كتابة تاريخ تركستان. فيقصد بكلمته هذه أن يرد على المستعمر المعتدي مزاعمه بأن تركستان هي في الأصل مقاطعة تابعة للصين، فسعى العلامة ثابت داملام لإقامة دولة حرة وإن كان يعتقد بسرعة زوالها لكنها ستكون محطة هامة في التاريخ، وهذا ما حدث بالفعل فبعد سقوط الدولة في مرحلتها الأولى والثانية عاود المستعمر احتلال البلاد مرة أخرى عام ١٩٤٩م.

وتدل عليها أيضا عندما سأله أحد التجار: داملام، نعم، نجتهد في هذه الأمر بكل طاقنا، لكن هل يمكننا حفظ هذه الدولة بين هاتين لإمبراطوريتين العظيمتين؟ أجاب: نعلم أننا لن نتمكن من حفظ هذه الدولة في ظل الظروف الخارجية التي ذكرتها. إذن لماذا نشغل بهذا الأمر؟ فأجاب أن هذه فرصة عظيمة لتقديم الأدلة إلى الأجيال القادمة. فثابت دامولام على حد تعبيره: «الاستفادة من الفرصة التاريخية لتقديم دليل للجيل القادم» لقد أقام دولة ذي هوية وطنية، لا يمكن إنكارها، كاملة مع جميع الهياكل الوظيفية وجميع المؤسسات والرموز التي ينبغي أن توجد في الدولة. فقد طبع ثابت داملام النقود الذهبية والفضية

والورقية، وأسس البنوك في المدن الكبيرة، وأصدر جواز السفر، وعقد الصفقات التجارية مع ألمانيا وبريطانيا وتركيا وأفغانستان وغيرها. فأصبح لدى الدولة الجديدة كافة أجهزة الحكومة التي لا غنى عنها، بما في ذلك الحكومة ومجلس الدولة، والنظام الدستوري، لها لَمَ والعملية الوطنية. وقد أيقن أن الدول الإسلامية والأجنبية لن تساعد في هذا الأمر: قال مرة: لا تتمنوا المساعدة من الدول الإسلامية، لأنني بعد رحلتي الاستطلاعية رأيت أن كل هؤلاء مشغولين بأنفسهم، لن ينجيكم إلا أنفسكم.

يقول محمد أمين بغرا: إن ثابت داملام قال: إنه التقى بالعديد من الزعماء من تركيا ومصر والهند، وناقش معهم ظهور ثورة قومية في تركستان الشرقية، لكن عندما طلب المساعدة والتدخل، استبعدوا مثل هذه التدخلات والمساعدات قائلين: إن المساعدة لا يمكن تصورها، لأن أنظمة هيئة الأمم المتحدة تمنع التدخل، لأن التغيير السياسي المحلي والوطني هو قضية داخلية (محمد أمين بغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٧٨٢. مؤهدهم د تفرسؤن، ٢٠١٧، س ٩٢) وبذلك كان جواسيس الروس والصين متواجدين بأشكال مختلفة، وإذا تأجل تأسيس هذه الدولة، فإن جمهورية تركستان الشرقية ستصبح خيالا وليس جمهورية حقيقة.

وقد تلخصت حركاته الجهادية بعد تأسيس الدولة، في الاعتراف بالجمهورية الجديدة وأعلن تبعيتها، ورفع علم جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية في سماء ختن ونواحيها، ورغم أنه لم يقبل منصبا بالوزارة، فقد بقي أميراً عاماً للجيش في حكومة ختن، بجانب كونه وزيراً للخارجية، واستمرت الأيام على هذا المنوال، لكن هذه الأيام السعيدة لم تدم، فقد جاءت الغيم السوداء في سماء تركستان الشرقية، وأرسل الروس طائرات حربية ودبابات وقوات خاصة من الجنوب، وحشد الصينيون القوات العسكرية في الأرومجي وهاجموا من الشمال تحت قيادات الاتحاد السوفيتي، احتلت كورلا وآقسو، وانسحب الرئيس خوجا نياز حاجي إلى كاشغر - عاصمة تركستان الشرقية - وأضعفت قواته العسكرية الروس من جهة، والصين من جهة أخرى، فطلب المساعدة من الأمير محمد أمين بوغرا، فأرسل الأمير إلى كاشغر ١٢٠٠ بندقية مع مليون طلقة، وألف قبيلة يدوية، ومسدسات مع ألف جند تحت قيادة الأمير شاه منصور، وانطلقت الحرب وهزمت القوات الإسلامية أمام قوات التحالف - الروس والصين - وانسحبت القوات الإسلامية إلى مدينة ياركند. ودخل جيش العدو كاشغر وقتل أهلها وأحرق المدينة وحولها. (مؤسات تركستان، ٢٠٠٨، س ١٧٢) وقبضوا على كبار المسؤولين الحكوميين، بمن فيهم: ثابت داملام وظريف قاري حاجي، ووزراء وعلماء آخرين، فسجنهم. وتوفي ثابت داملام في السجن بعد بضع سنوات. وفي أوائل مارس ١٩٣٤م، هاجمت قوات الروس والصين مدينة يني حصار، وقاوم المجاهدون ودارت الحرب دامية

مهلكة، واستمرت الحرب قرابة عشرين يوما، واستشهد الأمير نور أحمد. وسقطت المدينة في أيدي العدو، وكان تاريخ هذه الكارثة في ٢٢ أبريل ١٩٣٤م. وتراجع الأمير محمد أمين بغرا إلى مدينة قاراقاش لإعادة ترتيب الجيش حتى يدخل الجيش الحرب مرة أخرى. وفي تاريخ ٣٠ مايو ١٩٣٤م وقعت الحرب في مدينة قاراقاش على جيوش التونجان تحت قيادته، انهزمت جيوشه بسبب قلة العدد وضعف القوة، لأن العدو كان مسلحا بسلاح متقدم بمساعدة الاتحاد السوفيتي، وكان يمتلك معدات حربية متقدمة في زمانه، وفي هذا الحرب استشهد تورسون باقي خان وإسماعيل داملا وأربعة من الضباط مع قرابة مئتين من المجاهدين، (محمد أمين بوغرا، ١٤٢٩هـ، ص ٩٠٧) واحتل العدو مدينة قاراقاش وختن، فسقطت جمهورية تركستان الشرقية، وهاجر الأمير محمد أمين بوغرا إلى الهند، ومعه ٢٢ شخصا مسلحا فقط من جنده. (توران، ٢٠١٧، ص ٣٣)

3- دوره العلمي:

لقد رحل الأمير محمد أمين بوغرا عن وطنه الحبيب بحزن شديد، ويظهر حزنه وألمه في قصائده الوطنية. وانتهت جهوده الجهادية بنتائج غير متوقعة. لكن الأمير لم يتوقف عن إرادته على تحرير بلاده، ونيل الاستقلال وإعلاء كلمة الله فيها لحظة واحدة، بل بذل جهده أكثر من جهوده السابقة وزادت همته وعزمته. فمن إقامته في كابول بدأ جهاده العلمي، وشرع في الاطلاع على الكتب باللغة الفارسية والعربية والتركية والأوردية خاصة كتب التاريخ. وزار جميع المكتبات في كابول، وجمع وبحت كل ما يتعلق بتاريخ تركستان والأويغور، وبعد الاطلاع على هذه الكتب واحدا تلو الآخر، أدرك الأمير بحسه المرقق وتأملاته العميق أن أي شعب جهل تاريخه لن يعرف أصله ونسله، مثل: أي شخص إذا لم يتذكر الأحداث الماضية في حياته الشخصية فلن يستطيع تحقيق شيء. لذلك لا يمكن للأمة أن تفهم وتحلل أي حدث وطني في حياتها الاجتماعية بدون تاريخ. وإن من أهم عوامل ازدهار الأمم معرفتها الذاتية التي قدمها مؤرخوها، وكذلك فإن الأعمال العظيمة التي يدونها التاريخ وتحفظها عقولهم هي من يصنع مستقبلهم، ومصير أمة لا تاريخ لها سيكون غامضا وفوضويا، فتبقى بين ظلام الماضي من جهة والمستقبل المجهول من جهة أخرى، لأن مشاكل وقضية أي أمة لا يمكن حلها إلا من خلال التفكير في الأحداث باستخدام دروس الماضي. وضع الأمير بعلمه الغزير وثقافته العالية الواسعة بين عينيه آمال هذا الشعب، فعكف على التأليف عن تاريخ تركستان الشرقية، وأخيرا ألف كتابا لم يسبق له مثيل، وهو " تاريخ تركستان الشرقية" كان الكتاب هدية وبشارة سارة لأمة تركستان الشرقية، ونبراسا لهذا الشعب المخلص. فأصدر هذا الكتاب والعديد من المقالات والأبيات والقصائد، وأرسل مقالات إلى الصحف، وحضر المؤتمرات العلمية. واستمر هكذا حتى

رحل إلى مدينة جونغين - عاصمة الصين وقتذاك - وظل هناك كضيف سياسي للحزب الوطني الصيني، وبدأ الصفحة الثانية من جهاده العلمي، وكتب مقالات بالحقائق التاريخية المثبتة رداً على كتابات المؤرخين الصينيين، وأسس جمعية أبناء تركستان الشرقية، وألقى محاضرات فيها. ثم عاد إلى تركستان الشرقية مرة ثانية، وترأس جريدة أرك التي استمرت حتى سنة ١٩٤٩م (عيسى يوسف آلب تكين، أترك الأويغور، ص ١١٦) وفي نفس هذه الأعوام أصدرت مجلة "حضارة تركستان" باللغة الأويغورية والإنجليزية والصينية. في عام ١٩٤٩م هزم الحزب الشيوعي الصيني الحزب القومي الصيني واحتل تركستان الشرقية، وأجبر الأمير على ترك وطنه مرة أخرى، وهاجر إلى الهند ثم إلى تركيا، وداوم فيها جهاده العلمي والسياسي مع صديقه عيسى يوسف آلب تكين حتى مات.

ويمكن أن يلخصه في النقاط الآتية: الأولى: الوقوف في ميدان العدو للمقاومة بالكفاح القلبي: من الصعب جداً على من في قلبه حب الوطن أن يتعد عن الوطن، خاصة لمن يريد استقلال وطنه، لذلك حاول الأمير العودة إليه كل يوم، وساعة، وجرب بعض الأشياء، ولم ينجح فيها إلا أواخر عام ١٩٤٢، حيث سنحت فرصة للأمير عندما قابل صديقه عيسى يوسف آلب تكين، فقد قدم عيسى يوسف آلب تكين إلى كابول رئيساً للجنة الصداقة الصينية الإسلامية، جاء الأمير إلى الهند كأرباب سياسي عام ١٩٤٣م بمساعدته كأرباب سياسي، لكن الهند كانت تحت الاحتلال البريطاني في ذلك الوقت، وكانت الحكومة البريطانية تخشى من الأمير لأنه شخص مهم وأرباب سياسي فأجبرته على الذهاب إلى الصين. وقالت إذا لم يذهب الأمير إلى الصين سيتم اعتقاله ويبقى في السجن طول مدة حياته. وفي ٤ أبريل ١٩٤٣م، سافر الشيخ مع أسرته إلى العاصمة الصينية جونغين، وبدأ مجادلاته فيها. والتقى الأمير بأصدقائه عيسى يوسف آلب تكين ومسعود صابر بايقوزي في مدينة جنجن وأسس "جمعية تركستان الشرقية"، وكانت مبادئها وأغراضها على النحو الآتي:

1. عدم المطالبة بالاستقلال أولاً، بل المطالبة بالحكم الذاتي من حكومة الصين، وبعد نيل الحكم الذاتي وإنهاء الحرب الداخلية بالصين ستتم المطالبة بالاستقلال؛
2. تقديم هذه المطالب إلى رئيس الصين جان كي شي؛
3. إنشاء دار النشر باللغة الأويغورية، وتربية قوم الأويغور وتنقيفهم؛
4. بعد إعلان الحكم الذاتي يتم رفع الوعي السياسي لقوم الأويغور، وإصلاح الحالة الاقتصادية والتعليمية والثقافية لهم؛
5. بعد ارتفاع المستوى العلمي والسياسي لقوم الأويغور إلى مستوى الاستقلال، سيطالب الشعب بالاستقلال بالكامل.

ووفقا لهذه المبادئ أصدر الأمير مجلة " آلتاي "، ونشر مقالا حول قمع واحتلال حكام الصين في تركستان الشرقية بعنوان "تركستان الشرقية هي مقاطعة أويغورية، وليست صينية"، فأثارت المقالة ضجة كبيرة بين عامة الناس في الصين، وكتب المؤرخ الصيني لي دونغ فانغ مقالا معتمدا على معلومات مزورة في الصحيفة المركزية ردا على الأمير بعنوان "هل شعب شينجيانغ أتراك؟"، فرد الأمير عليه بمقالته "نعم! شعب التركستان أتراك" معتمدا على حقائق تاريخية، تشهد أن إقليم تركستان الشرقية للأتراك منذ آلاف السنين، ونشرها في ٢١ أكتوبر ١٩٤٤م بنفس الصحيفة التي نشر المؤرخ الصيني مقالته فيها. لكن المؤرخ الصيني لي دونغ فانغ لم يتوقف عن كتابة المقالات، وفي تشرين الثاني نشر مقالته الثانية "ليس أصل شعب تركستان هم الأتراك"، وحاول أن يثبت فيها بأدلة كاذبة ومزورة أن تركستان الشرقية كانت جزء الصين منذ ٥ آلاف سنة، لكن الأمير كانت لديه ثروة من المعرفة التاريخية، ولم يتوقف عن الرد على مقالة العدو، وأجاب على مقالته الثانية بمقالة تحت عنوان "أقول مرة أخرى أن أصل شعب التركستان هم الأتراك" (توران، ٢٠١٧، ص ٢٧٦) فأسكتته بمقالته، وانتهى هذا الجدل بانتصار الأمير. أما بالنسبة للوضع الداخلي في تركستان، فقد ثار المجاهدون في غلجا ضد الحكام الصينيين، وتمكنوا من فتح شمال تركستان الشرقية بالكامل. وأعلن استقلال جمهورية تركستان الشرقية مرة أخرى بعد ١١ سنة من إعلان الجمهورية الأولى بقيادة المجاهد العلامة علي خان تورة ساغوني، لذلك أراد الأمير العودة إلى وطنه. ووصل إلى الأوروبي ١٧ تشرين الأول ١٩٤٥م مع رفاقه، حيث واصل جهاده العلمي وأصدر صحيفة "أرك". ولكن المجاهدون بضغط من القوات الروسية وتدخلهم، أجبروا على إبرام اتفاقية مع الحكومة الصينية، وأعلنوا المبادئ العامة ذات الإحدى عشرة مادة، والتي تمت صياغتها لمصلحة الصينيين. وقرروا إنشاء حكومة ائتلافية بين حكام الصين وقادة المجاهدين. وقد تولى الأمير وزيرا للإنشاء والتنمية حتى عام ١٩٤٨م، فأصبح نائبا لرئيس الحكومة الائتلافية. (عيسى يوسف، ٢٠١٢، ص ١٢٥) ومن ناحية أخرى، كان الأمير قد ألقى محاضرات لشعب الأويغور في جامعة الأرومجي وحصل على لقب أستاذ فخري، وكان أول من ألقى محاضرة في تاريخ الجامعة عن الطاقة الذرية والأسلحة النووية. لكن مع انتصار الحزب الشيوعي الصيني داخل الصين تغير الوضع، فاحتل الحزب الشيوعي الصيني تركستان الشرقية وقتل كل من قاد الثور والجهاد وكل من تعاون مع الحزب القومي الصيني، واضطر الأمير لترك وطنه مرة أخرى وتوجه إلى الأراضي الهندية، وبينما كان الأمير يعبر آخر نقطة في الحدود لتركستان الشرقية قال: وهو باكيا: «قد تركنا الوطن لأجل الوطن».

الثانية: جهده العلمي في جمهورية تركيا: انطلق الأمير مع رجاله في ٢٠ سبتمبر ١٩٤٩م، وكان معه حوالي أربعمئة شخص، وصل إلى كشمير بعد رحلة شاقة استغرقت ثلاثة شهور، بعد قدومه إلى كشمير بدأ في تنظيم شؤون أصحابه سياسيا واجتماعيا. وقدّم طلب اللجوء إلى حكومة الهند، والأمم المتحدة وأمريكا وجمهورية تركيا أكثر من مرة، وبعد عدة شهور وافقت جمهورية تركيا على طلب الأمير. وأعلن مجلس الوزراء التركي قراره قبول ١٨٥٠ مهاجرا من تركستان الشرقية في عام ١٩٥٢م، فانتقل الأمير إلى تركيا مع أصحابه. بعد حسم مشاكل توطین التركستانيین، وخاصة أولئك الذين هاجروا معه من تركستان الشرقية، لم يهدأ بال الأمير، بل واصل نضاله العلمي والسياسي، فعلى المستوى السياسي قام بأنشطة سياسية لإيصال صوت تركستان الشرقية الذين تعرضوا للقمع من قبل الصين، وعلى المستوى العلمي أسهم بأنشطة علمية في تثقيف الناس وتوعيتهم.

ويمكن تلخيص دوره العلمي في تركيا في ثلاثة أمور:

- الأول: ابتعث أبناء تركستان الشرقية إلى الجامعات الأجنبية: أدرك الأمير أن أحد أسباب فشل تركستان الشرقية هو الجهل، فأراد الأمير الحصول على فرصة تعليم لأبناء تركستان الشرقية المهاجرين. وتقابل بهذه النية مع رئيس الوزراء التركي عصمت إنونو، وافق الرئيس والتحق حوالي ثلاثمئة طالب في الجامعات، وأرسل خمسة طلاب إلى أمريكا، والتقى رفيقه عيسى يوسف آل بركين بركين رئيس جمهورية شمال قبرص رؤوف دنكتاش وبعد موافقته أرسل قرابة عشرة طلاب (أركين آل بركين، ٢٠١٨م، النداء لشباب تركستان الشرقية)

- الثاني: نشر وإدارة الصحف والمجلات: قد أسس الأمير عدة مجلات منها: "مجلة تركستان" كانت هذه المجلة شهيرة، تنشر باللغة التركية، أسسها عام ١٩٥٣م. و"صوت تركستان" كانت هذه المجلة مجلة فصولية، تصدرها باللغتين التركية والإنجليزية، أسسها عام ١٩٥٦م. و"مجلة أخبار المهاجرين" تأسست في القاهرة عام ١٩٥٧م، وانتشرت باللغة العربية. و"مجلة شعب تركستان" وأسسها أيضا في نفس السنة في القاهرة. كتب الأمير في كل تلك المجلات أكثر من مئة مقال علمي، واستمر صدور بعض المجلات منها منذ وفاة الأمير حتى الآن.

- الثالث: تأليف الكتب: لم يتوقف قلم الأمير عن التأليف لحظة واحدة، فمن الكتب التي ألفها في تركيا: "تاريخ تركستان الشرقية وجغرافيتها وحالتها الحالية" و "قضايا الحرية في تركستان الشرقية وسياسة الصين" و "فتوحات الإسلام والعرب في إقليم تركستان" و "ترد تركستان الشرقية الحكم الذاتي الشيوعي" و "السياسة المجهولة عن تركستان الشرقية والتبث" و "هل اختبار القنبلة الذرية في تركستان الشرقية اختيار أم مؤامرة من قبل الشيوعيين؟ (عام ١٩٦١م)، أنقرة. (مؤهدهمده تفرسون نههمده، ٢٠١٧، س ٢٦٧).

4- دوره السياسي:

يلخص دور الأمير السياسي في عدة نقاط: الأولى: حماية حقوق الشعب بالمقاومة السياسية: ومن خلال حركة الجهاد قاوم الأمير جيش العدو بالسلاح، وعلماءها بالعلم ورؤساءها وحكامها بالطرق السياسية. وبينما كان الأمير يقيم في جونجين، حاول حماية حقوق شعب تركستان الشرقية من خلال عدة محاولات. وفي عام ١٩٤٣م، هزم الحزب القومي الصيني الحزب الشيوعي الصيني في معظم أنحاء الصين، لذلك حاول زعيم الحزب القوم الصيني جان كي شي إعلان دستور للجمهورية التي سيعلمها بعد عدة شهور. فأعلنت اللجنة الدستورية دستور جمهورية الصين المستقبلية ب ١٨٠ مادة. درس الأمير وأصحابه تلك القوانين وقاموا بتحليلها مادة مادة، وقد وجدوا بعض المواد التي تتعلق بتركستان الشرقية وشعبها وفيها أخطاء لا بد لها من تعديل وتصحيح. كما دعا المجلس الدستوري إلى تعديل مواد الدستور ذات الصلة بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسياسية لتركستان الشرقية وشعبها. وقدم التماسا يتكون من خمس عشرة نقطة أساسية لإدراجها في الدستور كمادة مستقلة. فكانت العرائض التي قدمها الأمير كما يلي؛

1. لا بد في الدستور من نص واضح يصرح بأن شعب تركستان الشرقية أتراك، وليسوا أمة صينية؛
2. يجب أن ينص الدستور الأساس على الحكم الذاتي لتركستان الشرقية؛
3. يجب تغيير كلمة "شينجيانغ" في المادة الرابعة من الدستور إلى كلمة "تركستان الشرقية"؛
4. يجب تغيير كلمة "دولة الصين" في المادة الرابعة من الدستور إلى كلمة "دولة التبعية للصين"؛
5. «إن كل الأمم الداخل تحت سلطة دولة الصين متساوون في الحقوق السياسية والاقتصادية والتعليم والثقافة والدين واللغة وفي جميع الحقوق الأخرى»، فطلبوا أن يضاف هذا النص إلى المادة الخامسة من الدستور؛
6. لا بد من التنصيص في آخر سطر من المادة السابعة «يجب طباعة النقود والطوابع البريدية بلغة كل ولاية تابعة لدولة الصين»؛
7. حذف البند من المادة العاشرة «لا تمنع الشؤون الدينية إلا إذا كانت مخالفة للقانون الصيني»، ويجب أن يكتب مكانها «لا تمنع الأمور غير المحرمة في الدين، وتحظر الدعاية المعادية للدين»؛
8. إدخال كلمة «ترك» في المادة السابعة والعشرين من الدستور بجانب كلمة «مغول»؛
9. يجب الإضافة بجانب المادة السابعة والعشرين استكمالاً «انتخابات أعضاء الكونغرس هي للسكان المحليين في كل مكان»؛
10. يجب إضافة الجملة التالية للمادة الحادية والثمانين عبارة : «يكون القضاء والمحاكم في المناطق الحدودية مثل تركستان الشرقية بلغة السكان المحليين»؛

11. يضاف في جانب المادة الخامسة والثمانين «تكون جميع الامتحانات باللغة الأم لجميع الأمم»؛
12. إدخال كلمة «ترك» في المادة التسعين من الدستور بجانب كلمة «موغول»؛
13. الإضافة في المادة التاسعة والتسعين هذه العبارة «كل حكام الأقاليم يجب أن يكونوا من السكان المحليين ويجب أن يتم انتخابهم من قبل السكان المحليين»؛
14. بعد مائة وثلاثة وثلاثين مادة، يجب إضافة المادة التالية «يجب أن يكون التعليم في الدولة الصينية على جميع المستويات بلغتها الأم لجميع الأمم»؛
15. لا بد عن الإضافة في جانب المادة مائة والثامنة والثلاثين «كل القوانين والدستور تطبع بلغة كل الأمم» (مؤهدهم د نمن بؤغرا، ماقاللهر تويلمي، ٤٥).

وبعد أن قدم الأمير هذه الالتماسات إلى الهيئة الدستورية، نشرها في الجريدة المشهورة للفت انتباه الجمهور، فثار الجدل بين من وافقوا ومن خالفوا، واحتج طلاب من جامعتين في جونغين، وطلبوا بموافقة الحكومة واللجنة الدستورية على تلك العرائض، وعقب الاحتجاج، أعلنت اللجنة الدستورية موافقتها مناقشة العوارض في المؤتمر الأعلى خوفا من تصاعد مثل هذه الاحتجاجات. فطلب زعيم الحزب القومي الصيني منه التحدث وجها لوجه بشأن قضية تركستان الشرقية، وفي يوم ١٨ مارس ١٩٤٥م، دعاهم لتناول العشاء. وحضر محمد أمين بغرا مأدبة العشاء مع عيسى يوسف آلب تكين، وكان في الضيافة الأمين العام ووزير الداخلية ورئيس لجنة التبت والمغول مع جانب جان كي شي. ويعتبر هذا الاجتماع أول اجتماع رسمي في التاريخ بين قادة تركستان الشرقية وبين القادة الصينيين. فانتهر الأمير هذه الفرصة التاريخية وألقى كلمة حول التاريخ والشعب والوضع الحالي في تاريخ تركستان الشرقية. وقال الزعيم جان كي شي في آخر الاجتماع: "سندرس قضية تركستان ونحللها بطريقة مقبولة لجميع الأطراف". (سوفي ناخون، ٢٠١٤، س ٤٩). فملاً قلب الأمير وأصحابه بالأمل وأدركوا أن جهودهم لم تذهب سدى. لكن مع انتصار الحزب الشيوعي بقيت نتائج هذه التعيينات على الورق فقط.

الثانية: دوره السياسي في تسميع صوت تركستان الشرقية في جميع أنحاء العالم: إن محمد أمين بغرا لم يتوقف عن أنشطته السياسية لحظة واحدة، بل واصلها بكل الأساليب والوسائل، ومنها: عقد المؤتمر: قد وافق الأمير وصديقه عيسى يوسف آلب تكين على بدء الأنشطة السياسية، وحشد أبناء تركستان الشرقية من كل أنحاء العالم لهذا العمل، وقرروا عقد المؤتمر في ١ سبتمبر ١٩٥٤م (Ömer Kul, 2015.154) في جدة بالمملكة السعودية العربية، وسمي هذا المؤتمر في تاريخ تركستان باسم "مؤتمر الحجاز"، واستمر المؤتمر لمدة خمسة أيام حتى ٥ سبتمبر. تم اتخاذ القرارات، منها: تعيين الأمير محمد أمين بوغرا وعيسى يوسف آلب تكين ممثلاً مؤهلاً بالكامل لتركستان الشرقية. ورفع قضية تركستان الشرقية إلى المستوى

الدولي. وإدخالها في الأمم المتحدة. واكتساب دعم مجتمع العالم خاصة العالم الإسلامي. وعدم أخذ المساعدة الاقتصادية من الحزب الشيوعي الصيني. بعد إعلان اتخاذ هذه القرارات، وقّع قرابة مائتين وخمسين شخصا ممن اشتركوا في المؤتمر. ثم نسخ نسختين من القرارات وسلمت نسخة منهما للأمير محمد أمين بوغرا والأخرى لعيسى يوسف آلب تكين. (Ömer Kul, 2015.154) ويعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر في تاريخ تركستان الشرقية في الخارج.

الثالثة: إشراك المؤتمرات الدولية: بعد تم تكليف الأنشطة السياسية للأمير محمد بوغرا وصديقه عيسى يوسف آلب تكين، بدأ الأمير معه في اشتراك المؤتمرات الدولية بصفته الممثل الرسمي لتركستان الشرقية. في عام ١٩٥٥م، حضر مؤتمر باندونغ، في إندونيسيا، وسمع فيها قضية تركستان الشرقية. في عام ١٩٦٠م، حضر مع صديقه اجتماعا للدول الآسيوية والأفريقية في العاصمة الهند دلهي. في عام ١٩٦٢م اشترك اجتماع رابطة العالم الإسلامي في بغداد عاصمة العراق. في عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٥م حضر اجتماعات متتالية لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وغيرها من المؤتمرات الدولية. وتحدث في جميع تلك المؤتمرات عن تركستان الشرقية وتاريخها والوضع الحالي، وظلم الشيوعيين الصينيين. وبذل قصارى جهده لكسب دعم العالم الغربي والعالم الإسلامي، والتقى برؤساء دول ووزراء لرفع قضية تركستان الشرقية من المستوى المحلي إلى المستوى الدولي.

الرابعة: تأسيس الجمعيات السياسية: إن آخر ما فعل الأمير من حياته في تركيا تأسيس جمعيات ومنظمات، فمنها:

1. "جمعية تركستان الشرقية للمهاجرين" التي تأسست عام ١٩٦٠م، وكان الأمير رئيس الجمعية، ونائبها عيسى يوسف آلب تكين والأمين العام بولات قادري. وقد كان الهدف الأساسي لتأسيس هذه الجمعية هو نقل قضية تركستان الشرقية إلى الأجيال القادمة بشكل جماعي؛

2. "منظمة التحرير الوطنية لتركستان الشرقية" التي تأسست في عام ١٩٦٠م في إسطنبول كتب الأمير الرسالة إلى رؤساء الدول باسم هذه المنظمة. وتعتبر هاتان الجمعيتان أول نشاط سياسي منظم تم تأسيسه في تركيا. والغرض من الأمير في إنشاء هذه الجمعيات والمؤسسات هو نقل الأنشطة السياسية لتركستان الشرقية من المستوى الفردي إلى مستوى الجماعي. وتوريث قضية تركستان الشرقية ومطالبة استقلالها للأجيال القادمة، لكي يستمروا جيلا بعد جيل حتى ينالوا استقلال الوطن ويعودوا إليها فاتحين محررين. الحقيقة أن هذه الجهود لم تذهب سدى ولم تنته بوفاة الأمير. واصلتها الأجيال القادمة سواء كانت في داخل تركستان الشرقية

وخارجها، كما استمر جهوده العلمي والسياسي في أنحاء العالم خاصة في تركيا. فالآن توجد في تركيا قرابة عشرين جمعية علمية وسياسية لقضية تركستان الشرقية في تركيا. ويقوم آلاف من أبناء تركستان الشرقية بأنشطة سياسية وعلمية لتسميع صوت تركستان الشرقية لأبناء العالم.

خاتمة:

- إن قضية تركستان الشرقية من القضايا المعقدة في التاريخ الحديث، بسبب احتلال الصين لتركستان الشرقية والعمل على طمس كافة المظاهر الإسلامية فيها، كمحاولة دمج المسلمين التركستانيين في الثقافة الصينية، وانتهاك لحقوق الإنسان في الإقليم، وممارسة أنواع القمع بكل أشكاله مما يصل في كثير من الأحيان إلى إبادة جماعية للشعب التركستاني؛
- أسهم الأمير محمد أمين بغرا في المجال التعليمي مثل: تحديد المناهج الدراسية وإدخال العلوم السياسية والاجتماعية في المناهج، كما أسهم في توعية الأمة من خلال منتديات أنشأها لتحقيق هذا الأمر؛
- استقطب رجال الأعمال والمال للمشاركة بأموالهم في خوض المعركة ضد المستعمر تحريرا للبلاد من برائنه؛ فنجح في عمله حتى أسست جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية في كاشغر - على يد ثابت دألا الكاشغري - عام ١٢/١١/١٩٣٣م بكافة أجهزتها (مجلس الدولة، والنظام الدستوري، والعلم، والعمل الوطني)؛
- هجوم القوات الصينية مدعمة من الاتحاد السوفيتي لإسقاط جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية، وزج بالعلماء والمفكرين وكبار المسؤولين الحكوميين - وزراء - في السجون، وكانت وفاة ثابت داملا في السجن، في الوقت الذي هاجر فيه الأمير محمد أمين بغرا خارج الدولة.
- عيّن عضوا في الكونجرس الصيني عن تركستان الشرقية، ودفع عن حقوق شعب تركستان الشرقية من خلال عدة محاولات كتعديلات بنود في دستور الصين قبل إعلانها؛
- ثار الشعب تحت قيادة العلامة علي خان تور و تحرير شمال تركستان الشرقية عام ١٩٤٤م وإعادة تأسيس الدولة مرة ثانية، وعين الأمير وزيرا للإنشاء والتنمية لمدة ثلاثة سنوات (١٩٤٥م - ١٩٤٨م) ثم نائبا لرئيس الحكومة الائتلافية؛
- فوز الحزب الشيوعي داخل الصين وقلب الموازين في تركستان الشرقية حيث وقعت تركستان الشرقية أسيرة في يد المستعمر إلى وقتنا هذا؛ مما أجبر الأمير على ترك وطنه مرة أخرى والهجرة خارجه؛

- استقر الأمير في تركيا بعد موافقته حكومتها على منحه الإذن بالإقامة على أراضيها، وأرسل بعثات طلابية من أبناء تركستان الشرقية للدراسة في الدول الغربية والاستفادة من علومها؛
- صُلِّر قضية تركستان الشرقية وهموم شعبها المسلم إلى خارج حدود الوطن نشرًا لقضيتهم وتعريف العالم بها، فكان أن تم عقد (مؤتمر الحجاز) لمدة خمسة أيام في جدة بالمملكة السعودية العربية مستهل شهر سبتمبر عام ١٩٥٤م. وشارك مؤتمر باندونغ في إندونيسيا المنعقد عام ١٩٦٠م، وحضر اجتماع الدول الآسيوية والأفريقية في العاصمة الهند دلهي عام ١٩٦٢م. وشارك في اجتماع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وخارجها كالمؤتمر المنعقد في بغداد عامي ١٩٦٤م و١٩٦٥م؛

التوصيات

وأخيرا بعد هذه الجولة المتواضعة أود أن أوصي:

- ببذل المزيد من العناية والاهتمام من قبل الجامعات والباحثين في دراسة جهود علماء العجم في ميادين العلوم والسياسة، لا سيما تركستان الشرقية المنسية، فلعل هذا يسهم في حل كثير من مشكلاتهم السياسية والإقليمية بعد انتشار أصوات أبناء تركستان الشرقية حول العالم بأيدي الباحثين والأكاديميين؛
 - على المسلمين في الدول الإسلامية تحقيق التواصل والدعم لتركستان الشرقية، ومتابعة أحوالها باستمرار؛
 - تشجيع الدول العربية والإسلامية على قيام جامعاتها بعمل أبحاث ودراسات وتحقيقها لخدمة رجال القادة الإسلاميين.
- وختاما أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، فإنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- (1) أركين آلب تكين، ٢٠١٢. أترك الأويغور، إسطنبول. وقف تركستان الشرقية.
- (2) تورغون ألماس، ٢٠١٧. الأويغور، ترجمة الدكتورة ماجدة مخلوف، إسطنبول. دار تكلمان.
- (3) توختي آخون أركين، ١٩٩٧، تركستان لشرقية البلد الإسلامي المنسي، القاهرة. دار الأندلس الخضراء.

- (4) جمال القارشي، محمد بن عمر، الصراح من الصحاح، كندا، جامعة تورونتو، رقم المخطوط-٦٦٢٠.
- (5) سعاد هادي حسن الطائي، ٢٠١٦. الأويغور، بغداد. دار عدنان.
- (6) سعاد هادي الطائي، ٢٠١٦. القاراخانيون، سورية. دار صفحات.
- (7) عبد الخبير داهلام، إجازة من عبد الخبير دامولام إلى سليمان الصنيع، مكتبة المدينة، رقم المخطوط ١١٠٨.
- (8) عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، القاهرة. المطبعة الجمعية الخيرية التركستانية.
- (9) عز الدين عمر الورداني، ٢٠٠١. تطور قضية تركستان الشرقية، رسالة ماجستير.
- (10) الجويني، عطاملوك، ١٩٨٥. تاريخ جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، دمشق. دار الملاح للطباعة والنشر.
- (11) عيسى يوسف آلب تكين، ٢٠١٢. أترك الأويغور، إسطنبول. وقف تركستان الشرقية.
- (12) عيسى يوسف آلب تكين، قضية تركستان الشرقية، الناشر مؤسسات مكة للطباعة والإعلام.
- (13) محمد ناصر العبودي، ٢٠١٥. جولة في تركستان الشرقية، السعودية. دار الهداية.
- (14) محمد أمين بغرا، ١٤٢٩. تاريخ تركستان الشرقية، ترجمة محمد قاسم أمين، السعودية. طبعة الملك فهد.
- (15) محمد أمين بَغْرَا، ١٩٥٩. محاربة الحرية والاستعمار، القاهرة.
- (16) محمد قاسم، ٢٠٠٠. ملوك الطوائف في تركستان، إسطنبول. دار تكلماكان.
- (17) محمد قاسم أمين، ١٤٢٩. الإعلام لبعض رجالات تركستان، السعودية. مكتبة ملك الفهد الوطنية للنشر.
- (18) محمود بن الحسين الكاشغري، ١٣٣٣، ديوان اللغة الترك، إسطنبول. طبعة دار الخلافة العليا.
- (19) المهلي، الحسن بن أحمد، ٢٠٠٦. المسالك والممالك، دمشق. دار تكوين للنشر.

باللغة الأويغورية:

- (1) ئالبىجان بۇغدا ٢٠١٨. شەرقىي تۈركىستان جۇمھۇرىيىتىنىڭ ئاساسىي قانۇنى، ئىستانبول. سوتۇق بۇغراخان نەشرىياتى.
- (2) ئالبىمت يۈسۈپ ٢٠٠٤م، ئۇيغۇر تىبابىتىدىن ئاساس، ئۈرۈمچى. سەھىيە نازارىتى.
- (3) ئابدۇشكۈر مۇھەممەد ئىمىن ١٩٩٨. ئۇيغۇر پەلسەپە تارىخى، ئۈرۈمچى. مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (4) ئابدۇرەئوف پۇلات، خېۋەر تۆمۈر، ٢٠١٦. چاغاتاي تىلى لۇغىتى، بېيجىڭ. مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (5) ئابدۇراخمان باقى ئۇيغۇرلارنىڭ يېزىق تارىخى، قەشقەر، خەلىق نەشرىياتى.
- (6) ئىليخان تۆرە ساغونى ٢٠١٦. تۈركىستان تۈركىستان قايقوسى، ئىستانبول. تەكلىماكان نەشرىياتى.
- (7) سابىت ئۇيغۇرى، ٢٠١٨، ئۇيغۇرنامە، ئىستانبول.
- (8) سەيجىنسۇڭ، ٢٠١٤. شىڭسىسەي، بېيجىڭ، مىللەتلەر نەشرىياتى.

- (9) سوفي ئاخون، ۲۰۱۴. مەن كەچكەن كىچىكلەر، بېيجىڭ، مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (10) شىرپ خۇشتار ۲۰۰۰. شىنجاڭ يېقىنقى زامان تارىخىدىكى مەشھۇر شەخسلەر، ئۈرۈمچى. مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (11) تىل كومىتېتى، ۱۹۹۰. ئۇيغۇر تىلىنىڭ ئىزاھلىق لۇغىتى، ئۈرۈمچى. خەلىق نەشرىياتى.
- (12) قەھرىمان غوجام بەردى، ۲۰۲۰. ئۇيغۇرلارنىڭ سىياسىي تارىخى، ئىستانبۇل. تەكلىماكان نەشرىياتى.
- (13) سوفي ئاخون، ۲۰۱۴. مەن كەچكەن كىچىكلەر، بېيجىڭ، مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (14) شىنجاڭ تارىخ ماتېرىياللىرىنى يېزىش كومىتېتى، ۲۰۰۵. خوتەننىڭ قىسقىچە تارىخى، ئۈرۈمچى. مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (15) مۇھەممەد ئىمىن بۇغرا، ۲۰۱۷. مۇھەممەد ئىمىن بۇغرا ماقالىلەر توپلىمى.
- (16) مۇھەممەد ئىمىن بۇغرا، شەرقىي تۈركىستان جۇغراپىيىسى ۋە ئۇنىڭ ھازىرقى ئەھۋالى.
- (17) مۇھەممەد قىشقىرى، ۲۰۰۸م. ئوتتۇرا ئاسىيا تارىخى تىزىملىرى، بېيجىڭ، مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (18) مۇھەممەد زۇنۇن ئوقيا، ئۇيغۇر يىلنامىسى، لىدىن، ئۇيغۇر تىلى تەتقىقات ئىنستىتوتى.
- (19) مۇھەممەد تۇرسۇن ئەھمەد، ۲۰۱۷. يۈز مەشھۇر ئۇيغۇر، ئىستانبۇل. سۇتۇق بۇغراخان نەشرىياتى.
- (20) مۇسا تۈركىستانى، ۲۰۰۸. تۈركىستان پاجىئەسى، ئىستانبۇل. سۇتۇق بۇغراخان نەشرىياتى.
- (21) نەبىجان ئەلا، ۲۰۲۰. ئۇيغۇر ئومۇمىي تارىخى، ئىستانبۇل. ئۇيغۇر تەتقىقات ئىنستىتوتى.
- (22) ھاجى نۇرھاجى، ۱۹۹۵. شىنجاڭ ئىسلام تارىخى، بېيجىڭ. مىللەتلەر نەشرىياتى.
- (23) ھاجى نۇرھاجى، ۲۰۰۹. قەدىمكى ئۇيغۇرلار ۋە قاراخانىلار، ئۈرۈمچى. خەلىق نەشرىياتى.
- (24) يالقون روزى، ۲۰۱۱. سابىت داموللام كىم، ئۈرۈمچى. شىنجاڭ مەدەنىيىتى ژورنىلى.

المراجع باللغة الأخرى:

- (1) ، ابو الفضل رجب لي، ۱۳۹۳ هـ، ويغورلار، تېرىز- ايران. نشر اختر. (باللغة الادارية)
- (2) محمد عاطف، ۱۳۰۰ هـ. كاشغر تارىخى، إسطنبول. مهران مطبعسى. (باللغة العثمانية التركية).
- (3) نجيب عاصم، ۱۳۱۶ هـ. توروك تارىخى، إسطنبول. دار الطباعة العامة. (باللغة العثمانية التركية)
- (4) يوسف بك مخلصي، ۱۹۷۳. شرقي تركستان معجزة گلستان. الموت- قازاقستان. (باللغة الاويغورية القديمة)
- (5) تاريخ أورتا آسيا، كاشغر، دار سويد. (باللغة الأويغورية القديمة).

باللغة الإنجليزية:

- 1) Ondrej Klimes, 2015, struggle by the pen the uygur discourse of nation and national interest, C1900-1949
- 2) Boston, Brill

باللغة التركية:

- 3) İbrahim Muti, 2002, Uygurların İslam'ı kabul ettikleri ilk Dönemlerdeki İslam Medreseleri Türkiye, Divan.
- 4) İslam ansiklopedisi, Türkiye, TDV.
- 5) Ömer Kul, 2015, Türkiyat Mecmuas

- 6) Bahaeddin Ögel,1971, Dünden Bugüne Türk Kültürünün Gelişme Çağları. ankara.Mehmet
- 7) yakup bugra, 2019, hatıralarım doğu Turkistan in gerçek hikayesi, Istanbul, siyer yayınlari.

باللغة الصينية:

- 郭换平, 龙开义, 2009, 近代以来新疆基督教研究综述, 新疆,石河子大学 (1)
- 李建生, 2008. 新疆目前“两教”信众结构及信仰对比研究,新疆师范大学学报. (2)

الأبعاد الجغرافية لتنمية الساحل البحري وظهيره الصحراوي في محافظة البصرة

Geographical dimensions of the development of the marine coast and its desert backyard for Basra Governorate

أ.م.د. حسين قاسم محمد الياسري

جامعة البصرة/مركز دراسات البصرة والخليج العربي

Dr. Hussein Qassem Mohammed Al- Yasiri

Dr.Hussein.alyasiry@gmail.com/

الملخص:

يتناول البحث الأبعاد الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تؤثر على تنمية الساحل البحري ، وظهيره الصحراوي في محافظة البصرة ، لما يؤديه من بعد استراتيجي للدولة ، وأن تنميته تحقق مزايا اقتصادية متعددة من خلال وضع الخطط والبرامج التنموية، ويهدف البحث للتعرف على الدور التنموي للساحل وظهيره الصحراوي كنمط من أنماط التنمية الساحلية والصحراوية من خلال تقييم الخصائص الجغرافية والوقوف على معطياتها ومعوقاتها في سبيل تحقيق التنمية المستدامة، وكان من أهم النتائج التي توصل لها البحث هو قصر الساحل العراقي الذي تغلب عليه صفة الانبساط، وتعاني الموارد المائية والتربة من مشاكل كثيرة، أدت تحديد مواقع الاستيطان، والصناعات الاستراتيجية، والموانئ، ويمكن تحقيق تنمية مستدامة باستخدام التكنولوجيا والأساليب الحديثة بالاستفادة من بعض التجارب الدولية.

الكلمات المفتاحية: الساحل البحري، الظهير الصحراوي، التنمية، البصرة

Abstract:

The research deals with the natural and human geographical dimensions that affect the development of the marine coast, and its desert back in Basra Governorate, because it performs a strategic dimension for the state, and that its development achieves multiple economic advantages through setting development plans and programs. The research aims to identify the

development role of the coast and its desert back as a pattern of Patterns of coastal and desert development by evaluating geographical characteristics and determining their data and obstacles in order to achieve sustainable development. One of the most important results of the research was the palace of the Iraqi coast, which was dominated by the characteristic of flatness, and water resources and soil suffered from many problems, which led to the determination of settlement sites, And strategic industries, ports, and sustainable development can be achieved by using modern technology and methods by making use of some international experiences.

Keywords: the sea coast, the desert back, the development, Basra

مقدمة:

يُعد الساحل البحري وظهيره من المناطق المهمة فهي مصدر للثروات البحرية (الأسماك، والأملاح، والمعادن، والنفط)، ونشأت فيها التجمعات السكانية، والموانئ، وأصبحت نقطة جذب محورية للمشروعات الصناعية، والسياحية، والمناطق الحرة، وتختلف منطقة الظهر من مكان لآخر، فقد تكون جبلية أو منطقة تغطيها مجموعة من الهضاب أو مناطق منبسطة ذات نشاط زراعي أو صناعي أو كليها، وقد تكون مناطق صحراوية معظمها غير مستغل كما هو الحال في منطقة الدراسة، وتقام فيه مؤسسات صناعية تتكامل مع الموانئ التي تقام على الساحل، وتعد منطقة الدراسة الأكثر احتياجاً للتنمية المستدامة، لأنها الأكثر هشاشة في مواردها البيئية؛ إذ تزداد التربة والمياه البحرية تلوثاً، وتقل معها الثروة السمكية فضلاً عن نشاط التجريف والردم للسواحل البحرية، وأعمال التنقيب عن النفط في ظهيره التي أدت إلى تهديد الحياة الفطرية كما أن المنطقة تأثرت كثيراً بالعمليات العسكرية التي أدت إلى تغيير في مورفولوجيتها من أعمال حفر الخنادق والسواتر الترابية، إبان الحرب العراقية-الإيرانية والحروب التي تلتها، لذلك جاءت أهمية هذه الدراسة بهدف إيجاد تنمية مستدامة تساهم في حماية السواحل البحرية، وتنميتها اقتصادياً .

مشكلة البحث :

هل للساحل البحري وظهيره الصحراوي مقومات يمكن الاستفادة منها في التنمية الشاملة والمستدامة، وما هي المعوقات التي تحول دون ذلك، وهل يمكن التغلب عليها ؟

فرضية البحث:

إن للساحل البحري وظهيره الصحراوي مقومات متعددة طبيعية وبشرية يمكن استثمارها في إيجاد تنمية مكانية اقتصادية مستدامة بالرغم من وجود بعض المعوقات باستخدام التكنولوجيا، وتجارب الدول الأخرى.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من خلال ما يؤديه الساحل البحري وظهيره من بعد استراتيجي للعراق، وأن تنميته تحقق مزايا اقتصادية متعددة من خلال وضع الخطط والبرامج التنموية .

هدف البحث ومنهجه:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الدور التنموي للساحل وظهيره الصحراوي كنمط من أنماط التنمية الساحلية والصحراوية من خلال تقييم الخصائص الجغرافية والوقوف على معطياتها ومعوقاتهما في سبيل تحقيق التنمية، من خلال منهج الوصف التحليلي للمعطيات الطبيعية والبشرية وانعكاساتها على تحقيق التنمية.

حدود الدراسة :

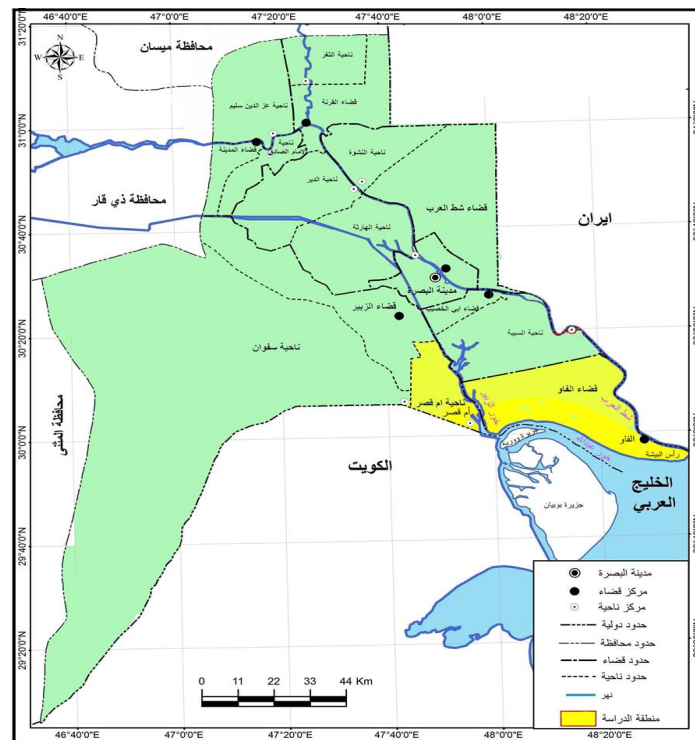
تتحدد منطقة الدراسة بالساحل البحري وظهيره الصحراوي في محافظة البصرة الذي يمتد لمسافة (58 كم)، بين دائرتي عرض (29.55- 30.16 °) شمالاً، وقوسي طول (47.65-48.40 °) شرقاً، خريطة(1). وتبلغ مساحة ناحية أم قصر، وقضاء الفاو (400، 1405 كم²)، ويشمل قضاء الفاو، وناحية أم قصر بمساحة تبلغ (1805 كم²)، وبنسبة (9.5%) من مجموع مساحة محافظة البصرة التي تبلغ (19070 كم²) (وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية، جدول 5/1، ص22).

أولاً: مفهوم الساحل والظهير الصحراوي

يعرف الساحل بأنه (نطاق الاتصال بين اليابس والماء، أما الشاطئ، فهو المساحة الواقعة بين أدنى جز، والحوائط أو الحواف الصخرية المشرفة على البحر، ويطلق أحياناً على السواحل ذات المظهر السفلي عندما يكون خالياً من الحواف على المساحة المحصورة بين أعلى ما تصله أمواج العواصف وأقصى جزر (أبو لقمة، 1999، ص59)، وعرف روبرت كاي الساحل بأنه (المنطقة بين الأرض والبحر، أو الخط الفاصل بين الأرض والبحر، وتعد هذه المنطقة متحركة غبير ثابتة المساحة نظراً لعوامل المد والجزر، أما المنطقة الساحلية فقد عرفها بأنها (النطاق الذي يربط اليابس بالمحيط ، ماء وأرض مغمورة بالمياه، وهذه

المنطقة تقام فيها استعمالات الأراضي التي تؤثر في منطقة المحيط أو البحر والعكس ، ولهذا فهي غير محددة الطول والعرض والعمق) (Kay, 1999, P2-3) ، وفي كتاب مقدمة في إدارة المناطق الساحلية لتيموثي بيتلي ذكر أنه عند رسم حدود المنطقة الساحلية لا بد من إدراك أن امتدادها من الممكن أن يتأثر بالأنشطة البشرية التي تقام فيها، كما أنها لا بد أن تشمل المناطق الداخلية من جانب الماء، فقد تمتد لمئات الأميال أو الكيلومترات داخل المياه، وتتوقف حدودها على طبيعة الهدف من وضع هذه الحدود سواء مشروعات تنمية، أو حدود قانونية دولية، أو حتى للتبادل الاقتصادي، مثل تجربة تنمية ساحل مدينة كيب تاون جنوب أفريقيا، إذ حددت المنطقة الساحلية من (5-10 كم) من الشاطئ (Betley, 2002, P.1)، والتجربة المصرية التي عرفت الظهير الصحراوي للساحل بأنها (المنطقة التي تتأثر بصورة مباشرة بجميع العوامل الطبيعية الساحلية مثل النحت، والترسيب، والرياح، والأمطار، والمياه الجوفية، والكثبان الرملية، قد يصل عمقها إلى (30 كم) حسب خريطة (1)

موقع منطقة الدراسة من محافظة البصرة



المصدر، اعتماداً على ، وزارة الموارد المائية ، الهيئة العامة للمساحة 2020

طبيعة الساحل في المناطق الصحراوية إلا في حالة وجود عوائق طبيعية (وزارة الإسكان والمرافق والمجمعات العمرانية، 2017، ص8)، وعرف برنامج الأمم المتحدة للبيئة عام 2008 المنطقة الساحلية (بأنها عبارة عن نقطة التقاء مياه المحيطات باليابسة، وتشمل الأماكن التي تقع على الشريط إلى جانب المياه الساحلية المجاورة لها؛ كما يمكن أن تضم الدلتا النهرية، والسهول الساحلية، والأراضي الرطبة، والشواطئ، والكثبان الرملية، والشعاب المرجانية، وغابات المانغروف، والبحيرات الضحلة، وغير ذلك من المعالم الساحلية الأخرى (سكويرس، 2016، ص10)، وتنقسم المناطق الساحلية إلى خمسة أجزاء متتابعة، وهي منطقة اليابس، وهي التي تمتد مقابلة للأفكار وخلف الساحل، وغالبا لا يوجد بها تلوث بحري، والأرض الساحلية، وهي المتاخمة لمياه الساحل، ويغلب على طبيعتها الخلط والتداخل بين اليابس والمياه، وتوصف بالرطبة، ويزيد فيها تركيز الأنشطة الإنسانية، والمياه الساحلية، وهي مصب الأنهار والبحيرات والمياه الضحلة، والمياه الإقليمية، وهي تمتد بعمق نحو (٣٢٢ كم)، وتكون متاخمة لأراضي الدولة، وتخضع لسيادتها. والمياه الدولية، وهي تقع خارج حدود سيادة الدولة (Cicin,1998, P3) وبصفة عامة إن المنطقة الساحلية عبارة عن امتداد طولي شريطي من الأرض والماء الذي يفصل بينهما الساحل، أي المساحة المتداخلة بين الأرض والبحر. أما الظهير الصحراوي، فهو النطاق الصحراوي الذي يقع خلف الساحل، ويتباين عمقه حسب طبيعة الساحل وطوله.

ثانياً: الخصائص الجغرافية للساحل البحري وظهيره الصحراوي

1- الخصائص الطبيعية:

أ- الموقع والحدود:

يقع الساحل البحري في جنوب شرق العراق ضمن محافظة البصرة ، ويمتد من مصب شط العرب شرقاً عند رأس البيشة إلى مدخل خور الزبير عند مدينة أم قصر غرباً، وهناك اختلاف حول طول السواحل العراقية فتقدرها بعض المصادر بـ(36ميلاً بحرياً) أي (67.200 كم) ابتداء من ملتقى الحدود العراقية- الإيرانية عند مصب شط العرب جنوباً حتى نقطة التقاء الحدود العراقية-الكويتية في خور عبد الله، في حين تؤكد مصادر أخرى أن المسافة لا تتجاوز عشرة أميال بحرية فقط، وتشير مصادر مديرية الملاحة البحرية في الشركة العامة لموانئ العراق إلى أنَّ أطوال السواحل العراقية من خط التالوك في شط العرب إلى خط التالوك في خور عبدالله تقدر بحوالي (25 كم)، وهو ساحل يطل مباشرة على البحر أما السواحل

المتبقية فتقدر بحوالي (80 كم) تمتد من رأس البيشة في الفاو حتى ميناء أم قصر العراقي (السعدون، 2006، ص114)، ويتفق أغلب الباحثين على أن طوله (٥٨ كم)، وبذلك يعد من السواحل الصغيرة، فنسبة طول الساحل إلى مساحة المجال البري للعراق تبلغ (١ : ٧٥٣٥) أي أن كل (1 كم) من الساحل يقابله (٧٥٣٥ كم٢) من البر، وتبلغ المساحة الإجمالية للمجال البحري العراقي في حدود المنطقة الاقتصادية الخالصة بنحو (٧٠٠ كم)، وتبلغ نسبة طول الشاطئ إلى مساحة المجال البحري (1 : 12)، أي أن كل (1 كم) من الشاطئ يقابل نحو (١٢ كم٢) من البحر وبذلك يعد هذا المجال محدود المساحة، ما يعني محدودية درجة الانتفاع العراقي بالبحر في المجالات العسكرية، والاقتصادية، وبذلك تتأكد الصفة القارية على موقع العراق، إذ تبلغ قيمة مؤشر البحرية للعراق نحو (٠,٠٠١٦)، ما جعل العراق يحتل المركز الأخير مقارنة بجواره الإقليمي (عبد السلام، 2019، ص365-366)، جدول(1) .

جدول(1): خصائص موقع الساحل العراقي

الدولة	المجال البري كم٢	المجال البحري كم٢	طول الساحل كم٢	مؤشر البحرية
العراق	438317	700	58	0.0016
تركيا	770760	236600	7200	0.3030
سوريا	184050	10300	193	0.0556
الاردن	91971	700	26	0.0076
السعودية	1960582	186200	2640	0.0950
الكويت	17820	12000	499	0.6734
ايران	1636000	602200	13056	12306

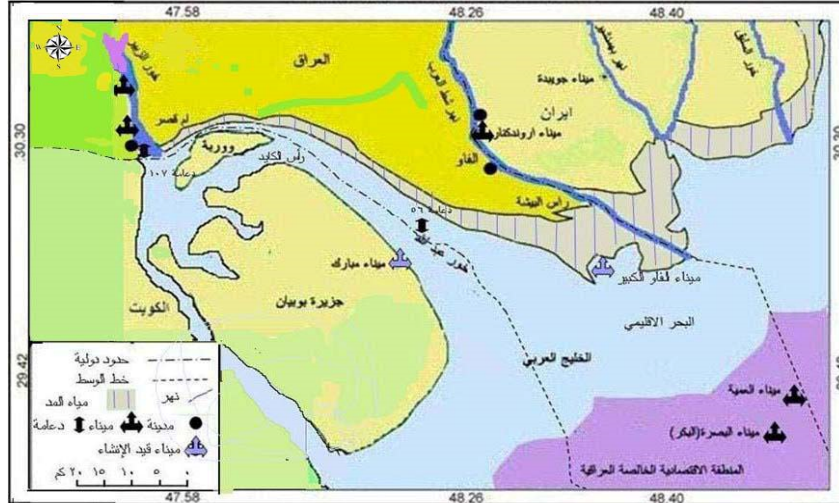
المصدر اعتمادا على ، محمد عبد السلام ، الجيوبولتيكيا علم هندسة السياسة الخارجية للدول ، الأردن ، 2019 ،

ص367

ويرسب شط العرب كميات من الطمي أمام الساحل ، وتعمل التيارات البحرية على توزيعها على مسافة بعيدة عن الساحل مما يؤدي إلى عدم وضوح خط الأساس الذي ينبغي قياس البحر الإقليمي العراقي منه ، وقد أثر موقع العراق وطبيعة وشكل الساحل على وضع العراق القانوني كدولة بحرية حسب اتفاقية البحار عام 1982، فموقعه على رأس الخليج وتقع ساحله يجعل البحار الإقليمية وامتدادها إلى كل من

الكويت وإيران تتقاطع عند بحره الإقليمي بمنطقة ضيقة على شكل مثلث قاعدته ساحل العراق عند راس البيشة وجزء من خور عبد الله ورأسه في منطقة تبعد (20.200 كم) عن الساحل وفقاً لاتفاقية قانون البحار الأمر الذي جعل المياه الإقليمية للعراق وإيران والكويت متداخلة، لأن الجرف القاري متداخل (محمد، 2015 ، ص165) . وتم تحديد الحدود البحرية العراقية-الكويتية بالقرار المرقم (833) في 1993/5/27، وتبدأ من الدعامة الحدودية المرقمة (107) على قوس طول (2.47.57.0°) شرقاً إلى (8.48.24.0°) شرقاً بين العوامتين (12 و 14) في خور عبد الله (السعدون، 2019، ص171) ، أما الحدود البحرية العراقية-الإيرانية ، فقد عاجلته المادة (13) من اتفاقية جنيف للبحر الإقليمي لسنة 1985، إذ أشارت إلى أنه في حالة وجود نهر يصب مباشرة في البحر فإن بداية البحر الإقليمي تكوّن في مواجهة ذلك البحر خطأً مستقيماً يمر عبر فتحة النهر بين آخر نقطة من كل من ضفتيه تنحصر عنها المياه وقت الجزر كما أشارت إليه اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام 1982 في مادتها التاسعة التي نصت على « إذا كان هناك نهر يصب مباشرة في البحر يكون خط الأساس خطأً مستقيماً عبر مصب النهر بين نقطتين على حد أدنى الجزر على ضفتيه» فخط الأساس الذي يبدأ منه قياس البحر الإقليمي يكون خطأً مستقيماً من نقطتي أدنى الجزر على ضفتي النهر في نقاط التقائه بالبحر (السعدون، 2019 ، ص209)، خريطة (2).

خريطة (2): مقومات الساحل البحري وظهيرة الصحراوي جنوب محافظة البصرة



المصدر ، اعتماداً على ، 1 (خليل المحمود، 2006 ، ص118) 2- (فيان، 2015 ، ص165).

وعلى الرغم من قصر الساحل البحري إلا أن له قيمة استراتيجية للعراق المنفذ، فالجبهة البحرية لا تقاس أهميتها بطول الساحل بل بقيمتها المتعددة، لذلك فإن العراق إذا ما أراد الوصول إلى المحيط الهندي مباشرة عن طريق المياه، فيجب أن يضمن تأمين خطوط مواصلاته، وبعبارة أخرى إن أي تهديد ضمن المسار الذي تمر به خطوط المواصلات البحرية يشكل تهديداً للأمن الوطني العراقي مما يتطلب حصول العراق على تسهيلات بحرية، ويعتمد ذلك على العلاقات مع الدول المطلة على الخليج.

ب - الطبيعة الجيولوجية والسطح :

تنقسم منطقة الدراسة من الناحية التكتونية إلى الكتلة الشرقية التي يقع عليها نهر شط العرب ضمن منطقة الجرف غير المستقر، والكتلة الغربية ضمن منطقة الجرف المستقر التي يقع عليها خور عبدالله، وتتكون المنطقة من أنواع متعددة من الصخور التي قاومت الحركات الأرضية، وتظهر أهمية التكوين الجيولوجي من خلال ارتباطه المباشر بالطبقة السطحية التي يتركز عليها إنشاء البنى التحتية، وقدرة الصخور على تحمل الأوزان الثقيلة (الشحمان، 2019 ، ص. ص. 41. 42)، فقد ساعدت الصخور الصلبة غرب خزر الزبير على إنشاء ميناء أم قصر، وخور الزبير، ومجموعة من المؤسسات الصناعية، ومد طرق النقل وسكك الحديد، في حين أن طبيعة الصخور الهشة غير ملائمة للإنشاءات في المنطقة المحصورة بين خور الزبير وشط العرب، ويمكن معالجتها بطمرها بصخور صلبة، يمكن جلبها من مناطق أخرى.

والساحل العراقي من نوع السواحل المحايدة، والمركبة، ويقصد بالمحايدة، السواحل التي تكونت على هوامش يابسة جديدة ظهرت بفعل عوامل الإرساب المختلفة، ومن أهمها سواحل الدلتاوات النهرية، والمروحية وسواحل المستنقعات والسبخات الشاطئية، أما المركبة فهي، السواحل التي ترجع في نشأتها إلى حدوث بعض الحركات الباطنية أو التكتونية ثم تشكلت بفعل عوامل النحت (أبو لقمه، 1999، ص 65)، وتشكل الساحل العراقي بفعل ترسيب أنهار دجلة، والفرات، وشط العرب، والكارون، وشط البصرة، وإليها يعزو نمو رأس الخليج، وتقدم الساحل نحو المياه، فضلاً عن الرواسب الريحية، والترسبات البحرية التي تأتي من مياه المد، ويتميز الساحل العراقي بامتداده على شكل خور ضحل من أخوار الخليج، وبذلك أصبح هذا الساحل لا يقابله من مياه الخليج سوى شريط مائي يتراوح عرضه (2 ميل بحري) أي (3.704 كم) في المنطقة المحصورة بين جزيرة وربة، والساحل العراقي، وبين (10 ميل بحري) أي (18.52 كم) في المنطقة المحصورة بين رأس الكايد ورأس البيشة، وهذا الشريط هو خور عبدالله الذي تحددت فيه الحركة بقناة ضيقة تعد من القنوات الملاحية التي تحتاج إلى حذر شديد، ودقة عالية في السير، والحركة خلالها من القطع البحرية (البهادلي، 2010، ص 84) .

تعرض خط الساحل لعمليات ترسيب بمعدل (450 م) خلال 40 سنة بمعدل (11 م/سنة) بينما الساحل الكويتي تراجع بمحدود (260-300 م) وبمعدل (280 م) أي (7 م/سنة)، وتمثل هذه المناطق المواقع الأساس التي جرى تصميم ميناء الفاو العراقي، والمبارك الكويتي عليها ما جعل هذه المناطق في تناقص واضمحلال مع مرور الزمن إذ قدرت بمحدود (17 كم2) من الأراضي المتأكلة المفقودة بينما عمليات الترسيب أضافت (3 كم2) فقط (مطشر، 2012، ص163)، وتندرج الأرض بالانخفاض من شط العرب نحو السبخ الساحلية، ولا يفصل منطقة الدراسة عن مياه الخليج العربي سوى سدة اصطناعية تقف عندها المياه البحرية في أعلى مد، وتمتد منطقة السبخ الساحلية خلف الساحل العراقي بمعدل (27 كم) نحو الشمال، وبمساحة تقدر بحوالي (736 كم2)، والمسطحات المدية ذات الانحدار طفيف نحو البحر تنحصر بين أعلى مد، وأدنى جزر بطول (64 كم)، ويصل أكبر اتساع لها قرب مصب شط العرب بمعدل (15 كم)، وأقل اتساع لها قرب مدخل خور الزبير (100 م)، ويغطي الساحل المطل على خور عبد الله بمسطحات طينية، تتمثل بمياه ضحلة من جهة البحر وبأراضٍ جرداء تغطي بالبرك والمستنقعات الملحية من جهة البر (المحمود، 2019، ص 351).

يظهر تباين طفيف في مستوى السطح كون المنطقة سهلية تخلو تقريباً من العوارض التضاريسية، وتنحصر بين خط الكنتور (2م) في المقتربات العليا لخور الزبير، و(1 م) في النطاق الأعلى للساحل، ثم تصل إلى مستوى سطح البحر عند خط الساحل، ويظهر فرق بين ارتفاع نطاق السبخ الساحلية أو ما يعرف ببيئات المد العالي، ونطاق المد المتوسط التي تتعرض لنمط متغير من التآكل والترسيب بسبب العمليات الفيزيائية لا يتجاوز (30 سم / كم) تقريباً، كما يظهر تباين مكاني ما بين الانحدار في المسطحات المدية، ويزداد فرق الانحدار في الجهة الغربية، في حين يقل الفرق في الانحدار قرب مصب شط العرب (المحمود، 2006، ص 26).

إن ضحالة المياه في الساحل العراقي، دفع الجهات المعنية إلى إنشاء موانئ اصطناعية في جهات بعيدة عن اليابس، مثل ميناء العميق، والبصرة مما كلف الحكومة مبالغ طائلة، تتمثل في نصب منصات التحميل في عرض البحر، ومد الأنابيب إليها، وأدت طبيعة الساحل وظهره إلى عدم قيام موانئ بحرية، أو تجمعات سكانية أو منشآت اقتصادية، أو حتى مراكز أمنيه لمراقبة الساحل مما يسهل من عمليات التسلل والتهريب. كما أثر انتشار السبخ الساحلية على قلة الحياة النباتية والحيوانية التي تقتصر على بعض الهائمات والطحالب، والأصداف البحرية والقواقع.

ج- التربة :

تتكون تربة منطقة الدراسة في الجزء الشرقي من الرواسب النهرية، حيث يشكل الغرين والطين معظم ترسباتها، فضلاً عن كميات ضئيلة من الرمل، أما تربة الجزء الغربي فتكون تربتها سميكة من الطين الرخو، والرمل، وترسبات بحرية مختلفة، في حين يظهر تشابه بمقطع التربة في قاع القناة الملاحية لشط العرب، وخور الزبير، عدا بعض الاختلافات في سمك الطبقات وتجانسها؛ إذ تتكون الطبقة السطحية للقاع من طين غريني رخو جداً متجانس ذي مقلومة ضعيفة جداً للاختراق القياسي، وقد ساعد عدم وجود الصخور الصلبة في قاع هذه القنوات الملاحية، على سهولة مرور السفن التجارية، كما ساعدت على عمليات الحفر لتعميقها، وتنظيف جزؤها العلوي، وكذلك انخفاض تكاليف الحفر، غير أن هناك هشاشة التربة تقف عائقاً أمام بناء المؤسسات الاقتصادية أو التجمعات السكانية، وارتفاع كلفة مد طرق النقل (البهادلي، 2010، ص 84).

تسمى الترب المواجهة للبحر بتربة مسطحات المد، وتبلغ مساحتها (188 كم²)، ويتعرض جزؤها المطل على البحر للغمر بمياه البحر، ما جعلها غنية بالمعادن الطينية، أما التربة التي تقع خلف الساحل فهي ترتفع بمعدل (2.4 م) في الجانب الجنوبي الشرقي، وبمعدل (2.7 م) في الجانب الشمالي الغربي نسبة إلى أدنى مستوى للجزر، ويقل تأثير هذا النطاق بالمد والجزر، لكونها ذات مستوى أعلى من التربة السابقة، وتمتاز بظهور التشققات، وفي الظهير الصحراوي تظهر ترب السباح على شكل منخفضات بارتفاع (1.5 م) نسبة إلى أدنى جزر، وتبلغ مساحتها (736 كم²)، وهي تربة متماسكة، وذات معدل غيض مائي منخفض، لذا تقل فيها التشققات، كما تزداد قابليتها على رفع الماء بالخاصية الشعرية مما يسبب ظهور الأملاح وتكوين السبخات (المحمود، 2006، ص. ص. 59. 61).

وتشكل تربة كتوف الأنهار نطاقاً ضيقاً وهامشياً، إذ تظهر بين مجرى شط العرب شرقاً وترب السباح غرباً وتربة مسطحات المد جنوباً، وتتميز بارتفاعها النسبي عن الأراضي المجاورة، وتتأثر طبيعة تربتها بالمياه القليلة الملوحة من شط العرب، لذلك تتركز الزراعة فيها لاسيما أشجار النخيل والحناء وبعض الخضراوات التي تتحمل الملوحة.

د- المناخ :

تقع منطقة الدراسة ضمن منطقة المناخ الجاف الحار، فمن جدول (2) يظهر أن معدل الحرارة السنوي يبلغ (27.5°م)، ويبلغ أعلى معدل لها في شهر تموز (37.8°م)، وقد تسجل درجات حرارية متطرفة فوق (50°م)، وأدنى معدل لها في شهر كانون الثاني (14.7°م)، وتنحط معدلات درجات الحرارة (40°م) في

الأشهر الحارة وهي حزيران، وتموز، وآب، وتنخفض دون (12 م) في الأشهر الباردة وهي، كانون الأول، والثاني، وشباط، وهذا الارتفاع في درجات الحرارة لا يشكل عائقاً أمام الأنشطة الاقتصادية لكنها تزيد من التبخر الذي يترك سباحاً ملحية على التربة التي لا تصلح لقيام النشاط الزراعي، لكن قد تؤثر على راحة الإنسان وقدرته على العمل لاسيما إذ اقترنت بالرطوبة العالية التي يصل معدلها (43.7%)، وقد ترتفع بسبب المؤثرات البحرية إلى (90%) ما حدد من مراكز الاستيطان.

أما الأمطار فتتصف بقلتها، وتذبذبها في الأشهر المطيرة؛ إذ بلغ معدلها السنوي (181.1 ملم)، ما يجعلها غير مفيدة في الزراعة، لكنها تسمح لنمو النبات الطبيعي في أجزاء متفرقة من الظهر الصحراوي، وهذه الكميات من الأمطار لا تؤثر على حركة النقل في الموانئ، أو الطرق البرية فضلاً عن أن معدل سرعة الرياح السنوي بلغ (2.9م/ثا)، وهي ليست ذات سرعة عالية، انعكس ذلك على تحسين مدى الرؤية إلى (9 كم)، وتغلب على المنطقة الرياح الشمالية الغربية التي تثير الغبار والأتربة في حال زيادة سرعتها، في حين أن الرياح الجنوبية الشرقية تؤدي إلى رفع مناسيب المياه ما تسمح بدخول السفن الكبيرة ، ورفع حجم الثروة السمكية لكنها تكون مزعجة للسكان، كما أن عدد الأيام التي يتشكل بها الضباب لا تزيد عن (11 يوماً) وهو ضباب سرعان ما ينجلي بعد طوع الشمس، وبذلك فإن مناخ المنطقة لا يشكل عائقاً كبيراً أمام التنمية .

هـ- الموارد المائية :

لا تتوفر في منطقة الدراسة أنهار سوى مصب شط العرب الذي يعاني من ارتفاع في الترسبات، والملوثات الكيميائية التي أدت إلى ارتفاع في ملوحة مياهه التي أثرت على تراجع الزراعة، أما المياه الجوفية فهي قريبة من سطح الأرض؛ إذ يتراوح عمقها بين (0.5-1.5م) عند مناطق كتوف شط العرب، وتصل إلى سطح الأرض بل ترتفع فوقه في أكثر الأحيان أما بشكل دائم أو فصلي فوق المناطق المنخفضة المجاورة لتلك الكتوف، وتبلغ درجة الملوحة فيها بين (8-64 الف ميكروموز/سم3) ، أما قيم التوصيلية الكهربائية

جدول(2)، الخصائص المناخية لمنطقة الدراسة (محطة الفاو 2017

الأشهر	الحرارة م°			الرطوبة %	الامطار /ملم	الرياح م/ثا	الرؤية /كم	الضباب /يوم
	عظمى	صغرى	المعدل					
كانون الثاني	19.7	9.3	14.7	62.1	1.53	2.9	9.9	0

شباط	21.8	11.4	17	54.2	2.54	3.2	9.6	1
آذار	25.4	15.5	20.6	53.3	16.51	2.9	9.2	0
نيسان	31.3	21.5	27.1	43.6	1.53	3	9.6	0
مايس	25.6	38.3	33	29.3	0	3.1	9.5	0
حزيران	44.5	29.8	38.5	17	0	3.5	10	0
تموز	44.8	32	38.8	35.9	0	2.6	9.9	0
آب	44.6	29.2	38.2	23.7	0	2.9	9.9	0
أيلول	42	28.1	35.4	26.3	0	2.5	9.8	2
تشرين الأول	36.9	20	28.5	38.5	0	2.3	9.8	2
تشرين الثاني	26.9	17.4	22.5	65.2	87.36	2.9	9.5	3
كانون الأول	19.2	11.8	15.8	75.6	71.62	2.8	9	3
المعدل السنوي	31.9	22	27.5	43.7	181.1	2.9	9.6	11

<https://en.tutiempo.net/climate/01-2020/ws-406910.html>

فقد تراوحت بين (26.7-37.5 ملموز/سم³) ، ويبلغ تركيز أيون الكلور، والكبريتات (239، 137 ملليم كافئ/لتر) (الخطاط، 2012، ص. ص. 172. 174) ، وهي بذلك لا تصلح لأي نوع من أنواع الاستعمالات، وتسبب تملح وتغدق التربة ، وتؤدي إلى إتلاف المباني، ولا يمكن التوسع في رقعته الأرض الزراعية إلا بتقليل مشكله ارتفاع الماء الأرضي بإنشاء شبكه ري وصرف جيدة وحديثة، وشبكة مضخات لسحب المياه باتجاه الخليج، وقد تعيق تلك الأملاح التنمية العمرانية لأنها تؤثر على مواد البناء مواد البناء، فضلاً عن تأثيرها على الطرق، ما يتطلب استخدام تكنولوجيا عالية في إنشاء المشروعات الاقتصادية. ومن جانب آخر يمكن الاستفادة من تلك الأملاح في قيام صناعة ملح الطعام. ويستفاد من المياه الجوفية في زراعة الخضروات في ناحية أم قصر لملائمتها لزراعة هذا النوع من المحاصيل.

و- النبات الطبيعي :

تميزت منطقة الدراسة بضالة النبات الطبيعي بسبب ظروف الجفاف، وتظهر بعض النباتات عند سقوط الأمطار في الجانب الغربي مثل نبات الشحيمة، وبعض النباتات الحولية المتقرمة ذات الأوراق الصغيرة،

وبعض الأشواك نثل الحمض، والعجرم، والعراض، والرمط، والعرفج، وهي نباتات مائية تظهر عند حافات خور الزبير، أما في الجانب الشرقي قرب رأس البيشة، فتتواجد أنواع عديدة من النباتات الطبيعية، وأهمها المنكروف، والقصب والبردي، فضلاً عن الأعشاب البحرية والطحالب (المحمود ، مصدر سابق ، ص 46) . وانعكست قلة النبات الطبيعي على ندرة الثروة الحيوانية ، وضعف ثبات التربة.

ي-الواجهة البحرية :

يتباين الساحل البحري في مظهره ، إذ تتخلله مجموعة الأخوار ، إذ يمتد خور الزبير على شكل لسان بحري بطول (40 كم) ، وعرض بين (1-2 كم) ، وبعمق بين (10-20 م) (البهادلي، 2010، ص 92)، وتسمح الأعماق فيه بمرور السفن التي يزيد غاطسها عن (9.20 م) وتستوعب حمولة بين (35-45 ألف طن) (محمود غازي غانم الشحماني، مصدر سابق ، ص48) وتنتشر بالقرب من أجزائه الشمالية مجموعة كبيرة من المسطحات المائية الضحلة والمالحة التي تغذيها مياه المد من الخور ، أما خور عبدالله ، فهو يمتد بين جزيرة وربة ، وبوبيان غرباً ويكون ضيقاً ، ويتسع كلما اقتربنا من رأس البيشة شرقاً، بطول (23 كم)، ويتراوح عمقه بين (7-14م)، في حين أن خور العمية ، والخفة يبدآن وينتهيان في داخل البحر ، ويبلغ متوسط الأعماق بين (10-30 م) ، والعرض بين (300-500 م) ، وتمتد قناة الروكا من مصب شط العرب إلى بداية حدود المياه العميقة ، ويقع عند مدخلها الشمالي سد هلالى يدعى بسد شط العرب الخارجي، وتتميز هذه القناة بأعلى معدل للتسيب، ويبلغ معدل عرضها (1270م)، وعمقها بين (7-10 م) (البهادلي، 2010، ص 94) ، خريطة (2) . وانعكست ضحالة الساحل على ارتفاع تكاليف بناء منصات نفطية وسط البحر تكلف الدولة مبالغ كبيرة لمد أنابيب نقل النفط ، ووصول الإمدادات إلى تلك المنصات فضلاً عن تكاليف عمليات الحفر والكري المستمر في القنوات الملاحية .

يتأثر شط العرب بظاهرة المد والجزر ، وهو من النوع المختلط بين المد اليومي والنصف اليومي، ويسود النوع الثاني مدين وجزرين في اليوم، وتستغرق فترة المد والجزر (4.5) و(8.5) ساعة على التوالي، وتتباين سرعة التيار بين (0.4-0.7 م/ثا) للمد والجزر على التوالي، أما في خور الزبير، فهو من النوع المختلط النصف يومي، ويتراوح مدى المد والجزر بين (3.2 – 5.12 م) ، وبمعدل (4.16 م)، وتستغرق فترة المد والجزر حوالي (5) و(8) ساعة على التوالي وتتباين سرعة التيار بمقدار (0.96 – 1.01 م/ثا) على التوالي، في حين يحدث المد والجزر في شمال الخليج العربي كل (24) ساعة و(52) دقيقة، وإن أعلى قيمة للفرق بين مستويات المد والجزر، تسجل عند الطرف الشمالي للخليج العربي وتتجاوز (3 م)، في حين لا

تتجاوز في وسط الخليج (1.5م) (البهادلي، 2010، ص 106)، وظاهرة المد والجزر البحرية أدت إلى منع تكوين دلتا لشط العرب فضلاً عن وجود نظام طبيعي للري والصرف تستفيد منه الزراعة، وقد تؤدي الأمواج العالية عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية القوية إلى التأثير على عمل الموانئ البحرية، في حال عدم وجود كاسر للأمواج يصمد أمام قوتها.

2- الخصائص السكانية :

يعد الساحل وظهيره فقيراً بالسكان، لعدم ملائمته للاستيطان البشري نتيجة للظروف الطبيعية التي سبق ذكرها فضلاً عن عدم وجود خطط تنمية تجذب السكان، فمن جدول (3)، وشكل (1) يتبين أن حجم سكان المناطق الساحلية بلغ (65253 نسمة) عام 2007، ارتفع إلى (113422 نسمة) عام 2020 ، ويشكلون نسبة (3.4 ، 3.2%) على التوالي من مجموع سكان محافظة البصرة، للعامين المذكورين، ونسبة نمو بلغت (3%)(*) على مدى (19 عاماً) . ومن نفس الجدول يلاحظ أن نسبة السكان الحضر انخفضت في قضاء الفاو بنسبة (2.1%) ويعزى ذلك إلى عودة النشاط الزراعي، وانتقال جزء من السكان إلى المناطق الريفية (بلغ عدد القرى الزراعية في أم قصر (9 قرى) ، وفي الفاو (8 قرى)، وفي البصرة 325 قرية (وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء، مسح القرى الريفية لمحافظة البصرة، 2017، ص 20)، في حين حصل العكس في أم قصر لتقلص عدد المزارع، وانتقال جزء من سكانها إلى مركز الناحية للتوسع في أنشطة الموانئ، والصناعة، ويظهر جدول (4) أن عدد الذكور في ناحية أم قصر، والفاو، وكذلك في محافظة البصرة تجاوزت أعداد الإناث في عام 2007، وفي عام 2020 حصل العكس؛ إذ بلغت نسبة الجنس (99%)، لعدم وجود تنمية اقتصادية في المناطق الساحلية، ما يقلل من جذب الأيدي العاملة التي غالباً ما تكون من الذكور.

جدول (3): حجم ونسبة سكان منطقة الدراسة موزع حسب البيئة مقارنة بمحافظتي البصرة 2007، 2020

$$r = \left(\sqrt[t]{\frac{p2}{p1}} - 1 \right) \times 100$$

(*) استخرجت نسبة النمو اعتماداً على : المعادلة التالية

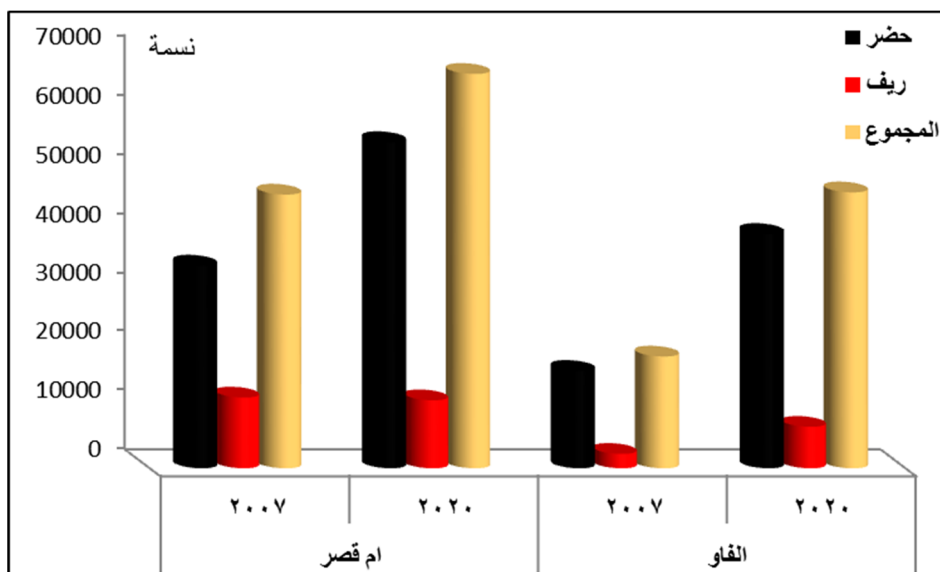
R = نسبة النمو ، t = عدد سنوات التعداد ، P2 = التعداد اللاحق ، p1 = التعداد السابق

U.N. Demography. Real Book , 1984 ,36th .Issue, New York , 1986 , p53

المنطقة	البيئة	2007	%	2020	%	النمو 2007-2020
ناحية أم قصر	حضر	34404	74.2	55194	82.8	2.5
	ريف	11959	25.8	11489	17.2	0.2-
	المجموع	46363	100	66684	100	1.9
قضاء الفاو	حضر	16457	87.1	39731	85	4.7
	ريف	2433	12.9	7007	15	5.7
	المجموع	18890	100	46738	100	4.9
مجموع سكان الساحل		65253	3.4	113422	3.2	3
محافظة البصرة		1912533	100	3215552	100	2.8

المصدر، اعتماداً على ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء ، تقديرات 2007 ، و 2020

شكل (1): حجم السكان في منطقة الدراسة موزع حسب البيئة 2007-2020



المصدر ، جدول (3)

جدول (4): لتركيب النوعي لسكان منطقة الدراسة مقارنة بمحافظة البصرة 2007-2020

المنطقة	الجنس	2007	2020

33311	24498	ذكور	ناحية أم قصر
33372	21865	إناث	
99	112	نسبة الجنس	
23332	9708	ذكور	قضاء الفاو
23407	9182	إناث	
99	105	نسبة الجنس	
1606955	963731	ذكور	محافظة البصرة
1608597	948802	إناث	
99	101	نسبة الجنس	

المصدر، اعتماداً على ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء ، تقديرات 2007 ، و 2020

ويقتصر الاستيطان على منطقتين، الأولى، تقع في الشرق بموازاة الضفة اليسرى لشط العرب تتمثل بمدينة الفاو والقرى، والمساكن المبعثرة وسط البساتين شمال المدينة، والثاني عند مدخل خور الزبير غرباً يتمثل في مدينة أم قصر، والمساكن المنفردة التي تتبعثر وسط المزارع، فمدينة أم قصر لم تكن مأهولة بالسكان سوى منطقة صغيرة للصيادين، وبعد أنشاء الميناء نشأت عام 1960، وأخذت بالتوسع، وتبلغ مساحة التصميم الأساس (36.33 كم²)، ونسبة الحيز الحضري منها (24%) (عزيز، 2019، ص 157)، ونظراً لوقوعها عند مدخل خور الزبير وقرب الحدود الدولية اكتسبت أهمية استراتيجية، ويمكن زيادة نسبة الحيز الحضري فيها، لكنها تواجه معوقات تنموية تتمثل في ارتفاع نسبة الملوثات التي تنتج من الأبحر والدخان الذي تسببه المصانع التي تقع شمالاً، ومنشآت الميناء شرقاً. أما مدينة الفاو فيعود تاريخها إلى سنة 2500 ق.م، وقد اطلق عليها الملك الآشوري سنحاريب (ريو سلامو) أي باب السلامة، واطلق عليها العرب سنة 635 م منطقة ماء الصبر أي المر ، وسماها الوالي العثماني مدحت باشا مفتاح العراق، واختلف المؤرخون في سبب تسميتها، فياقوت الحموي يرى أن معناها الفج الواسع بين جبلين، وقيل إنها مشتقة من الغولاف، وهو نبات تشتهر بزراعته، وتستخدم صبغته الحمراء لطلاء شناشيل البصرة، وتشير بعض المصادر إلى أن الفاو اكتسبت اسمها من سفينة تحطمت فوق الصخور الكامنة تحت الماء (هيئة استثمار البصرة، 2016، ص48)، وتبلغ مساحة التصميم الأساس (8.6 كم²) بامتداد شريطي مع شط

العرب بطول (5.6 كم) (علي، 2018 ، ص 53)، وتواجه المدينة مشاكل تنموية من أهمها ارتفاع نسبة الأملاح في المياه والتربة، وندرة المؤسسات الصناعية التي يمكن أن تجذب السكان .

3- الخصائص الاقتصادية :

أ- الزراعة :

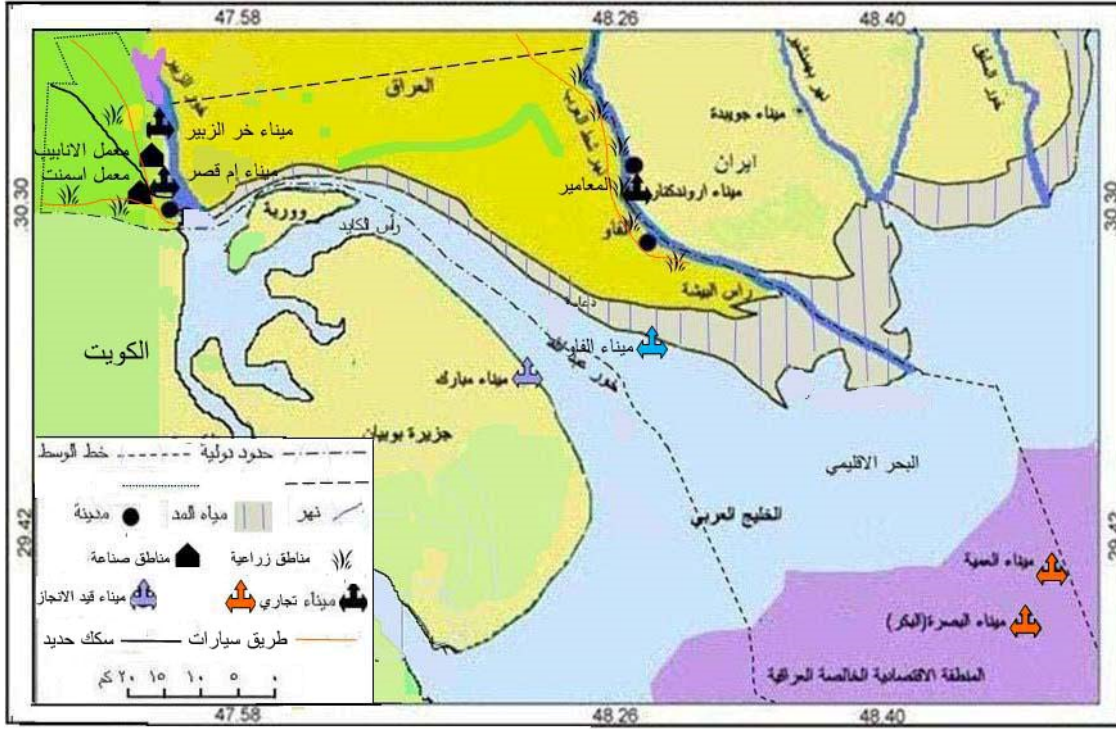
تقتصر الزراعة على الظهير الصحراوي للساحل البحري على ضفة شط العرب اليمنى، ففي قضاء الفاو يزرع النخيل، وبعض الخضروات الورقية، وأشجار الحناء، فقد بلغت المساحة المزروعة (32200 دونماً) وتشكل نسبة (0.5%) أما الأراضي التي يمكن استصلاحها، فتبلغ (22184 دونماً) بنسبة (1.3%) من مجموعها في محافظة البصرة، في حين تشكل نسبة عدد أشجار النخيل من مجموعها في المحافظة (2.1%)، وبلغت مزارع الحناء (50 مزرعة) ، جدول(5) . أما في ناحية أم قصر فيقتصر النشاط الزراعي على زراعة الخضروات لاسيما الطماطم، ويبلغ عدد مزارعها (300 مزرعة) تتوزع على طريق أم قصر - الخور، وأم قصر سفوان (شعبة زراعة سفوان وأم قصر قسم الإحصاءات، 2020)، وبلغ معدل المساحة المزروعة بالمحاصيل الحقلية في الفاو (236 دونماً) بنسبة (0.4%) من مجموعها في البصرة (64882 دونماً) (الشمري، 2020، جدول 35، ص 212) . ويبرز نشاط صيد الأسماك والروبيان في المياه البحرية؛ إذ بلغ إنتاجها (10.22 طن)، وبنسبة (11.9%) من مجموع صيد الأسماك البحرية، والداخلية في العام، الذي بلغ (85.939 طن) عام 2018 (وزارة التخطيط، 2019، جدول 54، ص 79)، خريطة (3) .

جدول (5): بعض المؤشرات الزراعية في قضاء الفاو

المتغيرات	الفاو	البصرة	%
المساحة المزروعة	٣٢٢٠٠	٧١٢٨٠٠٠	0.5
المساحة الصالحة للزراعة	٢٢١٨٤	١٧٤٠١٩٣	1.3
عدد أشجار النخيل	52423	2401380	2.1
عدد مزارع الحناء	50	-	-

المصدر ، اعتماداً على ، مديرية زراعة البصرة ، قسم الإحصاء ، 2020 ، بيانات غير منشورة

خريطة (3): الخصائص الاقتصادية لمنطقة الدراسة



المصدر ، اعتماداً على ، خريطة (2)

ومن الممكن استخدام تكنولوجيا متطورة لاستصلاح التربة ، وإنشاء حقول زراعية تستخدم تربة خصبة منقولة من أماكن أخرى، كما يمكن التوسع في تربية الحيوانات، بإنشاء مزارع نموذجية لتربيتها ، فضلاً عن إمكان إنشاء مزارع لتربية الأسماك والروبيان التي تتحمل ملوحة المياه العالية .

ب- الصناعة :

يفتقر الساحل البحري في قضاء الفاو إلى مؤسسات صناعية استراتيجية ، سوى بعض الصناعات الصغيرة التي لا يتجاوز عددها (22 صناعة صغيرة) بنسبة (1.4%) من مجموعها في البصرة (1517)، ولا يتجاوز عدد العاملين فيها (80 عاملاً)، وهي صناعة الحلويات، والأفران والمعجنات، ووسائل النقل المائي (سبي، 2019، جدول 36، 37 ص. ص. 103. 106)، في حين تتركز صناعات استراتيجية مهمة في ناحية أم قصر، معمل أسمنت أم قصر، ومعمل الأنابيب الحلزونية التابع لشركة الحديد والصلب، خريطة (3) فضلاً عن بعض المعامل الصغيرة للمواد الغذائية والبلوك.

ج- التجارة ، والنقل :

تقتصر طرق النقل على طريقين استراتيجيين، الأول يربط ميناء ومدينة أم قصر بالمناطق الأخرى من البصرة ، والعراق ، والثاني من الفاو يتجه شمالاً بموازاة شط العرب، وهناك طريق يربط أم قصر بمدينة سفوان، ومن ثم بالطريق الدولي إلى داخل العراق ، والكويت ، وقد شكل خور الزبير عقبة أمام ربط أجزاء الساحل البحري بطرق النقل البرية، فمجموع أطول طرق السيارات لا تتجاوز (110 كم) منها (68 كم) في أم قصر، و(30 كم) في الفاو فضلاً عن خط سكة حديد بلغ (26 كم) في ناحية أم قصر . إلا أن ما يميز حركة النقل هو الموانئ التجارية والنفطية، خريطة (3) كالآتي :

-ميناء أم قصر : يقع على بعد (٧٥ كم) من مدينة البصرة في النهاية الجنوبية لخور الزبير، وتأسس عام 1958، وبوشر العمل به عام 1961، وبدأ تشغيله عام 1967، ويتكون من قسمين من الأرصفة، وهي: القديمة وعددها (8 أرصفة)، والجديدة (13 رصيفاً)، وتبلغ الطاقة التصميمية للميناء (8.850 مليون طن/سنة)، وطاقة الخزن (614 ألف طن/سنة) (عبد علي، 2020، ص 123)، ويتميز موقع هذا الميناء بميزات طبيعية واستراتيجية، فهو يقع على أرض صلبة تسمح له بزيادة عدد الأرصفة، ويرتبط مع شبكة السكك الحديدية العراقية، وطرق المرور السريع عبر طريق أم قصر - سفوان.

-ميناء خور الزبير : يقع على بعد (٦٠ كم) عن مركز مدينة البصرة ، وبوشر بالعمل عام 1970 ، وبدأ تشغيله عام 1979 ، وهو ميناء تجاري صناعي يتكون من (١٢ رصيفاً) ، وتبلغ الطاقة التصميمية (٤.٧٥ مليون طن/سنة) (عمران، 2013، ص 245) .

ويلاحظ من جدول(7) أن مينائي أم قصر وخور الزبير يستحوذان على النسبة الأكبر من الحركة التجارية؛ إذ بلغت نسبة البضائع المستوردة (77.6 ، 16.1%) على التوالي ، في حين تقتصر حركة الاستيراد على هذين المينائين ، مما يتطلب تنميتها لاستيعاب الزيادة في الحركة التجارية ، والسيطرة على التلوث البيئي.

جدول (7): خصائص الموانئ التجارية العراقية عام 2019

اسم الميناء	بضائع مستوردة /طن	%	عدد السفن	بضائع مصدرة/طن	%	عدد السفن	عدد الأرصفة	أعماق الأرصفة /م
أم قصر	12970543	77.6	1.142	4270266	33	301	22	10-6
خور الزبير	2693828	16.1	420	8659658	76	918	12	8-3
ابو فلوس	1015449	6	233	0	0	38	3	6

المعقل	28595	0.1	41	0	0	27	11	8-6
المجموع	16708415	100	1.836	1292992 4	100	1.284	43	-

المصدر اعتماداً على ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء ، إحصاءات النقل المائي في القطاع العام 2019 ،
جدول 3-6 ، ص 9-11

2- (هشام صلاح محسن، 2012 ، ص 354)

- ميناء العميق : يقع في خور العمية على بعد (38 كم) جنوب الفاو ، انشأ عام 1959 ، وتم تشغيله عام 1962 ، وكان الغرض هو استقبال الناقلات الكبيرة التي لا يستطيع ميناء الفاو (يعد ميناء الفاو أول ميناء لشحن النفط عام 1952 ، وكان يستقبل ناقلات ذات غاطس (10.66م)، وتوقف به العمل بعد تشغيل ميناء البكر (البصرة حالياً) سنة 1975 (أحمد ، 2009 ، ص 93) استقبالها ، وقد صمم هذا الميناء على شكل جزيرة اصطناعية طويلة الشكل طولها (390 م) على عمق (24 م) ، ويتيح الميناء الفرصة أمام الناقلات الضخمة (65- 120) ألف طن للرسو فيه ، وبالإمكان تحميل (4 ناقلات) في وقت واحد، وينقل النفط للميناء عن طريق أنابيب نفطية برية- بحرية تتصل بخزانات النفط في الفاو ، وتبلغ طاقة الضخ (80 مليون طن/سنة) أي بمعدل (1.6 مليون برميل/يوم) (حمادي، أثر الموقع الجغرافي في الأهمية الجيوبوليتيكية لنفط البصرة، 2011، ص 160).

-ميناء البصرة: يقع في خور الخفة، على بعد (55 كم) من الفاو، أنشئ عام 1973 ، وتم تشغيله عام 1975 ، ويشمل على جزيرة لشحن النفط طولها كيلو متر واحد تتألف من أربعة أرضفة تسمح باستقبال ناقلات ذات حمولة بين (35- 350) ألف طن، ويستلم الميناء النفط عبر الأنابيب كسابقه، وتبلغ طاقة الضخ (100 مليون طن) قابلة للزيادة أي بمعدل (2 مليون برميل/يوم) (حمادي، 2013، ص. ص. 160. 161) .

-رصيف المعامير : وهو رصيف حديدي لتفريغ المعدات الخاصة لمعمل الغاز السائل في المنطقة الجنوبية والمعدات الثقيلة التابعة لوزارة النفط، ويقع في قرية المعامير شمال الفاو، ويبلغ طوله (200م)، وطاقته (205 ألف طن)، ويمكن استقبال بواخر تجارية ذات حمولة (15 ألف طن) (أحمد ، 2009 ، ص 92).

تواجه الموانئ معوقات نمووية أهمها قلة الأعماق بسبب كثرة الترسبات، ووجود بعض الغوارق التي لم يتم انتشال بعضها، وعدم قدرتها على خزن كميات أكبر من البضائع، كما تعاني الموانئ من الفساد الإداري، وتعدد صلاحيات الجهات التي تقوم بإدارتها والأشراف عليها وتداخلها.

ثالثاً: الإمكانيات التنموية للساحل البحري وظهيره الصحراوي

التنمية هي (تغيير اقتصادي واجتماعي مخطط ومقصود نحو الوصول إلى أفضل استثمار للموارد الطبيعية، والبشرية المتاحة من أجل تحسين مستوى الحياة في المجتمع، ومساعدتهم على المشاركة الإيجابية والفعالية في تنمية مجتمعهم (منصور، 2011، ص 258)، أما التنمية المستدامة فهي التي تلبي احتياجات البشر في الوقت الحالي من دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تحقيق أهدافها، وتركز على النمو الاقتصادي المتكامل المستدام، والأشراف البيئي، والمسؤولية الاجتماعية، وتحقيق التحول السريع في القاعدة التكنولوجية للقاعدة الصناعية، والإشارة إلى التكنولوجيا الجديدة تكون أنظف وأكثر، وأقدر على إنقاذ الموارد الطبيعية حتى يتسنى الحد من التلوث، والمساعدة على تحقيق استقرار المناخ، واستيعاب النمو في عدد السكان، والنشاط الاقتصادي (الركابي، 2020، ص 95)، في حين إن إدارة المناطق الساحلية تعني (العملية الديناميكية التي تصمم وتنفذ من قبل الحكومة، بهدف حل المشاكل التي من الممكن أن تتعرض لها تلك المناطق وحمايتها، والاستغلال الأمثل لمواردها ومقوماتها، واستدامتها، وتوجيه القوانين لحماية السواحل من أي تلوث، كما أن إعداد البرامج يتطلب التفكير في الأبعاد الاقتصادية، والاجتماعية، والبيئية، والتفاعلات الدائمة فيما بينها ومن هنا تشكل الإدارة المتكاملة للمناطق الساحلية مطلباً أساسياً للتنمية (عبد السلام، 2019، ص. ص. 150. 151)، وتحقق التنمية عن طريق السياسة الموجهة نحو استثمار ما يمكن استثماره من مقومات التنمية، وهي كالآتي:

1- التنمية العمرانية:

لا تختلف المدن الساحلية عن المدن الأخرى من احتياجها إلى أساس اقتصادي، يعمل على تنميتها، واستدامتها، وغالبية المدن الساحلية يكون اعتماد المدينة على الميناء فتختلط الوظيفة التجارية بالنقل، مما ينتج أساساً اقتصادياً متفرداً يمكنها من تطوير تصميمها الأساس على وفق مواردها، ويمكنها من تنمية الصناعة لامتلاكها المقومات التي تؤهلها من حيث سهولة وصول المواد الأولية، وقرب مصادر الطاقة، وانفتاح الأسواق، وقرب التسويق، أما مدن الظهير فإن تأثيرات البيئة الطبيعية هي التي تؤثر في إعداد

تصاميمها؛ إذ يراعى زيادة المناطق الخضراء بقيم عالية أكثر من المعيار المحلي أو العالمي لتلافي التغيرات المناخية، ومعالجة ارتفاع درجات الحرارة فضلاً عن ذلك تقليل استخدام الخرسانة الكونكريتية في مثل هذه المدن تجنباً للجزيرة الحرارية، كأن يحيطها بحزام أخضر (علي، مصدر سابق، ص. ص. 19، 20)، مثل مدينة أم قصر التي تقع على الساحل برفع مستوى درجتها إلى مركز قضاء، وإمكان بناء قرى عصرية، وفي الفاو يمكن إحياء القرى المدمرة لإعادة التوازن بين الحضر والريف، وبناء مدينة جديدة أو مدينتين، الأولى، في ظهير الساحل بين الفاو وأم قصر، والثانية بجوار ميناء الفاو قيد الإنجاز.

2- التنمية الزراعية :

نظراً لصعوبة الزراعة في بيئة ساحلية ذات تربة مالحة متغدقة، فإن إمكانيات التنمية الزراعية تقتصر على نشاطات محددة، ففي الساحل البحري يمكن إقامة مشاريع أحواض تربية الأسماك والروبيان، ويمكن استصلاح بعض المناطق خلف الساحل بعد عمل سدود ترابية لمنع تغل مياه المد، وجعلها بيئة لنمو بعض النباتات الطبيعية لتكون صالحة للرعي، في حين يمكن استصلاح أراضٍ زراعية جنوب، وشمال مدينة الفاو عند كتوف ضفة شط العرب اليسرى، والقنوات المتفرعة منه فضلاً عن إمكان إنشاء مزارع نموذجية في أم قصر لزراعة المحاصيل الحقلية.

3- في المجال الصناعي، والطاقة، والمياه:

- بناء مجمعات صناعية استراتيجية: يمكن إنشاؤها على الساحل البحري ، وفي منطقة الظهير الصحراوي في المنطقة المحصورة بين رأس البيشة ومدخل خور الزبير ، لكون هذا المنطقة خالية من أي نشاط صناعي، لاسيما وأنها ستكون ظهيراً لميناء الفاو الكبير تتكامل معه اقتصادياً، ويمكن إنشاء مصنع لبناء السفن، وآخر لتعليب الأسماك وتنقية الأملاح، وستوفر تلك المشاريع الصناعية فرص عمل للسكان، وستؤدي إلى ظهور تجمعات سكانية جديدة .

- إنتاج الطاقة الكهربائية، باستغلال طاقة المد والجزر ، فهو يصل في المواقع القريبة من خور الزبير بين (4-5م)، ونسبة (21%) من أيام السنة، ومن الممكن إنتاج (15.5%) من استهلاك محافظة البصرة من الكهرباء في حال استخدام حوض مدخل خور الزبير (المحمود، 2019 ، ص 131) كما يمكن إقامة محطات توليد الكهرباء من الخلايا الشمسية، لإدارة المؤسسات الصناعية، ونقاط المراقبة، وغيرها.

- **تحلية مياه البحر**، فبالرغم من مساوئ قيام مثل تلك المحطات، فهي معرضة للأعطال اليومية بسبب ضغوط الإنتاج، وصعوبة تكيفها في حال حصول أزمه سياسية داخلية أو خارجية، والمخاوف من عدم استدامة الموارد المالية، كما أن إنتاجها يقتصر على الاستخدام المنزلي، والصناعات الصغيرة، لكنها تقدم ميزات متعددة منها استدامة الموارد المائية ويكون وقت إنشائها قصيراً، ولا تتأثر تقنياتها بالتقلبات الجوية، وإمكان إنشاء محطات مختلفة الأحجام وقرب مواقع الاستهلاك ما يقلل من كلفة مد الأنابيب، ويمكن إقامة (6 محطات) لتحلية مياه البحر على الساحل العراقي بطاقة (100 ألف م³/يوم) ، ويمكن إقامة تلك المحطات في قضاء الفاو، فالأملاح تنخفض في المياه البحرية كلما اقتربنا من الساحل، إذ تبلغ (26 جزء بالألف) (راشد ، 2019، ص 199) .

4- تنمية النقل والتجارة :

باتت الحاجة ملحة لا نشاء موانئ جديدة نتيجة المشاكل التي تعاني منها الموانئ الحالية والتي سبق أن بيناها سابقاً، وهي كالآتي:

- **ميناء الفاو الكبير**: يمتد المشروع على طول (22 كم) ، ويتكون من (50 رصيفاً) (هيئة استثمار البصرة ، 2016 ، ص 26)، ويمتد بعمق (٣٠ كم) في المياه الإقليمية للوصول إلى غاطس يزيد عن (٢٨ م ، مع تطوير لظهير الميناء يتمثل بخدمات متعددة كالطرق، والجسور، وسكك الحديد، ومطار دولي، ومناطق سياحية، ومخازن، وسيكون إنجازة نقله نوعية في تطوير الاقتصاد العراقي، وفي موقع العراق الجيوبولتيكي المؤثر على اتجاهات النقل الدولية (مونس، 2014، جدول 1، ص 74) ، لاسيما مع دعوات الصين إلى إحياء طريق الحرير عبر مبادرة الحزام والطريق التي أعلنتها الرئيس الصيني عام 2014، والتي تهدف إلى إنشاء طرق برية ، ومسارات بحرية بعضها يمر بالخليج، ومن ثم عبر العراق براً.

- **القناة الجافة**: وهو مشروع يرتبط بتطوير شبكة طرق السيارات، وسكك الحديد التي ستخدم حركة نقل البضائع من الموانئ العراقية في اتجاه أوروبا . فالمسافة بين الموانئ العراقية وتركيا لا تزيد على (1200 كم)، ومن ثم تصبح الموانئ العراقية، ومنها ميناء الفاو الكبير من أهم الموانئ الاستراتيجية التي ستغير خريطة النقل البحرية العالمية، وتضيف أهمية لموقع العراق كممر بين آسيا وأوروبا (مونس، المصدر نفسه، جدول 1، ص 64) .

-تنمية الموانئ الحالية: من خلال تزويدها بالأنظمة الحديثة، وزيادة عدد الأرصفة، وطاقة الشحن والتفريغ، وإعادة العمل برصيف المعامير، وتحويله إلى ميناء تجاري، كما أن ربط مدينة أم قصر بالفاو عبر نفق بحري ومروراً بميناء الفاو الكبير سيعزز تنمية المنطقة الساحلية.

5- التنمية السياحية :

تقوم السياحة البيئية الساحلية على الاستثمار في الموارد الساحلية، وهي الشعاب المرجانية، وغابات المانغروف، ومناطق المد والجزر، والشواطئ الرملية، أما الأنشطة التي يمكن القيام بها فتشمل الغوص والغطس، ومشاهدة الحياة الفطرية البحرية، وصيد الأسماك بالطرق التقليدية، وتهدف تنمية السياحة في الساحل إلى ما يأتي (المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، 2015 ، ص 11):

-أهداف اقتصادية، توفير أعمال ووظائف جديدة لسكان المنطقة الساحلية ، ودعم مستوى الدخل ورفعته.

-أهداف بيئية: تشجيع الإدارة المستدامة، والاستهلاك المستدام للموارد والثروات الطبيعية.

-أهداف اجتماعية وثقافية: تعميق الوعي الثقافي عند السياح بعادات وتقاليد السكان المحليين وأسلوب حياتهم، وتشجيع السكان على المهن والحرف التقليدية.

وبالرغم من المعوقات الطبيعية التي ستظهر عند قيام مشروعات سياحية ساحلية، فهناك العديد من الموارد السياحية التي يمكن استغلالها في الساحل العراقي، ومنها وجود الشعاب المرجانية، والطيور البحرية، والسبخات، والشواطئ ، ومواقع صنع السفن والقوارب التقليدية، والحرف اليدوية، كما تتوفر المناطق الخضراء حول مدينة الفاو على ضفة شط العرب اليمنى، والنباتات الطبيعية في شمال مدينة أم قصر، فضلاً عن تشكيله خور الزبير الذي يظهر على شكل أغصان شجرة في طرفيه الشمالي ما يسمح بإقامة منتجعات سياحية، وشاليهها، وفنادق سياحية، كما يمكن تنشيط حركة السياحة الدينية، لوجود العديد من المراقد والمقامات في الفاو؛ منها: مرقد الحسن بن علي، والعلوية مريم، والسيد سهل، والسيدة فاطمة بنت عقيل بن أبي طالب، فضلاً عن منطقة رأس البيشة تشهد بداية انطلاق أكبر مسيرة راجلة في أربعين الأمام الحسين (ع) يشارك بها الملايين من العراقيين والعرب والأجانب، ويمكن الاستفادة من موقعها لإنشاء مشروعات سياحية بيئية ودينية في الوقت نفسه.

6- التنمية البيئية :

- حماية الشعب المرجانية التي عادت للظهور مجدداً في مياها الإقليمية، مما سيزيد من الصيد البحري، لأن (49%) من الأسماك المحلية تعتمد عليها، كما أن استزراع أشجار المانغروف سيسهم في تثبيت خط الساحل، ويقلل من تأكله (المحمود، مصدر سابق ، ص 134) .

- التشريعات البيئية: من خلال وضع تشريعات وقوانين لحماية المنطقة، ومنع الصيد الجائر، وفرض غرامات على المواقع التعدينية، والصناعية التي تلقي بمخلفاتها في المياه، وإلزام تلك المواقع بإنشاء محطات للصرف الصناعي، فضلاً عن إمكان إنشاء محميات طبيعية تحافظ على الوضع البيئي .

وإذاً تعد التلوث من أهم التحديات التي تواجه التنمية في الساحل وظهره الصحراوي؛ إذ يحدث التلوث النفطي بواسطة ناقلات النفط، والناقلات التجارية التي تلقي بمخلفاتها، كذلك أدت المعارك العسكرية إلى غرق العديد من السفن، وتمت زراعة كثير من الألغام التي يحتاج إزالتها إلى مدة طويلة، وسيؤدي اكتمال ميناء الفاو الكبير إلى تغيير في مورفولوجية الساحل عن طريق عمليات الحفر، والردم، ويعد عامل المساحة من أبرز المشكلات التي تواجه التجمعات السكانية، فالمساحة المتاحة للتنمية العمرانية لا تتعدى ربع مساحة المنطقة، مما يجعل التنمية في الساحل تبدو صعبة، لكن التطورات التكنولوجية، واستخدام التقنيات الحديثة سيسهل كثيراً من نجاح أي خطط وبرامج لتنمية الساحل وظهره الصحراوي من خلال وضع الخطط لتقليل الآثار الناجمة عن الجفاف، والتلوث، وما يسببه من تدهور للحياة النباتية والحيوانية، والعمل بكل الإمكانيات المتاحة لوقف التصحر، وتشجير الساحل وظهره الصحراوي، والمحافظة على التنوع البيولوجي، وإزالة الألغام، واتباع الأساليب المستدامة لوقف تدهور الأراضي الرطبة والجافة، ووضع استراتيجية لمنع التدهور البيئي بمشاركة المجتمع المحلي، والاستفادة من تجارب دول لها خصائص البيئة الساحلية العراقية نفسها، ومن بينها ما يأتي:

أ- تجربة إمارة دبي: استطاعت بلدية دبي أن تزاوج بين اليابس والماء؛ إذ سحبت مياه البحر إلى داخل الصحراء، وتشكلت مجموعة من الأخوار، والبحيرات الزرقاء، والفضاءات المظلة عليها، كما سحبت اليابس إلى داخل البحر في جزر صناعية منها جزيرة النخلة، وجزيرة العالم (الحياي، 2013، ص 10).

ب- التجربة الأردنية: يوفر مشروع بانوراما المطل على ساحل خليج العقبة فرصاً استثمارية بكلفة تصل (4 مليار دولار)، وتشمل البنية التحتية طرقاتاً وشارعاً، بانوراما وأعمال شبكة الكهرباء، والمياه، والمجاري، ويقع المشروع في جنوب مدينة العقبة على تلة مشرفة إلى الجنوب من مشروع مرسى زايد، ويشتمل على

تنفيذ أعمال الحفر والطمم لمساحة تقدر بـ(1000 دونم)، وسيتم بناء عدد من الفنادق السياحية المزودة بـ(15 مرفقاً) ، وإنشاء تلفريك وبانوراما (الرواشدة، 2019) .

ج- **تجربة سنغافورة:** قامت سنغافورة بردم سواحلها البحرية وبنائها، فقد زاد حجم الجزيرة بنسبة (22%) على مدى (50 سنة)، باستخدامها الرمال، والطين، والحجارة المستخرجة من المحاجر، أو المشتراة من أماكن أخرى من العالم، ومع زيادة أعمال التوسع، واستصلاح الأراضي البحرية، أصبحت سنغافورة المستورد الأكبر للرمال في العالم (نوغرادي، 2016) .

الاستنتاجات :

- 1- قصر طول الساحل العراقي، وصغر مساحة ظهيره الصحراوي المباشر.
- 2- تغلب صفة الانبساط على سطح المنطقة التي تتخللها مجموعة من السباح، وتغطيها مياه المد.
- 3- أثرت صفة المناخ الجاف في ندرة الموارد المائية العذبة، ما انعكس على ضعف النشاط الزراعي.
- 4- تتركز المنشآت الصناعية في مناطق محدودة.
- 5- تبرز أهمية الساحل العراقي في كونه النافذة التي يطل منها العراق على العالم .
- 6- هناك إمكان لقيام تنمية مستدامة، تأخذ بالاعتبار ظروف البيئة الطبيعية، والحجم السكاني الصغير.
- 7- تواجه التنمية مجموعة من المعوقات يمكن التغلب عليها بالاستفادة من تجارب الدول الأخرى .

المقترحات :

- 1- تصميم المشاريع الاقتصادية والعمرانية بشكل يتوافق مع بيئة المنطقة.
- 2- إنشاء صناعات بحرية (تعليب الأسماك، وتنقية الأملاح، وبناء السفن).
- 3- بناء تجمعات سكانية جديدة على الساحل البحري وظهره الصحراوي، يراعى في تصميمها بيئة المنطقة.
- 4- الاستفادة من تجارب دول الجوار والدول ذات السواحل القصيرة في تنمية سواحلها البحرية.
- 5- الإدارة المتكاملة للسواحل البحرية وحمايتها من التلوث بوضع قوانين لحماية البيئة البحرية.

- 6- إدراج تنمية الساحل البحري في الخطط التنموية .
- 7- الإسراع في إنجاز ميناء الفاو الكبير، وإقامة مشروعات سياحية.
- 8- مشاركة المجتمع المحلي في خطط التنمية المستدامة للساحل وظهيره الصحراوي وبرامجها .

المصادر والمراجع:

- (1) أحمد، حسين علي، (2009)، ومجيد علي حمزة، الموانئ العراقية ودورها في تنشيط حركة التجارة في العراق مجلة دراسات البصرة، مركز دراسات البصرة، العدد 8، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة.
- (2) أبو لقمة، الهادي مصطفى، ومحمود علي الأعور، (1999)، الجغرافية البحرية، ليبيا، ط2، الدار الجماهيرية للنشر.
- (3) البهادلي، قاسم عبد علي عذيب، (2010)، الموانئ العراقية وأثرها في قوة الدولة، دراسة في الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد.
- (4) حمادي، عمار جبار، (2011)، أثر الموقع الجغرافي في الأهمية الجيوبوليتيكية لنفط البصرة دراسة في الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد.
- (5) الحياثي، محمد طه نايل، (2013)، صناعة السياحة بين الساحل والصحراء دراسة ميدانية لتجربة دبي، مجلة دبالى للعلوم الإنسانية، العدد 60، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ديالى.
- (6) الحياض، نير نذير، (2012)، المياه الأرضية في قضاء الفاو وأثارها البيئية، مجلة دراسات البصرة، العدد 14، مركز دراسات البصرة والخليج العربي.
- (7) راشد، وائل قاسم، (2019)، الأهمية الاستراتيجية لتوطين تقنيات صناعة مياه البحر في محافظة البصرة لسد عجز الطلب المائي المنزلي المستقبلي، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد 8، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية.
- (8) الركابي، ساجد أحمد عبل، (2020)، التنمية المستدامة ومواجهة تلوث البيئة وتغير المناخ، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ط1.
- (9) الرواشدة، أحمد، (2019)، مشروع بانوراما المطل، نوفمبر 26.
- (10) السعدون، محمد ثامر، (2006)، الحدود البحرية العراقية، أطروحة دكتوراه، كلية القانون، جامعة بغداد.

<https://alghad.com/>

- 11) سكويرس، كلاير، (2016)، التنمية الحضرية في المناطق الساحلية: فرص النمو الاقتصادي وكيفية التغلب على التحديات لتحقيق الاستدامة، مجلة بيئة المدن، العدد 14، دبي، مركز البيئة للمدن العربية.
- 12) الشحماني، محمود غازي غانم، (2019)، ميناء خور الزبير دراسة في جغرافية النقل، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة.
- 13) شعبة زراعة سفوان وأم قصر، (2020)، قسم الإحصاءات، غير منشور.
- 14) عبد السلام، محمد، (2019)، الجيوبولتيكيا علم هندسة السياسة الخارجية للدول، الأردن.
- 15) عبد السلام، نيفين إسماعيل، (2019)، دور التشريعات العمرانية في تنمية البيئة العمرانية الساحلية، مجلة البحوث الحضرية، كلية التخطيط العمراني والإقليمي، جامعة القاهرة، العدد 32.
- 16) عزيز، جمعة مبارك، طارق جمعة علي، (2019)، خرائط استعمالات الأرض الحضرية في مدينة أم قصر لعام 2018، مجلة أبحاث ميسان، مجلد 14، ملحق 3، العدد 28، كلية التربية الأساسية، جامعة ميسان.
- 17) علي، فوز معن عبد، حسين أحمد سعد، (2020)، العوامل المؤثرة في النمو الحضري لمدن الموائي، دراسة تحليلية لنمو مدينة أم قصر، مجلة المخطط والتنمية، العدد 41، مركز التخطيط الإقليمي والحضري للدراسات العليا، جامعة بغداد.
- 18) علي، وجدي لفته، (2018)، المتطلبات الجغرافية والتقنية في إعداد التصميم الأساسي لمدينة السببية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة.
- 19) خلود موسى عمران، مريم خير الله خلف، (2013)، واقع الموانئ العراقية وآفاق المستقبل (ميناء الفاو أنموذجاً)، مجلة دراسات البصرة، العدد 13، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة.
- 20) محمد، ثيان أحمد، (2015)، الأبعاد الجيوبولتيكية لميناء مبارك على العراق، مجلة كلية تربية بنات، مجلد 26، جامعة بغداد.
- 21) المحمود، حسن خليل حسن، وآخرون، (2019)، تطوير البيئة الساحلية العراقية في شمال غرب الخليج العربي، مجلة البحوث الجغرافية، العدد 28، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة.
- 22) المحمود، حسن خليل حسن، (2006)، خصائص الساحل العراقي، دراسة جغرافية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة.
- 23) المحمود، حسن خليل حسن، وآخرون، (2019)، سيناريوهات ارتفاع مستوى سطح البحر وتأثيراته على الساحل العراقي، مجلة الخليج العربي، م 47، العدد 3-4، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة.

- (24) مديرية زراعة البصرة، قسم الإحصاء، 2020، بيانات غير منشورة.
- (25) مطشر، وسام رزاق، (2012)، الوضع الهيدرولوجي في خور عبدالله شمال غرب الخليج العربي، والتأثيرات المتوقعة للموانئ الحديثة المزمع أنشائها، مجلة آداب ذي قار، م2، العدد5، جامعة ذي قار.
- (26) منصور، سحر، وفاطمة أبو الحديد، (2011)، الأبعاد الاجتماعية لتنمية الظهير الصحراوي، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد 30، جامعة عين شمس.
- (27) المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، (2015)، السواحل البحرية والسياحة البيئية، نشرة البيئة البحرية، العدد 103، الكويت.
- (28) مونس، محمد زباري، (2014)، الأهمية الجيوبولتيكية لميناء الفاو الكبير، مجلة دراسات البصرة، العدد 18، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة.
- (29) نوغراي، بيانكا، (24 نوفمبر / تشرين الثاني 2016)، مزايا وعيوب الزحف العمراني على السواحل البحرية.
- <https://www.bbc.com/arabic/vert-fut-38082488>
- (30) هيئة استثمار البصرة، (2016)، دراسة الخارطة الاستثمارية في محافظة البصرة.
- (31) وزارة الإسكان والمرافق والمجتمعات العمرانية، الهيئة العامة للتخطيط العمراني، (2017)، استراتيجية التنمية العمرانية للواجهات الساحلية، مصر.
- (32) وزارة التخطيط، (2019)، الجهاز المركزي للإحصاء، إحصاءات النقل المائي في القطاع العام.
- (33) وزارة التخطيط، (تقديرات 2007، و2020)، الجهاز المركزي للإحصاء.
- (34) وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء، دائرة التنمية الإقليمية والمحلية /ملخص تقرير، (كانون الأول 2017)، مسح القرى الريفية لمحافظة البصرة لعام 2016.
- (35) وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية 2018-2019 .
- (36) وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء، (2019)، مؤشرات البيئة والتنمية المستدامة ذات الأولوية في العراق، ومؤشرات التنمية المستدامة ذات البعد البيئي، قسم إحصاءات البيئة.
- (37) وزارة الموارد المائية، (2020)، الهيئة العامة للمساحة، خريطة البصرة الإدارية.
- 1) Betley, (October 2002), Coastal Zone Strategy For The City Of Cap Town, Draft For Comment.
 - 2) Cicin-Sain & Knecht, (1998), Integrated Coastal and Ocean Management.
 - 3) <https://en.tutiempo.net/climate/01-2020/ws-406910.html>.
 - 4) Robert Kay & Others, (1999), Coastal Planning & Management.
 - 5) U.N. Demography, (1986), Real Book , 1984 ,36th .Issue, New York.

أثر البيئة الخارجية على أداء المؤسسات العامة في اليمن

دراسة حالة (مؤسسة مصنع إسمنت عمران)

**The impact of the external environment on the
performance of public institutions in Yemen**

Case Study (Amran Cement Factory Corporation)

عبد الله يحيى عبد الله عمران

وفاء العدلوني

هند بديه

كلية الاقتصاد والتدبير جامعة ابن طفيل

Amran Abdullah

Pr. wafaa el adlouni

Pr. hind baddih

amranabdullah07@gmail.com

eladlouniwaf@yahoo.fr

baddih_hind@yahoo.fr

الملخص:

تهدف هذه الدراسة في المقام الأول إلى معرفة أثر البيئة الخارجية في أداء المؤسسات العامة دراسة حالة (مؤسسة مصنع إسمنت عمران) ولتحقيق ذلك لابد من التعرف على أداء مؤسسة مصنع إسمنت عمران، وقد تم استخدام المنهجين الوصفي والتحليلي لمعرفة أثر البيئة الخارجية على أداء مؤسسة مصنع إسمنت

عمران من خلال البيانات التي تم الحصول عليها من أفراد عينة الدراسة البالغ عددهم (197) عن طريق استبانة الدراسة التي تم تصميمها لهذا الغرض، وقد تم اختيار عينة الدراسة باستخدام أسلوب العينة العشوائية الطبقية، وقد توصلت الدراسة إلى الآتي:

توصلت الدراسة إلى عدم وجود اختلافات جوهرية في آراء العاملين في المؤسسات العامة بحسب مراكزهم الوظيفية فيما يتعلق باستجابتهم على (استقرار البيئة الخارجية للمؤسسة) و(أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أداء المؤسسات العامة للدولة) و(الفرص المتاحة في البيئة الخارجية للمؤسسة) و(عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء المؤسسة).

أظهرت الدراسة أن العينة تشير فعلا إلى أن البيئة الخارجية للمؤسسات العامة تتميز بعدم الاستقرار، وهذا التغيير تبين من خلال التغيرات في مستويات الأداء للمؤسسات العامة في اليمن؛ إذ وجدت مؤسسات عاملة بدرجات متفاوتة في الأداء والإنتاج ومؤسسات غير عاملة مواقعها في مناطق الصراع ونشوب الحرب عجزت عن دفع التزاماتها للعاملين والتزامات الغير بل تعرضت للنهب والسلب لمعداتها وأصولها الثابتة.

الكلمات المفتاحية: البيئة الخارجية، الأداء.

Abstract:

The main objective of this study is to know the effect of the external environment on the performance of public institutions: (Amran Cement Factory Foundation) as a case study. To achieve that, both descriptive and analytical methodologies have been used to investigate the effect of the external environment on the performance of the Amran Cement Factory Foundation through the data collected from the 197 study sample individuals by the questionnaire of study that was designed for this purpose. The study sample was selected using the stratified random sampling method. The study found the following:

There are no fundamental differences in the views of employees in public institutions according to their job positions with regard to their response to: Stability of the external environment of the Foundation, the political effect, economic, social and cultural variables on the performance of public institutions of state, available opportunities in the external environment for the foundation and evaluation of the external environment variables and their impact on the performance of the foundation. Actually, the study has shown that the sample indicates that the external environment for public institutions is unstable. This change is clear through differences in the levels

of performance of public institutions in Yemen, as there are institutions that work in varying degrees of performance and production, and there are institutions that are not working and are located in areas of conflict and war, as well as being unable to pay the obligations to employees and others. In addition, they have been looted and plundered for their equipment and fixed assets.

Keywords: external environment, performance.

المقدمة

تعد دراسة العلاقة بين المؤسسات العامة في اليمن ومحيطها أهمية بالغة وهامة، سواء من حيث الجوانب النظرية أو من حيث الجوانب التطبيقية، ففي حين تهتم الجوانب النظرية بوضع الإطار العام للبحث في العلاقة في شكلها العملي انطلاقاً من معطيات تتعلق بالمؤسسة موضوع الدراسة، فإن الجوانب التطبيقية أيضاً تعنى بدراسة هذه العلاقة في شكلها العملي. فالعلاقة بين المؤسسة والبيئة علاقة تبادلية، فالمؤسسة تقوم بخدمة البيئة من خلال إيفائها بجزء من احتياجاتها والمجتمع من سلع وخدمات، أما البيئة فتخدم المؤسسة لأنها توفر للمؤسسة المدخلات الأساسية من موارد بشرية ومادية وخدمات مختلفة. وتعد دراسة وتحليل العوامل البيئية الخارجية من الموضوعات الهامة عند اختيار الاستراتيجيات المناسبة، حيث يتوقف هذا الاختيار على نتائج تحليل كل من البيئة الخارجية والداخلية للمؤسسة كما أن هذه الدراسات تعد من الموضوعات الأساسية والمهمة في دراسات الاقتصاد، فمنظمات الأعمال تعيش في بيئة مفتوحة تتفاعل مع البيئة الخارجية تتأثر بها ويؤثر فيها إذاً فالمنظمة ليست في حالة ثبات أو سكون وإنما هي قابلة للتغيير حسب الظروف والمتطلبات البيئية المحيطة لتحقيق هدف الاستمرارية والبقاء والتأقلم والتكيف مع المتغيرات والمتطلبات البيئية المحيطة لتحقيق هدف الاستمرارية والبقاء والتأقلم والتكيف مع المتغيرات البيئية الاقتصادية، التكنولوجية، الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها المؤثرة فيها في أي وقت والتي قد تقع في المستقبل وتضع خطط التغيير لمواجهةها والتعايش والتأقلم معها بل يمكن للمنظمة أن تضع خطط التغيير ليس فقط للتأقلم مع الظروف ولكن لمحاولة التأثير في الظروف الخارجية حتى تتناسب مع ظروفها الداخلية.

مشكلة البحث:

يكشف واقع المؤسسات العامة اليمنية عن وجود العديد من المشكلات التي تواجه أداء تلك المؤسسات، لعل أبرزها: ما تشهده المؤسسات العامة بشكل عام ومؤسسة مصنع إسمنت عمران بشكل خاص من المتغيرات البيئية الداخلية والخارجية التي كان لها تأثير مباشر في أدائها وإنتاجها ونموها ومخرجاتها، فعصفت

بها المخاطر إلى تهديدها على البقاء والاستمرار نتيجة لعوامل البيئة الخارجية العامة وعلى وجه التحديد المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والذي وجدت مؤسسة مصنع إسمنت عمران نفسها مجبرة وعاجزة على مواجهة التحديات المحلية والدولية مما يفرض عليها دراسة كل ما يحيط بها وتقييم به بدقة وعناية لكي تحافظ على البقاء والاستمرار الذي يجب أن تكون من اهتمامات القائمين على إدارتها، ولذلك كله قمنا بهذه الدراسة والتي أردنا من خلالها الإجابة على السؤال الرئيسي الآتي:

ما هو تأثير متغيرات البيئة الخارجية على أداء المؤسسات العامة؟

وللإجابة على هذه الإشكالية تم تقديم الأسئلة الفرعية التالية:

1. ما مستوى استقرار البيئة الخارجية لمؤسسة مصنع إسمنت عمران؟
2. ما مستوى التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية لمؤسسة مصنع إسمنت عمران؟
3. ما مستوى عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية في تحسين الأداء الكلي لمؤسسة مصنع إسمنت عمران؟
4. تؤثر المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية على أداء مؤسسة مصنع إسمنت عمران؟

فرضيات البحث:

وبناء على إشكالية البحث تم اختيار الفرضيات التالية:

1. البيئة الخارجية لمؤسسة مصنع إسمنت عمران تعاني من ضعف في الاستقرار.
2. هناك مجموعة من التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية لمؤسسة مصنع إسمنت عمران.
3. عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية تساهم في تحسين الأداء الكلي لمؤسسة مصنع إسمنت عمران.
4. تؤثر المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية على أداء مؤسسة مصنع إسمنت عمران.

أهمية البحث:

يرجع اختيارنا لهذه الدراسة إلى أهمية دراسة البيئة الخارجية وعلاقتها مع المؤسسات العامة للدولة من خلال العناصر التالية:

— التعرف على البيئة الخارجية للمؤسسات العامة في اليمن.

- قدرة المؤسسة في النمو والبقاء والاستمرار يتحدد بمدى قدرتها على التكيف والتأقلم والتفاعل مع البيئة الخارجية.
- قدرة الإدارة على مواجهة تأثيرات البيئة الخارجية على أداء المؤسسة.
- تجنب التهديدات واستغلال الفرص المتاحة يهدف إلى معرفة تقييم البيئة الخارجية على أداء المؤسسة.

أهداف البحث:

تحديد إشكالية البحث وأهميته يكمن في محاولة تحقيق الأهداف الآتية:

- معرفة أثر البيئة الخارجية في أداء المؤسسة.
- تحليل متغيرات البيئة الخارجية وعواملها من خلال تطبيقها في مؤسسة مصنع إسمنت عمران محل الدراسة.
- اقتراح التوصيات في ضوء النتائج التي سيتوصل إليها الدراسة للاستفادة منها في تقييم البيئة الخارجية بهدف الوصول إلى أداء أفضل وتحقيق النتائج والأهداف المرسومة والمخطط لها من قبل المؤسسة محل الدراسة.
- أثراء المكتبة الجامعية بشكل خاص والمهتمين بالبحث العلمي بشكل عام بهذا النوع من البحوث في هذا المجال والتخصص.
- التعرف على عملية تقييم البيئة الخارجية وأثرها على أداء المؤسسة.

حدود الدراسة:

- حدود علمية: بيان أثر البيئة الخارجية على أداء المؤسسات العامة دراسة حالة (مؤسسة مصنع إسمنت عمران).
- حدود مكانية: مؤسسة مصنع إسمنت عمران - اليمن.
- حدود زمنية: تحددت هذه الدراسة خلال العام الدراسي 2021/2020م.

الإطار النظري للدراسة

مفهوم البيئة الخارجية للمؤسسة.

مفهوم البيئة.

لقد كانت التعريفات الأولى للبيئة تشير إلى أنها جميع ما يحيط بالمؤسسة فيقع خارجها ولا يكون جزءا منها، في حين أن المنظور العام لمفهوم البيئة يعطي انطبعا بشمول المكونات والأبعاد الداخلية

للمؤسسة، إضافة إلى المكونات والأبعاد الخارجية التي تحيط بها، وهكذا فإن البيئة تمثل مجموعة العوامل والأبعاد والمكونات التي تؤثر في الممارسات الإدارية والتنظيمية والاستراتيجية. وتتطلب من الإدارة فهم طبيعة هذه البيئة وتفاعلاتها، وطبيعة العلاقة بينها بحيث تستطيع إيجاد أفضل صيغ التعامل معها وبشكل متوازن وحركي، ويعطي للمؤسسة قدرات متجددة باستمرار وإمكان الحصول على أفضل النتائج المرغوبة من جراء هذا الفهم (علاوة، 2011).

أولاً: مفهوم البيئة.

تعرف البيئة الخارجية للمؤسسة بأنها الإطار العام الذي تتحرك فيه المؤسسة، وتتعامل معه لإنجاز خطط وبرامج العمل ولتحقيق أهدافها، وتشمل العملاء، ومصادر الإمداد لكافة احتياجاتها، والمنافسين، وجماعات التأثير، أو الضغط (الغالي، إدريس، 2016، ص 253).

وهذا يعني أن البيئة الخارجية للمؤسسة هي مصدر جميع مدخلات المؤسسة حيث يتم الحصول منها على المال والمواد والموارد البشرية وغيرها من مستلزمات لازمة لممارسة أنشطتها، وإلى البيئة الخارجية يتم تقديم المنتجات من سلع وخدمات.

ثانياً: تعريف البيئة

اجتهد العلماء منذ الأزل في تعريف البيئة وتمحيص معناها وفي ما يلي أهم ما ورد من التعريفات.

ثالثاً: تعريف البيئة في اللغة العربية (أبو بكر، 2004، ص 203).

البيئة لغة:

يعود أصل كلمة البيئة في اللغة العربية إلى الجذر (بؤأ) الذي أخذ منه الفعل الماضي (باء)، كما جاء في معجم لسان العرب لابن منظور باء الشيء أي رجع إليه، وذكر المعجم نفسه معنيين قريبين من بعضهما البعض لكلمة تبؤأ.

الأول : إصلاح المكان وتهيئته للمبيت فيه.

الثاني : بمعنى النزول والإقامة.

نلاحظ من التعريف أن مصطلح البيئة اقتصر على المكان الذي يقيم فيه الفرد والذي يمثل الأجزاء من هذه البيئة، والبيئة في المعجم الوسيط هي المنزل والحال.

البيئة اصطلاحاً:

فحسب: (و.دي) (W.Dill) إن محيط العمل الخاص بالمؤسسة هو ذلك الجزء من المحيط الإداري الذي يلائم عملية وضع وتحقيق الأهداف الخاصة بالمؤسسة، ويتكون هذا المحيط من خمس مجموعات من المتعاملين هي : الزبائن، الموردين، العاملين، المؤسسات المنافسة، بالإضافة إلى جماعات الضغط والتأثير كالحكومات واتحادات العمال وغيرها (أبو قحف، 1993، ص. ص. 19. 20).

إن هذا التعريف يختصر فيه صاحبه محيط المؤسسة فيعدد من المتعاملين الأساسيين معها، كجهات أو أشخاص دون التوسع إلى كل المتعاملين مثل البنوك أو المؤسسات النقدية والمالية العاملة أو المؤسسة تغير المنافسة، أو المورد لعوامل الإنتاج وعلى رأسها مؤسسات التكوين، البحث، التكنولوجيا إلى غير ذلك. كما أن هذا التعريف لم يتعرض إلى التفاعلات والمتغيرات التي تؤثر فيها مكونات المحيط والبيئة الخاصة بالمؤسسة.

تعريف معجم العلوم الاجتماعية للبيئة. هي تلك العوامل الخارجية التي يستجيب لها المجتمع بأسره، استجابة فعلية أو استجابة احتمالية، وذلك كالعوامل الجغرافية والمناخية، والعوامل الاجتماعية والثقافية التي يسود المجتمع والمؤثرة على حياة الفرد والمجتمع، وبناء على هذه التعريفات يمكن استنتاج ما يلي:

- البيئة ذلك الوسط الفيزيائي والبيولوجي المحيط بالكائنات الحية.
- هناك علاقة تبادلية بين المحيط والكائنات الحية التي يحويها.
- طبيعة وخصائص كل من البيئة والكائنات الحية تتلاءم حسب نوع التفاعل الحاصل إيجاباً أو سلباً.

كما أن التقلبات التي يشهدها الاقتصاد المحلي والدولي والتقييد في توجهات العملاء كلها تؤثر في المنظمة وإدارتها كما تتأثر بها، ونتيجة لذلك فإن البيئة الخارجية قد بدأت تأخذ موقعا هاما في عملية اتخاذ القرار، وتعتبر استجابة المنظمة لما يدور في بيئتها الخارجية ضرورية لبقائها ومواصلة عملها ولذلك على المديرين ابتداع أسلوب يمكنهم من المحافظة على تحسين الأداء في البيئة متغيرة.

وقد أشار RUE HOIAND " 1986 إلى أن مقدرة المنظمة على تحقيق أهدافها تعتمد على أمرين يتعلق الأول بقدراتها الداخلية أي مواردها ويتعلق الثاني بسلسلة من التفاعلات والعلاقات مع عوامل التأثير الموجودة خارجها.

وقد عرف Piys.Lie بيئة المنظمة بأنها مجموعة القوى والعوامل والظروف الخارجية التي تؤثر بدرجة ما في الاستراتيجية والقدرات والإجراءات التي تتخذها الشركة، والبيئة عبارة عن مجموعة العوامل الطبيعية والاجتماعية المحددة لقدرات الأفراد وسلوكهم التنظيمي (مهدي ، 1996، ص 143).

كما أن التقلبات التي يشهدها الاقتصاد المحلي والدولي والتقييد في توجهات العمال كلها عوامل تؤثر في المنظمة وإدارتها كما تتأثر بها، ونتيجة لذلك فإن البيئة الخارجية قد بدأت تأخذ موقعا مهما في عملية اتخاذ القرار، وتعد استجابة المنظمة لما يدور في بيئتها الخارجية ضرورة لبقائها ومواصلة عملها ولذلك على المديرين ابتداع أسلوب يمكنهم من المحافظة على تحسين الأداء في بيئة متغيرة، هناك تعريفات أخرى للبيئة نلخصها فيما يلي:

- تعريف روبنز (Robbins): "البيئة هي جميع العوامل والمتغيرات الواقعة خارج حدود المؤسسة".

- تعريف هاولي (Hawley): "البيئة هي جميع الظواهر خارج المؤسسة وتؤثر أو لديها إمكانات التأثير على المؤسسة".

- تعريف وران وفواش (Voich و Wren): "تتمثل البيئة في تلك الأحداث والمنظمات والقوى الأخرى ذات الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية والواقعة خارج نطاق السيطرة المباشرة للإدارة". بالإضافة إلى ذلك هناك من يرى بأن المحيط هو تلك القوى والعوامل الفاعلة والمؤثرة داخليا وخارجيا في أعمال المؤسسات ونشاطاتها.

بينما يعرف بيئة المؤسسة كلمن (إمري وتريست (trist-EMERY) كما يلي:
"البيئة هي مجموعة من القيود التي تحدد سلوك المنظمة، كما أن البيئة تحدد نماذج وطرق التصرف اللازمة لنجاح وبقاء المنظمة أو تحقيق أهدافها" (أبو قحف، 2002، ص 29).

وفقا لهذا التعريف فإن البيئة تنطوي على مجموعة من القيود التي تتحكم فيسيرورة منظمة الأعمال، وهي تحدد الملامح الأساسية والسلوك الواجب إتباعه لضمان ديمومتها واستمراريتها، ويتجلى ذلك من خلال تحقيق الأهداف المرغوبة، إلا أننا نربأ لهذا التعريف غير شامل لكل متغيرات البيئة الخارجية.

أما فرانسوا لورو (François Leroux) فيقول بأن المحيط يعرف بأنه قواعد اللعبة (Les règles de jeux) التي من خلالها تقوم المؤسسة بنشاطها، كما يبين حدود السلطة وحرية المسيرين (Leroux, 1980, p. 144).

نرى بأن هذا الباحث حصر مفهوم محيط المؤسسة في قواعد اللعبة التي تعتمد عليها المؤسسة في أداء الأعمال، كما وضع بأن المحيط يبين حدود السلطة، وحرية المسيرين في أداء الأعمال الإدارية، إلا أنه يمكن القول بأن هذا التعريف يفتقر إلى معظم عناصر بيئة المؤسسة كما أنه يركز كثيرا على متغيرات البيئة الداخلية فقط.

نستنتج مما سبق أن مفهوم البيئة ينطوي على عدة ملامح مهمة، والتي من بينها:

- البيئة تشتمل على الأطراف المتعاملة مع المؤسسة وما يصدر عنها من قرارات وتصرفات وسياسات واستراتيجيات مؤثرة على قدرة المؤسسة على تحقيق أهدافها (منافسين، موردين، بنوك، مساهمين، موزعين...).
- من المستحيل تصور مؤسسة تستطيع مواصلة نشاطاتها بمعزل عن البيئة، لأن مصيرها هو الزوال.
- تتباين قدرات المؤسسات في كيفية التعامل والتفاعل مع البيئة، بحيث نجد نوعين من المؤسسات:

- **المؤسسة المتفاعلة:** تتمثل في تلك المؤسسات التي تتفاعل مع البيئة التي تغير من سياساتها واستراتيجياتها وقراراتها وفقا لتغيرات البيئة. وعادة ما تكون هذه المؤسسات تابعة للقائد وقليلة الإمكانات.

- **المؤسسات الفعالة:** تتمثل في تلك المؤسسات التي تسعى إلى تهيئة البيئة وتسخيرها لما يخدم مصالحها ويحقق أهدافها مثل ما قامت به شركة كوكا كولا في منتصف السبعينات عندما قامت بمساعدة أحد الأحزاب السياسية الهندية للوصول إلى السلطة بتمويل برنامج الحزب في بناء المستشفيات والمدارس في بعض الأماكن النائية مقابل انتزاع قرار من أعضاء ذلك الحزب بالسماح للشركة باستثمار أموالها داخل الهند، وعادة ما تكون هذه المؤسسات قائدة في السوق.

في الواقع لا يوجد اتفاق عام بين الكتاب والباحثين حول مفهوم محدد للبيئة، وربما يرجع هذا إلى تداخل مكوناتها وتعقدها، كما أن محاولة وضع تعريف محدد للبيئة إنما يعكس في الواقع وجهة نظر القائم بالتحليل أو الدراسة، وما لا شك فيه أن تحديد مفهوم بيئة المؤسسة يعد من أهم المسائل التي يتعرض لها علم اقتصاد المؤسسة كفرع من فروع العلوم الاقتصادية، علما بأن موضوع اقتصاد المؤسسة لا يقتصر على المؤسسة بحد ذاتها، بل يتعدى ذلك ليشمل العلاقات بين المؤسسة والمحيط.

منهج الدراسة:

فرضت طبيعة و الدراسة أهدافها استخدام المنهج الوصفي القائم على توصيف الظاهرة منطلقا من الجزء للوصول إلى الكل بالإضافة إلى استخدام التحليل الاستقرائي المسحي القائم على ورقة استبانة، كما عمدت الدراسة إلى تحليل النتائج المتحصل عليها إحصائيا من خلال استخدام برنامج spss، وعليه يمكن بيان كيفية إجراء الدراسة الميدانية وذلك كما يلي:

أداة الدراسة:

تقوم الدراسة الميدانية على عمل ورقة استبيان يتكون من أربعة محاور، هي:

- التعرف على استقرار البيئة الخارجية لمؤسسة مصنع إسمنت عمران.
- التعرف على التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية لمؤسسة مصنع إسمنت عمران.
- التعرف على تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها في أداء مؤسسة مصنع إسمنت عمران.
- التعرف على أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في أداء مؤسسة مصنع إسمنت عمران.

عينة الدراسة:

تتكون عينة الدراسة من مجموعة من المبحوثين المتواجدين في مؤسسة مصنع إسمنت عمران تم توزيع (400) استبانة تم استرداد (197) استبانة فقط بنسبة (50%) من الاستبانات التي تم توزيعها.

صدق الأداة:

تقوم الدراسة بعرض الاستبيان في صورته الأولية على عدد من المحكمين من ذوي العلاقة لاستطلاع آرائهم حول أداة الدراسة من حيث: (وضوح الفقرات، مدى انتمائها للمحاور الأساسية، سلامة صياغتها اللغوية) وبناءً على الملاحظات التي أبدتها المحكمون تمت التعديلات التي اتفق عليها من إضافة أو حذف أو إعادة صياغة وبذلك تم تصميم الاستبيان في صورته النهائية.

ثبات الأداة:

لمعرفة نسبة ثبات أداة جمع البيانات ومصدقية إجابات العينة على فقرات الاستبيان اعتمدت الدراسة اختبار كرونباخ (ألفا) وذلك للتأكد من نسبة ثبات الاستبيان وصدق آراء العينة فيه:

جدول رقم (1) يبين معامل ثبات أداة البحث

م	محاور أداة البحث	عدد الفقرات	معامل الثبات	الصدق الذاتي
1	استقرار البيئة الخارجية للمؤسسة	20	0.808	0.899
2	أثر متغيرات البيئة الخارجية في أداء المؤسسة	16	0.756	0.869
3	الفرص المتاحة في البيئة الخارجية للمؤسسة	18	0.825	0.908
4	عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها في أداء المؤسسة	20	0.865	0.930
	معامل الثبات الكلي لأداة البحث	74	0.932	0.965

يتضح من الجدول رقم (1) أن قيمة معامل الثبات الكلي بشكل عام جاء بدرجة (0.932) وهذا يعني أنه جاء بنسبة ثبات مرتفعة جداً، وجاءت درجة الصدق الذاتي لإجابات العينة (0.965) وهذا يعني أن درجة مصداقية الإجابات مرتفعة جداً أيضاً، وهذا يعني أن العينة متجانسة في الاستجابة على أداة البحث ويمكن الاعتماد على النتائج في تعميمها على مجتمع البحث، وجاءت محور الأداة بدرجة ثبات تتراوح بين (0.756) و(0.865) وبدرجة مصداقية تتراوح بين (0.869) و(0.930).

رابعاً: الأساليب الإحصائية المستخدمة :

تم استخدام برنامج الحزمة الإحصائية للتحليل الاجتماعي المعروفة اختصاراً باسم SPSS الإصدار 24.0 في استخراج نتائج أداة البحث (الاستبيان) جميعها، وقد تم استخدام الأساليب الإحصائية الآتية: للتأكد من ثبات الاستبيان وصدق آراء العينة فيه، تم استخدام اختبار كرونباخ (ألفا) - Cronbach's (alpha).

التكرارات والنسب المئوية لحساب توزيع المشاركين في العينة حسب متغيراتها الشخصية والوظيفية وتوزيع إجابات العينة على الفقرات.

المتوسط الحسابي المرجح (المرجح حسب أوزان مقياس ليكرت الخماسي) لمعرفة متوسط آراء العينة.

الانحراف المعياري لمعرفة مدى انحراف إجابات العينة عن متوسطها.

عرض النتائج:

من أهداف هذه الدراسة التعرف على مستوى أثر البيئة الخارجية في أداء مؤسسة مصنع إسمنت عمران، وبالتالي الوقوف على حجم الظاهرة، وقد تم التوضيح بأن ما تشهده المؤسسات العامة بشكل عام ومؤسسة مصنع إسمنت عمران بشكل خاص العديد من المتغيرات البيئية الداخلية والخارجية التي كان لها تأثير مباشر في أدائها وإنتاجها ونموها ومخرجاتها، ومن خلال إجابة عينة الدراسة على محاور استبانة الدراسة باستخدام المتوسط الحسابي والانحراف المعياري ودرجة التزام كل عنصر من عناصر البيئة الخارجية، كما هو موضح بالجدول رقم (2).

1- عرض نتائج مستوى استقرار البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع إسمنت عمران).

الإجابة على السؤال الأول الذي ينص على (ما مستوى استقرار البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع إسمنت عمران)، وللإجابة على السؤال تم صياغة الفرضية (البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع إسمنت عمران) تعاني من ضعف في الاستقرار.

تم استخدام المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية للمعالجة الإحصائية للإجابة على هذا السؤال، وكانت النتيجة المحصل عليها كما في الجدول الآتي:

جدول رقم (2) محور استقرار البيئة الخارجية للمؤسسة

م	العبارات	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الوزن النسبي	التقدير اللفظي	الرتبة
1	تتكون البيئة الخارجية للمؤسسة العامة من القوى المختلفة التي تقع خارج حدودها وتتفاعل مع بعضها البعض لتؤثر فيها بطرق ودرجات مختلفة	4.188	0.700	%83.8	موافق	9
2	استقرار البيئة الخارجية للمؤسسة شرط أساسي لاستمرارها وبقائها	4.391	0.752	%87.8	موافق تماماً	2
3	عدم استقرار البيئة الخارجية للمؤسسة العامة قد يشكل تهديداً لها أو يخلق فرصاً جديدة لنموها	4.020	0.926	%80.4	موافق	20
4	البيئة الخارجية للمؤسسة العامة مستمرة في الاتجاه نحو عدم الاستقرار والتغيير المتزايد	3.807	0.997	%76.1	موافق	21

م	العبارات	المتوسط	الانحراف	الوزن	التقدير	الرتبة
5	يتوقع دائماً أن يحدث تغييراً آنياً أو مستقبلياً في البيئة الخارجية للمؤسسة	4.122	0.766	%82.4	موافق	14
6	استمرارية التغير في البيئة الخارجية للمؤسسة يؤكد على أن التفكير الإداري المغلق لم يعد مناسباً	4.096	0.861	%81.9	موافق	15
7	التغير وعدم الاستقرار في البيئة الخارجية سمة تفرضها متطلبات العصر والتطورات المتسارعة في كافة المجالات	4.076	0.833	%81.5	موافق	16
8	استقرار عناصر البيئة الخارجية مسألة نسبية تتفاوت من مكان إلى آخر	4.127	0.699	%82.5	موافق	13
9	تنسم البيئة الخارجية غير المستقرة أو المتحركة بالتغيير المتواصل والمستمر في حركة مكوناتها وصعوبة السيطرة عليها	4.041	0.775	%80.8	موافق	19
10	عدم استقرار البيئة الخارجية يفرض على المؤسسة مواكبة التغيرات والتحول الحاصلة بشكل دائم ومستمر	4.193	0.835	%83.9	موافق	8
11	تطوير استراتيجية المؤسسة وتحديثها بشكل دوري ضرورة ملحة لمواجهة تحديات التغير المستمر في بيئتها الخارجية	4.508	0.659	%90.2	موافق تماماً	1
12	يتأثر كل نظام إداري بسمات وخصائص البيئة الخارجية التي تتفاعل معه والتغيرات التي تحدث فيها	4.254	0.690	%85.1	موافق تماماً	5
13	تطبيق نفس تلك الممارسات الإدارية لا يؤدي إلى تحقيق النتائج نفسها في ظروف بيئية مغايرة	4.056	0.893	%81.1	موافق	17
14	تفاوت درجات التهديد وحجم الفرص تبعاً لاختلاف عناصر التغير في البيئة الخارجية للمؤسسة وتباين آثارها	4.152	0.733	%83.0	موافق	12
15	توجد علاقة عضوية بين المؤسسة والوسط الذي تعمل فيه كونها جزءاً منه وتتأثر بالتغيرات التي يشهدها بصورة ديناميكية	4.228	0.724	%84.6	موافق تماماً	7
16	للبيئة الخارجية أهمية كبيرة في المسار الذي تسعى فيه المؤسسة إلى تحقيق أهدافها	4.239	0.662	%84.8	موافق تماماً	6
17	يتوقف مدى نجاح إدارة المؤسسة العامة على قدرتها في تحقيق التوازن بينها وبين متغيرات وعناصر بيئتها الخارجية	4.188	0.783	%83.8	موافق	9
18	على المؤسسة أن توجه الجهود الفردية والجماعية لتحقيق الموائمة مع بيئتها الخارجية	4.345	0.716	%86.9	موافق تماماً	3

م	العبارات	المتوسط	الانحراف	الوزن	التقدير	الرتبة
19	تعمل المؤسسات العامة للدورة في وسط بيئة خارجية تتسم بالتعقيد والتشابك المستمر	4.157	0.943	83.1%	موافق	11
20	من أهم عوامل فشل الإدارة في المؤسسات إغفال متغيرات البيئة الخارجية وآثارها المستمرة	4.259	0.832	85.2%	موافق تماماً	4
21	تتسم البيئة الخارجية أحياناً بوتيرة تغيرات عميقة ومتسارعة وفي حيان أخرى تكون تغيراتها أقل عمقاً وتسارعاً	4.046	0.853	80.9%	موافق	18
	المتوسط العام	4.149	0.373	83.0%	موافق	

يتضح من الجدول أن مستوى استقرار البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع اسمنت عمران) كان بدرجة كبيرة حيث حصل على متوسط (4.149) وانحراف معياري (0.373) ووزن نسبي (83.0%) وعند تحليل العبارات الفرعية لمستوى الاستقرار وجد بأن تطوير وتحديث استراتيجية المؤسسة بشكل دوري ضرورة ملحة فعلاً لمواجهة تحديات التغيير المستمر في بيئتها الخارجية حيث حصل على متوسط (4.508) وانحراف معياري (0.659) ووزن نسبي (90.2%)، بينما جاءت الفقرة رقم (4) في المرتبة الأخيرة بمتوسط (3.807) وانحراف معياري (0.997) ووزن نسبي (76.1%)، وهذا يعني أن العينة تشير إلى أن البيئة الخارجية للمؤسسة العامة مستمرة فعلاً في الاتجاه نحو عدم الاستقرار والتغيير المتزايد.

2- التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع اسمنت عمران)

عرض النتائج حول التهديدات والفرص المتاحة يمكن الإجابة على السؤال الذي ينص على (ما مستوى التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع اسمنت عمران)، وللإجابة على السؤال تم صياغة الفرضية (هناك مجموعة من التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية لمؤسسة (مصنع اسمنت عمران)).

تم استخدام المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية للمعالجة الإحصائية للإجابة على هذا السؤال، وكانت النتيجة المحصل عليها كما في الجدول الآتي:

جدول رقم(3): التهديدات والفرص بشكل عام

الرتبة	الوزن النسبي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	البعد
كبير	83.6%	0.764	3.791	التهديدات
كبير جدا	85.1%	0.710	4.242	الفرص المتاحة
كبير جدا	83.3%	0.737	4.214	المتوسط العام

يتضح من الجدول أن مستوى الفرص المتاحة في البيئة الخارجية للمؤسسة كانت بدرجة كبيرة جداً حيث حصل على متوسط (4.242) وانحراف معياري (0.710) ووزن نسبي (85.1%) وجاءت التهديدات في البيئة الخارجية للمؤسسة في المرتبة الثانية حيث كانت بدرجة كبيرة حيث حصلت على متوسط (3.791) وانحراف معياري (0.764) ووزن نسبي (83.6%).

وهذا يعني أن العينة تشير إلى الفرص التي كان من أهمها: أن الاعتماد على البيانات والمعلومات غير الدقيقة يقلل من كفاءة المؤسسة في استغلال الفرص الناتجة عن التغير في البيئة الخارجية بما ينعكس سلباً على ربحيتها، بينما أشارت العينة إلى التهديدات ، وكان أهم ما ركزت عليه أن التغيرات الجذرية في البيئة الخارجية تساهم في تفكيك المؤسسة والتحول الشامل في هيكلتها وإدارتها وسياساتها الإنتاجية والتسويقية والبيعية.

واتضح أن التهديدات والفرص المتاحة في البيئة الخارجية للمؤسسة كانت كبيرة بشكل عام، وعلى مستوى العبارات الفرعية وجد تباين بين كبيرة وكبيرة جداً .

3- عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء مؤسسة (مصنع إسمنت عمران):

عرض النتائج حول عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء المؤسسة.

يمكن الإجابة على السؤال الذي ينص على (ما مستوى عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء مؤسسة تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء مؤسسة (مصنع إسمنت عمران)، وللإجابة على السؤال تم صياغة الفرضية التي تنص على أن (عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية تساهم في تحسين الأداء الكلي للمؤسسة (مصنع اسمنت عمران)).

تم استخدام المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية للمعالجة الإحصائية للإجابة على هذا السؤال، وكانت النتيجة المحصل عليها كما في الجدول الآتي:

دور تقييم متغيرات البيئة الخارجية بشكل عام على أداء المؤسسة رقم (4)

الرتبة	الوزن النسبي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	البعد
كبير جدا	84.3 %	0.739	4.216	مؤشر الأداء
كبير جدا	84.5 %	0.774	4.223	قياس الأداء والمراجعة
كبير جدا	85.5 %	0.713	4.277	اتخاذ القرار
كبير جدا	84.7 %	0.742	4.238	المتوسط العام

يتضح من الجدول أن مستوى اتخاذ القرار في المؤسسة كانت كبيرة جدا حيث حصل على متوسط (4.277) وانحراف معياري (0.713) ووزن نسبي (85.5%)، وجاء مستوى قياس الأداء والمراجعة في المؤسسة في المرتبة الثانية وكانت أيضا كبيرة جدا حيث حصل على متوسط (4.223) وانحراف معياري (0.774) ووزن نسبي (84.5%) وأخيراً جاء مؤشر الأداء في المؤسسة في المرتبة الأخيرة وكانت كبيرة جدا حيث حصل على متوسط (4.216) وانحراف معياري (0.739) ووزن نسبي (84.3%).

وقد أتضح بأن عملية تقييم متغيرات البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء المؤسسة كانت كبيرة بشكل عام، وعلى مستوى العبارات الفرعية والأبعاد وجد تباين بين كبيرة وكبيرة جداً وهذا يعني أن العينة تشير إلى أن التحليل البيئي أداة فاعلة للمؤسسة في تحديد أهدافها وخياراتها الاستراتيجية في اتجاه تطوير الأداء والكفاءة والجودة وزيادة الأرباح، كما أشارت العينة إلى أن عملية تقييم متغيرات البيئة تؤدي إلى تحسين مستوى الالتزام التنظيمي في المؤسسة.

4- أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أداء المؤسسات العامة للدولة.

عرض النتائج حول أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أداء مؤسسة (مصنع اسمنت عمران)، يمكن الإجابة على السؤال الذي ينص على (ما أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والثقافية على أداء مؤسسة (مصنع أسمنت عمران)، وللإجابة على السؤال تم صياغة الفرضية التي تنص على (ما تأثير المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أداء مؤسسة (مصنع أسمنت عمران)).

تم استخدام المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية للمعالجة الإحصائية للإجابة على هذا السؤال، وكانت النتيجة المحصل عليها كما في الجدول الآتي:

جدول رقم (5): دور المتغيرات السياسية والاقتصادية في أداء مؤسسة مصنع أسمنت

عمران

الرتبة	الوزن النسبي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	البعد
كبير جدا	84.3 %	0.739	4.612	البعد السياسي والاقتصادي
كبير	83.3 %	0.763	4.165	البعد الرقابي والتشريعي
كبير	79.6 %	0.902	3.981	البعد الاجتماعي
كبير	81.3 %	0.819	4.066	البعد الثقافي والفكري
كبير	82.1 %	0.805	4.112	المتوسط العام

يتضح من الجدول أن البعد السياسي والاقتصادي للبيئة الخارجية كان له دور كبير جداً على أداء المؤسسة حيث حصل على المرتبة الأولى بمتوسط (4.216) وانحراف معياري (0.739) ووزن نسبي (84.3%)، يليه البعد الرقابي والتشريعي المرتبة الثانية بدرجة كبيره وحصل على متوسط (4.165) وانحراف معياري (0.763) ووزن نسبي (83.3%)، ثم جاء البعد الاجتماعي في المرتبة الثالثة بمتوسط (3.981) وانحراف معياري (0.902) ووزن نسبي (79.6%)، وأخيراً البعد الثقافي والفكري بدرجة كبيره بمتوسط (4.066) وانحراف معياري (0.819) ووزن نسبي (81.3%)، وهذا يدل على أن المتغيرات الخارجية للمؤسسة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية لها دور كبير جداً في أداء مصنع أسمنت عمران.

وهذا يعني أن العينة تشير إلى أن تفشي ظاهرة الفساد المالي والإداري في أجهزة الدولة يهدد المؤسسة العامة ويقودها إلى الفشل التام، كما أكدوا أن نقل قيم العائلة والتماسك الأسري من البيئة الخارجية إلى البيئة الداخلية في المؤسسة يساهم بصورة موضوعية في تحسين كفاءة أدائها. مما اتضح منه أن دور المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في أداء المؤسسة كان كبيراً بشكل عام، وعلى مستوى العبارات الفرعية والأبعاد وجد تباين بين كبيرة وكبيرة جداً، وهذا يشير إلى أن معظم أفراد العينة أكدوا ضرورة الاستقرار السياسي والاقتصادي، كونه يساهم في تحسين أداء المؤسسة ويزيد من رضا العاملين والمستفيدين منها، كما يساهم في زيادة الإنتاجية والربحية، فتدهور أوضاع العمل وارتفاع معدلات التضخم والعجز الاقتصادي في البلد عاق المؤسسة وحد من إمكانية أدائها، فكلما انعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والأمني كلما أدى إلى إضعاف فاعلية المؤسسة وكفاءتها وحجم من قدرتها على التطور والنمو والاستمرار، فالمناخ الاقتصادي المستقر يساهم في استمرار المؤسسة ونموها وتفاديها من الوقوع في الأزمات المالية.

التوصيات:

على ضوء النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة فإنها توصي بالآتي:

- 1- لا بد من العمل على تأقلم مؤسسة مصنع إسمنت عمران مع عوامل بيئتها الخارجية المتغيرة وجعلها تؤثر بشكل إيجابي في هذه البيئة، وزيادة أدائها الكلي، وبالتالي القيام بدور فعال اتجاه تطوير الاقتصاد الوطني ونموه.
- 2- ضرورة تأهيل مؤسسة مصنع إسمنت عمران من خلال التأقلم الجيد مع متغيرات البيئة الخارجية خصوصاً مع سعي النظام السياسي الحالي إلى ضرورة إيجاد تسوية سياسية وإيقاف الحرب وإحلال السلام والاستقرار، وما يترتب عليه من تحرير تدريجي زمني ونوعي للاقتصاد والصناعة والتجارة في السلع والخدمات.
- 3- على مؤسسة مصنع إسمنت عمران العمل على معرفة الموارد المتاحة وكيفية الاستفادة منها، لتحسين أدائها بشكل أو بآخر.
- 4- تجنب مؤسسة مصنع إسمنت عمران الحياد في الصراع السياسي على السلطة وحث العاملين على العمل بمهنية بحته.

5- تعد هذه الدراسة محاولة للكشف عن أثر البيئة الخارجية في أداء المؤسسات العامة وتحديد العلاقة بينهما، إلا أن هناك جوانب لم تقم الدراسة الحالية بالإجابة عنها والتي يمكن أن تكون موضوعات لدراسات مستقبلية وهي:

- إجراء دراسة مماثلة لهذه الدراسة باستخدام مجتمع آخر وآداء قياس مختلفة.
 - إجراء دراسة مقارنة لأثر البيئة الخارجية على أداء المؤسسات العامة في اليمن ودول أخرى كالمملكة المغربية.
- 6- القيام بعملية رصد وتنبؤ مستمرة لعوامل البيئة الخارجية المحيطة بالمؤسسة من أجل تحديد الفرص والتهديدات الحالية والمحتملة.

7- قيام إدارة مؤسسة مصنع إسمنت عمران بعقد لقاءات دورية مع الرؤوسين لتعريفهم بأهمية تأثير عوامل البيئة الخارجية في أداء المؤسسة وكيفية التأقلم والتكيف معها.

8- ضرورة تكثيف البحوث العلمية في مجال دراسة البيئة الخارجية وتأثيرها على أداء المؤسسات العامة في اليمن.

المصادر والمراجع:

- 1) طاهر منصور الغالي، وائل محمد صبحي إدريس (2016)، الإدارة الاستراتيجية، المفاهيم، والعمليات، عمان، ط3، دار وائل للنشر..
 - 2) عبد السلام أبوقحف (2002)، اقتصاديات الأعمال والاستثمار الدولي، مصر، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية.
 - 3) عبد السلام أبو قحف (1993)، اقتصاديات الأعمال، القاهرة، المكتب العربي الحديث.
 - 4) علاوي نصيرة (2011)، بعنوان اليقظة الاستراتيجية كعامل للتغيير في المؤسسة دراسة حالة مؤسسة موبيلي.
 - 5) مصطفى محمود أبو بكر (2004)، المرجع في التفكير الاستراتيجي والإدارة الاستراتيجية، الإسكندرية، الدار الجامعية.
 - 6) مهدي حسن زويلف (1996)، إدارة المنظمة ونظريات وسلوك، عمان، الطبعة الأولى، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
 - 7) الهاشمي بنواضح (2014)، تأثير متغيرات البيئة الخارجية على أداء المؤسسات الاقتصادية الجزائرية 4.
- 1) François Leroux (1980), Introduction à L'économie de L'entreprise, 2eme édition, Imprimerie de Lac – se-jean- enr, Paris, p144.

دور التوقعات الديموغرافية في صياغة سياسات التنمية المستدامة " دراسة حالة الجزائر"
من خلال تحليل إسقاطات التغيرات في الهيكل العمري للسكان ومسألة التنمية
المستدامة في الجزائر أفاق 2045 باستخدام برنامج demproj

**The role of demographic projections in the formulation of
sustainable development policies "Studying the State of
Algeria" by analysing projections of changes in the age
structure of the population and the issue of sustainable
development in Algeria woke up 2045 using demproj
"program**

د بن زايد ريم

د. قليل هجيرة

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان - الجزائر -

Dr. BENZAID Rim

Dr . Hadjira Guellil

rim_demo83@hotmail.fr

hgtlm@outlook.com

الملخص:

تقوم التنمية المستدامة التي تسعى إليها أرضية ما بعد 2015 والتي تشمل جل بلدان العالم على مبدئين أساسيين : التضامن بين الأجيال، من حيث الحفاظ على رأس المال الاجتماعي والبشري والاقتصادي والبيئي للأجيال الصاعدة من جهة، ومن جهة أخرى التضامن داخل الأجيال من حيث التوزيع العادل لظروف الرفاه داخل الجيل نفسه، فالهدف من وراء التنمية المستدامة تحقيق أكبر قدر من التنمية الإنسانية في شتى المجالات واستدامتها من خلال السعي وراء تحسين رفاهية الناس وتحسين وضعيتهم في المجالات (الصحة، التعليم، الشغل ، الحرية الشخصية... إلخ)، لذلك تقتضي هذه الرؤية تغيرا عميقا وجذريا في

انتهاج سياسات سكانية ناجعة من خلال إدماج المتغيرات الكمية والنوعية للسكان في العملية التنموية، بوصفها عاملا أساسيا ومهما ذا تأثير كبير في مصير التنمية الانسانية المستدامة.

تشهد الجزائر كباقي البلدان العربية تغيرات مهمة في الهيكل العمري للسكان، التي تعتبر من مظاهر التحول الديموغرافي القائم فيها والذي يتمثل بشكل خاص في انخفاض الفئات العمرية المعالة (الأطفال، وكبار السن) وارتفاع الفئات العمرية النشيطة 15-64 سنة، مما قد يكون له تأثير كبير على التنمية المستدامة على المديين البعيد والقريب.

نهدف من خلال هذه المداخلة التطرق إلى موضوع التغيرات في الهيكل العمري للسكان وربطها بمسألة التنمية المستدامة 2045 من خلال رصد وتحليل الإسقاطات المتعلقة بالاحتياجات المستقبلية للفئات العمرية للسكان في المجال " الصحة والتعليم والشغل والتكفل بكبار السن"، التي قد تسهم في رسم سياسات مستقبلية للسكان، وأهم النقاط التي سنتعرض إليها إن شاء الله تعالى:

التحول الديموغرافي في الجزائر.

التحولات في الهيكل العمري وأثرها على السياسات الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر.

دراسة استشرافية للحاجيات المستقبلية للفئات العمرية الكبرى أفاق 2045.

الكلمات المفتاحية: التحول الديموغرافي، الفئات العمرية، الاسقاطات السكانية، السياسات التنموية، التنمية المستدامة.

Abstract :

The sustainable development sought by the post-2015 platform, which includes most countries of the world, is based on two basic principles: intergenerational solidarity, in terms of preserving the social, human, economic and environmental capital of younger generations on the one hand, and on the other hand, solidarity within generations in terms of equitable distribution of welfare conditions within the same generation. Sustainable development aims to achieve the greatest human development in various fields and sustain it by seeking to improve people's well-being and improve their status in journals (health, education, employment, employment) Personal freedom ... This vision therefore requires a profound and radical change in the adoption of effective population policies through the integration of quantitative and qualitative variables of the population into the development process, as a fundamental and important factor with a significant impact on the fate of sustainable human

development.

Algeria, like other Arab countries, is undergoing significant changes in the age structure of the population, which is a manifestation of its demographic transformation, which is particularly marked by the decline of dependent age groups (children, the elderly) and the rise of active age groups 15-64 years, which may have a significant impact on sustainable development in the long and near term.

Through this intervention, we aim to address the issue of changes in the age structure of the population and link them to the issue of sustainable development 2045 by monitoring and analysing projections related to the future needs of the population in the field of "health, education, employment and care for the elderly", which may contribute to the development of future policies for the population, and the most important points to which we will be exposed hopefully:

Demographic transformation in Algeria.

Shifts in age structure and their impact on algeria's social and economic policies.

- A forward-looking study of the future needs of the major age groups horizons 2045.

Keywords: demographic transformation, age groups, population projections, development policies, sustainable development.

المقدمة:

تعتبر ظاهرة التحول الديموغرافي من الظواهر التي لفتت انتباه العديد من المفكرين وصناع القرار في الوقت الراهن، وهذا لما تحدثه من آثار عديدة في مختلف الميادين، فهي تشكل في بعض الحالات فرصة حقيقية للدفع بعجلة النمو وتحسين الأداء لاقتصادي، وهذا ما يصطلح عليه بالهبة الديموغرافية، فمع تراجع معدلات المواليد وارتفاع أمل الحياة عند الولادة زادت نسبة السكان في سن الشغل بشكل سريع، الأمر الذي يساعد على اتخاذ الإجراءات الملائمة لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فمن جهة تؤدي عروض قوة العاملة إلى رفع الإنتاجية، ومن جهة أخرى يساهم تراجع نسبة الإعالة إلى تخفيف الضغط على الإنفاق الأسري والحكومي وبالتالي رفع الادخار وزيادة الاستثمار (mourchid, 2015, p. 56).

وبذلك فإن الخصائص والاتجاهات السكانية لها العديد من الآثار ذات الصلة بالسياسات والقرارات العامة، لاسيما أنها تمارس تأثيرا حاسما على مسار القوى العاملة، نظرا لأنها تحدد حجم السكان النشطين الذي قد يكون متاحا، وبعض العوامل التي قد تؤثر في مشاركة المرأة، كما أن الاتجاهات السكانية تحدد تطور الفئات العمرية المستهدفة في القطاعات الاجتماعية الأساسية (التعليم، الصحة الإنجابية، الأمن الاجتماعي، الإسكان... الخ) وأنماطها وفقا للسن والجنس والموقع، وهي تكتسي أهمية بالغة في تقدير المتطلبات المستقبلية، كما أن لها تأثير بشكل خاص على مؤشرات اقتصادية أساسية مثل الانتاجية،

الادخار، الاستثمار، الاستهلاك في حين أن تأثيرها يتسم بالتعقيد، فمعظم الدراسات تشير إلى أن زيادة في مستويات الإعالة ووفيات الرضع تؤدي إلى تآكل الأداء الاقتصادي للبلدان (المتحدة، 2017، ص 39).

تشهد الجزائر كباقي بلدان العربية تحولات ملحوظة في الهيكل العمري لسكانها الذي سيكون له آثار على المدينين البعيد والقريب، مما قد يستدعي من صناع القرار والمخططين اتخاذ إجراءات اللازمة من أجل إدماج المتطلبات المستقبلية لكل فئة من الفئات العمرية في السياسات التنموية الخاصة بها في مجالات عديدة.

أولاً: المفاهيم المتعلقة بموضوع الدراسة

1.1 مفهوم علم السكان:

لغة: تدرج الدراسات العلمية للسكان تحت اسم علم الديموغرافيا Demography أو علم السكان، وتكونت هذه الكلمة من تجميع مقطعين من اللغة اليونانية القديمة هما: Demos ومعناها شعب وGraphia ومعناها وصف وبذلك يكون معنى الكلمة بأكملها هو وصف السكان والكتابة عنهم.

اصطلاحاً: فقد عرفها Achille Guillard عام 1855م بأنها: "التاريخ الطبيعي والاجتماعي للجنس البشري أو المعرفة الرياضية للمجتمعات السكانية وتغيراتها العامة وأحوالها الجسمية والمدنية والفكرية والأخلاقية".

كما تعرف على أنها: "أحد العلوم الاجتماعية الحديثة التي يشمل ميدانها البحث في التغيرات التي تطرأ على السكان عموماً بعد آخر من حيث عددهم ومعدل نموهم، وتوزيعهم في مختلف فئات العمر والجنس والحالة الزوجية، التعليمية وكثافتهم في مختلف أجزاء الدولة وتحركاتهم الداخلية (الهجرة من الريف إلى المدينة...) والخارجية والتنبؤ بمستقبل عددهم وتوزيعهم في الفئات المختلفة..."

كما عرفها أسيل غبار بقوله: "تمثل التاريخ الطبيعي والاجتماعي للجنس البشري، وهو بالمعنى الضيق الدراسة الرياضية للسكان من حيث تحركاتهم العامة وأحوالهم الفيزيائية والحضارية والفكرية والأخلاقية" (دباغين، 2020).

2.1) فروع علم السكان :

تتكون الديموغرافيا كغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية من العديد من الفروع نذكر منها:

- **الديموغرافيا التاريخية:** وتهتم بالدراسة الاستراتيجية للظواهر السكانية في المجتمعات القديمة ومدى انعكاسها على المجتمعات الحضارية من خلال الكشف عن العوامل والنتائج، أما **الديموغرافيا الرياضية** فهي تستخدم بصفة أعم للمعالجة الرياضية في هذا الميدان بما في ذلك تطبيق الدوال والمعدلات والمصفوفات الرياضية على البيانات الاعتبارية مثل التحليل الديموغرافي والاسقاطات السكانية، وهناك مدرسة معينة للديموغرافيين صاغت العبارة ديموغرافيا كمونية لدراسة احتمالات الحياة وتطبيقاتها.
- **الديموغرافيا الاقتصادية :** وهي تهتم بالعلاقة بين السكان من حيث الحجم والتوزيع وعلاقتها بالظواهر الاقتصادية كالدخل والتشغيل البطالة والادخار والتضخم والإنتاج،
- **الديموغرافيا الاجتماعية:** تدرس الخصائص الاجتماعية للسكان من النوع والسن الحالة الزوجية والتعليمية والمهنية والدينية واللغوية والعرقية من الناحية توفير الإحصائيات والوقوف عليها من الجانب السوسولوجي.
- **الديموغرافيا الوصفية:** تبحث في وصف السكان من حيث عددهم وتوزيعهم الجغرافي وخصائصهم العامة التي يتميزون بها عن غيرهم، ونستخدم في ذلك الإحصاءات السكانية أو لإحصاءات الديموغرافية.

3.1) الأهداف العلمية لعلم الديموغرافيا:

تتمثل الأهداف الرئيسة لعلم الديموغرافيا في ما يلي:

- العمل على توفير الإحصائيات السكانية بشكل منتظم في كل ما يتعلق بالسكان، والكشف والمعالجة العلمية للظواهر السكانية مثل التركيب السكاني وحركة المواليد والوفيات والهجرات.
- *المساهمة في إعداد الخطط التنموية سواء كانت قريبة أو بعيدة المدى انطلاقا من الإحصائيات السكانية.
- *التعرف على اتجاهات النمو السكاني سواء من حيث الزيادة أو النقصان وتحديد الإجراءات والسياسات المطلوبة.
- تؤدي دورا كبيرا على الصعيد الاقتصادي، حيث تمكن من معرفة عدد السكان النشطين وغير النشطين، وتوزيع القوى العاملة على مختلف الأنشطة الاقتصادية كالزراعة ، والصناعة، والتجارة من أجل معرفة مدى تحقق التوازن من عدمه على مستوى هذه الأنشطة.

4.1 تعريف الاسقاطات السكانية واهميتها في رسم السياسات السكانية:

تعرف الاسقاطات السكانية بأنها التقديرات المستقبلية للمجتمع السكاني، بمعنى أنها عبارة عن حساب التوجهات المستقبلية لعدد السكان بالاعتماد على مجموعة من الفرضيات المتعلقة بالتوجهات المستقبلية لمعدل الخصوبة ومعدل الوفيات ومعدل الهجرة. يتم هذا الحساب بالاعتماد على المؤشرات الديموغرافية (للتخطيط، ص 2).

تكتسب الإسقاطات السكانية أهميتها من الطلب المتزايد من المستخدمين لها، فالقائمون بالتخطيط والمتابعة في جميع مجالات التنمية بحاجة لتقديرات مستقبلية عن حجم السكان وتوزيعاتهم العمرية، وتكون تلك التقديرات منطقية ومعتمدة على برامج ومنهجيات علمية جيدة وموثوق بها، فهي تساعد المخطط على تقييم الوضع الحالي للسكان، ووضع البرامج والخطط السكانية، وتكوين السياسات السكانية، لتلبية الحاجات المعيشية الحالية والمستقبلية الأساسية للسكان سواء كانت تعليمية أو صحية أو خدمية (للإحصاء، 2016، ص2)؛ إذ يسلم الاقتصاد بان التغير في الدخل القومي والثروة والموارد والتجارة وتوزيع الدخل والاجور والعمالة والادخار والاستثمار والاستهلاك والمهن قد يؤثر في التغير في المتغيرات السكانية والعكس صحيح.

وذهب العلماء الى انه اذا كان نمو السكان يصاحبه زيادة في الكثافة السكانية في مناطق وبلاد جديدة مع زيادة في تقسيم العمل وأيضاً زيادة في القوة الانتاجية والدخل، فإن لهذه الزيادة حدوداً، وعندما تبلغ الزيادة حداً هو الأمثل فإن الزيادة في كثافة السكان داخل البلد سوف يترتب عليه قلة في الدخل وانخفاضاً في مستوى المعيشة.

ولا شك في أن حجم السكان في المستقبل هو أحد المعطيات الأساسية في عملية التخطيط التنموي، ونؤكد أن إجمالي عدد السكان لا يفي وحده بأغراض التخطيط التنموي، وإنما من المهم أن تشمل الإسقاطات السكانية خصائص هؤلاء السكان لا سيما من حيث العمر والنوع، كما أن التخطيط التنموي لا يجب أن ينظر إليه على أنه تخطيط على المستوى القومي فحسب، وإنما من المهم أن تكون الإسقاطات السكانية على المستوى الإقليمي أو المحلي قدر الإمكان، ونسوق فيما يلي بعض المجالات التي تعتمد على هذه المعطيات (الدولي، 2010، ص186).

- في مجال الصحة يحتاج المخطط إلى التعرف على عدد المواليد في السنوات القادمة وعدد النساء في سن الحمل وعدد المسنين لتخصيص الموارد المادية والبشرية المرتبطة بأعداد الأطباء والعاملين في الحقل الصحي

وأعداد الأسرة والاحتياجات من التطعيمات ووسائل تنظيم الأسرة ومراكز الرعاية الصحية الأولية ومراكز الأمومة والطفولة والخدمات الصحية والاجتماعية للمسنين

- في مجال التعليم يحتاج المخطط إلى التعرف على تطور عدد الأطفال والشباب في المراحل التعليمية المختلفة في الأجل المتوسط والطويل من أجل توفير الأبنية التعليمية والوسائل التعليمية والإمكانات البشرية التي تحقق السياسة التعليمية للدولة من حيث الاستيعاب في مراحل الحضنة والتعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي.

- في مجال التشغيل يحتاج المخطط إلى التعرف على أعداد الداخلين إلى سوق العمل (أي جانب العرض) لصياغة سياسات تشغيل تستهدف تخفيض معدلات البطالة والربط بين مخرجات النظام التعليمي وسوق العمل، وبلورة برامج واقعية لرفع معدلات مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادي.

- في مجال الضمان الاجتماعي: يحتاج المخطط إلى التعرف على تقديرات أعداد المسنين في السنوات القادمة لتقدير الأعباء المترتبة على الموازنة العامة والمطلوب توفيرها لتغطية المعاشات وبرامج الضمان الاجتماعي

- في مجال الإسكان والمرافق: يحتاج المخطط إلى تقدير الطلب المستقبلي على الإسكان والمرافق (كهرباء، مياه، صرف صحي، اتصالات، طرق، إدارة المخلفات الصلبة)، وأحد محددات هذا الطلب هو عدد السكان وعدد الأسر المتوقع في المستقبل والتوزيع الجغرافي للسكان. وبالإضافة إلى المجالات التنموية التي تم الإشارة إليها، فإن الإسقاطات السكانية تعطي معلومات أخرى حول قوة الدولة بالمفهوم الكلاسيكي، باعتبار أن قوة الدولة العسكرية دالة في عدد سكانها في سن الشباب وأن اتجاه بعض المجتمعات إلى الهرم وتركز نسبة متزايدة من سكانها في سن الشيخوخة هو نذير لتراجع قوة هذه الدولة (الدولي، 2010).

ثانيا: التحول الديموغرافي في الجزائر

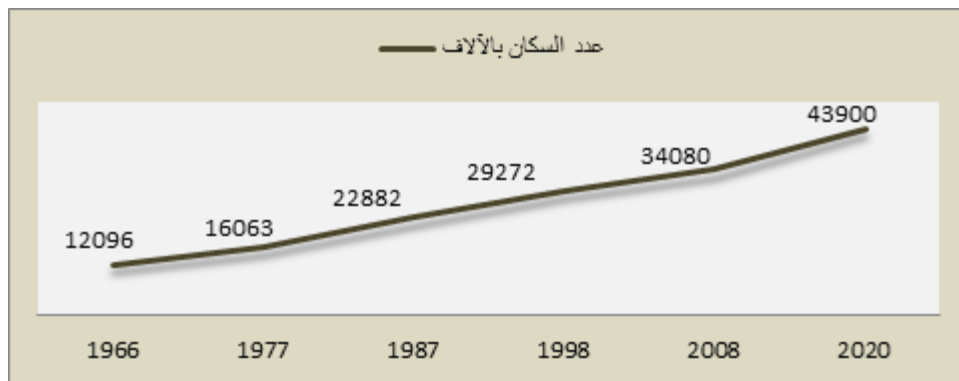
1.2) تطور حجم السكان في الجزائر:

لقد شهدت الجزائر منذ حصولها على استقلالها الذاتي تزايدا سكانيا سريعا، حيث انتقل عدد السكان من 12 مليون نسمة في تعداد 1966 إلى 16 مليون نسمة في تعداد 1977 ليتضاعف العدد في تعداد 1987 في غضون 20 سنة، ليبلغ حاليا في سنة 2020 ما يعادل 44 مليون نسمة بزيادة قدرها 32 مليون نسمة من أول تعداد منجز في الجزائر بعد استقلالها.

إن هذه الزيادة السكانية الكبيرة التي شهدتها الجزائر بتضاعف حجم السكان بما يعادل 3 مرات في غضون 40 سنة راجعة بالأساس إلى مجموعة من العوامل أهمها:

- نعمة الاستقلال ورغبة الشعب الجزائري في تعويض الخسائر البشرية إبان حرب التحرير.
- تحسن الظروف الصحية والمعيشية مقارنة بما مضى.
- الزواج المبكر....إلخ.

الشكل رقم 01: تطور حجم سكان الجزائر من 1966 إلى 2020.



Source : (ONS, rétrospectives statistiques 1970-1996, 1999, p5-7).

(ONS, collection statistique N°142, 2008)

(ONS, démographie Algérienne N°853, 2018)

(2.2) تطور النمو السكاني في الجزائر:

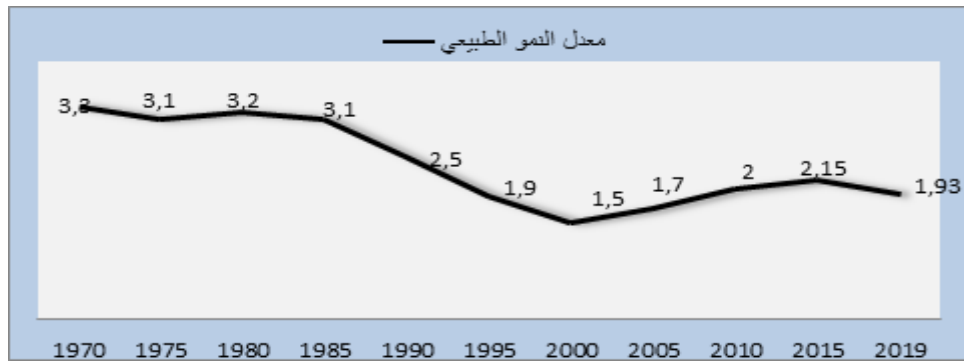
تعتبر الجزائر من بين بلدان العالم التي شهدت ارتفاعا كبيرا في معدل النمو السكاني الذي فاق 3% في السبعينيات إلى غاية الثمانينيات ويرجع ذلك إلى الزواج المبكر الذي كانت تشهده هذه الفترة، وعدم الاستعمال الواسع لوسائل منع الحمل والتنظيم العائلي؛ إذ كان يقدر معدل استخدام النساء لموانع الحمل في السبعينيات بـ 8% (statistiques, 2007, p.59) ساهم بشكل كبير في رفع معدلات الإنجاب فقد كان يقدر المؤشر التركيبي للخصوبة بأكثر من 7 أطفال للمرأة الواحدة (ريم، 2012، ص43).

ليشهد النمو السكاني في الجزائر بدءا من سنة 1985 الانخفاض ليصل إلى 1.5% مع مطلع الألفية الجديدة كما هو ملاحظ في الشكل 02، وهذا راجع إلى تبنى الجزائر في بداية فترة 80 لبرنامج التحكم في النمو السكاني، الذي أحدث تغيرا كبيرا في المجال الديموغرافي في الجزائر، حيث خلال عشرينتين تباطأ

مستوى النمو السكاني، وانخفضت نسبة الإنجاب في الجزائر، كما لا ننسى أنه كان للأزمة الاقتصادية التي مست الجزائر مع الثمانينات بالغ التأثير على السلوك الإنجابي للسكان؛ إذ تم العزوف عن الزواج بسبب تقلص مناصب الشغل وانتشار البطالة، إضافة إلى أن المكانة الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المرأة الجزائرية بتعلمها وبلوغها مستوى علمي راق ودخولها سوق العمل كان له بالغ التأثير على سلوكها الإنجابي، فقد تأخر متوسط سن الزواج بالنسبة لها فقد انتقل من 18.3 سنة في تعداد 1966 إلى 9.29 (statistiques، 2007) سنة في تعداد 2008 فقد خسرت المرأة تقريبا 12 عاما من حياتها الإنجابية، لكن مع بداية الألفية الجديدة ما تم ملاحظته هو عودة معدلات النمو السكاني في الارتفاع الراجع إلى ارتفاع معدلات الإنجاب.

الشكل رقم 02: تطور نمو السكاني في الجزائر من 1966 إلى 2019.

Source : (ONS, rétrospectives statistiques 1970-2002, 2005, p2)



ONS, les données démographiques de l'Algérie des défères années.

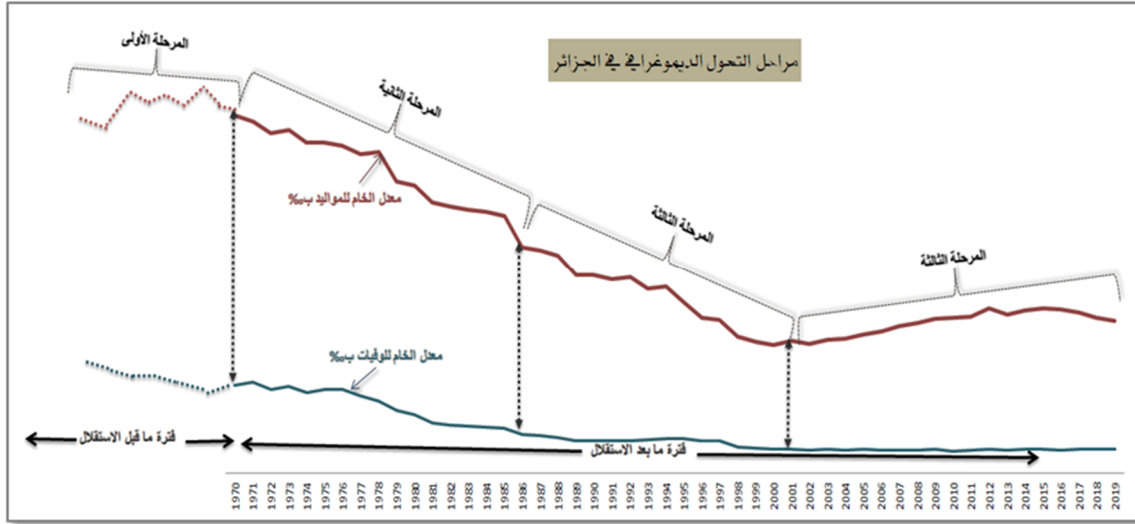
3.2 التحول الديموغرافي في الجزائر:

لقد ظهرت نظرية التحول الديموغرافي سنة 1929، ولم تكن صدفة وإنما ناتجة عن تغيرات ديموغرافية مرت بها معظم الدول الغربية مع بداية القرن 20، والهدف منها هو محاولة تعميمها على المجتمعات الأخرى وذلك بجعل النموذج الغربي هو النمط المثالي للمجتمعات الأخرى لتتبع ذلك المسار.

فالجزائر من بين البلدان التي عرفت تحولات كبيرة في مسار النمو الديموغرافي منذ بداية القرن 20 إلى يومنا هذا، والشكل التالي يمثل أهم المراحل الخاصة بالتحول الديموغرافي في الجزائر.

من خلال ملاحظتنا لهذا التمثيل البياني نرى أن تطور معدل الخام للولادات و الوفيات شهد تغيرات كبيرة، لهذا وحسب التمثيل البياني يمكن تقسيم التحول الديموغرافي في الجزائر إلى أربعة مراحل:

الشكل رقم 03: مراحل التحول الديموغرافي في الجزائر



المصدر: التمثيل البياني بناء على معطيات الديوان الوطني للإحصائيات.

● المرحلة الأولى: الممتدة من 1970-1901

حسب نظرية التحول الديموغرافي فقد تميزت هذه المرحلة بنظام ديموغرافي طبيعي أو ابتدائي، لأنها عرفت ارتفاعا في معدل المواليد ما بين 37.6% سنة 1901 و 50.16% سنة 1970 وهذا راجع إلى عدم استخدام موانع الحمل والزواج المبكر والأمية مما ينتج عنه ارتفاع الخصوبة، وأيضا ارتفاع معدل الوفيات ما بين 32.8% و 19.45% خلال نفس الفترة، وهذا بسبب الظروف القاسية التي عاشها السكان من تدهور المستوى المعيشي والصحي خلال فترة الاستعمار، إضافة إلى ضعف التغطية الصحية للسكان في الجزائر في السنوات الأولى للاستقلال، لهذا يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاث فترات:

✓ الفترة الأولى من 1901-1920 ما ميز هذه الفترة هو ارتفاع معدل الولادات والوفيات حيث كانا تقريبا على نفس المستوى، وهذا بنسبة محصورة ما بين (37.6% و 34.9%) بالنسبة للولادات أما الوفيات فكانت محصورة ما بين 32.8% و 31.4%، مما نتج عنه ضعف معدل النمو السكاني الذي كان محصورا ما بين 0.5% و 0.35%.

✓ الفترة الثانية من 1921-1945 لقد سجل فيها معدل النمو الطبيعي للسكان ارتفاعا طفيفا عن الفترة السابقة حيث كان محصورا ما بين 0.78% و 1.7%، ابتداء من 1921 عرف معدل الوفيات انخفاضا تدريجيا مع استمرار معدل الولادات في الارتفاع ما بين 37.2‰ و 42.9‰، و لكن مع نهاية الحرب العالمية الثانية سجل المعدل الخام للوفيات ارتفاعا كبيرا وصل إلى 43.1‰، وهذا راجع إلى ضحايا حرب التحرير (حوادث 8 مايو 1945)، إضافة إلى وباء الكوليرا الذي انتشر في تلك الفترة (DELEND, 2004, p. 178).

✓ الفترة الثالثة من 1946-1970 ابتداء من 1946 شهد معدل الوفيات انخفاضا تدريجيا في هذه الفترة ما بين 32‰ إلى 17‰، أما الولادات فقد شهدت ارتفاعا ملحوظا من 42‰ إلى 50‰ وهي أعلى قيمة شهدتها الجزائر، حيث أن الخصوبة بقيت طبيعية في هذه الفترة، أما معدل النمو الطبيعي فقد شهد ارتفاعا كبيرا بعدما كان يصل إلى 0.5% في بداية القرن و 1% سنة 1945، فقد ارتفع في هذه الفترة ليصل إلى 2.8% ما بين 1951-1955 ويفوق 3% بعد فترة الاستقلال.

● المرحلة الثانية: من 1971-1985

شهدت هذه المرحلة انخفاضا ملحوظا في معدل الوفيات من 16‰ سنة 1971 إلى 9‰ سنة 1985، وهذا بفضل تحسن المستوى المعيشي والصحي لسكان بفضل برامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية المنجزة في هذه الفترة، إضافة إلى أن الجزائر في فترة 80 بدأت في توسيع برنامج التحكم في النمو السكاني الذي يركز على الوقاية الصحية وذلك بتوفير اللقاح وحماية صحة الأم والطفل.

لكن الخصوبة بقيت عالية بحيث كان المعدل الخام للولادات يفوق 40‰، مما ينتج عنه ارتفاع في معدل النمو الطبيعي الذي كان يصل في هذه الفترة إلى 3‰، وما ميز هذه المرحلة هو أن وسائل منع الحمل كانت غير مستعملة بصفة كبيرة.

● المرحلة الثالثة: من 1986-2000

ما ميز هذه المرحلة هو انخفاض ملحوظ في المعدل الخام للولادات ابتداء من سنة 1986 حيث انخفض من 35‰ إلى 19‰ سنة 2000، وهذا راجع إلى تعميم سياسة تحديد النسل وذلك باستخدام موانع الحمل بحيث قدر معدل استخدام النساء في سن الإنجاب لموانع الحمل أكثر من 61% سنة 2006، بعدما كان يقدر بـ 8% سنة (statistiques, 2007) 1970 إضافة إلى تأخر سن الزواج بالنسبة لكلا الجنسين، فهذه المرحلة حسب نظرية التحول الديموغرافي تتميز بنظام حديث ينتشر فيه استخدام مختلف طرق منع الحمل.

● المرحلة الرابعة: من 2001- إلى يومنا هذا

نفترض وجود مرحلة رابعة ولكنها لا تختلف كثيرا عن المراحل الاخرى ,فقد شهدت هذه المرحلة ارتفاعا ملحوظا في المعدل الخام للولادات، فإذا ما قارنا عدد المواليد من الفترة 2001 إلى 2010 فإننا نجد تزايدا في المواليد ، فقد ارتفع العدد من 618380 مولود في سنة 2001 إلى 888000 مولود سنة 2010 بزيادة المقدرة ب 269620 مولود خلال هذه الفترة. و على الأرجح هذه الزيادة في عدد المواليد راجعة إلى زيادة في عدد الزيجات في الفترة مابين 2000 إلى 2010 حيث انتقلت من 177548 إلى 345000(ONS, 2010)، بزيادة مقدرة ب 3.74 نقطة بمعدل 64% خلال هذه الفترة، وربما ترجع أسباب هذه الزيادة إلى تحسن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كان لها تأثير في السلوك الديموغرافي للسكان.

ثالثا: التحولات في الهيكل العمري للسكان وأثرها على السياسات الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر

إن التغيرات المهمة التي شهدتها الجزائر في الهيكل العمري لسكانها سيكون لها آثار إنمائية كبيرة على المدى البعيد والقريب؛ ولا بد من تكييف السياسات الاقتصادية والاجتماعية مع هذه التحولات من خلال الاعتماد على أهم الاحتياجات التي قد تحتاج إليها كل فئة من الفئات العمرية للسكان والفرص المتاحة لها وأهم التحديات التي تواجهها.

1.3 التحديات الاقتصادية التي تواجه الجزائر:

إن التغيرات في الهيكل العمري الذي تشهده الجزائر والذي يرافق زيادة نسبة السكان في سن العمل، ينجر عنه مجموعة من الانعكاسات على مستوى الاقتصادي والتي تتمثل في البطالة، والتفاوت في الدخل والفقر، ومشكل الهجرة غير الشرعية، والضغط على النفقات العامة...إلخ.

لذلك لا بد من اعتماد سياسات ملائمة على مستوى الاقتصاد الكلي من أجل الاستفادة من التحول في الهيكل العمري للسكان، وذلك بتوظيفه في تحسين نمو الفرد من الدخل، وبالتالي في تحسين الأداء الاقتصادي وأداء الأسواق والمؤسسات، لذلك على الحكومة أن تراعي العوامل المتعلقة بالهيكل العمري عند صياغة السياسات الاقتصادية، بحيث تلبي هذه السياسات الاحتياجات الفعلية للسكان وخاصة ما يتعلق بسوق العمل الذي يرتبط ارتباطا مباشرا وغير مباشر بتحولات الهيكل العمري، خاصة وأن الجزائر كباقي البلدان العربية تشترك فيما بينها في مجموعة من الخصائص التي تتعلق بسوق العمل وأهمها: ارتفاع معدلات البطالة وتوسع القطاع الغير النظامي - الزيادة الهائلة في أعداد الشباب - ارتفاع نسبة التشغيل في

القطاع العام وتدني الإنتاجية-عدم المساواة بين الجنسين (الإسكو، 2014، ص19)، وقد عجزت السياسات المتبعة حاليا عن التعامل مع هذه المشاكل بل ساهمت أحيانا في تفاقمها، لذلك لا بد من تعزيز قدرة الدولة من الاستفادة من التحولات وفتح مجال لتوظيف هذه الطاقة البشرية الشابة على أحسن وجه فنسبة المشاركة الاقتصادية للفئة 15-64.

(2.3) التحديات الاجتماعية:

تساعد السياسات الاجتماعية الأفراد في الحفاظ على مستوى معيشتهم في حالات معينة مثل المرض والأمومة والعجز والشيخوخة والمخاطر التي قد تواجه سوق العمل كالبطالة، الأزمات الاقتصادية، الكوارث...ولهذه السياسات أهمية بالغة على المدى القريب والبعيد. إن التغير في الهيكل العمري في الجزائر يتطلب تقدير الاحتياجات والإمكانات الفئات العمرية المختلفة، وتقييم سبل التجاوب معها.

✓ **فئة الأطفال:** فئة الأطفال هي الفئة الأكثر حساسية تحتاج التكفل والعناية الكبيرة طوال هذه الفترة، وخاصة فيما يتعلق بتوفير الخدمات الصحية لهذه الفئة أثناء فترة الولادة، وزيادة التغطية الخاصة بالتلقيح ضد الأمراض السارية التي تصيب الأطفال وتوعية الأسرة بضرورتها وضرورة التغذية والمعاملة السليمة للطفل، إضافة إلى إلزامية التعليم لهذه الفئة، لأنه يعد من الأساسيات والحق الشرعي لضمان مستقبل الأجيال القادمة واستغلال قدراتها وإمكاناتها.

ولا تتحقق هذه السياسة الاجتماعية الموجهة لحماية فئة الأطفال بمعزل عن تحسين وضعية الأسرة كلها.

الجزائر تؤمن فرص التعليم ما قبل الجامعي بشكل مجاني، كما تقدم الخدمات الصحية الأساسية منها (التحصين، والتأمين الصحي للأطفال في سن الدراسة) ومنح إعانات للمعوزين، مما نتج عنها تخفيض معدلات وفيات الأطفال الرضع وقد أحرزت تقدما ملحوظا في تحسين فرص التعليم لفئة العمرية 6-14 سنة.

✓ **فئة الشباب:** تعد مرحلة الشباب مرحلة انتقالية في الحياة تشهد أحداثا ديموغرافية مكثفة؛ إذ ينتقل الأفراد في هذه المرحلة من المدرسة إلى الجامعة أو إلى سوق العمل، ويصبحون منتجين اقتصاديا بعد أن كانوا معالين، ويصبحون أرباب أسر بعد أن كانوا أفرادا منها، وتزخر هذه المرحلة بإمكانات ضخمة. وهذا الانتقال إذا نجح يكون من الأسس الصلبة للتنمية البشرية المستدامة على المدى البعيد وفي حال التعثر يعرض الشباب لعواقب مدى الحياة.

يجب تأمين الحماية الاجتماعية لهذه الفئة من أجل دعمهم في هذه المرحلة الانتقالية عبر تقديم خدمات تتعلق بجودة التعليم العالي، والتعليم والتدريب المهني والفني، والخدمات الصحية الكافية، بما في ذلك

خدمات الصحة الجنسية والإنجابية، وتقديم الدعم للعاطلين عن العمل والباحثين عن العمل لأول مرة. الجزائر مثلها مثل العديد من الدول العربية تشهد صعوبات في دعم الشباب وخاصة فيما يتعلق بتوفير مناصب الشغل، وصعوبات في توعية الشباب فيما يتعلق بالرعاية الجنسية والإنجابية، إضافة إلى أنها لم توفق في تحقيق التوازن بين مخرجات التعليم العالي وسوق العمل.

✓ **كبار السن:** من المحتمل أن تضع فئة كبار السن الدول العربية أمام تحديين رئيسيين في المستقبل، وهما القدرة على تمويل المعاشات التقاعدية وتأمين الخدمات الصحية، فاحتياجات كبار السن تتغير، والتقدم في قطاع الرعاية الصحية يتيح لهم إمكان عيش حياة أطول ملؤها النشاط والحيوية، وخلافا للفئات العمرية الصغرى كثيرا ما يصاب كبار السن بأمراض مزمنة غير المعدية مثل السكري، الربو، الضغط الدموي وأمراض القلب والشرابين، بينما المسنات فأكثرهن معرضات لهشاشة العظام وسرطان الثدي والسمنة وهذه الأمراض تؤثر بكثرة على قدرة كبار السن على العيش باستقلالية، لذلك ينبغي أن توفر نظم الخدمات الاجتماعية الدعم الصحي لكبار السن، إضافة إلى تأمين الدعم لمقدمي الرعاية، وتأمين فرص التعليم في أوساط المسنين الذين لم يتسن لهم الحصول على فرص الاستفادة من برامج محو الأمية.

رابعاً: دراسة استشرافية للحاجات المستقبلية للفئات العمرية الكبرى مع أفاق 2045

تهدف من خلال هذا المحور إلى استشراف الحاجيات المستقبلية للفئات العمرية الكبرى الرئيسة التي ستشهد تزايداً في المستقبل، ولا يتسنى لنا ذلك إلا بمعرفة التوقعات السكانية مع مطلع 2045 باستخدام الطريقة التركيبية التي تعتبر من أحسن الأساليب لتقدير عدد السكان على المدى البعيد وترتكز على التطورات في مركبات النمو السكاني (المواليد، الوفيات، الهجرة). معتمدين في ذلك على برنامج الطيف الديموغرافي (spectrum) للإسقاطات السكانية، وكما درج إليه الباحثون فنتائج الإسقاطات السكانية هي عامة، والتركيب العمري وحجم السكان خاصة يعد من الركائز الأساسية التي تعتمد عليها الخطط والبرامج التنموية في شتى المجالات الاقتصادية منها والاجتماعية والديموغرافية الهدف منها تحقيق مستوى معيشي لائق وتحسين الوضع الصحي وضمان التعليم والرفاهية للسكان كلهم.

1.4 مفهوم برنامج الطيف الديموغرافي Spectrum:

هو عبارة عن نظام مكون من مجموعة من النماذج مدمجة صممت لتحديد النتائج المستقبلية للسياسات وبرامج النمو الحالية وهو يخص بالأساس الميادين التالية:

- الديموغرافيا Demproj - تنظيم الأسرة Famplan - تكاليف وفوائد برامج تنظيم الأسرة
- Benefit-Cost - الآثار الاقتصادية والاجتماعية للزيادة السكانية Rapid.

2.4 تعريف نموذج Demproj:

هو عبارة عن برنامج شامل يستعمل لغرض إسقاطات السكان ويستعمل كأساس لإسقاطات البرامج

الأخرى الموجودة في Spectrum مثل Rapid و Famplan وغيرها، حيث يعتمد هذا البرنامج على إدخال مجموعة من المعطيات والفرضيات المتعلقة بالسكان التي تتمثل بالأساس في الولادات، والوفيات، والهجرة.

3.4 الفرضيات أو السيناريوهات المعتمد عليها في البرنامج:

وضعت بيانات الفرضيات المتعلقة بالخصوبة وأمل الحياة حسب السيناريوهات الثلاث للفترة الزمنية (2045-2018) على النحو التالي:

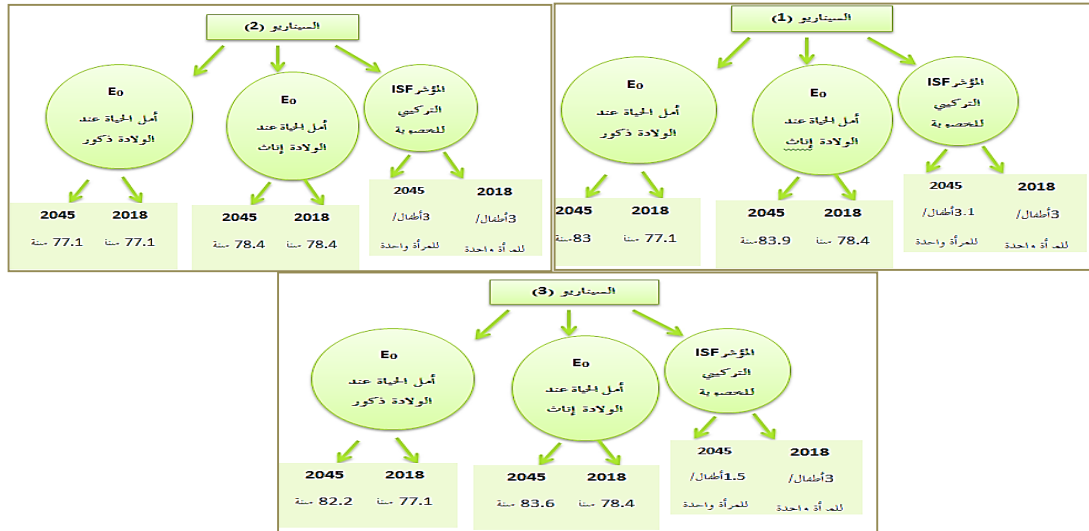
الفرضية الأولى (الخصوبة مرتفعة)، الفرضية الثانية (الخصوبة ثابتة أو متوسطة)، الفرضية الثالثة (الخصوبة منخفضة)، الهجرة معدومة في الفرضيات كلها.

نتائج الاسقاطات الديموغرافية للجزائر من 2045-2018

تختلف نتائج الاسقاطات باختلاف الفرضيات المتعلقة بالتطورات المستقبلية للخصوبة والعمر المتوقع للولادة.

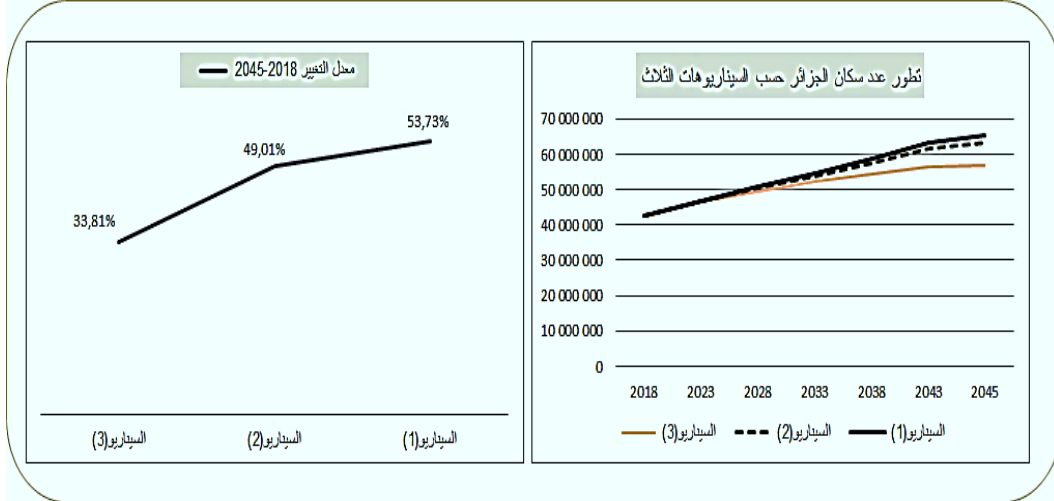
1. تطور المستقبلي لعدد السكان:

من خلال الشكل البياني رقم 04 المتعلق بالإسقاطات السكانية للجزائر من 2018 إلى 2045 حسب السيناريوهات الثلاث يتضح لنا أنه من المتوقع أن يرتفع حجم السكان من حوالي 42.6 مليون نسمة لعام 2018 إلى نحو 65.45 مليون نسمة لعام 2045 حسب السيناريو الأول لمعدل الخصوبة مرتفع



بنسبة تغيير مقدرة بـ 53.73%، و 63.45 مليون نسمة لعام 2045 وفقا للسيناريو الثالث للخصوبة بنسبة تغيير 49.01%، وحسب النتائج المتعلقة بالسيناريو المنخفض للخصوبة سيصبح إجمالي 57 مليون نسمة مع أفق 2045، أي بنسبة تغيير 33.1% بفارق 8.5 مليون نسمة تقريبا أقل من السيناريو (1) وحوالي 6.5 مليون نسمة أقل من السيناريو (2).

الشكل رقم 04: اسقاطات عدد سكان الجزائر من 201 إلى 2045 مع معدلات التغيير حسب السيناريوهات الثلاث.

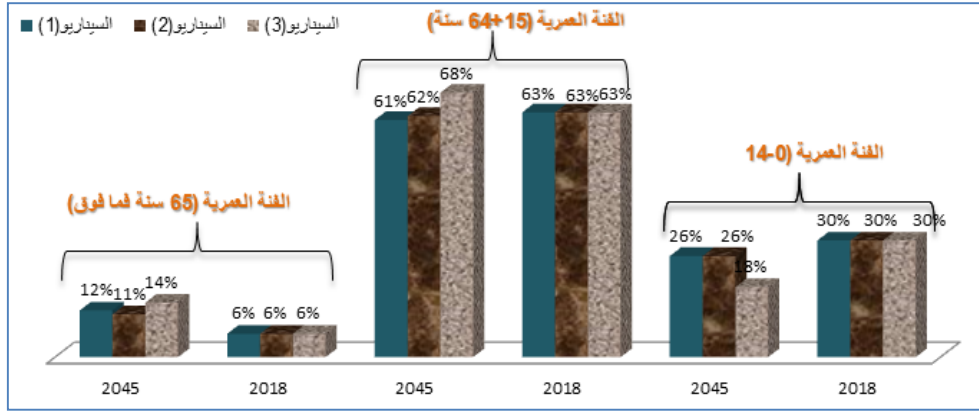


المصدر: مخرجات برنامج الطيف الديموغرافي

2. الهيكل العمري المستقبلي:

حسب المعطيات المتعلقة بالهيكل العمري للسكان في الجزائر التي أفرزتها نتائج الاسقاطات السكانية فإنه من المنتظر أن تطرأ تطورات ملموسة في الهيكل العمري للسكان مع أفق 2045، وتشير النتائج إلى أن العمر الوسيط سيرتفع في كل السيناريوهات من 28 سنة 2018 إلى 30 سنة مع 2045 حسب السيناريو (1) و(2) ومن 28 إلى 35 سنة حسب السيناريو (3) مما يعني أن الاتجاه العام للسكان أخذ في التعمير .

الشكل رقم 05: التوزيع النسبي للسكان حسب الفئات العمرية الكبرى من 2018-2045



المصدر: مخرجات برنامج الطيف الديموغرافي

حسب بيانات التوزيع النسبي للفئات العريضة في الجزائر فإن صغار السن 0-14 سنة قد شكلوا 30% سنة 2018 لتبدأ هذه النسبة في الانخفاض 26% مع أفق 2045 بالنسبة للسيناريو (1) و (2) ولا تتعدى 18% بالنسبة للسيناريو (3) وهو دليل على تقلص حجم هذه الفئة مستقبلا كما سينخفض معدل الإعالة الصغرى.

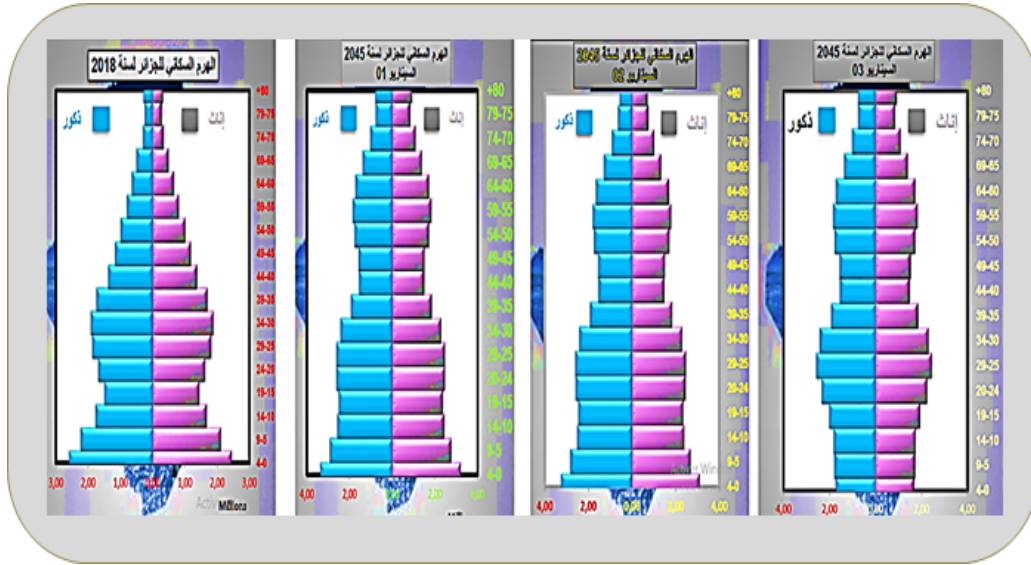
بالنسبة للفئة النشيطة 15-65 سنة ستعرف نوعا من الاستقرار بالنسبة للسيناريو (1) و (2) وارتفاعا بالنسبة للسيناريو (3) من 63% سنة 2018 إلى 68% مع عام 2045، كذلك ستشهد الفئة العمرية الكبرى 65+ ارتفاعا في كل السيناريوهات لانتقال أعداد كبيرة من السكان إلى الفئة المسنة، وهذا ما يطلق عليه بالتشيخ فارتفاع نسبة هذه الفئة سيتطلب الاستعداد لإعالتهم والتكفل باحتياجاتهم الصحية بشكل كبير.

3. الهرم السكاني:

الهرم السكاني هو تمثيل بياني يصمم ليعطي الصورة التفصيلية للتركيب العمري والنوعي لسكان في بلد ما، له شكل مسنن هو الذي أعطاه اسم الهرم، وهو يتألف من مدرجين تكرران يمثلان البنية السكانية حسب العمر والجنس، فقاعدة الهرم يمثل فيها عدد السكان، أما السلميان العموديان الموصولان بنصف المعلمين أين تعلم فيهما على التوالي أعداد الذكور و الإناث حسب الفئات العمر الممثلة في الهرم، وهو يرسم بأسلوب الأعمدة البيانية الأفقية نفسه لكل من الذكور والإناث، ويرسم بطريقتين على أساس نسبي أو على أساس الأرقام المطلقة.

يتأثر شكل الهرم السكاني بشكل كبير بارتفاع الوفيات وانخفاضها والخصوبة وحتى الهجرة، فنجد أن هناك أهرامات سكانية تتميز بقاعدة واسعة وهذا دليل على أن مجموعة السكان شابة، والعكس في حالة شيخوخة السكان (pressad, 1987, p204)

الشكل رقم 06: الإسقاطات الخاصة بالأهرامات السكانية من 2018-2045



المصدر: مخرجات برنامج الطيف الديموغرافي

إن نمط تطور سكان الجزائر وفق الفرضيات الثلاث للإسقاطات السكانية سينعكس بشكل واضح على شكل الهرم السكاني الذي سيتغير وفق بيانات سنة 2018 الذي يتميز بقاعدة هرمية عريضة إلى هرم مشابه للأهرامات الدول الأوروبية مع مطلع 2045 وهذا راجع إلى ارتفاع نسبة الفئة العمرية المسنة وانخفاض الفئة العمرية الصغرى.

5.4 التحليل الاستشرافي للنتائج الدراسة:

بناء على النتائج المتحصل عليها من عملية الإسقاطات السكانية للفترة الزمنية 2018-2045 عن طريق برنامج الطيف الديموغرافي Spectrum بحسب السيناريوهات المقترحة خلصت إلى ما يلي:

- انخفاض نسبة المعالين من صغار السن بسبب تقلص حجمها في جميع السيناريوهات وبالأخص السيناريو الخاص بانخفاض الخصوبة بحيث وصل الانخفاض إلى النصف تقريبا، من هنا على صناع القرار والهيئات المخولة للتخطيط والاستشراف بناء على هذه المعطيات المستقبلية توجيه قسط من الموارد أو

الاعتمادات المالية التي كانت موجهة لسد احتياجات هذه الفئة العمرية لخدمة الفئات العمرية الأخرى الأكثر حاجة بطريقة رشيدة.

- تزايد حجم فئة الشباب (15-30 سنة) لذلك ينبغي للحكومات تكثيف الجهود لوضع السياسات والاستراتيجيات التي تستهدف الشباب وتنفيذها، فالتمهيد للتنموي يجب أن يستفيد من فرصة تحسين نوعية التعليم، وتأمين فرص عمل منتجة للشباب، وتحسين تأهيل الشباب للانضمام إلى سوق العمل وبالتالي تحسن الانتاجية، وتحسين الخدمات الصحية للشباب والصحة الانجابية بشكل خاص.

- ارتفاع السكان في الفئة النشيطة اقتصاديا (15-64 سنة) لهذا لا بد من استحداث فرص العمل، وإصلاح سوق الشغل وإضفاء الطابع النظامي على الاقتصاد غير النظامي، الذي يسهم في زيادة الدخل والحد من فقر الأسر، وتحسين وضعية المرأة وتمكينها والارتقاء بمستواها، إلخ...

- تزايد أعداد كبار السن مما يتطلب في خطط التنمية بتزويدهم بالخدمات الصحية والتأمين الصحي وأنظمة المعاشات وتهيئة بيئية ملائمة للحياة لهذه الفئة.

الخاتمة:

ختاما لمداخلتنا هذه نقول بأن الاستثمار في رأس المال البشري مهما كانت فئته يعتبر من المهام الأساسية التي تقوم بها الحكومات من أجل تحقيق التنمية المستدامة، فالزيادات السنوية للسكان ليست أرقاما مجردة فهي تثير مخاوف حول القدرة الاستيعابية للاقتصاد الوطني، والقدرة على تلبية الحاجيات الأساسية للسكان وضمان عيشهم الكريم ورفاهيتهم.

إن التحول الديموغرافي التي تشهده الجزائر حاليا ومستقبلا يعتبر من أهم العوامل التي ستحدث انعكاسات على شتى المجالات وبالخصوص على مستوى التركيبة العمرية التي ستشهد تغيرات هامة بانخفاض فئة صغار السن وارتفاع فئة كبار السن ومن هنا سيكون اتجاه المجتمع الجزائري من الفتوة إلى الشيخوخة، الأمر الذي يتطلب من صناع القرار والمخططين التحضير الأمثل لتفادي الوقوع في الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، بتحديد الحاجيات المستقبلية من جهة وسدها من جهة أخرى بالتوازي مع نسب تطور كل فئة عمرية، ويستوجب أيضا ان تكون هناك نقلة نوعية في البرامج الصحية، وشبكة التأمين الاجتماعي وتطوير نظم التقاعد لاستيعاب كبار السن بجميع أطيافهم وتلبية احتياجاتهم بصورة أفضل.

المصادر والمراجع:

(1) الإسكو، م، (2014) تقرير السكان والتنمية "أثر التحولات في الهيكل العمري على السياسات التنموية في البلدان العربي" بيروت لبنان :ساحة الرياض.

(2) دباغين، ج. م. (2020) محاضرات مدخل إلى الديموغرافيا . Récupéré sur : <https://cte.univ-setif2.dz/moodle/mod/book/view.php?id=17093&chapterid=4481> دباغين

سطينف

(3) الدولي، م. ا. (2010). مقدمة في علم السكان وتطبيقاته. مصر.

(4) ريم، ب. ز. (2012). العلاقة المتبادلة بين النمو السكاني والتنمية الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر. وهران: معهد الديموغرافيا جامعة وهران. 2

(5) للإحصاء، ا. ا. (2016). منهجية الاسقاطات السكانية. الرياض السعودية: هيئة العامة للإحصاء.

(6) للتخطيط، ا. ا. (s.d.). تحليل الاسقاطات السكانية المستقبلية على بعض المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية باستخدام برمجية spectrum. الكويت: المعهد العربي للتخطيط.

(7) المتحدة، ص. ا. (2017). تحليل حالة سكان العالم دليل مفاهيمي ومنهجي. نيويورك: الشعبة التقنية للأمم المتحدة.

- 1) DELEND, A. (2004). Le role des developpements sociaux economiques dans le changements de comportement démographique. oran: université d'oran.
- 2) mourchid, i. (2015). the demographic gift in the Arab World"a blessing or a tim Bomb for Moroco". review omran, 56.
- 3) ONS. (1999). rétrospectives statistiques 19701996. ALGER: ONS.
- 4) ONS. (2005). rétrospectives statistiques 1970-2002. ALGER: ONS.
- 5) ONS. (2008). collection statistique N°142. ALGER: ONS.
- 6) ONS. (2010). démographie Algérienne . Alger: ONS.
- 7) ONS. (2018). démographie Algérienne N°853. Alger: ONS.
- 8) pressad, r. (1987). dictionnaire démographique. paris: PUF.
- 9) statistiques, o. n. (2007). enquete national a l'indicateurs muktiples MICS3 Algérie. Alger: ONS.

تدهور التربة حسب نموذج (RUSLE) في حوض وادي كالاني

Estimating soil degradation of RUSLEmodel in Kelani Basin

م.د. أحمد كاظم عباس

د. وفاء مازن عبد الله

وزارة التربة، مديرية تربية الكرخ 3 م

Dr. Ahmed Kazim Abaas

Dr.Wafaa Mazen Abdallh

Ahmedkazim829@gmail.com

fofa38792@gmail.com

الملخص:

يعد تدهور التربة من المشاكل البيئية الخطيرة في جميع أنحاء العالم، ذلك لما لها من تأثير سلبي على الكتلة الحيوية والغطاء النباتي؛ إذ يهدف البحث إلى تقدير المعدل السنوي للتعرية المائية في منطقة الدراسة من خلال المعطيات المناخية وخصائص الانحدار والتربة والتدفق والاستعمال الأرضي باستخدام معادلة (RUSLE) الخاصة بذلك، تم خلال الدراسة اعتماد النموذج model ذات العلاقة بحساب التعرية المائية وتطبيقها على حوض كالاني الذي يقع في محافظة السليمانية ضمن إقليم كردستان شمال العراق بين دائرتي عرض (35°25'58.0" - 35°35'09.0") شمالاً وخطي طول (45°41'25.0" - 37°0'37.0") شرقاً ويبلغ مساحة (139.01 كم²)، وأظهرت نتائج الدراسة أن التوزيع المكاني لعامل (R) كانت أعلاها في الجنوب الشرقي من حوض الوادي حيث تصل إلى (1069.64 ملم) وتبدأ بالتناقص باتجاه الشمال والشمال الغربي حتى تصل إلى (403.33) ملم؛ إذ يعد عامل (R) إلى جانب عامل (LS) (الذي يتأثر بانحدار منطقة البحث) من أهم المتغيرات في نموذج (RUSLE)، وأما عند تطبيق النموذج توصلت الدراسة

إلى الكشف عن مناطق الترب المتدهورة وحساب مساحتها وتحديد مناطق الانجراف والتدهور على مستوى الوحدات الصغيرة من التربة، ووجد أن حوض كالاني ضمن التصنيف الخفيف في أغلب أجزائه و(بنسبة 93.43%)، إلا أنه ظهرت مناطق تعاني من تدهور أراضي شديد وشديد جداً متأثرة بعامل الأمطار والانحدار بشكل خاص.

الكلمات المفتاحية: (التعرية المائية، نموذج **RUSLE** ، انجراف التربة، طول المنحدر، إدارة محاصيل التربة)

Abstract::

Soil degradation is one of the serious environmental problems around the world, due to its negative impact on biomass and vegetation cover, as the research aims to estimate the annual rate of water erosion in the study area through climatic data and the characteristics of slope, soil, flow and land use using the (RUSLE) equation. For this purpose, during the study, the model related to the calculation of water erosion was adopted and applied to the Kalani Basin, which is located in the Sulaymaniyah Governorate, in the Kurdistan region of northern Iraq, between two latitude circles (0. Length (25.045 ° 4137.0 ° 45.51 °) east, and area (139.01 km²), The results of the study showed that the spatial distribution of the factor (R) was highest in the southeast of the valley basin, reaching 1069.64 mm, and it began to decrease towards the north and northwest until it reached (403.33) mm, as the factor (R) is in addition to the factor (LS). (Which is affected by the slope of the research area) is one of the most important variables in the (RUSLE) model, and when applying the model, the study found the detection of areas of degraded soils and calculating their area and determining areas of erosion and degradation at the level of small units of soil, and it was found that the clan basin is within the light classification in Most of its parts (by 93.43%), however, areas appeared that suffer from severe and very severe land degradation affected by the rain and slope factor in particular.

KeyWords: (WaterErosion, RusleModel ,Soil Erosion, Slope Length, Land Cover And Crop Management Factor)

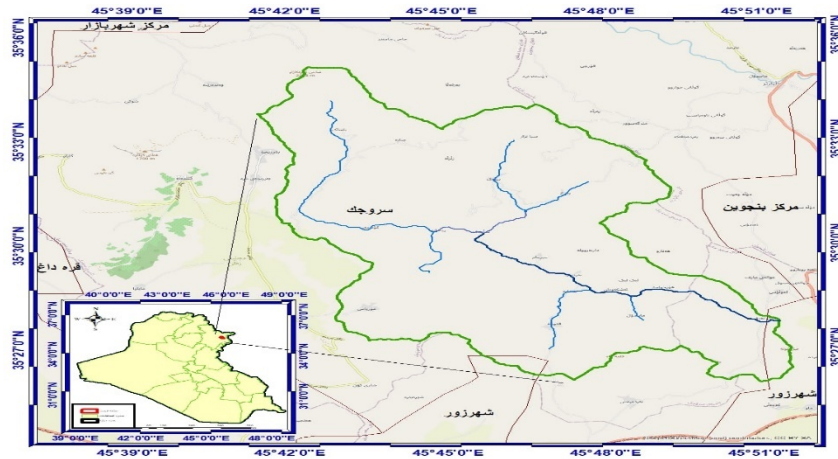
المقدمة:

نال موضوع قياس معدلات انجراف التربة وتحديد مساحتها اهتمام الجيومورفولوجين والمختصين بعلوم التربة والزراعة والهندسة، لما له من نتائج ومشاكل بيئية كالتصحر وتراجع الإنتاج الزراعي والتلوث الرسوبي وتعطيل مشاريع الري مثل الأقنية والسدود.

وتشكل الأرض Terrain مورداً طبيعياً مهماً وما عليها من التربة و مصادر الماء و النبات الطبيعي، والأشكال الأرضية والمواد الصخرية إضافة إلى المناخ ، العناصر الأساسية في المركب الأرضي والعوامل المحددة لخصائصه. لذا قبل إعداد أي مشروع تنموي أو تطويري للأرض لا بد من تحليل الأراضي ومعرفة خصائصها، ومعرفة الأخطار الجيومورفولوجية مثل: إنجراف التربة والانزلاقات الأرضية واستقرارية السفوح وغيرها، والتي تؤثر على أنشطة الإنسان واستعمالات الأراضي، مما سيكون له أثر في إدارة الأراضي وتحقيق التنمية المستدامة.

تعد مشكلة الإنجراف من مظاهر التدهور التي يتعرض لها أي جزء من التربة، لذا عمد الباحثان إلى دراسة هذه المشكلة بالتفصيل للتعرف على أثر عوامل المناخ والطبوغرافيا والغطاء النباتي في انجراف التربة وتدهورها في منطقة البحث؛ إذ يقع حوض وادي كلايني في محافظة السليمانية في شمالي العراق خريطة (1) بين دائرتي عرض (35°25'58.0" - 35°35'09.0") شمالاً وخطي طول (45°41'25.0" - 45°51'37.0") شرقاً إذ يبلغ مساحة (139.01 كم²) ضمن الحدود الإدارية لناحية (سروجك) في الجزء الغربي من محافظة السليمانية.

خريطة (1) موقع منطقة البحث



المصدر : اعتماد: 1-وزارة الموارد المائية, الهيئة العامة للمساحة , خريطة العراق الادارية , بمقياس

1:1000000 , بغداد, 2006. 2- استعمال برنامج(arc map).

صيغت إشكالية البحث من خلال التساؤل الآتي: (كيف تتوزع عملية التعرية وتدهور الأرض في حوض وادي كلايني حسب نموذج (RUSLE) ؟ وما هو مدى التدهور في أجزاء الحوض)، ومن ثم جاءت الإجابة عن مشكلة البحث كفرضية له: تتوزع عملية التعرية وتدهور الأراضي طردياً مع الانحدارات العالية في داخل حدود الحوض، فكلما زاد الانحدار زاد معه خطر تعرية التربة وتدهورت الأراضي عنده، كما تتأثر التعرية حسب نموذج (RUSLE) بالفعاليات البشرية الموجودة في منطقة البحث من ناحية صيانة التربة وحمايتها وإدارتها فضلاً

عن عمليات التسميد والحفاظة على الغطاء النباتي إلى جانب بعض الخصائص الطبيعية كقابلية التربة أصلاً على التعرية.

اعتمد الباحثان منهجين رئيسين من مناهج الجغرافية؛ وهما المنهج الوصفي (الذي عني بدراسة الخصائص الطبيعية) والمنهج الكمي (الذي عالج الحسابات والأرقام التي يحتويها نموذج روسل)، وقد جاءت هذه الدراسة لتطبيق نموذج (RUSLE) ومطابقته مع خرائط التربة واستعمالات الأراضي الزراعية باستخدام تطبيقات نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد

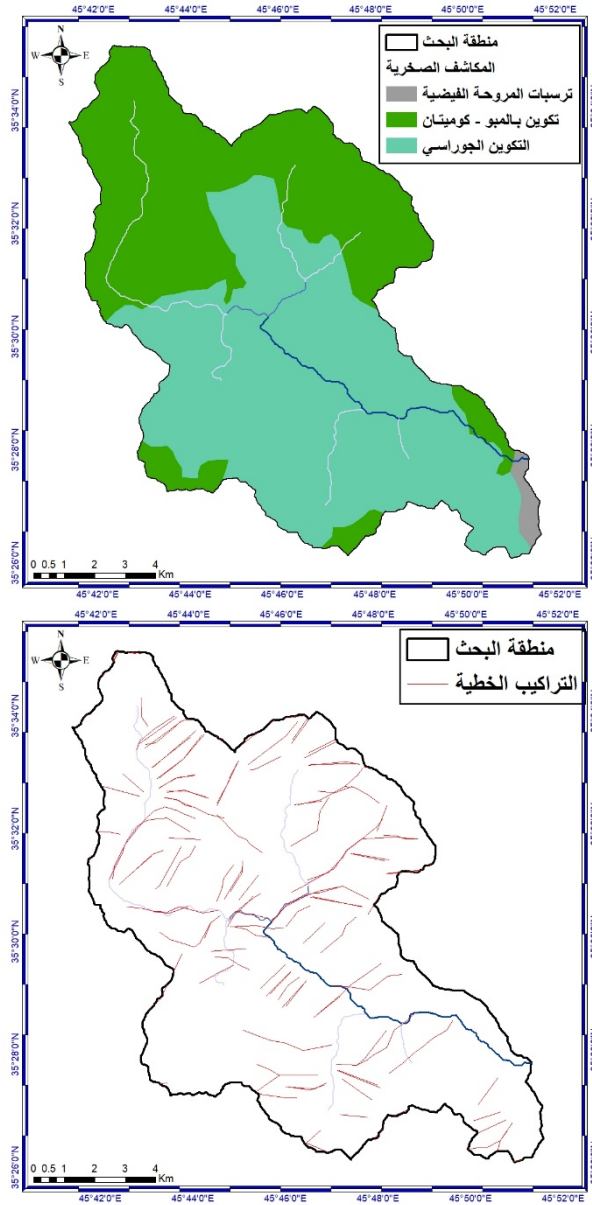
وجاءت الدراسة لعدد من الأسباب؛ إذ تتعرض منطقة الدراسة لمشكلات جيومورفولوجية في الحوض مثل انجراف التربة، وعدم وجود دراسة لتقدير معدل انجراف التربة بفعل المطر لمنطقة حوض وادي كلاني، فضلاً عن الحاجة إلى إجراء دراسات تفصيلية وتطبيقية لمنطقة الدراسة للكشف عن المشاكل الجيومورفية التي تعاني منها أراضي الحوض؛ إذ تساعد هذه الدراسة على تفادي الأخطار الناتجة عن انجراف التربة التي تهدد مستقبل الأراضي في الحوض أو التخفيف من حدتها؛ إذ كان الهدف العام من هذه الدراسة تصنيف الأراضي في حوض وادي كلاني في محافظة السليمانية تبعاً لدرجات الانجراف وحسب خصائصها الجيومورفولوجية والجيولوجية والهيدرولوجية والمناخية وغطائها الأرضي، وتمثيلها على خرائط خاصة باستخدام برنامج (Arcgis) ونموذج الارتفاع الرقمي (DEM) ومرئية القمر الصناعي Landsat 8 OLI.

أولاً: الخصائص الطبيعية لمنطقة الدراسة

تتنوع الخصائص الطبيعية في حوض وادي كلاني تبعاً لتباين التضرس والحدار فيه، فضلاً عن الخصائص المناخية وما يتبعها من تنوع الترب والنبات الطبيعي؛ إذ تظهر المكاشف الصخرية لتكوينات العصر الميزوري، حيث تشكل تكوينات الجوارسي وتكوين (بالمبو - كوميتان) (أغلب مساحة منطقة البحث) 57% الأول و41% الثاني، وهي تتكون من صخور الدولومايت، وحجر الكلس، والحجر الطيني، وهي تكوينات مقاومة أو متوسطة المقاومة، فضلاً عن وجود ترسبات للمروحة الفيضية (الزمن الرابع) عند الجنوب الشرقي للحوض قرب المصب (خريطة 2) والتي تتكون من شطايا الصخور والحصى، الرمل والطين).

خريطة (2) المكاشف الصخرية لمنطقة البحث.

خريطة (3) التراكيب الخطية لمنطقة البحث.



المصدر : باعتماد

1. Khaldoun A. Maala , geological map of sulaimaniyah quadrangle sheet ni – 383, geosurv , Baghdad , 2008.

2- برنامج PCI Geomatica, 2016 وبرنامج rokeworks 16 وصور landsat 8,b4,5,7 بتاريخ 31/10/2019.

3- باستعمال برنامج Arc Map

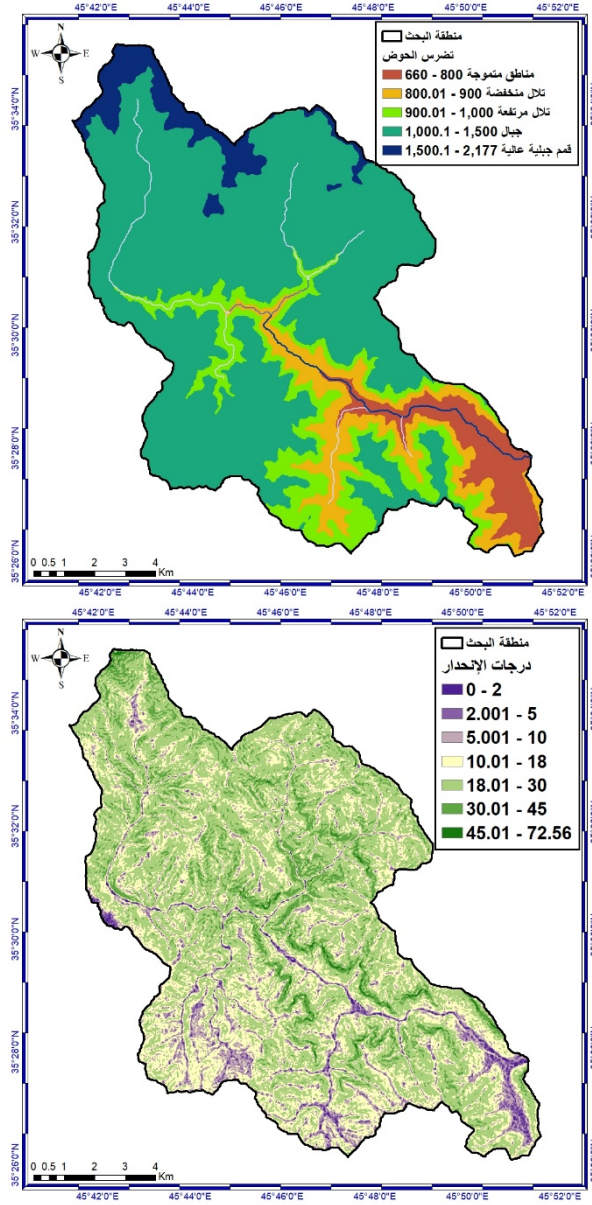
أما التراكيب الخطية والتي يقصد بها الفواصل والصدوع الرئيسة والثانوية المنتشرة في منطقة الدراسة، والتي تؤثر مباشرة في امتداد الوديان في المنطقة، وغالباً ما تكون بسيطة أو مركبة، يمكن رسمها على شكل خطوط مستقيمة أو منحنية قليلاً، وهي تعكس أحداث جيولوجية موجودة تحت سطح الأرض (العزاوي، 2008، ص 32)؛ إذ يحتوي حوض وادي كلاني مجموعة من الخطوط بلغت (133) تركيباً خطياً، يتراوح طول هذه التراكيب من (11.49 م) إلى (3246.94 م) غالباً ما يكون اتجاهها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي (خريطة 3)، وكلما كان التكوين مفككاً أو ذا شقوق وفواصل كثيرة كلما قل الجريان السطحي فوقه وتسربت المياه للطبقة الجوفية.

وبالنسبة لتضاريس الحوض فيتباين تضرس حوض وادي كلاني تبايناً واضحاً خريطة (4) فهو يحتوي على خمسة أنطقه لارتفاعات (مناطق متموجة، تلال منخفضة، تلال مرتفعة، جبال، قمم جبلية عالية) ويبلغ تضرس الحوض (1517 م)، يختلف في الارتفاع بين (2177 م) عند جبال كوره كازاو شمال الحوض و(660 م) عند مصبه، أما بالنسبة لخصائص انحدار منطقة البحث فيتبع تباينها اختلاف الخصائص الجيولوجية والخصائص التضاريسية في المنطقة، حيث تم تقسيم الانحدارات في حوض وادي كلاني حسب تصنيف (Young) لسنة 1975 الذي يشمل (الانحدار المستوي 0 - 2)، (بسيط الانحدار 2.1-5)، (الانحدار خفيف 5.1-10)، (معتدل الانحدار 10.1-18)، (شديد الانحدار 18.1-30)، (شديد جداً 30.1-45)، (الوجه الحر أكثر من 45)، ويسود في الحوض الانحدار المعتدل والشديد اللذين شكلاً أغلب مساحة منطقة البحث (خريطة 5)، ويستفاد من دراسة التضرس والانحدار في أن الأول يعكس تنوع التضاريس في منطقة البحث وتعقيد سطح الحوض، فيما يعكس الثاني وضع العمليات الجيومورفولوجية في الحوض وسرعة معدلاتها؛ إذ كلما زاد الانحدار كلما زاد نشاط العمليات الجيومورفولوجية ومن ضمنها عمليات التعرية المائية التي تتأثر بزيادة سرعة المياه المنحدرة من المنابع.

يسود في حوض وادي كلاني المناخ المعتدل نسبياً؛ إذ يبلغ معدل درجات الحرارة السنوية فيه (17.23) درجة كأعلى معدل عند جنوب غرب الحوض، فيما كان المعدل الأقل (14.99) درجة عند شماله الشرقي (خريطة 6) وقد أنتجت طبقة معدل درجة الحرارة باعتماد بيانات خمس محطات؛ هي: (السليمانية، دربنديخان، حلبجة، جوارتا، بنجوين) (جدول 1).

خريطة (4) تضرس منطقة البحث.

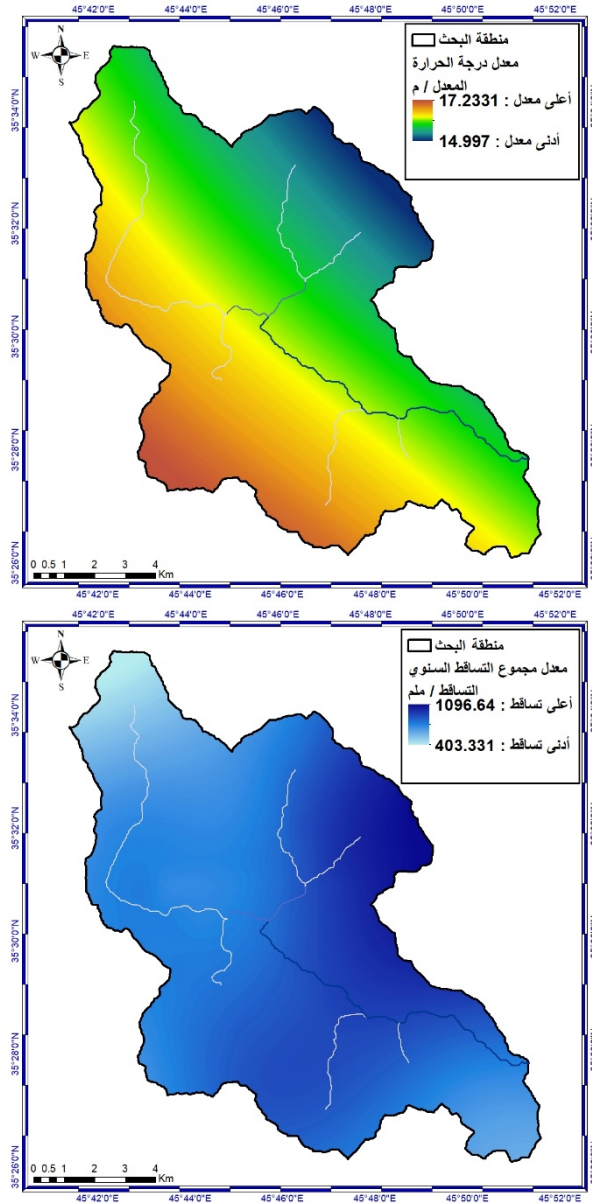
خريطة (5) انحدار منطقة البحث.



المصدر : باعتماد برنامج (Map Arc) ونموذج الارتفاع الرقمي (DEM).

خريطة (6) معدل درجة الحرارة / م.

خريطة (7) معدل مجموع التساقط السنوي / ملم.



المصدر: باعتماد 1. إقليم كردستان العراق، وزارة النقل والمواصلات، الهيئة العامة لأنواء الجوية والرصد الزلزالي، قسم المناخ، بيانات عناصر المناخ، بيانات (غير منشورة) السليمانية، درنديخان، حلبجة، جوارتا، بنجوين. 2- بيانات (TRMM) 3- برنامج Arc Map.

تم الحصول على خرائط المناخ باستخدام إيعاز Spline داخل بيئة نظم المعلومات الجغرافية (10.8 Arcgis) وقد تم اللجوء لهذه الطريقة حتى يتم تمثيل الظاهرة بشكل أكثر دقة وذلك بسبب تضرس المنطقة واختلاف درجات الحرارة بين السهل والوادي وقمة الجبل، وهو سبب لعدم إمكان تمثيل المنطقة بالبيانات المناخية لمحة واحدة فقط.

جدول (1) درجة الحرارة في المحطات المناخية المعتمدة

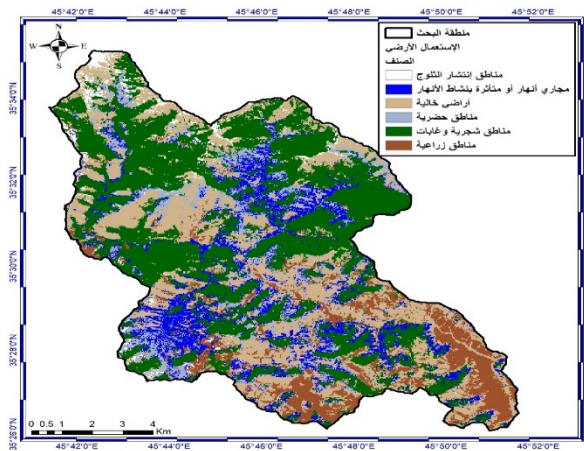
المحطة	السليمانية	دريندخان	حلبجة	جوارتا	بنجوين
درجة الحرارة	19.32	19.72	21.29	16.3	12.2

المصدر : بإعتماد إقليم كردستان العراق، وزارة النقل والمواصلات، الهيئة العامة الأنواء الجوية والرصد الزلزالي، قسم المناخ ، بيانات عناصر المناخ، بيانات (غير منشورة) السليمانية ، دريندخان ، حلبجة ، جوارتا ، بنجوين.

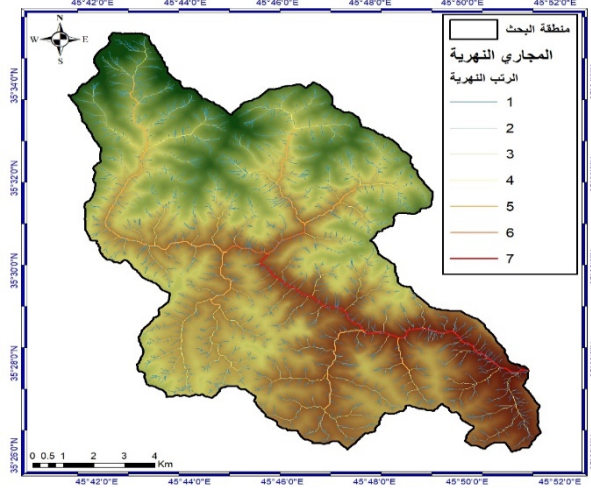
أما بيانات الأمطار فيمكن الاستفادة من بيانات (TRMM) الفضائية التي توفرها (NASA) بالتعاون مع الوكالة اليابانية استكشاف الفضاء الجوي (JAXA) وتبعاً لهذه البيانات، فإن منطقة البحث تتراوح فيها معادلات تجميع الأمطار السنوية من منطقة إلى أخرى؛ إذ كان المعدل السنوي (1096.64 ملم) في الجزء الشمالي الشرقي من الحوض كأعلى معدل تجميع داخل حدود منطقة البحث، فيما كان أقل معدل (403.33) ملم في أقصى شمال الحوض (خريطة 7) وتعد طبقة الأمطار من أهم الطبقات التي ستؤثر بشكل واضح في عملية التعرية المائية بحسب (RUSLE Model).

خريطة (8) شبكة المجاري النهرية.

خريطة (9) الاستعمال الأرضي في منطقة البحث.



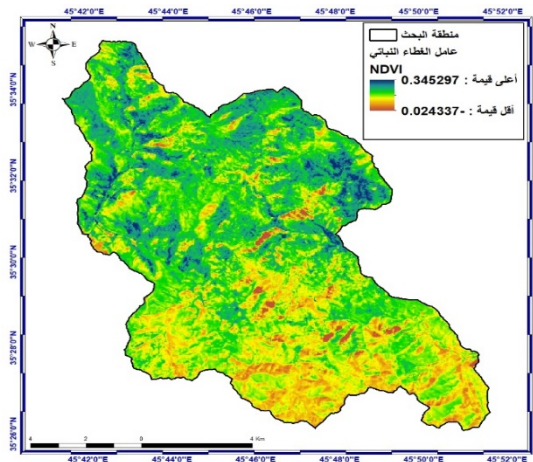
+++



المصدر : باعتماد برنامج (Map Arc) ونموذج الارتفاع الرقمي (DEM.)

ويتميز حوض وادي كلايني بشبكة تكون المرتبة السابعة أقصى رتبها النهرية (خريطة 8)؛ إذ تكون المياه الساقطة من الأمطار والتي لا تستطيع الأرض امتصاصها مجاري مائية طبيعية، ومن ثم تمثل هذه المجاري ميدان عمل التعرية المطرية الرئيس؛ إذ كلما كانت المياه المتجمعة في القناة المائية أكثر كلما زادت قيم التعرية الناتجة عنها، وتزداد كمية المياه الجارية في القناة المائية حسب زيادة رتبة هذه القناة وحسب تصنيف (ستريلر) (Strahler, 1960 , p. 376).

(في منطقة البحث. NDVI خريطة (10) عامل الغطاء النباتي)



المصدر : باعتماد المرئية الفضائية للقمر الصناعي (Landsat 8 OLI) بتاريخ (2019/11/16).

تم تصنيف المرئية الفضائية للقمر الصناعي (Landsat 8 OLI) بتاريخ (2019/11/16) تصنيفاً موجهها لغرض معرفة خصائص الاستعمال الأرضي وعامل الغطاء النباتي (NDVI)، فوجد الباحثان أن الاستعمال الأرضي في منطقة البحث على ستة أصناف؛ هي: (مناطق انتشار الثلوج، مجاري أنهار أو مناطق متأثرة بنشاط الأنهار، أرض خالية، مناطق حضرية، مناطق شجرية وغابات، مناطق زراعية) (خريطة 9)، فيما تميز مؤشر (NDVI) الغطاء النباتي بتواجده في مناطق الأودية والمرتفعات الجبلية عند الأجزاء الشمالية للحوض (خريطة 10)، وتعد هاتان الخريطتان من مدخلات نموذج (RUSLE) المهمة.

ثانياً: عملية انجراف التربة وتدهور الأراضي

يعرف الانجراف بأنه انفصال مواد التربة وانتقالها بفعل عوامل النحت والنقل (الرياح والأمطار) مما يؤدي إلى ترسيبها في أماكن أخرى وتشكيل ترب جديدة، ومن ثم كشف وتعرية الترب وتدهور الأراضي، مما يؤثر في استخدامات الأراضي وإضعاف موارد المياه وتجمعات المياه خاصة في أحواض المنطقة؛ إذ تفاقمت مشكلة فقد التربة في وقتنا الحالي، وانجراف التربة المائي من المشاكل الكبرى التي تواجهها التربة.

استخدمت نماذج عديدة لتقييم خطورة الانجراف في مناطق الأحواض المائية تراوحت بين البسيط أو المعقد؛ ومنها: (فورنية - ارنولدس I-A-F) وإيضاً (Chabli 2016) وغيرها وكذلك تباينت المعادلات من حيث البيانات اللازمة وقدرتها على التنبؤ بفقد التربة، حيث كانت هذه المعادلة العالمية لفقد التربة وما زالت أحد أهم النماذج التطبيقية التي استخدمت في تقدير كميات التربة المفقودة بالانجراف المائي، لأن مفردات هذه المعادلة مستقلة.

ومن العوامل الرئيسة التي تؤثر في الانجراف (عامل الحت المطري - عامل حماية التربة - الغطاء النباتي) وفيما يلي شرح نموذج المعادلة العالمية لانجراف التربة (RUSLE):

Revised Universal Soil Loss Equation

يعد نموذج **RUSLE** نموذجاً رياضياً يتكون من عدد من العوامل والمتغيرات، استخدم لتقييم المواقع لأغراض التخطيط والمساعدة في عملية اتخاذ القرار، واختيار التدابير اللازمة للسيطرة على انجراف التربة، طبق هذا النموذج من خلال أدوات نظم المعلومات الجغرافية واستخراج قيم العوامل والمتغيرات وفق المعادلة. وتوجد العديد من المتغيرات ذات الأهمية بتطبيق النموذج وأهمها المناخ وتتمثل بشكل رئيس في: عامل المطر وشدةه وكمياته، التربة ونفاذيتها، الطوبوغرافيا (طول وشدة المنحدر) وأعمال المحافظة على التربة واستعمالات الأرض

والغطاء النباتي وقد جمعت هذه المحددات ضمن نموذج واحد، وأخذ شكل العلاقات الرياضية الآتية: وفيما يلي شرح المعادلة العالمية لانجراف التربة (RUSLE) (Yi- Hsin, Bor-Shiun,, 2018, P. 2):

$$A = R K L S C P$$

حيث إن:

A = المعدل السنوي لفقد التربة (طن/ هكتار/ سنة)، **R** = عامل تعرية المطر، **K** = عامل قابلية التربة لتعرية، **LS** = عامل الطبوغرافيا، **C** = عامل الغطاء النباتي، **P** = عامل حماية التربة.

1- عامل تعرية المطر: (R) Rain Fall Erosivity Factor:

يعد عامل تعرية المطر العامل المناخي الذي يشكل مدخلا رئيساً في عملية انجراف التربة، تم حسابه من خلال اشتقاق معدلات الأمطار بالاستعانة ببيانات (TRMM) الفضائية، وتبعاً لهذه البيانات، فإن منطقة البحث تتراوح فيها معدلات تجميع الأمطار السنوية من منطقة إلى أخرى، خريطة (7) توضح التوزيع المكاني لعامل (R)، حيث يلاحظ أن أعلى قيم (R) كانت في الجنوب الشرقي من حوض الوادي؛ إذ تصل إلى (1069.64 ملم) وتبدأ بالتناقص باتجاه الشمال والشمال الغربي حتى تصل إلى (403.33) ملم في حوض وادي كلايني.

2- عامل الطبوغرافيا : (LS) Topographey Factor :

يعتمد عامل الطبوغرافيا على متغير طول الانحدار ومتغير شدة الانحدار، وباعتماد نموذج الارتفاع الرقمي (Digital Elavation Model) تم استخراج حوض منطقة البحث خريطة (11)، ويمكن حسابها وفق المعادلة الآتية (Ramesh ,Ganasri2015):

$$LS = \left(\frac{AS}{2.13} \right)^M (\sin \beta / 0.0896)^N$$

LS = عامل الطبوغرافيا. AS = مساحة الاحواض المختارة. B = زاوية الانحدار. M = طول الانحدار N, = شدة الانحدار.

وزع هذا العامل على أراضي الحوض بشكل يتلاءم مع شدة الانحدار فيه، حيث يلاحظ ارتفاع قيمة العامل LS في الجهات الوسطى من الحوض بسبب وجود قمم الجبال العالية ذات نسبة الانحدار المرتفعة (أكثر من 45 درجة)، وكلما زاد الانحدار زادت معه قيمة هذا العامل (خريطة 11).

3- عامل قابلية التربة لتعرية Soil Erodibility Factor:

يعتمد عامل قابلية التربة للتعرية Factor K على الخصائص الفيزيائية للتربة، والتي تتضمن نفاذية التربة Permeability Soil وبناء التربة Structure Soil وبالاعتماد على النسبة المئوية للطين Clay والسلت Silt Matter Organic والرمل الناعم جدا Sand Fine Very والمادة العضوية تم حساب هذا العامل من المعادلة التالية (Ramesh Ganasri, 2015):

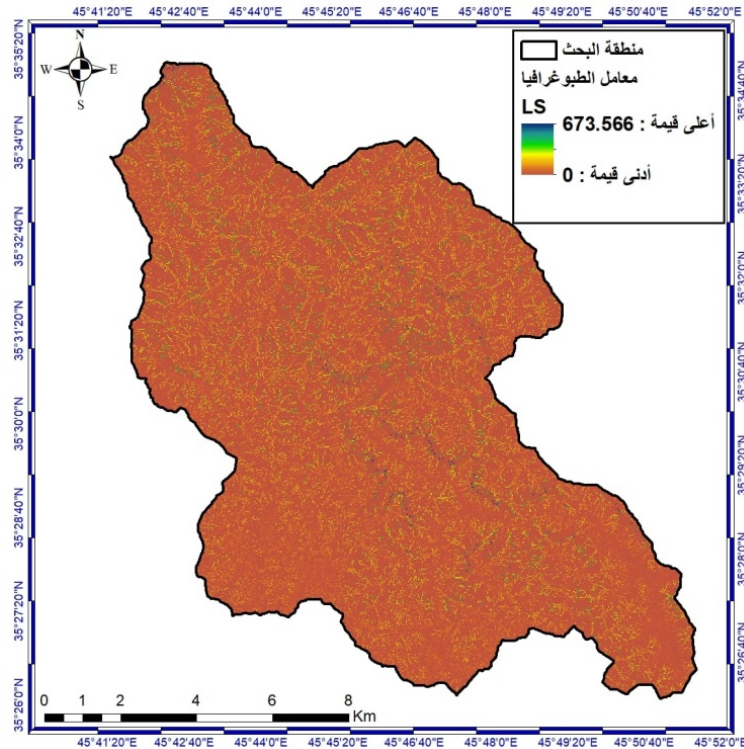
$$K = 27.66 \times M^{1.14} \times 10^{-8} \times (12 - a) + (0.0043) + (0.0033 \times (c - 3))$$

$$M = \text{الطين (\%)} + \text{رمل ناعم (\%)} \times (100 - \text{الطين (\%)})$$

$$a = \text{المواد العضوية (\%)} = C = \text{النفاذية.}$$

طبقت هذه المعادلة بالاعتماد على بيانات التربة في خريطة (8) وبيانات المسح الميداني التي خزنت على شكل قاعدة بيانات رقمية Base Date Digital ضمن برنامج Arc 10.3 map، ثم اشتقت خارطة عامل قابلية التربة على الانجراف Factor K كما هو واضح في خريطة (12).

لمنطقة الدراسة (LS) خريطة (11) التوزيع المكاني لمعامل الطبوغرافيا (طول المنحدر



المصدر : باعتماد معادلة معامل الطبوغرافية (LS) وبيانات خريطة (5) واستخدام برنامج نظم المعلومات الجغرافية (Arcgis,10.8).

4- عامل الغطاء النباتي والإدارة البيئية: Cover Management Factor

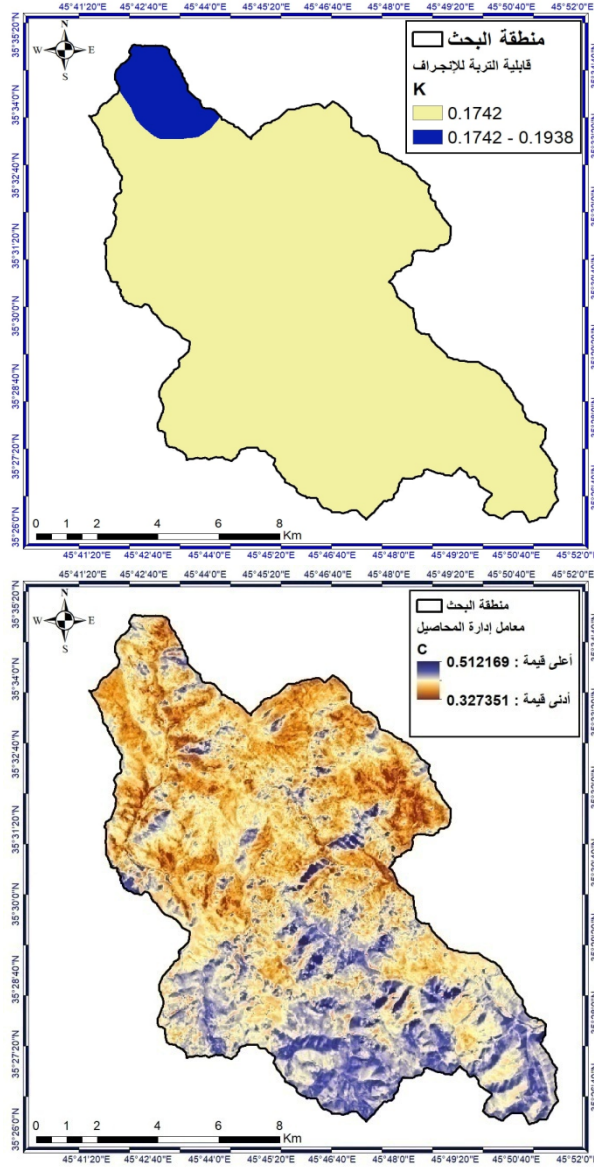
تم تقدير هذا العامل Factor C بناء على ظروف الغطاء النباتي وكثافة المزروعات بالإضافة إلى العمليات الزراعية، كالتسميد والرعي والحرق وأسلوب الزراعة و ديمومة المحصول، والطرق المتبعة في التخلص من الأعشاب الضارة ونوع بقايا النباتات المتروكة على سطح التربة وكميتها (R Roslee and sharir, 2019, P. 7). ويظهر أن هذا المعامل يزداد كلما اتجهنا جنوبا نحو مصب الحوض حيث يقل عامل الغطاء النباتي (NDVI) (خريطة 13).

5- معامل الحفاظ على التربة (P) Conservation support practice factor

هذا العامل يوضح مدى خسارة التربة نتيجة التقليل من استخدام الممارسات الزراعية من حراثة كنتورية، أو زراعة المدرجات وغيرها، وبالتالي لا يسهم إلا في نسبة قليلة من زراعة المحمية، وقد اشتق هذا العامل من خرائط استعمالات الأراضي ونسب الانحدار، وتتراوح القيم بين (0-1) كلما اقتربت القيمة من 1 دل على سوء هذه الممارسات وتأثيرها أكبر في المنطقة (N. Efthimiou, E. Lykoudi, C. Karavitis, 2014, P. 27) والخريطة (14) يوضح التوزيع المكاني للعامل (P) حيث تراوحت قيم هذا العامل ما بين (0.1 - 0.9).

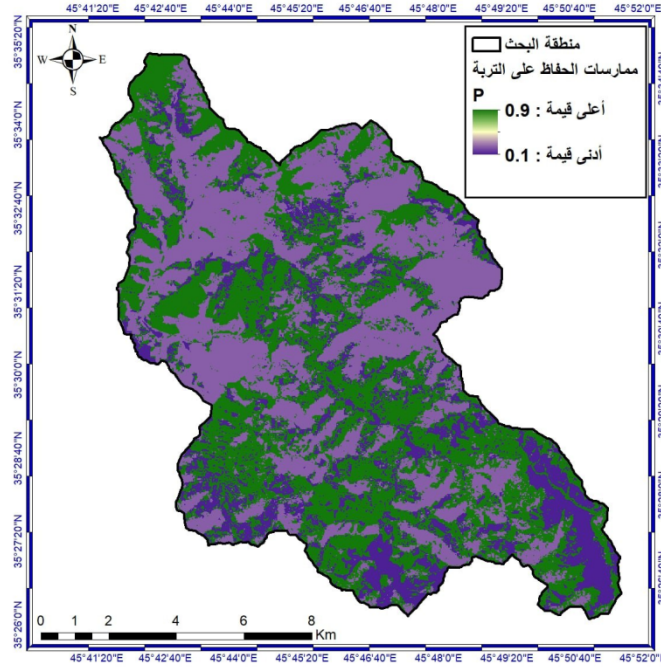
K خريطة (12) قابلية التربة للانجراف

C خريطة (13) معامل إدارة المحاصيل



المصدر : باعتماد معادلتى قابلية التربة للانجراف (K) وما عمل إدارة المحاصيل (C) وبيانات خرائط 8 و(10) واستخدام برنامج نظم المعلومات الجغرافية (Arcgis,10.8).

P(خريطة (14) ممارسات الحفاظ على التربة)



المصدر : باعتماد معادلة ممارسات الحفاظ على التربة (P) وبيانات خريطة (9) واستخدام برنامج نظم المعلومات الجغرافية (Arcgis,10.8).

رابعاً : مناقشة النتائج:

- 1- هناك تنوع في تضاريس منطقة البحث ناتجة عن اختلاف خصائصها الجيولوجية، وهو ما أثر في زيادة حدة عمليات التعرية المائية في حث الأشكال الأرضية فيه ونقلها وترسيبها.
- 2- سلط البحث الضوء على متغيرات بشرية لها دور كبير في تقدير انجراف التربة.
- 3- باستخدام نموذج المعادلة العالمية لتقدير انجراف التربة **RUSLE**:

Revised Universal Soil Loss Equation

وجد أن حوض وادي كلايني يتعرض للانجراف في مساحات متفرقة منه وفي بعض الأجزاء وصل قيمة المعدل السنوي لفقد التربة (طن/ هكتار/ سنة). ضمن التصنيف الشديد جداً وقد تم تصنيفها إلى ثلاث أصناف الأكثر من (100) شديد جداً والأقل من (100) هو الأقل خطورة؛ إذ بلغ قيمة معامل (A) لها نحو (129.160 طن / هكتار/ سنة). ونسبة (93.43%) وبعد هذا اشتقت خارطة انجراف التربة بعد عمل

مطابقة لطبقات العوامل الخمس سابقة الذكر، وتحويلها إلى الشكل الشبكي (Raster) وتم حساب وعمل نمذجة للعوامل واستخلاص خارطة انجراف التربة باستخدام نموذج (RUSLE) خريطة (15) جدول (2).

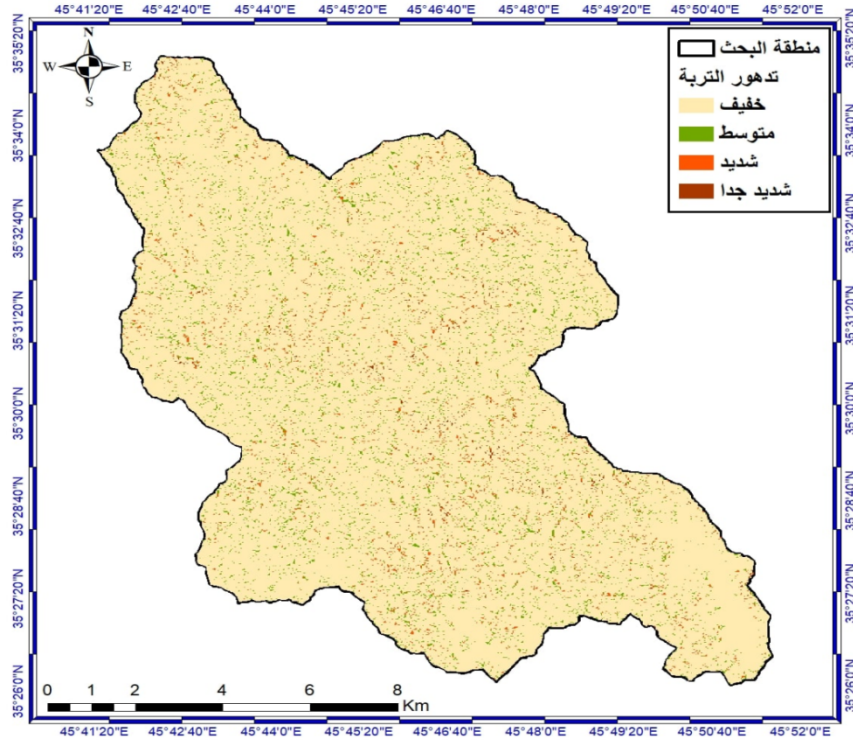
4- برزت هذه المعادلة الدور الرئيس لعامل المطر في انجراف التربة وحددت دور المتغيرات البشرية والطبيعة ومدى فاعليتها في زيادة نشاط عملية التعرية أو الحد من انجراف التربة. تم قياس متغيرات الدراسة باستخدام وسائل الاستشعار عن بعد، مثل الصور الجوية والفضائية، والخرائط الموضوعية مثل الخريطة الجيولوجية، وخريطة التربة وخريطة الطبوغرافيا.

جدول (2) تدهور وانجراف التربة في منطقة الدراسة

الموقع	المساحة	النسبة %
1	129.16	93.43
2	5.91	4.27
3	2.74	1.96
4	0.42	0.30
المجموع	139	%100

المصدر: بالاعتماد على معادلة (A) وبرنامج Arc map 10.3

(15) خريطة (تدهور التربة حسب نموذج)



المصدر : باعتماد بيانات خرائط (11 , 12 , 13 , 14) وبرنامج نظم المعلومات الجغرافية (Arcgis,10.8).

التوصيات:

- 1- يجب الأخذ بعين الاعتبار طبيعة العمليات الجيومورفولوجية، خاصة المائية والأخطار المرتبة عليها، عند تخطيط استعمالات الأرض في الحوض .
- 2- تتعرض منطقة الدراسة لانجراف تربة شديد إلى شديد جداً في بعض أجزاء منطقة البحث وبحوالي (129.160 طن / هكتار/ سنة) هذا ما يتعرض للعديد من الأخطار البيئية المختلفة من مثل الانزلاقات الأرضية، وهذا من المحددات الرئيسة أمام عدة استعمالات في تلك الأجزاء من منطقة البحث، مثل الاستعمال السكني أو أي استعمال آخر أو مد الطرق على متخذي القرار من المخططين أخذها بعين الاعتبار .
- 3- النظر في العوامل المؤثرة في انجراف التربة، خاصة عامل الغطاء النباتي والإدارة البيئية اللذين كان لهما أثر واضح في زيادة حدة انجراف التربة في الحوض، يدفعنا للتوصية بضرورة الاهتمام بهذا العامل وتعزيز دور الإدارة البيئية.

المصادر والمراجع:

(1) العزاوي، ثائر مظهر فهمي، (2008)، مدخل الى نظم المعلومات الجغرافية وبياناتها، دار الحامد، عمان.

- 1) Ganasri. B.P., Ramesh. (2015), H, Assessment of soil erosion by RUSLE model using remote sensing and GIS - A case study of Nethravathi Basin, Science Direct, Available online 1 December, Vol.no.
- 2) N. Efthimiou ,E. Lykoudi, C. Karavitis,(2014), soil erosion analysis using RUSLE and GIS European Geosciences Union General Assembly.
- 3) R Roslee and sharir(2019), soil erosion analysis using RUSLE Model at the Minitod Area penampang , sabah, Malaysia, Journal of Physics, Science and Technology.
- 4) Strahler .A.N(1957), Quantitative Analysis of watershed Geomorphology Transactions, American Geophysical union.vol . 38.No,6.
- 5) Yi-Hsin Liu 1, Dong-Huang Li 1, Walter Chen 1,*(2018), Bor-Shiun Lin 2, Uma Seeboonruang 3 and Fuan Tsai, Soil Erosion Modeling and Comparison Using Slope Units and Grid Cells in Shihmen Reservoir Watershed in Northern Taiwan, National Central University.

الكتاب العلمي المحكم



الناشر:

Centre Al-isbaah

pour l'éducation et les études civilisationnelles et stratégiques

RÉS HAUTS DE L'HIPPODROME

RUE DES TREYTINS

33320 EYSINES

FRANCE

alisbaahcenter@gmail.com

<https://www.al-isbaahcenter.com/>

fixe: 0951700220

Télé: 0033-611094381



دار الفجر للنشر والتوزيع

4 شارع هاشم الأشقر - النهضة الجديدة - القاهرة

تلفون: 26246252 فاكس: 26246265

www.daralfajar.com info@daralfajr.com